جون دوجلاس
مارك أولشاكر

NETFLIX
يعرض الآن
على نتفليكس

مكتبة

MINDHUNTER

صائد الأفكار

عصير الكتب

مكتبة | 1153
t.me/soramnqraa

صائد الأفكار

عصير الكتب

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Mindhunter: Inside the FBI's Elite Serial Crime Unit
- العنوان العربي: صائد الأفكار: داخل نخبة وحدة الجرائم التسلسلية لمكتب التحقيقات الفيدرالي
- طُبِع بواسطة: Gallery Books. An Imprint of Simon & Schuster, Inc.
- طُبِع بواسطة: جاليري بوكس، التابعة لشركة سايمون آند شوستر محدودة المسؤولية
- حُقوق النشر: 2017، جاليري بوكس
copyright © 2017 by Gallery Books
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: فادي الطويل
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مايو / 2022م
- رقم الإيداع: 2021/25919م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-83-1

8 5 2023
مكتبة
t.me/soramnqraa

جون دوجلاس
مارك أولشاكر

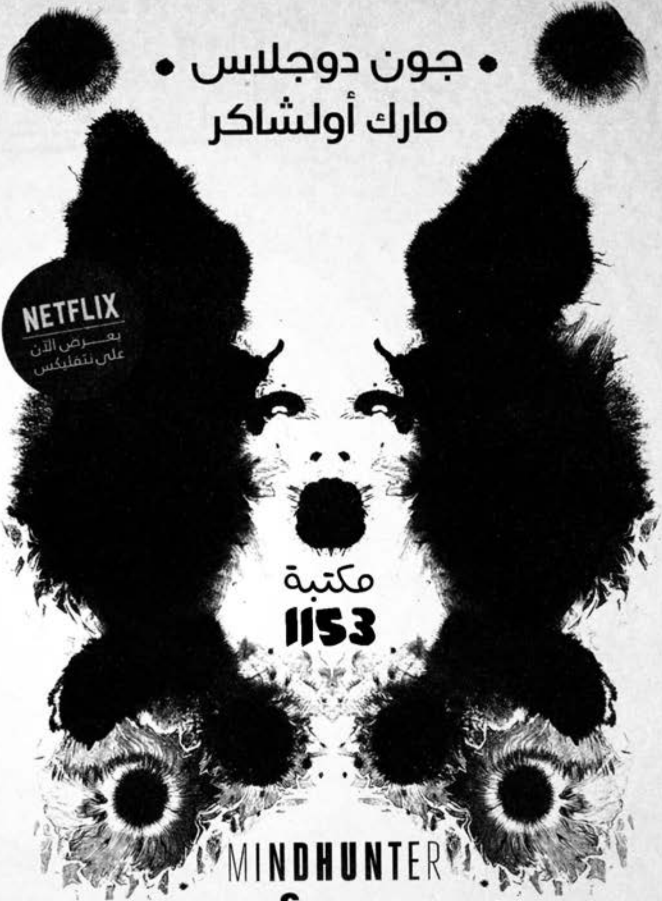

مكتبة
1153

MINDHUNTER

صائد الأفكار

ترجمة: فادي الطويل

عصير الكتب

إلى الرجال والنساء في وحدات دعم التحقيقات
وعلوم السلوك في إف بي آي، كوانتيكو، فيرجينيا،
في الماضي والحاضر -زملائي المستكشفين،
شركاء الرحلة.

ما من إثم إلا وسيبدو، مهما احتُجِب

ولو غمرته الدنيا بأجمعها عن أعين الناس.

- وليم شكسبير.

هاملت.

المحتويات

بعد عشرين سنة 11

استهلال.. لا بدَّ أنني في الجحيم 27

1 - داخل عقل قاتل 39

2 - كان اسم عائلة والدتي هولمز 53

3 - المراهنة على قطرتي مطر 71

4 - بين عالمين 87

5 - علوم سلوكية أم BS؟ 107

6 - العرض على الطريق 121

7 - قلب الظلام 145

8 - القاتل لديه إعاقة كلامية 171

9 - تبادل الأدوار 193

10 - لكل شخص صخرة 207

11 - أتـالانـتـــا 223

12 - واحد منا 251

13 - اللعبة الأكثر خطورة 265

14 - من قتل الفتاة الأمريكية النموذجية؟ 287

15 - إيذاء من نحب 309

16 - «يريدك الرب أن تنضمي إلى شاري فاي» 323

17 - يمكن لأي شخص أن يكون ضحية 345

18 - معركة الأطباء النفسيين 365

19 - في بعض الأحيان يفوز التنين 389

شكر وتقدير 408

بعد عشرين سنة

مكتبة
t.me/soramnqraa

جون دوجلاس ومارك أولشاكر.

تغير الكثير في السنوات، التي تزيد على العشرين، منذ أن كتبنا «صائد الأفكار: داخل وحدة النخبة لجرائم القتل التسلسلية في جهاز المخابرات الفيدرالية إف بي آي»؛ أول كتبنا سوية. لكن الكثير أيضًا قد بقي على حاله.

فقدنا أصدقاء وزملاء مقربين ذكرناهم في هذه الصفحات: روبرت ريسلر، شريك جون الأصلي في متابعة القتلة المتسلسلين وشريك في وضع التحليلات التنميطية، روي هازلوود، خبير الجرائم الجنسية في المكتب وأحد أبرز العلامات في كوانتيكو، وكين بايكر، عميل الخدمة السرية المخضرم الذي عمل مع جون في وحدة دعم التحقيقات -ISU- وساهم كثيرًا في فهم شخصية القاتل. كما أن أهلنا رحلوا أيضًا خلال هذه السنوات، لذلك فإننا الآن «الجيل الأقدم».

وعلى ذكر ذلك، فقد ظهر جيلٌ جديدٌ من محللي الـ FB- لم يعودوا «مدفونين» في مكاتب تقع على عمق ستين قدمًا تحت الأرض (أعمق بعشر مرات من الموتى، كما كنا نردد) وإنما يعملون في US Route1 من قاعدة كوربس البحرية في كوانتيكو في بناء مكاتب حكومية. باتت تُعرَف مجموعة المحللين الآن بـ: وحدة التحليل السلوكي – BAU. وكما هو الحال في ممارسة الطب، يبقى تحليل الأنماط الشخصية في المنطقة التي تقع بين العلم والفن. وكما عند الأطباء، فإن بعض المحللين أفضل وأكثر خبرة من الآخرين. في السنوات التي مرت منذ نشر «صائد الأفكار» للمرة الأولى، امتلأ التلفاز والإنترنت برجال ونساء يسمُّون أنفسهم محللين ممن لا يمتلكون المؤهلات الواضحة أو الخبرة العملية، وهم يتسببون في الغالب بالضرر أكثر مما يتسببون بالنفع. وقد شهدنا عددًا من القضايا التي أخطأ محللون ذوو تدريب أكاديمي في تأويل الأدلة وتسببوا في إرسال إستراتيجية التحقيق أو الدفاع في اتجاه خاطئ كليًا. ومما لا بد منه أن نذكر أن باستطاعة المحلل

الموهوب وصاحب الخبرة الذي يعمل بالتعاون مع وكالة تطبيق قانون محلية محترفة أن يحقق نتائج تؤدي في الغالب لاعتقال أسرع ومحاكمة أكثر نجاحًا.

اعتُقِل الكثير من المشتبَه بهم المتورطين في القضايا التي قمنا بتغطيتها، وسنناقش لاحقًا تفاصيل اعتقال يونابومبر – Unabomber، قاتل جرين ريفر، وبي تي كيه (قيِّد، عذِّب، اقتُل) BTK. أُعدِم لاري جين بيل بسبب قتله المروع للشابة ذات السبعة عشر عامًا شاري فاي سميث والفتاة ذات التسعة أعوام ديبرا ماي هيلميك. أما القتلة المدفوعون بالشهوة، جيروم برودوس، وجوزف كريستوفر، وآرثر شاوكروس، إلى جانب جيمس إيرل راي قاتل مارتن لوثر كينج جونيور، فقد ماتوا جميعًا في السجن. أما القتلة المحتملون، جون هينكلي جونيور وآرثر بريمر فقد أُطلِق سراحهما من السجن. أما قاتل «جانب الطريق – ترايل سايد» في كاليفورنيا ديفيد كاربنتر والغول الأعظم تشارلز مانسون، فكلٌّ منهما في عقده الثامن وما يزالان خلف القضبان في وقت كتابة هذه السطور[1]. وجو دل كامبو، وريك جون في إف بي آي في (حل) الجرائم من أيام عميل الشارع في ميلووكي، والذي برز مؤخرًا في أحد مواسم مسلسل تلفزيون الواقع *«الناجي» – Survivor*. لا يمكنك أن تعرف ما باستطاعة رجل المباحث الأمريكي أن يفعل.

إن أي كاتب سيشعر بالغبطة لوجود كتابه منشورًا ومتداولًا ومباعًا لأكثر من عشرين سنة، ونحن نشعر بهذا بالتأكيد. لقد كان رد فعل القراء مدهِشًا بحق، ومصدر فخر ورضا كبيرَين لكل منا ولعائلته. نحب أن نفكر بأن نجاح «صائد الأفكار» المستمر والكتب اللاحقة له التي صدرت بناء عليه، والمسلسلات التلفزيونية والأفلام التي أقرَّ صانعوها بامتنانهم لعملنا، وحاليًّا السلسلة الدرامية التي أنتجتها «نتفليكس- Netflix» والمقتبَسة من كتابنا «صائد الأفكار»، هذا كله له ما يربطه بالألغاز المحيرة وقصص الحياة والموت التي رويناها. وعلى الرغم من أن العلم، التقنية وتقنيات تحقيق معينة، قد خطا خطوات عريضة ومهمة للأمام في العقدين الماضيين، فإن أساسيات العقل البشري ودوافعه قد بقيت على حالها، وأغلب الظن أنها ستبقى.

---

(1) توفي تشارلز مانسون عن ثلاثة وثمانين عامًا، في سجنه في 19 نوفمبر، 2017 (المترجم).

نُسأل باستمرار لماذا تبدو الجريمة الحقيقية مقنعة هكذا للقراء والمشاهدين، بالنظر إلى موضوعاتها المريعة ونهاياتها المأسوية. الجواب، حسب اعتقادنا، أنه، في طبيعتها العميقة، تتعامل الجرائم مع جوهر وأساسيات ما نسميه، بشيء من التعالي أحيانًا، «الوضع البشري». ونحن نعني بهذا الغرائز والمشاعر التي نحس بها جميعًا: الحب، والكراهية، والغيرة، والثأر، والطموح، والرغبة، والبهجة والحزن، والرعب، وخيبة الأمل واليأس، ومشاعر العظمة والاستحقاق الشخصي التي غالبًا ما تكون مصاحبة للمعايير المساوية للعجز الكامن عميقًا وبُغض الذات. تمثل سرديات الجرائم الحقيقية الوضع البشري في حالته الكبيرة الجلية: أشخاص عاديون يعملون على المستويات الحدِّية المريعة لتلك الغرائز والعواطف. وضمن هذا السياق، فإن كل لغز نرتبط به، وكل قصة نسردها، وكل حصيلة نتوصل إليها تصبح مسرحية أخلاقية متكاملة الأركان وقائمة بذاتها، متكاملة بأبطالها؛ أشرارها وضحاياها.

بعد تقاعده، كلما قَبل جون قضية استشارية، سواء كان يعمل إلى جانب الادعاء أو الدفاع، وسواء كان مستشارًا بعمل مدفوع أم عمل تطوعي، فإن خط معاييره هو «يمكنك أن توظفني لكن الجهة التي أعمل لصالحها هي الضحية». تلك هي دائمًا مسؤوليتنا الأولى.

الآن دعونا نلقي نظرة موجَزة على بعض القضايا التي لم تُغلَق منذ نشر «صائد الأفكار» للمرة الأولى.

كانت القضية الأعمق والأشد قسوة بالنسبة إلينا، لأنها كادت تودي بحياة جون، هي قضية قاتل جرين ريفر في ولاية واشنطن. كل شيء معروف؛ اعترف جاري ليون ريدجواي بارتكابه جرائم قتل لثمان وأربعين امرأة وأقرَّ لاحقًا بقتل إحدى وسبعين امرأة على الأقل كنَّ معظمهن من الهاربات، عاهرات، ناهيك بالضحايا الضعيفات -على طول ما يسمى بـ قطاع سي-تاك Sea Tac على طريق الباسيفيك السريع.

كان التحليل التنميطي المبدئي للـ UNSUB -المشتبه به مجهول الهوية واضحًا نسبيًا:

عامل وحيد، قد يكون سائق شاحنة لمسافات طويلة، يمكنه بسهولة التقاط مسافرين من الطريق، وكانت لديه حجرة خاصة أمكنه فيها أن يخنق ضحاياه وأن يتخلص بعد ذلك من أجسادهم في أخدود جرين ريفر أو أي

مكان آخر على امتداد طريقه. لكن التحذير الذي أدلى به جون ورفاقه من إف بي آي لوحدة إنفاذ القانون هو أن ملف الصفات الشخصية لم يكن العامل الأهم، وإنما السلوك الحاصل فيما بعد ارتكاب الهجوم. فقد كان ذلك شخصًا قادرًا على أن يدرج نفسه في عمليات التحقيق ثم يقفل عائدًا إلى مواقع جريمته و/أو مواقع التخلص من أجساد ضحاياه كيما يمارس خيالاته المريضة مع أولئك النسوة.

ولأن الفحص كان شاملًا، فقد أحسَّ جون بأن سيكون ثمة فرصة جيدة لأن يتم الإمساك بـالـ UNSUB -المشتبه به مجهول الهوية، وستتم مقابلته في مرحلة ما لا سيما إن حدث وطابق المواصفات الموجودة في الملف التعريفي. ستكون لديه في الغالب علاقة حب-كراهية تجاه المومسات والبغايا وسيشعر بالتالي بواجب أن «يعاقبهن». لذلك السبب، نصح جون ألا يتم الاعتماد كثيرًا على اختبارات كشف الكذب كطريقة لاستبعاد المشتبه بهم. ناهيك بأن مؤشرات الكذب لا تعدُّ موثوقية بشكل قاطع، مما يجعل نتائجها، لهذا السبب، لا تعدُّ، إلا نادرًا، دليلًا خلال المحاكمات، إذ بينما تعمل بشكل ممتاز على الأشخاص الطبيعيين، فإن الكذب على صندوق معدني بأسلاك خارجة منه ليس بالأمر الجلل بالنسبة إلى مختلٍّ اجتماعي.

اعتُقل جاري ريدجواي في 30 نوفمبر 2001 بينما كان يغادر مصنع شاحنات كنوورث في رِنتن، واشنطن، حيث كان يعمل دهان رشٍّ. بعد اتهامه باجتذاب المومسات، ارتبط لاحقًا بأربع من ضحاياه عبر تحليل الحمض النووي DNA، مما يكشف قيمة العلم المستخدَم حديثًا. لقد سبق لسائق الشاحنة أن اعتُقل عام 1982 بسبب تهم تتعلق بالدعارة وأصبح عام 1983 مشتبهًا به في قضية جرين ريفر. أجرى اختبار جهاز كشف الكذب واجتازه بنجاح، مما استبعده من دائرة الشبهات لدى الشرطة. أظهر التحليل اللاحق للاختبار أنه قد لا يكون ربما مطبَّقًا بشكل سليم تمامًا (ما أدرانا!).

نظرت السلطات في شأنه مجددًا عام 1987، وهو أمر غير معتاد في قضية استمرت لوقت طويل دون حل، وفي تلك المرحلة أخذوا منه عينات للشعر واللعاب. بعد أربع وعشرين سنة، كان ذلك التحليل اللاحق للحمض النووي DNA لتلك العينات الموجودة في الملف هو ما أدى في النهاية لحل القضية. في 2003، أُدينَ ريدجواي بتسع وأربعين تهمة بجريمة القتل العمد من الدرجة الأولى، وأُلحقت تهمة إضافية كجزء من صفقة تسوية الحكم.

ونال بدلًا منها أحكامًا بالسجن المؤبد دون وجود إمكانية الإفراج المشروط بدلًا من الإعدام.

وفي ظل هذا الإدراك المتأخر، كانت النقطة الأساسية التي أخطأ فيها التحليل التنميطي هي توقع أن يكون الـ «مشتبه به مجهول الهوية» عازبًا. لكن الحقيقة أن ريدجواي قد تزوج ثلاث مرات وكان له العديد من الصديقات الحميمات تحدثن كلهن عن سلوكه الجنسي الشبق. شارك في البحرية خلال حرب فيتنام، وأقام الكثير من العلاقات مع بغايا هناك، وقد يكون لهذا دورٌ في شعوره لأنه مكلف بمعاقبة المومسات، نوع من الحدث المسبب غير الغريب عن هذا النوع من القتلة المتسلسلين.

على مر السنين، ومع تراكم المزيد من المعلومات المجمَّعة، لم يمتلك المحللون السرعة التي تتيح لهم التوصل سريعًا إلى أنه ليس بالضرورة أن يكون القاتل المتسلسل كثير الجرائم -حتى ذلك الذي يقضي وقتًا طويلًا على الطرقات- عازبًا أو غير مرتبط بعلاقة. في الفصل الثالث عشر (اللعبة الأكثر خطورة) ستقابلون الخبَّاز الألاسكي روبرت هانسن، الذي تمكن من إبقاء حياته الزوجية منفصلة بالكامل عن شغفه بالتقاط المومسات ونقلهن بطائرته الخاصة إلى البرية، ثم اصطيادهن كالحيوانات.

أما السفاح الذي عرَّف عن نفسه بـ قاتل بي تي كيه BTK (قيِّد، عذِّب، اقتُل) في ويتشيتا، كانساس، دينس رادر، فقد كان بدوره صيادًا من نوع خاص، إذ إنه تتبع فرائسه في منازلهم، متباهيًا بقدرته الفنية على «تقييد، وتعذيب، وقتل» عائلات بأكملها ورسم صور تفصيلية لمواقع جرائمه. أدرك جون ورفاقه في إف بي آي روي هازلوود ورون والكر أن تلك الصور واللغة التي كان رادر يستخدمها لوصف جرائمه تدل على شخص متمرد أو شرطي سابق، أو حتى، وهذا مرجح جدًّا، شخص يتمنى تطبيق القانون. يطبق القتلة المتسلسلون سلطتهم على ضحاياهم وهم في هذا يميلون للشعور بالغيرة من السلطة التي يرون أن ضباط الشرطة يمتلكونها.

من وجهة النظر التحقيقية، كان الأمر الغريب بشأن قضية بي تي كيه أنه كانت هناك سلسلة من جرائم القتل التي ستتوقف لاحقًا. وعندما يحصل مثل هذا الأمر في العادة، فإننا نفكر بأن ثمة احتمال فرصة جيدة في أن يكون الـ «مشتبه به مجهول الهوية» قد انتقل لمنطقة أخرى، أو لعله سُجِن لارتباطه بجريمة أخرى لا علاقة لها بجرائم القتل المتسلسلة، أو أنه قد مات.

لكن في حالة بي تي كيه، كانت الجرائم تتواصل بعد سنوات من التوقف. قَتَلَ خمسة أشخاص عام 1974، ثم اثنين في 1977، ثم توقف إلى أن ظهرت ضحية واحدة في عام 1985، وأخرى في 1986. وأخيرًا، فقد انتظر لما يزيد على خمس سنوات قبل أن يرتكب جريمة قتل ضحيته الأخيرة في عام 1991. قلة قليلة من هؤلاء، إذا وُجِدَت، كانوا ليروا شر أعمالهم ويقررون مع ذلك المضي قدمًا، لذلك كان لا بد من وجود تفسير آخر. هل كان رادر قادرًا على ضبط نفسه والعيش على أوهام وخيالات جرائمه السابقة لفترات أطول وأطول؟

بدأ العالم يسمع عنه ثانية في عام 2004. كان يتباهى بشأن عمله ويدَّعي أن جريمة سابقة لم يتم ربطها به على نحو قاطع. لم نكن متفاجئين من أن رادر لم يستطع منع نفسه من الوصول إلى وسائل الإعلام، إذ بالنسبة إلى كل هؤلاء القتلة المتسلسلين تقريبًا، جرائمهم هي الجوانب الأكثر أهمية، والأكثر إرضاء و «نجاحًا» في حياتهم. وإذا كان تواصلهم مع السلطات أو وسائل الإعلام هو إحدى علاماتهم المميزة -الجزء الذي يعطيهم الرضا المعنوي- فإنه من غير المرجح أنهم سيتوقفون عنه.

في أواخر عام 2004، وكأنها محاولة لإثبات عبقرية وأصالة بي تي كيه، أرسل الـ «مشتبه به مجهول الهوية» لشرطة ويتشيتا، بالبريد، رخصة قيادة الضحية ودمية لفتاة مقيَّدة اليدين والقدمين وعلى رأسها كيس بلاستيكي- كمثال آخر على «فنه». وفي واحدة من مجموعاته المتزايدة من الرسائل للسلطات، سأل إن كان يمكن تعقبه من خلال مادة على ديسك «فلوبي» ينوي إرساله إلى محطة تلفزيونية محلية. ومن خلال نظام تواصل مرتَّب مسبقًا يتضمن إعلانًا في صحيفة *ويتشيتا إيغل* – ***Wichita Eagle***، سلَّمت الشرطة بأمر أنها لن تستطيع تعقبه.

في 16 فبراير، 2005، تم استلام طرد يزعم أنه من بي تي كيه من قِبَل شركة KSAS التابعة لتلفزيون فوكس -Fox المحلي، احتوى على سلسلة ذهبية، صورة فوتوكوبية لغلاف رواية عن قاتل كان يقيِّد ضحاياه ويكمِّم أفواههم، العديد من بطاقات الفهرسة، كانت إحداها تحتوي على تعليمات بشأن المزيد من التواصل عبر *ويتشيتا إيغل*... وقرص فلوبي ميموركس- Memorex. كانت محتويات القرص مبتذلة بشكل مخيِّب للآمال: لا شيء عن

جرائم القتل، لا شيء سوى ملف بعنوان «هذه تجربة» وتوجيه للشرطة كي يطَّلعوا على بطاقات الفهرسة.

وعلى عكس ما أخبروا به بي تي كيه، كانت شرطة ويتشيتا قادرة على تحليل البيانات الوصفية للقرص؛ الـ«ميتا داتا» (Metadata) -وهو مصطلح لم نكن قد سمعنا به حين كتبنا *صائد الأفكار* للمرة الأولى- واكتشفوا أنه قد استُخدم على جهاز حاسوب تعود ملكيته لكنيسة لوثرية، وكان آخر تعديل من قِبَل شخص اسمه «دينيس». وبعد البحث على الإنترنت تبين من النتائج أن هناك دينيس رادر كرئيس لمجلس الكنيسة. طابقت سيارةُ رادر، جيب شيروكي سوداء، وصفَ العربة التي شوهدت مغادرة المكان حين تم ترك أحد طرود بي تي كيه.

ومن أجل تحديد ما إذا كان هناك ارتباط حمض نووي DNA مع رادر، حصل مكتب المدعي العام للمنطقة على أمر باختبار مسحة عنق الرحم أُخذت لابنة رادر في العيادة الطبية لجامعة ولاية كانساس عندما كانت طالبة. حلل مكتب تحقيقات كانساس العينة وتوصلوا إلى أنها تحمل ارتباط حمض نووي عائلي مع عينة مأخوذة من إحدى ضحايا بي تي كيه. بعد اعتقاله، اعترف دينيس رادر في النهاية، ومثل جاري ريدجواي، أقرَّ بالذنب تجنبًا لعقوبة الإعدام.

تنبأ ملف تنميط الشخصية الأصلي الخاص بـ بي تي كيه من بحث سابق لوحدة العلوم السلوكية في إف بي آي بأن مرتكب جرائم سادية مثل هذه كان على الأرجح أعزب، لكنه (أي البحث) قال أيضًا إنه «إذا كان للـ «مشتبه به مجهول الهوية» صديقة حميمية أو كان متزوجًا، فإننا نتوقع أن تكون المرأة ذات موقف سلبي للغاية، وأن تكون مذعنة و/أو تابعة». وقد اتضح أن هذا سيكون تقييمًا بالغ الدقة.

لم يكن دينيس رادر شرطيًّا، وإنما كان ضابط امتثال تابع لبلدية بارك سيتي، كانساس، شخص يحرص على ألا يكون العشب عندك أطول من اللازم، وأن كلبك منضبط وأن الرصيف أمامك قد تم جرفه بعد تساقط الثلج. كان صارمًا للغاية في إعطاء التوجيهات، حتى إن عائلة اشتكت ذات مرة من أنه قد نفذ القتل الرحيم بكلبهم دون وجود سبب واضح. قبل ذلك العمل، كان في سلاح الجو، ونال شهادة بكالوريوس من جامعة ويتشيتا في إدارة شؤون القضاء، وعمل لصالح شركة تأمين منزلية. هل بدأتم تلاحظون نمطًا ما هنا؟

ليس هذا فحسب، بل إن مجموعة من المقابلات المتتالية في السجن كشفت بأن رادر قد عذَّب حيوانات صغيرة حين كان طفلًا وسرق ملابس داخلية من ضحاياه الإناث. وحال انتهاء المحاكمة وإصدار الحكم، أُتيحت لجون فرصة مقابلة رادر في «سجن إلدورادو الإصلاحي» في إلدورادو، كانساس. كان جون مسكونًا بسؤال، هو: لماذا كان رادر يتوقف عن ارتكاب جرائمه باستمرار ثم يعاود أفعاله الوحشية؟

وبحسب كلام رادر، كان الأمر بسيطًا وبطريقة ما، «إنسانيًا» للغاية. في إحدى الأمسيات، عادت زوجته، باولا، إلى المنزل بشكل غير متوقع ووجدته مرتديًا ملابس نسائية والملابس الداخلية لضحاياه، على الرغم من أن باولا لم تستطع معرفة من أين جاءت حمالة الصدر والسروال الداخلي. كانت مصدومة وتشعر بالقرف. حاول أن يفسر فتيشيته «غير المؤذية» وأنه كان يصارع ذاته الداخلية محاولًا تجاوز ذلك الأمر. هدَّدت بأنها ستتركه في حال تكرر ذلك مرة أخرى.

يصعب الجزم حول ما إذا كان ذلك كافيًا لإعادة النظر في أمره من جديد، لكن رادر أدرك بالتأكيد أنه لو أعطى باولا السبب لتتصل بالشرطة أو أيٍّ كان، فلن يستغرق الأمر طويلًا لربطه هو وتذكاراته بجرائم قتل بي تي كيه.

لفترة من الزمن كان قادرًا على الاكتفاء وإشباع نفسه بخيالاته ورسوماته وتذكاراته، لكن في نهاية الأمر أصبحت النوازع أقوى بكثير، وعاد رادر إلى التسلل للمنازل وترتيب مشاهد التقييد والتعذيب.

ومرة أخرى، ضبطته زوجته مرتديًا ملابس ضحاياه. ولحسن حظه، لم تستطع باولا أن تربط الأمور ببعضها. وبينما لم تكن تطابِق ملفنا التنميطي حول الآخر السلبي والمذعن، فإن باولا اكتسبت الشجاعة الكافية لتحصل على الطلاق بمجرد أن كشفت حقيقة زوجها.

عرف جون أيضًا من إصرار دينيس رادر على اللقب الشعبي، كـ بي تي كيه، أَنه تتبع وأُعجب بالقتلة المتسلسلين الآخرين. اتضح أن رادر كان معجبًا جدًّا بـ هارفي جلاتمان، «قاتل القلوب الوحيدة» في الخمسينيات في لوس أنجلوس، الذي كان يغوي النساء للمجيء إلى شقته أو إلى مكان آخر بوعود زائفة عن عروض العمل كعارضات تصوير فوتوغرافي أو مجلات شعبية، ثم يقيدهن، ويعتدي عليهن جنسيًا، يخنقهن، ويتخلص من أجسادهن في الصحراء. اعتُقل أخيرًا في عام 1958 بعد أن تمكنت إحدى النساء اللواتي

حاول الاعتداء عليهن من النجاة والهرب إلى الشرطة. أُجريت محاكمته، وتمت إدانته وإعدامه في حجرة الغاز في سجن سان كونتن في ولاية كاليفورنيا يوم 18 سبتمبر، 1959.

اقتبس دينيس رادر عن هارفي جلاتمان قوله: «الأمر كله يتعلق بالحبل». ماذا يعني ذلك بالضبط؟ كان الحبل يرمز للسيطرة الكاملة. تتمثل نزوته النهائية في إبقاء هؤلاء الضحايا أحياء والسيطرة عليهن إلى ما لا نهاية، على الرغم من أن كلا الرجلين قد أدرك أن ذلك لم يكن ممكنًا.

كان الفارق بين طول مدة مسيرة جلاتمان ورادر الإجرامية مسألة حظ أكثر من أي شيء آخر، إذ لم يبدُ أن رادر، أو على سبيل المثال، ريدجواي كان يتمتع بقدرات عقلية عظيمة. لقد كانا مهووسَين بجرائمهما فحسب، وكانا محظوظَين بتجنب ربط النقاط لاحقًا. وللمفارقة، على أي حال، أنَّ تراجُع رادر كان مشابهًا لذاك الذي لدى قاتل متسلسل آخر بقيت هويته مجهولة في الوقت الذي نشرنا فيه « *صائد الأفكار*». ربما كان أذكى بدرجة أعلى من القتلة الثلاثة مجتمعين.

في الفصل السابع عشر (أي شخص يمكن أن يكون ضحية) كتبنا عن يونابومبر Unabomber الذي لم نكن قد تعرفنا عليه آنذاك، وهو الذي أرسل سلسلة من الرسائل البريدية المتفجرة المعقَّدة لأكاديميين وأشخاص في قطاع التقنية.

قتل ثلاثًا من ضحاياه وجرح ثلاثًا وعشرين آخرين، حتى إنه أدخل أحد أجهزته إلى عنبر الشحن داخل طائرة ركاب تابعة لشركة الطيران الأمريكية المتوجهة إلى شيكاغو، فقد كان الطرد بدأ يصدر الدخان قبل أن ينفجر، وتمكن قائد الطائرة من الهبوط اضطراريًّا في الوقت المناسب.

وعلى عكس دينيس رادر، فإن يونابومبر Unabomber لم يعطِ لنفسه هوية عامة. لقد جاء الاسم من قضية رئيسة للـ إف بي آي اسمها: يونابوم UNABOM، وهو مشتق من جامعة University ومفجر الطائرات Airline BOMber. وفي ملفه التعريفي كمشتبَه به مجهول الهوية، كان هناك خلاف داخل الـ إف بي آي وقوة المهام المتنامية بين، ما إذا كان في الغالب شخصًا مرتبطًا بالطائرات -ميكانيكي، ربما، يمتلك المهارات الميكانيكية اللازمة لصناعة القنابل- أو الملف التنميطي الذي وضعه جون، ببناء نظري يفترض أنه كان أقرب لأن يكون مرتبطًا بالجامعة، بِعَدِّ أنه بدا بالغ الذكاء والفطنة في

إستراتيجيته ومهارات صناعة القنابل. كما أن المشتبَه به مجهول الهوية قد يضم أدلة كاذبة وأشياء غريبة مثل قطع من الخشب ولحاء الأشجار.

حالما بدأ يونابومبر بإرسال الرسائل إلى نيويورك *تايمز* شاكيًا فيها من تكتيكات الشركات الكبرى وتدهور حال البيئة الناتج عن حوادث مثل التسرب النفطي لـ إكسون فالديز *Exxon Valdez*، *أصبح جون مقتنعًا أكثر بمؤهلاته الأكاديمية بسبب النغمة والأسلوب المتبَعين في كتابته. الشكاوى المحددة واستخدام الخشب في القنابل قاد إلى خلاصة مفادها أنه كان عضوًا في اللوديين (الداعين إلى تحطيم الآلات) الجدد، صاحب أسلوب فردي، وبطلًا مناهضًا للتقنية.*

أخيرًا، بعد سنوات من التفجيرات المتقطعة، أرسل يونابومبر إنذارًا نهائيًّا إلى نيويورك *تايمز*. قال إنه سيوقف نشاطاته في حال نشرت الـ *تايمز* والـ *واشنطن بوست* «البيان» الذي وضعه عن التقنية، وإلا فإنه سيواصل. كان هناك جدل كبير وقلق عميق بشأن هذا المطلب -في كلتا المنظومتين الصحفية والقانونية، وفيما بينهما. كان قلق إدارتي الـ *تايمز* والـ *بوست* نابعًا من السابقة التي سيؤسسها هذا الفعل.

هل يمكن أن تؤخَذ الصحف الآن رهينة من أي معتوه خطير أراد لأفكاره أن تُسمَع؟ أما الوسط المختص بتطبيق القانون فقد كان قلقًا بالقدر نفسه، كما هو حاله دائمًا، بشأن تشجيع المقلدين والتسليم بمطالب القاتل.

في وحدة دعم التحقيقات في كوانتيكو، كانت الآراء أكثر وضوحًا: غالبًا ما يكون الناس هم أفضل وأهم شريك لنا. وعندما تستنفذ جميع الخيوط المنطقية والاستنتاجية، أعطِ المواطنين العاديين فرصة للمساعدة في حل القضية.

تجاوبت المدعي العام جانيت رينو مع توصية وحدة دعم التحقيقات. لقد نجحت هذه العقلية جيدًا في الماضي. وكما سترون بمزيد من التفصيل لاحقًا، فإن *صائد الأفكار* يؤرخ للعميلة الخاصة والمحللة جانا مونرو، التي خلال محاولتها حل قضية قتل «تامبا باي» الثلاثية، توصلت لفكرة نسخ مجموعة من التوجيهات التي يُعتقد أنها بخط يد المشتبه به مجهول الهوية على لوحات إعلانية. وقاد هذا إلى اعتقال؛ محاكمة وإدانة أوبا تشاندلر، الذي نال عقوبة الإعدام على جرائمه.

لقد أصبحت قضية المفجر «يونابومبر» بالغة الشهرة الآن. بعد موافقة الصحف على نشر مقالته المكوَّنة من 35 ألف كلمة، «المجتمع الصناعي ومستقبله»، في أقسام خاصة، أثار ذلك انتباه سيدة تُدعى ليندا باتريك التي أقنعت زوجها؛ مستشار الشباب/الاختصاصي الاجتماعي ديفيد كازينسكي، بأن الكتابة تشبه بشكل مثير للقلق أفكارًا كان قد عبَّر عنها أخوه الأكبر سنًّا، تيد، الذي كانت تشتبه به. كان ثيودور «تيد» كازينسكي متدربًا حاصلًا على شهادة دكتوراه في الرياضيات من جامعة هارفارد وجامعة ميشيغان، وقد عاش لعقود في غابات مونتانا البعيدة مثل ناسِك في كوخ صغير دون توصيلات كهرباء أو ماء.

تحدث مارك مع ديفيد كازينسكي بشأن المعاناة الأخلاقية التي مر بها هو وليندا خلال قرارهما تسليم أخيه. قبل التعرف على أخيه، أبرم ديفيد صفقة دقيقة مع السلطات تقضي بألا يتم إعدام تيد بسبب جرائمه.

على الرغم من أن كلينا يفضل عقوبة الموت لجرائم محددة تتعلق بالقتلة المتسلسلين والسفاحين، لا يمكننا لوم ديفيد وليندا على قراراتهما وأفعالهما، التي كانت بطولية بحق. يقضي تيد حاليًّا عددًا من أحكام السجن في سجن «سوبرماكس» الفيدرالي في فلورينس، كولورادو.

هل كانت إستراتيجية أسلوب «البيان» لـ أوبا تشاندلر أو يونابومبر لتنجح في تحديد وإيقاف قاتل بي تي كيه سابقًا؟ لن نعرف أبدًا، لكننا نعتقد بأن هناك فرصة سانحة جدًّا لأن تنجح. حتى على الرغم من أن جرائمهما كانت مختلفة كليًّا، كان الشيء الذي تشارك فيه العبقري الشرير تيد كازينسكي والسادي لكن التافه عديم الإنجازات دينيس رادر، كان إحساسهما الهائل بالغرور. لم يكن أحدهما ليتحمل ألا يتعرف العامة على هذا التألق، وهذا بالضبط ما سيؤدي للسقوط في كلتا الحالتين.

من السهل أن تتكهن، ومن الأمور التي تتعلمها في هذا المجال أن كل قضية تبدو واضحة بمجرد حلها. من المفهوم أن يتردد محققو الشرطة بشأن الإدلاء بتفاصيل لا أحد يعرفها باستثناء الجاني. لكن لو أن شرطة ويتشيتا قد نشرت بعض رسومات بي تي كيه، وأوصاف أماكن الجرائم والاتصالات الأخرى، لكان من المحتمل كثيرًا أن أحدًا ما داخل مكان عمل دينيس رادر، في الكنيسة، في دائرته الاجتماعية أو حتى في المنزل سيتعرف على خط يده أو على الأقل سيكون لديه ما يكفي من الاشتباه ليتصل بالسلطات.

منذ أن كتبنا *صائد الأفكار*، تغير شيوع جرائم معينة. كانت الجرائم العنيفة في حالة من التراجع، لكن عدد القتلَة ذوي الدوافع الجنسية بقي نسبيًا على حاله. السبب، كما نعتقد، هو أن هذا النوع من الطب الشرعي الجنائي لا يستجيب للظروف المجتمعية أو تطوير النظام الشرطي كما هو الحال في الجوانب الجنائية الأخرى. في السنوات الستة عشر الماضية أصبحنا مهتمين بالإرهاب المحلي والعالمي، الظاهرة التي كانت قد بدأت عندما أشرنا لتفجير المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي. أصبح إطلاق النار الجماعي ظاهرة شائعة بشكل ينذر بالخطر، على عكس موجة عمليات القتل التي ارتكبها تشارلز ويتمان في عام 1966 من أعلى برج جامعة تكساس.

(على الرغم من أن تشريح جثة ويتمان كشف عن ورم صغير في الدماغ، فإن استشارتنا لأحد أطباء الأعصاب المتمكنين قد أكدت أن موقع الورم لم يكن ليؤثر على المناطق التي تتحكم في هذا النوع من السلوك).

وكما أشرنا سابقًا، فعلى الرغم من أن أنواع الجرائم قد تغيرت، فقد وجدنا أن الدوافع الأساسية ما تزال على حالها.

سواء كنا نتحدث عن مفجر بريد مثل تيد كازينسكي أو تشارلز ويتمان أو أي عدد من قناصي المدارس، أو الشريحة الجديدة من الإرهابيين المتدينين الذين ابتُلي بهم العالم، فإننا نستكشف نفسيات مماثلة، إذ يتبنى هؤلاء الأشخاص العنف الجماعي على أنه تأكيد شخصي، أو بيان سياسي للتعويض عن يأسهم، ومعاناتهم، وفشلهم، و/أو افتقارهم إلى الغاية والهدف. مرة أخرى، قد يكون هذا اليأس الداخلي في صراع دائم مع الإحساس بالعظَمة الشخصية والاستحقاق غير المتحقق، لكن هؤلاء الأفراد جميعًا، دون استثناء، ليسوا سوى نكرات يشعرون بقصور الشخصية يريد كلٌّ منهم تكوين ذاتٍ وكينونة، وأن يجدوا المعنى في حياتهم. قد تكون لديهم الشجاعة الشخصية، إذ إن اختيارهم الموت من أجل قضية، مهما كانت مضللة، ليس قرارًا عرضيًّا، وإنما قد توصلوا إلى أن العنف هو برهانهم الوحيد على قوتهم.

في السنوات التي تلت تقاعد جون من المكتب وبدأ في أخذ القضايا من الخارج، اتسعت وجهة نظره، كما حصل مع مارك، وهو ما انعكس في كتبنا اللاحقة. في وحدة دعم التحقيق، كان بإمكان عملاء أن يعملوا فقط في القضايا المرفوعة إليهم من قِبَل إدارات الشرطة ومكاتب المأمور، وليس

المدعى عليهم. ولكن عندما توسَّع جون، فقد تمكنًا من رؤية الأمور من الجانب الآخر وأدركنا أنه ليست كل التحقيقات الرسمية كاملة أو دقيقة.

ومن هذه الأمثلة حالات قتل عام 1993 لثلاثة أولاد في الثامنة من العمر في أركنساس، منسوبة إلى ما يُسمى «ثلاثي ويست ممفيس – West Memphis Three»؛ القضية التي ما زالت دون حل لحادثة لذبح الفتاة جان بينيت رامزي في يوم عيد الميلاد عام 1996 في بولدر، كولورادو؛ وحادثة مقتل طالبة التبادل البريطانية ذات الواحد وعشرين عامًا ميريديث كيرشر في 2007 في بيروجيا، في إيطاليا، التي أُدينت فيها وحوكِمَت صديقتها الأمريكية أماندا نوكس وصديقها الحميمي الإيطالي رافايلو سوليسيتو، وأظهر ذلك العواقب المريعة الحاصلة حين تنطلق تحقيقات الشرطة من خطوة خاطئة، مدفوعةً بمفاهيم خاطئة وتحيُّزات مسبقة أكثر من التوجه إلى حيث تشير الأدلة. إن عدم الحفاظ المناسب على أماكن وقوع الجريمة والأدلة المادية، بالإضافة إلى تقنيات المقابلات غير الملائمة التي يمكن أن تفضي إلى اعترافات زائفة؛ العلوم والقناعات غير الجادة والاعتماد على مخبرين في السجون يمكن أن تكون لديهم أهدافهم الخاصة التي تحيد عن الحقيقة -يمكن لهذه العوامل كافة أن تساهم في الوصول إلى قناعات مغلوطة.

عندما قمنا مؤخرًا بالتأمل في القضايا المثيرة للاهتمام التي حقق فيها جون والتي حللناها وكتبنا عنها في *صائد الأفكار*، كان علينا أن نواجه بعض أفكارنا وانطباعاتنا التي تمسكنا بها طويلًا. في الفصل السابع (قلب الظلام)، ستقرؤون عن المقابلة التي أجراها جون وبوب ريسلر مع وليم هيرنز في سجن ستايتفيل في كريست هيل، إلينوي، حين كانا يتابعان دراستهما الرئيسية عن القتلة المتسلسلين. كان هيرنز هو «قاتل أحمر الشفاه» سيئ السمعة والشهير في شيكاغو ما بعد الحرب العالمية الثانية، والذي اعترف وأُدين بالعملية الفظيعة لقتل وتقطيع الفتاة سوزان دينان، ذات الأعوام الستة.

بعد المقابلة، كان قد استولى على جون الارتباك من إصرار هيرنز على براءته بحيث، كما كتب: «حين عدنا إلى كوانتيكو، أعدتُ فتح جميع ملفات القضية. بالإضافة إلى الاعترافات والأدلة الدامغة الأخرى، توصلت إلى أن بصمات أصابعه الخفيَّة قد أُزيلَت من موقع جريمة قتل دينان. ومع ذلك فقد قضى هيرنز الكثير من الوقت جالسًا في زنزانته يفكر ويزوِّد نفسه بكل

الإجابات التي قد يحتاج إليها حين يتم تعريضه لفحص الكذب في مرحلة ما، ولعله قد تجاوزه دون أي مشكلات».

توصلنا أخيرًا إلى سبب فعله ذلك، بعد تحليل تفصيلي بعد مرور سنوات من كتابة تلك الكلمات، وكان ذلك لأنه كانت هناك فرصة أكثر من سانحة حتى لأن يكون وليم هيرنز بريئًا.

نعم، لقد ثبت أنه كان شخصًا يرتكب عمليات الكسر والاقتحام خلال وجوده في الكلية ولكنه، على الرغم من امتلاكه سلاحًا ناريًا، لم يعطِ أي انطباع سابق عن كونه رجلًا عنيفًا أو قاتلًا مدفوعًا بالشهوة. لا شك أنه بالتأكيد لم يكن يمثِّل الملف الشخصي الذي كان يمكن أن يتوصل إليه جون لو أنه عمل على القضية الأصلية. بدا أن الشرطة قد فقدت الاهتمام في أفضل مشتبه به توصلوا إليه بمجرد أن اعتقلت هيرنز وكان الناس في حالة من السرور بسبب القبض على قاتل مفزِع.

وبالنظر إلى الخبرة المتراكمة لما يزيد على عقدين من الزمن من خبرة جون في العمل الكامل في مجال التحليل التنميطي وتحليل التحقيقات الجنائية؛ كان لشرطة شيكاغو سمعة واسعة في الثلاثينيات والأربعينيات في القدرة على استخلاص الاعترافات من المشتبَه بهم، ومن ضمنهم وليم هيرنز وشخص أمريكي من أصل إفريقي سبق لهم اعتقاله ضمن تحقيقاتهم ليتكشَّف أنه بريء تمامًا في معرفة كم هو سهل زرع الأدلة وترتيبها؛ وبفهم أن التحليل التنميطي سيكون جيدًا بقدر جودة المعلومات والأدلة المقدَّمة من جهاز تطبيق القانون المحلي، وبهذا فإن احتمالية براءة هيرنز الفعلية تصبح قابلة للتصديق بشكل متزايد. لكن، كما هو شائع للغاية، فإنه لم يكن هناك حل نهائي، فحين تُوفي وليم هيرنز، ذو الثلاثة وثمانين عامًا، والجالس على كرسيه المتحرك، في 5 مارس 2012، في مركز ديكسون الإصلاحي في ديكسون، إلينوي، كان أقدم سجين في الولايات المتحدة الأمريكية.

في حين قد يكون هناك نزوع مؤقت لتعديل أو تحديث نواحٍ معينة في السرد في هذه الطبعة الجديدة من *صائد الأفكار*، إلا أننا كلنا فخر بما كتبناه في أواسط التسعينيات، ونشعر أنه من الأفضل لمصلحة الكتاب أن ننوِّه بتحديث المعلومات للقارئ في هذه المقدمة بدلًا من تغيير أي شيء داخل النص. وبقدر ما يظل العقل البشري والدافع كما هو، فهذا هو حال أساسيات التحقيق الجنائي الجيد. على الرغم من الإيجابيات والمزايا التي

وفَّرَتها التطورات الحاصلة في المجال التقني؛ الحواسيب، الحمض النووي DNA، علم تحليل الدم والأمصال وعلم دراسة الحرائق -وإعادة تقييم الأدوات المعيارية مثل بصمات الأصابع والتحليل الباليستي- فإنه ما يزال لا يوجد بديل للعمل التحقيقي الجنائي المتميز والتحليل الاستقصائي. وهذا يشمل دراسة موقع الجريمة وفحص الأدلة كافة، ودراسة الضحايا، وتمشيط المنطقة وتتبع كل دليل منطقي معقول. تكمن الخلاصة في أنه لن يمكننا أبدًا إخراج العامل البشري من عملية حل الجرائم.

ما كان صحيحًا قبل عشرين عامًا ما يزال صحيحًا اليوم، وسيظل هكذا في المستقبل بقدر ما يمكن لنا أن نتخيل:

السلوك يعكس الشخصية. وأفضل مؤشر على مستقبل العنف هو ماضي هذا العنف. كي تفهم «الفنان»، يجب أن تدرس «فنَّه». يجب أن تقيِّم الجريمة بكليَّتها. لا يوجد بديل للتجربة، وإذا ما أردت أن تفهم العقل الإجرامي، فإن عليك أن تذهب مباشرة إلى المصدر وتتعلم كيف تفك شيفرة ما يخبرك إياه. وقبل أي شيء: لماذا + كيف = مَن.

وها نحن ندعوك الآن مرة أخرى أن تنطلق في البحث معنا.

استهلال

لا بدَّ أنني في الجحيم

لا بدَّ أنني في الجحيم.

كان التفسير المنطقي الوحيد. كنتُ مقيدًا وعاريًا. كان الألم لا يُحتَمَل. ذراعاي وساقاي مزقهم نصلٌ ما. كل فرجة في جسدي قد اختُرِقَت. كنت أختنق وأشرق من شيء ما تحت حنجرتي. كانت هناك أشياء حادة معلَّقة بقضيبي ومستقيمي وشعرت كأنها تمزقني إربًا. كنت غَارقًا في عَرَقي. ثم عرفت ما الذي كان يجري: لقد عُذِّبت حتى الموت من قِبَل جميع القتلة والمغتصبين والمتحرشين بالأطفال الذين قابلتهم في مسيرتي المهنية. والآن بتُّ أنا الضحية ولا يمكنني أن أقاوم.

أعرف الطريقة التي عمل بها هؤلاء الأشخاص؛ لقد رأيتها وشهِدتُها مرة بعد مرة. كانت لديهم حاجة إلى استغلال فريستهم والسيطرة عليها. أرادوا أن يكونوا قادرين على تحديد ما إذا كان على ضحيتهم أن تعيش أم لا، أو الكيفية التي يجب أن تموت بها الضحية. لقد أبقوني حيًّا ما دام جسدي قادرًا على أن يصمد، وكانوا يعيدون إنعاشي حين أفقد الوعي أو أقترب من الموت، متسببين لي بأكبر قدر ممكن من الألم والمعاناة. وبإمكان بعضهم أن يستمر لأيام على هذه الحال. أرادوا أن يُروني أنهم كانوا مسيطرين بالكامل، وأنني كنت كليًّا تحت رحمتهم.

وكلما صرخت أكثر، زاد توسلي للراحة، وكنت بذلك أغذي وأنشط خيالاتهم السوداوية. إذا كنت سأتوسل من أجل حياتي، أو أتراجع، أو أنادي أمي أو أبي، فإن ذلك سيجعلهم يتراجعون حقًّا.

كان هذا هو المردود الذي نلته طوال ست سنوات من الإمساك بأسوأ الرجال على هذه الأرض.

كان نبض قلبي يتسارع، كنت أحترق من الداخل. شعرت بوخزة رهيبة حين رفعوا العصا الحادة إلى أعلى قضيبي. عصف الألم بجسدي كله.

أرجوك يا إلهي، إذا كنت لا أزال حيًّا، فدعني أموت سريعًا. وإذا ما كنت ميتًا، خلصني سريعًا من عذابات جهنم.

ثم حدث أن رأيت ضوءًا أبيض لامعًا وساطعًا، تمامًا كالذي سمعت أن الناس يرونه في لحظة الموت. توقعت أن أرى المسيح أو الملائكة أو الشيطان؛ سمعت عن ذلك أيضًا. لكن كل ما رأيته كان الضوء الأبيض الساطع.

لكنني سمعت صوتًا بشريًّا، صوتًا مريحًا ومطمْئنًا، أكثر صوت مهدئ سمعته في حياتي.

«لا تقلق يا جون. إننا نحاول جعل كل شيء أفضل».

وكان ذلك آخر شيء تذكرته.

«جون، هل تسمعني؟ لا تقلق. هوِّن عليك. أنت في المستشفى. أنت عليلٌ جدًّا، لكننا نحاول أن نجعلك في حال أفضل».

هذا كان ما قالته الممرضة لي. لم تكن لديها فكرة ما إذا كان بإمكاني أن أسمعها أم لا، لكنها واصلت ترديد الكلمات ذاتها، بهدوء، مرة بعد أخرى.

ومع ذلك فلم تكن لدي أي فكرة آنذاك، إذ كنت في وحدة العناية المركزة بالمستشفى السويدي في سياتل، في غيبوبة، أو على جهاز دعم الحياة. كانت ذراعاي وساقاي مضمَّدات بالكامل. أنابيب، وخراطيم، وحقن وريدية اخترقت جسدي. لم يكن متوقَّعًا لي أن أعيش. كان الزمان مطلع شهر ديسمبر 1983، وكنت في الثامنة والثلاثين.

تبدأ الحكاية قبل ذلك بثلاثة أسابيع، في الطرف الآخر من البلاد. كنت في نيويورك، أتحدث عن تحليل أنماط الشخصية الإجرامية أمام جمهور من 350 شخصًا من أفراد شرطة نيويورك، شرطة العبور، أقسام شرطة «ناساو»، «مقاطعة سافولك» و«لونج آيلاند». ألقيت هذا الخطاب مئات المرات وكان باستطاعتي فعل هذا الأمر بطريقة آلية تمامًا.

وبشكل مفاجئ تمامًا، بدأ عقلي يشرد. كنت مدركًا أنني أتحدث، لكنني في الآن ذاته كنت أتصبب عرقًا باردًا وأنا أقول لنفسي: كيف بحق الجحيم سيمكنني التعامل مع كل هذه القضايا؟ كنت أنهي قضية قاتل الأطفال واين وليامز في حوادث قتل الأطفال «22 كاليبر» في أتالانتا وبوفالو.

استُدعيت إلى قضية «قاتل جانب الطريق -ترايل سايد» "Trailside Killer" في سان فرانسيسكو. كنت أتشاور مع «سكوتلاند يارد» بشأن التحقيقات الخاصة بـ «سفاح يوركشاير» في إنجلترا. كنت أنتقل ذهابًا وإيابًا إلى ألاسكا، منشغلًا بالعمل على قضية روبرت هانسن، حيث كان خباز «أنكوراج» يختار البغايا، ويطير بهن إلى البرية، ويطاردهن. كان عندي مفتعِل حرائق متسلسل يستهدف المعابد اليهودية في «هارتفورد»، «كونكتيكت». وكنت مضطرًا للسفر إلى سياتل بعد أسبوعين للمحاضرة بـ قوة إنفاذ القانون في جرين ريفر فيما كان سيشكل لاحقًا إحدى أكبر قضايا القتلة المتسلسلين في تاريخ أمريكا، الذي كان يستهدف البغايا والعابرين في ممر سياتل -تاكوما.

وخلال السنوات الست الماضية، كنت أطوِّر منهجًا جديدًا في تحليل الجرائم، وكنت الوحيد في وحدة العلوم السلوكية ممن يعمل على القضايا بدوام كامل. كان البقية في الوحدة يعملون، بشكل أساسي، مدربين. كنت أتعامل مع قرابة 150 قضية نشطة في الآن ذاته بلا مساعد، كما أنني كنت أقضي في الطريق من مكتبي في أكاديمية إف بي آي في كوانتيكو، فرجينيا، ما مجموعُه قرابة 125 يومًا في السنة. كان الضغط هائلًا من رجال الشرطة المحلية، الذين كانوا بدورهم واقعين تحت ضغط كبير، لحل تلك القضايا، من المجتمع ومن عائلات الضحايا، الذين كنت أكنُّ تجاههم تعاطفًا كبيرًا. واصلتُ وضع أولويات مجال عملي، لكن الطلبات استمرت في التدفق يوميًا. وكثيرًا ما كان زملائي في كوانتيكو يقولون إنني أشبِه رجلًا عاهرًا: لم يكن بمقدوري أن أقول «لا» لعملائي.

في خطابي في نيويورك، تابعت الحديث عن أنماط الشخصية الإجرامية، لكن عقلي كان ما يزال شاردًا بالتفكير فيما هناك في سياتل. أعرف أن ليس جميع أفراد فرقة المهام يريدون وجودي هناك، لكن ذلك كان أمرًا لا بد من حصوله. وكما في كل قضية رئيسية من القضايا التي استُدعيتُ إليها بغية تقديم خدمة جديدة، كان معظم رجال الشركة وموظفي المكتب الفيدرالي يعدُّونها ضربًا من السحر، فقد كان عليَّ أن «أقنعهم» بها. كنت مضطرًا إلى أن أكون مقنِعًا دون أن أبدو متعجرفًا أو مفرِط الثقة. كان عليَّ أن أجعلهم يدركون أنني أعلم أنهم أنجزوا عملًا مهنيًا ودقيقًا فيما أواصل محاولة إقناع

المتشككين بأن مكتب التحقيقات الفيدرالية قد يكون قادرًا على تقديم المساعدة.

وربما كان الجانب الأكثر صعوبة، على عكس عميل إف بي آي التقليدي الذي يتعامل مع «الحقائق فقط، يا سيدتي»، أن عملي قد تطلَّب مني التعامل مع *الأفكار*. لقد عشت مع قناعة ثابتة بأنني إذا كنت على خطأ، فهذا سيؤدي إلى إجراء تحقيقاتي عن القاتل المتسلسل بعيدًا عن جوهر الموضوع، ما سيتسبب بمقتل المزيد من الأشخاص. وبنفس القدر من السوء، فإن هذا سيدمر غطاء البرنامج الجديد الخاص بالتحليل التنميطي للشخصية الإجرامية وتحليل الجرائم الذي كنت أكافح من أجل تحقيقه على أرض الواقع.

ثم كان هناك السفر نفسه، إذ سافرتُ إلى ألاسكا في العديد من المناسبات، عابرًا أربع مناطق زمنية، مرتبطًا برحلات جوية متواصلة ومثيرة قريبة من الماء وتهبط في الظلام، وبخاصة أنني حالما كنت ألتقي رجال الشرطة المحلية، سرعان ما كنت أعود إلى الطائرة وأطير إلى سياتل.

استمرت نوبة الهلع التي أصابتني لقرابة الدقيقة. كنت أقول لنفسي مرارًا: *هاي، دوجلاس، تمالك نفسك. سيطر على نفسك*. وكنت أستطيع فعل ذلك. لا أظن أن أحدًا في تلك الغرفة قد شعر أن هناك خطبًا ما. لكنني لم أستطع التخلص من التفكير بأن شيئًا مأسويًا سيحدث لي.

لم أستطع التخلص من تلك الهواجس، وحين عدت إلى كوانتيكو، توجهت إلى مكتب إدارة الموظفين وطلبت تأمينًا إضافيًّا على الحياة وتأمين ضمان للدخل تحسبًا في حال تعرضي للإعاقة. لا أستطيع الجزم تمامًا بالسبب وراء فعلي ذلك، ما عدا ذلك الشعور الغامض لكن القوي بالرهبة. كنت منهَكًا بدنيًّا؛ كنت أتدرب كثيرًا وأشرب أكثر ربما مما يجب بغيةَ التأقلم مع الضغط. عانيت مشكلات في النوم، وحين كنت أنام، غالبًا ما كنت أستيقظ على هاتف يطلب فيه أحدهم مساعدتي العاجلة. وعندما كنت أريد العودة إلى النوم، كنت أجبر نفسي على أن أحلم بالقضية آملًا أن يقودني ذلك لبعض الأفكار الاستبصارية بشأنها. في عملية الاستعادة، يكون من السهل بما يكفي أن أرى أين كنت أتجه، لكن في ذلك الوقت بدا أنني عاجزٌ عن فعل أي شيء بخصوص ذلك.

وقبل مغادرتي للمطار، دفعني شيء ما للتوقف عند المدرسة الابتدائية التي كانت زوجتي، بام، تدرِّس فيها القراءة للتلاميذ الذين يعانون صعوبات في التعلم، لأخبرها بشأن التأمين الإضافي.

«لماذا تقول لي هذا؟».

سألَت، بقلق بالغ. كنت أشعر بصداع حاد في الجانب الأيمن من رأسي وقالت إن عينيَّ كانتا محمرتين وغريبتَي الشكل.

«لقد أردتُ فقط أن أعلمك بكل شيء قبل أن أذهب».

أجبتها. آنئذ، كان لدينا ابنتان صُغريان. كانت إريكا في الثامنة ولورين في الثالثة. ومن أجل الرحلة إلى سياتل، فقد استقدمت العميلين الخاصين، بلاين مكلواين ورون والكر، لإشراكهما في القضية. وصلنا سياتل تلك الليلة وتوجهنا إلى فندق «هيلتون» في وسط المدينة. في أثناء تفريغ حقيبتي، لاحظت أنه لم يكن معي سوى فردة حذاء واحدة سوداء. لذلك فإما أنني لم أحزم الفردة الأخرى مع الأغراض أو أنني أضعتها بطريقة ما على الطريق. كنت سأقدم عرضًا تقديميًّا لقسم شرطة مقاطعة كينج في الصباح التالي، وقررت أنه لن يمكنني الذهاب دون حذائي الأسود. كنت معروفًا على الدوام بحبي للثياب الأنيقة الباذخة، لكن خلال الإرهاق الذي عشته والضغط الذي كنت أرزح تحته، فقد أصبحت مهووسًا بانتعال حذاء أسود مع بذلتي، لذلك تجوَّلت في شوارع وسط المدينة، وبحثت إلى أن وجدت متجر أحذية مفتوحًا. في الصباح التالي، يوم الأربعاء، قدمت عرضي أمام أفراد الشرطة وفريق يضم ممثلين من ميناء سياتل وعالمَي نفس محليين استُقدِما للمساعدة في التحقيقات. أبدى الجميع اهتمامهم بتحليلي التنميطي لشخصية القاتل، وفيما إن كان محتملًا وجود أكثر من مجرم واحد، وأي نوع من الأفراد سيكون، أو يكونون. حاولت أن أتجاوز النقطة التي مفادها أنه في هذا النمط من الجرائم، فإن التحليلي التنميطي لن يكون على ذلك القدر من الأهمية. كنت واثقًا من النوعية التي سيتضح لنا أن القاتل ينتمي إليها، لكن ذلك بقدر يقيني من أن هناك الكثير من الأفراد الذين سينطبق الوصف عليهم بسهولة. أما أهم ما في هذه الحلقة من جرائم القتل، كما أخبرتهم، كان البدء في اتخاذ خطوات *استباقية*، باستخدام الضباط ووسائل الإعلام لمحاولة إغراء الرجل للوقوع في الفخ.

اقترحت، على سبيل المثال، أن تنظم الشرطة عددًا من اللقاءات المجتمعية لـ «مناقشة» الجرائم. كنت واثقًا إلى حد ما بأن القاتل سيظهر في واحدٍ أو أكثر من هذه اللقاءات. كما فكرت أيضًا بأن هذا قد يجيبنا عن سؤال ما إذا كنا نتعامل مع أكثر من مجرم واحد. ومن الحيل التي أردت أن تجربها الشرطة هي أن تعلن للصحافة أن هناك شاهدًا على إحدى عمليات الخطف.

لقد شعرت أن هذا قد يدفع القاتل لاتخاذ «إستراتيجيته الاستباقية» والتقدم ليوضح لماذا قد يكون شوهد بشكل بريء في الجوار. لكن الأمر الذي كنت في غاية الثقة بشأنه أنه أيًا من كان خلف حوادث القتل تلك فإنه لن يُستنزَف.

ثم قدمت المشورة للفريق بشأن كيفية استجواب المتهمين المحتملين، سواء أولئك الذين توصلوا إليهم بنفسهم أو المهووسون التعساء الكثر الذين كانوا بشكل حتمي مطابقين لقضية من هذا المستوى الكبير. قضينا -مكيلواين والكر وأنا- بقية اليوم نزور مواقع التخلص من الجثث، وعندما عدنا إلى الفندق في ذلك المساء، كنت في غاية الإنهاك.

مع الكؤوس الزائدة في حانة الفندق، حيث كنا نحاول التخلص من تعب اليوم، أخبرت بلاين ورون أنني لم أكن على ما يرام. كان الصداع ما يزال ملازمًا لي، وظننت أنه قد يكون بسبب الإنفلونزا، وطلبت منهم التغطية علي في لقاء الشرطة في اليوم التالي. اعتقدت أنني سأتحسن إذا قضيت اليوم في الفراش، لذلك حين قلنا لبعضنا «ليلة سعيدة»، وضعت لافتة «يُرجى عدم الإزعاج» على باب غرفتي وأخبرت زميليَّ أنني سأنضم إليهما صباح الجمعة.

كل ما أذكره أنني كنت في حال سيئ للغاية، جالسًا على جانب الفراش وأبدأ بخلع ثيابي. ذهب زميلاي إلى محكمة مقاطعة كينج يوم الخميس لمتابعة الإستراتيجيات التي كنت قد وضعت ملخصًا لها في اليوم السابق. وبناء على طلبي، فقط تركاني وحيدًا طوال اليوم محاولًا التغلب على الإنفلونزا. لكن عندما لم أظهر على الإفطار صباح يوم الجمعة، بدأ القلق يتسلل إليهما. اتصلا بغرفتي. لم يرد عليهما أحد. توجها إلى الغرفة وطرقا الباب. لا أحد.

شاعران بالهلع، توجها إلى مكتب الاستقبال وطلبا من المدير مفتاحًا احتياطيًّا. عادا وصعدا السلم وفتحا الباب، ليجدا سلسلة الأمان مقفلة، لكنهما سمعا أيضًا أنينًا مكتومًا من داخل الغرفة.

ركلا باب الغرفة وهرعا إلى الداخل. وجداني على الأرض بما وصفاه بوضعية «الضفدع»، مرتديًا جزءًا من ملابسي، وفي وضع يوحي أنني كنت أحاول الوصول إلى الهاتف. كان الجانب الأيسر من جسدي متشنجًا، وقال بلاين إن حرارتي كانت «ملتهبة».

اتصل الفندق بالمستشفى السويدي، الذي أرسل سيارة إسعاف في الحال. في غضون ذلك، بقي بلاين ورون على الهاتف مع غرفة الطوارئ، ليزوداهم بعلاماتي الحيوية. كانت درجة حرارتي 107 درجات، ونبضي

220. كان جانبي الأيسر مشلولًا، وفي سيارة الإسعاف كنت ما أزال أعاني النوبات. وصف التقرير الطبي أنني كنت بـ «عيني الدمية»، عينان مفتوحتان، ثابتتان وغير مركزتان.

حالما وصلنا المستشفى، وضعوني في الثلج وأعطوني جرعات وريدية من الفينوباربيتول في محاولة للسيطرة على النوبات. أخبر الطبيب كلًّا من بلاين ورون أن الأدوية التي يعطيني إياها كفيلة بجعل مدينة سياتل تغرق في النوم.

كما أخبر العميلين أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الجميع، فإنني على الأرجح كنت سأموت. أظهر فحص الأشعة المقطعية وجود تمزق في الجانب الأيمن من الدماغ ونزيف من الحرارة العالية التي صاحبت الحمى الشديدة.

بتعبير الأشخاص العاديين أخبرهما الطبيب: «فإن دماغه أصبح كأنه مقلي وهش». كان ذلك يوم 2 ديسمبر، 1983. وكان تأميني الجديد قد دخل حيز التفعيل في اليوم السابق. توجه مدير وحدتي؛ روجر ديبيو، إلى مدرسة بام ليبلغها الخبر شخصيًا. طارت بعدها هي ووالدي؛ جاك، إلى سياتل ليكونا معي، تاركة البنتين مع والدتي؛ دولوريس. أقلَّهما عميلان فيدراليان من مكتب سياتل الميداني؛ ريك ماذرس وجون بينر، من المطار وأحضراهما مباشرة إلى المستشفى، حيث أدركا درجة خطورة الأمر.

حاول الأطباء أن يجعلوا بام مستعدة لوفاتي وأخبروها أنني حتى إذا عشت، فسوف أكون كفيفًا ونباتيًّا. ولكونها كاثوليكية، فقد استدعت كاهنًا ليلقنني الطقوس الأخيرة، لكن حين اكتشف أني بريسبيتاريٌّ (مشيخيٌّ) رفض فعل ذلك، لذلك استبعده بلاين ورون ووجدا كاهنًا آخر لم يبد أنه متشدد كثيرًا، وطلبا منه أن يأتي ليصلي من أجلي.

تأرجحتُ في الغيبوبة بين الحياة والموت طوال أسبوع كامل. كانت قواعد العناية المشددة تسمح بزيارة أفراد العائلة فقط، لذلك أصبح زملائي في كوانتيكو وريك ماذرز والآخرون من مكتب سياتل الميداني فجأة أقربائي المقربين.

«لديكم عائلة كبيرة حقًّا». علَّقت إحدى الممرضات ساخرةً لـ بام.

لم تكن فكرة «العائلة الكبيرة» مزحة كبيرة من أحد الجوانب، ففي كوانتيكو، قام عدد من زملائي، يقودهم بيل هاجماير من وحدة العلوم السلوكية وتوم كولومبل من الأكاديمية الوطنية، بجمع التبرعات لكي تستطيع بام وأبي أن يبقيا معي في سياتل. كما أنهم سرعان ما جمعوا مساهمات من ضباط الشرطة في أنحاء البلاد. وفي الآن ذاته، كانت تتم الترتيبات المتعلقة بنقل جثماني إلى فرجينيا لدفنه في المقبرة العسكرية في كوانتيكو.

وبحلول نهاية الأسبوع الأول، كوَّنت بام، وأبي، والعملاء الفيدراليون، والكاهن حلقة حول سريري، ممسكين بأيدي بعضهم، وممسكين بيديَّ وهم يصلون من أجلي. في وقت متأخر من تلك الليلة، أفقت من الغيبوبة.

أتذكر أنني فوجئت لرؤية بام وأبي وأني ارتبكت بشأن أين كنت. مبدئيًا، لم أكن أستطيع الكلام؛ كان الجانب الأيسر لوجهي مرتخيًا وكنت ما أزال أعاني شللًا في جانبي الأيسر. وحين استعدت القدرة على الكلام، كان في البداية أشبه بالتلعثم. ثم بعد برهة اكتشفت أن بإمكاني أن أحرك ساقي، ثم تدريجيًا، استعدت الحركة بشكل أكبر. كان حلقي يؤلمني بسبب أنبوب التنفس الاصطناعي. ثم حُولت من الفينوباربيتال إلى الديلانتين للسيطرة على النوبات. وبعد جميع هذه الاختبارات والفحوصات والبزل القطني، تمكنوا أخيرًا من تقديم تشخيص طبي: التهاب الدماغ الفيروسي الذي تسبب به أو فاقم من درجته الضغط العصبي الكبير وحالتي العامة من الضعف والهشاشة.

كنت محظوظًا لبقائي على قيد الحياة.

لكن التعافي كان عملية مؤلمة ومحبِطة؛ كان عليَّ أن أتعلم المشي ثانية. عانيت مشكلات في الذاكرة. ولمساعدتي في تذكر اسم طبيبي الرئيسي؛ سيجال، أحضرت لي بام تمثالًا صغيرًا لنورس مصنوعًا من الأصداف ومستقرًا على قاعدة من الفلين. في المرة التالية جاء الطبيب ليجري لي اختبار حالة ذهنية وسألني إذا كنت أذكر اسمه، قلت متلعثمًا: «بالطبع، دكتور «سيجَل»- «نورس»».

وعلى الرغم من هذا الدعم الرائع الذي كنت أحظى به، فإنني كنت محبَطًا للغاية خلال عملية إعادة التأهيل. لم أتمكن قط من الجلوس أو تناول الأشياء

ببطء. اتصل مدير جهاز التحقيقات الفيدرالي ليشجعني. أخبرته بأنني لا أعتقد أنه سيكون بإمكاني إطلاق النار بعد الآن.

أجاب المدير: «لا تقلق بهذا الشأن، جون، إننا نريدك من أجل عقلك».

لم أخبره أنني كنت أخشى أنه لم يتبقَ الكثير منه، أيضًا.

غادرت المستشفى السويدي أخيرًا وعدت إلى منزلي قبل يومين من عيد الميلاد. قبل مغادرتي، قدمت لأفراد غرفة الطوارئ ووحدة العناية المركزة لوحات تعبِّر عن امتناني العميق لكل ما فعلوه من أجل الحفاظ على حياتي. أقلَّنا روجر ديبيو من مطار دالاس وأوصلنا إلى المنزل في فريدكسبرغ، حيث كان ينتظرني علم أمريكي ولافتة ضخمة كُتب عليها «عودًا حميدًا جون». انخفض وزني من المعدل الطبيعي 195 باوند إلى 160 باوند. كانت بنتاي إريكا ولورين غاضبتَين بشأن منظري ولكوني على كرسي متحرك مما جعلهما، ولزمن طويل بعد ذلك، تشعران بالخوف في كل مرة أسافر فيها بعيدًا.

كانت فترة أعياد الميلاد كئيبة جدًّا. لم أرَ الكثير من الأصدقاء؛ باستثناء رون والكر، وبلاين مكلواين، وبيل هاجماير وعميل آخر من كوانتيكو؛ جيم هورن. كنت قد تركت الكرسي المتحرك، لكن كان ما يزال من الصعوبة أن أتحرك في أرجاء المكان. كنت أعاني مشكلة في إجراء محادثة. وجدت أنني كنت أبكي بسهولة ولم يكن ممكنًا لي الاعتماد على ذاكرتي. حين كانت بام أو والدي يتجولان بي في فريدكسبرغ، كنت ألاحظ بناء بعينه ولم أدرِ ما إذا كان حديثًا. شعرت أنني ضحية جلطة وتساءلت ما إذا كنت سأستطيع العمل مرة أخرى.

كنت أشعر بالمرارة أيضًا تجاه المكتب لما وضعوني به. في فبراير الفائت، تحدثت مع المدير المساعد؛ جيم ماكنزي. أخبرته أنني لا أعتقد أن بإمكاني المتابعة على ذات النسق، وطلبت منه إيجاد بعض الأشخاص ممن يمكنهم المساعدة.

كان ماكنزي متعاطفًا لكن واقعيًّا. قال لي: «أنت تعرف هذه المؤسسة، يجب أن تفعل شيئًا إلى أن تقع قبل أن يتمكن أحد من رؤية ذلك».

لم أشعر فقط بأني لا أحظى بالدعم، وإنما شعرت أيضًا بعدم الحصول على التقدير، بل على العكس تمامًا في الواقع. في السنة الفائتة، بعد عمل

مضنٍ على قضية «جرائم قتل الأطفال» في أتالانتا، انتقدني **المكتب** بشكل واضح بشأن مقالة ظهرت في صحيفة في «نيو-بورت نيوز»، فرجينيا، مباشرة بعد القبض على واين وليامز. سألني المراسل عن رأيي بـ وليامز كمشتبَه به، وأجبت أنه بدا لي «مناسبًا»، وإذا ما نجح ذلك بالفعل فإنه سيكون مفيدًا على الأقل للعديد من القضايا.

وحتى على الرغم من أنَّ إف بي آي هم من طلبوا مني إجراء المقابلة، فإنهم قالوا إنني كنت أتحدث بشكل غير ملائم حول قضية ما تزال معلَّقة. زعموا أنني تلقيت تنبيهًا قبل مقابلة مجلة *بيبول* منذ أشهر. كان نموذجًا صريحًا للبيروقراطية الحكومية. استُدعيتُ للمثول أمام مكتب المسؤولية المهنية في مركزه الرئيسي في واشنطن، وبعد ستة أشهر من الروتين البيروقراطي، تلقيت خطاب لوم. لاحقًا، سأتلقى خطاب شكر على القضية. لكن في ذلك الوقت، كان ذلك اعترافًا من المكتب لمساعدة حل ما وصفته الصحافة آنذاك بـ «جريمة القرن».

كثيرٌ مما يفعله ضابط إنفاذ القانون صعبُ المشاركة مع أيٍّ كان، حتى زوجته. عندما تقضي أيامك ناظرًا إلى جثث ميتة ومشوَّهة، وبخاصة حين يكونون من الأطفال، فإنه ليس ذلك الشيء الذي ترغب في نقله معك إلى المنزل. لا يمكنك أن تقول على منضدة الغداء، «لقد عملت اليوم على جريمة قتل بدافع الشبق الجنسي. دعوني أحكي لكم عنها».

وربما كان هذا هو السبب وراء أنك ترى في الغالب رجال شرطة ينجذبون إلى الممرضات والعكس صحيح؛ أشخاص يمكن ربط كل منهم بطريقة ما بعمل الآخر.

ومع ذلك فغالبًا حين أكون في الحديقة أو الغابات مثلًا، مع فتياتي الصغيرات، كنت أرى شيئًا وأفكر في سرِّي، *إن ذلك يشبه مشهد كذا وكذا، حين وجدنا ذات الثماني سنوات*. ومثلما كنت متخوفًا بشأن سلامتهن، بعد رؤية ما رأيته، فإنني وجدت أيضًا أنه من الصعب أن أنخرط شعوريًّا في تلك الخدوش والأذيَّات الثانوية لكن المهمة، للطفولة.

حين كنت أعود إلى المنزل وتبادرني بام بأن إحدى الفتاتين قد وقعت عن دراجتها الهوائية وأنها احتاجت إلى الغُرَز، كنت أعود في ذهني لتشريح طفلة في سنها وأفكر بكل تلك الغُرَز التي احتاج إليها الطبيب الشرعي ليغلق جروحها قبل دفنها.

كان لبام مجموعة مقرَّبة من الأصدقاء الذين انخرطوا بالسياسات المحلية، التي لم تثِر اهتمامي على الإطلاق. وفي ظل جدول سفري، فقد انتهى بها الأمر بحصة الأسد من مسؤولية رعاية الطفلتين، وتسديد الفواتير، وإدارة المنزل. كانت تلك إحدى المشكلات العديدة للزواج آنذاك، وكنت على دراية بأن ابنتنا الكبرى، إريكا، على الأقل مدركة لذلك التوتر الحاصل.

لم أستطع التخلص من شعور الامتعاض في المكتب بسبب ترك ذلك يحصل لي. بعد شهر تقريبًا عدت إلى المنزل، كنت في الخارج أحرق أوراق الشجر في الفناء الخلفي. وبدافع ما، قد توجهت إلى الداخل، جمعت كل نسخ الملفات التنميطية التي كانت لدي في المنزل، جميع المقالات التي كتبتُها، حملتها جميعًا إلى الخارج ورميتها كلها في النار. شعرت بنوع من التطهير النفسي والشعوري، عبر التخلص من كل تلك الأشياء التي كانت تثقل كاهلي.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، حين تمكنت من القيادة مجددًا، ذهبت إلى «مقبرة كوانتيكو الوطنية» لأرى أين كنت سأُدفَن. كانت الأضرحة موزَّعة بحسب تاريخ الوفاة، فلو أنني توفيت يوم 1 أو 2 ديسمبر، لكنت قد حصلت على موقع رديء. لاحظت أنه لو حصل ذلك فإنني كنت سأستقر بجوار فتاة صغيرة طُعِنَت حتى الموت على الطريق في منطقة غير بعيدة عن مسكني. لقد عملت على تلك القضية وكانت ما تزال بلا حل.

وبينما كنت واقفًا غارقًا في أفكاري، تذكرت المرات التي نصحت فيها الشرطة بمراقبة مواقع الأضرحة ظنًّا مني بأن القاتل قد يزورها، وكم ستكون مفارقة مثيرة للسخرية فيما إذا كانت الشرطة تراقب الآن وعدُّوني مشتبهًا به. ولأَشْهُر بعد انهياري في «سياتل»، كنت ما أزال في إجازة مرضية. أُصِبت بجلطات دموية في ساقيَّ ورئتيَّ كمضاعفات للمرض وقضاء وقت طويل في الفراش، وكنت ما أزال أشعر أنني أعاني كل يوم. كنت ما أزال غير دارٍ ما إذا كنت قادرًا جسديًا على العمل مرة أخرى، ولم أدرِ إن كانت ما تزال لدي الثقة اللازمة حتى إذا استطعت العمل. في أثناء ذلك، كان روي هازلوود، من القسم التدريسي في وحدة العلوم السلوكية، يضاعف عمله بِعَدٍّ أنه تولى عبء التعامل مع قضاياي المستمرة.

قمت بعودتي الأولى إلى كوانتيكو في أبريل 1984 للتحدث إلى مجموعة في أثناء الخدمة مؤلَّفة من نحو خمسين محلِّلًا تنميطيًّا فيدراليًّا في المكاتب الميدانية. توقفتُ في غرفة الصف، منتعلًا خفَّين لأن قدميَّ كانتا ما تزالان

منتفختين من الجلطات الدموية، وحظيت بتصفيق حاد من هؤلاء العملاء الآتين من جميع أنحاء البلاد. كان رد الفعل عفويًا وحقيقيًا من أولئك الأشخاص الذين، أفضل من أي وقت مضى، تمكنوا من فهم ما فعلت وما الذي كنت أحاول تدريسه داخل المكتب. وللمرة الأولى منذ أشهر عديدة، شعرت بالاحتفاء والتقدير، كما شعرت بأنني عدت إلى منزلي.

وبعد شهر واحد عدت للعمل بدوام كامل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

داخل عقل قاتل

ضع نفسك في مكان الصياد.

ذلك ما يتوجب عليَّ فعله. فكِّر بواحد من تلك الأفلام الوثائقية عن الطبيعة: أسد في سهل سريجنتي في إفريقيا، يرى هذا القطيع الضخم من الظِّباء عند موقع للشرب، لكن بطريقة ما -ويمكننا رؤية ذلك في عينيه- ينقضُّ الأسد على حيوان واحد محدد من بين ألوف الحيوانات. لقد درَّب نفسه على تحسُّس الوهن، الضعف، شيء مختلف في أحد الظباء يميزه عن بقية أفراد القطيع ويجعله الضحية الأقرب.

ينطبق الأمر ذاته على أشخاص بعينهم. إذا كنتُ واحدًا منهم، فإنني في رحلة صيد يومية، باحثًا عن ضحيتي، باحثًا عن ضحيتي غير المخطِّط لها. لنقل إنني في مركز تجاري حيث يوجد ألوف من الناس، فأدخل صالة ألعاب الڤيديو، وألقي نظرة على الخمسين طفلًا، أو نحو ذلك، الذين يلعبون هناك، عليَّ أن أكون صيادًا، عليَّ أن أكون محلل شخصيات، يجب أن أكون قادرًا على تحديد تلك الضحية المحتمَلة. يتوجب عليَّ اكتشاف أيٍّ من أولئك الخمسين طفلًا هو الضعيف، أيُّهم هو الضحية الممكنة. يجب أن أنظر إلى طريقة ارتدائه ملابسه. يجب أن أدرِّب نفسي على التقاط الأدلة غير اللفظية التي يظهِرها الطفل. وعليَّ أن أفعل ذلك في جزء من الثانية، لذلك يجب أن أكون بارعًا جدًّا في ذلك.

ثم، وبمجرد أن أحدد، ما إن أتحرك، يتوجب عليَّ أن أعرف كيف سأخرِج الطفل من المركز التجاري بهدوء ودون إثارة أيِّ ضجة أو شبهة وبخاصة أن والديه ربما على بُعد طابقين. لا يمكنني تحمل ارتكاب أيِّ أخطاء.

إنها إثارة الصيد التي تدفع هؤلاء الأشخاص للمواصلة. لو أن بإمكانك الحصول على قراءة للاستجابة الجلدية الجلفانية لواحد منهم وهو يركز على ضحيته المحتمَلة، فأعتقد أنك ستحصل على رد الفعل ذاته لما لدى الأسد في البرية.

ولا يهم إن كنت تتحدث عن أولئك الذين يتصيدون الأطفال، أو يطاردون الشابات أو النساء الأكبر سنًّا أو المومسات أو أي مجموعة محددة أخرى، أو أولئك الذين لا يبدو أن لهم أيَّ ضحية مفضلة. إذ بطريقة ما، كلهم متشابهون.

لكنهم يختلفون بالأساليب، والأدلة التي يتركونها لشخصياتهم الفردية، التي قادتنا إلى سلاح جديد في تأويل أنماط معينة من الجرائم العنيفة ومطاردة توقيف ومحاكمة مرتكبيها. لقد قضيت معظم مسيرتي المهنية كـعميل خاص في الــ إف بي آي محاولًا تطوير ذلك السلاح، وهذا ما يدور حوله هذا الكتاب.

وفي حالة كل جريمة مروعة منذ بداية الحضارة، ثمة دائمًا ذلك السؤال الرئيسي الملحُّ: أيُّ نوع من الأشخاص أمكنه فعل شيء كهذا؟ يحاول نمط التشخيص وتحليل موقع الجريمة الذي نقوم به في وحدة دعم التحقيقات في الــ إف بي آي أن يجيب عن هذا السؤال.

السلوك يعكس الشخصية.

ليس سهلًا دائمًا، وغير ممتع على الإطلاق، أن تضع نفسك مكان هؤلاء الأشخاص، أو داخل عقولهم. لكن هذا ما يتوجب عليَّ فعله أنا وزملائي. علينا أن نجرب الشعور؛ ما كان عليه الأمر لكلٍّ واحد منهم.

كل شيء نراه في موقع الجريمة يخبرنا شيئًا عن المشتبَه به مجهول الهوية، بمصطلحات الشرطة: الذي ارتكب الجريمة. وبدراسة أكبر عدد يمكننا دراسته من الجرائم، وعبر التحدث إلى الخبراء -مرتكبي الجرائم أنفسهم- فقد تعلمنا تأويل تلك القرائن بالطريقة ذاتها التي يقيِّم فيها الطبيب الأعراض المختلفة بغية تشخيص مرض أو حالة معينة. وتمامًا مثلما يمكن لطبيب أن يبدأ بتكوين التشخيص بعد معاينة الجوانب العديدة لأعراض المرض الذي مرَّ به هو أو هي من قبل، فيمكننا التوصل إلى استنتاجات مختلفة حالما نرى الأنماط وقد بدأت في الظهور.

مرةً في مطلع الثمانينيات، وكنت آنذاك ناشطًا في إجراء مقابلات مع بعض القتلة لصالح دراستنا المعمَّقة، كنت جالسًا بين حلقة من المجرمين العنيفين في سجن ولاية ماريلاند القديم، الحجري القوطي في بالتيمور.

كل رجل منهم كان حالة مثيرة للاهتمام في حد ذاته -قاتل رجال شرطة، قاتل أطفال، تجار مخدرات ومجرمون مأجورون- لكن جلَّ اهتمامي كان منصبًّا على مقابلة قاتل؛ مغتصب بشأن طريقة عمله، لذلك سألت السجناء الآخرين إن كانوا يعرفون واحدًا يمكنني التحدث إليه في السجن.

«نعم، هناك تشارلز ديفيز».

قال ذلك لي أحد السجناء، لكن الآخرين اتفقوا على أنه من غير المرجح أن يتحدث لعميل فيدرالي. ذهب أحد ما ليجده في ساحة السجن. وما فاجأ الجميع، أن ديفيز جاء وانضمَّ للمجموعة، وما السبب، غالبًا، إلا بدافع الفضول أو الملل. من الأشياء التي كانت في صالحنا في الدراسة أن لدى السجناء الكثير من الوقت والقليل مما يمكنهم فعله به.

عادة، عندما نجري مقابلات في السجن -وهذا ما كان يحصل بحق منذ البداية- كنا نحاول قدر استطاعتنا معرفة معلومات مسبقة عن الفاعل- موضوع الدراسة. نطَّلع على ملفات الشرطة، وصور مواقع الجريمة، وبروتوكولات التشريح، ومحاضر المحاكمات؛ أيِّ شيء يمكن أن يلقي الضوء على الدوافع أو الشخصية. كما أنها أيضًا الطريقة الأضمن للتأكد من أن الفاعل لا يقوم بتلاعبات أو ألعاب ممتعة بالنسبة إليه، وأن يكون واضحًا ومباشرًا معك. لكن في هذه الحالة، بشكل واضح، فإنني لم أقم بأيِّ تحضير، لذلك فإنني أقرُّ بذلك وأحاول جعله في صالحي.

كان ديفيز رجلًا ضخمًا وثقيلًا، بطول قرابة ستة أقدام، في بداية العقد الثالث من العمر، حليق ونظيف وحسن الهندام. بدأت بالقول: «لقد جئتني في وقت غير ملائم تشارلز، فأنا لا أعرف ما فعلت».

أجاب: «لقد قتلتُ خمسة أشخاص».

طلبت منه أن يصف مواقع الجريمة وما فعل بضحاياه. الآن، اتضح أن ديفيز كان سائق سيارة إسعاف بدوام جزئي، لذلك كان ما يفعله هو أن يخنق المرأة، ويضع جثتها إلى جانب طريق سريع في منطقة قيادته، ثم يقوم

باتصال مجهول، ثم يردُّ على الاتصال ويلتقط الجثة. لم يكن أحد يعرف حين كانوا يضعون الجثة على نقالة أن القاتل كان بينهم. كانت هذه الدرجة من التحكم والتنسيق ما أثارته بحقٍّ وأعطته الإثارة الكبرى. إن أي شيء مثل هذا يمكنني تعلمه عن التقنية سيثبت دائمًا أنه ذو قيمة قصوى.

أدركت من الخنق بأنه كان قاتلًا مرتجلًا، وأن الهدف الرئيسي في ذهنه كان الاغتصاب.

قلت له: «أنت معجب حقيقي بالشرطة. كنت تود أن تكون أنت نفسك شرطيًّا، لتكون في موقع قوة بدلًا من عمل وضيع أقل من إمكانياتك بكثير». يضحك، يقول إن والده كان ملازمًا في الشرطة. أطلب منه أن يصف طريقة عمله: لنقل إنه سيتبع شابة جميلة، يراها توقِف سيارتها في موقف أحد المطاعم. ومن خلال بعض معارف والده في الشرطة، سيتمكن من الكشف على ترخيص لوحة السيارة. ثم حين يحصل على اسم صاحبتها، سيتصل بالمطعم ويطلبها ليخبرها بأنها تركت مصابيح السيارة مضاءة. وعندما تخرج، سيخطفها؛ سيدفعها داخل سيارته أو سيارتها، يقيدها، ثم ينطلق مبتعدًا.

يصف عمليات القتل الخمس بالترتيب، كما لو أنه كان يستعيدها بذاكرته. عندما وصل إلى الحادثة الأخيرة، يذكر أنه قد قام بتغطيتها في الكرسي الأمامي للسيارة، وهو تفصيل يذكره للمرة الأولى. وعند تلك النقطة من المحادثة، أقلب الأمور أكثر. أقول: «تشارلز، دعني أخبرك أمرًا عن نفسك: كانت لديك مشكلات في العلاقات مع النساء. كنت في خضم مشكلات مالية حين نفذت عملية القتل الأولى. كنت في أواخر عقدك الثاني وقد عرفت أن إمكانياتك أعلى من عملك، لذلك فإن كل شيء في حياتك كان محبطًا وخارج السيطرة». اكتفى بشيء من الإيماءات. إلى الآن، جيد جدًّا. لم أقل أي شيء بالغ الصعوبة للتوقع أو التخمين. «كنت تشرب بإفراط»، تابعت: «كنت مدينًا بالمال. وكنت تتشاجر مع النساء اللائي عشت معهن. [لم يخبرني أنه عاش مع أحد، لكنني كنت على يقين من أنه قد فعل]. وفي الليالي التي كانت تسوء بها الأمور، كنت تخرج للصيد. لم تكن لتذهب خلف امرأتك القديمة، لذلك كان عليك أن تلاحق أحدًا آخر».

يمكنني أن أرى حركة جسد ديفيز تتغير تدريجيًّا، تصبح أكثر انفتاحًا. لذا، مع المتابعة بالمعلومات الشحيحة التي لدي، أواصل: «لكن هذه الضحية

الأخيرة كانت عملية قتل ألطف بكثير. كانت مختلفة عن الأُخريات. تركتها ترتدي ثيابها مرة أخرى بعد أن اغتصبتها. غطيت رأسها. لم تفعل ذلك مع الأربع السابقات. وعلى عكس الأخريات؛ لم تشعر بالارتياح تجاه هذه».

عندما يبدؤون بالإنصات، تعرف أنك قد توصلت إلى شيء. تعلمت هذه التقنية من مقابلات السجون وكنت قادرًا على استخدامها مرة إثر مرة في حالات التحقيق. أرى أنني تمكنت من الحصول على انتباهه التام هنا. «قالت لك شيئًا دفعك تشعر بالسوء لقتلها، لكنك قتلتها على أي حال».

فجأة، احمرَّ مثل حبة شمندر. بدا أنه في حالة من الاضطراب، ويمكنني ملاحظة ذلك في عقله، لقد عاد إلى ذلك المشهد. يخبرني مترددًا بأن المرأة أخبرته بأن زوجها يعاني مشكلات صحية خطيرة وأنها قلقة عليه؛ كان مريضًا وربما كان يحتضر. ربما كانت تلك حيلة منها، وربما لم تكن كذلك، ليس لدي أي طريقة لأعرف. لكن بشكل واضح، فقد أثر ذلك على ديفيز.

«لكنني لم أرتدِ قناعًا. لقد عرفَت من أكون، لذلك كان لا بدَّ لي من أن أقتلها»، توقفت لبضع لحظات، ثم قلت: «أخذت شيئًا منها، أليس كذلك؟» أومأ برأسه ثانية، ثم أقرَّ بأنه أخذ محفظتها. أخرج صورة لها مع زوجها وطفلهما في أعياد الميلاد واحتفظ بها. لم ألتقِ قط بذلك الشخص من قبل، لكنني أبدأ بتكوين صورة متماسكة له، لذلك قلت: «لقد ذهبت إلى قبرها، تشارلز، ألم تفعل؟» أجفل وازداد احمرارًا، مما يؤكد لي أنه قد تابع الأخبار حول القضية وعرف أين دُفنت ضحيته. «لقد ذهبت لأنك لم تشعر بالارتياح بشأن جريمة القتل هذه بالذات. وجلبت شيئًا معك إلى المقبرة ووضعته هناك، عند القبر تمامًا».

كان بقية السجناء ساكنين تمامًا، ينصتون باهتمام كبير. لم يسبق لهم رؤية ديفيز في وضع كهذا. أكرر: «لقد جلبت شيئًا ما إلى القبر. ماذا جلبت؟ تشارلز؟ لقد جلبت تلك الصورة، أليس كذلك؟» فأومأ ثانية، ثم طأطأ رأسه.

لم تكن تلك في الواقع حيلة سحرية لـ «إخراج الأرنب من القبعة» كما بدا لبعض السجناء. وإنما كنت، وبشكل واضح، أطرح بعض التخمينات والتوقعات، لكن هذه التخمينات كانت في الواقع قائمة على خلفية متينة من الأبحاث والتجارب التي بدأنا بها، أنا وزملائي، وواصلنا جمعها. على سبيل المثال، لقد أدركنا أن المقولة القديمة المكررة حول زيارة القتلة لأضرحة

ضحاياهم كانت صحيحة في الغالب، لكن ليس بالضرورة للأسباب التي كنا نفكر بها في الأساس.

السلوك يعكس الشخصية.

فمن الأسباب الضرورية التي يتوجب على عملنا التعامل معها هي الطبيعة المتغيرة للجريمة العنيفة ذاتها. إذ يعرف الجرائم المرتبطة بالمخدرات التي ابتليت بها معظم مدننا وجرائم السلاح التي أصبحت حدثًا يوميًا ناهيك بكونه وصمة عار وطنية. ومع ذلك فقد تبين أن معظم الجرائم، وبالتحديد أكثر الجرائم عنفًا، قد وقعت بين أشخاص يعرفون بعضهم بطريقة أو بأخرى.

لم نعد نلاحظ هذا في الوتيرة ذاتها. إذا علمنا أنه في الستينيات، كان معدل حل جرائم القتل في البلاد يتجاوز نسبة 90 في المائة. لكننا لم نعد نرى هذا. الآن، وعلى الرغم من التطورات الهائلة في العلوم والتقنية، وعلى الرغم من ظهور عصر الحاسوب، وعلى الرغم من وجود الكثير من ضباط الشرطة الذين يتمتعون بالتدريب والمصادر الأفضل، فإن معدل الجريمة كان آخذًا بالارتفاع مع انحدار معدل حل جرائم القتل. ثمة المزيد والمزيد من جرائم القتل التي تُرتَكب ضد «غرباء» وفي الكثير من هذه القضايا نفتقد وجود الدافع للتعامل معه، على الأقل لا يوجد دافع «منطقي» واضح.

تقليديًا، كان من السهل نسبيًا لمسؤولي إنفاذ القانون الإحاطة بمعظم جرائم القتل وحوادث العنف.

وهي ناتجة كلها من المظاهر العاطفية المبالغ فيها إلى درجة كبيرة والتي نختبرها جميعًا: الغضب، الطمع، الغيرة، المصلحة، الثأر. وما إن تُعالَج هذه المشكلة العاطفية، حتى تتوقف الجريمة أو تلك الفورة في الجرائم. سيموت شخص ما، لكن ذلك هو الحال وكانت الشرطة عمومًا تعرف هويته وتعرف ما الذي تبحث عنه.

لكن نوعًا جديدًا من الجرائم العنيفة ظهر على السطح في السنوات الأخيرة؛ المعتدي المتسلسل، الذي لا يتوقف في العادة إلا حين يُقبَض عليه أو يُقتَل، والذي يتعلم من التجربة ويعمل على التطور أكثر وأكثر فيما يفعل، إذ يحسن أسلوبه باستمرار من جريمة لأخرى. أقول «ظهر على السطح» لأنه، بدرجة ما، كان موجودًا معنا منذ زمن طويل، حتى ما قبل ظهور جاك ذا ريبر، السفاح في لندن عام 1880، والذي يعدُّ بشكل عام أول قاتل متسلسل حديث.

كما أقول «هو»، لأسباب سنتطرق إليها لاحقًا، فإنه من الناحية النظرية، فإن جميع القتلة المتسلسلين هم من الذكور.

قد يكون القتل المتسلسل، في الواقع، ظاهرة أقدم بكثير مما نعرف، إذ ربما كانت كل القصص والأساطير التي وصلتنا عن الساحرات والمستذئبين ومصاصي الدماء طريقة لتفسير الانتهاكات الشنيعة التي لم يكن أحد في تلك البلدات والمجتمعات الصغيرة في أوروبا وبدايات أمريكا ليتمكن من فهم هذه الانحرافات التي نراها اليوم عادية وبَدَهِيَّة. كانت الوحوش مخلوقات خارقة للطبيعة. لم يكن واردًا أن يكونوا مثلنا.

كان القتلة المتسلسلون والمغتصبون هم المجرمون الأكثر إدهاشًا، والأكثر اضطرابًا على مستوى الشخصية والأكثر صعوبة في القبض عليهم من بين جميع القتلة العنيفين. وهذا، في جزء منه، عائد لكونهم مدفوعين بعوامل أعقد من المجرمين العاديين الذين ذكرتهم لتوي. وهذا، بشكل ما، يجعل أنماطهم أكثر تعقيدًا ويجعلهم أبعد عن العواطف العادية مثل التعاطف، أو الذنب، أو الندم.

في بعض الأحيان، تكون الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها الإمساك بهم هي تعلم التفكير مثلهم. وفي حال تخوف أيٍّ كان من أنِّي سأقدم أي معلومات سرية يمكن أن تمنح «دليل كيفية» للمجرمين المحتملين، فإني أدعوكم للاطمئنان بهذا الشأن.

ما سوف أربطه هنا هو كيف طورنا المنهج السلوكي لتنميط الشخصية الجنائية، تحليل الجرائم، والإستراتيجية القضائية، لكني لم أتمكن من جعل هذا «دليل كيفية» حتى لو كنت أردت ذلك. فمن ناحية، يستغرق الأمر منا عامين لتدريب العملاء الذين يتمتعون أساسًا بالتدريب العالي والمختارين للقدوم إلى وحدتي. ومن ناحية أخرى، لا يهم كم يعتقد المجرم أنه يعرف، إذ كلما حاول أن يتجنب أن يُكشَف أمره أو أن يبعدنا عن الطريق الصحيح، زوَّدنا في الواقع بأدلة سلوكية يمكننا العمل عليها.

وكما قال سير آرثر كونان دويل وشيرلوك هولمز قبل عقود طويلة: «لطالما كان التفرد دليلًا. كلما كانت الجريمة مشوشة ومبتذلة بشيوعها، كان حلها أصعب». بمعنى آخر، كلما كان لدينا المزيد من السلوكيات، كان الملف التنميطي والتحليل الذي سنقدمه للشرطة المحلية أكثر اكتمالًا. وكلما كان الملف التنميطي الذي ستعمل عليه الشرطة المحلية أفضل، زادت قدرتهم

على تقسيم شرائح السكان بحثًا عن المشتبهين المحتملين والتركيز على إيجاد الشخص الصحيح.

ما يقودني إلى إخلاء المسؤولية الثاني بشأن عملنا. ففي وحدة دعم التحقيقات، التي هي جزء من المركز الوطني لتحليل الجرائم العنيفة التابع للـ إف بي آي في كوانتيكو، فإننا لا نمسك المجرمين. دعوني أكرر ذلك: نحن لا *نمسك* المجرمين. الشرطة المحلية هي التي تمسك المجرمين، وبالنظر إلى الضغوطات الهائلة التي يرزحون تحتها، فإن معظمهم يقوم بعمل ممتاز. ما نحاول فعله حقًا هو أن *نساعد* الشرطة المحلية في التركيز على تحقيقاتهم، ثم اقتراح بعض التقنيات الاستباقية التي يمكن أن تساهم في التوصل إلى المجرم. وعندما يمسكون به -مجددًا، أؤكد على هم، لا نحن- فإننا نحاول صياغة إستراتيجية لمساعدة المدعي العام على إبراز الشخصية الحقيقية للمدعى عليه خلال المحاكمة.

إننا قادرون على فعل ذلك بسبب أبحاثنا وتجربتنا الخاصة. وبينما يمكن لإدارة شرطة في الغرب الأوسط أن تواجه تحقيقًا بشأن قاتل متسلسل ومعاينة هذه الأهوال للمرة الأولى، فإن وحدتي تعاملت مع مئات، إن لم يكن آلافًا من القضايا المشابهة.

أقول دائمًا للعملاء الذين أعمل معهم: «إذا أردتم أن تفهموا الفنان، يجب عليكم أن تنظروا إلى اللوحة». لقد نظرنا إلى «لوحات» كثيرة عبر السنوات وتحدثنا بشكل مكثف مع «الفنانين» الأكثر «إنجازًا». بدأنا منهجيًّا في تطوير عمل وحدة العلوم السلوكية في إف بي آي، وما أصبح تاليًا وحدة دعم التحقيقات، في أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات.

وعلى الرغم من أن معظم الكتب التي تضخم وتمجد ما نقوم به، مثل كتاب توم هاريس الشهير *صمت الحملان*، تحمل طابع الميل للتخيل والوقوع تحت التأثير الدرامي، فإن أسلافنا كانوا يتجهون إلى أدب الجريمة أكثر من الحقائق المتعلقة بالجرائم. ربما كان سي. أوغست دوبين، المفتش الهاوي وبطل قصة إدجار ألان بو الكلاسيكية «جرائم شارع مورج» في عام 1841، أول محلل تنميط سلوكي في التاريخ. كما أن هذه القصة قدمت، ربما، أول استعمال للتقنية الاستباقية التي يستخدمها المحلل كي يخرج بموضوع بمتهم غير معروف ويبرئ شخصًا بريئًا مسجونًا بتهمة القتل.

وكما هو حال الرجال والسيدات في وحدتي بعد مائة وخمسين سنة، فقد فهم «بو» قيمة التحليل التنميطي حين لا يكون الدليل الجنائي كافيًا بذاته لكي يتوصل إلى حل جريمة وحشية وتبدو كأنها دون دافع. «مفتقدًا للمصادر العادية» يكتب، «فقد رمى المحلل نفسه في روح عدوه، وتعرف عليه من خلال نفسه، ويرى في لمحة واحدة، ليس بشكل متقطع، الوسائل الوحيدة التي يمكن أن تغويه بالخطأ أو توقعه في التسرع وسوء التقدير». كما أن هناك تشابهًا بسيطًا آخر جديرًا بالذكر.

لقد فضَّل السيد دوبين أن يعمل وحيدًا في غرفته بنوافذ مغلقة وستائر مسدلة في مواجهة نور الشمس وتدخل العالم الخارجي. لم يكن لدينا، زملائي وأنا، خيار من هذا القبيل في هذا الشأن. كانت مكاتبنا في أكاديمية إف بي آي في كوانتيكو تقع في طوابق عديدة تحت الأرض، في مساحة مغلقة لا نوافذ فيها مصممة في الأصل لتكون مقرات آمنة لسلطات إنفاذ القانون في حالة الطوارئ الوطنية.

كنا في بعض الأحيان نسمي أنفسنا **القبو الوطني لتحليل الجرائم العنيفة**. وبوجودنا في عمق ستين قدمًا تحت الأرض، كنا نردد أننا أعمق من الأموات بعشر مرات.

كان الروائي الإنجليزي ويلكي كولينز قد تولى تقديم حرفة التحليل التنميطي في أعماله الرائدة مثل *المرأة التي ترتدي الأبيض* (المقتبسة من قضية حقيقية) وحجر *القمر*. لكن شيرلوك هولمز، الإبداع الخالد الذي قدمه السير آرثر كونان دويل، كان هو الذي أخرج هذا الشكل من تحليل التحقيقات الجنائية إلى الضوء ليراه العالم أجمع في لندن الفيكتورية. ولعلَّ أكبر إشادة يمكن لأي منا أن ينالها، فيما يبدو، أن يقارن بهذه الشخصية الخيالية. لقد نظرت للأمر قبل سنوات عديدة بشيء من الفخر حين كنت أعمل على قضية جريمة قتل في ميزوري، حين صدر عنوان صحفي عريض في *سانت لويس غلوب-ديموكرات* وصفني بـ «شيرلوك هولمز الحديث في إف بي آي».

من المثير للاهتمام ملاحظة أنه في نفس الوقت الذي كان فيه شيرلوك هولمز يعمل على قضاياه المتشعبة والمحيرة، كان جاك السفاح يقتل البغايا في إيست إند في لندن. لذلك كان وجود هذين الرجلين على جانبين متعارضين كليًا من القانون، وطرفين متضادين تمامًا للحد بين الواقع والخيال، قد ترسخ في لا وعي العامة بأن العديد من قصص شيرلوك هولمز «الحديث» التي كتبها

المعجبون بـ كونان دويل، وضعت المحقق في قضايا قتل غير محلولة في وايتشابل.

بالعودة إلى 1988، طلب مني أن أحلل جرائم قتل (جاك) السفاح في برنامج تلفزيوني يُبَث على المستوى الوطني. وسوف أربط الاستنتاجات التي توصلت إليها بشأن هذا المشتبه به مجهول الهوية الأشهر في التاريخ لاحقًا في هذا الكتاب.

لقد استغرق الأمر ما يزيد على القرن بعد قصة بو «شارع مورج» ونصف قرن بعد شيرلوك هولمز حتى بدأت صفحات الأدب تتحول إلى صيغة واقعية معيشة. في أواسط الخمسينيات، اهتزت نيويورك بسبب تفجيرات «ماد بومبر- Mad Bomber»، المعروف بمسؤوليته عن أكثر من ثلاثين تفجيرًا خلال فترة خمسة عشر عامًا. لقد ضرب مواقع عامة مثل «جراند سنترال» ومحطات بنسلفانيا وراديو سيتي ميوزك هول. وكطفل في بروكلين آنذاك، فإني أتذكر هذه القضية بوضوح.

في النهاية، استدعت الشرطة عام 1957 طبيبًا نفسيًّا من غرينوتش فيليدج يدعى الدكتور جيمس إيه. بروسل، تفحص الصور الفوتوغرافية لمواقع التفجيرات وحلل بدقة رسائل المفجر الساخرة المرسلة للصحف. توصل إلى عدد من الاستنتاجات المفصلة من الأنماط السلوكية العامة التي أدركها، ومن ضمنها حقيقة أن الجاني كان شخصًا يعاني البارانويا (جنون العظمة) وكان يكره والده، وأحب والدته بشكل مبالغ فيه، وعاش في مدينة في كونكتيكت. في نهاية تحليله المكتوب، قال بروسل موجهًا الشرطة:

«ابحثوا عن رجل ضخم، في منتصف العمر، مولود في الخارج، من الروم الكاثوليك، أعزب، يعيش مع شقيق أو شقيقة. عندما تجدونه، سيكون في الغالب مرتديًا بذلة بصديرية، مزررة».

من الإشارات في بعض رسائله، بدا من الجيد ترجيح أن يكون المفجر موظفًا ساخطًا حاليًّا أو سابقًا في شركة كونسوليدايتد إديسون Consolidated Edison-، شركة الكهرباء في المدينة. وبالمطابقة بين ملفه بالأشخاص المستهدفين، توصلت الشرطة إلى اسم جورج ميتسكي، الذي عمل لشركة كون إد Con Ed في الأربعينيات قبل أن تبدأ التفجيرات. حين توجهوا في إحدى الأمسيات إلى واتربري، كونكتيكت، للقبض على رجل ضخم. في منتصف العمر. مولود في الخارج. من الروم الكاثوليك. أعزب.

كان الاختلاف الوحيد عن الملف التنميطي أنه لم يكن يعيش مع شقيق أو شقيقة واحدة وإنما مع شقيقتين عذراوين. وبعد أن طلب منه الضابط ارتداء ملابسه من أجل الذهاب إلى مركز الشرطة، خرج من غرفة نومه بعد دقائق مرتديًا بذلة بصديرية مزرَّرة.

موضحًا كيف توصل إلى هذه النتائج الدقيقة بشكل غريب، شرح الدكتور بروسل أن الطبيب النفسي يتعامل في العادة مع الفرد ثم يحاول الوصول إلى بعض التنبؤات المنطقية حول كيفية رد فعل الشخص لبعض المواقف المعينة. في بناء ملفه التنميطي، قال بروسل إنه قد عكس العملية، محاولًا التنبؤ بالفرد من دليل أفعاله.

إذا استعدنا قضية ماد بومبر من منظور يبعد أربعين عامًا، تبدو في الواقع قضية بسيطة وسهلة الحل نسبيًّا. لكن في ذلك الوقت، كان علامة بارزة جلية على تطور ما سيسمى علم السلوك في التحقيقات الجنائية، وقد كان الدكتور بروسل، الذي عمل لاحقًا مع إدارة شرطة بوسطن على قضية «خنّاق بوسطن»، رائدًا فعليًّا في هذا المجال.

وعلى الرغم من وصفه في الغالب بالعملية الاستنتاجية، فإن ما قام به دوبين وهولمز الخياليَّان، والشخصيات الواقعية مثل بروسل ومن تبعه منا، فإن ما كنا نفعله في الحقيقة كان عملية استقراء، عبر ملاحظة العناصر التفصيلية لجريمة والتوصل لخلاصات ونتائج أعرض منها. حين جئتُ إلى كوانتيكو في 1977، كان المدربون في وحدة العلوم السلوكية، مثل المدرب الرائد هوارد تيتن، قد بدؤوا تطبيق أفكار الدكتور بروسل على القضايا التي وصلتهم في صفوف الأكاديمية الوطنية من اختصاصيين في الشرطة. لكن في ذلك الوقت، كانت كلها قصصًا وسرديات ولم تخضع قط للأبحاث الرصينة. وهكذا كان الحال حين انخرطت في القصة.

تحدثت عن مدى أهمية أن نغوص في عقل وموقف القاتل المجهول. وعبر أبحاثنا وتجاربنا، وجدنا أنه على القدر نفسه من الأهمية -مثلما هو مؤلم ومروع- أن نكون قادرين على وضع أنفسنا مكان الضحية. فقط حين تكون لدينا فكرة ثابتة عن كيف يمكن أن يكون رد فعل ضحية معينة تجاه الأشياء المروعة التي تحدث لها أو له، يمكن لنا أن نفهم بشكل صحيح سلوك وردود أفعال الجاني.

من أجل معرفة المجرم، يجب أن تنظروا إلى الجريمة.

في مطلع الثمانينيات، وصلتني قضية مربِكة من إدارة الشرطة في بلدة صغيرة في ريف جورجيا. فتاة جميلة يافعة في الرابعة عشرة، عازفة رئيسية في فرقة مشجعات في المدرسة الثانوية، اختُطِفَت من حافلة مدرستها على بعد مائة ياردة تقريبًا من منزلها. عُثِر على جسدها نصف العاري بعد بضعة أيام في منطقة ممر العشاق المشجرة على بعد عشرة أميال. تعرضت للاعتداء الجنسي، لكن سبب الوفاة كان إصابتها بصدمة ضربة قوية على الرأس. على مسافة قريبة منها كان هناك صخرة صغيرة ملطخة بالدم. قبل أن أقدم تحليلي، كان عليَّ أن أعرف عن الفتاة أكبر قدر ممكن من المعلومات. اكتشفتُ أنها على الرغم من كونها جميلة ولطيفة جدًّا، فقد كانت في الرابعة عشرة وبدت في الرابعة عشرة، لا في الحادية والعشرين كما بعض المراهقات. أكد لي كل من عرفها أنها لم تكن منحلَّة أو تبحث عن التغزل، ولم تكن متورطة إطلاقًا في المخدرات أو الكحول، كما أنها كانت لطيفة وودودًا مع كل من تعامل معها. أثبت التشريح أنها كانت عذراء حين اغتُصِبَت.

كانت تلك كلها معلومات حيوية بالنسبة إليَّ، لأنها أوصلتني إلى فهم كيف كانت ستتفاعل في أثناء الخطف وبعده وبالتالي كيف كان الجاني سيتفاعل معها في هذا الوضع المحدد الذي وجدا نفسيهما فيه. من هنا، توصلت إلى أن عملية القتل لم تكن نتيجة مخططًا لها، وإنما كانت مجرد رد فعل مضطرب على مفاجأة (بناء على النظام التخيلي المنحرف للمهاجم) لكن الفتاة لم ترحب به بذراعين مفتوحتين. وهذا بدوره قادني بشكل أقرب إلى شخصية القاتل، وقاد تحليلي التنميطي الشرطةَ إلى التركيز على مشتبه به في قضية اغتصاب من السنة الفائتة في بلدة قريبة أكبر. ساعدني فهم الضحية كذلك في بناء إستراتيجية لتستخدمها الشرطة في استجواب هذا المشتبه به الصعب، الذي كان، مثلما تنبأت أنه سيفعل، قد اجتاز اختبار كشف الكذب بنجاح.

وسأناقش هذه الجريمة الرهيبة والمدهشة بالتفصيل لاحقًا. لكن حاليًّا، سأكتفي بالقول إنه قد انتهى الأمر بذلك الشخص وقد أقرَّ بمسؤوليته عن جريمتي القتل والاغتصاب السابقتين. أُدِينَ وسُجِنَ، وهو خلال كتابة هذه السطور، على قائمة المحكومين بالإعدام في جورجيا. عندما ندرس عناصر التحليل التنميطي للشخصية الإجرامية وتحليل مواقع الجريمة لعملاء إف بي آي أو اختصاصيِّي إنفاذ القانون الحاضرين في الأكاديمية الوطنية، فإننا نحاول دفعهم للتفكير بقصة الجريمة برمَّتها.

اعتاد زميلي روي هازلوود، الذي درَّس منهاج التحليل التنميطي الأساسي لسنوات قبل تقاعده من المكتب عام 1993، أن يقسم التحليل إلى ثلاثة أسئلة ومراحل مختلفة: ماذا، ولماذا، ومن:

ماذا حصل؟ وهذا يتضمن كل شيء يمكن أن يكون ذا دلالة سلوكية بشأن الجريمة.

لماذا حدثت في الطريقة التي حصلت بها؟ لماذا، على سبيل المثال، كان هناك تشويه بعد الموت؟ لماذا لم يؤخذ شيء ذو قيمة؟ لماذا لم يكن هناك دخول عنوة؟ ما هي أسباب كل عامل مهم سلوكيًّا في الجريمة؟

وهذا يقود بالتالي إلى:

من سيرتكب هذه الجريمة وفقًا لهذه الأسباب؟ ذلك هو الواجب الذي تولينا مسؤوليته.

2

كان اسم عائلة والدتي هولمز

كان اسم عائلة والدتي قبل الزواج هولمز، وقد اختاره والداي تقريبًا كاسم متوسط لي بدلًا من إدوارد الأقل بلاغة.

ناهيك بذلك، بينما أنظر إلى الماضي، لا أرى الكثير في سنواتي الأولى مما يمكن أن يشير إلى أي مستقبل خاص كصــائــد أفكار أو محلل تنميطي جنائي.

ولدتُ في بروكلين، نيويورك، قرب الحدود مع كوينز. كان والدي، جاك، طبَّاعًا في بروكلين إيجل. حين كنت في الثامنة، وبدافع قلقه من ارتفاع معدل الجريمة، انتقل بنا إلى همبستد، لونج آيلاند، حيث أصبح رئيس اتحاد عمال الطباعة في لونج آيلاند. لدي شقيقة واحدة؛ آرلين، أكبر مني بأربع سنوات ومنذ البداية كانت نجمة العائلة، أكاديميًّا ورياضيًّا.

لم أكن متميزًا أكاديميًّا -كنت في العادة طالبًا بمستوى +C/-B - لكنني كنت مهذبًا وحسن المعشر وعلى علاقة طيبة دائمًا بالمدرسين في مدرسة لودلم الابتدائية على الرغم من أدائي المتوسط. كنت مهتمًّا كثيرًا بالحيوانات وفي مناسبات عديدة كان لدي كلاب، وقطط، وأرانب، وهامستر، وأفاعٍ، تحمَّلتْها أمي جميعًا لأنني كنت قد قلت إنني أريد أن أكون طبيبًا بيطريًّا. وبِعَدِّ أن هذا أبدى بشائر الاهتمام بمهنة حقيقية، فقد شجعتني على ذلك.

لكن الجانب الذي برعتُ فيه في المدرسة كان سرد القصص، ولعل هذا، بطريقة ما، قد ساهم في أن أصبح محققًا جنائيًّا.

إذ يتوجب على المحققين ومحللي مواقع الجريمة أن يأخذوا عددًا من الأدلة المتباينة التي تبدو غير مرتبطة وأن يكوِّنوا منها سردية متماسكة، لذلك فإن القدرة على السرد تعدُّ موهبة مهمة، لا سيما في تحقيقات جرائم القتل، حيث لا يكون بمقدور الضحية أن تخبر قصتها بشكل مترابط.

وعلى أي حال، فقد استخدمت موهبتي في الغالب لتجنب فعل عمل حقيقي. أذكر مرة في الصف التاسع، كنت كسولًا جدًّا لأقرأ رواية من أجل تقرير قراءة شفهية أمام الصف. لذلك حين جاء دوري (ما زلت لا أستطيع تصديق أنه كانت لدي الجرأة لفعل ذلك)، اختلقت عنوان كتاب، واختلقت اسم المؤلف، وبدأت أروي هذه القصة عن مجموعة من الأصدقاء المعسكِرين حول نار المخيم في الليل.

كنت أختلق ذلك قدر استطاعتي، وكنت أفكر في سري، *إلى متى سأستمر في النجاح في هذا؟* كان هناك ذلك الدب الذي يتسلل خلسة نحوهم، وعلى وشك الانقضاض، ثم في تلك النقطة شعرت أني فشلت. بدأت في الانهيار ولم يكن أمامي سوى أن أعترف للمدرس بأنني اختلقت الأمر برمته. لا بد أنه كان إحساس الضمير بالذنب، ما يثبت أني لم أكن شخصية إجرامية بالكامل. ها أنا هنا، مكشوف تمامًا، عالِم أنني قد أرسب في هذه المادة، وعلى وشك التعرض للإحراج أمام كل أقراني، وكان بوسعي أن أتوقع ما كانت أمي ستقوله حين تكتشف الأمر.

لكن لمفاجأتي وذهولي، كان المدرس وبقية التلاميذ مصدقين القصة! وحين أخبرتهم بأنني كنت أختلق ذلك، قالوا جميعًا: «أنهِها. أخبرنا ما سيجري بعد ذلك»، وفعلت، وخرجت وقد نلت درجة A. ولوقت طويل، لم أخبر هذه القصة لطفلتيَّ لأنني لا أريد لهما أن تظنا بأن الجريمة مجدية، لكنني تعلمت من هذه الحادثة أنه إذا تمكنت من إقناع الناس بأفكارك وأبقيتهم مهتمين ومتشوقين، فسوف يكون في مقدورك غالبًا جعلهم يتماشون معك. ساعدني هذا كضابط قانوني مرات لا حصر لها حين كنت أقنع رؤسائي أو إدارات الشرطة المحلية بقيم خدماتنا. لكن يجب أن أقر أنه إلى درجة معينة، فإنها الموهبة ذاتها التي يمكن للمحتالين والجناة الاستمرار بها.

بالمناسبة، لقد انتهى المطاف بالمعسكِرين الوهميين في النجاة بأنفسهم، وقد كان هذا بعيدًا عن كونه نتيجة حتمية لكون حبي الحقيقي كان للحيوانات.

لذلك، استعدادًا لأكون طبيبًا بيطريًّا، قضيت ثلاثة فصول صيف في مزارع الألبان في شمال ولاية نيويورك في برنامج «كورنل فارم كاديت بروجرام» الذي ترعاه كلية الطب البيطري في الجامعة. كانت تلك فرصة عظيمة لأطفال المدينة للخروج إلى الطبيعة والتعايش معها، وفي مقابل هذه المزية، كنت أعمل من سبعين إلى ثمانين ساعة أسبوعيًّا مقابل 15 دولارًا، بينما كان زملائي في المدرسة يتشمسون في جونز بيتش. ولو لم أحلب بقرة أخرى، كنت سأحسُّ بفراغ كبير في حياتي.

كل هذا العمل البدني جعلني في حالة بدنية لائقة للرياضة، التي كانت الشغف الكبير الثاني في حياتي. في مدرسة همبستد الثانوية، شاركتُ في فريق البيسبول ولعبتُ في خط الدفاع في كرة القدم. وحين أستعيد ذلك، فقد كان ذلك أول ظهور حقيقي على السطح لاهتمامي بالتحليل التنميطي للشخصيات. في الملعب، أدركت سريعًا أن رمي الكرة بقوة والتصويب الدقيق ليس سوى نصف المعركة. كانت لدي انطلاقة سريعة بالكرة وانزلاق متميز، لكن الكثير من رماة الكرة في المدرسة كانت لديهم هذه الميزة، أو شيء يوازي ذلك. كان السر يكمن في قدرتك على التميز، وقد أدركت أن هذا مرتبط بشكل رئيسي بتكوين حالة من الثقة العالية بالنفس وجعل الشخص الواقف أمامك في الملعب غير آمن قدر الإمكان. وقد تكرر هذا بطريقة مماثلة بعد سنوات حين بدأتُ تطوير تقنياتي الاستجوابية.

في المدرسة الثانوية، كنت بطول 6.2 أقدام، الأمر الذي استخدمتُه لصالحي. من حيث الموهبة، كنا فريقًا متوسطًا في دوري جيد، وعرفت أن مهمة الرامي أن يكون قائد الفريق على الملعب وأن يضع نغمة الفوز دائمًا في أفراد الفريق. كنت أتمتع بقدرة جيدة على السيطرة بالنسبة إلى طالب ثانوي، لكنني قررت ألا أجعل اللاعب صاحب المضرب مقابلي يعرف ذلك. أردت أن أبدو متهورًا، وغير متوقع الحركات إلى حد ما، بحيث لا يحفر اللاعب بقدمه في الرمال. أردت جعلهم يظنون أنهم إذا فعلوا، فإنهم سيخاطرون إما بالابتعاد عن قاعدته أو ما هو أسوأ من الهزيمة أمام هذا الرجل الجامح على بعد ستين قدمًا.

كان في همبستد فريق كرة قدم جيد، كنت فيه لاعب دفاع بوزن 188 باوندًا. ومجددًا، أدركت أن الجانب النفسي في اللعبة كفيل بأن يمنحنا التفوق.

اكتشفتُ أن بإمكاني مقارعة الأشخاص الأضخم مني إذا ما نخرت وصرخت وتصرفت عمومًا مثل شخص مجنون. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن أجعل جميع لاعبي خط الدفاع يتصرفون بالأسلوب ذاته. لاحقًا، حين كنت أعمل باستمرار في محاكمات جرائم قتل كان الجنون يستخدَم فيها من قبل الدفاع، كنت أدري من تجربتي الخاصة أن حقيقة أن يتصرف الشخص كمجنون لا تعني أنه لا يعرف بالضبط ماذا يفعل.

في عام 1962، كنا نلعب ضد ثانوية واتانا على جائزة ثروب، كأس أفضل فريق كرة قدم لمدرسة ثانوية في لونج آيلاند. كانوا يفوقوننا وزنًا بنحو 40 باوندًا للاعب، وعلمنا أن الفرص واردة بقوة لأن يهزمونا شر هزيمة في ملعب امتلأ عن آخره. لذلك، وقبل المباراة، بدأنا تدريبات إحماء هدفها الوحيد إرهاب منافسينا. شكَّلنا رتلين من اللاعبين، وأخذ اللاعب الأول من الرتل الأول ينقض على اللاعب الأول من الرتل الثاني (عمليًا كان يوقعه أرضًا). وكان يواكب هذه الصرخات والأنَّات صيحات الألم. وقد تمكنا (من خلال رؤية وجوه لاعبي فريق ثانوية واتانا) أن نحقق التأثير المطلوب. لا بد أنهم كانوا يفكرون «إذا كان هؤلاء المهرجون قادرين على فعل ذلك ببعضهم، فالرب وحده يعرف ما سيفعلونه بنا».

في الحقيقة، كان الأمر كله مرتبًا بدقة. لقد تدربنا على حركات المصارعة الحرة بحيث نبدو أننا نقع على الأرض بقوة، لكن دون أن نؤذي أنفسنا. وحين بدأنا المباراة الحقيقية، واصلنا إظهار شيء من الجنون بحيث نبدو وكأننا هربنا من مصحة نفسية لأمسية واحدة فقط وسنعود بمجرد نهاية المباراة. كانت المنافسة متقاربة طوال المباراة، لكن في نهاية الأمر، فزنا بنتيجة 14-13 وحظينا بجائزة ثروب لعام 1962.

أول تجربة في «إنفاذ القانون»، في الحقيقة، تجربتي «الحقيقية» الأولى في التنميط، كانت في عمر الثامنة عشرة، حين نلت وظيفة حارس في حانة ونادٍ في همبستد يسمى جازلايت إيست.

كنت جيدًا جدًّا في هذا العمل إلى درجة أنني حظيت بالوظيفة نفسها في نادي التزلج على الماء في لونج بيتش.

في كلا المكانين، كانت المسؤوليتان الأساسيتان المنوطتان بي إبعاد أولئك الذين هم تحت السن القانونية للشراب، بمعنى آخر، أي شخص أصغر

مني بالإضافة لتضييق دائرة المعارك التي تحدث في الأماكن التي يستهلَك بها الكحول أو تفريقها.

واقفًا عند الباب، كنت أطلب بطاقة هوية كلٍّ من أشتبه في عمره، ثم كنت أسأله/ـها عن تاريخ الميلاد لأرى إن كان مطابقًا. هذا إجراء تقليدي وهو ما يتوقعه الجميع، لذلك سيكونون مستعدين له بلا شك، إذ نادرًا ما يمكن لفتى تمكن من حل مشكلة حمل بطاقة هوية مزورة أن يكون مهملًا للغاية لئلا يتذكر تاريخ الولادة المذكور عليها. كان النظر مليًا في أعينهم خلال السؤال تقنية فاعلة مع بعض الأشخاص، لا سيما الفتيات، اللواتي يمتلكن ضميرًا اجتماعيًا أكثر تطورًا في ذلك العمر. لكن أولئك الذين يريدون الدخول فعلًا سيتمكنون من فعل ذلك إذا ما ركزوا على أدائهم لبضع لحظات.

ما كنت أفعله خلال سؤالي كل مجموعة من الشبان بعد وصولهم إلى مقدمة الرتل هو أن أتفحص بشكل سري الأشخاص الواقفين على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف إلى الوراء، مراقبًا إياهم خلال استعدادهم لتلقي الأسئلة، وملاحظًا لغة أجسادهم، وملاحظًا ما إذا أظهروا علامات توتر أو تردد.

كان تفريق المعارك يشكّل حالة من التحدي، وقد استندت من أجل ذلك على خبرتي الرياضية. إذا شاهدوا في عينيك نظرة توحي لهم أنه لا يمكن التنبؤ بأفعالك وأنك تتصرف بناء على مجريات اللحظة، فإنه في بعض الأحيان حتى الأشخاص ذوي الأجساد الضخمة سيفكرون مرتين قبل التعرض لك. إذا فكرت أنه ليس عليك أن تقلق بشأن سلامتك، حينها ستصبح خصمًا أقوى بكثير. وبعد عشرين سنة تقريبًا، على سبيل المثال، حين كنا نُجري مقابلات في السجن لأجل دراسة مهمة عن القتلة المتسلسلين، عرفنا أن شخصية القاتل النموذجي أكثر خطورة بكثير في نواحٍ مصيرية معينة من شخصية القاتل المتسلسل النمطي، لأنه على عكس القاتل المتسلسل، الذي سيكتفي باختيار الضحية التي يمكنه التعامل معها ثم سيحاول قصارى جهده لتجنب الوقوع في قبضة الشرطة، فإن السفاح مهووس بشدة بـ «مهمته» وهو على استعداد للموت في سبيل تحقيقها.

الاعتبار الآخر في جعل الآخرين يمتلكون رأيًا خاصًا بشأنك -مثل أن تكون لا عقلانيًا ومجنونًا بما يكفي لكي تكون غير قابل للتنبؤ بأفعالك- هو أن عليك امتلاك تلك الشخصية طوال الوقت في عملك، ليس فقط بينما تظن أن الآخرين ينظرون إليك. عندما أجريت مقابلة مع جاري ترابنل، اللص المسلح

وخاطف الطائرات سيئ السمعة، في سجن فيدرالي في ماريون، إلينوي، زعم بأن بمقدوره أن يخدع أي طبيب نفسي في السجن ليجعله يعتقد أن لديه مرضًا عقليًّا يهمني أن أحدده. كان مفتاح فعل ذلك، حسب ما أخبرني، هو أن تتصرف بتلك الطريقة كل الوقت، حتى حين يكون وحيدًا في زنزانته، لذلك حين يجرون مقابلة معك، لن يكون عليك أن «تفكر» في طريقة تنفيذ ذلك، مما سيحقق لك ما تريد. لذا، قبل زمن طويل من إفادتي من تلك النصيحة «الخبيرة»، قد بدا أن لدي غريزة ما في التفكير كمجرم.

حين لم أستطِع تخويف الأشخاص في عراك في الحانة، حاولت استخدام تقنياتي التنميطية الهاوية لفعل الشيء التالي المهم وتجنب ذلك قبل أن يصبح جدًا. توصلت إلى ذلك بقليل من التجربة، عبر الملاحظة الدقيقة للغة الجسد، كنت قادرًا على ربط ذلك بنوع الفعل الذي سينتهي به الحال إلى تفريق العراك بحيث يمكنني توقع ما إذا كان أحد ما سيبادر بفعل شيء. في تلك الحالة، أو في حال وجود شك، كنت دائمًا أنقضّ أولًا، مستخدمًا عنصر المفاجأة ومحاولًا إخراج المعتدي الأساسي من البناء وإيصاله للشارع قبل أن يدرك حتى ماذا كان يحدث له. قلت دائمًا إن معظم القتلة الجنسيين والمغتصبين المتسلسلين يصبحون بارعين في التحكم؛ الاستغلال والسيطرة، وهي المهارات ذاتها التي كنت أحاول إتقانها في سياق مختلف، لكن على الأقل كنت أحاول.

حين تخرجت في المدرسة الثانوية، كنت لا أزال راغبًا في أن أصبح طبيبًا بيطريًّا، لكن درجاتي لم تكن جيدة بما يكفي لتدخلني كورنل.

كان أفضل ما يمكنني فعله هو أن أحصل على برنامج مشابه في ولاية مونتانا. لذلك في 13 سبتمبر 1963، توجه فتى بروكلين ولونج آيلاند إلى قلب بلد السماء الكبيرة؛ Big Sky.

كانت الصدمة الثقافية إبان الوصول إلى بوزمان كبيرة للغاية. «تحياتي من مونتانا»، كتبت في إحدى رسائلي المبكرة، «حيث الرجال رجال والأغنام متوترة». بدت مونتانا وكأنها تمثل جميع التصورات النمطية والكليشيهات التي أعرفها عن الحياة الغربية والحدودية، وبالتالي كنت أتعامل مع أولئك الأشخاص الذين التقيتهم كشرقي. انضممت إلى أخوية سيجما في إبسيلون المحلية، التي كانت تتألف بشكل كامل من الشباب المحليين، لذلك كنت أقف كأنني في غير مكاني. اعتدت وضع قبعة سوداء، وثياب سوداء، وحذاء

أسود، وكان لدي سالفان طويلان كأنني شخصية خارجة من *ويست سايد ستوري*، وهو ما كان شائعًا جدًّا أن يُنظَر إليه بالنسبة إلى نيويوركي، كما هو الحال بالنسبة إليَّ، في تلك الأيام، لذلك كنت جديًّا في كل شيء. في جميع اللقاءات الاجتماعية، كان المحليون يرتدون الزي الغربي ويرقصون رقصة الخطوتين، بينما كنت أقضي السنوات العديدة الماضية وأنا أتابع تشابي تشيكر في التلفاز وكنت على دراية بكل حركات وتنويعات التفافات الرقص. لأن أختي؛ آرلين، التي تكبرني بأربع سنوات، كانت قد وضعتني منذ زمن طويل كشريكها في التدرب على الرقص، لذلك أصبحت خلال زمن قصير مدرس الرقص الخاص للزملاء في الجامعة. شعرت كأنني مرتزق ذاهب إلى منطقة بعيدة لم تسمع بها اللغة الإنجليزية من قبل.

لم أحظَ بسمعة جيدة كطالب، لكن درجاتي الآن كانت قد وصلت إلى أدنى مستوى لذلك ركزت على كل شيء. كنت قد عملت حارسًا في حانة في نيويورك، لكن هنا في مونتانا، كانت السن القانونية للشرب الحادية والعشرين، مما شكَّل خسارة كبيرة لي. لحسن الحظ، لم أدَع ذلك يوقفني.

حدثت أول مواجهة لي مع القانون حين خرجنا أنا وأحد أفراد الأخوية مع تينك الفتاتين اللتين كانتا في منزل للأمهات غير المتزوجات. كانتا ناضجتين بالنسبة إلى عمرهما...

توقفنا عند حانة ودخلنا لشراء ست علب بيرة.

قال النادل: «أرِني بطاقة هويتك». فأظهرت له بطاقة الخدمة الانتقائية الزائفة. من خبرتي كحارس، تعلمت بعض العثرات والأخطاء المتعلِّقة بالهوية الزائفة.

نظر الرجل إلى بطاقتي وقال: «بروكلين، ها؟ أنتم الآتون من الشرق أوغاد كبار، أليس كذلك؟» صدرت مني ضحكة واعية ومتحكمة، لكن كل من في الحانة قد التفت، لذلك لدي شهود الآن. عدت إلى موقف السيارات وابتعدنا ونحن نشرب البيرة، ودون علمي، وضعتْ إحدى الفتاتين علب البيرة على غطاء السيارة، وبشكل مفاجئ، سمعتُ صوت صافرة إنذار سيارة الشرطة. أوقفنا شرطي. «ترجلوا من السيارة»، فترجلنا منها. بدأ يفتشنا، لكن حتى لو عرفت في ذلك الوقت أنه تفتيش غير قانوني، فبالتأكيد لم أكن لأتفوه بشيء تجاهه. كان يستعرض مسدسه وهراوته ومر في ذهني ذلك الخاطر المجنون

في جزء من الثانية، أن بمقدوري أن آخذ الهراوة، أضربه على رأسه، وأمسك المسدس، وأمضي. لكن لحسن حظ مستقبلي، لم أفعل. لكن لعلمي أنه آتٍ باتجاهي، أخرجت بطاقة هويتي من محفظتي وخبأتها في ثيابي الداخلية. أخذنا نحن الأربعة إلى مركز الشرطة، فرَّقَنا، وكنت أتصبب عرقًا لأنني أعرف ما يفعلونه وكنت أخشى أن ينقلب الشخص الآخر عليَّ.

قال لي أحد الضباط: «والآن يا بني، أخبرنا؛ إذا لم يطلب ذلك الرجل في الحانة بطاقة هويتك، سنعود إلى هناك. لقد واجهنا مشكلات معه من قبل». أجبت: «في المكان الذي جئت منه، فإننا لا نشي بالناس. لا نفعل هذه الأشياء». كنت ألعب دور جورج رافت، لكنني كنت أفكر في نفسي: *بالطبع لقد طلب بطاقة هويتي، وأعطيته واحدة مزيفة!* طوال الوقت كانت تنزلق في سروالي الداخلي، وكانت تقرص أعضائي الحيوية. لا أعلم إن كانوا سيفتشوننا بعد خلع ثيابنا أو شيء كهذا. أعني، هذه هي الحدود التي أخشى الاقتراب منها والرب يعلم ما سيفعلونه، لذلك قدَّرت الوضع سريعًا وادَّعيت الغثيان. أخبرتهم بأنني بحاجة إلى استعمال الحمام.

تركوني أذهب وحيدًا، لكنني قد شاهدت الكثير من الأفلام، لذلك حين دخلت ونظرت في المرآة، كنت أخشى أن يكونوا ينظرون إليَّ من الناحية الأخرى. توجهت إلى الغرفة مباشرة، أدخلت يدي في بنطالي وأخرجت البطاقة، ثم ذهبت وتظاهرت أنني أتقيأ في حال كانوا يشاهدون. ذهبت إلى المرحاض ورميت فيه بطاقة الخدمة الانتقائية وفتحت الماء، ثم رجعت بمزيد من الثقة. انتهى الأمر بغرامة 40 دولارًا وإطلاق سراح مشروط.

كانت مواجهتي الثانية مع شرطة بوزمان في سنتي الثانية، وكانت أسوأ.

ذهبت إلى ميدان الروديو مع زميلين من الشرق وآخر من مونتانا. غادرنا في سيارة ستودباكر موديل 1962، وكان معنا بيرة في السيارة، فها نحن أولاء مجددًا. كانت تثلج بجنون. كان الفتى الذي يقود من بوسطن، وكنت جالسًا في المقعد الأمامي، وكان الشاب المحلي بيننا. بكل الأحوال، تجاوز الشاب الذي يقود إشارة توقف، و -ألم تكن تعلم؟- كان هناك شرطي. كانت تلك العلامة المميزة في حياتي في مونتانا. مهما قيل عن عدم وجود رجال الشرطة حين تحتاج إليهم، فلم يكن ذلك صحيحًا في مونتانا عام 1965.

لذلك فإن ذلك الشاب الأحمق من أخويتي -لا أستطيع تصديق ذلك- لم يتوقف! فانطلق في مطاردة حامية كان طرفها الآخر -الشرطي- وراءنا.

في كل مرة كنا ننعطف فيها ونبتعد للحظة عن عين الشرطي، كنت أرمي عبوات البيرة من السيارة. واصلنا المسير ووصلنا ذلك الحي، عابرين مطبات السرعة: بووم، بووم، بووم. وصلنا لطريق مسدود بحاجز، فلا بد أن الشرطي قد اتصل عبر الراديو. قدنا حول الحاجز ثم مررنا عبر حديقة أحدهم، كنت أصرخ: «أوقف هذه السيارة اللعينة! أنزلني هنا!» لكن الأحمق كان يواصل القيادة. كانت السيارة تلف وكانت السماء تثلج بجنون، ثم سمعنا صافرات الإنذار خلفنا مباشرة.

وصلنا إلى تقاطع. ضغط على الفرامل، لفت السيارة 360 درجة، انفتح الباب ورُميتُ خارج السيارة. كنت متعلقًا بالباب وخلفيتي تسحب بقوة على ثلج الأرض، ثم صرخ أحد ما فجأة: «اركضوا!».

فركضنا في اتجاهات مختلفة. وصلت إلى الزقاق، حيث وجدت شاحنة بيك آب فارغة ودخلت فيها. رميت قبعتي السوداء خلال الركض. وكنت أرتدي سترة سوداء وذهبية قابلة للارتداء بالعكس، خلعتها ولبستها على الجانب الذهبي كنوع من التمويه، لكنني كنت أتصبب عرقًا وكان هناك ما يشبه الضباب على النوافذ. كنت أفكر: *أوه، سحقًا، سيتمكنون من رؤيتي*. وكنت أخشى أن يعود أصحاب السيارة في أي دقيقة، وهناك، ربما كانت لديهم أسلحة. فمسحت جزءًا من زجاج النافذة كي أتمكن من الرؤية، وكان هناك حول السيارة كل النشاطات التي تخلينا عنها: سيارات شرطة، كلاب تفتيش، سمِّها ما شئت. وهم الآن يتجهون لأعلى الزقاق، كانت أضواء كشافاتهم تضيء على سيارة البيك آب، وكنت على وشك أن أتغوط في بنطالي. لكنني لم أستطع تصديق أنهم وصلوا إلى هنا وتركوني!

عدت إلى الكلية وكان الجميع على علم بشأن ذلك، اكتشفت أنني والاثنين من الشرق قد تمكنا من الهروب، لكنهم أمسكوا بالشاب من مونتانا الذي أخرج كل ما لديه. أعطاهم الأسماء وجاؤوا ليتعقبوا كلًّا منا. عندما وصلوا إلي، كنت أصر على أنني لم أكن أستطيع السيطرة على السيارة، وأنني كنت خائفًا وناشدت السائق أن يتوقف. في ذلك الوقت، سُجِن السائق من بوسطن في زنزانة لا يوجد فيها سوى سرير بنوابض حديدية دون مرتبة، خبز وماء بينما خدمني حظي الهائل بالخروج بغرامة 40 دولارًا أخرى بسبب حيازة الكحول، وإطلاق السراح المشروط.

لكنهم أخطروا الكلية، وأخطروا أهلنا، الذين كانوا في قمة الغضب، ولم تكن الأمور أفضل على المستوى التعليمي. كنت بمعدل D دائم، ورسبت في صف الخطاب لأنني لم أكن أحضر إلى الصف -وقد كانت أدنى درجة لي على الإطلاق لأنني شعرت دائمًا أن القدرة على الكلام كانت أفضل ما لدي- ولم أكن أعلم كيف سأستطيع إخراج نفسي من هذا المستنقع.

في نهاية السنة الثانية، كان واضحًا أن مغامرتي في الغرب الجامح قد وصلت إلى نهايتها، إذا بدا أن كل ذكرياتي من هذه الفترة مليئة بالحوادث المؤسفة والإخفاقات، فذلك ما بدا لي آنذاك. عدت للمنزل لأعيش تحت نظر والديَّ خائبَي الأمل. كانت والدتي، خصوصًا، مستاءة، لعلمها أنني لن أصبح طبيبًا بيطريًّا على الإطلاق. وكالعادة حين لم أكن أعرف ما أفعل بنفسي، اعتمدت على مهارتي الرياضية وعملت في وظيفة منقذ في صيف 1965. وحين انتهى الصيف ولم أكن عائدًا إلى الكلية، وجدت عملًا في إدارة النادي الصحي في فندق *هوليداي إن* في باتشوجو.

لم يمضِ وقت طويل بعد عملي هناك، حتى قابلت ساندي، التي عملت في الفندق نادلة كوكتيل. كانت شابة جميلة لها ابن صغير وأصبحتُ مجنونًا بها في الحال. كانت مميزة في زيِّ الكوكتيل، وكنت في حالة جسمانية جيدة من التدرب والتمارين، وبدا أنها معجبة بي أيضًا. كنت أعيش في المنزل وكانت تتصل بي كل الوقت. قال لي والدي: «من هذه التي تتصل بك طوال النهار والليل؟ هناك دائمًا صوت ذلك الطفل الصغير في الخلفية يبكي ويصرخ».

لم يتِح لي العيش في المنزل الفرصة لفعل شيء، لكن ساندي أخبرتني أنه إذا عملت في الفندق، فسوف أتمكن من الحصول على غرفة بمقابل زهيد حقًّا. لذلك حصلنا في أحد الأيام على غرفة معًا.

في الصباح التالي، باكرًا، رن الهاتف. ردت وسمعتها تقول، «لا!، لا! لا أريد أن أتحدث إليه!»

فاستيقظت، قلت: «من هذا؟».

قالت: «مكتب الاستقبال. قالوا إن زوجي هنا وهو متجه للأعلى».

انتبهت فجأة، وصحت: «زوجك؟ ماذا تعنين؟ زوجك! لم تخبريني من قبل أنك لا تزالين متزوجة!».

فأشارت أنها لم تقل لي إنها لم تكن كذلك أيضًا، ثم بدأت تشرح لماذا انفصلا.

عظيم! فكرت بينما بدأت أسمع صوت ذلك المجنون يركض في الردهة.

بدأ يضرب على الجدار. «ساندي! أعرف أنك هنا، ساندي!» للغرفة نافذة على الممر مصنوعة من فتحات زجاجية، وكان يضربها ويحاول اقتلاعها من الإطار. في ذلك الوقت كنت أبحث عن مكان لأقفز منه -كنا في الطابق الثاني- لكن لا نافذة لي لأقفز منها.

سألت: «هل يحمل هذا الرجل أسلحة أو ما شابه؟»

«في بعض الأحيان يحمل سكينًا»، قالت.

«أوه تبًا! هذا عظيم! يجب أن أخرج من هنا. افتحي الباب». تورطت في هذا الموقف العصيب شديد التوتر. تفتح الباب. يتوجه الزوج راكضًا. يتوجه إليَّ مباشرة. لكنه يرى تجسيد ظلي، ولا بد أنني بدوت ضخمًا وقويًا، فغيَّر رأيه وتوقف. لكنه أخذ يصرخ: «يا بن الساقطة! لقد خرجت!» ونظرًا لأن ما جرى كافٍ لذلك اليوم، الذي كان لا يزال في بدايته، قلت له بتهذيب شديد: «نعم يا سيدي. لقد كنت ذاهبًا». حالفني الحظ مجددًا، الخروج من مأزق سالمًا. لكنني لم أستطع تجنب حقيقة أن كل شيء في حياتي كان متوجهًا للجحيم. وبالمناسبة، فقد كسرت محور سيارة أبي الـ *ساب* خلال سباق مع صديقي بيل تيرنر.

كان ذلك في صباح أحد أيام الأحد حين دخلت أمي غرفتي برسالة من الخدمة الانتقائية يقولون فيها إنهم يريدون رؤيتي. ذهبت إلى وايتهول بلايس في مانهاتن من أجل الاختبار البدني العسكري وكنت ضمن ثلاثمائة شخص. جعلوني أثني ركبتي عميقًا وكان يمكن سماع الطقطقة حين كنت أفعل. كنت قد أجريت عملية إخراج للغضروف من ركبتي أيام لعب كرة القدم، مثل جو ناناث، لكن لا بد أنه كان لديه محامٍ أفضل. علقوا اتخاذ القرار لوهلة، لكن في النهاية أخبروني أن العم سام يريدني، حقًا.

بدلًا من اغتنام فرصتي في الجيش، انضممت مباشرة إلى سلاح الجو، حتى على الرغم من أن ذلك يعني توقفًا لأربع سنوات، ظنًّا مني أنه سيكون هناك فرص تعليمية أفضل. ربما ذلك ما كنت بحاجة إليه، إذ إنني لم أحظَ بالتأكيد بفرص تعليمية جيدة في نيويورك أو مونتانا. كان هناك سبب آخر يدفعني للذهاب إلى سلاح الجو؛ كنا في عام 1966 وحرب فيتنام تتصاعد. لم

أكن ضليعًا في السياسة، كنت أعِدُّ نفسي ديمقراطيًّا مناصرًا لـ كينيدي بسبب والدي، الذي كان مسؤولًا في اتحاد مطبعيِّي لونج آيلاند. لكن فكرة أن أُصاب بسبب نصرتي لقضية لم تكن أسبابها واضحة بالنسبة إليَّ لم تكن جذابة. أذكر في مرة أن أحد عمال الصيانة الميكانيكية في سلاح الجو أخبرني أنهم كانوا الخدمة الوحيدة التي يذهب فيها الضباط -الطيارون- إلى المعركة بينما الرجال المجندون يدعمونهم من الخلف. وبسبب عدم وجود نية لي لأن أصبح طيارًا، فقد كان ذلك جديًّا بالنسبة إليَّ.

أُرسلتُ إلى أماريلو تكساس للتدريب الأساسي. كان طيراننا -وهو ما يسمى به الصف التدريبي في سلاح الجو- المؤلَّف من خمسين شخصًا مقسمًا بين نيويوركيين مثلي أنا وشبان جنوبيين من لويزيانا. كان المدرب يقسو على الشماليين، وفي معظم الوقت كنت أفكر أن هذا مبرر. كنت أتسكع عمومًا مع الجنوبيين لأنني وجدتهم ألطف وأسهل معشرًا من زملائي ممن هم من نيويورك.

وبالنسبة إلى كثير من الشباب، فقد كان التدريب الأساسي عملية مضنية. مع كل الانضباط الذي اختبرته من المدربين في الفرق الرياضية، وبما أعترف أنني مررت به خلال السنوات الماضية، فقد وجدت التدريب كله أشبه بالمزحة. كان يمكنني أن أرى ما هو بعد هذه الاكتشافات الشعورية والتجارب النفسية، وكنت في حال بدنية جيدة، لذلك فقد كان التدريب الأساسي نوعًا من التجربة السهلة بالنسبة إليَّ. تأهلتُ سريعًا لكوني مسدِّدًا خبيرًا على بندقية M16، الذي كان ربما كاستمرار للهدف الذي وضعته كرامي كرات في المدرسة الثانوية. وحتى الوصول إلى سلاح الجو، كانت التجربة الوحيدة التي استخدمت فيها البندقية هي التصويب على مصابيح الإضاءة في الشارع ببندقية BB كشاب يافع.

خلال التدريب الأساسي كنت أطوِّر نوعًا آخر من السمعة السيئة. بسبب رفع الأثقال وبرأسي الحليق تمامًا، أصبحت معروفًا بـ «الدب الروسي». كان هناك شاب في صف آخر لديه سمعة مشابهة، وقد خرج أحدهم بفكرة لامعة؛ أنه سيكون في صالح معنويات القاعدة إذا ما تنافس كلانا في مباراة ملاكمة.

كان ذلك حدثًا كبيرًا في القاعدة. كنا متقاربين جدًّا، وقد رفض كل منا أن يتنازل. انتهى بنا الحال وقد أنهكنا بعضنا، وكسرت أنفي للمرة الثالثة (كانت المرتان الأوليان خلال ممارسة كرة القدم في الثانوية).

مهما كان الأمر يستحق، فقد كنت الثالث على خمسين شخصًا في رحلتي. بعد التدريب الأساسي، خضعت لعدد من الاختبارات وأخبروني أنني مؤهل لمدرسة التواصل اللاسلكي. لكن مدرسة التواصل اللاسلكي كانت مكتملة العدد ولم أكن معجبًا بفكرة الانتظار إلى أن يبدأ العام الدراسي التالي، لذلك جعلوني موظف آلة كاتبة على الرغم من أنني لم أكن قادرًا على الكتابة على الآلة الكاتبة. كان هناك افتتاح لإدارة الموظفين في قاعدة كانون إير للقوات الجوية، على بعد مئات الأميال خارج كلوفيس، نيو مكسيكو. لذلك انتهى بي المطاف هناك، أقضي طوال اليوم أكتب وثائق DD214s- أوراق التسريح العسكري بإصبعين، لأعمل مع هذا الرقيب الأحمق وأقول لنفسي: *يجب أن أخرج من هنا.*

مجددًا، هذا ما دفعني إليه حظي. في الباب المجاور لإدارة الموظفين كانت هناك الخدمة الخاصة. حين أذكر هذا، يفكر معظم الناس في القوات الخاصة، مثل الـ جرين بيريتز. لكن تلك كانت الخدمة الخاصة، وبشكل محدد، خدمة خاصة-رياضيين. وبالخلفية التي لدي، بدا أنها طريقة ممتازة للدفاع عن بلدي في وقت الحاجة.

بدأت بالتجول، وبالتنصت خلف الأبواب، وسمعت أحد الأشخاص هناك يقول: «هذا البرنامج سيتجه للجحيم. ليس لدينا الشخص المناسب». كنت أفكر في نفسي، هذه هي! لذلك تمشيت، طرقت الباب، وقلت: «مرحبًا، أنا جون دوجلاس، دعوني أخبركم قليلًا عن خلفيتي».

كنت خلال حديثي أنظر إليهم بحثًا عن ردود أفعالهم و «تنميط» نوع الشخص الذي يريدونه.

وأعرف أنني كنت أنجح في ذلك، لأنهم ما فتئوا ينظرون إلى بعضهم كأنهم يتساءلون «هذه معجزة! إنه الشخص الذي نريده بالضبط!» لذلك نقلوني من إدارة الموظفين، ومنذ ذلك اليوم، لم يتوجب علي أن أرتدي زيًا موحدًا، دفعوا لي مبلغًا إضافيًا كجندي مسجل لإدارة البرامج الرياضية، وأصبحتُ مؤهلًا لعملية بوتستراب، Operation Bootstrap، حيث تكفلت الحكومة بدفع 75 في المائة من مصاريف دراستي للذهاب إلى الكلية في المساء وفي الإجازة الأسبوعية، وقد فعلت، في جامعة إيسترن نيو مكسيكو في بورتالس، على بعد خمسة وعشرين ميلًا. ولأنه كان عليَّ أن أتجاوز معدل D الذي لطالما كنت

أحصل عليه في الكلية، فقد كان عليَّ أن أنال درجات A للبقاء في البرنامج. لكن للمرة الأولى، شعرت أن لدي بعض التركيز.

أنجزت عملًا جيدًا في تمثيل القوات الجوية في الرياضات الصارمة مثل التنس، وكرة القدم، والبادمنتون ما أدى في نهاية الأمر لأن يجعلوني مسؤولًا عن ملعب الغولف الأساسي ومتجر المحترفين، حتى على الرغم من أنني لم ألعب الغولف في حياتي، لكنني ظهرت بشكل ممتاز في إدارة الدورات والمسابقات مرتديًا سترة آرنولد بالمر.

في إحدى المرات جاء قائد القاعدة وأراد أن يعرف أي كرة مضغوطة يجب أن يستخدمها في هذه المسابقة بالتحديد. لم أكن على دراية عمًّا كان يتحدث، وكما في حادثة تقرير الكتاب في الصف التاسع قبل نحو عشر سنوات؛ فقد وجدت مخرجًا.

«كيف بحق الجحيم وصلت إلى إدارة هذا الأمر؟» أراد أن يعرف. نُقلتُ مباشرة من الغولف ووُضِعتُ في قسم الجواهر النسائية، مما بدا في البداية مثيرًا للاهتمام حتى أدركت أنه يعني الأعمال الحجرية. كما وُضعتُ للإشراف على أعمال الخزف النسائية وحوض سباحة نادي الضباط. كنت أفكر، هؤلاء الضباط يطيرون فوق فيتنام ويُصابون وأنا هنا أحضر الكراسي والمناشف لزوجاتهم الجميلات وأعلِّم أطفالهم كيف يسبحون ويدفعون مبالغ إضافية من أجل هذا بينما أحصل أنا على شهادة جامعية؟! بدت مسؤوليتي الثانية وكأنها تعود بي إلى أيام عملي حارسًا. كان حوض السباحة بجانب البار الخاص بالضباط، والذي كان عادة مليئًا بالطيارين الشباب المتدربين مع القيادة الجوية التكتيكية.

وقد اضطررت أكثر من مرة لأن أدفع الطيارين الجامحين المندفعين لأبعدهم عن بعضهم أو أبعدهم عني.

بعد نحو عامين من وجودي في سلاح الجو، وبينما كنت أتابع دراستي الجامعية، سمعت عن جمعية محلية تساعد الأطفال من ذوي الإعاقة. كانوا بحاجة إلى المساعدة في برامجهم التأهيلية، فتطوعت. ولمرة واحدة أسبوعيًّا، برفقة اثنين من الموظفين المدنيين، كنت أصطحب خمسة عشر طفلًا للتزلج على الجليد أو للعب الغولف المصغر أو البولينج أو ممارسة بعض النشاطات الرياضية التي يتمكن الأطفال من خلالها أن يطوِّروا مهاراتهم وقدراتهم الفردية.

واجه أولئك اليافعون تحديات خطيرة مثل العمى أو متلازمة داون أو مشكلات شديدة في التحكم الحركي. كان عملًا مرهقًا، إذ كان يتوجب عليَّ، على سبيل المثال، أن أتزلج وأنا أدور وأدور حول حلقة ممسكًا بطفل في كل ذراع مع الحرص الشديد على ألا يؤذي أحد نفسه، لكنني أحببت ذلك بكل تأكيد. في الواقع، كانت التجارب التي استمتعت بها في حياتي بهذا القدر قليلة جدًّا.

حين كنت أوقف سيارتي في مدرستهم كل أسبوع، كان الأطفال جميعًا يخرجون لتحيتي، يتجمعون حول السيارة، ثم كنت أترجل ونحتضن بعضنا جميعًا. وفي نهاية كل جلسة أسبوعية، كانوا يشعرون بالحزن لرؤيتي أرحل حين كان يتوجب عليَّ ذلك. كنت أشعر أنني أحظى بالكثير من وراء ذلك، الكثير من المحبة والرفقة في مرحلة من حياتي لم أكن أحصل على مثلها من أي مصدر آخر، فصرت آتي في المساء لأقرأ لهم القصص. كان أولئك الأطفال على النقيض من الأطفال الأصحاء، الذين يُدعَون أطفالًا طبيعيين الذين عملت معهم في القاعدة والذين كانوا معتادين أن يكونوا في مركز الاهتمام ويحظوا بكل ما يريدونه من أهلهم. كان أطفالي «المميزون» يتمتعون بحسٍّ عالٍ لتقدير الأشياء التي تقدَّم لهم، وعلى الرغم من إعاقاتهم، فإنهم كانوا ودودين دائمًا ومتعطشين للمغامرة.

ودون علم مني، فقد كنت مراقبًا في معظم الوقت الذي قضيته مع الأطفال، لا بد أن هذا يدل على قوة الملاحظة التي لم أكتشفها قط! بكل الأحوال، فإن «أدائي» كان مقيَّمًا من قِبَل أعضاء في قسم علم النفس في جامعة إيسترن نيومكسيكو، التي قدمت لي لاحقًا منحة دراسية لأربع سنوات من التعليم الخاص.

وعلى الرغم من أنني كنت أفكر في علم النفس الصناعي، فإنني أحببت الأطفال واعتقدت أن هذا قد يكون اختيارًا جيدًا. في الحقيقة، كنت سأتمكن من البقاء في القوات الجوية وأصبح ضابطًا مع هذه كمهنة. قدمت عرض الجامعة إلى مجلس إدارة شؤون الموظفين المدنيين في القاعدة، لكن بعد النظر فيه، قرروا أن القاعدة ليست في حاجة إلى أحد يحمل شهادة في التعليم الخاص. فكرت أن هذا أمر غريب بسبب كل المعالين في القاعدة، لكن ذلك كان قرارهم. لذلك تخليت عن أفكاري في الذهاب إلى التعليم الخاص

كمهنة، لكنني واصلت العمل التطوعي الذي أحببته كثيرًا. أعياد الميلاد عام 1969، كنتُ متجهًا للمنزل لأرى عائلتي.

توجب علي القيادة مئات الأميال للوصول إلى أماريلو للصعود إلى الطائرة متوجهًا إلى نيويورك، ولم تكن سيارة الفولكسفاجن - بيتل في حالة مناسبة لهذه الرحلة، لذلك بادر صديقي العزيز في القاعدة الجوية، روبرت لافوند، بتبديل سيارته الـ كارمان غيا معي. لكن هذه كانت الطريقة الوحيدة التي أمكنني الوصول بها إلى أماريلو في الوقت المناسب للرحلة.

حين هبطت الطائرة في لاغوارديا، قابلني والداي. بدوَا متجهمين، ومصدومين تقريبًا ولم أتمكن من معرفة السبب. في نهاية الأمر، كنت أغير حياتي وأعطيهما أخيرًا سببًا لئلا يكونا خائبي الأمل فيَّ. ما حصل أنهما قد تلقيا خبرًا مفاده أن سائقًا مجهول الهوية قُتِل قرب القاعدة بسيارة فولكسفاجن كانت مواصفاتها مطابقة لسيارتي. وإلى اللحظة التي رأياني فيها خارجًا من الطائرة، لم يكونا واثقين إن كنت حيًا أم ميتًا. اتضح أن روبرت لافوند، مثل الكثير من الشباب، قد سَكر وفقد الوعي في حفلة أعياد الميلاد. أخبرني بعض الأشخاص الذين كانوا هناك أن بعض الضباط والحاضرين أخرجوه إلى سيارتي، ووضعوه فيها ووضعوا المفتاح فيها، ثم حين استيقظ حاول أن يقود بعيدًا عن القاعدة. كان الثلج يتساقط والجو متجمد، فاصطدم بسيارة ستايشن واغن كانت فيها أم عسكرية وأطفالها.

حمدًا لله أنهم لم يصابوا بأذى، لكن في سيارتي المتهالكة، كان روبرت قد ضُرِبَ بالمقود وخرج من زجاج السيارة، وقُتِلَ.

أخذ هذا يطاردني. كنا قريبين جدًا وقد ابتُليت بفكرة أن هذا لم يكن ليحدث لو أنه لم يعرني سيارته الجديدة. عندما عدت إلى القاعدة، كان عليَّ المطالبة بأمتعته الشخصية، وأن أحزم جميع ممتلكاته وأشحنهم إلى عائلته. كنت أعود بين فينة وأخرى لألقي نظرة على سيارتي المحطمة، وكانت تراودني الأحلام بروبرت والحادثة. لقد كنت معه في اليوم الذي اشترى فيه هدية عيد الميلاد لوالديه في بنساكولا، فلوريدا، هدية وصلت في اليوم ذاته الذي جاء فيه ضباط القاعدة الجوية إلى المنزل ليخبروهما بوفاة ابنهما.

لكنني لم أكن حزينًا فحسب، بل كنت غاضبًا للغاية. ومثل المحقق الذي أصبحت عليه لاحقًا، فقد واصلت طرح الأسئلة إلى أن وصلت إلى الرجلين اللذين اعتقدت أنهما مسؤولان. وجدتهما في مكتبهما، أمسكت بهما ودفعتهما

إلى الجدار. بدأت أضربهما، واحدًا تلو الآخر. كان يجب أن أسيطر عليهما. كنت في غاية الغضب، ولم أكترث إذا ما تعرضت لمحاكمة عسكرية. لأن جلّ ما كان يشغلني هو أنهما قتلا صديقي المقرب.

كانت المحكمة العسكرية لتكون قضية في غاية الفوضوية، على اعتبار أنهم كانوا سيضطرون للتعامل مع اتهامي الرسمي للرجلين. كما أنه، في ذلك الوقت، كان تدخل أمريكا في فيتنام قد بدأ ينتهي تدريجيًا، وكانوا يعرضون التسريح المبكر للجنود المسجلين مع تبقي بضعة أشهر لهم فحسب. لذلك ومن أجل تهدئة الأمور فقد اضطر المسؤولون في إدارة الموظفين إلى أن يسرحوني قبل أواني ببضعة أشهر.

وفيما كنت لا أزال في الخدمة، كنت قد أنهيت دراستي الجامعية وبدأت دراسة الماجستير في علم النفس الصناعي.

كنت أعيش الآن على قانون GI Bill بواقع سبعة دولارات أسبوعيًا، في شقة بلا نوافذ في الطابق السفلي في كلوفيس، مكافحًا أسرابًا من الحشرات والصراصير الكبيرة التي كانت تقوم بتشكيلات هجومية كلما دخلت وأضأت الأنوار. لم أعد أتمتع بالوصول إلى مرافق القاعدة مجددًا، فانضممت إلى نادٍ صحي رخيص ومتهدم يتطابق جوُّه وديكوره نسبيًا مع شقتي.

خلال خريف عام 1970، التقيت في النادي شخصًا يدعى فرانك هاينز، الذي اتضح أنه عميل فيدرالي. كان يدير مكتبًا مؤلفًا من رجل واحد في كلوفيس. كانت علاقتنا ودية خلال عملنا معًا. علمت أنه قد سمع عني من رئيس القاعدة المتقاعد وبدأ يثير اهتمامي في الانضمام للمكتب. بصراحة، لم أكن مهتمًا قط بالتفكير في مهنة في مجال إنفاذ القانون. كنت أخطط للعمل في مجال علم النفس الصناعي بمجرد حصولي على الشهادة الجامعية. بدا لي أن العمل لصالح شركة كبيرة، التعامل مع مسائل كالقضايا الشخصية، مساعدة الموظفين، إدارة الضغوطات، يمكن أن يؤمِّن لي مستقبلًا جيدًا وواضحًا. كان التواصل المباشر الوحيد بيني وبين إف بي آي حين كنت مرة في مونتانا عندما تمت سرقة صندوق كنت قد أعددته للشحن. قابلني أحد العملاء الميدانيين، ظنًّا منه أنني قد رتبت الموضوع بغية الحصول على التأمين. لكن لم نصل إلى نتيجة، وإذا كانت تلك هي القضايا التي تعامل معها الـ إف بي آي، فلم يبد أن هناك الكثير من العمل.

لكن فرانك كان ملحًّا في التفكير بأنني سأصبح عميلًا متميزًا وواصل تشجيعي. دعاني للغداء في منزله عدة مرات، وعرَّفني على زوجته وابنه، وأراني مسدسه وشيكات راتبه، وهو ما لم يكن لدي قط. يجب أن أعترف، مقارنة بأسلوب حياتي المتدهور، كان فرانك يعيش مثل ملك، لذلك قررت أن أتصدى لهذه المهمة.

بقي فرانك في نيومكسيكو، وبعد سنوات، تقاطعت دروبنا حين أتيت لأدلي بشهادتي في قضية قتل كان يعمل عليها، حيث قُتلَت امرأة وأُحرِقَ جسدها لتجنب اكتشاف الجريمة. لكن في خريف 1970، كان ذلك الفعل أبعد ما يكون عن ذهني.

أرسل فرانك طلبي إلى المكتب الميداني في ألبوكركي. خضعت لاختبار القانون القياسي لغير المحامين. وعلى الرغم من حالتي البدنية وبنائي العضلي، فإن وزني البالغ 220 باوندًا كان يفوق حدَّ الـ إف بي آي بـ 25 باوندًا بالنسبة إلى طولي البالغ 6.2 أقدام.

كان الشخص *الوحيد* في المكتب الذي يمكنه تجاوز الوزن القياسي هو الرئيس الأسطوري، جيه. إدغار هوفر، بذاته. قضيت أسبوعين أتناول جيلاتين نوكس والبيض المسلوق من أجل أن أخفض وزني للمعدل المطلوب. كما تطلب الأمر مني ثلاث قصات شعر حتى توصلت للشكل المناسب لبطاقة الهوية.

لكن أخيرًا، في نوفمبر، مُنِحتُ تعيينًا تحت الاختبار، براتب أساسي يبلغ 10.869 دولارًا. أخيرًا، سأتمكن من الخروج من غرفتي السفلية الكئيبة التي بلا نوافذ. أتساءل ما الذي كنت سأفكر فيه لو علمت آنذاك أنني سأقضي معظم حياتي المهنية في المكتب في غرفة قبو أخرى بلا نوافذ، متتبعًا قصصًا أكثر كآبة بكثير.

3

المراهنة على قطرتي مطر

كثير من المتقدمين، قلة من المختارين.

تلك كانت هي الرسالة التي تتكرر أمامنا باستمرار كمجندين جدد. تقريبًا، كل شخص مهتم بمهنة في مجال إنفاذ القانون يطمح ليكون عميلًا خاصًا في مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي) في الولايات المتحدة، لكن وحدهم الأفضل من بين الأفضل من يأملون في الحصول على هذه الفرصة. يعود ذلك الإرث الطويل والفَخور إلى عام 1924 حين استلم محامٍ حكومي مغمور اسمه جون إدغار هوفر وكالة فاسدة، تفتقر للتمويل وسيئة الإدارة. والسيد هوفر نفسه -في الوقت الذي انضممت فيه، بعمر الخامسة والسبعين- لا يزال رئيس الوكالة الموقرة التي أصبحت ما هي عليه، ولا يزال يحكمها بفك مربع وقبضة حديدية. لذلك يفضل ألا نخذل المكتب.

طلبت مني البرقية التي وصلتني من المدير أن أتوجه للغرفة 625 في بناء مكتب البريد القديم في بنسلفانيا آفينيو في واشنطن عند الساعة التاسعة صباحًا يوم 4 ديسمبر، 1970، لأبدأ فترة تدريب تمتد إلى أربعة عشر أسبوعًا ستحولني من مواطن عادي إلى عميل خاص في إف بي آي. قبل ذلك كنت قد ذهبت إلى البيت في لونج آيلاند، حيث كان أبي فخورًا جدًّا، ووضع العلم الأمريكي أمام المنزل. ونظرًا لما كنت أعمله في السنوات الماضية، لم يكن عندي ملابس مدنية، لذلك اشترى لي أبي ثلاث بذلات «رسمية» داكنة (زرقاء وسوداء وبنية) وقمصان بيضاء، وأربعة أزواج من الأحذية، زوجان أسودان وزوجان بنيان. ثم أوصلني إلى واشنطن للتأكد من وصولي في الوقت المناسب في أول يوم لي في العمل.

لم يستغرق الأمر فترة طويلة لأكون منغمسًا في تقاليد وطقوس مكتب التحقيقات الفيدرالي. طلب منا العميل الخاص الذي قاد حفلنا التعريفي أن نخرِج شاراتنا الذهبية وأن نحدق إليها بينما كنا نردد قسم المكتب. تحدثنا جميعًا في تناغم، محدقين إلى المرأة معصوبة العينين التي تحمل ميزان العدالة بينما كنا نقسم رسميًا على دعم دستور الولايات المتحدة والدفاع عنها ضد جميع الأعداء؛ الخارجيين والداخليين. «قرِّبوها أكثر! أكثر!» طلب منا العميل الخاص، حتى كانت تلك الشارات تلاصق أعيننا بينما كنا نحدق إليها.

كان صف العملاء الجدد يتكون حصرًا من الرجال البيض. في 1970، كان هناك القليل فقط من العملاء الفيدراليين السود فيما لم يكن هناك نساء. لم يُفتح هذا المجال إلا بعد انتهاء ولاية هوفر الطويلة، وحتى بعد وفاته، استمر من وراء قبره بممارسة تأثيره الشبحي القوي والفاعل. كان معظم الرجال بين التاسعة والعشرين والخامسة والثلاثين، لذلك في سن الخامسة والعشرين، كنت أحد أصغر العملاء سنًّا.

لُقِّنَّا عقيدة البحث عن العملاء السوفيات، الذين سيحاولون مفاوضتنا والحصول على أسرارنا. يمكن أن يكون هؤلاء العملاء في أي مكان. أخبرنا بشكل خاص أن نحترس من النساء! كان غسل الدماغ قويًّا جدًّا إلى درجة أنني رفضت موعدًا مع امرأة في غاية الجمال كانت تعمل في البناء وطلبت مني الخروج معها للغداء. كنت أخشى أن يكون هذا مرتبًا وأن أكون تحت الاختبار. لم يكن قد اكتمل بناء أكاديمية الـ إف بي آي في القاعدة البحرية في كوانتيكو بعد، لذلك كان تدريبنا على النيران والتدريب البدني هناك بينما كانت الدروس في بناء مكتب البريد القديم في واشنطن.

من أول الأشياء التي يتعلمها أي متدرب هي أن العميل الفيدرالي لا يطلق النار إلا لكي يقتل. كانت الفكرة المطبَّقة في هذه السياسة صارمة ومنطقية: إذا سحبت مسدسك، فقد اتخذت قرارك في إطلاق النار، وإذا كنت قد اتخذت هذا القرار فهذا يعني أن الوضع خطير بما يكفي ليتطلب إطلاق النار. في خضم هذه اللحظة، نادرًا ما يكون لديك المجال لتخطط مجال طلقتك أو الوقت لتنغمس في حسابات ذهنية، كما أن محاولة إيقاف مشتبه به أو إسقاطه أمر شديد الخطورة. ليس لديك فرص لا ضرورة لها لنفسك أو للضحية المحتمَلة.

تلقينا تدريبًا صارمًا مماثلًا في مجال القانون الجنائي، تحليل البصمات، الجرائم العنيفة وجرائم الموظفين الإداريين، تقنيات الاعتقال، الأسلحة، القتال

المباشر وتاريخ دور المكتب في إنفاذ القانون الوطني. كانت إحدى الوحدات التي أذكرها جيدًا، في بداية الدورة الدراسية. أشرنا إليها جميعًا بـ «تدريب الكلمات القذرة».

«هل الأبواب مغلقة؟» سأل المدرب. ثم سلم كلًّا منا قائمة. «أريدكم أن تدرسوا هذه الكلمات». ضمت القائمة، كما أذكر، بعض *الجواهر* ذات الاستخدام الأنجلو ساكسوني مثل تبًّا، سحقًا... إلخ. كان مفترضًا بنا حفظ هذه الكلمات في ذاكرتنا بحيث إذا ما واجهتنا في عملية ميدانية -خلال استجواب مشتبه به مثلًا- فسوف نعرف ما يتوجب فعله. وما كان مفترضًا بنا فعله هو أن نتأكد من أن أي تقرير يحوي أيًّا من هذه الكلمات يجب توجيهه إلى مكتب «نطاق الكلمات البذيئة»-وأنا لا أمزح- لا إلى السكرتارية العادية. عادة ما يضم نطاق الكلمات البذيئة امرأة أكبر سنًّا وأكثر نضجًا وحنكة، وأكثر قدرة على التعامل مع الصدمة الناتجة عن رؤية هذه الكلمات والعبارات. تذكر، كانوا جميعًا رجالًا في تلك الأيام، كما أنه في عام 1970 كانت الحساسية الوطنية مختلفة قليلًا عما هي عليه اليوم، على الأقل داخل إف بي آي هوفر. أجرينا بالفعل اختبارًا في تهجئة هذه الكلمات، ثم جمعت الأوراق و -كما أحسب- تم تقييمها بالدرجات قبل حرقها في سلة قمامة معدنية.

وعلى الرغم من هذا المستوى من التفاهة، كنا مثاليين تمامًا في مقاومة الجريمة، وظننا جميعًا أن بإمكاننا أن نصنع الفارق. في وسط تدريب العملاء الجدد، استُدعيتُ إلى مكتب مدير التدريب المساعد، جو كاسبر، أحد مساعدي هوفر الموثوقين. كان الأشخاص في المكتب يسمونه *الشبح الودود*، لكن هذا اللقب يُستخدَم بالتأكيد على سبيل السخرية أكثر منه عاطفيًّا بالطبع. أخبرني كاسبر أنني كنت أبلي حسنًا في معظم المجالات، لكنني كنت دون المعدل في «التواصلية في المكتب»، المنهجية والتسميات التي من خلالها تتواصل العناصر المتنوعة في المؤسسة مع بعضها.

«حسنًا، يا سيدي، أريد أن أكون الأفضل». أجبته. وُصِفَ الرفاق الذين يمتلكون هذا الحماس بأنهم ينطلق اللهب الأزرق من مؤخراتهم. كان لهذا أن يساعدك في المضيِّ قدمًا، لكنه جعلك أيضًا رجلًا مميزًا، فإذا نجح أحد الذين يخرج اللهب الأزرق من مؤخراتهم، فإنه سيصبح على قمة العالم. لكنه إذا فشل، سيكون احتراقه طويلًا للغاية وعلنيًّا جدًّا. ربما كان كاسبر فظًّا لكنه لم يكن غبيًّا، وقد رأى الكثير من ذوي اللهب الأزرق في أوانه. «هل تريد

أن تكون الأفضل؟ تفضل!» ورمى لي دليلًا كاملًا للمصطلحات وطلب مني حفظه كاملًا إلى حين عودتي من عطلة أعياد الميلاد.

سمع تشاك لاندزفورد -أحد اثنين من مستشاري الأكاديمية لدينا- بالخبر وأتى إلي. «ماذا قلت حين ذهبت إلى هناك؟» سألني. أخبرته. أدار تشاك عينيه، وأدرك كلانا أن عملي سينقطع.

عدت إلى منزل والديَّ لقضاء العطلة، وبينما كان أفراد عائلتي يستمتعون بوقتهم، كنت غارقًا لأنفي في دليل المصطلحات التواصلية. لم أكن في عطلة.

حين عدت إلى واشنطن في مطلع شهر يناير، كنت لا أزال أتصبب عرقًا من أدائي «ذي اللهب الأزرق»، كان عليَّ إجراء اختبار كتابي فيما تعلمته. لا يمكنني وصف الراحة التي شعرت بها حين أخبرني مستشارنا الثاني، تشارلز برايس، أنني حققت نتيجة 99 في المائة. «لقد حققت 100 تقريبًا» أسرَّ لي تشارلز، «لكن كما يقول السيد هوفر، فلا أحد كامل».

في منتصف رحلة التدريب المستمر لأربعة عشر أسبوعًا، طلب من كل واحد منا تقديم تفضيله لأول مهمة ميدانية سيقوم بها. كان معظم مكتب التحقيقات الفيدرالي موزعًا على نحو تسعة وخمسين مكتبًا ميدانيًا في أرجاء البلاد. شعرت أنه لا بد من وجود بعض الحنكة في الاختيار -لعبة شطرنج عملاقة بين المجندين الجدد والمقرات- وكما هو الحال دائمًا، حاولت أن أفكر كالطرف المقابل. كنت من نيويورك ولم يكن لدي اهتمام خاص بالعودة إليها. ورأيت أن لوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو، وميامي وربما سياتل وسان دييجو هي الأماكن الأكثر رواجًا. لذلك فإذا اخترت مدينة من الفئة الثانية، فمن الغالب أن أحصل على خياري الأول.

اخترت أتالانتا، فحصلت على ديترويت.

عند التخرج، حصلنا جميعًا على اعتمادات دائمة، مسدس سميث آند ويسون من طراز 10 بست طلقات. مسدس 38، ست طلقات، وتعليمات بالخروج من البلدة بأسرع ما يمكن. كان المقر الرئيسي يخشى دائمًا أن يتورط العملاء الجدد في المشكلات في واشنطن، تحت نظر السيد هوفر، مما سينعكس سلبًا على الجميع.

العنصر الآخر الذي استلمته كان كتيبًا بعنوان «دليل النجاة في ديترويت». كانت المدينة من بين الأكثر استقطابًا عنصريًا في البلاد، ولا تزال تعاني

تداعيات أعمال الشغب في عام 1967، ويمكن وصفها بعاصمة الجريمة الوطنية، بما يزيد على ثمانمائة جريمة قتل سنويًا. في الحقيقة، كان لدينا في المكتب رهان مريع بشأن عدد جرائم القتل التي ستحدث حتى نهاية السنة. ومثل معظم العملاء الجدد، بدأت مثاليًا ومنطلقًا باندفاع، لكنني أدركت لاحقًا ما كنا سنواجهه. قضيت أربع سنوات في سلاح الجو، لكن أقرب موقف لي للقتال كان في سرير مستشفى القاعدة إلى جانب محاربين جرحى من حرب فيتنام حين أجريت عملية لأنفي بسبب إصابات كرة القدم الأمريكية والملاكمة. لذلك فإنه حتى ذهابي إلى ديترويت، لم يكن قد سبق لي أن أصبح في موقف أكون فيه العدو. كانت الـ إف بي آي مكروهة في الكثير من الأوساط، إذ إنهم تسللوا إلى حرم الجامعات وأنشؤوا شبكات من المخبرين الحضريين. وبسياراتنا السوداء النكدة، كنا أشخاصًا مميزين. في الكثير من الأحياء، قذفنا الناس بالحجارة. لم تكن كلابهم الجيرمان شيبرد والدوبرمان تحبنا أيضًا. طُلب منا عدم الوجود في بعض المناطق في المدينة دون دعم وقوة نارية كافية. لم نكن نحظى أيضًا بمحبة رجال الشرطة المحلية. لقد اتهموا المكتب بـ «كشف» القضايا، وإصدار بيانات صحفية قبل أن تكتمل القضية، ثم إضافة قضايا حلت عن طريق الشرطة إحصائيات معدل مهام الـ إف بي آي. وللمفارقة، في وقت قريب من سنتي الأولى، 1971، تم توظيف قرابة ألف عميل جديد، كما أن الجزء الأكبر من تدريبنا الميداني لم يأتِ من المكتب بقدر ما كان تحت إشراف رجال الشرطة المحلية الذين تولوا مسؤولية حمايتنا.

لا شك أن جزءًا كبيرًا من نجاح جيلي من العملاء يعزى للكفاءة المهنية وكرم ضباط الشرطة في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

كانت عمليات السطو على البنوك منتشرة بشكل خاص في أيام الجمعة، حين تكون البنوك قد خزنت المال النقدي الذي سيتم صرفه في أيام الدفع، كان لدينا معدل عمليتين إلى ثلاث عمليات سرقة مسلحة، وفي بعض الأحيان كان الرقم يصل إلى خمس عمليات. وإلى أن أصبح الزجاج المقاوم للرصاص شائعًا في بنوك ديترويت، فقد كانت حالات قتل الصرافين وإصابتهم أمرًا مروعًا. كانت لدينا قضية التُقِطَت عبر كاميرا المراقبة ظهر فيها المدير وقد أُصيبَ وقُتِلَ في مكتبه، على نمط الاغتيال، بينما كان هناك في مواجهته شخصان، كانا يقدمان طلبًا للحصول على قرض، يشعران بالذعر وينظران

بلا حول ولا قوة. كان السارق غاضبًا من المدير لأنه لم يفتح الخزنة. ولم يكن الأمر مقتصرًا على موظفي البنوك الذين بوسعهم الوصول إلى عشرات آلاف الدولارات نقدًا. ففي بعض الأحياء، كان العمال في محلات مثل ماكدونالد معرضين للقدر نفسه من الخطر.

كُلِّفتُ بالعمل في وحدة الجرائم المتفاعلة، التي تعني، في الحقيقة، الاستجابة للجرائم التي حدثت للتو، كالسطو على البنوك أو الابتزاز، على سبيل المثال. داخل تلك الوحدة، عملت مع فريق UFAP: رحلة غير قانونية لتجنب الملاحقة القضائية - Unlawful Flight to Avoid Prosecution. اتضح أن تلك كانت تجربة ممتازة لأن هذا الفريق شهد الكثير من الإثارة. وبالإضافة إلى توقعاتنا بشأن أعداد جرائم القتل السنوية، فقد أجرينا مسابقة في الوحدة لنرى من باستطاعته القيام بأكبر عدد من الاعتقالات في يوم واحد. كان ذلك مثل المسابقات التي يجريها تجار السيارات لمعرفة من يستطيع تحقيق أكبر المبيعات خلال وقت معين.

كان أحد أكثر خطوط عملنا ازدحامًا في تلك الأيام ما أشير إليه بـ التصنيف 42: الفارون من الجيش. قسمت فيتنام البلاد إلى قسمين، وحالما كان يتغيب معظم أولئك الرجال عن الخدمة، لم يكن واحدهم يرغب في العودة في أسوأ الأحوال. كان لدينا معدل اعتداءات على ضباط الشرطة المسجلة في التصنيف 42 أكثر من أي نوع آخر من أي نوع مختلف من الهاربين.

كانت مواجهتي الأولى في UFAP حين تعقبت أحد الفارين من الجيش إلى المرأب الذي كان يعمل فيه. عرَّفته بنفسي وظننت أنه سيمضي معي بهدوء.

لكن فجأة، إذ به يسحب عليَّ سكينًا ملفوف على قبضتها شريط لاصق أسود. تراجعت، فقط بما يكفي لأتجنب التعرض للطعن. اندفعت نحوه، رميته نحو باب المرأب الزجاجي، ثم أخضعته للنزول على الأرض مثبتًا ركبتي في ظهره وموجهًا مسدسي إلى رأسه. في أثناء ذلك الوقت، كان المدير يصيح عليَّ لأنني سأعتقل عاملًا جيدًا. ما هذا الذي أقحمت نفسي به؟ هل كانت هذه بحق هي المهنة التي تصورتها؟ هل كانت تستحق المخاطرة وأن أختفي لمجرد أن أعيش هذه الحياة الوضيعة؟ كان علم النفس الصناعي يبدو جيدًا للغاية.

كان تعقب الفارين يجلب معه في العادة حالة من الاضطراب العاطفي إلى جانب الاستياء الحاصل بين الجيش والـ إف بي آي. كنا في بعض الأحيان نتابع محضر اعتقال، ونحدد موقع الرجل ونمسك به في الشارع. كان يوقفنا وهو في حالة من السخط، ضاربًا بمفاصل يده على ساقه الصناعية، ويخبرنا أنه نال القلب الأرجواني والنجمة الفضية بسبب ذلك في فيتنام. وما كان يحدث مرارًا وتكرارًا أن الهاربين كانوا يعودون طوعًا أو كان الجيش ذاته يعيدهم روتينيًّا إلى فيتنام كنوع من العقاب. كان الكثير من هؤلاء الرجال متميزين في القتال لكن الجيش لم يخبرنا أي شيء عن ذلك. لذلك وبقدر علمنا، فقد كانوا لا يزالون يُعَدون «متغيبين دون إجازة رسمية» (AWOL). وكان هذا ما يفاقم غضبنا.

أما الأسوأ من ذلك فقد كنا حين نذهب إلى مكان إقامة الهارب المسجل وتخبرنا الزوجات الباكيات أو الأهل المملوءون بالغضب والدموع أن الرجل قد مات ميتة البطل. كنا نتعقب رجالًا أمواتًا، قُتِلوا في المعركة، ولم يتكلف الجيش عناء إخبارنا.

وبغض النظر عن المهنة التي تعمل فيها، فحين تتجه للعمل في الميدان، ستبدأ بإدراك جميع الأشياء الكبيرة والصغيرة التي لم يعلِّموك إياها في المدرسة أو التدريب. أولًا، ماذا تفعل بسلاحك في أوضاع معينة، كما هو الحال عندما تكون في غرفة الحمام العام؟ هل تتركه على حزامك على الأرض، أم تعلقه على باب الغرفة؟

لفترة من الوقت حاولت أن أبقيه في حضني، لكن ذلك جعلني متوترًا جدًّا. إنه من الأشياء التي نواجهها كلنا، لكنه ليس من الأشياء التي تشعر بالارتياح لمناقشتها مع زملائك الذين يفوقونك خبرة. وبحلول شهر من وجودي في العمل، أصبحت تلك مشكلة.

عندما انتقلت إلى ديترويت، اشتريت سيارة فولكسفاجن- بيتل أخرى، نفس نوع السيارة، وللمفارقة، فقد كانت تلك هي السيارة التي يختارها القتلة المتسلسلون. تيد بوندي كانت لديه واحدة وقد كانت من وسائل التعرف عليه أخيرًا. وبكل الأحوال، توقفت في مركز تسوق محلي لكي أدخل متجر الملابس الرجالية بغية شراء بذلة، ولأنني أعرف أنني سأجرب الثياب، فقد فضلت الاحتفاظ بمسدسي في مكان آمن، فوضعته في صندوق التابلوه وتوجهت إلى المتجر.

الآن، تمتلك سيارة الفولكسفاجن- بيتل عددًا من الخصائص المثيرة للاهتمام. ولأن محركها يقع في الصندوق الخلفي، فإن الإطار الاحتياطي يوجد في الصندوق الأمامي. ولأنها كانت منتشرة على نطاق واسع أينما كان في تلك الأيام -لا داعي لذكر سهولة اقتحامها- فقد كانت سرقة الإطارات الاحتياطية شائعة جدًّا. ففي نهاية الأمر، كان الجميع تقريبًا في حاجة إلى إطار احتياطي. أخيرًا وليس آخرًا، كان الصندوق الأمامي يفتح عبر مفتاح في صندوق التابلوه.

أنا واثق من قدرتكم على تخيل الباقي. خرجت إلى السيارة فوجدت النافذة مكسورة. وبإعادة تشكيلي لهذه الجريمة بالغة التعقيد، فقد تسلل سارق الإطار داخل السيارة، فتح صندوق التابلوه ليفتح الصندوق الأمامي من أجل الإطار، لكنه شاهد جائزة أثمن بكثير. استنتجت ذلك لأن المسدس اختفى بينما لا يزال الإطار موجودًا.

«أوه، سحقًا» قلت لنفسي. «لم يمضِ عليَّ في عملي أكثر من شهر وها أنا أزوِّد العدو بالسلاح!» وكنت أعرف أن فقدان مسدسك العهدة يعني تلقيك خطاب لوم فوريًّا. لذلك توجهت إلى مشرف فريقي، بوب فيتزباتريك. فيتزباتريك شخص ضخم، نموذج حقيقي للأب. يرتدي ملابس أنيقة ويشبه أسطورة حية في المكتب. إنه يعرف الوضع الحرج الذي أنا فيه وكم أشعر بالسوء. يجب نقل خبر فقدان المسدس إلى مكتب المدير، وهو أمر عظيم، ما دامت ستكون أول معلومات ميدانية تدخل في ملفي. قال إن علينا أن نختلق شيئًا مبتكرًا حقًّا، وأن نركز كثيرًا على مدى قلقي بشأن الحفاظ على السلم العام بحيث إنني لم أرغب في المخاطرة بإخافة أيِّ شخص في المتجر إذا ما رأوا مسدسًا بشكل مفاجئ وفكروا بأنهم يتعرضون للسرقة. أكد لي فيتزباتريك أنه ما دمتُ لن أكون مهيأً للترقية خلال عامين، فلن يكون لخطاب اللوم أثر سيئ إذا حافظت على سجلي نظيفًا من الآن فصاعدًا.

لذلك كان هذا ما حاولت فعله، على الرغم من أن ذلك المسدس ظل يلاحقني لفترة طويلة. مسدس سميث آند ويسون طراز 10 الذي سلمته لمخزن أسلحة كوانتيكو عندما تقاعدت من المكتب بعد نحو خمس وعشرين سنة كان بديلًا عن سلاحي الأصلي. حمدًا لله أن السلاح الأول لم يظهر في جريمة. في الحقيقة، لقد اختفى جذريًّا.

عشت مع عميلين آخرين؛ بوب ماكجونيجل وجاك كونست، في منزل مفروش في تايلر، ميشيغان، ضاحية جنوبية في ديترويت. كنا أصدقاء مقربين وسيصبح بوب لاحقًا إشبيني في زفافي. كان مجنونًا أيضًا. كان يرتدي بذلات من المخمل الناعم وقمصانًا بلون الخزامى، حتى خلال التحقيقات. بدا أنه الشخص الوحيد في مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي لم يكن ليخشى هوفر. لاحقًا، انخرط بوب في العمل السري الذي لم يكن مضطرًا فيه لارتداء بذلة على الإطلاق.

بدأ في المكتب كاتبًا، وخاض في «الطريق الداخلي» ليصبح عميلًا خاصًا. بدأ بعض أفضل الرجال في إف بي آي ككتبة، ومن ضمنهم عدد من الأشخاص الذين اخترتهم لـ وحدة دعم التحقيقات. لكن في دوائر خاصة، كان الكتبة الآخرون مستائين، كما لو أن لديهم تفضيلًا خاصًا ليصبحوا عملاء.

كان بوب أعظم شخص عرفته في «المكالمات الاستدراجية». كانت تلك تقنية استباقية تفاعلية طورناها للقبض على الجناة، وهي مفيدة خصوصًا حين يكون عنصر المفاجأة بالغ الأهمية. كان بوب فنانًا في التحدث باللكنات. إذا كان المشتبه به في عصابة، كان يتحدث بلكنة إيطالية. بالنسبة إلى «الفهود السود» (بلاك بانثرز)، كان بمقدوره أن يمر كرجل شارع عادي. كما أن لديه شخصية تابعة لأمة الإسلام، لرجل أيرلندي، مهاجر يهودي، «واسب – WASP» من جروس بوينت.

لم يكن الأمر مقتصرًا على التلاعب بالصوت، وإنما كان باستطاعته تغيير الكلمات والمصطلحات ليتماهى تمامًا مع الشخصية. كان جو بارعًا جدًّا في هذا لدرجة أنه في مرة اتصل بـ جو ديل كامبو -عميل آخر ستقرأ عنه في الفصل التالي- وأقنعه بأنه جندي أسود أراد أن يصبح مخبرًا للـ إف بي آي. في تلك الأيام كان هناك الكثير من الضغط للحصول على مصادر داخل المدينة. رتب بوب لقاء مع جو، معتقدًا أنه على وشك تحقيق إنجاز كبير. لم يأتِ أحد للقاء جو، ثم في اليوم التالي في المكتب شعر جو بالغضب الشديد حين حيَّاه بوب بالصوت الذي سمعه في المكالمة الاستدراجية إياها!

كان اعتقال الأشرار أمرًا مهمًّا، لكنني اكتشفت في نفسي لاحقًا أنني مهتم بالعمليات الفكرية التي تتناول الجريمة، فكلما اعتقلت شخصًا ما، كنت أطرح عليه أسئلة، مثل لماذا فضَّل اختيار ذلك البنك على سواه، أو ما الذي دفعه لاختيار ضحية محددة. كنا نعلم جميعًا أن السارقين يفضلون السطو على

البنوك في مساءات الجمعة لأنها تكون مليئة بالمال النقدي. لكن وراء ذلك، أردت معرفة ما هي القرارات المتخَذة في تخطيط وتنفيذ العملية.

لا بد أنني لم أكن أبدو مرهبًا جدًّا. ومثلما فعل الجميع في المدرسة من قبل، فقد شعر الجميع بإمكانية الانفتاح في التعامل معي. كلما واصلت طرح الأسئلة على أولئك الأشخاص، فهمت أن المجرمين الناجحين كانوا منمَّطين جيدين. كان لكل منهم تحليل دقيق ويحوي بحثًا جيدًا لنوع البنك الذي يفضلونه. كان البعض يفضل البنوك القريبة من الطرق الرئيسية أو الطرق السريعة بحيث يكون الهروب أسهل وسيكون بمقدورهم الابتعاد لأميال قبل أن تنتظم أي مطاردة. بينما أحب البعض الآخر الفروع المنعزلة، مثل الفروع المؤقتة المُقامة في المقطورات. كان الكثير منهم يزورون البنك مسبقًا ليعرفوا عدد الأشخاص العاملين هناك وكم عدد العملاء المتوقع وجودهم في الردهة في أي وقت. في بعض الأحيان كانوا يواصلون زيارة الفروع إلى أن يجدوا فرعًا لا يوجد فيه موظفون ذكور وكان سيصبح هدفهم.

كانت الأبنية التي دون نوافذ على الشارع هي الخيارات المفضلة، ما دام لا أحد في الخارج سيرى عملية السطو الجارية ولا أحد في الداخل سيتعرف على السيارة المستخدَمة في الهروب. توصل أفضل مرتكبي هذه الجنح إلى خلاصة مفادها أن ورقة تعلن عن السطو أفضل من الإعلان العام على الملأ، يلوحون بالسلاح، وسيتذكرون دائمًا أخذ الورقة معهم قبل أن يغادروا وبالتالي فلن يتركوا وراءهم دليلًا. كانت السيارة الأفضل للهروب هي السيارة المسروقة، وكان أفضل سيناريو بين هذه السيناريوهات أن تكون السيارة واقفة قبل بعض الوقت لئلا تثير الشبهات عندما تتوقف. تتجه إلى البنك، ثم تهرب بعد إتمام المهمة. السارق الذي كان ناجحًا بشكل خاص في عمله الذي نفذه في أحد البنوك سيراقبه لفترة من الزمن، وإذا بقيت الظروف ذاتها، من المرجح أن يسطو على البنك ذاته مرة أخرى خلال بضعة أشهر.

ومن بين المؤسسات العامة كافة، فإن البنوك هي أفضل ما يمكنه التعامل مع السرقات. ومع ذلك فقد بقيت مدهوشًا من عدد أولئك الذين تجاهلوا وضع الفيلم في كاميرات المراقبة، وعدد الذين جعلوا جهاز الإنذار صامتًا بالصدفة ثم نسوا إعادة ضبطه، أو كانوا يستعملونه كثيرًا لدرجة أن استجابة الشرطة أصبحت أبطأ لأنهم اعتقدوا أنه مجرد إنذار لحادث عرضي آخر. كان ذلك يشبه رفع لافتة **اسرقنا!** لمجرم خطير. لكن إذا بدأت تنميط القضايا -لم

أكن قد ربطت هذا المصطلح بالعملية بعد- فسيمكنك البدء برؤية أنماط. وحالما تبدأ برؤية أنماط، يمكنك البدء باتخاذ إجراءات استباقية للإمساك بالأشرار. على سبيل المثال، إذا لاحظت أن سلسلة من عمليات السطو على البنوك بدت متشابهة وكأنها تتلاءم مع بعضها، وإذا كنت قد تحدثت مع عدد كاف من مرتكبي هذا النوع من الجرائم لتعرف ما الذي كان يروق لهم، فسيمكنك بوضوح وبشكل كبير تحصين جميع مكاتب البنوك التي وافقت المعايير باستثناء واحد. وهذا الواحد سيكون، بالطبع، تحت مراقبة مستمرة من الشرطة و/أو الـ إف بي آي مع وجود رجال شرطة بملابس مدنية في الداخل. في الحقيقة، يمكنك دفع السارق لاختيار البنك الذي تختاره وأن تكون مستعدًّا له حين يأتي. عندما تم استخدام هذا النوع من التكتيك الاستباقي، فقد ارتفعت معدلات حل مشكلات السطو على البنوك بنسبة كبيرة.

أيًّا يكن ما فعلناه في تلك الأيام، فقد فعلناه تحت تأثير جيه إدغار هوفر، مثلما فعل من سبقنا منذ عام 1924. في هذا العصر من لعبة الكراسي الموسيقية والمحاكمة بناء على الرأي العام، من الصعب تطبيق درجة السيطرة والتحكم التي كان يملكها هوفر، ليس في إف بي آي وحسب، وإنما على رؤساء الحكومات، الإعلام والعامة على نطاق واسع. إذا كنت ترغب في كتابة كتاب عن المكتب، مثل كتاب دون وايتهيد الأكثر مبيعًا **قصة الـ إف بي آي**، أو فيلم جيمس ستيوارت الشهير المقتبس عنه، أو إنتاج مسلسل تلفزيوني، مثل **ذا إف بي آي** لـ إفرم زمباليست جونيور في الستينيات، فإن عليك أن تنال موافقة السيد هوفر وبركته شخصيًا. وبالمثل، إذا كنت مسؤولًا حكوميًّا، فسوف ترزح دائمًا تحت ذلك الخوف المستمر من أن يكون للرئيس «شيء عليك»، وبخاصة إذا اتصل وتكلم بنبرة ودية ليعلمك أن إف بي آي قد «كشف» إشاعة قذرة سوف يبذل كل ما في وسعه للتأكد من عدم نشرها للعامة بشكل ضار.

لم يكن غموض شخصية السيد هوفر في أي مكان أقوى منه في مكاتب فروع إف بي آي وبين إدارة أفراد المكتب. لقد كانت حقيقة موافقًا عليها أن الشهرة والإعجاب اللذين نالهما المكتب كانا بسببه. لقد بنى المكتب بنفسه تقريبًا ليصبح ما هو عليه، وكان لا يكلُّ في معاركه لرفع الميزانية وزيادة الرواتب. كان محترمًا ومرهوب الجانب في الوقت نفسه، وإذا لم تكن تشغل نفسك بالتفكير فيه كثيرًا، فهذا يعني أنك تفعل في سرِّك. كان الانضباط

صارمًا، وكانت عمليات التفتيش على الفرع أشبه بحمامات الدم. إذا لم يجد المفتشون أشياء كثيرة بحاجة إلى التحسين، فقد كان هوفر يشك في أنهم لا يقومون بعملهم بالوتيرة المنهكة اللازمة، ما كان يعني أنهم مضطرون لإصدار عدد محدد من خطابات اللوم سواء كانت الأوضاع تبررها أم لا. كانت كأنها حصة ثابتة لإصدار مخالفات المرور. كان الوضع سيئًا للغاية لدرجة أن العملاء المسؤولين المعروفين بـ SACs كانوا مضطرين لإيجاد أكباش فداء من العملاء أو الموظفين الذين لا ينتظرون ترقية قريبة لتصدر خطابات اللوم بأسمائهم بحيث لا تؤثر في مسيرتهم المهنية هم.

في إحدى المرات، في قصة لم يعد لها طابع الدعابة بعد حادثة التفجير المروعة في بناء فيدرالي في أوكلاهوما سيتي عام 1995، تم الاستدعاء بسبب التهديد بوجود قنبلة بعد تفتيش. تم تعقب الاتصال وصولًا إلى كابينة هاتف مقابل البناء الفيدرالي في وسط المدينة حيث كان يوجد المكتب الميداني. جاءت السلطات من المقر وأزالت كابينة الهاتف وأرادت مقارنة بصمات الأصابع على العملات النقدية في صندوق الهاتف على جميع الـ 350 شخصًا الموجودين في المكتب. ولحسن حظنا جميعًا، فقد اتضح السبب ولم يتم إجراء الفحص قط. لكن ذلك كان أحد الأمثلة على التوتر الذي كان يمكن أن تتسبب به سياسات السيد هوفر.

كانت هناك إجراءات عملياتية قياسية لكل شيء. وعلى الرغم من أنه لم تسنح لي فرصة لقاء السيد هوفر بشكل مباشر، فقد كان عندي (ولا تزال) صورة موقّعة منه شخصيًا في مكتبي. كان هناك إجراء قياسي للحصول على صورة مثل هذه كعميل شاب. كان العميل المسؤول سيحثك على جعل السكرتير يكتب لك خطابًا متملقًا، معبرًا عن فخرك الكبير لكونك عميلًا خاصًا وعن مدى إعجابك بالسيد هوفر. إذا كتبت تلك الرسالة بشكل صحيح، فسوف تتلقى صورة موقعة وتعبر عن أطيب الأمنيات كعلامة للجميع ليروا علاقتك الوثيقة بالقائد.

كانت هناك إجراءات أخرى لم نكن نعرف من أين مصدرها، هل كانت توجيهات شخصيات مباشرة من هوفر أم أنها كانت تأويلات مُبالغًا فيها ومفرطة الحماس لطلبات المدير؟ كان متوقعًا من كل من في المكتب العمل لساعات إضافية، وكان مفترضًا بالجميع تسجيل معدل عمل أعلى من المطلوب في المكتب. أنا أكيد من أنكم ترون هذه المعضلة. شهرًا بعد آخر، مثل خطة

بناء هرم مجنونة، كانت الساعات تزداد. لم يكن هناك مجال للتدخين أو شرب القهوة داخل المكتب. وكما لو كنا قوة من البائعين الجائلين، فقد مُنِع العملاء من التسكع في المكتب نهائيًا، وحتى من أجل استعمال الهاتف. وبالتالي، فقد طور كل شخص طريقته الخاصة وعاداته في العمل.

قضيت الكثير من الوقت في مراجعة القضايا في مقصورة صغيرة في المكتبة العامة. كان أحد أعظم أتباع *الإنجيل وفقًا للقديس إدغار* هو نيل ويلش، العميل السابق المسؤول SAC الملقب بكرمة *العنب*. كان ويلش شخصًا ضخمًا، طوله نحو 6.4 أقدام، بنظارة ذات إطار سميك. كان صارمًا ورصينًا، ولم يكن دافئًا وغامضًا على الإطلاق. كانت له مسيرة متميزة في المكتب، وتنقل في المكاتب الميدانية الرئيسية في فيلادلفيا ونيويورك، من بين أماكن أخرى. كان هناك بعض الكلام عن إمكانية توليه مكان هوفر حين (أو ربما يجب أن أقول *إذا*) جاء اليوم المحتوم في نهاية الأمر. في نيويورك، شكّل ويلش مجموعة كانت أول من يستخدم فعليًا قوانين RICO الفيدرالية للمؤامرة (المنظمات الفاسدة والمتأثرة بالابتزاز) ضد الجريمة المنظمة. لكنه في ديتريوت، كان يسير وفق ما يقوله القانون بحرفيته.

طبيعيًا وحتميًا، كان لا بد لـ ويلش وبوب ماكجونيجل أن يصطدما، وقد حدث هذا في أحد أيام السبت حين كنا في المنزل. تلقى بوب مكالمة مفادها أن كرمة *العنب* يريد أن يراه، حالًا، مع المشرف على فريقنا، بوب فيتزباتريك. دخل إليه ماكجونيجل، فأخبره ويلش أن أحدًا كان يستعمل الهاتف للاتصال بـ نيوجرسي، وأن استعمال الهاتف للشؤون الشخصية مخالف للقواعد. في الحقيقة، كان يمكن تأويل ما كان يفعله في كلتا الحالتين، لكن في الـ إف بي آي، فقد كنتُ ميالًا دائمًا لالتزام الحذر.

يبدأ ويلش في العادة، وهو شرس على الدوام، بكلام عام، مستخدمًا تقنيات استجواب جيدة تركز على الموضوع مباشرة. «حسنًا، ماكجونيجل، ما قصة هذه المكالمات الهاتفية؟»

بدأ بوب يعترف بكل مكالمة كان يمكنه تذكرها لأنه خائف من أن يكون لدى ويلش شيء أكثر خطورة بشأنه وربما استطاع أن يمتص غضب العميل الخاص المسؤول من خلال منحه الأشياء التافهة.

يقف ويلز بطوله الكامل، انحنى على مكتبه وأشار بإصبعه بجنون. «انظر يا ماكجونيجل، دعني أخبرك شيئًا: هناك شيئان ضدك. أولًا، أنت كاتب

سابق وأنا أكره الكتبة اللعينين! أما الشيء الثاني، إذا رأيتك مرة أخرى ترتدي قميصًا بلون الخزامى، وبخاصة في أوقات العمل، فسوف أهينك في شرق جيفرسون ستريت. وإذا ما رأيتك قرب هاتف، فسأرميك في بئر المصعد. الآن اخرج من مكتبي!»

عاد بوب إلى المنزل مثل رجل مهزوم، مقتنعًا بأنه سوف يُطرَد من العمل. شعرنا -جاك كونست وأنا- بالأسف لأجله. لكن ما أخبرني به فيتزباتريك في اليوم التالي هو أنه بعد مغادرة ماكجونيجل، جلس هو وويلش مستغرقَين في الضحك. بعد سنوات، حين توجهت إلى وحدة دعم التحقيقات، سُئلت -وفق كل ما نعرفه عن السلوك الجنائي وتحليل مواقع الجريمة- إن كان أي منا قادرًا على ارتكاب جريمة القتل الكاملة. وكنت على الدوام أجيب بـ لا، وأنه حتى على الرغم من كل ما عرفناه، فإن سلوكنا اللاحق للجرم قد يتسبب في القضاء علينا. أعتقد أن الحادثة بين ماكجونيجل وويلش تثبت أنه حتى عميل الـ إف بي آي من الدرجة الأولى ليس محصَّنًا أمام ضغوطات المستجوب المناسب.

بالمناسبة، منذ اللحظة التي خرج فيها من مكتب العميل المسؤول مساء السبت، واصل بوب ارتداء أكثر القمصان بياضًا في البلدة إلى أن انتقل ويلش إلى فيلادلفيا.

كان جزء كبير من نفوذ هوفر في الحصول على طلبات التمويل عبر الكونجرس يتعلق بالإحصائيات التي كان يقدمها. لكن حتى يكون المدير قادرًا على استخدام هذه الأرقام، فقد كان على الجميع تقديمها.

في مطلع عام 1972، كما تقول القصة، وعد ويلش رئيسه بـ 150 اعتقالًا بسبب القمار. وعلى ما يبدو، فقد كانت تلك هي الفئة التي كانت بحاجة إلى زيادة الأرقام في تلك الفترة. لذلك رتبنا خطة محكمة بالتعاون مع المخبرين، متنصتي الهاتف، تخطيط شبيه بالجيش، ليبلغ ذلك الذروة في أحد السوبر بول -Super Bowl، أكبر مناسبة للمقامرة غير القانونية في السنة. كان فريق دالاس كاوبويز، الذي خسر في مباراة متقاربة أمام بالتيمور كولتز في السنة الفائتة، سيلعب ضد ميامي دولفنز في نيوأورلينز.

يجب أن يكون اعتقال وكلاء المراهنات خاطفًا وسريعًا، في إجراءات دقيقة لأنهم كانوا يستخدمون الورق اللامع (الذي يحترق بسرعة) أو ورق

البطاطا (القابل للذوبان في الماء). كانت العملية تعد بحالة من الفوضى بسبب هطولات مطرية متفرقة طوال اليوم.

تمكنا عبر هذه الخطة من اصطياد أكثر من مائتي مقامر في تلك الأمسية الماطرة. في إحدى المرات، كان هناك شخص مقيد اليدين في المقعد الخلفي للسيارة، حيث كنا سنعيده إلى مخزن الأسلحة حيث كنا نحتجزهم جميعًا. كان شخصًا رائعًا، ودودًا. كان وسيمًا أيضًا، كان يشبه بول نيومان. قال لي: «في وقت ما حين ينتهي كل هذا، يجب أن نلتقي معًا للعب كرة المضرب». كان ودودًا بدرجة كبيرة، فبدأت أطرح عليه أسئلة، بالطريقة عينها التي كنت أطرح فيها الأسئلة على سارقي البنوك: «لماذا تقوم بهذا الفعل؟»، «أحب ذلك»، أجاب. «يمكنكم اعتقالنا جميعًا اليوم، جون. لن يحدث هذا أي فارق».

«لكن بالنسبة إلى شخص ذكي مثلك، يجب أن يكون جني المال بطريقة قانونية سهلًا». هزَّ رأسه، وما زلت لم أفهم. كان المطر يهطل بغزارة أكبر الآن. نظر جانبًا، موجهًا انتباهي لنافذة السيارة. «هل ترى هاتين القطرتين؟» أشار. «أراهنك على أن القطرة إلى اليسار ستنزل لأسفل الزجاج قبل القطرة التي إلى اليمين. نحن لا نحتاج إلى السوبر بول. كل ما نحتاج إليه هو قطرتان صغيرتان من المطر. لا يمكنك أن توقفنا، جون، مهما فعلت. المهم هو ما نحن عليه». بالنسبة إلي، كان هذا اللقاء القصير أشبه بصاعقة جاءت من الفراغ، مثل لحظة كاشفة أزاحت الجهل. ربما كان موقفًا ساذجًا عند استعادته، لكن فجأة، كل ما كنت أسأله، كل البحث في قضايا سارقي البنوك وغيرهم من المجرمين، أصبح واضحًا ومكشوفًا.

ما يهم هو ما نحن عليه.

كان ثمة شيء متأصل وعميق داخل عقل المجرم ونفسيته، أجبره على فعل أشياء بطريقة معينة. فيما بعد، عندما بدأت البحث في عقول ودوافع القتلة المتسلسلين، ثم حين بدأت تحليل مواقع الجريمة بحثًا عن أدلة سلوكية، كنت أبحث عن العنصر أو مجموعة العناصر التي جعلت الجريمة والمجرم يبرزان، التي مثلت ماهيته.

في النهاية، سأتوصل إلى مصطلح توقيع لوصف هذا العنصر المتفرد والإرغام الشخصي، الذي ظل ثابتًا. كما أنني سأستخدمها كوسيلة مميِّزة عن المفهوم التقليدي لطريقة العمل، التي كانت مرنة وقابلة للتغير. وقد أصبح هذا جوهر ما نقوم به في وحدة دعم التحقيقات.

وكما اتضح، فإن مئات الاعتقالات التي قمنا بها في أحد السوبر بول أُخرِجت من المحكمة لإجراءات تقنية، إذ في خضم عجلة من الأمر لإتمام العملية، فقد قام مساعد المدعي العام، لا المدعي العام نفسه، بتوقيع أوامر التفتيش. لكن العميل الخاص المسؤول ويلش قد وفى بوعده لـ هوفر من ناحية الأرقام، على الأقل لفترة كافية لهما لتحقيق التأثير المطلوب في كابيتول هيل. وقد توصلتُ إلى فكرة أصبحت حاسمة في مهنتي في إنفاذ القانون من خلال أن أراهن على قطرات المطر.

4

بين عالمين

كانت قضية اختطاف تتعلق بحمولة ناقلة لبضاعة من جيه آند بي سكوتش J&B Scotch بقيمة نحو 100 ألف دولار. كنا في ربيع عام 1971 وكنت في وظيفتي في ديترويت منذ ستة أشهر. أبلغنا رئيس عمال المستودع عن المكان الذي كانت ستجري فيه عملية تسليم المال مقابل الشراب المسروق.

كنا نعمل عليها كقضية مشتركة بين إف بي آي وإدارة شرطة ديترويت لكن كلًّا من المؤسستين خططت بشكل منفصل، ولم يكن هناك تواصل مشترك إلا بين المديرين، وأيًّا كان ما قرروه فهو لم يطبَّق في الشارع. لذلك حين أزف أوان تنفيذ الاعتقالات، لم يكن أحد متأكدًا مما كان يفعله الآخر.

إنه الليل، على مشارف المدينة، عند مجموعة من الخطوط الحديدية. أقود إحدى سيارات الـ إف بي آي مع المشرف على الفريق؛ بوب فيتزباتريك، في المقعد المجاور لي. كان مخبر القضية هو فيتزباتريك، بينما كان ماكجونيجل وكيل القضية.

وصلنا الأمر عبر اللاسلكي، «أوقفوهم! أوقفوهم!» توقفنا بعد أن أصدرت السيارة صريرًا رهيبًا، ونحن نحاول أن نحيط بعربة نصف نقل. فتح السائق الباب، رمى نفسه خارجًا، وبدأ يركض. برفقة عميل في سيارة أخرى، فتحتُ الباب وخرجت ثم سحبت مسدسي، وبدأت أركض خلفه.

لقد حل الظلام، كنا بملابس عادية -لا بذلات ولا ربطات عنق أو أي شيء- ولن أنسى أبدًا ابيضاض عينيه عندما رأيت شرطيًا يرتدي زيًّا رسميًّا ويحمل بندقية موجهة نحوي مباشرة وهو يصرخ: «توقف! شرطة! ألق المسدس!»

كنا على مسافة لا تزيد على ثمانية أقدام، ثم أدركت الرجل وهو على وشك أن يطلق عليَّ الرصاص. تجمدت، وفي الوقت ذاته كنت أفكر في أنني إذا خطوت خطوة واحدة خاطئة، سيُقضى عليَّ. كنت على وشك أن أرمي مسدسي وأرفع يديَّ حين سمعت صوت بوب فيتزباتريك يصيح بجنون: «إنه من الـ إف بي آي! إنه عميل فيدرالي!»

يخفض الشرطي بندقيته، فأنطلق بشكل غريزي مرة أخرى وراء السائق، كان الأدرينالين يتدفق، محاولًا تعويض المسافة التي فقدتُها. وصلنا -العميل الآخر وأنا- إليه معًا. أوقعناه على الأرض وقيدنا يديه، بأقسى من اللازم، كنت متحمسًا للغاية، لكن تلك اللحظات المجمدة التي أيقنت أنني سأموت فيها كانت من أقسى التجارب التي مررت بها على الإطلاق. لمرات عديدة منذ ذلك الحين، حاولت أن أضع نفسي مكان ضحايا جرائم الاغتصاب والقتل، وأجبرت نفسي على تخيل ما كانوا يفكرون فيه ويمرون به في اللحظات التي تعرضوا فيها للهجوم، استرجعت خوفي، وقد ساعدني هذا حقًّا في أن أفهم القضايا من وجهة نظر الضحية.

وفي الوقت الذي كنا نبذل فيه كل ما في وسعنا بغية تسجيل أكبر عدد ممكن من الاعتقالات، بدا العديد من العملاء المخضرمين الأكبر سنًّا غير مكترثين «بهزِّ القارب» وغير مقتنعين بمعنى هذا التعب كله، لأنك سوف تتقاضى المرتب ذاته سواء اعتقلت أحدًا أم لم تفعل، وأن هذه المبادرات كانت للتظاهر ومحاولة البروز. ونظرًا لأنه تم تشجيعنا لقضاء معظم وقتنا خارج المكتب، فقد أصبح التجول، وإلقاء نظرة على المتاجر، والجلوس في الحديقة، وقراءة *وول ستريت جورنال* هي أوقات التسلية المفضلة لعدد لا بأس به من العملاء.

ولكوني صاحب اللهب الأزرق الذي كنته، فقد أخذت على عاتقي كتابة مذكرة أقترح فيها نظام أجور على أساس الجدارة لتشجيع الأشخاص الذين كانوا أكثر إنتاجية. سلمتُ مذكرتي للعميل الخاص المسؤول المساعد، ASAC (تُلفَظ إيه-ساك)، توم نالي.

استدعاني توم إلى مكتبه، أغلق الباب، التقط المذكرة عن سطح مكتبه، وابتسم لي بلطف. «ما الذي يدفعك للقلق، جون؟ سوف تتقاضى راتبك من فئة GS-11». قال ذلك وهو يمزق المذكرة نصفين.

«سوف تتقاضى راتبك من فئة GS-12»، قال وهو يمزق الأوراق نصفين مرة أخرى.

«سوف تتقاضى راتبك من فئة GS-13». يمزق الورق ثانية، أما الآن، تابع ضاحكًا: «لا تهز القارب، دوجلاس»، كانت هذه نصيحته الأخيرة بينما كان يرمي الورق الممزَّق في سلة المهملات.

بعد خمس عشرة سنة، بعد وفاة جيه إدغار هوفر بزمن طويل أو غيابه بشكل ما على الأقل، فقد أقر مكتب التحقيقات الفيدرالي نظام أجور على أساس الجدارة، وعلى الرغم من ذلك، فحين توصلوا إليه أخيرًا، أنجزوه دون أي مساعدة من طرفي.

في إحدى الأمسيات في شهر مايو -في الحقيقة، أذكر أنه كان يوم الجمعة التالي لـ 17 مايو، لأسباب سأوضحها لاحقًا- كنت مع بوب ماكجونيجل وجاك كونست في حانة اعتدنا التسكع فيها، عبر شارع من المكتب، يسمى *مرأب جيم*. كانت هناك فرقة روك آند رول تعزف، وكنا قد تناولنا الكثير من البيرة، حين ظهرت فجأة تلك المرأة الجميلة مع صديقتها. إنها تذكرني بـ صوفيا لورين الشابة، وهي ترتدي ثيابًا على موضة تلك الأيام؛ الثوب الأزرق القصير وحذاء طويل يصل إلى فخذها.

صِحت: «هاي، أيها الأزرق! تعالَي هنا!» ولدهشتي، فقد جاءت هي وصديقتها. اسمها بام موديكا وبدأنا نمزح ونمرح. تبين أنه عيد ميلادها الحادي والعشرين وأنها هي وأصدقاؤها خرجوا للاحتفال بحقها القانوني بالشرب. يبدو أنها أحبت حس الفكاهة لدي. فيما بعد، علمت أن انطباعها الأولي عني كان أنني حسن المظهر لكن معقد نوعًا ما بقصة شعري القصيرة والحكومية. تركنا جيم *جاراج* وقضينا بقية الليل نتنقل بين الحانات.

خلال الأسابيع التالية، تعرفنا على بعضنا بشكل أفضل. كانت تعيش داخل مدينة ديترويت ودرست في مدرسة بيرشنج الثانوية، مدرسة للطلاب السود ارتادها كذلك لاعب كرة السلة العظيم إلفين هايز. حين قابلتها، كانت ترتاد جامعة إيسترن ميشيغان في إبسيلانتي.

تطورت الأمور بيننا سريعًا، على الرغم من أن ذلك لم يخلُ من الأكلاف الاجتماعية بالنسبة إلى بام. كنا في عام 1971، كانت حرب فيتنام لا تزال قائمة، وكان انعدام الثقة بالـ إف بي آي متفشيًا في أوساط الجامعات. فضَّل

معظم أصدقائها عدم الاختلاط بنا، لقناعتهم أنني كنت من مؤسسة تنقل أخبارًا وتقارير عن نشاطاتهم لسلطة أعلى.

كانت فكرة أن هؤلاء الشبان على درجة من الأهمية للتجسس عليهم بأكملها تبدو سخيفة، باستثناء أن الـ إف بي آي كانت تقوم بذلك حقًا في ذلك الزمن. أتذكر حين ذهبت مع بام إلى فصل علم الاجتماع. جلست في آخر الغرفة، أستمع للمحاضر، بروفيسور مساعدة راديكالية شابة، لطيفة جدًا، و «مطَّلعة» للغاية. واصلت النظر إلى المدرِّسة وكانت ترد على نظراتي بتحديقة توحي بانزعاجها حقًا من وجودي. أي شخص من الـ إف بي آي كان عدوًا، حتى إذا كان هذا الشخص حبيب طالبة عندها. باستعادة هذه الحادثة، أدركت مدى التأثير المقلق الذي تتسبب به في بعض الأحيان لمجرد أن تكون ذاتك، وهو ما وظَّفناه، وحدتي وأنا، في صالحنا. في قضية جريمة قتل فظيعة في ألاسكا، كان على زميلي جود راي، وهو أسود، التعامل مع مدعى عليه عنصري، فجاء إلى منصة الشهود وجلس بجانبه وتعامل بودٍّ مع حبيبة الرجل.

خلال سنوات بام الأولى في إيسترن ميشيغان، كان هناك قاتل متسلسل يعمل، حتى وإن لم نكن قد توصلنا بعد إلى المصطلح. ضرب أولًا في يوليو 1967، حين اختفت شابة تُدعى ماري فليزر من الجامعة. عُثر على جسدها المتحلل بعد مرور أشهر. كانت قد طُعنت حتى الموت بينما قُطعت يداها وقدماها. بعد سنة، اكتُشفت جثة جوان شيل، طالبة في جامعة ميشيغان من مدينة آن أربور القريبة. اغتُصبَت وتلقت خمسين طعنة تقريبًا. ثم ظهرت جثة أخرى في إبسيلانتي.

تصاعدت عمليات القتل، التي أصبحت تُعرف بـ «جرائم قتل ميشيغان»، وعاشت النساء في الجامعتين في حالة من الرعب. كانت كل جثة تُكتَشف تقدم دليلًا على الانتهاك المروع. وبحلول الوقت الذي اعتُقل فيه طالب في جامعة ميشيغان يدعى جون نورمان كولينز في عام 1969 –عن طريق الصدفة غالبًا من طرف عمه، تعريف شرطة الولاية ديفيد ليك- كان هناك ست طالبات وفتاة في الثالثة عشرة قد قُتلن بطريقة وحشية.

أُدِينَ كولينز وحُكم عليه بالسجن المؤبد قبل قرابة ثلاثة أشهر من انضمامي إلى المكتب.

لكنني غالبًا ما تساءلت عما إذا كان المكتب يعرف آنذاك ما نفعله الآن، وما إذا كان من الممكن الإيقاع بذلك الوحش قبل أن يصبح مسؤولًا عن كل هذه المآسي. وحتى بعد اعتقاله، فقد استمر طيفه يلاحق الجامعتين، مع ظهور تيد بوندي الذي كان سيطارد الجامعتين بعد سنوات. ولأن ذاكرة هذه الجرائم البشعة كانت تشكل جزءًا من حياة بام الراهنة، فقد أصبحت بالتالي جزءًا من حياتي أنا أيضًا. وأحسب أنه من المرجح، على الأقل في مستوى اللاوعي، أنني حين بدأت دراسة، ثم تعقب، القتلة المتسلسلين، قد كان جون نورمان كولينز وضحاياه الجميلات والبريئات قريبين مني جدًّا.

كنت أكبر بام بخمسة أعوام، لكن لكونها في الجامعة وأنا أعمل في عالم إنفاذ القانون، فقد بدا غالبًا أن بيننا مسافة جيل كامل. في الأماكن العامة، كانت في الغالب هادئة وتبدو ظاهريًّا سلبية بشأني وبشأن أصدقائي وأخشى أننا قد استغللنا ذلك.

في إحدى المرات، التقينا، بوب ماكجونيجل وأنا، بام على الغداء في مطعم فندق يطل على منطقة وسط المدينة. كان كلانا في بذلات داكنة، بينما ارتدت بام ملابس عادية غير رسمية. لاحقًا، كنا في المصعد متجهين إلى ردهة الفندق، وبدا أن المصعد يتوقف في كل طابق. في كل مرة، يزداد عدد الناس فيه. في منتصف الطريق نزولًا، التفت بوب إلى بام وقال: «لقد استمتعنا هذا اليوم. في المرة القادمة سنذهب إلى البلدة، سنتصل بك بالتأكيد». كانت بام تحدق إلى الأرض، محاولة ألا يكون لها أي رد فعل حين قلت: «وفي المرة القادمة، *سوف أجلب* الكريمة المخفوقة *وأنت تجلبين* الكرز». كان الأشخاص في المصعد ينظرون إلى بعضهم، معبرين عن عدم ارتياحهم، حتى انفجرت بام ضاحكة. ثم نظروا إلينا ثلاثتنا وكأننا منحرفون.

كان مقررًا أن تكون بام طالبة تبادل في كوفنتري، إنجلترا، لفصل الخريف الدراسي بحلول أواخر أغسطس، حين سافرت، كنت متأكدًا تمامًا أنها الفتاة التي أريد الزواج بها. لم يخطر لي قط أن أسأل بام إن كانت تكن لي مشاعر مماثلة. لقد افترضتُ أنها كذلك فحسب.

في وجودها بعيدًا عني، كنا نكتب لبعضنا باستمرار. قضيت الكثير من الوقت في منزل عائلتها في 622 آلميدا ستريت، بجانب أرض معارض ولاية ميشيغان. توفي والد بام عندما كانت طفلة صغيرة، لكنني استفدت من حسن

ضيافة والدتها، روزالي، في تناول الطعام عدة مرات أسبوعيًّا وفي تنميط والدتها، كما هو الحال مع أشقائها وشقيقاتها، لأعرف ما كانت عليه بام.

في ذلك الوقت، التقيت بامرأة أخرى كانت تشير إليها بام فيما بعد (مع أنها لم تلتق بها قط) بـ «حبيبة الغولف». مرة أخرى، التقينا في حانة، وحين أستعيد ذلك، أدرك أنه لا بد أنني قضيت في الحانات أكثر من حصتي اللازمة من الوقت. كانت في أوائل العشرينيات من العمر، جذابة جدًّا، وقد تخرجت مؤخرًا في الكلية. كنا قد التقينا للتو حين أصرَّت على أن تصحبني لمنزلها لتناول العشاء. اتضح أنها تعيش في ديربورن، وهو المقر الرئيسي لشركة فورد العالمية، وكان والدها مسؤولًا تنفيذيًّا رئيسيًّا في قطاع السيارات. يعيشون في هذا المنزل الحجري الكبير الذي يضم مسبحًا، وقطعًا فنية أصلية وأثاثًا رائعًا. كان والدها في أواخر عقده الرابع، صورة للنجاح المؤسسي. أما والدتها فكانت كريمة وأنيقة. جالسان إلى طاولة العشاء، معنا شقيق صديقتي الجديدة وشقيقتها. أحلِّل العائلة تنميطيًّا، محاولًا أن أكتشف مقدار ثروتهم. وفي نفس الوقت، كانوا يحاولون تقييمي. كان كل شيء يسير على ما يرام. بدوا معجبين بكوني عميلًا فيدراليًّا في الـ إف بي آي، وهو ترحيب مختلف عما أحصل عليه في دائرة أصدقاء بام. لكن، بالطبع، هؤلاء الناس مؤسساتيون جدًّا. كنت أشعر بالتوتر، وأدركت أن هذا عائد لسبب أنهم عدُّوني عمليًّا طالبَ زواج.

أخذ الأب يسألني عن عائلتي، خلفيتي، خدمتي العسكرية. أخبرته عن عملي في مرافق القاعدة الجوية. ثم أخبرني أنه يمتلك مع شريك له ملعب غولف قرب ديترويت.

واصل الكلام عن هذا المسار وذلك المنعطف وكنت أرفع من تقديري لثروته كل ثانية.

«جون، هل تلعب الغولف؟» سألني.

«لا يا أبي» أجبته دون تردد، «لكنني أرغب بالتأكيد في التعلم».

وهكذا كان. انفصلنا جميعًا. قضيت الليلة هناك، على الأريكة في غرفة المعيشة. في منتصف تلك الليلة جاءت الفتاة إلي، وقد رتبت على ما يبدو حالة من (التسلل بعد أن ينام الجميع) لتأتي وتراني. ربما كانت فكرة وجودي في هذا المنزل الفخم وخوفي الفطري الذي لازمني منذ انضمامي للمكتب؛ يرجع

إلى أن هذا قد يكون مرتبًا، لكن أكثر ما أخافني كان عدوانيتها ومشاكستها، التي تضاهي ما لدى بقية أفراد عائلتها.

غادرتُ في الصباح التالي، مقدرًا ضيافتهم والعشاء الرائع. لكنني أدركت أنني خسرت محاولتي في الحصول على حياة جيدة.

عادت بام من إنجلترا قبل بضعة أيام من أعياد الميلاد، 1971. قررت أن أطرح عليها السؤال وقد اشتريت خاتم خطبة من الألماس. في تلك الأيام، كان للمكتب اتصالات بشأن كل ما تريد شراءه. كانت الشركة التي اشتريت منها الخاتم ممتنة لنا لإحباط سرقة جواهر وكانت تقدم عروضًا ممتازة للعملاء.

وبهذا السعر الخاص، كان أكبر خاتم من الألماس يمكنني شراءه من عيار 1.25 قيراط. لكنني قررت أنها إذا رأت الخاتم أولًا في قعر كأس الشامبانيا، فلن تظنني بالغ الذكاء فحسب، بل إن هذا سيجعل الألماسة تبدو وكأنها من 3 قيراط. اصطحبتها إلى مطعم إيطالي في إيت مايل رود قريبًا من منزلي. وكان في نيتي أنه بمجرد أن تذهب إلى حمام السيدات، فسوف أسقط الخاتم في كأسها.

لكنها لم تذهب قط. لذلك في الليلة التالية، اصطحبتها إلى المطعم نفسه من جديد، وكانت النتيجة هي ذاتها. بحكم جلوسي في مراقبات طويلة في ذلك الوقت، وقضاء ساعات في السيارة واضطراري لضبط نفسي، الذي كان من العوامل المهنية السلبية، فقد كان لا بد لي أن أعجب بها. لكن لعل هذه كانت رسالة إلهية من نوع ما تخبرني أنني غير مستعد للزواج بعد.

كانت الليلة التالية ليلة عيد الميلاد وكنا في منزل والدتها، وكانت العائلة بأكملها موجودة. كانت تلك لحظتي المصيرية الفاصلة حيث إما الآن أو أبدًا. كنا نشرب آستي سبومانتي، الذي أحبته. أخيرًا، تركت الغرفة لوهلة ذاهبة إلى المطبخ. حين عادت، كانت جالسة في حضني، شربَت نخبًا، ولو لم أوقفها لكانت قد ابتلعت الخاتم. بدا كبيرًا كخاتم ألماس من 3 قيراط؛ ولم تره إلى أن أشرت لها إليه. وتساءلَت ما إذا كان هناك رسالة في ذلك.

لكن مع ذلك فقد كان الأمر المهم أنني رتبت «مشهد الاستجواب» للحصول على النتيجة المرجوة. نظمت المشهد بعناية شديدة، إذ يحيط بنا أقرباؤها وأمها، التي كانت تحبني كثيرًا، ولم أترك أمام بام الكثير من الخيارات. قالت نعم. وكنا سنتزوج في يونيو القادم.

من أجل مهامهم في السنة الثانية، أُرسل معظم العملاء غير المتزوجين إلى نيويورك أو شيكاغو، من مبدأ أنه سيكون أسهل بالنسبة إليهم من زملائهم المتزوجين. لم يكن لدي وجهة مفضلة وانتهى بي المطاف في ميلووكي، التي بدت مدينة لا بأس بها حتى مع أنني لم أزرها من قبل ولم يكن عندي علم عن مكانها. كنت سأنتقل إلى هناك في يناير وأستقر فيها ثم تأتي إليَّ بام بعد الزفاف.

وجدت منزلًا في شقق جونيو *فيلدج*، في *فيلدج آفينيو*، غير بعيد من مكتب ميلووكي الميداني في المبنى الفيدرالي في نورث جاكسون ستريت. اتضح أن ذلك كان خطأً تكتيكيًا، لأنه مهما كان سيحدث، ستكون الاستجابة الأولية «هبوا وائتوا بـ دوجلاس. إنه على بعد ثلاثة مربعات سكنية».

وحتى قبل وصولي إلى ميلووكي، فقد عرفَت النساء في المكتب من كنت: بالتحديد، واحد من عميلين غير متزوجين. وفي أسابيعي الأولى تنافسن على جذب انتباهي، حتى مع أنني لم أكن أقوم بعمل كبير، إلا أن الجميع أردن أن يكن قريبات مني.

لكن بعد عدة أسابيع، حين انتشر الخبر تدريجيًا عن خِطبتي، سرعان ما فقدت ذلك الاهتمام ولم أعد جذابًا لأحد.

كان الجو في مكتب ميلووكي الميداني قد انقلب ليصبح نسخة مما كان عليه في ديترويت، بل أكثر من ذلك. كان أول عميل خاص مسؤول SAC رجلًا اسمه إد هايز، الذي دعاه الجميع إدي السريع- Fast Eddie. كان حاضرًا دائمًا بوجهه المحمر (وقد توفي بسبب ارتفاع ضغط الدم بعد فترة قصيرة من تقاعده)، وكان يتجول دائمًا يفرقع أصابعه صارخًا: «اخرج من المكتب! اخرج من المكتب!» قلت: «أين يفترض بي أن أذهب؟ لقد جئت إلى هنا. ليس لدي سيارة. وليس عندي أي قضايا».

صُدم، «لا يهمني إلى أين تذهب. اخرج من المكتب».

فغادرت. في تلك الأيام، لم يكن من الغريب أن تذهب إلى مكتبة أو تتجول في ويسكونسن آفينيو قريبًا من المكتب وتجد عددًا من العملاء يتمشون وهم يتفرجون على البضائع المعروضة في السوق لأنه ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه. في تلك الفترة تقريبًا اشتريت سيارتي الثانية، فورد تورينو، عبر تاجر سيارات كان للمكتب اتصالات به. كان مديرنا التالي، هيرب هوكسي، آتيًا من المكتب الميداني في ليتل روك، آركنساس. لطالما كانت

عملية التعيين مشكلة كبيرة للعملاء المسؤولين، وبمجرد وصول هوكسي، كان تحت الضغط. كان لكل مكتب ميداني عدد محدد من العملاء وموظفي الأعمال المكتبية.

استدعاني هوكسي إلى مكتبه وأخبرني أنني سأكون مسؤولًا عن التعيين. كان لا بد أن يتولى هذه المهمة رجل غير متزوج لأنها كانت تتطلب السفر في جميع أنحاء الولاية.

«لماذا أنا؟»، سألت.

«لأننا اضطررنا لإيقاف الشخص الذي كان يقوم بهذه المهمة وكان محظوظًا أنه لم يُطرد». كان يذهب للثانويات المحلية ويقابل الفتيات بشأن وظائف مكتبية. كان هوفر لا يزال حيًّا ولم يكن هناك أي امرأة في وظيفة العميل الخاص في تلك الأيام. كان يطرح عليهن أسئلة، كما لو أنها من قائمة معدة مسبقًا. كان أحد تلك الأسئلة «هل أنت عذراء؟» إذا أجابت بـ لا، كان يطلب منها الخروج في موعد. بدأ الأهل يتقدمون بشكاوى وكان لا بد للمدير المسؤول أن يوقفه.

بدأتُ التعيين في مختلف أنحاء الولاية. لاحقًا، كنت قد أحضرت ما يعادل أربعة أضعاف النسبة المطلوبة. كنت مسؤول التعيين الأكثر إنتاجية في البلاد. كانت المشكلة تكمن في أنني كنت جيدًا جدًّا، ولن يتخلوا عني. حين أخبرت هيرب أنني لم أعد أريد القيام بهذا العمل، وأنني لم أنضم للـ إف بي آي لتجنيد الأفراد، هدد بوضعي في قسم الحقوق المدنية، ما يعني استجواب إدارات الشرطة والضباط المتهمين بإساءة التعامل الوحشية مع المشتبه بهم والسجناء أو بالتمييز العنصري ضد الأقليات. ولم يكن ذلك عملًا مرغوبًا في المكتب. وفكرت في أن هذه كانت طريقة سيئة لمكافأتي على حسن عملي.

لذلك أبرمت صفقة مع نفسي، إذ وافقت على مواصلة تقديم أرقام التجنيد الكبيرة إذا وافق هوكسي على تعييني كمساعده الأولي، أو بديله، وإذا أتيح لي استخدام سيارة المكتب أو نيل توصية لإدارة المساعدة في إنفاذ القانون (LEAA) والحصول على المال من أجل كلية الدراسات العليا. لقد عرفت أنه إذا لم أكن أنوي قضاء مسيرتي المهنية كلها ميدانيًّا، فقد كنت في حاجة إلى شهادة ماجستير.

كنت مشتبهًا به إلى حد ما في المكتب. فكل من أراد الحصول على هذا القدر من الدراسة يعدُّ ليبراليًّا متحمسًا. لكن في جامعة ويسكونسن، ميلووكي،

حيث كنت أقضي الليالي والعطل الأسبوعية في دراسة علم النفس التربوي، كان يُنظر إليَّ بعكس ذلك. كان معظم المدرسين متوجسين من وجود عميل فيدرالي في صفوفهم، ولم أتمتع بكثير من الصبر على تلك الطريقة الحساسة والناعمة في التعامل التي كانت جزءًا من علم النفس («جون، هل لك أن تقدم نفسك لجارك هنا وتخبره من هو جون دوجلاس حقًا؟»).

في أحد الصفوف، كنا جالسين في دائرة. كانت الدوائر كبيرة في تلك الأيام. بدا لي تدريجيًا أنه لا أحد يتحدث معي. حاولت أن أكون جزءًا من المحادثة، لكن لم يكن أحد ليقول شيئًا. أخيرًا قلت: «ما المشكلة هنا يا جماعة؟» واتضح أنه كان هناك مشط بمقبض معدني خارج من سترة بذلتي واعتقدوا جميعًا أنه هوائي صغير؛ أنني كنت أسجل ما يدور في الصف وأبثه لـ «المقر». لم يكن ليدهشني هوس أولئك الأشخاص بمقدار أهميتهم.

في بداية مايو 1972، توفي جيه إدغار هوفر بسلام خلال نومه، في منزله في واشنطن. في الصباح الباكر، انتشرت البرقيات من المقرات إلى جميع المكاتب الميدانية. في ميلووكي، استدعانا المسؤول جميعًا لنسمع الخبر. ومع أن هوفر كان في أواخر عقده السابع وكان موجودًا منذ الأزل، إلا أن أحدًا لم يفكر أنه سيموت. ومع موت الملك الآن، كنا جميعًا نتساءل من أين سيأتي ملك آخر ليحل مكانه. عُيِّن إل باتريك غراي (نائب المدعي العام ومن الموالين لـ نيكسون) مديرًا بالوكالة. نال شعبية جيدة في البداية لابتكاراته الجديدة مثل السماح بوجود عملاء من إناث. لكن لم يطل الأمر كثيرًا حتى بدأ بالتراجع عندما ظهر التعارض بين ولاءات إدارته واحتياجات المكتب.

كنت أقوم بالتعيين في جرين باي بعد أسابيع من وفاة هوفر حين تلقيت اتصالًا من بام. قالت إن الكاهن يريد أن يلتقي بنا قبل أيام من الزفاف. كنت مقتنعًا بقدرته على دفعي للتحول إلى الكاثوليكية وكسب نقاط في الكنيسة. لكن بام كاثوليكية طيبة نشأت على احترام وطاعة ما يقوله لها الكاهن. وكنت أعلم أنها ستتعبني بإلحاحها إذا لم أستسلم بسهولة.

ذهبنا معًا إلى كنيسة القديسة ريتا، دخلت لترى الكاهن وحدها أولًا. ذكرتني بقسم الشرطة حين كنت في الكلية في مونتانا، حين فصلونا للتأكد من قصصنا كل على حدة. أنا متأكد أنهما يناقشان تفاصيل إستراتيجية تحوُّلي. عندما استدعياني أخيرًا لأدخل، كان أول ما قلته: «ماذا تخبئان للطفل البروتستانتي؟»

كان الكاهن شابًّا ولطيفًا، في بداية عقده الثالث تقريبًا. سألني بعض الأسئلة العامة، مثل «ما هو الحب؟» كنت أحاول تحليله تنميطيًّا، لعلي أكتشف إن كان ثمة رد صحيح مناسب. هذه المقابلات تشبه مقابلات التقدم للدراسة، لا يمكنك الجزم ما إذا كنت مستعدًّا بالشكل المناسب.

انتقلنا للحديث عن تحديد النسل، وكيفية تربية الأطفال، وهذا النوع من المواضيع. بدأت أسأله عما يعني له كونه كاهنًا أن يكون أعزب، ولا يمتلك عائلة خاصة به. بدا لي شابًّا لطيفًا، لكن بام أخبرتني أن كنيسة القديسة ريتا كانت تقليدية وصارمة وأنه لم يكن مرتاحًا بشأني، ربما لأنني لست كاثوليكيًّا، لست متأكدًا. أعتقد أنه حاول أن يكسر الجليد حين سألني «أين التقيتما؟»

كلما شعرت بالضغط في حياتي، كنت أميل دائمًا للمزاح، محاولًا بذلك تخفيف التوتر. إنها فرصتي، كما أعتقد، ولا يمكنني مقاومتها. حركت مقعدي مقتربًا منه. «حسنًا يا أبتاه»، بدأت الكلام: «أنت تعلم أنني عميل فيدرالي. لا أعلم إن كانت بام قد أخبرتك عن خلفيتها».

كنت كلما تحدثت أقترب منه أكثر، مركزًا على التواصل بالعينين الذي تعلمته ضد أساليب التحقيق. أحاول ألا أجعله ينظر إلى بام لأنني لا أعرف كيف ستتفاعل. «لقد التقينا في مكان يسمى جيم جاراج، وهي حانة فيها متعريات. عملت بام هناك راقصة وأجادت عملها. ما لفت انتباهي فعلًا، أنها كانت ترقص بتلك الشراشيب على نهديها، وكانت تحركهم في اتجاهات متعاكسة. أصدقك القول، كان من الممتع فعلًا مشاهدة ذلك».

بام ساكنة كأنها ميتة، لا تدري إن كان عليها أن تقوم بشيء ما أم لا. والكاهن ينصت بانتباه كبير.

«بكل الأحوال يا أبتي، لقد جعلت تلك الشراشيب تدور بسرعة أكبر وأكبر، ثم فجأة، طارت إحداها نحو الحاضرين. حاول الجميع التقاطها. أمسكتُ بها وأعدتها لها، وها نحن أولاء هنا اليوم».

كان فاغرًا فاه. لقد جعلت هذا الشخص يصدقني تمامًا ثم انفجرت ضاحكًا، مثلما حصل مع الكتاب الذي اختلقته أمام مدرسي في الثانوية. «تعني أن هذا غير صحيح؟» سألني. وفي تلك اللحظة كانت بام قد انفجرت ضاحكة، أيضًا. هززنا رأسينا. لا أعرف إن شعر الكاهن بالراحة أم خيبة الأمل.

كان بوب ماكجونيجل إشبيني. كان صباح يوم الزفاف ممطرًا وكئيبًا وكنت متشوقًا للوصول إليه.

طلبت من بوب أن يتصل بمنزل والدة بام ويسألها إن رأتني أو سمعت عني شيئًا. وبالطبع أجابت بـ لا، فقال لها بوب إنني لم أعد منذ الليلة الماضية وأنه يخشى إن كنت قد غيرت رأيي وفضلت الانسحاب. حين أتذكر ذلك، لا أصدق كم كان حس الدعابة عندي شريرًا. في النهاية، ضحك بوب وصرح بحقيقة الأمر، لكني شعرت بشيء من خيبة الأمل لكوني لم أحصل على المزيد من رد فعلها. لاحقًا، أخبرتني أنها شعرت بالصدمة الكبيرة لأن تذهب كل تلك الترتيبات سدى وأنها شعرت بالقلق الشديد بشأن تسريحة شعرها في رطوبة الجو بينما كان اختفاء العريس مسألة ثانوية الأهمية.

حين تبادلنا النذور في الكنيسة في ذلك المساء أعلنَنا الكاهن زوجًا وزوجة، وقد فوجئت من بعض الكلمات الطيبة التي قالها الكاهن عني.

«لقد قابلت جون دوجلاس للمرة الأولى في ذلك اليوم، وقد جعلني أفكر كثيرًا ومليًا في شعوري تجاه اعتقاداتي الإيمانية».

الرب وحده يعلم ما قلت لجعله يفكر بهذا العمق، لكن في بعض الأحيان يكون **له** تدخل غامض. المرة الثانية التي أخبرت فيها قصة الشراشيب لكاهن، كانت حين استدعته بام ليصلي من أجلي في سياتل. وقد جعلتُه يصدقها أيضًا. قضينا شهر عسل قصيرًا في جبال الـ بوكونوس Poconos -حوض استحمام على شكل قلب، مرايا في السقف، وكل تلك الأشياء الراقية- ثم توجهنا إلى لونج آيلاند حيث أقام والداي حفلة لنا بغرض أن عددًا قليلًا من عائلتي لم يتمكنوا من حضور زفافي. بعد زواجنا، انتقلت بام إلى ميلووكي. تخرجت وأصبحت معلمة. كان على جميع المعلمين الجدد أن يقضوا خدمتهم كمدرسين بدلاء في أقسى مدارس المدينة. كانت إحدى الثانويات خصوصًا سيئة. كان المعلمون هناك يتعرضون للدفع والركل بشكل روتيني، كما وقعت عدة محاولات اغتصاب للمعلمات الأصغر سنًا. كنت قد انتهيت من موضوع التجنيد وكنت أقضي ساعات طويلة مع فريق الاستجابة، وبخاصة في التعامل مع جرائم السطو على البنوك.

وعلى الرغم من الخطر المرتبط بعملي، فإنني كنت قلقًا بشأن وضع بام. على الأقل كان معي مسدس لأدافع عن نفسي. في مرة، أجبرها أربعة طلاب على الدخول إلى غرفة صف فارغة، أخذوا يلمسونها ويتهجمون عليها.

تمكنتْ من الصراخ والهروب بعيدًا، لكنني كنت غاضبًا. أردت اصطحاب بعض العملاء معي إلى المدرسة وتأديبهم.

كان أفضل أصدقائي في تلك الفترة عميلًا اسمه جو ديل كامبو، عمل معي في قضايا السطو على البنوك. كنا نتسكع معًا في محل لبيع الكعك في آوكلاند آفينيو، قرب حرم ميلووكي في جامعة ويسكونسن. كان هناك زوجان اسمهما دايفيد وسارة غولدبرغ، وقبل أن يمضي وقت طويل، أصبحنا -جو وأنا- على علاقة ودية بهما. وفي الواقع، فقد بدآ يعاملاننا كابنين لهما.

في صباح بعض الأيام، كنا نوجد هناك مشرقين ومتحمسين، واضعين مسدساتنا ونساعد عائلة غولدبرغ في وضع المخبوزات والمعجنات في الفرن. نتناول الإفطار، نخرج ونمسك بهارب ما، نتابع البحث في عدد من القضايا، ثم نعود إلى الغداء. عملت أنا وجو في مركز الجالية اليهودية، وفي أوان أعياد الميلاد والحانوكا، كنا نشتري لعائلة غولدبرغ بطاقات عضوية. في النهاية، بدأ مزيد من العملاء الآخرين يتوافدون إلى المكان الذي أسميناه ببساطة «مكان غولدبرغ» وكنا نقيم حفلة هناك حضرها كل من العميل المسؤول والعميل المسؤول المساعد.

كان جو ديل كامبو شخصًا لامعًا، يتحدث عدة لغات ومتميزًا بالأسلحة النارية. لقد لعبت براعته دورًا رئيسيًّا في أغرب المواقف، وأكثرها إرباكًا، التي مررت بها.

في يوم خلال الشتاء، كنت أنا وجو في المكتب نستجوب شخصًا هاربًا أحضرناه في الصباح حين تلقينا اتصالًا بأن شرطة ميلووكي لديهم قضية رهينة. كان جو مستيقظًا طوال الليل في ورديته الليلية، لكننا تركنا المعتقل الذي لدينا ليهدأ قليلًا وتوجهنا إلى الموقع.

عندما وصلنا إلى هناك، وكان منزلًا على الطراز التيودوري، علمنا أن المشتبه به (جايكوب كوهن، الهارب المتهم بقتل ضابط شرطة في شيكاغو) قد أطلق النار للتو على العميل الفيدرالي ريتشارد كار، الذي حاول الاقتراب من شقته، التي كانت محاطة بأفراد فريق التدخل السريع التابع لـ إف بي آي المدربين حديثًا. لقد ركض المجنون في محيط وجود فريق التدخل السريع، متعرضًا لطلقتين أصابتا ردفيه. أمسك بفتى صغير يكنس الثلج عن الرصيف وعاد إلى المنزل. بات لديه الآن ثلاث رهائن؛ طفلان وشخص بالغ. في النهاية،

سمح للبالغ وأحد الطفلين بالذهاب. أمسك بالفتى الصغير، الذي كان عمره بين العاشرة والثانية عشرة.

في مرحلة ما، كان الجميع غاضبين. الجو متجمد من البرد. كوهن غاضب كمجنون، ولم تساعدنا حقيقة أن مؤخرته مصابة بالرصاص. كان كل من إف بي آي وشرطة ميلووكي غاضبين من بعضهما بسبب ترك الأمر يتدهور هكذا. كان أفراد فريق التدخل السريع يشعرون بالغضب لأن تلك كانت أول قضية كبيرة لهم وقد أخطؤوا في إصابته وتركوه يهرب ضمن نطاقهم. كانت الـ إف بي آي خاسرة الآن، بسبب وقوع أحد أفرادها. وقد أشاعت شرطة شيكاغو الخبر أنهم آتون لأخذه، وأنه إن كان هناك أحد سيطلق النار على المشتبه به، فهم أصحاب الحق في ذلك. وصل العميل المسؤول هيرب هوكسي إلى المكان وارتكب ما أراه بضعة أخطاء ضاعفت الأخطاء التي ارتكبها الجميع. أولًا، استخدم مكبر الصوت ما أظهره أنه آتٍ كآمر. كان استخدام خط هاتفي خاص أكثر حساسية، بالإضافة إلى أنه يعطيك المرونة في التفاوض في خصوصية. ثم ارتكب ما أعده خطأه الثاني: عرض نفسه رهينة في مقابل الفتى.

لذلك جلس هوكسي وراء مقود سيارة الـ إف بي آي. شكَّل عناصر الشرطة دائرة حول السيارة مع اقترابها من المدخل. في غضون ذلك، طلب مني ديل كامبو أن أرفعه ليصعد إلى سطح المنزل. تذكروا، إنه منزل على الطراز التيودوري بسطح منحدر زلق، وقد كان جو مستيقظًا طوال الليلة الماضية. وكان سلاحه الوحيد هو مسدسه الـ ماجنوم 357 إنشان ونصف.

خرج كوهن من المنزل ويده ملفوفة حول رأس الفتى، ممسكًا به بالقرب من جسده. خرج المفتش بيزلي من إدارة شرطة ميلووكي من دائرة رجال الشرطة وقال: «جاك، لدينا ما تريد. دع الفتى وحده!» كان ديل كامبو لا يزال يزحف على السطح. رآه رجال الشرطة وأدركوا ما كان ينوي فعله. كان الجاني والضحية يقتربان من السيارة. يوجد جليد وثلج في كل مكان. ثم فجأة، انزلق الفتى على الجليد، مسببًا فقدان كوهن لسيطرة قبضته عليه. وصل ديل كامبو فوق قمة السطح. ولإدراكه أنه بسبب المسدس القصير قد ترتفع الرصاصة، فقد صوَّب إلى العنق وأطلق رصاصة واحدة.

كانت طلقة مباشرة، طلقة رائعة، في منتصف عنق الجاني. وقع كوهن، لكن لم يدرِ أحد ما إذا كان هو الذي أصيب أم الفتى. بعد ثلاث ثوان بالضبط،

أُصيبت السيارة بعدد كبير من الطلقات. في تبادل إطلاق النار، أُصيب المفتش بيزلي في وتر أخيل. نزل الفتى على يديه وركبتيه على الأرض، بينما تتجه السيارة نحوه لأن هوكسي أُصيب من الزجاج المتناثر وفقد تحكمه في السيارة. لحسن الحظ، لم تكن إصابة الفتى خطيرة.

وفقًا لنموذج الـ إف بي آي، أظهرت الأخبار المحلية ذلك المساء العميل الخاص المسؤول، هيربرت هوكسي، على نقالة محمولًا إلى غرفة الطوارئ والدم ينزف من أذنه، وبينما كنا ننقله، كان يدلي بتصريحه للصحافة: «فجأة سمعت صوت إطلاق نار، كان الرصاص يتطاير من حولي. أعتقد أنني أُصبت لكنني أعتقد أنني بخير». إف بي آي، الرب، الأمومة، فطيرة تفاح، إلخ، إلخ.

لكن لم تكن تلك نهاية الأمر. فقد كادت أن تندلع مشكلات وكانت الشرطة مستاءة لأن ديل كامبو قد سبقهم في اتخاذ القرار والتصرف. بينما لم يكن أفراد فريق التدخل السريع يشعرون أيضًا بالسعادة لأنه جعلهم يبدون في موقف سيئ. ذهبوا إلى العميل الخاص المسؤول المساعد *إد* بيست ليشتكوا، لكنه دافع عن ديل كامبو قائلًا إن جو أنقذ الموقف الذي تركوه يتفاقم.

كان في جسد كوهن ما بين ثلاثين إلى أربعين جرحًا بسبب الرصاص لكنه كان لا يزال حيًّا عندما أخذناه في سيارة الإسعاف. ولحسن الحظ، لجميع المعنيين بالأمر، فقد كان حيًّا عند وصوله إلى المستشفى.

بما يشبه المعجزة، فقد نجا العميل كار. دخلت الرصاصة التي أطلقها كوهن في المعطف المطري الذي كان يرتديه كار ودخلت عبر كتفه، ارتدَّت من القصبة الهوائية واستقرت في الرئة. احتفظ كار بذلك المعطف وارتداه بفخر بالغ منذ ذلك اليوم.

كنا أنا وديل كامبو فريق عمل رائعًا لفترة، باستثناء حين كنا نتنافس في تلك الدعابات المضحكة التي لم نستطع التوقف عنها. في إحدى المرات كنا في حانة للمثليين، نحاول تطوير بعض الأفكار عن قاتل هارب مثليٍّ. كان المكان مظلمًا وتطلب من أعيننا بعض الوقت لتتأقلم. فجأة، انتبهنا لكل تلك الأعين الموجَّهة إلينا، وبدأنا نتجادل بشأن أي واحد منا كانوا يريدون. ثم وجدنا لافتة مكتوبة فوق المشرب «من الجيد إيجاد رجل قاسٍ»، وانفجرنا ضاحكين مثل أحمقين.

لم يطل الأمر. انفصلنا مرة للحديث مع رجل مسنٍّ في كرسي متحرك في دار للمسنين، ومجددًا، قابلنا صاحب عمل أنيقًا في منتصف الأربعينيات

انزلق شعره المستعار إلى منتصف جبهته. لم يكن هذا مهمًا. إن كان هناك أي مجال للدعابة في أي وضع، فإننا سنجده. بقدر ما قد يبدو هذا عديم الإحساس، إلا أن هذه موهبة مفيدة. حين تقضي وقتك تنظر إلى مواقع جرائم القتل والجثث، وبخاصة المتعلقة بالأطفال، ثم عندما تتحدث عن مئات، ثم آلاف الضحايا وعائلاتهم، وحين تكون قد رأيت الأشياء المذهلة تمامًا التي بوسع البشر فعلها تجاه بشر آخرين، فمن الأفضل أن تضحك على الأشياء السخيفة، وإلا فإنك ستُجن.

وعلى عكس الكثير من الأشخاص الذين يعملون في سلك إنفاذ القانون، فلستُ مهووسًا بالسلاح، لكنني منذ أيام سلاح الجو كنت جيدًا في التصويب. فكرت أنه سيكون من المثير للاهتمام أن أنضم لفريق التدخل السريع لفترة. كل مكتب ميداني فيه واحد. كان عملًا بدوام جزئي، ويتم استدعاء أفراد الفريق الخمسة عند الحاجة.

شُكِّل الفريق وعُيِّنت كقناص -الشخص الذي يبقى في الوراء ويصوب الطلقة البعيدة- فيما كان لدى بقية الأفراد جميعًا خلفية عسكرية قوية -القبعات الخضراء، حراس- بينما كنت أعلِّم السباحة لزوجات الطيارين وأولادهم. أصبح قائد الفريق ديفيد كول في النهاية نائب مدير مساعد في كوانتيكو، وكان من طلب مني أن أترأس وحدة دعم التحقيقات.

في إحدى القضايا، التي كانت إلى حد ما أبسط من قضية جايكوب كوهن الغريبة، سرق شخص بنكًا، ثم خاض مع الشرطة مطاردة سريعة، وانتهى به المطاف محاصَرًا في مخزن. ثم تم استدعاؤنا. داخل المخزن، خلع ملابسه كلها، ثم ارتداها ثانية. بدت كأنها قضية شخص مخبول فعلًا. ثم طلب أن يحضروا زوجته إلى المكان، وهو ما فعلوه.

في السنوات التالية، حين أجرينا المزيد من الأبحاث حول هذا النوع من الشخصيات، كنا سنفهم أنه لم يكن يجدر فعل ذلك؛ ليس عليك أن توافق على مطلب كهذا لأن الشخص الذي يطلبون رؤيته هو في الغالب من يعدُّونه متسببًا في المشكلة في المقام الأول. وبالتالي، فإنك لن تضع هذا الفرد في خطر كبير وتضعه أمام خطر حالة قتل-انتحار.

لحسن الحظ، في هذه الحالة، لم يدخلوها إلى داخل المخزن، وإنما جعلوها تتكلم معه عبر الهاتف. وبشكل مؤكد، فبمجرد أن أقفل الخط، فجر رأسه ببندقية.

كنا ننتظر في مواقعنا لعدة ساعات، ثم فجأة انتهى كل شيء. لا يمكنك تبديد التوتر دائمًا بهذه السرعة، مما يقود في الغالب إلى دعابة بليدة. «يا إلهي، لماذا كان عليه أن يفعل ذلك؟» علق أحد الأشخاص. «دوجلاس قناص ممتاز. كان يمكنه فعل ذلك له».

قضيت في ميلووكي ما يزيد على خمس سنوات. في النهاية، انتقلت أنا وبام من الشقة في جونيو آفينيو إلى منزل في براون دير رود، بعيدًا عن المكتب، قريبًا من الحدود الشمالية للمدينة. قضيت معظم وقتي في قضايا السطو على البنوك وحظيت بسلسلة من الإطراءات حول التعامل مع القضايا.

وجدتُ أنني حققت أكبر نجاح ممكن حين تمكنت من التوصل إلى «توقيع» يربط عدة جرائم ببعضها، وهو العنصر الذي أصبح لاحقًا حجر الأساس في تحليلنا للقاتل المتسلسل.

لكن إخفاقي الوحيد خلال تلك الفترة كان حين جاء جيري هوجان بديلًا لهيرب هوكسي كعميل خاص مسؤول. لم يكن هناك الكثير من المزايا والمنافع المتعلقة بالعمل، لكن إحداها كانت سيارة المكتب، وقد كان هوجان فخورًا بسيارته الفورد الزمردية الجديدة. احتجت إلى سيارة لأجل التحقيق في أحد الأيام ولم يكن هناك سيارة شاغرة. كان هوجان في اجتماع، لذلك طلبت من العميل الخاص المسؤول المساعد، آرثر فولتن، إن كنت أستطيع استعمال سيارة المدير. ووافق بتردد.

الشيء الآخر الذي أعرفه، أن جيري استدعاني إلى مكتبه وكان يصرخ في وجهي بسبب استعمالي لسيارته، والتسبب في اتساخها، و-الأسوأ ضمن كل هذا- إعادتها بعجلة مثقوبة. وهو ما لم ألاحظه حتى. اليوم أنا وجيري على وفاق جيد، لذلك كان يصرخ طوال الوقت، ولا أستطيع كبح نفسي عن الضحك. ومن الواضح أن ذلك كان خطأ.

لاحقًا في ذلك اليوم، قال لي المشرف على فريقي، راي بيرن: «هل تعلم جون؟ إن جيري هوجان يحبك فعلًا، لكن عليه أن يلقنك درسًا. إنه يكلفك بالمحمية الهندية».

كانت تلك الأيام التي كثر الحديث فيها عن حادثة ووندد ني Wounded Knee (مذبحة الركبة الجريحة) وانتشار الوعي بشأن حقوق السكان الأمريكان الأصليين. كنا مكروهين في المحميات، كما هو الحال في جيتوهات ديترويت. كانت الحكومة تعامل الهنود بشكل فظيع. وعند وصولي إلى

محمية مينوميني في جرين باي، لم أستطع تصديق مستوى الفقر والقذارة والتعاسة التي كان عليهم أن يعيشوا فيه. لقد جُرِّدوا من جزء كبير من ثقافتهم، كانوا يبدون لي مخدَّرين. وذلك عائد في جزء كبير منه إلى الظروف السيئة وتاريخ من اللامبالاة والعدوانية الممارَسة من الحكومة، حيث ترى في كثير من المحميات معدلات عالية من حوادث سببها الكحول، وإساءة معاملة الزوجات والأطفال، والتهجم، وجرائم القتل. ولكن بسبب انعدام الثقة الكامل بالحكومة، فقد كان من المستحيل تقريبًا لعميل في إف بي آي أن يحظى بأي شكل من التعاون أو المساعدة من الشهود.

لم يقدم ممثلو مكتب الشؤون الهندية المحلي أي عون لي. حتى أفراد عائلات الضحايا لم يكونوا ليتدخلوا، خوفًا من عدِّهم متعاونين مع العدو. في بعض الأحيان، حين تكتشف أمر جريمة قتل وتذهب إلى الموقع، سترى أن الجسد هناك منذ بضعة أيام، وقد بات مليئًا بيرقات الحشرات.

قضيت في المحمية أكثر من شهر، حققت فيه أكثر من ست جرائم قتل. شعرت بالأسى على هؤلاء الناس، وكنت مكتئبًا طوال الوقت، وكانت لدي رفاهية المغادرة والعودة إلى المنزل في الليل. لم يسبق لي أن رأيت أشخاصًا، كجماعة، لديهم كل هذه الصعوبات ليقهروها. وبينما كان الأمر خطيرًا ومشكوكًا فيه، فإن وجودي في محمية مينوميني كانت أول جرعة مركزة من التحقيقات التي أقوم بها في موقع جريمة القتل، وهو ما أثبت أنه سيشكل بالنسبة إليَّ تجربة عظيمة.

مما لا شك فيه، أن أفضل ما حدث لي خلال وجودي في ميلووكي كان ولادة طفلتي الأولى، إريكا، في نوفمبر 1975. كنا في عشاء في عيد الشكر في نادٍ ريفي محلي مع صديقين، سام وإستر راسكن، حين دخلت بام في المخاض. ووُلِدت إريكا في اليوم التالي.

كنت أعمل لساعات طويلة على قضايا السطو على البنوك وأنهي شهادة دراستي العليا، وكان وجود الطفلة المولودة حديثًا يعني ساعات نوم أقل. لكن غني عن القول إن بام تحملت العبء الأكبر في هذا. شعرت بمزيد من المسؤولية تجاه العائلة كنتيجة لحالة الأبوة، وأحببت مراقبة إريكا وهي تكبر. ولحسن حظنا جميعًا، كما أظن، فلم أكن قد بدأت العمل على قضايا خطف الأطفال وقتلهم. لو كنت قد فعلت، لكنت قد توقفت وبحثت عن شيء آخر، لا

أعرف إن كنت حينها سأتأقلم مع الأبوة بشكل مريح. لكن حين وُلدت طفلتنا الثانية، لورين، في 1980 كنت أعمل في ذلك بالفعل.

إن كوني أبًا قد حفزني، كما أعتقد، لأن أحاول تقديم المزيد من أفضل ما فيَّ. كنت أدرك أن ما كنت أعمله لم يكن الشيء الذي أردت فعله طوال مسيرتي المهنية.

نصحني جيري هوجان بقضاء عشر سنين في المجال قبل أن أفكر في التقدم لشغل مجال آخر، وبهذا فإنني سأمتلك الخبرة لأكون عميلًا خاصًّا مسؤولًا مساعدًا ثم مرشحًا لعميل خاص مسؤول، ثم قد ينتهي بي المطاف في المقر. لكن مع وجود طفلة واحدة، مع أمل في وجود المزيد، فإن حياة العميل الميداني، المتنقل من مكتب إلى مكتب، لم تبدُ لي جذابة بشكل رهيب.

وبمرور الوقت، بدأت تظهر أفكار أخرى بشأن العمل. لقد فقدت الشغف في تدريب القناص وتمارين فريق التدخل السريع. ومع خلفيتي واهتمامي بعلم النفس -كنت قد حصلت على شهادة الماجستير في ذلك الوقت- فإن الجانب المتحدي في العمل، كما بدا لي، كان محاولة إدارة الوضع قبل وصوله إلى مرحلة يصعب تغييرها.مكتبة .. سُر مَن قرأ

رشحني المدير لدورة مفاوضات رهائن لمدة أسبوعين في أكاديمية إف بي آي في كوانتيكو، التي كانت تعمل منذ عامين فحسب.

هناك، وتحت وصاية عملاء أسطوريين مثل هوارد تيتن وبات مولاني، تعرفت للمرة الأولى على ما قد بدأ يُعرَف بالعلوم السلوكية، وقد غيَّر ذلك مسيرتي المهنية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

علوم سلوكية أم BS؟

لم أكن قد عدت إلى كوانتيكو منذ تدريب العملاء الجدد قبل نحو خمس سنوات، وقد تغير المكان في جوانب كثيرة. أولًا، بحلول ربيع عام 1975، كانت أكاديمية إف بي آي قد أصبحت منشأة مكتملة ومكتفية ذاتيًا، مقتطَعة من قاعدة للقوات البحرية الأمريكية في غابات فيرجينيا الجميلة والممتدة، على بعد ساعة من جنوب واشنطن. لكن ثمة بعض الأشياء التي لم تتغير، إذ لا تزال الوحدات التكتيكية تسيطر على كل الهيبة والمكانة، وفي هذا، كانت وحدة الأسلحة النارية هي النجمة الساطعة. كان يرأسها جورج زايس، العميل الخاص الذي أُرسِل ليحضر جيمس إيرل راي من إنجلترا ليقف أمام القضاء الأمريكي عام 1968 بعد اغتيال الدكتور مارتن لوثر كينج جونيور. كان زايس رجلًا يشبه دبًا ضخمًا وقويًا تمكن مرة من كسر الأصفاد بيديه في خدعة صالون. مرة، أخذ أحد الأشخاص زوجين من الأصفاد ولَحَمَ السلسلة، ثم أعطاهما لـ زايس ليقوم بعمله. أخذ يشدُّ بقوة حتى كسر رسغه واضطر للبقاء في قالب لأسابيع.

كانت وحدة العلوم السلوكية مسؤولة عن تدريس مفاوضات الرهائن، مجموعة من سبعة إلى تسعة عملاء مدربين. لم يكن علم النفس و «العلوم الناعمة» ليحظى بهذا التقدير في زمن هوفر وجماعته، وحتى وقت وفاته، كان هذا يعدُّ كمحاولة تجري «خلف الكواليس».

في الحقيقة، إن معظم الـ إف بي آي في ذلك الوقت، كما هو الحال بالنسبة إلى عالم إنفاذ القانون بشكل عام، قد عدَّ مسألة تطبيق علم النفس والعلوم السلوكية على علم الجريمة هراء لا معنى له. بينما وبشكل واضح لم أكن أفكر

بهذه الطريقة قط، إذ يجب أن أقرَّ بأن معظم ما كان معروفًا ومدرَّسًا في هذا المجال ليس له ارتباط حقيقي بتفهم المجرمين والقبض عليهم، وهو ظرف سيبدأ العديد منا محاولة تعديله بعد بضع سنوات. حين تسلمت منصب رئيس القسم العملياتي في وحدة العلوم السلوكية، غيرت الاسم إلى وحدة دعم التحقيقات. وحين سألني الناس عن السبب، أخبرتهم، بصراحة شديدة، أنني أردت أن أنقل [هراءBS] العلوم السلوكية (Behavioral Sciences) خارج ما كنا نعمله. كانت وحدة العلوم السلوكية BSU (بقيادة رئيس الوحدة جاك بفاف في الوقت الذي تلقيت فيه تدريب مفاوضات الرهائن) محكومة من شخصيتين قويتين ومهيمنتين؛ هوارد تيتن وباتريك مولاني. كان طول تيتن نحو 6.4 أقدام، وله عينان ثاقبتان خلف نظارة ذات إطار سلكي. وعلى الرغم من كونه جنديًّا سابقًا في مشاة البحرية، فإنه كان من النوع المتأمل، وكان موقرًا على الدوام؛ نموذج الأستاذ المفكر. انضم إلى المكتب عام 1962 بعد خدمته في إدارة شرطة سان لياندرو، كاليفورنيا، قريبًا من سان فرانسيسكو. في 1969، بدأ تعليم منهاج متميز يُدعى «العلم الجنائي التطبيقي»، والذي في النهاية (بعد وفاة هوفر، كما أحسب) أصبح يسمى علم النفس الجنائي التطبيقي. نحو عام 1972، ذهب تيتن إلى نيويورك لاستشارة الدكتور جيمس بروسل، الطبيب النفسي الذي حل قضية ماد بومبر، والذي وافق على أن يقوم شخصيًّا بتعليم تيتن تقنيته في التنميط.

مسلحًا بمعرفته، كان الاختراق الأكبر لمنهج تيتن هو كم في وسعك أن تعرف عن السلوك والدوافع الإجرامية عبر التركيز على الأدلة والقرائن التي توجد في موقع الجريمة. وبطرق معينة، فإن كل ما فعلناه في العلوم السلوكية وتحليل التحقيقات الجنائية منذ ذلك الحين مرتكز على هذا.

أما بات مولاني فقد كان يذكِّرني دائمًا بالعفاريت، بجسمه الممتلئ وسرعة بداهته وطاقته العالية دائمًا، وطوله الـ 5.10 أقدام. جاء إلى كوانتيكو من مكتب نيويورك الميداني في 1972 حاملًا شهادة جامعية في علم النفس. وقرب نهاية فترة عمله في كوانتيكو، كان يميز نفسه من خلال إدارة حالات الرهائن المعروفة بنجاح كبير: في واشنطن العاصمة، حين استولت طائفة المسلمين الأحناف على مقر منظمة بناي بيرث (أبناء العهد)، وفي مرتفعات وارنسفيل، أوهايو، حين أمسك كوري مور، وهو جندي سابق في فيتنام،

نقيب شرطة مع سكرتيرته أمام القسم معًا، مثل تيتن ومولاني الموجة الأولى من العلوم السلوكية الحديثة وكانا ثنائيًّا متميزًا ولا يُنسى.

شارك المدربون الآخرون في BSU كذلك في دورة مفاوضات الرهائن، ومن ضمنهم ديك أولت وروبرت ريسلر، اللذان وصلا إلى كوانتيكو قبل وقت قصير. وإذا كان تيتن ومولاني قد شكَّلا الموجة الأولى، فإن أولت وريسلر كانا الموجة الثانية، مما دفع النظام قدمًا ليكون شيئًا ذا قيمة حقيقية لإدارات الشرطة في الولايات المتحدة والعالم. على الرغم من أننا في ذلك الوقت كنا نعرف بعضنا كمعلم وطالب، فإننا، بوب ريسلر وأنا، سنضمُّ جهودنا في دراسة القتلة المتسلسلين التي أدَّت في النهاية إلى الصيغة الحديثة لما نقوم بعمله.

كان هناك نحو خمسين شخصًا في صف مفاوضات الرهائن. وبشكل ما فقد كان هذا مسليًا أكثر منه مفيدًا، لكنه على أي حال استراحة ممتعة من العمل الميداني. في الصف، درسنا الأنماط الثلاثة الأساسية لمختطفي الرهائن: المجرمون المحترفون، والمختلون عقليًّا، والمتطرفون. درسنا بعض الظواهر المهمة التي نشأت من حالات وقضايا الرهائن، مثل متلازمة ستوكهولم. قبل ذلك بعامين، في 1973، تحولت عملية سطو فاشلة على بنك في ستوكهولم، السويد، إلى دراما رهائن مؤلمة لعملاء البنك وموظفيه. في النهاية، بدأ الرهائن يتماهون مع خاطفيهم وساعدوهم في الواقع ضد الشرطة. كما أننا شاهدنا فيلم المخرج سيدني لوميت *Dog Day Afternoon* *الذي كان قد صدر مؤخرًا، من بطولة آل باتشينو الذي يلعب دور رجل يريد سرقة بنك من أجل الحصول على المال لعشيقه بغية الخضوع لعملية تغيير جنس. الفيلم مقتبس عن حادثة رهائن حقيقية في مدينة نيويورك. كانت تلك القضية بالذات، والمفاوضات المطوَّلة التي تلتها، ما أدى لأن تدعو الـ إف بي آي كلًّا من النقيب فرانك بولز والمفتش هارفي شلوسبيرغ من إدارة شرطة نيويورك للقدوم إلى الأكاديمية لتسريع عمليات مفاوضات الرهائن، وهو الجانب الذي كان فيه القادمون من نيويورك معترَفًا بهم كقادة هذا المجال على المستوى الوطني.*

درسنا مبادئ التفاوض. كانت بعض التوجيهات، مثل محاولة تقليل الخسائر البشرية قدر الإمكان، أمورًا واضحة. أفدنا بالفعل من أشرطة التسجيلات الصوتية لحالات رهائن واقعية، لكن بعد ذلك بسنوات، حين

يأتي جيل جديد من المدربين، قبل أن ينخرط الطلاب بتمارين تبادل الأدوار، وهو أقرب ما يمكنك الحصول عليه من صفوف التفاوض. كما أنه كان أمرًا محيرًا إلى حد ما، لأن الكثير من المواد كانت معادة التدوير من صفوف علم النفس الجنائي ولم تكن مناسبة حقًّا. على سبيل المثال، كانوا يعطوننا صورًا وملفات لمتحرشين بالأطفال أو قتلة بدافع الشهوة ويناقشون كيف يمكن لهذه الشخصية أن تتصرف في حالة الرهائن. ثم كان هناك الكثير من التدريب على الأسلحة، الذي كان لا يزال الجانب الكبير في كوانتيكو. كان معظم ما سندرِّسه في النهاية بشأن مفاوضات الرهائن متعلَّمًا ليس في صفوف عملاء آخرين، وإنما في بوتقة الميدان. وكما ذكرت، فإن إحدى القضايا التي أعطت بات مولاني سمعته الكبيرة كانت قضية كوري مور. عرض مور (الذي شُخِّص بأن لديه انفصام شخصية) عددًا من المطالب العلنية بعد أن أخذ نقيب شرطة وسكرتيرته في مرتفعات وارنسفيل، أوهايو، رهينتين في مكتب النقيب. كان من بين المطالب أن يغادر جميع الناس بيض البشرة كوكب الأرض مباشرة. الآن، في إستراتيجية التفاوض، لن تريد الاستسلام للمطالب إن كان يمكنك فعل شيء بشأنها. لم تكن بعض المطالب، مع ذلك، قابلة للتحقيق تحت أي ظرف من الظروف، وكان هذا الطلب يرتقي إلى هذه النوعية. نالت القضية شهرة وطنية كبيرة لدرجة أن رئيس الولايات المتحدة، جيمي كارتر، عرض التحدث مع مور شخصيًّا للمساعدة في حل الموضوع. وبينما كان هذا دليل حسن نية من طرف السيد كارتر، ومؤشرًا على الرغبة التي أظهرها لاحقًا في محاولة تسوية النزاعات التي بدت صراعات مستعصية في أنحاء العالم، فإن هذه لم تكن إستراتنيجية تفاوض جيدة ولا يمكن لي أن أسمح بحدوثها في قضية أُشرف عليها. وهو ما لم يكن بات مولاني ليفعله. كانت المشكلة في عرض الرجل الأعلى مكانة، بالإضافة إلى أن هذا قد يشجع بعض الصغار البائسين على فعل الأمر عينه، وبالتالي فإنك ستفقد مجال المناورة. إنك ترغب دائمًا في التفاوض عبر وسطاء، مما يتيح لك المماطلة لبعض الوقت وعدم تقديم وعود لا تريد أن تفي بها. حالما وضعتَ مختطف الرهائن في تواصل مباشر مع شخص يبدو كصانع قرار، فقد وضعتَ الجميع قبالة الجدار، وحينها إذا لم تفِ بمتطلباته، فإن خطر أن تسوء الأمور يصبح أكبر. وكلما جعلتهم يتحدثون لوقت أطول، كان أفضل.

في الوقت الذي كنت أعلم فيه مفاوضات الرهائن في كوانتيكو في مطلع الثمانينيات، استعملنا شريط فيديو مزعجًا تم تصويره في سانت لويس قبل بضع سنوات. في النهاية، توقفنا عن عرضه لأن إدارة شرطة سانت لويس كانت غاضبة بشأن ذلك. في الشريط، يحمل شاب أسود قضيبًا معدنيًا. أصبحت السرقة مكشوفة، هو محاصر في الداخل، تحيط الشرطة بالمكان، ولديه عدد من الرهائن.

نظَّمت الشرطة فريقًا من الضباط بيض البشرة وسود البشرة للحديث معه. لكن مثلما يظهِر الشريط، فبدلًا من التعامل معه بالمستوى الموضوعي، فقد بدؤوا يعبثون بالكلام معه ويحاولون النزول إلى مستواه. كانوا يتحدثون جميعًا في الآن ذاته، ويقاطعونه باستمرار، ولا ينصتون لما يقول، ولا يحاولون أن يفهموا ما الذي يريده للخروج من هذا الموقف.

تنتقل الكاميرا بعيدًا لتنقل صورة قائد الشرطة إلى المكان ثانيةً، لم أكن لأدع هذا يحدث. وعند وصول قائد الشرطة، فإنه يتجاهل «رسميًّا» مطالبه، وما كان من الشاب إلا أن وجه المسدس إلى رأسه وفجره على مرأى من الجميع.

قارن ذلك مع أسلوب تعامل بات مولاني مع قضية كوري مور. من الواضح أن مور كان مجنونًا، ومن الواضح أن جميع الناس بيض البشرة لن يغادروا كوكب الأرض، لكن عبر الاستماع لذلك الجاني، كان بمقدور مولاني أن يستشف ما أراده مور فعليًّا وما الذي كان سيرضيه.

عرض مولاني على مور مؤتمرًا صحفيًّا يعرض أفكاره من خلاله، فأطلق مور الرهينتين بسلام.

خلال الدورة في كوانتيكو، تردد اسمي في وحدة العلوم السلوكية، ورشحني بات مولاني، ديك أولت وبوب ريسلر لـ جاك بفاف. قبل مغادرتي، استدعاني مدير الوحدة إلى مكتبه في الطابق السفلي من أجل إجراء مقابلة. كان بفاف شخصًا لطيفًا وودودًا، أسمر، يشعل كل سيجارة من سابقتها، كان يشبه كثيرًا فيكتور ماتشور. أخبرني بأن المدربين معجبون بي وطلب مني التفكير في العودة إلى كوانتيكو كمستشار لبرنامج أكاديمية إف بي آي الوطنية. شعرت بالإطراء من العرض وقلت إنني أرغب بشدة في فعل ذلك.

هناك في ميلووكي، كنت لا أزال في فريق الاستجابة وفريق التدخل السريع، لكنني كنت أقضي الكثير من وقتي متجولًا عبر الولاية أدرب المديرين

التنفيذيين على كيفية التعامل مع تهديدات الخطف والابتزاز وموظفي البنوك على كيفية التعامل مع سرقات الشخص الواحد والعصابات المسلحة التي ابتُليَت بها بنوك المناطق الريفية بشكل خاص.

كان مدهشًا كم كان بعض رجال الأعمال ساذجين بما يتعلق بالأمن الشخصي، عبر السماح بنشر جداول أعمالهم، وحتى خطط إجازاتهم، في الصحف المحلية والنشرات الإخبارية الخاصة بالشركة. في العديد من الحالات، شكّلوا صيدًا سهلًا ليتم اختطافهم أو ابتزازهم. حاولت تعليمهم مع سكرتيراتهم ومرؤوسيهم كيفية تقييم الاتصالات وطلبات المعلومات، وكيف يحددون ما إذا كانت مكالمة الابتزاز الواردة حقيقية أم لا. على سبيل المثال، لم يكن من غير المألوف أن يتلقى المدير اتصالًا يفيد بأن زوجته أو ابنه مختطفان وأن عليه أن يأخذ مبلغًا من المال ليضعه في المكان الفلاني. بينما في واقع الأمر، كانت الزوجة أو الابن في أمان تام ولم يتعرضا للخطر في أي وقت، لكن المستفيد قد عرف أن هذا الفرد من العائلة لا يمكن الوصول إليه لأي سبب كان، وإذا ما كان المجرم على اطلاع على حقيقة أو اثنتين من الحقائق التي تبدو مشروعة، فإنه سيكون قادرًا على إقناع المدير الذي يشعر بالهلع بتنفيذ مطالبه.

وعلى نفس المنوال، فقد تمكنّا من تقليص نجاح عمليات السطو على البنوك عبر دفع المسؤولين لاتخاذ بعض الإجراءات البسيطة. كانت إحدى تقنيات السرقة الشائعة هي أن ينتظر أحد ما خارجًا في الصباح الباكر حين يأتي مدير الفرع ليفتح البنك يوميًا. كان الجاني يمسك الرجل، ثم عند مجيء الموظفين غير العالمين بشيء إلى عملهم، كانوا يحتجَزون أيضًا. وكل ما تعرفه هو أن لديك فرع بنك كاملًا مليئًا بالرهائن وفوضى كبيرة أمامك.

دُفعَت بعض الفروع لتنفيذ نظام رموز أساسية. حين يصل أول شخص صباحًا ويجد أن كل شيء طبيعي، سيتوجب عليه أو عليها فعل شيء واحد -تعديل الستارة، تحريك النبات، إضاءة مصباح معين، أو أي شيء من هذا القبيل- للإشارة للجميع أن كل شيء على ما يرام. إذا كانت هذه الإشارة غائبة عند وصول الشخص الثاني، فلن يدخل وسيتصل بالشرطة مباشرة. وبالمثل، فقد درَّبنا الصرافين، الذين هم المفتاح الحقيقي لأمن أي بنك، على ما يبحثون عنه وما يفعلونه في مواقف الهلع دون الحاجة إلى أن يكونوا أبطالًا متوفين. شرحنا طريقة التعامل السليمة مع حزم الأموال المتفجرة، التي كانت طريقة

واسعة الانتشار في ذلك الوقت. وبناء على المقابلات التي أجريتها مع عدد من لصوص البنوك الناجحين، طلبت من الصرافين أن يأخذوا ورقة السطو وأن يرموها «بعصبية» على الأرض من طرفهم لا أن يعيدوها إلى السارق، وبهذا يحافظون على وجود دليل ذي أهمية. عرفت من مقابلاتي مع اللصوص أنهم لا يحبون سرقة البنوك التي يجهلونها، لذلك سيكون أمرًا ذا أهمية بالغة أن يتم تسجيل ملاحظات عن أفراد يأتون إلى البنك للمرة الأولى ولم تسبق رؤيتهم في المكان، وبخاصة إذا كانوا يقدمون طلبًا بسيطًا أو روتينيًا، مثل تبديل ورقة مالية بفئات أصغر. إذا استطاع الصراف أن يحصل على رقم شهادة ما أو يسجل أي معلومات عن بطاقة هوية، فغالبًا ما سيكون حل عملية السطو سريعًا.

بدأتُ التسكع مع محققي جرائم القتل في المدينة وحول مكتب الطبيب الشرعي. سيخبرك أي طبيب شرعي، كما هو حال المفتشين المتمكنين، أن أهم دليل في أي تحقيق في جريمة قتل هو جسد الضحية، وقد أردت معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات. أنا متأكد أن جزءًا من هذا السحر كان بسبب رغبتي القديمة أيام الشباب في أن أصير طبيبًا بيطريًا وأن أفهم وظائف الجسد المتعلقة بالحياة. لكن مع أنني استمتعت بالعمل مع فريق جرائم القتل، فإن ما جذبني فعلًا هو الجانب النفسي: ما الذي يجعل القاتل متميزًا؟ ما الذي يدفعه لارتكاب جريمة قتل تحت ظروف معينة؟ خلال الأسابيع التي قضيتها في كوانتيكو، اطلعت على مزيد من أغرب جرائم القتل، وكانت من أغربها على الإطلاق ما تبين أنها قريبة مني؛ على بعد 140 ميلًا. لكن ذلك كان قريبًا بما يكفي. في الخمسينيات، كان إدوارد جين يعيش حياة منعزلة في مجتمع زراعي في بلاين فيلد، ويسكونسن، عدد سكانه 642 نسمة. بدأ حياته الإجرامية سريعًا، كسارق قبور. كان اهتمامه يتركز بشكل خاص على جِلد الجثة، الذي كان يزيله، ويدبغه ويلفه على جسمه، بالإضافة إلى تزيين مجسَّم خياطة وأغراض منزلية أخرى. في تلك المرحلة فكر في عملية تغيير الجنس -وكانت لا تزال عملية ثورية في الغرب الأوسط في الخمسينيات- وحين بدا ذلك غير عملي، قرر شيئًا آخر، وهو أن يصنع لنفسه بذلة نسائية مصنوعة من نساء حقيقيات.

تكهن البعض أنه يرغب في أن يصبح والدته المتسلطة الميتة. وإذا كانت بعض عناصر هذه القضية تبدو مألوفة، فإن بعضها قد ورد في رواية *سايكو*

لروبرت بلوخ (التي تحولت إلى فيلم هيتشكوك الشهير) وكتاب *صمت الحملان* لتوماس هاريس. التقط هاريس قصة الكتاب خلال وجوده في صفوفنا في كوانتيكو.

كان يمكن لجين أن يواصل العيش في غموضه الغوليّ لولا أن خيالاته كانت بحاجة إلى أن تتوسع إلى «خلق» جثث جديدة ليحصدها. حين بدأنا دراستنا عن القاتل المتسلسل، توصلنا إلى وجود هذا التصعيد في جميع الجرائم تقريبًا.

اتُّهم جين بقتل سيدتين في منتصف العمر، مع أنه على الأرجح كان هناك المزيد. في يناير 1958، وُجد أنه فاقد للأهلية العقلية قانونيًّا وبالتالي فقد قضى بقية حياته في المستشفى المركزي في الولاية في وايبون ومعهد ميندوتا للصحة العقلية، حيث كان دائمًا سجينًا نموذجيًّا. في 1984، مات جين بسلام في عمر السابعة والسبعين في عنبر الشيخوخة في ميندوتا.

ومن نافل القول طبعًا، إنك حين تكون محققًا محليًّا أو عميلًا خاصًّا ميدانيًّا فإنك لا ترى هذا النوع من الجرائم كثيرًا. عندما رجعت إلى ميلووكي، أردت أن أعرف عن القضية أكثر ما يمكنني معرفته، لكن حين طلبت ذلك من مكتب المدعي العام، علمت أن السجلات مختومة بسبب موضوع الجنون.

عندما صرَّحت أنني عميل فيدرالي وأن لي اهتمامًا معرفيًّا بهذه الجرائم، استطعت جعل المكتب يفتح لي الملفات. لن أنسى أبدًا ذهابي مع الموظف وحمل الصناديق من الأرفف التي لا نهاية لها ثم اضطرارنا لأن نفتح الختم الشمعي لنستطيع الاطلاع على المحتويات. لكن في الداخل، كانت هناك صور حُفرت سريعًا في ذهني: أجساد عارية لنساء بلا رأس، معلقات رأسًا على عقب بالحبال والبكرات، مع شق أمامي طويل يمتد من عظم القص إلى المهبل وقد أُزيلت أعضاؤهن التناسلية. أظهرت الصور رؤوسًا مقطوعة ملقاة على الطاولة، كانت الأعين المفتوحة الذابلة تحدق إلى العدم. وبقدر ما كان التفكير في هذه الصور مريعًا، فإنني بدأت أتكهن ماذا كانت تقول عن الشخص الذي صنعها، وكيف يمكن لهذه المعرفة أن تساعد في القبض عليه. وفي الحقيقة، فإن هذا ما بدأ يشغل تفكيري منذ ذلك الحين.

في نهاية سبتمبر 1976، غادرت ميلووكي من أجل مهمتي المؤقتة، أو TDY، كمستشار للدورة رقم 107 للأكاديمية الوطنية في كوانتيكو. اضطرت بام للبقاء وحدها في ميلووكي، لتدبير شؤون المنزل والاعتناء بابنتنا إريكا

التي تبلغ عامًا واحدًا، بينما لا تزال تعمل في التعليم. كانت تلك المرة الأولى من حالات غيابي المهنية الكثيرة عبر السنوات، وأخشى أن الكثير منا ممن يعملون في المكتب أو الجيش وفي مجال الخدمة الخارجية لا يولون الاهتمام اللازم بشأن العبء الهائل المتروك على كاهل الزوجة.

يعدُّ برنامج أكاديمية إف بي آي الوطنية، دورة صعبة تمتد أحد عشر أسبوعًا لكبار المسؤولين وخبراء إنفاذ القانون من مختلف أرجاء البلاد والعالم. وفي حالات كثيرة، يتدرب طلاب الأكاديمية بجانب عملاء الـ إف بي آي. ويتم التمييز بين المتدربين بلون قمصانهم. يرتدي عملاء إف بي آي اللون الأزرق بينما يرتدي طلاب الأكاديمية الوطنية اللون الأحمر. شيء آخر: عادة ما يكون طلاب الأكاديمية الوطنية أكبر سنًّا وأكثر خبرة. للتأهل إلى الدورة، يجب أن ينال الطالب تزكية من ضابط القيادة المحلية وأن ينال موافقة الكادر في كوانتيكو. ولا يقتصر ما تقدمه الأكاديمية الوطنية على التدريب المتخصص في أحدث المعارف والتقنيات المتعلقة بإنفاذ القانون وحسب، إلا أنها تعدُّ أيضًا بيئة موسعة وغير رسمية يمكن من خلالها للـ إف بي آي بناء علاقات شخصية مع ضباط الشرطة المحليين، وهو ما يثبت مجددًا أنه مصدر لا يُقدر بثمن. كان مدير برنامج الأكاديمية الوطنية هو جيم كوتر، الذي كان من الشخصيات المرموقة في إنفاذ القانون وحظي بمحبة هيئات الشرطة.

كمستشار، كنت مسؤولًا عن قسم واحد من الطلاب (القسم B) الذي يضم خمسين شخصًا. ومع أن سياسات المدير باتريك جراي ثم كلارنس كيلي من بعده قد أتاحت انفتاحًا نسبيًا في المكتب عما كان عليه الحال في سنوات هوفر، فإنه لم يكن قد تمت دعوة النساء بعد إلى الأكاديمية الوطنية. وإلى جانب الأمريكان، فقد كان لدي أشخاص من إنجلترا وكندا ومصر. تعيش معهم في المساكن نفسها، ويتوقعون منك أن تكون كل شيء، من المدرب إلى الموجه الاجتماعي إلى المعالج وصولًا إلى الأم الحنون. كانت طريقة لأفراد كادر العلوم السلوكية ليروا كيف تتفاعل مع الشرطة، وما إذا أعجبت بالجو في كوانتيكو، وكيفية تعاملك مع الضغوط.

وكان هناك الكثير من ذلك، بعيدين عن عائلاتهم، يعيشون في غرف النوم للمرة الأولى في حياتهم كبالغين، لا يستطيعون الشرب في غرفهم، يتشاركون الحمام مع أشخاص لم يقابلوهم من قبل، دفعهم هذا كله لتحديات جسدية

لم يكن معظمهم قد اختبرها منذ تدريب التجنيد الجديد، حصل الطلاب على تعليم ممتاز، لكن مقابل ثمن. نحو الأسبوع السادس، كان الكثير من رجال الشرطة يشعرون بالجنون، وأخذوا يضربون جدران الطوب البيضاء.

وهذا بالطبع أثَّر بدوره على المستشارين. تعامل كلُّ شخص مع المهمة بأسلوب مختلف. وكما في كل شيء آخر في حياتي، فقد قررت أنه إذا كان علينا الخروج من هذا سليمين، فلا بد من استخدام حسِّ الدعابة. اتخذ بعض المستشارين الآخرين منهجيات مختلفة. كان أحدهم صارمًا وانفعاليًّا، وكان يرهق الشباب كثيرًا في الألعاب الجماعية الداخلية. ونحو الأسبوع الثالث، كان قسمه في حال سيئة، وأعطوه مجموعة حقائب، وتلك كانت الرسالة المبطنة لـ «اخرج من هنا».

المستشار الثاني كان عميلًا سأسميه فرِد. لم يكن يعاني مشكلات في الشرب حتى وصوله إلى كوانتيكو، وكان لا بد أن يقع في مشكلة هناك. كان من المفترض بجميع المستشارين أن يراقبوا علامات إصابة الطلاب بالاكتئاب. لكن فرِد، في الحقيقة، كان يحبس نفسه في غرفته يدخن ويشرب حتى يكاد يغيب عن الوعي. حين تتعامل مع شرطيين متمرسين في عملهما الميداني في الشارع، فإن البقاء للأصلح. وعند أي شعور بالضعف فإنك انتهيت. كان شخصًا لطيفًا، كان فرِد حساسًا للغاية ومتفهمًا وطيبًا، لم يحظ بفرصة مع هذا الطاقم.

كانت هناك قاعدة ثابتة: لا وجود للنساء. في ليلة ما، جاء أحد رجال الشرطة إلى فرِد قائلًا إنه «لا يستطيع تحمل الأمر بعد الآن». وهذا ما لا تود أن تسمعه كمستشار. كان زميله في الغرفة ينام مع امرأة مختلفة كل ليلة بينما هو لا يستطيع أن ينام. لذلك ذهب فرِد مع الرجل إلى الغرفة ورأى مجموعة من الرجال واقفين خارج الباب، بانتظار دورهم، حاملين المال بأيديهم المتعرقة. انزعج فرِد، دخل الغرفة وأمسك بالرجل الذي كان فوق المرأة ذات الشعر الأشقر الطويل، سحبه بعيدًا عن المرأة التي اتضح أنها دمية قابلة للنفخ.

بعد أسبوع، جاء شرطي آخر إلى غرفة فرِد في منتصف الليل قائلًا إن زميله المحبط، هاري، قد فتح النافذة وقفز منها. قبل كل شيء، لا يُفترض بالنوافذ في البناء أن تُفتح، لذلك هرع فرِد عبر الردهة ووصل إلى الغرفة واتجه إلى النافذة المفتوحة ليرى هاري مغطى بدمائه على العشب.

نزل فرِد السلالم راكضًا وخرج إلى موقع الانتحار، ليقفز هاري عندئذ ويخيفه. اتضح أنه حدث استيلاء على عبوة كاتشاب من الكافتيريا في تلك الليلة! عند التخرج، كان شعر فرِد يتساقط، ولم يكن يحلق، كانت ساقه مخدَّرة وكان يعرج في مشيه. لم يتمكن طبيب الأعصاب من تشخيص المشكلة السريرية لديه. بعد سنة، في مكتبه الميداني، تم تسريحه بسبب إعاقة طبية. شعرت بالأسف على الرجل، لكن من ناحية واحدة على الأقل، فإن رجال الشرطة يشبهون الحيوانات كثيرًا: إنك مضطر لإظهار مدى قوتك لكل واحد فيهم.

على الرغم من منهجي السهل والظريف، فإنني لم أكن محصَّنًا أيضًا، على الرغم من أنه لحسن الحظ، فإن معظم ذلك كان متعلقًا بالمكان. في مرة أزالت مجموعتي كل الأثاث من غرفتي، وفي مرة أخرى، عملوا خدعة ملاية السرير المطوية، وضعوا السلوفان على مقعد المرحاض. إنك مضطر للتعامل مع التوتر بطريقة ما على أي حال.

ثم جاء أوان دفعوني فيه للجنون، كنت بحاجة إلى الابتعاد لفترة، وكرجال شرطة طيبين، استشعروا تلك اللحظة بالضبط. وضعوا الطوب تحت سيارتي الـ MGB الخضراء، رافعينها عن الأرض بحيث تفتقد العجلات للاحتكاك بالأرض بسبب فراغ بوصة تقريبًا. دخلت السيارة، شغلت المحرك، حاولت عبثًا تحريك السيارة ولم أدرِ لماذا لم تكن تسير. نزلت وأنا أشتم الهندسة البريطانية اللعينة، فتحت غطاء السيارة، ركلت العجلات، ثم انحنيت لأنظر أسفل السيارة. ثم فجأة، أضيء موقف السيارات بالكامل. كانوا جميعًا في سياراتهم وقد أضاؤوا مصابيحها باتجاهي. نظرًا لزعمهم أنهم يحبونني، فقد ثبتوا سيارتي بعد أن جعلهم ذلك يشعرون بالمرح.

كان للطلاب الأجانب حصتهم أيضًا. كان معظم هؤلاء يأتون بحقائب فارغة، يذهبون إلى متاجر PX ويشترون بجنون. أتذكر بالتحديد ضابطًا مصريًّا رفيع المستوى، سأل شرطيًّا من ديترويت عما تعنيه كلمة *سحقًا -fuck*. (خطأ كبير) أخبره الشرطي، بشكل دقيق إلى حد ما، بأن تلك كانت كلمة متعددة الأغراض كان لها الكثير الكثير من الاستعمالات التي تعتمد على الوضع الذي تكون فيه، لكنها في الغالب كانت كلمة غير مناسبة. وأن أحد معانيها كان «جميلًا» أو «راقيًا».

لذلك، كان مرة في PX، ذهب إلى قسم التصوير الفوتوغرافي، أشار ثم قال: «أريد أن أشتري تلك الكاميرا اللعينة».

قالت الموظفة التي شعرت بالصدمة: «عفوًا؟» «أريد أن أشتري تلك الكاميرا اللعينة!»

توجه إليه بعض الأشخاص ووضحوا أنه مع أن للكلمة معاني متعددة، فإنها لا تُستخدم أمام النساء والأطفال.

ثم كان هناك ضابط الشرطة الياباني الذي سأل أحد رجال الشرطة عن بروتوكول تحية المدربين ليعبر عن احترامه الكبير. لذلك في كل مرة كنت أراه في الردهة كان يبتسم، ينحني باحترام، ويحييني بـ «تبًّا لك، سيد دوجلاس».

وبدلًا من تعقيد الأمر أكثر، كنت أنحني، وأبتسم وأقول: «تبًّا لك أيضًا».

عادة، عندما أرسل اليابانيون شخصًا إلى الأكاديمية الوطنية، كانوا يصرون على إرسال طالبين. بعد فترة كان يتضح أن أحدهما ضابط كبير والآخر مرؤوسٌ مسؤول عن تلميع حذائه، وتوضيب سريره، وتنظيف غرفته والعمل عمومًا كخادم له. مرة ذهب عدد من الطلاب الآخرين إلى جيم كوتر واشتكوا أن الرجل كان يمارس الكاراتيه والفنون القتالية على زميله. أخذ كوتر الرجل جانبًا، وشرح له أن جميع الطلاب متساوون في الأكاديمية، وأوضح له بشكل صريح أنه لا يمكن التسامح مع هذا التصرف. لكنه في النهاية يثبت ذلك النوع من الحواجز الثقافية التي يجب تجاوزها.

جلست في صفوف الأكاديمية الوطنية وعرفت كيف يتم التدريس فيها. في نهاية الدورة في ديسمبر، عرضت عليَّ وحدة العلوم السلوكية ووحدة التعليم وظيفة. عرض عليَّ مدير وحدة التعليم دفع تكاليف المزيد من الدراسات العليا، لكنني أعتقد أني كنت مهتمًّا أكثر بالعلوم السلوكية.

عدت إلى ميلووكي قبل أسبوع من عيد الميلاد، واثقًا جدًّا من الحصول على العمل في كوانتيكو لدرجة أني وبام اشترينا قطعة أرض مساحتها خمسة أفدنة في منطقة جنوب أكاديمية إف بي آي في كوانتيكو. في يناير 1977، أعلن المكتب دراسة عن القوى البشرية، سيتم خلالها تجميد نقل الموظفين. لذلك ذهبت وظيفتي الجديدة، كنت عالقًا مع تلك الأرض في فيرجينيا وكنت مضطرًّا لاقتراض المال من أبي من أجل الدفعة الأولية، وما زلت أجهل كيف سيكون مستقبلي في المكتب.

لكن لاحقًا، بعد عدة أسابيع، كنت أعمل على قضية مع عميل اسمه هنري ماكاسلين حين تلقيت مكالمة من المقر الرئيسي لإعلامي أنه سيتم نقلي إلى كوانتيكو في يونيو وقد عُيِّنت في وحدة العلوم السلوكية.

في عمر الثانية والثلاثين، كنت سأحل محل بات مولاني، الذي كان ذاهبًا إلى فريق التفتيش في المقر الرئيسي. كانت تلك مهمة صعبة وكنت أتطلع إلى هذا التحدي. كان قلقي الحقيقي هو الأشخاص الذين سأعلمهم. كنت أعرف كيف يتعاملون مع المستشارين، حتى أولئك الذين يحبونهم. كنت أتخيل كم سيكونون قساة تجاه المدربين الذين كانوا يحاولون تعليمهم أعمالهم. كنت أعرف طريقة التصرف، لكنني لم أكن متأكدًا إذا كانت الإستراتيجية صحيحة بما يكفي. إذا كنت سأدرِّس العلوم السلوكية لهم، فمن الأفضل أن أكتشف طريقة لإبعاد أكبر قدر ممكن من الهراء. وإذا كنت سأستطيع قول أي شيء ذي فائدة لرئيس شرطة أكبر مني بخمس عشرة أو عشرين سنة، فقد كنت أدري أن عليَّ امتلاك أسباب دعمي في ذلك. وهذا كان بالضبط ما قادني إلى المرحلة التالية في هذه الرحلة.

6

العرض على الطريق

عُيِّنَ تسعة عملاء في وحدة العلوم السلوكية عند انضمامي لها في يونيو من عام 1977، كانوا جميعًا مسؤولين بشكل رئيسي عن التدريس. كان المنهاج الموجه لكل من موظفي الـ إف بي آي وطلاب الأكاديمية الوطنية هو علم النفس الجنائي التطبيقي. كان هوارد تيتن قد أسسه في عام 1972، مركِّزًا على الجانب الذي كان أكثر ما يشغل المحققين والعاملين على حل الجرائم: الدافع. كانت الفكرة محاولة إعطاء الطلاب فهمًا لماذا كان المجرمون العنيفون يفكرون ويتصرفون بالطريقة التي يفعلونها. وبقدر ما كان هذا المنهاج رائجًا ومفيدًا، فقد كان يستند بشكل رئيسي على أبحاث وتعليم من التخصص الأكاديمي في علم النفس. جاءت بعض المواد من تجربة تيتن الخاصة، ثم من تجارب المدربين الآخرين. لكن في ذلك الوقت، كان الوحيدون الذين يستطيعون التحدث انطلاقًا من سلطة الدراسات المنهجية والمنظمة والتي أُجريَت على نطاق واسع هم الأكاديميون. وكان هناك إدراك بيننا بأن هذه الدراسات (وهذا المنظور الأكاديمي) لم يكن لها سوى إمكانية تطبيقية محدودة في مجال إنفاذ القانون والتحقيق الجنائي.

تضمنت المناهج الأخرى المقدمة في الأكاديمية: مشكلات الشرطة المعاصرة، التي تناولت قضايا إدارة العمل، واتحادات الشرطة، والعلاقات المجتمعية، ومواضيع مرتبطة؛ علم الاجتماع وعلم النفس، اللذان يعكسان منهاج الكلية التمهيدي النموذجي، والجرائم الجنسية التي غالبًا، لسوء الحظ، كانت مسلية أكثر من كونها مفيدة أو غنية بالمعلومات. اعتمادًا على من الذي كان يدرس الجرائم الجنسية، كانت تؤخذ بجدية أكبر أو أقل. قام

أحد المدربين بوضع دمية لرجل ثلاثيني قذر يرتدي معطفًا مطريًا. حين كانوا يضغطون على الرأس كان المعطف ينفتح ويظهر قضيبه. كانوا يظهرون أيضًا مئات الصور الفوتوغرافية لأشخاص لديهم أشكال متنوعة مما يسمى الآن بالبارافيليا (الشذوذات الجنسية) لكنها آنذاك كانت تُعرف عمومًا وببساطة كانحرافات: ارتداء ملابس الجنس المعاكس، أنواع مختلفة من الفتيشيات، الاستعراض وهلم جرًا. كانت هذه الصور عادة تثير ضحكًا غير لائق في الغرفة. عندما تتعامل مع التلذذ عبر استراق النظر أو رجل يرتدي ملابس امرأة، فقد تكون قادرًا على مغالبة نفسك والتعبير بابتسامة عن صورة معينة. لكن حين تصل إلى ما يتعلق بالسادية-المازوخية والاعتداء على الأطفال وكنت لا تزال تضحك، فهذا يعني أن هناك خطأ ما فيك أو في المدرب أو فيكما معًا. لقد استغرق الأمر سنوات طويلة وكثير من التحسس قبل أن يأتي روي هازلوود وكين لاننج ويضعا دراسة عن هذه المسائل مثل الاغتصاب والاستغلال الجنسي للأطفال على مستوى مهني وجاد. هازلوود متقاعد الآن لكنه لا يزال مستشارًا ناشطًا، أما لاننج فسوف يتقاعد قريبًا. ويبقى هذان الاثنان من رواد خبراء إنفاذ القانون في العالم في مجال تخصصهم.

لكن بالعودة إلى «الحقائق فقط، يا سيدتي» في أيام هوفر، لم يكن أحد في أي موقع سلطة يَعُدُّ أن ما سيُعرف لاحقًا بالتنميط سيكون أداة صالحة في حل الجرائم. وفي الحقيقة، فقد كانت عبارة *العلوم السلوكية* تعد نوعًا من التناقض اللفظي وقد يدعو مؤيدوها للسحر أو الرؤى النفسية. لذلك فقد كان على كل من «يشتغل» بها أن يفعل ذلك بشكل غير رسمي وخارج السجلات. حين بدأ تيتن ومولاني تقديم تحليلات تنميطية للشخصيات، كان ذلك يتم شفهيًا، لا شيء مكتوب. كانت القاعدة الأولى دائمًا: «لا تحرج المكتب»، ولن تود أن توثق شيئًا يمكن أن ينفجر في وجهك أو وجه مديرك. عبر مبادرة تيتن وبناء على ما تعلمته من الدكتور بروسل في نيويورك، قدمتُ بعض الاستشارات غير الرسمية إلى مسؤولي شرطة أفراد طلبوها، لكن لم يكن هناك أي برنامج منظم أو أي فكرة بأن هذه كانت الوظيفة التي يجب أن تقدمها وحدة العلوم السلوكية.

ما كان يحدث عادة هو أن يتصل أحد خريجي الأكاديمية الوطنية بتيتن أو مولاني للتحدث عن قضية كان يواجه مشكلة فيها.

جاءت إحدى أولى هذه الحالات من طرف ضابط شرطة في كاليفورنيا كان يائسًا لحل قضية امرأة قُتلت بعدة طعنات. وبعيدًا عن وحشية القتل، فلم يكن هناك شيء خاص يمكن الاعتماد عليه، ولم يكن هناك تفاصيل تشريحية يمكن الاعتماد عليها. حين وصف الضابط بعض التفاصيل التي لديه، نصحه تيتن بأن يبدأ البحث في حي الضحية عن شخص ذي بنية متوسطة، منعزل وغير جذاب في أواخر فترة المراهقة قتل المرأة دون نية مسبقة وهو يصارع اليوم شعورًا هائلًا بالذنب وخوفًا من أن يتم اكتشافه. عندما تذهب إلى بيته ويأتي إلى الباب، اقترح تيتن: قف هناك فقط، وحدِّق إليه مباشرة وقل «أنت تعرف لماذا أنا هنا»، ولن يكون صعبًا الحصول على اعتراف منه. بعد يومين، اتصل الضابط وأخبرنا أنهم بدؤوا زيارة البيوت في ذلك الحي بطريقة منهجية. حين رد أحد الأشخاص الذين يوافقون «تنميط» تيتن، وقبل أن ينطق الشرطي بالجملة المتفق عليها، بادره الشاب قائلًا: «حسنًا، لقد نلت مني!»

ربما كان ذلك يبدو كأن تيتن يخرِج الأرانب من القبعة، كان هناك منطق لنمط الفرد والوضع الذي وصفه. وعبر السنوات، كنا سنجعل ذلك المنطق أكثر صرامة، سنحول ما كان هو وبات مولاني يشتغلان عليه في وقت فراغهما إلى سلاحٍ مُهم في مكافحة الجريمة العنيفة. وكما هو الحال في معظم خطوات التقدم في مجال معين، فقد جاء هذا المجال إلى حد كبير عن طريق الصدفة. كانت الصدفة في هذه الحالة أنه بصفتي مدربًا في وحدة العلوم السلوكية، فلم أكن حقًّا أعرف ما الذي كنت أفعله وشعرت أنني كنت بحاجة إلى طريقة للحصول على مزيد من المعلومات المباشرة. لكن في الوقت الذي وصلت فيه إلى كوانتيكو، كان مولاني على وشك أن يغادر وكان تيتن هو المعلم العام. لذلك فقد وقعت مهمة إقحامي في هذا المجال على عاتق الشابين الأقرب لي سنًّا وأقدمية؛ ديك أولت وبوب ريسلر. كان ديك أكبر مني بنحو ست سنوات، وبوب بثماني سنوات.

كان كلاهما في مجال العمل الشرطي في الجيش قبل الانضمام للمكتب. كان مخصص لعلم النفس الجنائي التطبيقي نحو أربعين ساعة من التدريس النظري على امتداد الأحد عشر أسبوعًا في دورة الأكاديمية الوطنية. لذلك كانت الطريقة الأنسب لإدخال شخص جديد هي «مدارس الطرق»، حيث قام مدربون من كوانتيكو بتعليم أنواع المناهج ذاتها في شكل مكثف جدًّا لإدارات الشرطة والأكاديميات المحلية في أنحاء الولايات المتحدة. كانت شائعة للغاية

وعادة ما كان هناك قائمة انتظار للطلب على خدماتنا، وبشكل رئيسي من رؤساء وموظفين كبار درسوا منهاج الأكاديمية الوطنية كاملًا. كان الخروج مع مدرب متمرس ومراقبته يعمل لأسبوعين طريقة سريعة لالتقاط ما سيكون مفترضًا بك عمله، لذلك بدأت أسافر مع بوب.

كان هناك تدريب قياسي لمدارس الطرق. تغادر منزلك يوم الأحد، تدرس في إدارة أو أكاديمية من صباح الاثنين إلى مساء الجمعة، ثم تتجه إلى المدرسة التالية وتبدأ كل شيء من جديد. بعد فترة، ستبدأ بالشعور مثل *شاين* أو *لون رينجر*؛ تصل البلدة، تقوم بواجبك في مساعدة أهلها، ثم تغادر بصمت بعدما أنجزت عملك. في بعض الأحيان كنت أود أن أترك رصاصة فضية ليتذكرونا بها.

منذ البداية، شعرت بعدم الراحة حيال التدريس القائم على «القيل والقال». لم يكن للمدربين، وعلى رأسهم أنا، خبرة مباشرة في الغالبية العظمى من القضايا التي درسوها. وبتلك الطريقة، كان الأمر يشبه إلى حد كبير منهاجًا جامعيًّا عن علم الجريمة حيث، في معظم الحالات، لم يكن المدرس في الشارع مختبِرًا ذلك الشيء الذي يتحدث عنه. كان معظم المنهاج قد تحول إلى «قصص حربية» نقلها بشكل أصلي الضباط المعنيون بالقضايا، ثم تنمقت مع مرور الزمن حتى لم يعد لها علاقة بالأحداث الحقيقية. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المشهد، كنا قد وصلنا إلى مرحلة كان المدرب يطلق فيها تصريحًا أو حكمًا بشأن قضية ما ليتعارض ذلك في الصف مع ما سيقوله طالب عمل بالفعل على القضية ذاتها!

كان أسوأ جزء في ذلك، أن المدرب لم يكن ليتراجع دائمًا وإنما يصرُّ على أنه كان محقًّا، حتى في مواجهة الشخص الذي كان موجودًا هناك. كانت هذه التقنية والموقف سيعملان على جعل صفك يفقد إيمانه بكل شيء آخر ستقوله، سواء كانت لهم معرفة شخصية أم لا. كانت مشكلتي الثانية أنني كنت قد بلغت الثانية والثلاثين من العمر وما زلت أبدو أصغر سنًّا. كان من المفترض بي أن أدرس شرطيين متمرسين، معظمهم يكبرني بعشر وخمس عشرة سنة. كيف كان لي أن أبدو جازمًا أو أن أعلمهم أي شيء؟ كان معظم التجربة المباشرة التي مررت بها حول تحقيقات جرائم القتل تحت جناح رجال شرطة متمرسين في جرائم القتل في ديترويت وميلووكي، وهنا كان عليَّ أن أخبر أشخاصًا مثلهم كيف سيقومون بعملهم. لذلك قررت أنه من

الأفضل أن أعرف أموري جيدًا قبل مواجهة هؤلاء الأشخاص، وكل ما لم أكن أعرفه، سأتعلمه على عجل.

لم أكن غبيًّا بشأن ذلك. قبل أن أبدأ دورة كنت أسأل إذا كان هناك أحد في الصف لديه أي تجربة مباشرة في أي من القضايا أو المجرمين الذين خططت لمناقشتهم في ذلك اليوم. على سبيل المثال، إذا كنت سأناقش تشارلز مانسون، كان أول شيء أسأله: «هل يوجد أحد هنا من إدارة شرطة نيويورك؟ هل يوجد أحد هنا عمل على هذه القضية؟» وإذا ما تصادف وجود أحد ما، كنت أطلب منهم تزويدنا بكل تفاصيل القضية. وبتلك الطريقة، كنت أحرص على ألا أعارض أي شيء يعرف مشارك في القضية أنه صحيح.

لكن مع ذلك، حتى على الرغم من كونك شابًّا في الثانية والثلاثين من العمر خارجًا للتو من مكتب ميداني، حين درست في كوانتيكو أن جئت لتدرِّس في كوانتيكو، كان يفترض بك أن تتحدث بسلطة أكاديمية الـ إف بي آي وجميع مصادرها المرموقة. كان رجال الشرطة يأتون إليَّ باستمرار خلال الاستراحات، أو خلال رحلات التدريس، يتصلون بغرفتي مساء، ويطلبون مؤشرات بشأن قضايا نشطة. «مرحبًا، جون، ما رأيك في هذا؟» لم يكن هناك وقت للراحة. وكنت في حاجة إلى بعض السلطة لما كنت أقوم به، ليس سلطة من المكتب، وإنما سلطة شخصية.

تأتي الآن مرحلة على الطريق -على الأقل بالنسبة إليَّ- حين تدرك أن هناك الكثير من الأغاني التي يمكن أن تسمعها، الكثير من كؤوس المارجريتا التي يمكن أن تشربها، الكثير من الوقت الذي يمكن أن تقضيه محدقًا إلى التلفاز. جاءتني تلك النقطة في صالة كوكتيل في الفندق في كاليفورنيا في مطلع عام 1978. كنت أنا وبوب ريسلر في رحلة تدريس في ساكرامنتو. في اليوم التالي، كنا نقود، فعلقت أن معظم هؤلاء الأشخاص الذين نعلمهم ما زالوا موجودين، ومعظمهم سيكونون مجمدين لبقية حياتهم. فلنرَ إن كان يمكننا التحدث إليهم؛ نسألهم لماذا فعلوا ذلك، نكتشف كيف كان الأمر من خلال *أعينهم*. كل ما يمكننا فعله هو أن نحاول. إذا لم ينجح الأمر، فلن ينجح.

لطالما كنت معروفًا بأنني متحمسٌ (صاحب لهب أزرق)، ولم يكن لهذا تأثير كبير لتقليل الأمر في عيني بوب. لكنه وافق على مسايرتي في فكرتي المجنونة. كان شعار بوب دائمًا: «من الأفضل طلب المغفرة بدلًا من الإذن»، وهذا بدا تمامًا قابلًا للتطبيق هنا. عرفنا أنه إذا طلبنا مصادقةً من المقر،

فلن نحصل عليها. ليس ذلك فقط، لكن كل شيء سنفعله من الآن فصاعدًا سيخضع للفحص الدقيق. في أي بيروقراطية، يجب أن تراقب المتحمسين ذوي اللهب الأزرق بعناية.

نالت كاليفورنيا دائمًا أكثر من حصتها في الجرائم الغريبة والمثيرة، لذلك بدا أنها المكان المناسب للبدء منه. كان جون كونواي عميلًا خاصًّا معينًا في وكالة إف بي آي المقيمة في سان رافايل، شمال سان فرانسيسكو. تزامل مع بوب في صف في كوانتيكو، وكان له علاقات ممتازة مع النظام الجنائي في ولاية كاليفورنيا، ووافق على أن يعمل كحلقة وصل وأن يعمل الترتيبات لنا. عرفنا أننا بحاجة إلى شخص نثق به، ويثق بنا، لأنه إذا انفجر الأمر في وجه الجميع، فسوف يكون هناك الكثير من اللوم.

كان أول مجرم قررنا مقابلته هو إد كيمبر، الذي كان في ذلك الوقت يقضي حكمًا بالسجن المتعدد مدى الحياة في مرفق طبي تابع لولاية كاليفورنيا في فاكافيل، قرب منتصف المسافة بين سان فرانسيسكو وساكرامنتو.

كنا ندرِّس قضيته في الأكاديمية الوطنية دون أن يكون لنا أي اتصال شخصي، لذلك بدا لنا أنه سيكون بداية جيدة. أما ما إذا كان سيوافق على أن يرانا أو أن يتحدث معنا فهو سؤال مفتوح.

كانت تفاصيل القضية موثقة بشكل جيد. ولد إدموند إميل كيمبر الثالث في 18 ديسمبر، 1948، في بروتانك، كاليفورنيا. نشأ مع أختين صغريين في أسرة مضطربة كانت فيها أمه (كلارنل) وأبوه (إد جونيور) في صراع مستمر حتى انفصالهما في النهاية. بعد أن أظهر إد مجموعة من السلوكيات «الغريبة»، التي تضمنت تقطيع قطتين للعائلة ولعب ألعاب طقوس موت مع أخته الكبرى سوزان، أرسلته أمه ليعيش مع زوجها المنفصل عنهم. عندما هرب عائدًا إلى أمه، أُرسل ليعيش مع جديه لأبيه في مزرعة بعيدة في كاليفورنيا على سفح جبال سييرا. هناك، كان يشعر بالملل والعزلة بشكل يائس، بعد إبعاده عن عائلته والراحة البسيطة التي كان محيطه في المدرسة يقدمها له. وهناك، في مساء أحد أيام أغسطس 1963، قام الفتى الطويل والضخم ذو الأربعة عشر عامًا بإطلاق النار على جدته ماودي، بمسدس كاليبر 22، ثم طعنها بشكل متكرر بسكين المطبخ في جسدها. كانت قد أصرت على أن يبقى ويساعدها في أعمال المنزل بدلًا من مرافقة جده، الذي كان يحبه أكثر، في الحقول. ولمعرفته بأن الجد إد لن يرى ما فعله سلوكًا

مقبولًا، فعند عودة العجوز إلى المنزل، أطلق عليه إد النار أيضًا، وترك الجسد ممددًا في الفناء. عند استجوابه لاحقًا من الشرطة، هز كتفيه وقال: «تساءلت فقط كيف سيكون شعور أن أطلق النار على جدتي».

كان الدافع المتبدي خلف الجريمة المزدوجة هو تشخيص إد بـ «اضطراب السمات الشخصية، النوع العدواني السلبي»، وأُلحق ملتزمًا بمستشفى أتاسكاديرو بسبب الجنون الإجرامي. أُطلق سراحه عام 1969 في عمر الحادية والعشرين، بناء على اعتراض نقابة الأطباء النفسيين في الولاية وأُودع في وصاية والدته، التي تركت زوجها الثالث وكانت تعمل في ذلك الوقت سكرتيرة في جامعة كاليفورنيا المفتَتحة حديثًا في سانتا كروز. الآن، قد أصبح طول إد كيمبر 6.9 أقدام ووزنه قرابة 300 باوند.

لعامين، شغل وظائف غريبة، جال الشوارع والطرق السريعة بسيارته، وكان يقلّ الشابات المتجولات. بدت سانتا كروز وضواحيها جاذبة لطالبات كاليفورنيا الجميلات، وكان كيمبر قد افتقد الكثير في مراهقته. وعلى الرغم من رفضه في العمل في دورية الطرق السريعة، فإنه حظي بوظيفة في إدارة الطرق السريعة في الولاية.

في 7 مايو، 1972، اصطحب زميلتَي سكن من كلية ولاية فريسنو؛ ماري آن بيسكي وآنيتا لوتشيسا. قادهما إلى منطقة منعزلة، طعن الشابتين حتى الموت، ثم أخذ جثتيهما إلى منزل والدته حيث التقط لهما صور بولارويد، شرَّحهما ولعب بالأعضاء، ثم جمع ما تبقى في أكياس بلاستيكية، ودفن الجثتين في جبال سانتا كروز، وألقى الرأسين في وهد عميق بجانب الطريق.

في 14 سبتمبر، أقلّ كيمبر طالبة في الخامسة عشرة؛ أيكو كوو، خنقها، واعتدى جنسيًّا على جثتها، ثم أحضرها إلى المنزل لتقطيعها. في الصباح التالي، حين كان في زيارة دورية لأطباء نفسيين من الولاية لمراقبة وتقييم حالته العقلية، كان رأس كوو موجودًا في صندوق سيارته. سارت المقابلة بشكل جيد على الرغم من ذلك، وأعلن الأطباء النفسيون أنه لم يعد مصدر تهديد لنفسه أو الآخرين وأوصوا بإغلاق سجل الأحداث الخاص به. لقد ابتهج كيمبر بهذا الفعل الرمزي البارع. لقد أظهر ازدراءه للنظام وتفوقه عليه في الآن ذاته. قاد سيارته عائدًا إلى الجبال ودفن قطع جثة كوو قرب بولدر كريك.

(في الفترة التي كان كيمبر فيها نشطًا، كان بإمكان سانتا كروز أن تتباهى بلقب لا تُحسد عليه، هو عاصمة القتلة المتسلسلين في العالم. كان

هربرت مولين -شاب وسيم وذكي مصاب بانفصام الشخصية- يقتل الرجال والنساء على حد سواء، ادعى أنه فعل ذلك بتأثير أصوات توجهه للمساعدة في إنقاذ البيئة.

في موضوع مشابه، قام ميكانيكي السيارات المنعزل الذي يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، والذي عاش في الغابات خارج المدينة -جون لينلي فيرزر- بحرق منزل كامل وقتل عائلة من ستة أفراد كتحذير لأولئك الذين يدمرون البيئة. «يجب أن تموت المادية أو يجب أن تتوقف البشرية»، كانت الملاحظة التي تركها تحت ممسحة الزجاج الأمامي لسيارة الـ رولز رويس الخاصة بالعائلة. كان يبدو وكأنه في كل أسبوع كان يظهر غاصب آخر).

في 9 يناير، 1973، التقى كيمبر بالطالبة سيندي شال، من سانتا كروز، وأجبرها على الدخول في الشاحنة بقوة السلاح، ثم أطلق النار عليها. ومثلما كانت عادته، فقد أخذ جثتها إلى منزل والدته، مارس الجنس مع الجثة، قطعها في حوض الاستحمام، ثم وضع البقايا في أكياس بلاستيكية ورماها من أعلى الجرف إلى المحيط في كارمل. كان ابتكاره هذه المرة أن يدفن رأس شال، والوجه للأعلى، في فناء المنزل، ناظرًا لنافذة غرفة نوم الأم، على اعتبار أنها أرادت الناس دائمًا «أن ينظروا إليها».

في ذلك الوقت، كان قد سيطر على سانتا كروز الرعب من «قاتل الطالبات». تم تحذير الشابات ألا يقبلن عرض التوصيل من أشخاص غرباء، وبخاصة من أشخاص خارج الحدود الآمنة المفترضة في محيط الجامعة. لكن والدة كيمبر عملت في الجامعة وبالتالي فقد كان لديه ملصق الجامعة على سيارته.

بعد أقل من شهر، أقلّ كيمبر روزاليند ثروب وأليس ليو، قتلهما بالرصاص ووضعهما في صندوق السيارة. عندما عاد بهما إلى المنزل نالتا نفس المعاملة التي نالتها ضحاياه السابقة. ألقى جثتيهما المشوهتين في وادي إيدن كانيون، قرب سان فرانسيسكو، حيث عُثر عليهما بعد أسبوع.

كان هوسه بالقتل في معدل تصاعدي مخيف، حتى بالنسبة إليه. قرر أن يقتل الجميع في منطقته السكنية، لكنه تراجع عن ذلك أخيرًا. كانت لديه فكرة أفضل، ما أدرك أنه يريد أن يفعله طوال الوقت. في عطلة عيد الفصح، وبينما كانت أمه نائمة في سريرها، دخل كيمبر غرفتها وهاجمها بشكل متكرر بمطرقة مخلبية حتى ماتت، ثم قطع رأسها واغتصب جثتها. وفي لمسة ملهمة أخيرة، قطع حنجرتها ووضعها في تصريف القمامة. «بدا ذلك

ملائمًا»، وفق ما قال للشرطة، «إذ كانت تتذمر وتصرخ وتصيح علي لسنوات كثيرة».

لكن حين شغل جهاز تصريف القمامة، تعطل الجهاز ورمى بالحنجرة الملوثة بالدم خارجًا. «حتى عندما ماتت، كانت لا تزال تزعجني. لم أستطع إخراسها!»

ثم استدعى سالي هاليت، صديقة والدته، ودعاها إلى عشاء «مفاجئ». حين وصلت، ضربها بالهراوة وخنقها، قطع رأسها، وترك جثتها في سريره بينما صعد لينام في سرير أمه. في صباح يوم أحد عيد الفصح، انطلق بسيارته، يقود بلا هدف نحو الشرق. واصل الاستماع للمذياع، متوقعًا أنه سيكون شخصية مشهورة على نطاق وطني. ومع ذلك لم يكن هناك شيء بعد.

خارج بويبلو، كولورادو، فاقد الحسّ ومرهق من قلة النوم، وخائب الأمل لكون العلامة الكبيرة التي تركها لم يكن لها التأثير المطلوب، أمسك سماعة هاتف بجانب الطريق، اتصل بإدارة شرطة سانتا كروز، وبعد محاولات عديدة منه لإقناعهم أنه كان يقول الحقيقة، اعترف بجرائم القتل وبهويته كـ قاتل الطالبات. ثم انتظر بصبر وصول الشرطة المحلية لتأخذه.

أُدين كيمبر بثماني جرائم قتل من الدرجة الأولى. وعندما سُئل عما يراه عقابًا مناسبًا، أجاب: «الموت تحت التعذيب». وعلى الرغم من أن جون كونواي قد أجرى ترتيبات مسبقة مع مسؤولي السجن، فقد قررت أن من الأفضل أن نطلب المقابلة من السجناء عند وصولنا هناك. حتى مع أن هذا كان يعني القيام بالرحلة دون التأكد من التعاون، لكنها بدت الفكرة الأفضل. لا شيء يبقى سريًا في السجن، وإذا ما انتشر الخبر أن سجينًا معينًا كان على علاقة بـ إف بي آي أو يتحدث إليهم، فسوف يعَد واشيًا أو ما هو أسوأ من ذلك.

إذا ظهرنا دون أن نعلن ذلك، سيكون واضحًا لمن في السجن أننا نحقق في شيء أو آخر وأنه لم يكن هناك أي ترتيب أو اتفاق مسبق. لذلك فقد فوجئت إلى حد ما لأن إد كيمبر وافق مباشرة على التحدث إلينا. فيما يبدو، لم يسأله أحد عن جرائمه منذ فترة طويلة، وكان يشعر بالفضول بشأن ما كنا نفعله.

يعدُّ الذهاب إلى سجن مشدد الحراسة تجربة مروعة، حتى بالنسبة إلى عميل في مجال إنفاذ القانون. أول ما يجب عليك فعله أن تسلم مسدسك، فمن

الواضح أنهم لا يريدون أي أسلحة في مناطق الحجز. كان الطلب الثاني أن توقِّع على تنازل مفاده أن تخلي طرف السجن من المسؤولية إذا تم احتجازك رهينة، وأنك تتفهم أنه في حال حدوث شيء كهذا، فلن تتم المفاوضة من أجلك. بالنظر إلى أن وجود عميل فيدرالي كرهينة يمكن أن تكون ورقة مفاوضات هائلة. بعد الاهتمام بتلك الإجراءات الرسمية، دخلنا؛ بوب ريسلر وجون كونواي وأنا إلى غرفة بطاولة وكراسي وانتظرنا وصول إد كيمبر.

كان أول ما صدمني حين جاؤوا بالرجل وكم كان هذا الشخص ضخمًا. كنت أعرف أنه طويل وكان يعَد منبوذًا اجتماعيًّا في المدرسة والحي بسبب حجمه، لكن من قرب، كان عملاقًا. كان يمكنه بسهولة أن يكسر أيًّا منا نصفين. له شعر داكن طويل وشارب كامل، وارتدى قميص عمل مفتوحًا وكنزة بيضاء تظهِر قوته بشكل بارز.

سرعان ما تبين أن كيمبر كان رجلًا ذكيًّا. أوضحت سجلات السجن أن معدل ذكائه كان 145، وفي أوقات كثيرة من الساعات التي قضيناها معه، كنت أنا وبوب نخشى من أن يكون أذكى من كلينا. كان لديه زمن طويل ليجلس ويفكر في حياته وجرائمه، وحالما فهم أننا بحثنا في ملفاته بدقة وعناية، انفتح نحونا وأخذ يتكلم عن نفسه لساعات.

لم يكن موقفه متغطرسًا ومتعجرفًا ولا نادمًا أو تائبًا، بدلًا من ذلك، كان لطيفًا ويتحدث بهدوء، تحليليًّا ومستبعدًا نفسه إلى حد ما. وفي الحقيقة، مع استمرار المقابلة، كان من الصعب في الغالب طرح سؤال عليه. كانت المرات الوحيدة التي يشعر فيها بالضعف هي تلك التي كان يستعيد فيها معاملة أمه له. لكوني كنت أعلم علم النفس الجنائي التطبيقي دون معرفة أن كل ما كنت أقوله كان صحيحًا بالضرورة، فقد كنت مهتمًّا بالسؤال الأزلي حول ما إذا كان المجرمون يولَدون أو يُصنَعون. وعلى الرغم من أنه لا يوجد إجابة محددة وربما لن يكون، فإن الاستماع إلى كيمبر أثار عددًا من الأسئلة الرائعة.

لا جدال في أن والدَي إد مرا بتجربة زواج مريعة. أخبرنا أنه، منذ البداية، بدا أنه يشبه والده الذي كانت أمه تكرهه. ثم أصبح حجمه مشكلة. وفي الفترة التي بلغ فيها العاشرة من العمر، كان قد أصبح عملاقًا بالنسبة إلى سنه، وقد خشيت كلارنل من أن يتحرش بأخته سوزان، لذلك جعلته ينام في غرفة دون نوافذ في القبو بجوار الفرن. وفي كل ليلة عند وقت النوم، كانت أمه تغلق عليه باب القبو، بينما تصعد هي وسوزان إلى غرفتيهما في الطابق العلوي.

أرعبه ذلك تمامًا وجعله في غاية الاستياء تجاه المرأتين. وتصادف ذلك مع انفصال الأم الأخير عن والد إد. بسبب حجمه، وشخصيته الخجولة، وافتقاد القدوة التي يتماهى معها في المنزل، فقد كان إد دائمًا منسحبًا ومختلفًا. وحالما بدأ حبسه في القبو مثل السجين ودفعه لاختبار مشاعر خطيرة وسيئة دون أن يكون قد ارتكب خطأ ما، بدأت أفكاره العدوانية المتعلقة بالقتل في الظهور. ثم جاءت حادثة قتل وتشويه قطتَي العائلة، واحدة بسكين والأخرى بساطور. سنكتشف لاحقًا أن ملامح طفولته في العنف تجاه الحيوانات كانت حجر الأساس لما أصبح يعرف بـ «ثالوث القتل»، الذي يتضمن أيضًا سلس البول، أو التبول في الفراش، فيما وراء السن المعتادة، وإشعال الحرائق.

ما كان محزنًا ويدعو للسخرية أيضًا أنه في سانتا كروز كانت والدة إد تحظى بشعبية بين الإداريين والطلاب. كانت تُعدُّ شخصًا حساسًا ومهتمًّا يمكنك الذهاب إليها إذا تعرضت لمشكلة أو احتجت إلى التحدث مع أحد. أما في المنزل، فقد عاملت ابنها كما لو أنه كان وحشًا.

ليس هناك طريقة أبدًا لتتمكن من مواعدة أيٍّ من هؤلاء الطالبات الجامعيات أو الزواج بأي منهن، كانت رسالتها الواضحة له. إنهن جميعًا أفضل منك بكثير. وبتعرضه المستمر لهذا الموقف، فقد قرر إد أخيرًا أن يحقق توقعاتها.

يجب القول إنها حاولت الاهتمام به بطريقتها الخاصة. عندما أبدى اهتمامًا بالانضمام لدورية الطرق السريعة، حاولت أن تشطب سجل الأحداث الخاص به كيلا تعيقه «وصمة» قتله لجديه في حياته الجديدة في سن الرشد.

كان تلك الرغبة في العمل مع الشرطة كشفًا آخر مثيرًا للاهتمام، مما كان سيتكرر مجددًا في دراستنا عن القتلة المتسلسلين. تبين أن الدوافع الأكثر شيوعًا للقتلة المتسلسلين والمغتصبين هي التسلط، التلاعب والسيطرة. حين تفكر بأن معظم هؤلاء الأشخاص فاشلون وغاضبون وبلا جدوى يشعرون أن الحياة قد منحتهم دورًا مهمًّا ليفعلوه، وأن معظمهم قد اختبر نوعًا من الإساءة العاطفية أو الجسدية، كما حصل لـ كيمبر، فلن يكون مفاجئًا أن يكون من مهنهم التخيلية العمل كضابط شرطة.

يمثل رجل الشرطة السلطة والاحترام العام. حين يُستدعى ليقوم بهذا العمل، يكون مخوَّلًا لإيذاء الأشرار من أجل الصالح العام. خلال بحثنا، اكتشفنا أنه بينما ينحرف بعض ضباط الشرطة ويتجهون لارتكاب جرائم عنيفة، فإن الجناة المتسلسلين فشلوا في جهودهم للانضمام لإدارات الشرطة

وشغلوا وظائف في مجالات مرتبطة بها، مثل حراس الأمن أو حراس ليليين. من الأشياء التي بدأنا نقولها في ملفاتنا التنميطية هي أن المشتبه به مجهول الهوية قد يقود سيارة تشبه سيارات الشرطة، لنقل فورد كروان فيكتوريا أو شيفروليه كابريس. في بعض الأحيان، كما في حالة جرائم قتل الأطفال في أتالانتا، كان الجاني قد اشترى سيارة شرطة قديمة مستعملة.

ومن الملامح الأكثر شيوعًا «مهووس الشرطة». أحد الأشياء التي أخبرنا بها كيمبر أنه كان يتردد بانتظام على حانات ومطاعم تُعرف بتردد رجال الشرطة عليها، فكان يذهب ويدخل في محادثات. جعله هذا يشعر وكأنه عميل داخلي، وقد أشعره بتشويق سلطة الشرطي. لكن أيضًا، حين يكون قاتل الطالبات في حالة من الهيجان، يكون على اتصال مباشر مع تقدم عملية التحقيق، مما يسمح له بتوقع خطوتهم التالية. في الحقيقة، عندما اتصل كيمبر من كولورادو عند نهاية هذه المهمة الطويلة والدموية، مر بوقت عصيب وهو يقنع شرطة سانت كروز أن هذه لم تكن مزحة من رجل مخمور، وأن صديقهم إد كان بالفعل قاتل الطالبات. الآن، بسبب ما تعلمناه، فقد بدأنا نفكر بشكل روتيني باحتمالية أن يسعى الجاني لأن يدخل نفسه في التحقيق. بعد سنوات، خلال العمل على قضية جرائم قتل البغايا التي ارتكبها آرثر شاوكروس في روشستر، نيويورك، تنبأ زميلي جريج ماكراري بشكل صحيح بأن القاتل سيكون شخصًا تجمعه برجال الشرطة معرفة وثيقة، ممن يرتاد نفس أماكنهم، ومن يحاول تزويدهم بالمعلومات بحماس.

كنت مهتمًا إلى حد كبير جدًّا بأسلوبية كيمبر، فأن ينجو في كل مرة يرتكب فيها هذه الجرائم بشكل متكرر في المنطقة الجغرافية العامة ذاتها فإن هذا يعني أنه كان يعمل شيئًا ما «بالشكل الصحيح»؛ أنه كان يحلل ما كان يفعله ويتعلم إتقان تقنيته. لنضع في حسباننا أنه بالنسبة إلى معظم هؤلاء الأشخاص، فإن الصيد والقتل هما أهم شيء في حياتهم، «عملهم» الرئيسي، وبذلك فإنهم يفكرون فيهما كل الوقت. كان إد كيمبر بارعًا للغاية فيما يقوم به لدرجة أنه حين تم إيقافه ذات مرة بسبب ضوء خلفي مكسور بينما كانت معه جثتان في صندوق سيارته، أبلغ الضابط عن مدى تعاونه وأدبه حين تقبل الحصول على تحذير. بدلًا من أن يشعر بالذعر ويُكتشف ويُعتقل، كان هذا جزءًا من التشويق الذي أحس به كيمبر. أخبرنا ببرود أنه لو أراد الضابط أن ينظر في صندوق السيارة، كان سيقتله. في مرة أخرى، تحدث عن مروره

من حارس أمن الجامعة مع امرأتين مقتولتين بالرصاص في سيارته. كانتا ملفوفتين بالبطانيات حتى العنق، واحدة بجانبه في الكرسي الأمامي والأخرى في الخلف. أوضح كيمبر بهدوء ولا مبالاة، إلى حد ما، أن الفتاتين مخمورتان وأنه يوصلهما إلى المنزل.

لكن الجزء الأخير من البيان كان صحيحًا، ففي إحدى المناسبات، أقلّ امرأة متنقلة على الطريق مع ابنها المراهق، وكان يخطط لقتل كليهما. لكن ما إن انطلق بسيارته، حتى لاحظ في مرآته الخلفية أن رفيق المرأة سجّل رقم السيارة لديه، لذلك تحلى بالعقلانية فأوصل المرأة والابن إلى وجهتهما وأنزلهما.

وبالذكاء الذي كان يتمتع به، فقد أجرى كيمبر اختبارات نفسية في السجن، فتعرف على المصطلحات الرنانة وكان بمقدوره أن يعطيك تحليلًا لسلوكه بتفاصيل نفسية تحليلية.

كل شيء عن الجرائم كان جزءًا منِ التحدي، جزءًا من اللعبة، حتى اكتشاف كيف كان يجعل الضحايا يركبون السيارة دون أن يبدو مثيرًا للشبهات. أخبرنا أنه حين كان يتوقف أمام فتاة جميلة، كان يسألها إلى أين تريد أن تذهب، ثم يلقي نظرة إلى ساعته كما لو أنه يحاول أن يقرر إن كان لديه ما يكفي من الوقت. وظنًّا منها أنها تتعامل مع رجل مشغول لديه أولويات أخرى أهم من التوقف للعابرين سيدفعها مباشرة للشعور بالارتياح ويزيل أي تردد. وبصرف النظر عن إعطائنا لمحة حول أسلوب عمل القاتل، فإن هذا النوع من المعلومات سيبدأ باقتراح فكرة مهمة: إن الافتراضات العادية النابعة عن الحس السليم، والإشارات اللفظية، ولغة الجسد، وغيرها مما يجعلنا نستخدمها بغية تقييم الآخرين واتخاذ أحكام سريعة عليهم لا تنطبق على المختلين اجتماعيًّا. في حالة إد كيمبر، على سبيل المثال، فإن التوقف من أجل فتاة جميلة *كان* أولويته المهمة، وقد فكر طويلًا، مليًّا وتحليليًّا حول كيف يمكنه إنجاز غايته بأفضل الطرق؛ أطول بكثير، وأكثر تمحيصًا وتحليلًا مما كانت امرأة شابة تقابله صدفة لتفعل من منظورها هي.

التسلط والتلاعب والسيطرة. هذه هي الكلمات الثلاث السحرية للمعتدي المتسلسل. كل ما يفعلونه ويفكرون به موجه لمؤازرتهم في ملء حياتهم القاصرة.

ولعل العامل الأكثر تأثيرًا في تطور المغتصِب أو القاتل المتسلسل هو دور الخيال.

وأنا أعني الخيال بأوسع معانيه. لقد تطورت خيالات إد كيمبر مبكرًا، واشتملت جميعًا على العلاقة بين الجنس والموت. كانت اللعبة التي جعل أخته تلعبها معه أن تربطه إلى كرسي كما لو أنه كان في حجرة الإعدام بالغاز. أما خيالاته الجنسية التي تشمل الآخرين فانتهت بموت الشريك وتقطيع أوصاله. وبسبب أحاسيسه بالقصور، لم يشعر كيمبر بالراحة في أي علاقة طبيعية بين فتى وفتاة. لم يظن أن أي فتاة سترضى به، لذلك قام في عقله بالتعويض. كان عليه أن يمتلك شريكته المتخيَّلة بشكل كامل، وكان ذلك يعني امتلاك روحها بشكل نهائي.

«أحياء، كانوا بعيدين، ولم يشاركوني شيئًا» أوضح في اعتراف أدلى به في المحكمة. «كنت أحاول تأسيس علاقة. حين قُتِلن، لم يكن يدور في عقلي شيء سوى أنهن أصبحن ملكي».

وفي معظم حالات القتلة المدفوعين جنسيًّا، فهو تصاعد من عدة خطوات من التخيل إلى الواقع، تغذيه في الغالب الإباحية، التجارب المرضية على الحيوانات، والقسوة في التعامل مع الأقران. يمكن أن تلاحظ هذه السمة الأخيرة من خلال «العودة» إليهم بسبب معاملتهم السيئة. في حالة كيمبر، فقد شعر بأنه منبوذ ومعذَّب من الأطفال الآخرين بسبب حجمه وشخصيته. وقد أخبرنا أنه قبل أن يقطِّع قطتَي العائلة، قد سرق إحدى دمى أخته وقطع رأسها وذراعيها، مجربًا ما كان سيفعله على الأحياء.

على مستوى آخر، فقد كان خيال كيمبر الطاغي وسيلة منه للتخلص من سلطة والدته المسيئة والمسيطرة، وكل ما فعله كقاتل يمكن تفسيره ضمن هذا السياق. أرجو ألا تفهموني خطأ، فهذا ليس مبررًا على الإطلاق لما فعله. كل شيء في خلفيتي وتجربتي يخبرني أن الناس مسؤولون عن أفعالهم. لكن في رأيي، فإن إد كيمبر نموذج للشخص الذي لم يولَد قاتلًا، وإنما أُنشئ كقاتل. هل كان ليتبنى الخيالات القاتلة ذاتها لو أنه حظي بحياة عائلية أكثر طبيعية واستقرارًا؟

من يدري؟ لكن هل كان سيتصرف بالطريقة عينها معهن لو لم يكن في داخله ذلك الغضب الرهيب تجاه الشخصية الأنثوية المسيطرة في حياته؟ لا أظن، لأن تطور مسيرة كيمبر كقاتل بأكملها يمكن رؤيتها كمحاولة للعودة

إلى الأم القديمة العزيزة. وحين وصل أخيرًا إلى الفصل الأخير، كانت الدراما قد انتهت.

كانت تلك خاصية أخرى سنراها تتكرر مرة بعد مرة، إذ نادرًا ما كان الجاني يوجه غضبه نحو مركز استيائه. على الرغم من أن كيمبر أخبرنا أنه اعتاد الدخول على رؤوس أصابعه إلى غرفة والدته حاملًا مطرقة ويتخيل أنه يضربها بها على جمجمتها، لقد تطلب منه الأمر ست عمليات قتل متخيَّلة قبل أن يتمكن من مواجهة ما كان يرغب حقًّا في فعله. كما رأينا العديد من التنويعات الأخرى بشأن فكرة الإزاحة. على سبيل المثال، من السمات الشائعة أن يأخذ القاتل «تذكارًا» من الضحية بعد القتل، مثل خاتم أو قلادة، ثم يعطي القاتل هذا التذكار لزوجته أو حبيبته، حتى إذا كانت تلك المرأة «مصدر» غضبه أو عدائيته. عادة، سيقول إنه قد اشترى تلك القطعة أو وجدها. ثم حين يراها تضعها سيبدأ باستعادة الإثارة والتحفيز الناتجين عن القتل وسيعيد في عقله التأكيد على السطوة والسيطرة، مدركًا أن بإمكانه أن يفعل بشريكته ما فعله بضحيته سيئة الحظ.

في النهاية، بتحليلنا، سنبدأ بتحليل مكونات الجريمة إلى عناصر مثل ما قبل وما بعد السلوك العدواني. لقد شوَّه كيمبر كلًّا من ضحاياه، مما بدا لنا في البداية سادية جنسية. لكن التشويه كان ما بعد الموت، أو بعد وفاة الضحية، أكثر مما حين كانت على قيد الحياة، وبالتالي فإنه لم يهدف لإيقاع العقاب والتسبب في المعاناة. بعد الاستماع لكيمبر لبضع ساعات، أصبح واضحًا أن تقطيع الأوصال كان فيتشيًّا أكثر منه ساديةً وكان متعلقًا بقوة بمسألة التملك في خياله.

وعلى درجة مماثلة من الأهمية، فكرت بطريقته في التعامل مع الجثث والتخلص منها. لقد دفن الضحايا الأوائل على مسافة بعيدة من منزل الأم، أما الضحايا اللاحقات، بمن فيهن والدته وصديقتها، فقد تُركوا في العراء تقريبًا. ذلك، ومع قيادته في جميع أنحاء المدينة مع جثث وقِطع من الأجساد في صندوق سيارته، فقد كان بذلك يزعج المجتمع الذي شعر أنه قد أزعجه ورفضه.

انتهى بنا المطاف بتسجيل مقابلات مطولة مع كيمبر على مر السنين، وكل واحدة منها كانت غنية بالمعلومات، ومروعة بتفاصيلها. إنه رجل ذبح ببرود شابات ذكيات في مقتبل عمرهن. ومع ذلك فلن أكون صادقًا إذا قلت

إنني لم أكن معجبًا بــ إد. لقد كان ودودًا، منفتحًا، حساسًا، وكان لديه حس دعابة جيد. وبقدر ما يمكنك القول في بيئة مثل هذه، فقد كنت مستمتعًا بالوجود قربه. لا أريده أن يكون في الخارج سائرًا في الشوارع، وفي أكثر لحظاته وضوحًا وصفاءً، فلن يرغب في ذلك أيضًا. لكن مشاعري الشخصية التي أكنُّها لك، والتي ما زلت أحملها، تشير إلى اعتبار مهم لكل من يتعامل مع مرتكبي جرائم عنيفة متكررة. إن معظم هؤلاء الأشخاص فاتنون فعلًا، وفصيحون ولبقون.

كيف يمكن *لهذا الرجل أن يفعل شيئًا مريعًا مثل هذا؟ لا بد أن هناك خطأً ما أو ظروفًا تخفيفية*. هذا ما ستقوله لنفسك إذا تحدثت إلى واحد منهم، لن يمكنك أن تشعر بالإحساس الكامل بفداحة جرائمهم. ولهذا يتم في حالات كثيرة خداع الأطباء النفسيين والقضاة وضباط الإفراج المشروط، وهو موضوع سنتطرق إليه لاحقًا.

لكن الآن: *إذا أردت فهم الفنان، انظر إلى عمله*. هذا ما أقوله دائمًا للمحيطين بي. لا يمكنك أن تزعم أنك تفهم بيكاسو أو تقدِّره دون دراسة لوحاته. إن القتلة المتسلسلين الحقيقيين يخططون لجرائمهم كما يخطط الفنان للوحته، إنهم يعدُّون ما يفعلونه «فنَّهم»، وهم يواصلون تحسينه مع الوقت، لذلك فإن جزءًا من تقييمي لشخص مثل إد كيمبر يأتي من لقائه والتفاعل معه على أسس شخصية. أما الباقي فيأتي من دراسة عمله وفهمه.

أصبحت زيارات السجن ممارسة منتظمة كلما كنت أنا وبوب ريسلر في رحلة تدريسية أو توفَّر لنا الوقت والتعاون. وكلما فرغت قليلًا لنفسي، كنت أفكر أي سجن قريب وأي شخصية مهمة «في الإقامة».

ولكوننا نقوم بهذا من فترة طويلة، فقد قمنا بتحسين تقنياتنا. بشكل عام، كنا مقيدين لأربعة أيام ونصف، لذلك حاولت إجراء بعض المقابلات في المساء وعطلة الأسبوع. كانت فترات المساء صعبة لأن معظم السجون كانت تقوم بإحصاء عدد المساجين بعد العشاء ولا يعود مسموحًا لأحد الخروج إلى عنبر السجن بعد ذلك. لكن بعد فترة، تبدأ بفهم أنظمة السجون والتكيف معها. توصلت إلى أن شارة الــ إف بي آي تستطيع إدخالك معظم السجون ولقاء مدير السجن، لذلك بدأت بالظهور بشكل غير معلن من قبل، وكان ذلك ناجحًا في معظم الأحيان. وكلما أجريت المزيد من المقابلات، بدأت أشعر بالمزيد من الثقة بشأن ما كنت أدرِّس وأقول لهؤلاء الشرطيين المخضرمين.

شعرت أخيرًا بأن تدريبي كان يحقق بعض الأساس الواقعي، وأنه لم يكن مجرد قصص حربية معاد تدويرها من أولئك الذين شهدوها هناك.

لم يكن الأمر بالضرورة أن من قابلتهم قدموا نظرة عميقة إلى جرائمهم ونفسيتهم. قلة قليلة من فعلوا ذلك، حتى شخص ذكي مثل كيمبر. لقد كرر الكثير ممن تحدثوا معنا شهادتهم في المحكمة أو تصريحاتهم الشخصية التي كرروها عدة مرات من قبل. كان لا بد من تفسير كل شيء من خلال العمل الجاد والمراجعة الشاملة من جانبنا. ما كانت تفعله المقابلات، مع ذلك، أنها كانت تتيح لنا رؤية الطريقة التي عمل بها عقل الجاني، وأن نتأقلم مع ذلك، مما يسمح لنا بأن نبدأ التفكير مكانهم.

في الأسابيع والأشهر الأولى من برنامج بحثنا غير الرسمي، تمكنا من مقابلة ما يزيد على نصف دستة من القتلة والقتلة المحتمَلين، كان من بينهم القاتل المحتمل جورج والاس، آرثر بريمر (سجن بالتيمور)، سارا جين مور، ولينيت «سكويكي» فروم، وكلتاهما حاولتا اغتيال الرئيس فورد (ألدرسون، ويست فرجينيا)، ومعلم فروم، تشارلز مانسون، في سان كوينتن، أعلى الخليج من سان فرانسيسكو وسجن الكاترار.

كان جميع المسؤولين عن إنفاذ القانون مهتمين بمانسون. كان قد مرت عشر سنوات على وقوع جرائم قتل تيت لابيانكا في لوس أنجلوس، وكان مانسون لا يزال أشهر المحكومين في العالم وأكثرهم رهبة. كانت القضية تدرَّس باستمرار في كوانتيكو، وبينما كانت الحقائق واضحة، فإنني لم أشعر أن لدي فكرة حقيقية عن السبب الذي دفع هذا الرجل ليرتكب ما فعل. لم تكن لدي فكرة عما يمكن أن نحصل عليه منه، لكنني اعتقدت أن شخصًا تمكن من التلاعب بكل من حوله بتحقيق غاياته هو موضوع دراسة مهم بلا شك. التقيناه أنا وبوب ريسلر في غرفة اجتماعات صغيرة خارج عنبر المساجين الرئيسي في سان كوينتن. كانت غرفة بنوافذ زجاجية مقوَّاة بالأسلاك من ثلاث جهات، ذلك النوع من الغرف التي يجتمع فيها النزلاء مع محاميهم.

كان انطباعي الأول عن مانسون معاكسًا تمامًا لانطباعي عن إد كيمبر. كان له عينان جامحتان متحفزتان وطريقة خاصة ومقلقة في حركته. كان أقصر وأصغر مما تخيلت، لا يزيد على 5.2 أو 5.3 أقدام. كيف تمكن هذا الرجل الضئيل من السيطرة على أفراد «عائلته» سيئة السمعة؟

جاء الجواب سريعًا حين صعد على الكرسي الموجود على رأس الطاولة بحيث يمكنه النظر إلينا للأسفل بينما يحدثنا. في التحضيرات المكثفة التي أعددتها للمقابلة، قرأت أنه كان يجلس على قمة صخرة في رمال الصحراء بينما كان يخاطب أتباعه، مما يعزز مكانته الجسدية من أجل خطبة على الجبل. أوضح لنا منذ البداية أنه على الرغم من المحاكمة الشهيرة والتغطية الإخبارية العالمية فإنه مع ذلك لم يفهم سبب وجوده في السجن. ففي النهاية، هو لم يقتل أحدًا. بالأحرى، كان يعدُّ نفسه كبش فداء مجتمعي- الرمز البريء للجانب المظلم من أمريكا. كان الصليب المعقوف الذي حفره على جبهته خلال المحاكمة قد تلاشى لكنه لا يزال ملحوظًا.

كان لا يزال على اتصال مع أتباعه في السجون الأخرى عبر أطراف ثالثة متعاونة.

بمعنى من المعاني على الأقل، كان يشبه إد كيمبر والأشخاص الذين تحدثنا عنهم من ناحية مروره بطفولة وتربية مروعة، إن كان يمكن استخدام هذين المصطلحين أصلًا لوصف خلفية مانسون.

وُلد تشارلز ميلز مانسون في سينسيناتي في عام 1934، ابن غير شرعي لبغي في السادسة عشرة من العمر تدعى كاثلين مادوكس. كانت كنيته تخمينًا من كاثلين لأي من عشاقها كان والد الطفل. كانت كاثلين تدخل السجن وتخرج منه، فتركت عهدة تربيته في كنف خالة متدينة وخال ساديّ وصفه بالمخنث، وألبسه ملابس الفتيات في أول يوم له في المدرسة وتحداه «أن يتصرف كرجل». حين بلوغه العاشرة، كان يعيش في الشوارع، باستثناء عمله في مدارس جماعية ومدارس إصلاحية. استمر لأربعة أيام في مؤسسة «بويز تاون» التابعة للأب فلاناجان.

كانت فترة مطلع شبابه مليئة بحوادث السرقات، والتزوير، والقوادة، والاعتداءات والتردد إلى السجن في مؤسسات وإصلاحيات أكثر صرامة بشكل متزايد. كان الـ إف بي آي قد حقق في شأنه تحت «قانون داير» لنقل وتبادل السيارات المسروقة عبر الولايات. أُطلق سراحه من السجن عام 1967، في أوان «صيف الحل». ذهب إلى مقاطعة هايت-آشبري في سان فرانسيسكو، وهي منطقة الجذب في الساحل الغربي لكل من رغب في السلطة والجنس والمخدرات وموسيقى الروك آند رول. باحثًا بشكل رئيسي عن رحلات مجانية، أصبح مانسون بسرعة معلمًا كاريزماتيًا للجيل المنقطع عن الدراسة والذي

لا يزال في مراهقته وعشرينياته. كان يعزف على الجيتار ويتحدث بأفكار وحقائق مبهمة للأطفال المحبَطين خائبي الأمل. لاحقًا، كان يعيش مجانًا، بكل الجنس والمتع غير المشروعة التي كان يرغب فيها. «عائلة» بدوية من الأتباع من الجنسين تجمعوا حوله، وصل عددهم أحيانًا إلى الخمسين. كمثال على إحدى خدماته للمجتمع، كان تشارلز يبشر بالقيامة الآتية وحرب الأعراق، التي ستجعل العائلة منتصرة وتبقيه مسيطرًا. كان مصطلحه «هلترسكلتر» مستمدًّا من ألبوم فرقة البيتلز *وايت ألبوم*.

في ليلة 9 أغسطس، 1969، اقتحم أربعة أفراد من عائلة مانسون، يقودهم تشارلز «تكس» واتسن، منزل المخرج رومان بولانسكي وزوجته النجمة السينمائية شارون تيت، في 10050 سييلو درايف في بيفرلي هيلز. كان بولانسكي منشغلًا بالعمل بعيدًا عن المنزل، لكن تيت وأربعة ضيوف -أبيغايل فولجر، جاي سيبرنج، فويتك فريكوسكي وستيفن بارنت- قُتلوا بوحشية في عربدة فظيعة تضمنت وجود شعارات على الجدران وأجساد الضحايا بدمائهم. كانت شارون تيت حاملًا في شهرها التاسع تقريبًا.

بعد ذلك بيومين، وبتحريض واضح من مانسون، قُتل وشُوه ستة أفراد من عائلة رجل الأعمال لينو لابيانكا وزوجته روزماري، في منزلهم في مقاطعة سلفر ليك في لوس أنجلوس. لم يشارك مانسون بذاته، لكنه جاء إلى المنزل لاحقًا لأجل الفوضى الكبيرة التي حصلت. الاعتقال التالي لـ سوزان أتكينز، التي شاركت في كلتا الجريمتين، بسبب الدعارة، وحريق في جزء من الطريق السريع، قادا في النهاية إلى العائلة وإلى ما قد تكون ربما أشهر محاكمة في تاريخ كاليفورنيا، على الأقل حتى بروز ظاهرة أو. جيه. سيمبسون. في قضيتين منفصلتين، حُكم على مانسون والعديد من أتباعه بالإعدام في قضيتي تيت ولابيانكا ورُبطت بهم بعض القضايا الأخرى، من ضمنها مقتل دونالد «شورتي» شيا، ممثل مقاطع خطرة سينمائي ومتردد على العائلة الذي اشتبه بعلاقته مع الشرطة. عندما أُلغي قانون حكم الإعدام في الولاية، خُففت الأحكام إلى السجن مدى الحياة.

لم يكن تشارلز مانسون القاتل المتسلسل الذي يمكن أن تراه بشكل روتيني. في الحقيقة، كان هناك خلاف حول ما إذا كان قد قتل أحدًا بيديه. لكن خلفيته السيئة لا شك فيها، وكذلك كانت الأهوال التي ارتكبها أتباعه بتحريض منه وباسمه. أردت أن أعرف كيف يمكن لشخص ما أن يصبح هذا

الشيطان. كنا مضطرين للجلوس لساعات للاستماع لفلسفة فارغة وثرثرة رخيصة، لكن مع ضغطنا عليه من أجل تفاصيل محددة ومحاولة التوقف عن الهراء، فإن صورة ما بدأت في الظهور.

لم يكن مانسون يطمح لأن يكون معلمًا شريرًا؛ كان هدفه الشهرة والثروة. أراد أن يكون عازف درامز وأن يعزف لفرقة روك مشهورة مثل ذا بيتش بويز. أُجبر على أن يعيش وفقًا لذكائه في حياته كلها وقد أصبح بالتالي خبيرًا للغاية وبشكل متطرف في تقييم الأشخاص الذين كان يلتقيهم وأن يحدد بسرعة ما يمكنهم فعله له. كان ممكنًا أن يصبح عظيمًا في وحدتي الخاصة بتقييم نقاط القوة والضعف النفسية للفرد ووضع إستراتيجية كيفية الوصول إلى القاتل الذي كنا نتعقبه.

حين وصل إلى سان فرانسيسكو بعد إطلاق سراحه المشروط، رأى حشودًا ضخمة من الأولاد المضطربين، الساذجين والمثاليين الذين نظروا إليه لخبرته الحياتية والحكمة التي بدا أنه يظهِرها. الكثير منهم، وبخاصة الفتيات الصغيرات، كانت لديهن مشكلات مع آبائهن وكان ذلك مرتبطًا بماضي تشارلز، وكان ماهرًا بما يكفي ليستطيع اختيارهم. أصبح النموذج الأبوي الذي استطاع ملء حياتهم الفارغة بالجنس واستثارة المخدرات. لا يمكن أن تكون في الغرفة ذاتها مع تشارلز مانسون ولا تتأثر بعينيه؛ عميقتان ومخترقتان وجامحتان ومنوِّمتان مغناطيسيًا. كان على دراية بما يمكن لعينيه أن تفعلا والتأثير الذي تملكانه. أخبرنا أنه قضى بداية حياته وهو يتعرض للضرب المبرح، وبجسده الصغير، لم يكن ليتمكن من الفوز في مواجهة جسدية، لذا فقد كان يعوض ذلك عبر الاستناد إلى قوة شخصيته.

كان ما بشر به يبدو منطقيًا تمامًا: التلوث يدمر البيئة، التحيز العنصري قبيح ومدمر، الحب حق والكراهية خطأ. لكن حالما وجد هذه الأرواح التائهة في طريقه، أسس نظامًا وهميًا منظمًا بشكل كبير ضمَن له السيطرة الكاملة على عقولهم وأجسادهم. استخدم الحرمان من النوم، والسيطرة على الجنس والطعام والمخدرات لكسب السيطرة الكاملة، مثل وضع سجين الحرب. كان كل شيء أسود وأبيض ووحده تشارلز من كان يعرف الحقيقة.

كان يعزف على جيتاره ويكرر شعاره مرة بعد مرة: وحده تشارلز يستطيع شفاء المرضى والمجتمع المتعفن.

سيكون علينا أن نرى ديناميكيات القيادة والسيطرة على الجماعة التي وصفها لنا تشارلز تتكرر عبر السنوات في المآسي التالية ذات الأبعاد المماثلة. ستُستعاد سطوة مانسون وفهمه للأشخاص القاصرين وسيطرته عليهم من القس جيم جونز والمقتلة الجماعية - الانتحارية لجماعته في غويانا، ثم مجددًا ديفيد كورش وجماعة الداوديين في واكو، تكساس، إن كنا سنكتفي بذكر اثنين. وعلى الرغم من الاختلافات الصارخة بين الرجال الثلاثة، فإن ما يجمعهم معًا صادم. ساهمت الفكرة التي حصلنا عليها من الحديث مع مانسون وأتباعه في تكوين فهمنا لـ كورش وأفعاله والطوائف الأخرى.

في جوهرها، لم تكن مسألة مانسون في رؤيته المسيحانية وإنما بالسيطرة البسيطة. كان التبشير بـ «هلترسكلتر» طريقة للحفاظ على السيطرة الذهنية. ومثلما توصل مانسون إلى إدراك حقيقة أنه ما لم تواصل سيطرتك على جماعتك أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، فإنك تخاطر بفقدانها. أدرك ديفيد كورش ذلك وحاصر أتباعه في حصن ريفي حيث لم يستطيعوا الابتعاد أو الخروج من نفوذه.

بعد الاستماع لمانسون، أعتقد أنه لم يخطط أو لم ينوِ تنفيذ جريمة قتل شارون تيت وأصدقائها، إنه، في الحقيقة، *قد فقد السيطرة* على الوضع وعلى أتباعه. كان اختيار الموقع والضحايا عشوائيًّا على ما يبدو. كانت إحدى فتيات مانسون هناك وظنت أنه لا بد من وجود المال. فكر تكس واتسن، الطالب الأمريكي الوسيم، في الارتقاء في الترتيب الهرمي ومنافسة مانسون على النفوذ والسلطة. كانوا جميعًا خارج الوعي بسبب عقاقير الهلوسة ومقتنعين بغد القائد الجديد، وكان واتسن القاتل الرئيسي الذي قاد المهمة إلى منزل تيت-بولانسكي وشجع البقية على الشر المطلق.

ثم حين عاد أولئك النكرات وأخبروا تشارلز بما فعلوه، بدأ ذلك الـ هلتر سكلتر، لم يتمكن من التراجع وإخبارهم أنهم أخذوا الأمر بجدية كبيرة.

كان هذا سيدمر قوته وسلطته، لذلك كان عليه أن يدفعهم لارتكاب جريمة أفضل، كما لو أنه كان قد قصد الجريمة وعواقبها، ما قادهم إلى منزل لابيانكا لفعل ذلك ثانية. لكن حين سألت مانسون لماذا لم يذهب معهم ويشارك في القتل، أوضح لنا، كما لو كنا حمقى، أنه كان في إطلاق سراح مشروط في ذلك الوقت ولم يكن ليخاطر بحريته عبر انتهاك ذلك.

لذلك فإني أعتقد أنه من المعلومات التي حصلنا عليها والمقابلات التي أجريناها مع مانسون أنه بينما جعل أتباعه ينفذون ما كان بحاجة إليه، فإنهم بدورهم قد جعلوه يحقق ما هم بحاجة إليه وأجبروه على تنفيذه.

كل سنتين، يتقدم مانسون للإفراج المشروط وفي كل مرة يتم رفضه. كانت جرائمه معروفة جدًّا وفي غاية الوحشية بحيث لم تترك لمجلس الإفراج المشروط فرصة للمراهنة عليه. ولم أكن أيضًا أريده أن يكون في الخارج. لكن إذا أُطلق سراحه في مرحلة ما، بالنظر لما أفعله له، فلا أتوقع أن يكون مصدر تهديد خطيرًا مثل الكثير من هؤلاء الأشخاص. أعتقد أنه سيخرج إلى الصحراء ويعيش هناك، أو سيحاول الإفادة من شهرته مقابل المال. لكني لن أتوقع منه أن يقتل. سيكون التهديد الأكبر من أولئك الخاسرين الضالين الذين قد ينجذبون إليه ويدَّعون أنه إلههم أو قائدهم.

في الوقت الذي كنت أنا وبوب ريسلر قد أجرينا عشر مقابلات أو اثنتي عشرة مقابلة في السجون، كان واضحًا لأي مراقب فطن أننا قد توصلنا إلى شيء مهم. للمرة الأولى، كنا قادرين على الربط بين ما كان يدور في عقل الجاني مع الدليل الذي كان يتركه في موقع الجريمة.

في عام 1979، كنا نتلقى نحو خمسين طلبًا لتحليل تنميطي، والتي حاول المدربون التعامل معها من ضمن مسؤوليات التدريس المنوطة بهم. في السنة التالية، تضاعف عدد القضايا ثم تضاعف في السنة التي تلتها. بحلول ذلك الوقت، كنت قد أُعفيت من مهام التدريس وكنت الوحيد في الوحدة الذي تفرغ للعمل التنفيذي. واصلت تقديم المحاضرات للأكاديمية الوطنية وصفوف العملاء وفق ما يسمح به جدولي، لكن بعكس الآخرين، كان التدريس بالنسبة إليَّ الآن هامشيًّا.

توليت فعليًّا أمر جميع قضايا جرائم القتل التي وصلت إلى الوحدة وكل قضايا الاغتصاب التي كان روي هازلوود مشغولًا للغاية كي يعمل عليها.

كانت خدمة غير رسمية ودون مصادقة رسمية تطورت إلى هيئة صغيرة. حصلت على اللقب المهني المُنشأ حديثًا «مدير برنامج تنميط الشخصية الإجرامية» وبدأت العمل مع المكاتب الميدانية لتنسيق تقديم القضايا إلى إدارات الشرطة المحلية.

في مرحلة ما، كنت في المستشفى لأسبوع أو نحو ذلك. لقد أثرت إصابات الملاكمة وكرة القدم على أنفي، مما جعل التنفس تدريجيًّا أكثر صعوبة،

وخضعت لعملية تقويم الحاجز الأنفي. أذكر أنني كنت مستلقيًا هناك غير قادر على الرؤية جيدًا وأن أحد العملاء الآخرين دخل الغرفة وألقى على سريري عشرين ملفًا. كنا نتعلم المزيد مع كل مقابلة نجريها في السجن، لكن كان لا بد من وجود طريقة لتنظيم البحث غير الرسمي ضمن إطار عمل ممنهج وقابل للاستخدام. وقد جاءت تلك الخطوة للأمام عبر روي هازلوود، الذي تعاونت معه على مقال حول جريمة قتل بدافع الجنس لـ نشرة *إنفاذ القانون التابعة لـ إف بي آي*. أجريت أنا وروي بعض الأبحاث مع الدكتورة آن بيرجس، أستاذة تمريض الصحة العقلية والنفسية في كلية التمريض في جامعة بنسلفانيا. كانت بيرجس مؤلفة غزيرة الإنتاج ومعروفة على نطاق واسع كواحدة من أهم الخبراء الرواد في البلاد في مجال الاغتصاب وعواقبه النفسية.

أحضرها روي إلى وحدة العلوم السلوكية، قدمها لي أنا وبوب، وأطلعها على ما كنا نعمله. تأثرت وأخبرتنا أنها تعتقد أن أمامنا فرصة القيام بأبحاث لم يجر مثلها من قبل في هذا المجال، ورأت أن بمقدورنا المساهمة في فهم السلوك الإجرامي بالطريقة ذاتها التي يمكن لـ *DSM* -*الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية*- أن يساهم في فهم وتنظيم أنواع الاضطرابات العقلية.

اتفقنا على العمل معًا، مع تولي آن مهمة متابعة، والحصول أخيرًا على منحة بـ 400 ألف دولار من المعهد الوطني للعدالة الذي هو تحت رعاية الحكومة. كان الهدف إجراء مقابلات مع ستة وثلاثين إلى أربعين مجرمًا مسجونًا وأن نرى ما هي الاستنتاجات التي يمكننا استخلاصها. من خلال مدخلاتنا، طورت آن وثيقة من سبع وخمسين صفحة تُملأ في كل مقابلة. كان بوب يدير المنحة ويتولى الاتصال مع المعهد الوطني للعدالة، وكنت أنا وهو، بمساعدة من عملاء ميدانيين، نتوجه إلى السجون ونقابل الجناة مواضيع الدراسة. كنا نسجل توصيفات منهجية لكل جريمة وموقع جريمة، وندرس ونوثق السلوك ما قبل الاعتداء وما بعده، وكانت آن تحسب الأرقام، ونكتب النتائج النهائية. توقعنا أن يستغرق المشروع ثلاث أو أربع سنوات. وفي ذلك الوقت، اتخذ التحليل الجنائي الاستقصائي شكله الحديث.

7

قلب الظلام

كان السؤال المنطقي المطروح، لماذا يتعاون السجناء المدانون مع عملاء إنفاذ القانون الفيدراليين؟ هذا ما تساءلنا عنه بأنفسنا عند بدء المشروع. ومع ذلك، فإن الغالبية العظمى من أولئك الذين تواصلنا معهم عبر السنين وافقوا على الحديث إلينا، وقد فعلوا ذلك مدفوعين بعدد من الأسباب.

كان بعضهم منزعجًا في الأصل من جرائمهم وشعروا أن التعاون في دراسة نفسية كانت طريقة للقيام ببعض التعديلات الجزئية والوصول إلى فهم أفضل لأنفسهم. أعتقد أن إد كيمبر يندرج تحت هذه الفئة. آخرون، كما أشرت سابقًا، هم من المهووسين بالتماهي مع رجال الشرطة وعملاء إنفاذ القانون ممن يستمتعون بالوجود قرب رجال الشرطة وعملاء إف بي آي. بعضهم يظن أن هناك فائدة في التعاون مع «السلطات»، على الرغم من أننا لم نعِد بأي شيء في المقابل. بعضهم كان يشعر أنه متجاهل أو منسيّ ويرغب فقط فيما تمثله زيارة منا من الاهتمام والتخلص من الملل. وبعضهم كان ببساطة يرحب بفرصة استعادة خيالاته القاتلة بتفاصيل مفصلة مصورة.

كنا راغبين في سماع كل ما أراد هؤلاء الرجال إخباره لنا، لكننا كنا مهتمين بشكل رئيسي بأسئلة رئيسية عديدة، لخصناها في المقالة التي توضح أهداف الدراسة في عدد سبتمبر 1980 من نشرة *إنفاذ القانون التابعة لـ إف بي آي*.

ما الذي يؤدي بشخص ما لأن يكون معتديًا جنسيًّا وما هي العلامات التحذيرية الأولى؟

ما الذي يشجع أو يمنع ارتكاب جريمته؟

ما هي إستراتيجيات الاستجابة أو المواجهة الناجحة التي يمكن أن تتبعها الضحية المفترضة إزاء أي نوع من مرتكبي الجرائم الجنسية في تجنب الإيذاء؟

ما هي الآثار المترتبة على خطورته، وتقدمه، والتخلص منه وطريقة معالجته؟

فهمنا أنه من أجل أن يكون للبرنامج قيمة، يجب أن نكون مستعدين تمامًا وأن نكون قادرين على تصفية وتحليل ما يخبرنا به كل شخص بشكل فوري. لأنك إذا كنت ذكيًا كما ينبغي، كما الكثير من هؤلاء الأشخاص، فسوف تعثر على نقطة ضعف في المنظومة يمكنك استخدامها لمصلحتك. بطبيعتهم، فإن معظم المجرمين المتسلسلين متلاعبون بارعون. إذا كان سيفيد في قضيتك أن تكون غير مستقر عقليًا، فيمكن أن تكون غير مستقر عقليًا. وإذا كان سيفيد في قضيتك أن تكون نادمًا وتائبًا، فلتكن نادمًا وتائبًا. لكن مهما كانت بالنسبة إليهم الوسيلة الأفضل التي يفضلون اتباعها، فإني وجدت أن الأشخاص الذين وافقوا على التحدث إلينا كانوا جميعًا متشابهين. لم يكن لديهم أمر آخر يفكرون فيه، لذلك كانوا يقضون وقتًا طويلًا يفكرون في أنفسهم وما فعلوه وكان باستطاعتهم تلخيصه لي في دقيقة. كانت مهمتنا أن نعرف عنهم وعن جرائمهم مسبقًا بحيث يمكننا الجزم بأنهم يقولون الحقيقة، على اعتبار أنه كان لديهم الوقت الكافي لتركيب سيناريوهات بديلة جعلتهم أكثر تعاطفًا أو أقل عرضة للذنب مما كان يظهر في السجلات.

في الكثير من المقابلات الأولى، وبعد سماع قصة السجين، كنت أعود إلى بوب ريسلر أو أيًا من كان معي وأقول: «هل يمكن أن يكون متهمًا ظلمًا؟ إن لديه إجابة منطقية لكل شيء. أتساءل إن كانوا قد أوقعوا بالشخص المناسب». لذلك فإن أول ما كنا نفعله عند العودة إلى كوانتيكو هو أن نتفحص السجلات ونتصل بالهيئة القضائية المحلية بشأن ملف القضية ونتأكد من عدم وجود خطأ قضائي رهيب.

خلال نشأته في شيكاغو، كان بوب ريسلر مسكونًا برعب قضية مقتل الفتاة سوزان دينان، ذات الستة أعوام، التي اختُطفت من منزلها وقُتلت.

كان جسدها مقطعًا في مجاري إيفانستن. لاحقًا أُلقي القبض على شاب يُدعى وليم هيرنز واعترف بقتلها وقتل امرأتين أخريين في بناء سكني

كجزء من عمليات سطو خرجت عن السيطرة. في إحدى القضايا، عملية قتل فرانسيس براون، كتب على الجدار بأحمر شفاهها:

بحق السماء أمسكوا بي

قبل أن أقتل المزيد

لا أستطيع السيطرة على نفسي

عزا هيرنز جرائم القتل إلى جورج ميرمان (ربما اختصار لـ «ميردر مان»)، الذي زعم أنه عاش داخله. قال بوب إن قضية هيرنز كانت من المرجح من الدوافع المبكرة التي جعلته يبحث عن وظيفة في مجال إنفاذ القانون. وعندما تم تمويل مشروع أبحاث الشخصية الإجرامية والبدء فيه، ذهبت أنا وبوب إلى لقاء هيرنز في سجن ستاتسفيل في جوليت، إلينوي. كان مسجونًا هناك منذ إدانته في عام 1946 وكان سجينًا نموذجيًّا طوال ذلك الوقت، وكان أول من ينهي دراسته الجامعية، ثم واصل دراساته العليا.

في الوقت الذي كنا نجري فيه المقابلة معه، كان هيرنز ينفي أي علاقة بالجرائم، قائلًا إنه متهم ظلمًا. لا يهم ما كنا نسأله، فقد كانت لديه إجابة، وقد أصر على أن لديه حجة غياب ولم يكن قريبًا من أي موقع جريمة. كان مقنعًا للغاية وكنت قلقًا من احتمال وجود خطأ قضائي كبير، لذلك حين عدت إلى كوانتيكو، أخرجت جميع ملفات القضية. وعلى الرغم من وجود الاعتراف والأدلة الدامغة، فقد وجدت بصمات أصابعه التي رُفعت من موقع جريمة دينان. لقد قضى هيرنز وقتًا طويلًا جالسًا في زنزانته يفكر ويعطي نفسه كل الإجابات بحيث إذا ما أخضعوه لاختبار كشف الكذب، فإنه سيجتازه بكل سهولة.

قال ريتشارد سبيك، الذي كان يقضي عقوبة السجن المؤبد لقتل ثماني طالبات تمريض في منزل في ساوث شيكاغو عام 1966، بشكل واضح إنه لا يريد أن ندمجه مع القتلة الآخرين الذين كنا ندرسهم. «لا أريد أن أكون معهم على تلك القائمة»، كما أخبرني. «إنهم مجانين، هؤلاء الناس. لست قاتلًا متسلسلًا». لم ينفِ ما فعله، وإنما أراد منا أن ندرك أنه لم يكن يشبههم.

على مستوى رئيسي، كان سبيك محقًّا؛ إنه لم يكن قاتلًا متسلسلًا، الذي يقتل، بشكل متكرر بنوع من الإدراك العاطفي أو فترة التهدئة بين جرائمه.

كان ما صنفتُه كقاتل جماعي، الذي يقتل أكثر من مرتين كجزء من جرم القتل نفسه. في حالة سبيك، ذهب إلى المنزل بنيَّة السطو كدافع رئيسي، محاولًا الحصول على المال للخروج من البلدة. حين فتحتْ كورازون أموراو ذات الثلاثة والعشرين عامًا الباب، دفعها عن طريقه حاملًا مسدسًا وسكينًا، قائلًا إنه كان سيقيدها هي وزميلاتها الخمس. جمعهن في غرفة النوم. خلال الساعة التالية، جاءت ثلاث شابات أيضًا من مواعيد أو من الدراسة في المكتبة. حين أحكم سيطرته عليهن جميعًا، غيَّر سبيك رأيه على ما يبدو، وانخرط في موجة عاصفة من الاغتصاب، والخنق، والطعن، والذبح. وحدها أموراو نجت، المختبئة مذعورة في الركن، ويبدو أن سبيك أخطأ في العد.

بعد مغادرته، خرجت إلى الشرفة وصرخت طالبة المساعدة. أخبرت الشرطة عن وشم «وُلدتُ لأشعل الجحيم» على الساعد الأيسر للمهاجم. حين ظهر ريتشارد فرانكلين سبيك في مستشفى محلي بسبب محاولة انتحار فاشلة، تم التعرف عليه من خلال الوشم.

بسبب تلك الوحشية السافرة في جريمته، كان سبيك موضوعًا لجميع أنواع التكهن من الهيئات الطبية والنفسية. بشكل رئيسي، أُعلِن أن سبيك كان يعاني خللًا جينيًّا، كروموزوم (Y) إضافي، أدى لزيادة العنف والسلوك غير الاجتماعي. كانت هذه الأفكار الرائجة تتكرر بشيء من الانتظام.

قبل ما يزيد على مائة سنة، استخدم علماء السلوك علم فراسة الدماغ -دراسة شكل الجمجمة- للتنبؤ بالشخصية والقدرة العقلية. في الآونة الأخيرة، كان يُعتقد أن قراءة رسم التخطيط الكهربي للدماغ تظهر أن تكرار ظهور نمط موجات شوكية بترددات 6 و14 هيرتز قد يشير إلى وجود خلل خطير في الشخصية. كانت هيئة المحلفين لا تزال خارج موضوعXYY ، لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن هناك الكثير من الرجال الذين لديهم هذا التركيب الجيني ولا يظهِرون أيَّ عدوانية إضافية أو سلوكًا غير اجتماعي. وللبتِّ في ذلك، فقد أنجزنا دراسة مفصلة حول ريتشارد سبيك، وتوصلنا إلى أن التركيب الجيني كان طبيعيًّا للغاية؛ لم يكن لديه حتى كروموزوم Y زائد.

لم يكن سبيك، الذي توفي في سجنه بنوبة قلبية، يرغب في التحدث إلينا. كانت قضيته واحدة من القضايا غير المعتادة التي تواصلنا فيها مع السجَّان، الذي سمح لنا بالدخول، لكنه لم يعتقد أنها كانت فكرة جيدة أن ندع سبيك يعرف مسبقًا بزيارتنا. حين وصلنا، أُصبنا بالصدمة؛ كان يمكننا سماع صوت

صراخه وسبابه من غرفة احتجاز أُخذ إليها كيما نتمكن من إلقاء نظرة على زنزانته. كان السجناء الآخرون متعاطفين معه للغاية. أراد السجان أن يرينا المواد الإباحية التي كان سبيك محتفظًا بها، لكن هذا الأخير كان يحتج بعنف على انتهاك مساحته. يكره السجناء كل ما يمثل الابتزاز، إذ إنهم يرون في زنازينهم المظهر الوحيد الذي يمثل ما تبقى لهم من الخصوصية. بينما كنا نسير في عنبر الزنازين المكون من ثلاث طبقات، نوافذ مكسورة، وطيور تطير قرب السقف، حذرنا السجان طالبًا منا البقاء في الوسط لئلا يصيبنا السجناء بما قد يرمونه علينا من بول أو براز.

مدركًا أن هذا قد لا يوصلنا إلى شيء، همست للسجان أن نتابع سيرنا في الممر دون أن نتوقف أمام زنزانة سبيك. وفقًا للخطوات الإرشادية المطبقة اليوم في مقابلة موضوع الدراسة، لم نكن لنتمكن من أن نبرز أمامه دون سابق إعلان. في الواقع، سيكون تجميع عناصر دراسة الشخصية الإجرامية أمرًا في غاية الصعوبة.

وعلى النقيض من كيمبر أو هيرنز، لم يكن سبيك سجينًا نموذجيًا.

خبأ مرة قطعة مصغرة في الجزء الخلفي من درج خشبي مزيف في منضدة أحد الحراس. لم تكن تصدر رائحة كحولية، وإنما مجرد رائحة بسيطة كافية لإثارة انتباه الحراس ودفعهم للجنون وهم يبحثون عن مصدرها. في مرة أخرى، وجد عصفورًا صغيرًا مصابًا طار عبر النوافذ المكسورة، فاعتنى به حتى شفائه. عندما استعاد صحته بما يكفي ليقف، ربط خيطًا حول ساقه وجعله يجلس على كتفه. مرة قال له أحد الحراس إنه غير مسموح بالحيوانات الأليفة، «لا يمكنني الاحتفاظ به؟» تحداه سبيك، ثم مشى نحو مروحة تعمل وقذف العصفور الصغير فيها.

قال الحارس مرتعدًا: «ظننت أنك أحببت ذلك الطائر». أجاب سبيك: «أحببته، لكن إذا لم يكن بإمكاني الاحتفاظ به، فلن يستطيع أحد ذلك». قابلته أنا وبوب ريسلر في غرفة لقاءات في جوليت، برفقة مستشار السجن الخاص به، شيء يشبه مستشار التوجيه في المدرسة الثانوية. ومثلما فعل مانسون، اختار سبيك رأس الطاولة، جالسًا فوق طاولة صغيرة بحيث يستطيع أن يكون أعلى منا. بدأت بإخبار سبيك ما كنا نريده، لكنه لم يكن يرغب في التحدث إلينا، كان يواصل شتم «عملاء إف بي آي السفلة الذين أرادوا النظر في زنزانته».

حين أنظر إلى هؤلاء الأشخاص، عندما أجلس في مواجهتهم على طاولة في غرفة اجتماعات في السجن، كان أول ما يخطر في بالي أن أتصور كيف كان شكلهم عندما نفذوا جرائمهم. كنت قد أحطت جيدًا بملفات القضايا بحيث كنت أعرف ماذا فعل كل منهم وما هو قادر على فعله، وما كان عليَّ فعله هو أن أطبق هذه الأفكار على الفرد الجالس مقابلي.

كل استجواب جنائي هو نوع من الإغواء، إذ إن كل طرف يحاول إغواء الآخر لإعطائه ما يريده. كما يجب أن تُقيِّم الطرف الذي تتم مقابلته كيما تستطيع تحديد كيفية الاقتراب منه. لن يحقق السخط أو الحكم الأخلاقي شيئًا. («ماذا أيها الوحش السادي! هل أكلت ذراعًا؟») يجب أن تعرف ما الذي تثيره جملة مثل هذه. مع البعض، مثل كيمبر، يمكن أن تكون مباشرًا وصريحًا، ما دمتَ توضح امتلاكك للمعرفة والحقائق ولا تراوغ في ذلك.

أما مع شخص مثل ريتشارد سبيك، فقد تعلمت اتباع نهج هجومي أكثر. نحن جالسون في غرفة اجتماعات وسبيك يتفنن في إظهار تجاهله لنا، لذلك التفت إلى المستشار. كان رجلًا منفتحًا واجتماعيًا، خبير تفكيك جو العدائية، وهي صفات نبحث عنها لدى المفاوضين في قضايا الرهائن. تكلمت عن سبيك كما لو أنه ليس في الغرفة.

«هل تعرف ماذا فعل صاحبك؟ لقد قتل ثماني فتيات. وبعضهن كن جميلات للغاية. لقد حرمنا من ثماني صبايا جميلات. هل تعتقد أن هذا عادل؟»

من الواضح أن بوب لا يشعر بالارتياح لهذا؛ إنه لا يريد أن ينزل إلى مستوى القاتل، كما أنه ممتعض لكلامنا المتهكم عن القتيلات. أنا أتفق مع هذا طبعًا، لكن في مواقف مثل هذه، يجب أن تفعل ما يجب عليك أن تفعله.

أجابني المستشار بكلام مشابه وهكذا بدأنا نتبادل الحديث بالطريقة ذاتها. بدونا مثل فتيان في غرفة تبديل الملابس في المدرسة الثانوية، كما لو أننا لم نكن نتكلم عن ضحايا جريمة قتل، الأمر الذي كان يغير نبرة الحديث لتكون غير ناضجة، وفجة.

استمع لنا سبيك لوهلة، هز رأسه، ضحك وقال: «أنتم مجانين. لا بد أنه سطر جيد، يفصلكم عني».

بهذه الافتتاحية، استدرت إليه: «كيف بحق الجحيم ضاجعت ثماني نساء في نفس الوقت؟ ماذا؟ هل كنت تتناول فطورك؟».

نظر إلينا كما لو كنا ساذجين. «لم أضاجعهن جميعًا. لقد حصل مبالغة في القصة. لقد ضاجعت واحدة منهن فقط».

سألت: «تلك التي على الأريكة؟» فقال: «أجل».

ومع أن هذا كان يبدو فظًا ومثيرًا للاشمئزاز، فإنه بدأ يخبرنا شيئًا ما.

قبل أي شيء، على الرغم من كل الوحشية والعدوانية التي لديه، فإنه ليس لديه تقدير زائد لذاته. إنه يدرك أنه ليس بمقدوره التحكم في جميع النسوة في الآن ذاته.

إنه انتهازي؛ سيغتصب واحدة بكل وحشيته. وحسب صور موقع الجريمة، نعرف أن التي اختارها كانت مستلقية ووجهها لأسفل. كانت بالنسبة إليه جسدًا بلا هوية. لم يقم بأي تواصل إنساني معها. يمكننا أن نقول عنه أيضًا إنه لم يكن مفكرًا محنكًا أو منظمًا. لا يتطلب الأمر كثيرًا ليكون مجرد عملية سطو بسيطة وناجحة تحولت لتصبح جريمة جماعية. أقر أنه لم يقتل النساء بدافع جنسي، وإنما لأنهن لم يعترفن به. وبينما كانت الممرضات الشابات يعدن إلى المنزل، كان يضع واحدة في غرفة النوم، وواحدة في الخزانة، كما لو كان يحبس خيولًا في الإسطبل. ولم تكن لديه فكرة كيف سيتعامل مع الوضع. كما أنه يزعم، بشكل مثير للاهتمام، أن الجرح الذي أوصله إلى المستشفى وقاد إلى الإمساك به لم يكن محاولة انتحار، وإنما نتيجة شجار في الحانة. ودون فهم أهمية ما يقوله بالضرورة، فإنه يخبرنا أنه يريد منا التفكير فيه على أنه رجل «وُلِد ليشعل الجحيم» أكثر من كونه فاشلًا مثيرًا للشفقة كان مخرجه الوحيد هو أن يقتل نفسه.

الآن، بينما أستمع، أبدأ بتقليب هذه المعلومات كلها في رأسي. إنها لا تخبرني شيئًا عن سبيك وحسب، وإنما تخبرني شيئًا عن هذا النمط من الجرائم. بمعنى آخر، حين أرى سيناريوهات مشابهة في المستقبل، سيكون عندي المزيد من الأفكار بشأن هذا النوع من المسؤولية الفردية.

كما أن ذلك، بالطبع، كان الهدف الرئيسي من البرنامج.

ومع مواصلتنا جمع بيانات الدراسة، حاولت أن أبتعد عن المصطلحات الأكاديمية والرطانة النفسية والاتجاه أكثر نحو المفاهيم الواضحة التي قد

تفيد موظفي إنفاذ القانون، إذ إن إخبار محقق محلي أنه يبحث عن شخص مصاب بانفصام الشخصية وجنون العظمة قد يكون مثيرًا للاهتمام فكريًا، إلا أن هذا لن يكون بمثل جدوى إخباره عن ضرورة الإمساك بالجاني مجهول الهوية. من الفروقات الرئيسية التي توصَّلنا إليها هي ما إذا كان المجرم *منظمًا* أو غير منظم أو ما إذا أظهر نموذجًا مختلطًا. كان شخص مثل سبيك قد بدأ يعطينا هذا النموذج من الجاني غير المنظم.

أخبرني سبيك أنه عاش حياة مبكرة مضطربة. كانت المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأني لمست جانبًا حساسًا لديه حين سألته عن عائلته. حين بلغ العشرين، كان قد أوقف نحو أربعين مرة وتزوج فتاة في الخامسة عشرة وأنجب منها طفلًا. تركها بعد خمسة أعوام، غاضبًا وشاعرًا بالمرارة، وأخبرنا أنه لم يكن يفكر في قتلها. قتل عدة نساء أخريات، منهن نادلة في حانة رخيصة رفضت تقربه منها. كما أنه كان قد سرق وقتل امرأة في الخامسة والستين قبل أن يقتل الممرضات ببضعة أشهر. كانت كل هذه الأمور متساوية، اقترح اغتصاب سيدة كبيرة في السن أنه شاب، ربما مراهق حتى، لا يتمتع بالخبرة الكبيرة أو الثقة بالنفس أو الحنكة. كان سبيك في السادسة والعشرين حين ارتكب جريمة الاغتصاب. ومع ارتفاع عمر الجاني في المعادلة، فإن حنكته وثقته تخفضان. كان ذلك بالتأكيد هو انطباعي عن ريتشارد سبيك. مع أنه في منتصف العشرينيات من عمره، فإن مستوى سلوكه، حتى كمجرم، كان مراهقة متأخرة. أراد السجان أن يريني شيئًا قبل أن نغادر. في جوليت، كما في السجون الأخرى، كانت هناك تجارب نفسية تُجرى لمعرفة إن كانت الألوان الناعمة تؤثر في تخفيف العدائية. كان هناك كم كبير من النظريات الأكاديمية التي تدعم ذلك، حتى إنهم وضعوا أبطال رفع أثقال من رجال الشرطة في غرف مطلية بالوردي أو الأصفر ووجدوا أنهم لم يستطيعوا رفع الأثقال كما كانوا يفعلون في السابق.

لذا، أخذنا السجان إلى الغرفة في نهاية عنبر الزنازين وقال: «من المفروض أن يقلل الطلاء الوردي من عدوانية المجرم العنيف. وإذا وضعتهم في غرفة مثل هذه، من المفروض أن يهدؤوا ويستكينوا. ألقِ نظرة داخل هذه الغرفة، دوجلاس، وأخبرني ماذا ترى».

«أرى أنه لا يوجد الكثير من الطلاء على الجدران» قلت ملاحظًا.

أجابني: «نعم، هذا صحيح. هل ترى؟ هؤلاء الأشخاص لا تعجبهم هذه الألوان. إنهم يقشرونها عن الجدار، ويأكلونها»!

***

كان جيري برودوس ذا ميول فتيشية نحو الأحذية، ولم يكن ليرى مشكلة في الذهاب في ذلك إلى أبعد درجة. لكن بسبب عدد من الظروف المتنوعة، منها والدته المسيطرة المعاقبة بالإضافة إلى حالاته القهرية، فقد ذهب ذلك إلى ما هو أبعد بكثير من الهوس الناعم الغريب وصولًا إلى الهوس القاتل.

وُلد جيروم هنري برودوس في ساوث داكوتا في 1939 ونشأ في كاليفورنيا. كان صبيًّا في الخامسة من العمر حين رأى زوجين من الأحذية النسائية اللامعة في مكب نفايات قريب. عندما جلبهما إلى المنزل وجربهما، طلبت منه أمه، غاضبة، أن يتخلص منهما. لكن احتفظ بهما، مخبَّأين، حتى اكتشفتهما أمه، فأخرجتهما وأحرقتهما وعاقبته. حين بلغ السادسة عشرة، وكان آنذاك يعيش في أوريغون، كان يقتحم منازل في الحي ويسرق أحذية النساء، ثم ملابسهن الداخلية، ويحتفظ بها ويجرب ارتداءها. في السنة التالية اعتُقل للاعتداء على فتاة أغراها بالدخول إلى سيارته ليراها عارية. تلقى عدة أشهر من العلاج في مستشفى الولاية في سالم، حيث لم يتبين أنه خطير. بعد المدرسة الثانوية، أمضى فترة قصيرة في الجيش قبل أن يسرَّح لأسباب نفسية. كان لا يزال يقتحم المنازل، ويسرق الأحذية والملابس الداخلية (كان أحيانًا يواجه اللائي يجدهن هناك ويخنقهن حتى يفقدن الوعي) ثم، بدافع الإحساس بالالتزام، تزوج شابة كان قد تسبب في فقدان عذريتها. التحق بكلية مهنية وأصبح فني إلكترونيات.

بعد ست عشرة سنة، في 1968، وقد أصبح أبًا لطفلين واستمر برحلاته الليلية مطاردًا الهدايا التذكارية، فتح برودوس الباب لشابة تبلغ التاسعة عشرة واسمها ليندا سلاوسون، كانت تبيع الموسوعات ووصلت بالصدفة إلى المنزل الخطأ. اغتنم هذه الفرصة، جرَّها إلى القبو، وضربها ثم خنقها. عندما ماتت، جرَّدها من ثيابها وجرب مختلف الملابس التي جمعها على الجثة. قبل أن يتخلص من الجثة برميها في نهر ويلميت مع ترس ناقل حركة قديم، قطع قدمها اليسرى، ووضعها في أحد الأحذية التي كان قد سرقها ثم خبأها في الثلاجة.

قتل ثلاث نساء أخريات في الأشهر التالية، كان يقطع الثديين ويصنع لهما قوالب بلاستيكية. تعرَّف إليه العديد من الطالبات اللائي اقترب منهن طالبًا موعدًا مستخدمًا قصة مشابهة لتلك التي رتبتها الشرطة للقبض عليه في موقع لقاء مفترض. اعترف وأُدين أخيرًا حين صار واضحًا أن استخدام حالة الجنون في الدفاع عنه لن تكون مجدية.

قابلته أنا وبوب ريسلر في مكان إقامته الدائمة في سجن أوريغون في سالم. كان ضخم البنية ووجهه مدور، مهذبًا ومتعاونًا. لكن حين طرحنا بعض الأسئلة المحددة عن جرائمه، قال إنه فقد الوعي بسبب نقص السكر في الدم ولا يتذكر أي شيء مما فعله.

«تعلم يا جون؟ تعرضت لهجوم نقص السكر إياه، وكان يمكنني أن أسير على سطح بناء بلا معرفة مني بما كنت أفعله». المثير في الأمر أنه حين اعترف برودوس للشرطة، تذكر جيدًا بما يكفي لإعطائهم تفاصيل دقيقة للجرائم وأين يمكن إيجاد الجثث والأدلة. كما أنه جرَّم نفسه دون قصد! كان قد علق إحدى جثث ضحاياه من خطاف في الجراج، ألبسها ثوبًا وحذاء، ثم وضع مرآة على الأرض ليرى انعكاس الثوب، إلا أنه خلال التقاطه الصورة، ظهر في الصورة دون أن يلاحظ.

على الرغم من ادعاءاته بشأن انخفاض السكر في الدم، أظهر برودوس علامات عديدة تدل على أنه مجرم منظم. ارتبط هذا بعنصر الخيال الذي كان لديه منذ سن مبكرة. حين كان مراهقًا يافعًا يعيش في مزرعة العائلة، كان يتخيل أنه يمسك بالفتيات الصغيرات في نفق ويجبرهن على فعل ما يريد. ذات مرة، تمكن من خداع فتاة في الحظيرة، ثم أمرها أن تخلع ثيابها كي يتمكن من التقاط صورة لها. سوف نرى أنه يواصل هذا السلوك في جرائمه كشخص راشد، لكنه خلال كونه مراهقًا، فقد كان ساذجًا وبسيطًا حيث إنه لم يفكر في أي شيء آخر سوى التقاط صور لضحاياه العاريات.

بعد انتهاء الجلسة في الحظيرة، حبس الفتاة ثم عاد بعد قليل، مرتديًا ملابس مختلفة ومسرحًا شعره بشكل مختلف، متظاهرًا أنه إد، شقيق جيري التوأم. أطلق سراح الفتاة المذعورة موضحًا لها أن جيري يخضع لعلاج مكثف ومتوسلًا إليها ألا تخبر أحدًا لئلا يتورط في مشكلة ويمر بـ «انتكاسة» أخرى.

ما نلاحظه بوضوح في حالة جيروم برودوس، بجانب هذا التصعيد في الأنشطة، هو تحسنه المستمر للخيال. كان هذا أكثر أهمية بكثير من أي

شيء سيخبرنا به مباشرة. وعلى الرغم من أن كيمبر وبرودوس مختلفان كليًّا في الهدف وطريقة العمل، فإننا نرى لديهما -وعند آخرين كثر- هوسًا في «تحسين» التفاصيل من جريمة لأخرى ومن مستوى نشاط إلى آخر. كانت الضحايا اللواتي اختارهن كيمبر طالبات جميلات ارتبطن في عقله بوالدته. بينما كان بوردوس أقل ذكاء وفطنة وكان مهتمًا أكثر بضحايا الصدفة. لكن الهوس بالتفاصيل كان موجودًا عند كليهما واستولى على حياتهما.

كشخص بالغ، جعل بوردوس زوجته داريس ترتدي الثوب الذي كان يعبر عن فتيشيته وأخضعها لطقوس جلسة التصوير الفوتوغرافي، على الرغم من أنها كانت امرأة مستقيمة، لا تحب المغامرات ولم تكن مرتاحة لذلك وشعرت بالخوف من زوجها. كان لديه خيالات متصاعدة بشأن عمل بذلة للتعذيب لكن كان عليه أن يستقر في الجراج. في ذلك الجراج كانت الثلاجة المقفلة التي يستطيع أن يحفظ فيها قطع الأجساد المفضلة لديه. حين كانت داريس تريد أن تطبخ اللحم، كانت مضطرة لأن تقول له ذلك كي يحضر لها اللحم بنفسه. كانت داريس تشكي دائمًا قائلة إن من الأسهل لها أن تفتح الثلاجة وتختار قطعة اللحم التي تريدها. ومع عدم قناعتها بما يجري، فإنها لم تر الأمر غريبًا كفاية لتخبر الشرطة. أو لعلها فكرت في ذلك فعلًا، لكنها خشيت من فعل ذلك.

كان برودوس مثالًا كلاسيكيًّا للمجرم الذي يبدأ بشذوذ غير ضار ثم يتصاعد تدريجيًّا وباستمرار؛ من الحذاء الذي عثر عليه إلى ملابس أخته إلى امتلاك نسوة أخريات.

في البداية، كان يسرق من حبال الغسيل، ثم كان يطارد النساء اللائي ينتعلن أحذية كعب عالٍ ثم يقتحم المنازل الفارغة، ثم أصبح أكثر جرأة وبات يرغب في مواجهة سكان تلك المنازل. في البداية، كان ارتداء الملابس كافيًا بالنسبة إليه، لكنه أخذ بالتدريج يرغب فيما هو أبعد. اجتماعيًّا، بدأ يطلب من الفتيات التقاط صور لهن. ثم حين ترفض إحداهن أن تتعرى له، يهددها بسكين. إنه لا يقتل إلى أن تدق ضحية عابرة بابه. لكنه حين يقتلها ويصل إلى حالة الإشباع، يتحرك لفعل ذلك مرة بعد أخرى، مصعدًا في كل مرة في تشويه الجثة.

أنا لا أعني أن كل رجل قد يشعر بالانجذاب للأحذية ذات الكعب العالي أو أنه يُثار لرؤية حمالات الصدر والسراويل الداخلية السوداء مقدر عليه

حياة الجريمة. لو كان هذا صحيحًا، لكان معظمنا في السجن. لكن كما نرى في حالة جيري برودوس، فإن هذا النوع من الميول الجنسية غير الطبيعية (بارافيليا) قد يكون ارتجاليًّا، كما أنه قد يكون «عرضيًّا». وسأقدم مثالًا على ذلك.

قبل فترة، ليس بعيدًا عن مسكني، سمعت عن مدير مدرسة ابتدائية لديه شيء يتعلق بأقدام الأطفال. كان يلعب معهم ليرى كم بإمكانه أن يدغدغ أقدامهم أو أصابع أقدامهم. إذا صمدوا لوقت محدد، سيمنحهم المال. انتبه بعض الأهل لذلك حين اكتشفوا أن أطفالهم كانوا ينفقون في المجمع التجاري مالًا لم يمنحوهم إياه. عندما طُرِد المدير من قِبل إدارة منطقة المدرسة، احتج العديد من الناس. كان رجلًا وسيمًا، وكانت لديه علاقة طيبة ومستقرة بحبيبته، وكان ودودًا تجاه الأطفال ويعاملهم بأبوة. اعتقد المعلمون أنه تعرض للإجحاف. حتى إذا كان يقوم بذلك الفعل حقًّا تجاه أصابع الأقدام، فإن ذلك لم يكن مؤذيًا. فهو لم يسئ التصرف تجاه أي من الأطفال كما أنه لم يحاول جعلهم يخلعون ثيابهم. إنه ليس من النوع الذي سيخرج ويختطف طفلًا ليرضي انحرافه.

اتفقتُ مع هذا التقييم. لم يكن المجتمع عرضة للخطر من طرفه. قابلته وكان ودودًا ولطيفًا. لكن لنفترض أنه خلال إحدى هذه الألعاب، تفاعلت فتاة صغيرة معه بشكل سيئ وبدأت تصرخ أو تهدد بالإخبار عنه.

في لحظة ذعر، قد ينتهي به الأمر وقد قتل الطفلة لأنه ببساطة لم يعرف كيف عليه أن يعالج الموقف. حين اتصل مدير المدرسة بوحدتي يسألني النصيحة، أطلعته على رأيي بأنه اتخذ الإجراء المناسب بفصل الرجل.

في الوقت ذاته تقريبًا، اتصلوا بي من جامعة فرجينيا، حيث حصلت حادثة دفع طالبات وإيقاعهن على الأرض وسرقة أحذيتهن في هذا الاشتباك. لحسن الحظ، لم تُصب أي منهن بأذى، وقد تعامل حرم الجامعة مع الأمر على أنه نوع من المزاح. التقيت بهن وبإدارة الجامعة، أخبرتهن عن برودوس وآخرين ممن تعاملت معهم، وعندما غادرت كنت قد نجحت في مهمتي التي تمثلت في زرع الخوف من الرب في قلوبهم. تغير الموقف الرسمي كليًّا بعد ذلك، ويسعدني أن أقول إنه لم تقع أي حوادث أخرى بعد ذلك. عندما أنظر إلى تطور جيري برودوس الإجرامي، أضطر إلى أن أسأل نفسي ما إذا كان

فهم أي مراحل أولى أو التدخل فيها كان ليجعل العملية النهائية أقصر مما هي عليه.

في حالة إد كيمبر، شعرت أني رأيت قاتلًا متسلسلًا يُصنع من خلال طفولة مروعة عاطفيًّا. فيما رأيت حالة جيري برودوس معقدة أكثر. من الواضح أن حالة البارافيليا موجودة معه منذ سن مبكرة للغاية. كان طفلًا صغيرًا عندما انبهر بزوجَي الأحذية ذات الكعب العالي الذي عثر عليهما في ساحة الخردة. لكن جزءًا من هذا الانبهار لم يكن ليحدث لو أنه رأى مثلهما من قبل. لم تكونا قط شبيهتين بما كانت تنتعله والدته. ثم حين تصرفت بشكل شديد الفظاظة، أصبحت فاكهة محرمة بالنسبة إليه. لم يمر زمن طويل قبل أن يسرق حذاء لمعلمته. ومع ذلك فحين اكتشفتْ الأمر، فوجئ برد فعلها. بدلًا من توبيخه، كانت فضولية لمعرفة سبب فعله ذلك. لذلك فقد تلقى رسائل مختلطة من نساء بالغات بشأن ما كان يفعله، وبالتالي فإن الدافع الداخلي فيه قد بدأ يكبر تدريجيًّا إلى شيء شرير وأكثر فتكًا.

ماذا كان سيحدث لو تم إدراك خطورة تطوره، وكانت هناك بعض الوسائل المجدية التي يمكن أن تتعامل مع مشاعره؟ في أوان ارتكابه أول جريمة قتل، كان الوقت قد فات تمامًا. لكن في أي مرحلة خلال هذه الرحلة، هل كان ممكنًا أن تكون تلك العملية أقصر؟ خلال الدراسة وعبر عملي منذ ذلك الحين، أصبحت متشائمًا جدًّا جدًّا بشأن أي شيء قريب من إعادة تأهيل معظم القتلة ذوي الدوافع الجنسية. لو أن هناك ما يمكن أن ينجح، فقد كان لا بد أن يحدث في مرحلة مبكرة جدًّا، قبل وقت طويل من المرحلة التي تصبح فيها الخيالات واقعًا.

عندما كانت شقيقتي آرلين مراهقة، اعتادت أمي أن تقول إن بإمكانها معرفة الكثير عن الأولاد الذين تخرج معهم آرلين عبر سؤالهم عن مشاعرهم تجاه أمهاتهم. إذا عبَّر الفتى عن محبته واحترامه لوالدته، فإن هذا سينعكس على الأرجح على علاقتهم مع بقية النساء في حياتهم. إذا فكر بأمه كبغي أو ساقطة أو عاهرة، فإن من المرجح جدًّا أن ينتهي به المطاف وهو يعامل النساء بالطريقة ذاتها.

من وحي تجربتي، كانت ملاحظة أمي في محلها تمامًا. قطع إد كيمبر شوطًا كبيرًا في سانتا كروز، كاليفورنيا، قبل أن يمتلك الجرأة أخيرًا ليقتل المرأة التي كان يكرهها حقًّا. أخبرنا مونتي ريسل (الذي اغتصب وقتل خمس

نساء في مراهقته في الإسكندرية، فيرجينيا) أنه لو قُدِّر له أن يعيش مع أبيه بدلًا من أمه بعد فشل زواجهما، لكان الآن ربما محاميًا بدلًا من سجين يقضي حكم سجنه المؤبد في سجن ريتشموند، حيث أجرينا المقابلة معه.

مع مونتي رالف ريسل، تمكنا من البدء بجمع قطع الأحجية مع بعض. في السابعة، كان مونتي الأصغر بين ثلاثة أطفال عند حصول الطلاق، وقد اقتلعته أمه من محيطه وانتقلت إلى كاليفورنيا، حيث تزوجت من جديد وقضت الكثير من الوقت مع زوجها الجديد، تاركة الأطفال مع مشرفة كبيرة. بدأ مونتي يتورط في المشكلات مبكرًا: كتابة فاحشة على جدران المدرسة، ثم المخدرات، ثم إطلاق النار على قريب له ببندقية BB بعد جدال نشب بينهما.

زعم أن زوج والدته أعطاه البندقية، بعد حادثة إطلاق النار، حطمها وضرب مونتي بشكل متكرر بسبطانة البندقية.

عندما بلغ مونتي الثانية عشرة، انتهى ذلك الزواج الثاني وعادت العائلة إلى فيرجينيا. أخبرنا مونتي أنه اعتقد أنه وأخته مسؤولان. من الآن فصاعدًا، تصاعدت مسيرته الإجرامية: القيادة دون شهادة، والسطو، وسرقة السيارات، والاغتصاب.

كان تحوله إلى القتل مفيدًا له جدًّا. كان لا يزال في المدرسة الثانوية، تحت المراقبة، وتلقى الإرشاد النفسي كشرط لإطلاق السراح تحت المراقبة. تلقى رسالة من حبيبته (إنها أكبر منه بسنة وهي الآن بعيدة في الجامعة)، كان مفاد الرسالة أن علاقتها بمونتي قد انتهت. ركب سيارته بسرعة وقاد إلى الجامعة، حيث لمحها هناك مع حبيب جديد.

وبدلًا من فعل أي شيء أو تفريغ جام غضبه على الشخص الذي تسبب به، فقد عاد إلى الإسكندرية، يحصن نفسه بشرب البيرة والماريجوانا، قضى ساعات جالسًا في سيارته في موقف السيارات في مجمع الشقق الذي يسكن فيه.

في الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا، كان ما يزال هناك حين ظهرت سيارة، تقودها امرأة. في تلك اللحظة، قرر مونتي استعادة ما فقده للتو. توجه إلى سيارة المرأة، وجَّه إليها مسدسًا، وأجبرها على أن تدخل معه إلى منطقة منعزلة قرب المجمع.

كان ريسل هادئًا ومتأنيًا ودقيقًا خلال استعادته للأحداث مع بوب ريسلر ومعي. تفحصت معدل ذكائه، وكان فوق 120. لا أستطيع الجزم بأنني لمست لديه نوعًا من الندم أو الأسف العميق، باستثناء لدى المجرمين النادرين الذين يسلمون أنفسهم أو ينتحرون، غالبًا ما يكون ندمهم بسبب وقوعهم في قبضة العدالة وذهابهم إلى السجن. لكنه لم يحاول أن يقلل من جرائمه وشعرت أنه كان يعطينا وصفًا دقيقًا. وقد تضمن السلوك الذي وصفه، والذي سيصفه لاحقًا، العديد من الأفكار الرئيسية.

قبل أي شيء، يقع هذا الحدث بعد مناسبة محفزة أو حادث ما، ما توصلنا لتسميته عامل الضغط. وكنا سنرى هذا النمط يتكرر كثيرًا بعد ذلك. يمكن لأي شيء أن يكون عامل ضغط محفزًا؛ أشياء عديدة تزعج أيًا منا. لكن الاثنين الأكثر شيوعًا، وهو أمر غير مفاجئ، هما فقدانك عملك وفقدانك زوجتك أو حبيبتك. (أستخدم صيغة التأنيث هنا لأنني كما لاحظت، فإن معظم هؤلاء القتلة من الرجال، لأسباب سأتطرق إليها لاحقًا).

كنتيجة لدراسة أشخاص مثل مونتي ريسل، توصلنا إلى أن عوامل الضغط هذه تعد جزءًا من ديناميكية القتل المتسلسل، حيث إنه حين نلاحظ ظروفًا معينة في موقع الجريمة، يمكننا أن نتنبأ بالضبط ما كان عامل الضغط في تلك القضية بالخصوص. في قضية قتل جود راي في ألاسكا، التي ذكرتها في الفصل الرابع، كان التوقيت وتفاصيل الجريمة الثلاثية لامرأة وابنتيها هو ما قاد إلى حقيقة أن القاتل قد فقد حبيبته ووظيفته. حدثت له هاتان الصدمتان. في الحقيقة، تركت الحبيبة الرجل من أجل مديره، الذي أطلق عليه النار لاحقًا لإخراجه من الصورة.

لذلك ففي الليلة التي رأى فيها حبيبته مع شاب آخر في الكلية، ارتكب مونتي ريسل جريمته الأولى. وهذا مهم في حد ذاته. لكن كيف ولماذا حصل ذلك بالضبط، فهو ما سيخبرنا بالمزيد.

اتضح بالمصادفة أن ضحية ريسل كانت مومسًا، ما يعني أمرين: لن يكون لديها الخوف ذاته من ممارسة علاقة جسدية مع غريب مثل أي شخص من خارج المهنة، وعلى الرغم من خوفها، فإنه على الأرجح سيكون لديها غريزة قوية للبقاء على قيد الحياة. لذلك حين استفرد بها وكان واضحًا أنه ينوي أن يغتصبها تحت تهديد السلاح، حاولت تخفيف الموقف عبر رفع تنورتها

وسؤال مهاجمها كيف يحب أن يكون الأمر وما هو الوضع الذي يفضل أن تكون فيه.

«سألتني عن الطريقة التي أريد أن أفعل بها ذلك» قال لنا.

لكن بدلًا من أن يجعله ذلك ألطف وأكثر حساسية، فإن هذا السلوك أزعجه بالفعل. «بدا أن العاهرة تريد السيطرة على الوضع».

يبدو أنها قامت بتزييف الاستمتاع لتهدئته، لكن هذا زاد الوضع سوءًا، فلو كانت «تستمتع» بهذا الاغتصاب، فقد عزز هذا شعوره أن النساء ساقطات.

لقد أصبحت بذلك عديمة الشخصية، ومن ثَم كان من السهل أن يفكر في قتلها. ومع ذلك فقد ترك ضحية أخرى تذهب حين أخبرته أنها تعتني بأبيها، الذي كان يعاني السرطان. كان بذلك ذات سمة شخصية بالنسبة إليه، على النقيض تمامًا من هذه العاهرة، أو الممرضة التي هاجمها ريتشارد سبيك حين استلقت على الأريكة ووجهها للأسفل.

لكن هذا يوضح سبب صعوبة أن تعطي نصائح عامة في وضع الاغتصاب. اعتمادًا على شخصية المغتصب ودوافعه للجريمة، فقد يكون أفضل مسار للفعل هو مسايرته أو التحدث معه خلال الاعتداء. أو قد يدفع هذا الأمورَ نحو الأسوأ. أو قد تعمل مقاومته أو مكافحته بما يسمى بـ «المغتصب المطمئن للسيطرة» على منعه. مقاومة «المغتصب المستثار بالغضب»، ما لم تكن الضحية قوية بما يكفي أو سريعة كفاية للنجاة منه، قد تسبب قتله للضحية. إن محاولة جعل الفعل يبدو ممتعًا لأن المغتصب قاصر جنسيًّا ليست بالضرورة الإستراتيجية الأفضل. إنها جرائم غضب وعدوانية وتأكيد السلطة. أما الجنس فهو عرضي.

بعد اغتصاب المرأة التي خُطفت من موقف السيارات، لم يكن ريسل، وهو في فورة الغضب، قد قرر ما سيفعل بضحيته بعد. لكنها في تلك اللحظة فعلت ما سيظن معظمنا أنه الشيء المنطقي: لقد حاولت أن تهرب بعيدًا. دفعه هذا لمزيد من الشعور أنها هي من يسيطر على الوضع، لا هو. وبحسب الكلام الذي نقلناه عن ريسل في مقالة عن الدراسة في *المجلة الأمريكية لعلم النفس*: «أخذت تركض في وهد، ثم أمسكت بها هناك. طوّقتها بذراعي. كانت أضخم مني. بدأت أخنقها... تعثرت وتدحرجنا معًا عبر التل وفي الماء. ضربت رأسها بجانب صخرة ثم وضعت رأسها تحت الماء».

ما كنا نتعلمه هو أن سلوك الضحية لا يقل أهمية في تحليل الجريمة عن سلوك الجاني. هل كانت تلك ضحية ذات خطر مرتفع أم منخفض؟ ما الذي قالته أو فعلته؟ وهل دفع ذلك الجاني للمضي قدمًا أم دفعه للتراجع؟ ما سبب تلك المواجهة؟

كانت ضحايا ريسل اللائي اختارهن قريبات من منطقته أو مجمعه السكني، وبمجرد أن ارتكب جريمة القتل، فقد اختفى ذلك التابو. لقد أدرك أن باستطاعته فعلها، استمتع بذلك، ثم نجا بفعلته. لو استُدعينا إلى قضيته وكنا نحدد الملف التنميطي للجاني مجهول الهوية، كنا سنتوقع أن نلاحظ بعض الخبرة والتجربة في خلفيته -بعض الجرائم العنيفة التي تخلو من القتل- التي في الحقيقة كانت موجودة حقًّا. بصراحة شديدة، ما كنا سنخطئ فيه، مبدئيًا على الأقل، كان سنه، ففي وقت ارتكابه جريمة القتل الأولى، كان ريسل بالكاد في التاسعة عشرة. كنا نتوقع رجلًا في أواسط أو أواخر عشرينياته. لكن قضية ريسل تعرض أن السن مسألة نسبية في عملنا. في عام 1989، استُدعي جريج مكراري من وحدتي إلى سلسلة من جرائم قتل البغايا في روشستر، نيويورك. عبْر عمله من قرب مع النقيب ليند جونسن وفرقة الشرطة من المستوى الأول، طوَّر جريج ملفًا تفصيليًّا واقترح إستراتيجية قادت في النهاية إلى اعتقال آرثر شاوكروس ومقاضاته بنجاح. عندما راجعنا ملفه فيما بعد، وجدنا أن جريج قد أصاب في تحديده بشكل تام تقريبًا (العرق، الشخصية، نمط العمل، حياته المنزلية، السيارة، الهوايات، معرفته بالمنطقة، علاقته بالشرطة، كل شيء تقريبًا ما عدا عمره). لقد تنبأ جريج برجل بين أواخر عشرينياته ونحو الثلاثين مع مستوى مريح ليرتكب جريمة القتل. في الحقيقة، كان شاوكروس في الخامسة والأربعين. اتضح أنه قضى في السجن خمس عشرة سنة بسبب قتله طفلين (مثل البغايا والعجائز، يعدُّ الأطفال أهدافًا قيمة)، الأمر الذي أدى إلى إيقافه. خلال أشهر إطلاق السراح المشروط، واصل من حيث توقف. ومثلما كان آرثر شاوكروس في فترة إطلاق السراح المشروط، كان موني ريسل وإد كيمبر. كان قادرًا على إقناع الأطباء النفسيين أنه يبلي بلاء ممتازًا في تقدمه بينما كان في الواقع يقتل الناس. تلك كانت نسخة سيئة من تلك النكتة القديمة حول كم طبيبًا نفسيًّا يحتاج الأمر لتبديل مصباح كهربائي؟ الإجابة هي طبيب نفسي واحد، لكن فقط إذا كان المصباح يريد التغيير. كان الأطباء النفسيون واختصاصيو الصحة العقلية

معتادين اســتخدام التقارير المقدَّمــة من طرف الجاني لمتابعة تقدمه، وأن هذا يفترض رغبة الشخص في أن يكون «بخيــر». اتضح أن هذه طريقة في غاية السهولة لخداع الكثير من الأطباء النفســيين، وسيقول الأطبــاء الجيــدون منهم إن المؤشر المعقول نسبيًّا للتنبؤ بالعنف هو تاريخ العنف السابق. من الأشياء التي نأمل أننا حققناها عبر دراسة الشخصية الإجرامية وعملنا ككل منــذ ذلك الحيــن هو أن نجعــل منظومة الطب العقلي مدركة لحدود التقارير الذاتية، لا سيما حين يتعلق الأمر بالسلوك الإجرامي، إذ إنه بطبيعته يعد القاتل المتسلسل متلاعبًا ونرجسيًّا وأنانيًّا للغاية. سوف يقول لأي ضابط إطلاق السراح المشروط أو الطبيب النفسي في السجن كل ما كان يرغب أو ترغب في سماعه، كل ما يتطلبه الأمر للخروج من السجن أو البقاء في الشوارع.

ومع وصف ريسل لجرائم قتله التالية لنا، فقد لاحظنا وجود تقدم ثابت. لكنه كان منزعجًا من ضحيته الثانية التي حاصرته بالأسئلة: «أرادت أن تعرف لماذا أردت فعل هذا؟ لماذا اخترتها؟ هل كان عندي حبيبة؟ ما كانت مشكلتي؟ ماذا كنت سأفعل؟».

كانت تقود السيارة تحت تهديد السلاح، وكما فعلت الضحية الأولى، فقد حاولت أن تهرب. في تلك اللحظة، أدرك أنه يجب أن يقتلها، طعنها بشكل متكرر في الصدر. عند جريمة القتل الثالثة، كان الأمر قد غدا سهلًا. لقد تعلم من تجربته السابقة ولم يكن ليترك الضحية تتحدث إليه، كان عليه أن يبقيها بلا سمات شخصية. «كنت أفكر أني قتلت اثنتين، وبالتالي يمكنني أن أقتل هذه أيضًا».

في تلك المرحلة من تقدمه أطلق سراح امرأة تعتني بأبيها المريض بالسرطان. لكن في الجريمتين الأخيرتين، كانت نيته راسخة.

لقد أغرق واحدة وطعن الأخرى، بين خمسين ومائة طعنة حسب تقديره.

ومثل كل الآخرين تقريبًا، أظهر لنا ريسل أن الخيال كان موجودًا قبل وقت طويل من بداية جرائم الاغتصاب والقتل الفعلية. سألناه من أين جاء بأفكاره. جاءت من مصادر عديدة، كما اتضح لنا، لكن أحد هذه المصادر، كما قال، كانت قراءته عن ديفيد بيركويتز.

وُلد ديفيد بيركويتز، الذي عُرف أولًا باسم «قاتل 44 -كاليبر» ثم اشتهر باسمه «ابن سام» بعد أن بدأ يكتب للصحف خلال فترة الرعب في نيويورك

سيتي. كانت له شخصية قاتل أكثر منه قاتلًا متسلسلًا نموذجيًّا. خلال فترة سنة تقريبًا -من يوليو 1976 حتى يوليو 1977 - قتل ستة شبان وشابات وجرح عددًا أكبر، كانوا في ممرات العشاق، وكلهم أصيبوا بطلقات نارية من سلاح يدوي قوي.

مثل عدد من القتلة المتسلسلين، كان بيركويتز نتاج عائلة متبناة، لم يعرفها حتى أصبح في الجيش. أراد أن يرسل إلى فيتنام، لكن انتهى به المطاف في كوريا، حيث اختبر أولى تجاربه الجنسية، مع مومس، وأُصيب بمرض السيلان. حين أصبح خارج الخدمة وعاد إلى نيويورك سيتي، بدأ مطاردة أمه البيولوجية، التي وجدها تعيش مع ابنتها -أخته- في لونج بيتش، لونج آيلاند. ولدهشته واستيائه، لم تُريدا التواصل معه. كان شخصًا خجولًا، وقلقًا، وغاضبًا، وأصبح الآن قاتلًا محتملًا. تعلم التصويب في الجيش. ذهب إلى تكساس واشترى مسدس تشارتر آرمز بولدوج -44 كاليبر- وهو سلاح قوي جعله يشعر أنه أكبر وأقوى. ذهب إلى ساحات الخردة في نيويورك وتدرب على المسدس، مصوِّبًا على أهداف صغيرة إلى أن تأكد من دقة تصويبه. ثم أصبح موظف البريد منخفض المستوى في النهار يذهب للمطاردة في الليل.

قابلنا بيركويتز في سجن أتيكا ستيت، حيث كان يقضي حكم السجن لخمس وعشرين سنة لكل ضحية من جرائم القتل الست التي اعترف أنه كان مذنبًا فيها، على الرغم من إنكاره لاحقًا لهذه الجرائم. كان لاحقًا ضحية اعتداء في السجن عام 1979، حين تعرض لمحاولة قطع رقبته من الخلف. تطلب الجرح ستًّا وخمسين غرزة ولم يتم التعرف على المهاجم قط. جئنا لمقابلته دون سابق إنذار، غير راغبين في وضعه في مخاطرة أخرى. وبمساعدة السجان، تمكنا من تعبئة معظم أسئلة الاستبيان مقدمًا، لذلك فقد كنا على أهبة الاستعداد.

من أجل هذه المقابلة الخاصة، أحضرت بعض المواد المرئية المساعدة. كما ذكرت، كان والدي يعمل في الطباعة في نيويورك ورئيس نقابة الطباعين في لونج آيلاند وقد زودني بالصحف الشعبية التي تعرض أفعال ابن سام بعناوين كبيرة بالخط العريض.

حملت صحيفة نيويورك *دايلي* نيوز، ثم مررتها عبر الطاولة لتصل إليه وقلت: «ديفيد، بعد مائة سنة من الآن لن يتذكر أحد بوب ريسلر أو جون دوجلاس، لكنهم سيتذكرون ابن سام. في الحقيقة، كما تعلم، هناك الآن

قضية في ويتشيتا، كانساس، رجل قتل عددًا من النساء ويسمي نفسه بي تي كيه. وهذا يعني «قيِّد، عذِّب، اقتُل». وكما تعلم، إنه يكتب رسائل ويتحدث عنك في هذه الرسائل. إنه يتكلم عن ديفيد بيركويتز، ابن سام. إنه يريد أن يكون مثلك لأن لديك هذه القوة. لم يفاجئني حتى أن يكتب لك رسالة وأنت في السجن هنا».

لم يكن بيركويتز ما يمكن أن أسميه شخصًا كاريزماتيًا، وكان دائم البحث عن الاعتراف أو الإنجاز الشخصي. عيناه زرقاوان لامعتان وكانتا تبحثان دائمًا عن معرفة ما إذا كان الشخص مهتمًا به أو يضحك عليه. عندما سمع ما قلته لمعت عيناه. «لم تنل فرصة الشهادة في المحكمة»، تابعت القول: «لذلك فإن جميع ما يعرفه العامة عنك أنك مجرد ابن ساقطة لعين. لكن من خلال هذه المقابلات، نعلم أنه لا بد من وجود جانب آخر، جانب حساس، جانب تأثر بخلفيتك. ونريد أن تمنحنا فرصة أن تخبرنا بذلك».

كان متحفظًا عاطفيًا إلى درجة كبيرة، لكنه كان يتحدث إلينا مع شيء من التردد. اعترف بإشعال أكثر من ألفي حريق في منطقة بروكلين-كوينز، التي وثقها في مذكرات دقيقة. هذه إحدى الطرق التي يظهر فيها شخصية القاتل؛ شخص وحيد ينخرط في هوس كتابة المذكرات والملاحظات. العنصر الثاني هو عدم رغبته في الاتصال الجسدي مع الضحية. إنه ليس مغتصِبًا أو فتيشيًا. إنه لا يبحث عن تذكارات. وأي تهمة جنسية يتعرض لها هي من فعل إطلاق النار ذاته.

كانت الحرائق التي أشعلها بشكل رئيسي من أنواع تثير الإزعاج، مثل علب القمامة أو المباني المهجورة. ومثل معظم مفتعلي الحرائق، فقد كان يستمني بينما يشاهد اللهب، ثم مجددًا حين كانت تأتي فرق الإطفاء لإخماد الحريق. كما أن إشعال الحرائق ينتمي لعوامل «ثالوث القتل» الذي يضم التبول في الفراش والوحشية تجاه الحيوانات.

فكرت دائمًا أن هذه المقابلات تشبه البحث عن الذهب. الغالبية العظمى مما تحصل عليه مجرد حصى لا قيمة لها، لكن إذا حظيت بقطعة واحدة حقيقية بينها، فهذا يستحق الجهد المبذول كله. وهذا كان بالتأكيد وضع قضية ديفيد بيركويتز. إن ما كان مثيرًا للاهتمام جدًّا بالنسبة إلينا هو أنه كان يطارد في مناطق ممرات العشاق تلك، أكثر من ذهابه إلى جانب السائق من السيارة -وهو في العادة جانب وجود الذكر- مما كان يمثل التهديد الأكبر،

فإنه كان يذهب إلى جهة المقعد المجاور للسائق. هذا يخبرنا أنه، بينما كان يطلق النار على السيارة من موقع رجل شرطة نموذجي، فإن كراهيته وغضبه موجهان نحو المرأة. تشير الطلقات المتعددة، مثل الطعنات المتعددة، إلى حدة الغضب. الذكر ببساطة هو في المكان الخطأ في الزمان الخطأ. ليس هناك في الغالب أي اتصال بالنظر بين المهاجم والضحية. كل شيء يتم من مسافة. كان قادرًا على إشباع خياله في امتلاك المرأة دون أن يجسِّدها كشخصية. ومن المثير للاهتمام كذلك أن حصاة ذهبية أخرى أصبحت جزءًا من وعينا بشأن القتلة المتسلسلين، هي أن بيركويتز أخبرنا أنه كان يطارد ليلًا.

عندما لم يكن يجد ضحية الفرصة، الضحية التي كانت في المكان الخطأ وفي الزمان الخطأ، كان يعود إلى المناطق التي كان ناجحًا فيها في الماضي. كان يعود إلى مناطق مواقع الجريمة (الكثير من الآخرين يعودون إلى مواقع التخلص من الجثث)، وأماكن الدفن، وكان يتدحرج على التراب رمزيًّا ويشبِع خياله مرة بعد أخرى.

إنه السبب عينه وراء لماذا يلتقط القتلة المتسلسلون صورًا فوتوغرافية أو يصورون مقاطع فيديو لجرائمهم. عندما تموت الضحية ويتخلصون من الجثة، فإنهم يبتغون إعادة إحياء تلك الإثارة، يواصلون التصرف وفق خيالهم، يفعلونها مرة بعد مرة. لم يكن بيركويتز بحاجة إلى أي جواهر أو ملابس داخلية أو أي تذكار آخر. أخبرنا أن مجرد العودة كانت تكفيه. كان يعود بعدها إلى المنزل، يمارس العادة السرية ويشبع خياله.

كنا سنستخدم هذه الفكرة في خلق تأثير كبير. لطالما تساءل الأشخاص في مجال إنفاذ القانون عن عودة القتلة إلى مواقع جرائمهم، لكنهم لم يستطيعوا إثبات أو تفسير سبب فعلهم ذلك بالضبط. من أشخاص مثل بيركويتز، كنا قد بدأنا نكتشف أن التساؤل محق، على الرغم من أنه ليس دائمًا بسبب الدوافع التي اشتبهنا فيها. يمكن أن يكون الندم أحدها طبعًا. لكن كما أظهر لنا بيركويتز، فإن هناك أسبابًا أخرى. حالما تبدأ في معرفة لماذا يقوم نمط معين من المجرمين بزيارة مواقع الجريمة، يمكنك أن تبدأ بتخطيط الإستراتيجيات للتعامل معه. جاء اسم ابن سام من ملاحظة كُتِبت بفظاظة لنقيب الشرطة جوزيف بوريلي، الذي أصبح فيما بعد رئيس محققين إدارة شرطة نيويورك. عثر عليها قرب سيارة الضحيتين ألكسندر إيساو وفالنتينا

سورياني في برونكس. كالآخرين، قُتِلا من مسافة قريبة. كان مكتوبًا في الملاحظة:

لقد تأذيت كثيرًا من وصفك لي بكاره النساء. أنا لست كذلك. لكنني وحش. أنا «ابن سام». أنا شقي صغير.

عندما يصبح الأب سام ثملًا فهو يصير لئيمًا. إنه يضرب عائلته. يربطني أحيانًا وراء المنزل. وفي أحيان أخرى يحبسني في المرأب. يحب سام أن يشرب الدم.

«اخرج واقتل»، يأمر الأب سام.

وراء منزلنا يستريح البعض. معظمهم شابات -مغتصَبات ومذبوحات، دماؤهن تسيل- عظام فقط الآن. يبقيني الأب سام محبوسًا أيضًا في العلية. لا يمكنني الخروج لذلك أراقب من نافذة العلية كيف يسير العالم.

أشعر أني غريب. إنني على طول موجة مختلفة لذا فإن الجميع مبرمجون على القتل أيضًا.

ومع ذلك، فمن أجل أن توقفوني، يجب أن تقتلوني. انتباه للشرطة: أطلقوا علي النار أولًا، أطلقوا النار لتقتلوني أو ابتعدوا عن طريقي أو ستُقتلون!

بابا سام عجوز الآن. إنه بحاجة إلى بعض الدماء ليحافظ على شبابه. لقد تعرض للكثير من النوبات القلبية. «أهه، إني أنعق، هذا مؤلم، يا ولد».

أشتاق لأميرتي الجميلة أكثر من الجميع. إنها ترتاح في منزل السيدات. لكني سأراها قريبًا.

أنا «الوحش» -بعلزبوب- البهيموث العملاق.

أحب أن أصطاد. أجوب الشوارع بحثًا عن لعبة عادية، لحم لذيذ. نساء كوينز هن الأجمل بين الجميع. يجب أن أكون الماء الذي يشربنه. أنا أعيش حياتي من أجل الصيد. الدم من أجل بابا.

سيد بوريلي، سيدي، لا أريد أن أقتل بعد الآن. لا، لا مزيد لكن يجب أن «أكرم أبي».

أريد أن أحب العالم. أنا أحب الناس. لا أنتمي للأرض. أعدني إلى ياهوو.

إلى شعب كوينز، أنا أحبكم. وأريد أن أتمنى لكم جميعًا عيد فصح سعيدًا. فليبارككم الرب في هذه الحياة والحياة التالية. أما الآن فأقول لكم إلى اللقاء وليلة سعيدة.

الشرطة: دعوني أطاردكم بهذه الكلمات: سوف أعود!

سوف أعود!

لكي أفسِّر كـ - بانج، بانج، بانج، بانج- آااه!

المخلص في قتلكم. السيد الوحش.

تحول هذا النكرة إلى شخصية مشهورة على المستوى الوطني. انضم أكثر من مائة محقق ما أصبح يعرف بفرقة أوميجا. تواصلت الاتصالات الجامحة المجنونة، التي شملت رسائل إلى الصحف والصحفيين مثل كاتب العمود جيمي بريسلن. عاشت المدينة في رعب. في مكتب البريد، كما أخبرنا، شعر بالإثارة عندما كان يسمع الناس يتحدثون عن ابن سام غير عالمين أنهم كانوا في غرفة واحدة معه.

حدث الاعتداء التالي في باي سايد، كوينز، لكن كلًّا من الرجل والمرأة قد نجوَا. بعد خمسة أيام، لم يكن شخصان آخران محظوظين كثيرًا. توفيت ستايسي موسكوفيتز في الحال. أما روبرت فيولانتي فقد نجا، لكنه فقد بصره من أثر الهجوم.

اعتُقِل ابن سام أخيرًا لأنه أوقف سيارته الـ فورد-جالاكسي قريبًا جدًّا من صنبور إطفاء الحريق ليلة جريمته الأخيرة. تذكرت شاهدة في المنطقة وجود ضابط يكتب مخالفة، وعندما تم تعقبها، تبين أنها تعود لديفيد بيركويتز. عندما واجهته الشرطة، قال ببساطة: «حسنًا، لقد أمسكتم بي». بعد اعتقاله، أوضح بيركويتز أن اسم «سام» أشار لجاره سام كار، الذي كان كلبه اللابرادور الأسود، هارفي (على ما يبدو شيطانًا عمره ثلاثة آلاف عام) كان يأمر ديفيد أن يقتل. في مرحلة ما، قتل الكلب بطلقة مسدس عيار 22، لكنه نجا. شَخَّصَ وسطُ الطب النفسي حالتَه على الفور بانفصام الشخصية، مع تقديم جميع أنواع التفسيرات لرسائله المتنوعة والكثيرة. كانت «الأميرة الجميلة» المذكورة في رسالته الأولى إحدى ضحاياه، دونا لوريا، التي وعده سام بأن ينال روحها بعد موتها.

كان أهم ما في أمر محتوى رسائله، أنه كان يغير خط يده. في الرسالة الأولى، كان خطًا أنيقًا ومنظمًا، ثم أخذ يتدهور حتى أصبح غير قابل للقراءة تقريبًا.

كانت الأخطاء الإملائية تصبح أكثر وأكثر شيوعًا. كما لو أن شخصين كانا يكتبان الرسائل. أريته هذا. ولم يتعرف عليها حتى. لو أنني كنت أحلله تنميطيًا، لكنت قد أدركت من تدهور حالة خط يده أنه كان شخصًا ضعيفًا، قابلًا جدًا للخطأ، ولارتكاب بعض الأخطاء الصغيرة، مثل أن يركن سيارته أمام صنبور إطفاء الحريق، مما ساعد الشرطة على الإمساك به. كانت تلك النقطة الضعيفة هي الوقت المناسب لإطلاق نوع من الإستراتيجية الاستباقية. كان سبب انفتاح بيركويتز تجاهنا، كما أعتقد، هو العمل المكثف الذي قمنا به حول القضية. في بداية المقابلة، توصلنا لفكرة الكلب الذي عمره ثلاثة آلاف سَنة الذي جعله يرتكب الجرائم. تقبَّل وسطُ الطب النفسي القصة وظن أنها تفسر دافعه. لكني كنت أعرف أن القصة لم تظهر إلا بعد إلقاء القبض عليه. كان ذلك مخرجه. لذلك حين بدأ يتحدث عن الكلب، قلت ببساطة: «هاي، ديفيد، دعك من هذا الهراء. ليس للكلب علاقة بهذا كله».

ضحك وهز رأسه واعترف أني كنت محقًا. قرأنا عدة أطروحات نفسية طويلة عن الرسائل. قارنته إحدى الأطروحات بشخصية جيري في مسرحية إدوارد ألبي *حكاية حديقة الحيوانات*. وحاولتْ دراسة أخرى تناوُل الموضوع نفسيًا وتحليل الكتابة كلمة كلمة، لكن ديفيد كان يتلاعب بهم، وقد انساقوا وراءه في اتجاهات خاطئة.

كانت الحقيقة البسيطة أن ديفيد بيركويتز غاضب جدًا من الطريقة التي عاملته بها أمه وبقية النساء في حياته وأنه شعر أنه شخص عاجز حولهن. لقد تصاعد خياله بشأن امتلاكهن ليصبح حقيقة قاتلة. ما كان يهمنا فعلًا هو التفاصيل.

مع إدارة بوب ريسلر الناجحة لمنحة NIJ وتجميع آن بيرجس للمقابلات، فقد أكملنا في عام 1983 دراسة تفصيلية عن ستة وثلاثين شخصًا. كما جمعنا بيانات من 118 من ضحاياهم، ومعظمهم من النساء.

توصلنا من الدراسة إلى نظام بغية فهم وتصنيف أفضل للجناة العنيفين. وللمرة الأولى، تمكنا فعلًا من أن نبدأ بربط ما كان يحدث داخل عقل المجرم والدليل الذي تركه في موقع الجريمة. وقد ساعدنا ذلك، بدوره، في تعقبهم

بكفاءة أكبر والإمساك بهم ومحاكمتهم بفعالية أكبر. لقد بدأت تتعامل مع أسئلة قديمة عن الجنون مثل «أي نوع من الأشخاص سيرتكب مثل هذا الفعل؟»

في عام 1988، وسَّعنا استنتاجاتنا ووضعناها في كتاب بعنوان *الجرائم الجنسية: أنماط ودوافع* صدر عن منشورات Lexington Books. وعند كتابة هذه السطور، بلغ الطبعة السابعة. لكن بغض النظر عما تعلمناه، كما أقررنا في خاتمة الكتاب، «تثير هذه الدراسة أسئلة أكبر بكثير مما تجيب عن الأسئلة». تبقى الرحلة داخل عقل المجرم العنيف بحثًا متواصلًا عن الاكتشاف، فالقتلة المتسلسلون، تعريفًا، هم قتلة «ناجحون»، تعلموا من تجاربهم. ويجب علينا أن نتأكد أننا نتعلم بسرعة أكبر مما يفعلون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

8

القاتل لديه إعاقة كلامية

في وقت ما من عام 1980 قرأت في جريدة محلية عن امرأة عجوز تعرضت للاعتداء الجنسي والضرب المبرح من دخيل مجهول، وتُركت لتموت مع كلبيها، اللذين طُعنا حتى الموت. بدا للشرطة أن الرجل قد قضى وقتًا لا بأس به في المكان. كان المجتمع مصدومًا وغاضبًا. بعد شهرين، عائدًا من رحلة، سألت بام ما إذا كان هناك مستجدات بشأن القضية. قالت لي إن لا أخبار جديدة، ولم يكن هناك مشتبه بهم. علقتُ بأن هذا مؤسف للغاية، لأنه بالنسبة إلى ما قرأت وسمعت، فإنها قضية قابلة للحل. لم تكن القضية من صلاحيات المكتب الفيدرالي ولم يُطلب مني التدخل، لكني وكمجرد مقيم محلي في المنطقة، قررت أن أرى إن كان هناك ما يمكنني عمله.

توجهت إلى مركز الشرطة، عرَّفتهم بنفسي، اطلعت من رئيس المركز على ما كنت قد فعلته، وطلبت إن كان يمكنني التحدث إلى المحققين الذين يعملون على القضية. قبِل عرضي بلطف. كان اسم المحقق الرئيسي دين مارتن. لا أتذكر إن أشرت إلى نكات من جيري لويس، لكني ربما لم أفعل. أراني ملفات القضية، ومن ضمنها صور موقع الجريمة. لقد تعرضت المرأة للضرب المؤذي حقًا. وبدراستي للمواد، بدأت أكوِّن صورة واضحة للجاني ولآليات الجريمة.

«حسنًا» قلت للمحققين، الذين كانوا يستمعون لي بتهذيب، وإن كان بنوع من التشكيك، «إليكم ما أفكر فيه».

إنه شاب في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من المدرسة الثانوية. كلما عثرنا على ضحية اعتداء جنسي عجوز، نبحث عن جانٍ شاب، غير واثق بنفسه، ودون أي خبرة.

أي ضحية أصغر سنًّا، أو أقوى، أو متحدية أكثر ستكون مخيفة بالنسبة إليه. سيكون منظره أشعث، شعره قذر ولا يعتني بنفسه عمومًا. ما حصل أنه في تلك الليلة طرده والده أو والدته من المنزل ولم يكن لديه مكان يذهب إليه. لن يبتعد كثيرًا في هذه الحالة. بدلًا من هذا، سيبحث عن أسهل وأقرب ملجأ ممكن. لن يكون لديه فتاة أو أصدقاء يلجأ إليهم ريثما تنقضي تلك العاصفة في المنزل، وإنما سيتجول وهو يشعر بالأسى، بقلة الحيلة والغضب، وإذا به يصل إلى منزل تلك السيدة. إنه يعلم أنها تعيش وحيدة، وقد عمل هنا أو نفَّذ بعض الأعمال لها، وهو يدري أنها لن تشكل له تهديدًا كبيرًا، لذلك فقد اقتحم المنزل، ربما تكون قد احتجَّت، لعلها بدأت في الصراخ عليه، وربما شعرت بالرعب. أيًّا كان رد فعلها، فإن ذلك يؤجج مشاعره ويمكِّنه من السيطرة على الأمر. يريد أن يظهر لنفسه وللعالم أي رجل هو. يحاول إقامة علاقة جسدية معها، لكنه لا يتمكن من فعل ذلك، لذلك يضربها، وفي لحظة معينة يدرك أن من الأفضل أن يذهب في الأمر إلى آخره لأنها ستتمكن من التعرف عليه. إنه لا يرتدي قناعًا، لقد كانت جريمة اندفاعية، لا جريمة مخطَّطة. لكنها مصدومة بحيث إنها حتى إذا عاشت فلن تتمكن من تقديم أي وصف للشرطة.

بعد الهجوم، ما زال لا يملك مكانًا يذهب إليه، وهي بالتأكيد لا تشكل تهديدًا له، يعرف أنه لن يكون لديها زوار خلال الليل، فيبقى، يأكل ويشرب لأنه في تلك المرحلة كان يشعر بالجوع.

توقفت في سردي وأخبرتهم أنه لا بد من وجود شخص ما تنطبق عليه هذه المواصفات. إذا تمكنوا من إيجاده، فقد أمسكوا بالجاني. نظر محقق إلى الآخر وبدأ أحدهما يبتسم. «هل أنت وسيط روحي، دوجلاس؟».

قلت: «لا، لكن عملي سيكون أسهل بكثير لو كنت كذلك».

«لأنه كان لدينا وسيطة روحية؛ بيفرلي نيوتن، قبل بضعة أسابيع وقد قالت الأشياء ذاتها».

الأكثر من هذا، أن توصيفي كان منطبقًا على شخص يعيش في الجوار، ولم يولوه الكثير من التفكير. بعد لقائنا، استجوبوه ثانية. لم يكن هناك دليل

كاف للتحفظ عليه، ومن ثَم لم يحصلوا على اعتراف منه. بعد ذلك بوقت قصير، غادر المنطقة.

أراد الرئيس والمحققون معرفة كيف، إن لم أكن وسيطًا روحيًا، قد تمكنت من التوصل إلى هذا السيناريو المحدد. كان جزء من الإجابة أني في ذلك الوقت، كنت قد رأيت ما يكفي من الجرائم العنيفة التي ارتُكِبَت ضد جميع أنواع البشر، وربطت ما يكفي من المعلومات بكل واحدة، وقابلت ما يكفي من المجرمين العنيفين الذين كان لهم نمط معين في ذهني حول أي نوع من الجريمة يرتكبها أي نوع من الأشخاص. لكن، بالطبع، لو كانت الأمور مباشرة هكذا، لكان باستطاعتنا تعليم تنميط الشخصيات من دليل أو أن نقدم للشرطة برنامجًا حاسوبيًا يرتب قائمة بالشخصيات المشتبه بها عبر أي مجموعة من المدخلات. وفي واقع الحال فإنه بينما نستخدم أجهزة الحاسوب في الكثير من أعمالنا وقدرتها على إنجاز أشياء مثيرة للدهشة، فإن هناك الكثير من الأشياء الأكثر تعقيدًا التي، ببساطة، لا يمكنها العمل عليها. إن التحليل التنميطي يشبه الكتابة. يمكنك أن تزود الحاسوب بكل القواعد والنحو والأسلوب، لكنه سيبقى عاجزًا عن كتابة كتاب.

ما أحاول أن أفعله في القضية هو أن آخذ جميع الأدلة والقرائن التي يجب عليَّ أن أعمل معها -تقارير القضية، صور وتوصيفات موقع الجريمة، أقوال الضحية أو بروتوكولات التشريح- ثم أضع نفسي ذهنيًا وعاطفيًا في رأس المجرم. أحاول أن أفكر كما يفكر. كيف حدث ذلك بالضبط، أنا لست متأكدًا، ليس أكثر من الروائيين مثل توم هاريس الذين استشاروني عبر السنوات الذين يمكنهم أن يصفوا بالضبط كيف يمكن لشخصياتهم أن تنبض بالحياة. إن كان هناك عنصر روحي في هذا، فلن أهرب منه، على الرغم من أنني أميل أكثر للتفكير فيه كعنصر تفكير خلَّاق.

يمكن للوسطاء الروحيين، في بعض المناسبات أحيانًا، أن يكونوا مفيدين في التحقيق الجنائي.

لقد رأيت ذلك ينجح. لدى بعضهم القدرة على التركيز بشكل لا واعي على تفاصيل بعضهم في مشهد ما والتوصل إلى استنتاجات منطقية منها، تمامًا مثلما أحاول أن أفعل وما أدرب الناس عليه. لكنني أنصح المحققين دائمًا أن الوسيط النفسي هو دائمًا آخر أداة استجوابية يمكن اللجوء إليها، وإذا كنت ستستخدم واحدًا، فلا تعرضه أو تعرضها على الضباط أو المحققين

الذين يعرفون تفاصيل القضية، لأن الوسطاء النفسيين البارعين دقيقون في التقاط تفاصيل وقرائن صغيرة غير لفظية، ويمكن للوسيط أن يدهشك وأن يظهر مصداقية عبر أن يعيد إليك الحقائق التي تعرفها دون أن يكون لديك بالضرورة أي فكرة حول ما لا تعرفه لكنك تريد اكتشافه. في قضية جرائم قتل الأطفال في أتالانتا، ظهر مئات الوسطاء النفسيين في المدينة وعرضوا خدماتهم على الشرطة. قدموا مختلف التوصيفات للمجرمين وطُرق تنفيذ الجرائم، ثم تبين لاحقًا أن أيًا منها لم يكن قريبًا من الصواب.

في الوقت نفسه الذي التقيتُ فيه الشرطة المحلية، اتصلتْ بي إدارات الشرطة من جميع أنحاء منطقة خليج سان فرانسيسكو بشأن سلسلة من جرائم القتل في مناطق مليئة بالأشجار في مسارات ربطوها بجرائم كان مرتكبها مجهول الهوية وكانت تشير له الصحافة باسم «قاتل ترايل سايد».

بدأ ذلك في أغسطس 1979 حين اختفت إيدا كين، مسؤولة تنفيذية في البنك، رياضية تبلغ الرابعة والأربعين، في أثناء قيامها برحلة لوحدها عبر القمة الغربية لجبل تامالبايس، منطقة جبلية خلابة تطل على جسر البوابة الذهبية وخليج سان فرانسيسكو، وعُرفت بلقب «السيدة النائمة». حين لم تعد كين إلى المنزل في المساء، اتصل زوجها القلِق بالشرطة. عُثر على جثتها من خلال فريق بحث من الكلاب في المساء التالي، عارية إلا من فردة جورب، وجهها لأسفل، راكعة كما لو كانت تتوسل للإبقاء على حياتها. لم يكن هناك دليل على الاعتداء الجنسي. سرق الجاني ثلاث بطاقات اعتماد ومبلغ 10 دولارات نقدًا، وترك خاتم زواجها وجواهر أخرى. في مارس التالي، عُثِر على جثة باربارا شوارتز، ذات الثلاثة وعشرين عامًا، في متنزه جبل تامالبايس.

طُعنت بشكل متكرر في الصدر، خلال انحنائها على ما يبدو.

في أكتوبر، لم تعد آن ألدرسون، ذات الست وعشرين سنة، من هرولتها على أطراف الحديقة. عُثِر على جثتها في المساء التالي مصابة بطلقة نارية في الجانب الأيمن من رأسها. وعلى عكس الضحايا السابقات، كانت ألدرسون بكامل ملابسها، وجهها لأعلى، مستندة إلى صخرة، ولم يكن مفقودًا سوى حلقها الذهبي الأيمن. قال الغفير المقيم في جبل تامالبايس إنه رآها جالسة في مدرج الحديقة فيما سيكون آخر صباح في حياتها، تراقب شروق الشمس. رآها شاهدان آخران في منطقة لا تبعد أكثر من نصف ميل عن المكان الذي عُثر فيه على جثة إيدا كين.

كان هناك مشتبه به قوي هو مارك مكدرماند، الذي تم العثور على والدته وأخيه المصاب بالفصام مقتولَين بطلقات نارية في كوخهما في جبل تامالبايس. بعد أحد عشر يومًا من هروبه، استسلم مكدرماند للمحقق النقيب روبرت جاديني من مقاطعة مارين. كان المحققون قادرين على ربطه بجريمة قتل عائلته، لكن حتى مع كونه مسلحًا جيدًا، فإن أسلحته لم تنطبق على مسدس 38 أو 44 كاليبر المستخدَمة في قضايا ترايل سايد. ثم تواصلت جرائم القتل.

في نوفمبر، فشلت شونا ماي، 25 عامًا، في لقاء اثنين من رفاق المشي الطويل في حديقة بوينت رييس، على بُعد بضعة أميال شمال سان فرانسيسكو. بعد يومين، عثر الباحثون على جثتها في قبر ضحل بجانب الجثة المتحللة لمتنزهة أخرى، ديانا أوكونيل، 22 عامًا، نيويوركية اختفت في الحديقة قبل شهر. أُصيبت كلتا الشابتين بطلقة في الرأس. في اليوم نفسه، عُثر على جثتين أخريين في الحديقة، تم التعرف عليهما: ريتشارد ستاورز، 19 عامًا، وخطيبته سينثيا مور، 18 عامًا، المفقودَين منذ منتصف أكتوبر. أثبتت التحقيقات أنهما قُتلا في عطلة يوم كولومبوس ذاتها التي قُتلت فيها آن ألدرسون. أثارت الجرائم الأولى الفزع بين المتنزهين في المنطقة ودفعت لوضع لافتات تنصح الناس، لا سيما النساء، بعدم دخول الغابات بمفردهن.

لكن اكتشاف أربع جثث في يوم واحد، فتح أبواب الجحيم. جمع مأمور مقاطعة مارين جي.ألبرت هاونستاين جونيور العديد من شهادات أشخاص رأوا الضحايا مع رجل غريب قبل وقت قصير من موتهم، لكن في النقاط الرئيسية، مثل السن وملامح الوجه، حصلت تناقضات كثيرة في توصيفات كلٍّ منهم. وهذا، بطبيعة الحال، ليس غير معتاد حتى في جريمة قتل واحدة، ناهيك بالمضاعفات التي تحصل مع مرور أشهر. عُثر على زوجين غريبين من النظارات ثنائية البؤرة في موقع جريمة باربارا شوارتز، التي على ما يبدو تخص القاتل. نشر هاونستاين معلومات عن النظارات والوصفات الطبية، مرسلًا نشرات إلى جميع اختصاصيِّي البصريات في المنطقة. كان على إطار النظارات شيء يتعلق بالسجن، لذلك اتصل النقيب جاديني بإدارة العدل في ولاية كاليفورنيا لمعرفة جميع السجناء المطلق سراحهم حديثًا ممن لديهم تاريخ في الجرائم الجنسية ضد النساء. وكانت بذلك جميع الهيئات المسؤولة

(بما فيها مكتب الـ إف بي آي الميداني في سان فرانسيسكو) تعمل بنشاط على القضية.

كانت هناك تكهنات بأن قاتل ترايل سايد هو في الحقيقة سفاح سان فرانسيسكو المعروف بزودياك الذي بقي مجهول الهوية لكنه كان متوقفًا منذ عام 1969. ربما كان زودياك في السجن بسبب جريمة أخرى طوال ذلك الوقت وأُطلق سراحه من قِبل بعض مسؤولي الإصلاح غير العالمين بخطورته. لكن بعكس زودياك، لم يشعر قاتل ترايل سايد بالحاجة إلى الاقتراب من رجال الشرطة أو التواصل معهم.

أحضر المأمور هاونستاين طبيبًا نفسيًّا من نابا، الدكتور آر. وليم ماتيس، ليحلل القضية. ملاحظًا الملامح الطقوسية للقضايا، قال د. ماتيس إنه يتوقع من القاتل أن يحتفظ بتذكارات، وعلى كل من يُشتبَه به أن يبقى تحت المراقبة لأسبوع قبل أن يُلقى القبض عليه أملًا في أن يقود الشرطة إلى سلاح الجريمة أو دليل آخر. وبالنسبة إلى شكله وخصائصه السلوكية، فقد وصف ماتيس رجلًا وسيمًا بشخصية طموحة.

وعملًا بنصيحة ماتيس، وضع هاونستاين وجاديني أنواعًا مختلفة من الأفخاخ الاستباقية، منها أن يظهر بعض حراس المتنزه كمتنزهات شابات، لكن ذلك لم ينجح.

كان الضغط الشعبي على هيئة إنفاذ القانون كبيرًا. أعلن المأمور للعامة أن القاتل يكمن في انتظار ضحاياه ويصيبهم بصدمة نفسية قبل أن يقتلهم، ربما من خلال جعلهم يستجدونه للإبقاء على حياتهم.

حين طلب مكتب سان رافايل المقيم مساعدة كوانتيكو، اتصلوا برُوي هازلوود، الذي كان مديرنا في شؤون قضايا الاغتصاب والعنف الموجَّه للنساء. روي شخص حساس ولطيف، وقد أثرت فيه القضية بعمق. أتذكره وهو يصف الأمر لي بينما كنا عائدين إلى جناح المكاتب من بناء الفصول التدريبية، حيث كان قد انتهى لتوه من التعليم في صف الأكاديمية الوطنية. وصلني إحساس أن روي شعر بالمسؤولية الشخصية، كما لو أن تضافر جهود الـ إف بي آي ونحو عشر وكالات محلية لم يكن كافيًا لأن يحل القضية ويقدم الجاني إلى العدالة. على عكسي، كان روي يتولى مسؤوليات تدريس كاملة. كنت قد تخليت عن مسؤولياتي التعليمية وكنت المحلل التنميطي الوحيد المتفرغ في وحدة العلوم السلوكية الذي يعمل على القضايا النشطة،

لذلك فقد طلب مني روي الذهاب إلى سان فرانسيسكو وإعطاء الشرطة هنا بعض المعلومات المهمة بشأن موقع الجريمة.

كما لاحظنا سابقًا، غالبًا ما يكون هناك استياء حين يدخل مكتب التحقيقات الفيدرالي في قضية. بعض هذا يعود لأيام هوفر، حين كان ينظر إلى الأمر على أن المكتب سيتحرك متدخلًا للتحقيق في الجرائم البارزة. لكن وحدتي لم تكن لتتدخل ما لم يتم طلب ذلك منها من قِبَل أي وكالة ذات صلاحية قضائية رئيسية، سواء كانت إدارة شرطة محلية أو حتى الـ إف بي آي ذاتها. لكن في ترايل سايد، استقدم قسم شرطة مقاطعة مارين المكتب الفيدرالي مبكرًا، ومع نوع التغطية التي كانت تنتشر في وسائل الإعلام حول القضايا، فقد شعرتُ بصراحة أنهم رحبوا بشخص مثلي جاء ليخفف هذا العبء عن كاهلهم، وإن كان لفترة.

في مكتب إدارة المأمور، راجعت كل المواد المتوفرة عن القضية وصور موقع الجريمة.

كنت مهتمًّا بشكل خاص بملاحظات المحقق الرقيب ريتش كيتن حول أن جميع القضايا على ما يبدو قد وقعت في مناطق منعزلة كثيفة الأشجار مع مظلة واسعة من الأشجار التي تحجب معظم السماء. معظم هذه المناطق لم يكن ممكنًا الوصول إليها بالسيارة، وإنما مشيًا على الأقدام فقط، لمسافة ميل تقريبًا. كان مشهد مقتل آن ألدرسون قريبًا بما يكفي لطريق خدمة يمثل طريقًا مختصرًا من منطقة مدرج الحديقة. وهذا كله يقودني إلى أن القاتل كان شخصًا محليًّا على دراية وثيقة بالمنطقة.

قدمتُ عرضي التوضيحي في غرفة تدريب كبيرة في قسم شرطة مقاطعة مارين. كانت المقاعد على شكل نصف دائرة، مثل قاعة محاضرة طبية. من الخمسين أو الستين شخصًا في الغرفة، كان هناك نحو عشرة عملاء فيدراليين، وكان البقية ضباط شرطة ومحققين. وبينما نظرت فوق رؤوس الحاضرين، لاحظت أكثر من شخص بشعر فضي؛ أشخاص متمرسون أُعيدوا من التقاعد من أجل الإمساك بهذا المجرم.

كان أول شيء فعلته هو تحدي التصور المعطى. لم أكن أظن أننا كنا نتعامل مع نمط شخص وسيم، وحسن المنظر، وفاتن، ومثقف. أخبرتني الطعنات المتكررة والهجمات من الخلف أننا كنا نتعامل مع نمط اجتماعي (على الرغم من أنه ليس بالضرورة معاديًا للمجتمع) يمكن أن يكون منسحبًا،

غير واثق من نفسه وغير قادر على إشراك ضحاياه في محادثة، وأن يطور علاقة جيدة، أن يحتال عليهم، أو أن يخدعهم من أجل أن يفعلوا ما أراد. كان المتنزهون جميعًا لائقين بدنيًّا. والهجوم من الخلف إشارة واضحة أنه كان يعلم أن الطريقة الوحيدة للسيطرة على الضحية المقصودة كان عبر تدميرها قبل أن تتمكن من الرد.

لم تكن تلك جرائم شخص عرف ضحاياه، كانت المواقع منعزلة وكانت تحميه من الرؤية، مما يعني أنه كان لدى القاتل الوقت الكافي ليتصرف وفق خياله مع كل ضحية. ومع ذلك فقد شعر أنه بحاجة إلى هجوم خاطف من الخلف. لم يكن هناك اغتصاب، وإنما تعامل مع الجثث بعد الموت؛ استمناء ربما، لكن لا جماع.

كانت الضحايا من أعمار وأشكال جسدية مختلفة، بعكس ضحايا قاتل معقد مثل تيد بندي، الذي كانت معظم ضحاياه تمثل صورة واحدة: شابة جميلة ذات شعر أسود طويل، مقسومة من الوسط. أما قاتل ترايل سايد فلم يكن تفضيليًّا، مثل عنكبوت نشر شبكته منتظرًا وقوع ذبابة فيها. أخبرت مجموعة الضباط أنني أتوقع أن يكون لهذا الرجل خلفية سيئة. اتفقت مع الرقيب جاديني أنه قد قضى وقتًا في السجن. ربما تشمل قائمة الجرائم السابقة الاغتصاب، أو في الغالب محاولات الاغتصاب، لكن لا قتل قبل هذه السلسلة من الجرائم. لا بد من وجود عامل ضغط مشارك قبل أن تبدأ هذه الجرائم. توقعت أن يكون أبيض على اعتبار أن جميع الضحايا كانوا بيض البشرة، وفكرت في أنه سيكون ذا وظيفة ميكانيكية أو صناعية. وبسبب كفاءة الجرائم ونجاحه في تجنب الوقوع في قبضة الشرطة حتى الآن، فقد خمنت أن يكون في منتصف الثلاثينيات. كما فكرت في أنه سيكون ذكيًّا. إذا لم يفحصوا له معدل ذكائه، فإنه سيكون بالتأكيد فوق المعدل الطبيعي. وإذا نظروا إلى خلفيته، سيكتشفون تاريخًا من التبول في الفراش، إشعال الحرائق والوحشية تجاه الحيوانات، أو اثنتين على الأقل من هذه الصفات الثلاث.

«شيء آخر» قلت بعد توقف قصير، «لدى القاتل إعاقة كلامية».

لم يكن صعبًا قراءة تعابير ولغة الجسد في الغرفة. كانوا يعبرون أخيرًا عما كانوا ربما يفكرون فيه طول الوقت: *هذا الشخص مليء بالهراء!*

«ما الذي يجعلك تقول هذا؟» سأل شرطي ساخرًا. «هل كانت الجروح تبدو وكأنها بفعل (طعنة متلعثمة) بالنسبة إليك؟» ثم ابتسم لـ «اكتشافه» طريقة جديدة للقتل.

«لا» قلت موضحًا، بل كان مزيجًا من التفكير الاستقرائي والاستنباطي، عبر النظر إلى كل عامل آخر في القضايا؛ كل العوامل التي استطعت الاطلاع عليها. الأماكن المنعزلة حيث لا يمكنه التواصل مع أي كان، حقيقة أنه لم يتم الاقتراب من أي ضحية خلال وجودها ضمن حشد من الناس أو تعرضها للخداع كي تسير معه، حقيقة أنه تصور أنه بحاجة إلى الهجوم الخاطف من الخلف حتى حين يكون في مكان منعزل تمامًا؛ كل هذا يخبرني أننا نتعامل مع شخص لديه وضع يشعره بالحرج أو الخجل. كان فرض قوته على ضحية آمنة وأن يصبح قادرًا على السيطرة عليها طريقته للتغلب على إعاقته.

«قد يكون نوعًا آخر من المرض أو الإعاقة» قلت. من الناحية النفسية أو السلوكية، يمكن أن يكون شخصًا عائليًا للغاية، شخصًا يعاني ندبات حب الشباب، شلل الأطفال، طرف مفقود، أي شيء من هذا القبيل. لكن مع نوع الهجوم الذي رأيناه، كان علينا استبعاد الطرف المفقود أو أي حالة إصابة بالشلل. ومع كل روايات الشهود المختلفة لأشخاص في الحديقة وأشخاص وُجِدوا في أوقات قريبة من وقت ارتكاب الجرائم، فقد توقعنا أن نسمع عن شخص يعاني تشوهًا واضحًا. كانت الإعاقة في الكلام، على الجانب الآخر، أمرًا يمكن للمشتبَه به مجهول الهوية أن يشعر إزاءه بالحرج أو الانزعاج إلى درجة تعيق نمو علاقاته الاجتماعية، لكن ما لم «يكن موجودًا» في حشد، فلن يدرك أحدٌ ما يعاني منه إلا إذا فتح فمه وتكلم.

كان إعطاء هذا التوجيه لغرفة مليئة برجال الشرطة المخضرمين ممن يشعرون بضغط الصحافة والناس يضعهم في موقف صعب، من المواقف التي كنت أحب صنعها للناس الذين أستجوبهم لكنني كنت أتجنبها لنفسي. ومع ذلك، فلا يمكنك أن تفعل هذا تمامًا. أنت مسكون على الدوام بفكرة عبَّر عنها أحد المحققين في الغرفة في تلك الأمسية:

«ماذا إذا كنت مخطئًا يا دوجلاس؟»

«قد أكون مخطئًا في بعض الأشياء» قلت صادقًا بقدر المستطاع. «ربما أخطئ في العمر، ربما أخطئ في المهنة أو معدل الذكاء، لكنني بالتأكيد لم أكن لأخطئ في العرق أو الجنس، كما لن أخطئ في كونه موظفًا. وفي هذه

القضية بالتحديد، لن أخطئ في أن لديه نوعًا من الإعاقة التي تزعجه كثيرًا. قد لا تكون إعاقة كلامية، لكن أظن أنها كذلك». عندما انتهيت، لم أكن متأكدًا من التأثير الذي تركته أو ما إذا كان لأيٍ مما قلته تأثير ما. لكن شرطيًا جاء إليَّ بعد ذلك وقال: «لا أعرف إن كنت محقًا أم مخطئًا يا جون، لكنك على الأقل قد منحت التحقيق توجهًا ما».

من الجيد دائمًا سماع ذلك، على الرغم من أنك تحبس أنفاسك حتى ترى إلى ماذا سيفضي الأمر في النهاية. عدت إلى كوانتيكو وقام رجال إدارة الشرطة في منطقة الخليج بعملهم.

في 29 مارس، ضرب القاتل من جديد، هذه المرة عبر إطلاق النار على شابين في متنزه هنري كاول ريدوودز ستيت بارك Henry Cowell Redwoods State Park قرب سانتا كروز. حين أخبر إلين ماري هانسن (20 سنة، طالبة في السنة الثانية في جامعة كاليفورنيا-ديفيز) أنه سيغتصبها، قاومت، فأطلق النار عليها من مسدس عيار38، فقتلها وأصاب ستيفن هيرتل بجروح خطيرة، وتركه ليموت. لكن هيرتل تمكن من إعطاء وصف جزئي لرجل أسنانه صفراء معوجة. بنَت الشرطة على هذه الصورة وتمكنوا من ربط ذلك برجل يمتلك سيارة حمراء أجنبية، ربما فيات، مع أنه مجددًا تضاربت التوصيفات كثيرًا مع الأوصاف السابقة. اعتقد هيرتل أن المجرم في الخمسينيات أو الستينيات، وكان أصلع. ربطت المقذوفات عملية القتل هذه بجرائم ترايل سايد.

في 1 مايو، اختفت الشابة الجميلة هيذر روكسان سكاغز ذات العشرين عامًا. كانت طالبة في مدرسة طباعة في سان خوسيه، وقد ذكر صديقها ووالدتها وزميلتها في السكن أنها كانت ذاهبة مع مدرس الفنون الصناعية في المدرسة (ديفيد كاربنتر)، الذي سيرتب لها شراء سيارة من أحد أصدقائه. كان كاربنتر في الخمسين من عمره، مما كان غير معتاد في هذا النوع من الجرائم.

انطلاقًا من هذه النقطة، بدأت الأمور تتضح وبدأت الشبكة تنغلق. قاد كاربنتر سيارة فيات حمراء مع ماسورة عادم مكسورة. كان التفصيل الأخير جزءًا من معلومات «التراجع» التي لم تنشرها الشرطة من قبل. كان يجب التعرف على ديفيد كاربنتر والقبض عليه قبل فترة من حصول ذلك بالفعل.

الحقيقة أنه كان محظوظًا بشكل لا يُصدق، كما أن مشاركة العديد من هيئات الشرطة زاد تعقيد عملية المطاردة.

كان لديه سجل سجن لجرائم جنسية. للمفارقة: إن سبب عدم ظهوره كمعتدٍ جنسي على سجلات إطلاق السراح المشروط في الولاية كان أنه قد أطلق سراحه من كاليفورنيا ليقضي عقوبة فيدرالية، ومع أنه موجود في الشارع، فإنه كان، تقنيًا، لا يزال في الوصاية الفيدرالية، لذلك فقد استطاع التسلل من بين هذه الثغرات. كانت المفارقة الأخرى أن كاربنتر وضحيته الثانية (باربارا شوارتز) التي عُثِرَ على النظارات في موقع جريمتها، تشاركا طبيب العيون ذاته! لسوء الحظ، لم ير المنشور الذي وزعته إدارة المأمور.

تقدم شهود جدد، من ضمنهم امرأة عجوز تعرفت على الصورة التقريبية من التلفاز وقالت إنه كان موظف الحسابات على السفينة التي أقلتها هي وأطفالها في رحلة إلى اليابان قبل عشرين سنة. وقد عرَّضها الرجل «للرعب» بسبب الاهتمام الكبير الذي أظهره باستمرار لها ولابنتها.

يذكر بيتر بيرست (مدير فرع بنك جلين بارك كونتيننتال للمدخرات والقروض في مدينة دالي) موظفة الصرافة اللطيفة والحساسة والموثوقة التي كانت تعمل بدوام جزئي، طالبة الثانوية آنا كيلي مينجفار، التي اختفت من منزلها في أواخر ديسمبر الماضي. ومع أنه لم يتم ربطها من قبل بجرائم قتل ترايل سايد، فقد عثر على جثتها في متنزه جبل تامالبايس. يسترجع بيرست كم كانت آنا لطيفة وودود تجاه الزبون الدائم الذي كان يعاني التأتأة الشديدة، والذي علم بيرست لاحقًا أنه قد اعتُقِل عام 1960 بسبب مهاجمة شابة في بريسيدو (منشأة عسكرية في الطرف الشمالي من سان فرانسيسكو).

وضعت شرطة سان خوسيه والـ إف بي آي كاربنتر تحت المراقبة واعتقلته في نهاية الأمر. تبين أنه كان نتاج تربية أم مسيطرة ومسيئة جسديًا، وأب مسيء عاطفيًا على الأقل، كان طفلًا بمعدل ذكاء فوق المتوسط بكثير تم اختياره بسبب تأتأته الشديدة. تميزت طفولته أيضًا بالتبول المزمن في السرير والوحشية تجاه الحيوانات. في سن الرشد، تحول غضبه وإحباطه إلى نوبات من الغضب العنيف الذي لا يمكن التنبؤ به، ودافع جنسي لا يمكن السيطرة عليه كما يبدو.

أول جريمة اعتُقِل فيها وقضى فترة توقيف كانت هجومه على سيدة بسكين ومطرقة في البريسيدو، وكان ذلك إثر ولادة طفل من زواج متوتر.

خلال الهجوم الوحشي وقبله بقليل، تقول الضحية إن التأتأة الفظيعة قد اختفت.

وبسبب جميع الطلبات التي وردت من خريجي الأكاديمية الوطنية، فقد منح وليم ويبستر مدير إف بي آي مدربي العلوم السلوكية موافقته الرسمية لتقديم الاستشارة في مجال التنميط النفسي في عام 1978. في منطلق الثمانينيات، كانت هذه الخدمة قد أصبحت شعبية ورائجة للغاية. كنتُ متفرغًا للعمل على القضايا، وكان مدربون مثل بوب ريسلر وروي هازلوود يقدمون الاستشارة وفق ما تسمح به واجباتهم التدريسية. لكن على الرغم من حقيقة أن شعورنا كان طيبًا تجاه ما كنا نعمله والنتائج التي كنا نحققها، فلم يكن أحد «على القمة» يعرف ما إذا كان ذلك استخدامًا فعالًا لموارد المكتب وطاقته البشرية. لذلك في عام 1981، أجرت وحدة البحث والتطوير المؤسسي التابعة لــ إف بي آي -التي ترَأَّسها لاحقًا هوارد تيتن، الذي انتقل من وحدة العلوم السلوكية- أول دراسة معمقة للتكاليف -العوائد لما كان يسمى ببساطة برنامج التنميط النفسي. كان تيتن (الذي بدأت استشاراته غير الرسمية في البرنامج بالصدفة) مهتمًّا بمعرفة إن كان لذلك أي تأثير فعلي وإن كان المقر سيتابعه.

طورنا استبيانًا وأرسلناه إلى عملائنا؛ مسؤولين ومحققين وأي وكالة إنفاذ قانون استخدمت خدماتنا التنميطية. شمل هذا إدارات الشرطة في المدن، والريف، والولايات، وإدارات المأمور، ومكاتب إف بي آي الميدانية، ودوريات الطرق السريعة، ووكالات التحقيق الحكومية. في حين أن معظم الطلبات كانت تتعلق بتحقيقات جرائم القتل، فإن وحدة البحث والتطوير جمعت أيضًا البيانات حول استشاراتنا في قضايا الاغتصاب، والخطف، والابتزاز، والتهديدات، والتحرش بالأطفال، وقضايا الرهائن والوفاة العرضية والانتحار عن سبق تصميم.

كان التحليل التنميطي لا يزال فكرة مشوشة وصعبة التقييم لكثير من الناس داخل المكتب.

عدَّ كثيرون أنها شعوذة أو سحر أسود، وعدَّ البقية أنها تحريف للحقائق. لذلك علمنا أنه ما لم تظهِر الدراسة نجاحات قوية وموثوقة، فإن جميع الجوانب غير التعليمية لوحدة العلوم السلوكية ستمر عن طريق المجلس.

لذلك فقد شعرنا بالارتياح والامتنان عندما عاد التحليل في ديسمبر 1981. جاءنا محققون متحمسون من مختلف أنحاء البلاد، وحثونا على استمرار البرنامج. كانت الفقرة الأخيرة من الخطاب المرفق بالتقرير هي الأمر كله: يكشف التقييم أن البرنامج في الواقع أكثر نجاحًا مما أدركنا جميعًا. إن وحدة العلوم السلوكية تستحق الثناء على عملها المتميز.

اتفق المحققون على أن الناحية التي كنا أكثر فائدة فيها هي في تضييق قوائم المشتبه بهم وتوجيه التحقيق إلى تركيز محكم أكثر. كان المثال المطروح عملية القتل الوحشية والمروعة غير معروفة السبب التي تعرضت لها فرانسين إلفسون في برونكس في أكتوبر 1979، ليس بعيدًا عن أماكن وجود ديفيد بيركويتز.

في الحقيقة، كان هناك خشية من إدارة شرطة نيويورك من أن أحد المعجبين بابن سام سيستخدم بطله كنوع من الإلهام. درَّسنا هذه القضية في كوانتيكو لأنها نموذج جيد لكيفية توصلنا إلى تحليل تنميطي جيد، وكيف استخدمته الشرطة للتقدم في عملية حل قضية ومعقدة، ولمَ بقيت فترة طويلة دون حل.

كانت فرانسين إلفسون في السادسة والعشرين تعمل معلمة لأطفال من ذوي الإعاقة في مركز رعاية محلي. كانت تزن تسعين باوندًا وطولها أقل من خمسة أقدام، وأظهرت الكثير من العطف والحنو تجاه تلاميذها، وقد كانت هي ذاتها تعاني إعاقة بسيطة سببها انحناء العمود الفقري، أو تقوس العمود الفقري. خجولة وغير اجتماعية كثيرًا، عاشت مع والديها في بناء شقق بيلهام باركواي. غادرت المنزل إلى عملها كالمعتاد في السادسة والنصف صباحًا.

نحو الساعة الثامنة والثلث، وجد فتى في الخامسة عشرة، يعيش في البناء، محفظتها في بئر السلم بين الطابقين الثالث والرابع. لم يكن لديه وقت ليفعل بها أي شيء لئلا يتأخر على المدرسة فأبقاها معه حتى عودته إلى المنزل للغداء، وأعطاها لأبيه. ذهب الأب إلى شقة إلفسون قبل الساعة الثالثة ظهرًا بقليل وأعطى المحفظة لوالدة فرانسين، التي اتصلت بمركز الرعاية لتعلِم فرانسين أنه قد تم العثور على محفظتها. أخبروا السيدة إلفسون أن ابنتها لم تأت للعمل في ذلك اليوم. مذعورة في الحال، بدأت هي وابنتها الأخرى وجارة البحث عنها في البناء.

على السطح عند قمة بئر السلم، شاهدن منظرًا مروعًا. تعرض جسد فرانسين العاري للضرب المبرح، ضربًا وحشيًّا لدرجة أن الطبيب الشرعي قال إن فكها وأنفها وخديها قد تحطموا، وأسنانها متخلخلة. تم فسخ جسمها وربطها بحزامها وجواربها النايلون حول معصميها وكاحليها، مع أن الطبيب الشرعي أكد أنها كانت ميتة بالفعل عند فعل هذا بها. قُطعت حلمتاها بعد الوفاة ووُضعتا على صدرها. سُحب سروالها الداخلي لتغطية وجهها، وكانت آثار العض على فخذيها وركبتيها. تشير التمزقات العديدة على جسدها، وكلها جزئية، إلى وجود مطواة صغيرة. أدخل القاتل مظلتها وقلمها في مهبلها، ووضع مشطها على شعر عانتها. وضع أقراطها على الأرض بشكل متماثل على جانبي رأسها على الأرض. حدد سبب موتها بالخنق بشريط حقيبة كتب الضحية ذاتها. كتب القاتل على فخذها «لا يمكنكم إيقافي»، وكتب على بطنها «تبًّا لكم» بالقلم الذي أُدخِل في مهبلها. الميزة الأخرى الغريبة في موقع الجريمة أن القاتل قد تبرز قرب الجثة وغطى برازه ببعض من ملابس فرانسين.

من الأشياء التي قالتها السيدة إلفسون للشرطة إن قلادة ذهبية على شكل الحرف العبري *تشاي chai، للتعبير عن الحظ الجيد، كانت مفقودة من عنق فرانسين. حين ذكرت الأم شكل القلادة، تذكر المحققون أن الجثة كانت مرتبة بشكل يقلد شكلها.*

وُجدَت آثار سائل منوي على جسدها، لكن تحليل الحمض النووي لم يكن شائعًا في الطب الشرعي في عام 1979. لم تكن هناك أي آثار جروح دفاعية على اليدين أو آثار دماء أو أجزاء من الجلد تحت الأظفار، مما دل على أنه لم يكن هناك مقاومة. كان الدليل الملموس الوحيد الذي قدمته أدلة الطب الشرعي هو شعرة لشخص أمريكي من أصل إفريقي وُجدت على الجثة خلال التشريح.

عند فحص الموقع وتجميع الحقائق المعروفة، قرر محققو جرائم القتل أن الهجوم الرئيسي قد حصل بينما كانت فرانسين نازلة على السلالم. بعد ضربها وإفقادها الوعي، حُملت إلى السطح. وأشار التشريح أنها لم تُغتصب.

بسبب طبيعتها المروعة، نالت القضية اهتمامًا شعبيًّا واسعًا وتغطية إعلامية كبيرة. اجتمعت فرقة عمل من ستة وعشرين محققًا، واستجوبت ما يزيد على ألفي شاهد ومشتبه به محتمَل، وفُحِص جميع مرتكبي الجرائم

الجنسية في منطقة الميتروبوليتان في نيويورك. لكن بعد شهر، بدا أن التحقيق لم يصل إلى شيء.

نظرًا لعدم وجود ضرر في الحصول على رأي آخر، قام المحقق في سلطة الإسكان في نيويورك (توم فولي)، والملازم (جو داميكو) بالاتصال بنا في كوانتيكو. جاءا حاملَين الملفات والتقارير، صور موقع الجريمة وبروتوكولات التشريح. التقينا بهما، روي هازلوود، وديك أولت، وتوني رايدر (الذي سيتولى فيما بعد منصب مدير وحدة العلوم السلوكية) وأنا في غرفة الطعام التنفيذية.

بعد الاطلاع على جميع الأدلة والمواد من القضية ومحاولة وضع نفسي مكان كل من الضحية والمهاجم، توصلتُ إلى ملف تعريفي. اقترحتُ على الشرطة أن تبحث عن ذكر أبيض متوسط الشكل يتراوح عمره بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، ربما في الثلاثين تمامًا، قد يكون شكله أشعث، عاطل عن العمل، وهو (بشكل رئيسي) ينشط ليلًا، يعيش داخل مساحة نصف ميل عن البناء مع والديه أو قريبة أكبر سنًّا، أعزب وليست له علاقات مع النساء ولا أصدقاء مقربين، تارك للمدرسة الثانوية أو الجامعة ولا يمتلك خبرة عسكرية. قليل التقدير لذاته، ولا يملك سيارة أو شهادة قيادة، كان مؤخرًا (أو سبق له أن كان) في مصحة عقلية، ويتناول أدوية توصَف له، وحاول الانتحار خنقًا، ولم يكن مدمنًا على الكحول أو المخدرات، ويمتلك مجموعة كبيرة من المواد الإباحية الجنسية السادية-المازوخية. لعل هذه جريمة القتل الأولى التي يرتكبها، أول جريمة جدية في الحقيقة، لكن ما لم يتم الإمساك به، فلن تكون الأخيرة.

«لستم مضطرين للذهاب بعيدًا كي تمسكوا بهذا المجرم» قلت للمحققين. «كما أنه سبق أن تحدثتم إلى الرجل». لا بد أنهم قابلوه مع أفراد من عائلته، ما داموا قد كانوا يعيشون في المنطقة. كانت الشرطة ستراه متعاونًا، ربما بشكل مفرط. سوف يبحث عنهم، وسيقحم نفسه في التحقيق ليتأكد من أنه لن يقترب منه.

بالنسبة إلى كثير من الناس ممن هم غير معتادين على تقنياتنا، فقد بدا ذلك أشبه بالتهريج. لكن إذا طبقتَ ذلك منهجيًا، سوف تبدأ لترى كيف نتوصل إلى انطباعاتنا وتوصياتنا.

كان أول شيء قررناه أنها كانت جريمة فرصة، حادث عفوي. أخبرنا والدا فرانسين أنها كانت أحيانًا تستخدم المصعد وأحيانًا تنزل على السلالم. لم

يكن هناك أي طريقة للتنبؤ بما كانت ستفضله في أي صباح. إذا كان القاتل مستلقيًا هناك بانتظارها في بئر السلم، فقد يكون قد فوت الأمر كله عليه، قد يصدف أن يلتقي أشخاصًا آخرين قبل أن يرى فرانسين.

كل شيء استُخدم في الهجوم وكان على جثة الضحية كان للضحية ذاتها. لم يحضر القاتل شيئًا معه إلى الموقع، أكثر من المطواة الصغيرة، لم يكن معه أسلحة أو عدة اغتصاب، لم يتعقبها أو يأتِ إلى المكان بنية ارتكاب الجريمة، وهذا بدوره ما قادنا إلى الاستنتاج التالي.

إذا لم يكن المشتبه به مجهول الهوية قد ذهب إلى البناء بنية ارتكاب هذه الجريمة، فلا بد أنه كان موجودًا هناك لسبب آخر. وبالنسبة إليه، فحتى يكون هناك قبل السابعة صباحًا، وحتى يصادف فرانسين على السلالم، فهذا معناه أنه إما كان يعيش هناك، أو يعمل هناك، أو أنه على معرفة وثيقة بالمكان. وهذا يعني أنه إما ساعي بريد أو عامل في شركة الهاتف أو عامل في شركة كون إيد Con Ed، على الرغم من أنني استبعدت هذا بسبب عدم توفر تقارير الشهود، كما أنه من الواضح أن شخصًا بهذا التوصيف لن يتوفر له الوقت الذي قضاه معها. بعد هذا الهجوم الأولي على السلالم، عرف أن بإمكانه أن يأخذها إلى السطح دون أن يقاطعه أحد. كما أنه ما دام أحد في البناء لم يلحظ أو يرى شيئًا غير اعتيادي، فلا بد أن الأمور مواتية. لم تصرخ فرانسين أو تقاوم، لذلك ربما عرفته، على الأقل سطحيًا، ولم يلحظ أحد شخصًا غريبًا أو مثيرًا للريبة يدخل أو يخرج من البناء في ذلك الصباح.

بسبب الطبيعة الجنسية للهجوم، كنا واثقين أننا نتعامل مع شخص في نطاق عمرها ذاته. قدَّرنا أن يكون عمره بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، وربما بين ذلك تمامًا. كنت راغبًا في استبعاد الفتى ذي الخمس عشرة سنة الذي وجد المحفظة (تمامًا كوالده الذي في الأربعين) بناء على هذا فقط. لكن بناء على خبرتي، لم أكن أتخيل شخصًا في ذلك العمر يتعامل مع الجثة بهذا الشكل. حتى مونتي ريسل، المغتصِب المتسلسل «المتبجح» بتطرف، لم يكن ليتصرف بهذا الشكل. هذا الخيال الجنسي سيحتاج إلى سنين ليتطور، كما أن الفتى في الخامسة عشرة كان أسود.

حتى مع أن فحص الجثة أبرز شعرة تعود لشخص أمريكي من أصل إفريقي، فإني كنت مقتنعًا أننا كنا نتعامل مع قاتل أبيض. من النادر جدًا أن نرى هذا النوع من الجرائم بين عرقين مختلفين، وحين كنا نفعل، فقد كانت

هناك قرائن أخرى تدعم ذلك. ولم يكن هناك أي شيء في حالتنا، كما أنني نادرًا جدًّا (إذا حصل أصلًا) ما رأيت هذا النوع من التشويه يقوم به مجرم أسود. كان البواب الأسود السابق للمبنى الذي لم يسلم مفاتيحه مشتبهًا به جيدًا، لكنني لم أظن أنه هو بسبب التفكير في السلوك وحقيقة أن بعض المستأجرين سيلاحظون وجوده.

كيف جزمت بأن الشعر المرتبط بالجريمة هو لمشتبه به مجهول الهوية أسود؟ أرادت الشرطة أن تعرف. لم أعلم، مما جعلني مستاء بدرجة ما، لكني كنت لا أزال متأكدًا بما يكفي أنني كنت محقًّا في الدفاع عن فكرتي.

كانت تلك جريمة «عالية الخطر» وضحية «منخفضة الخطر». لم يكن لديها أصدقاء، ولم تكن مومسًا، أو متعاطية مخدرات، أو طفلة جميلة في بيئة مفتوحة، كما أنها لم تكن في حي سيئ بعيدًا عن منزلها. كان في البناء نحو 50 في المائة من السود، و40 في المائة من البيض، و10 في المائة من أصحاب الأصول الإسبانية. لم يعلَن من قبل عن جرائم مشابهة هنا أو في أي مكان آخر في الحي. كان يمكن لأي مهاجم أن يختار مكانًا «أكثر أمنًا» لارتكاب جريمة جنسية. وقد أشار هذا (مع الافتقار للاستعداد المسبق) إلى مجرم غير منظم.

منحتني العوامل الأخرى بتجميعها معًا صورة أوضح لنمط الشخص الذي قتل فرانسين إلفسون. كان هناك تشوهات جنسية رهيبة واستمناء فوق الجثة، لكن لا جماع. كان إدخال المظلة والقلم بديلًا جنسيًّا. وواضح جدًّا أن الذكر البالغ الذي كنا نبحث عنه كان غير آمن وغير ناضج جنسيًّا وغير مكتفٍ. كان الاستمناء يشير إلى ذلك، كان طقسًا يشبع فيه خيالاته في بعض الأحيان. كان ذلك الخيال الاستمنائي تغذيه مظاهر الاستعباد الفجة والإباحية السادية المازوخية، وهي أيضًا من علامات الذكر غير المكتفي والقاصر جنسيًّا.

تذكروا، لقد قيدها بعد فقدانها الوعي أو موتها. إن اختيار ضحية هشة وضعيفة جسديًّا ومع ذلك اضطر لمهاجمتها بشكل خاطف ومن الخلف وقيَّدها سريعًا قبل أن يتمكن من اقتراف خيالاته العنيفة عليها قد ثبت ذلك في ذهني. لو أنه ارتكب الأفعال ذاتها على شخصية حية واعية، لكانت قصة مختلفة تمامًا كشخصية. لكن بما كان عليه، فإنه سيواجه الكثير من الصعوبة في الحفاظ على العلاقات بالنساء. إن كان قد واعد إحداهن أصلًا، وهو ما

كنت أشك فيه، إنه سيفضل اختيار امرأة أصغر سنًّا وأضعف كيما يتمكن من فرض سطوته عليها والتحكم بها.

حقيقة أنه كان يتجول في الجوار حول البناء بينما كانت فرانسين وأشخاص آخرون في طريقهم للعمل أخبرتني أنه لم يكن موظفًا بدوام كامل. إن كان يعمل فلا بد أنه عمل بدوام جزئي، ربما في الليل، ولم يكن ينال أجرًا جيدًا.

توصلت من ذلك لاستنتاج أنه لم يكن قادرًا على أن يعيش بمفرده. وعلى عكس الكثير من أنواع القتلة الأكثر براعة، فإن هذا الشخص لن يتمكن من إخفاء ملامح غرابته عن أقرانه، ما يعني أنه لن يكون له أصدقاء ولا يعيش مع زميل سكن. سيكون ربما شخصًا ليليًّا ولن يهتم كثيرًا بمظهره. على اعتبار أنه لا يعيش مع أصدقاء ولا يمكنه تحمل تكاليف السكن وحيدًا، لا بد أنه يعيش مع والديه، أو على الأرجح، كما شعرت، مع أحد أبويه أو سيدة عجوز من أقربائه مثل أخت أو عمة. لن يستطيع تحمل نفقات سيارة ما يعني إما أنه كان يستخدم المواصلات العامة إلى البناء، أو كان يمشي إلى هناك أو عاش هناك. لم أر أنه سيستقل الحافلة في هذا الوقت المبكر للوصول إلى هنا في هذا الوقت المبكر من الصباح، مما استدعى القول إنه كان يعيش في البناء، أو لنقل، ضمن نطاق نصف ميل.

كان هناك تموضع عدة أشياء طقسية (الحلمتان المقطوعتان، الأقراط، وضع الجثة ذاتها). أخبرني هذا النوع من القهرية وسط هذه الفوضى غير المنظمة أن فريستي لديه مشكلات نفسية وعقلية عميقة. توقعت أن يكون منتظمًا على (أو على الأقل سبق له أن كان منتظمًا) وصفة طبية. ذلك وحقيقة أن الجريمة ارتُكبت في الصباح الباكر أشار لي أن الكحول ليس عاملًا فاعلًا في هذا الشخص. مهما كان اختلاله وذهانه، فقد كان يزداد سوءًا وكان ملحوظًا لأولئك المحيطين به. محاولات انتحار سابقة، وبخاصة عن طريق الخنق -وسيلة القتل التي نفذها على فرانسين- كانت احتمالية جيدة. أراهن أنه كان أو سبق له أن كان في مصحة عقلية. استبعدت أي خبرة عسكرية بسبب هذا، وفكرت أنه تارك للمدرسة الثانوية أو الجامعة بتاريخ من الطموحات غير المحقَّقة.

كنت متأكدًا لدرجة معقولة أنها كانت أول جريمة قتل يرتكبها هذا الشخص، لكنه إذا نجا منها، فلن تكون الأخيرة. لم أتوقع منه أن يضرب

مجددًا مباشرة. هذه الجريمة كفيلة بجعله يتراجع لأسابيع أو شهور. لكن في النهاية، حين تصبح الظروف ملائمة وتظهر ضحية الفرصة مجددًا، فسوف يضرب ثانية. هذا ما أخبرتني به الرسائل التي كتبها على الجثة.

أخبرني وضعه للجثة في تلك الوضعية المهينة والطقوسية أنه لم يكترث بالجريمة أو يكنّ مشاعر الندم عليها. لو أن جثتها كانت مغطاة، لكنت فكرت أن وضع سروالها الداخلي على وجهها كان علامة على شعوره بالأسف وأنه أراد أن يتركها بشيء من الكرامة، لكن هذا كان معاكسًا تمامًا من خلال كشف الجسد، لذلك فإن تغطية وجهها كان على سبيل نزع السمات الشخصية وإهانتها أكثر من أي فعل ندم أو قلق.

بشكل مثير للاهتمام، لقد استخدم ملابسها لتغطية برازه. لو أنه تبرز في موقع الجريمة وترك ذلك مكشوفًا، لربما كان يمكن تأويل ذلك على أنه جزء من خيال طقوسي أو علامة أخرى على ازدراء هذه الضحية خصوصًا أو النساء عمومًا، لكن حقيقة تغطيته للبراز دلت على أنه قد يكون هناك منذ وقت طويل ولم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه أو أنه لم يستطع التحكم بأعصابه أو كلا الأمرين. بناء على خبرة سابقة، أعتقد أن عدم قدرته على الامتناع عن التبرز في موقع الجريمة كان بسبب الدواء أيضًا.

بعد تلقيها هذا الملف التعريفي، عادت الشرطة إلى قائمة المقابلات والمشتبه بهم. استبعدوا متهمًا سابقًا بالاعتداء الجنسي، متزوج ولديه أطفال. كانت القائمة الأولية تضم عشرين اسمًا، ومن هؤلاء، كان هناك واحد يطابق المواصفات الواردة في الملف التعريفي بشكل وثيق.

كان اسمه كارمين كالابرو. ممثل أبيض عاطل عن العمل في الثلاثين من عمره، عاش بشكل متقطع مع أبيه الأرمل في بناء إلفسون، وفي الطابق الرابع أيضًا.

كان غير متزوج وورد أنه واجه مشكلات في الحفاظ على علاقاته مع النساء. تارك للمدرسة الثانوية، ولم تكن لديه خبرة عسكرية. عندما فتشت الشرطة غرفته، وجدوا مجموعة واسعة من مواد إباحية سادية مازوخية. كان له تاريخ من محاولات الانتحار بالشنق والاختناق، قبل جريمة قتل إلفسون وبعدها.

لكن كانت لديه حجة غياب. كما توقعت، فقد قابلت الشرطة والده، كما فعلوا مع جميع سكان البناء. أخبرهم السيد كالابرو أن كارمين كان مريضًا

مقيمًا في مستشفى عقلي محلي حيث يتلقى العلاج من الاكتئاب. هذا هو سبب استبعاد الشرطة له في وقت سابق.

لكن مسلحين بالملف التعريفي، عادوا مباشرة إلى العمل وحددوا بسرعة مستوى التراخي الأمني في تلك المؤسسة تحديدًا. ثم تمكنوا من الإثبات بشكل قاطع أن كارمين كان متغيبًا دون إذن -كان قد خرج ببساطة- في المساء السابق لمقتل إلفسون.

بعد ثلاثة عشر شهرًا من جريمة القتل، اعتُقل كارمين كالابرو وحصلت الشرطة على آثار أسنانه. أكد بعدها ثلاثة أطباء أسنان شرعيين التطابق بين أسنانه وآثار العض على جسد فرانسين. لقد كان ذلك الدليل الرئيسي في المحاكمة، التي لم يعترف فيها كالابرو بالذنب، والتي انتهت بإدانته وحُكِم عليه بالسجن المؤبد خمسة وعشرين عامًا.

أما شعرة الشخص الأمريكي من أصل إفريقي، بالمناسبة، فقد تبين أن لا صلة لها بالجريمة. قام مكتب الطبيب الشرعي بتحقيق إجرائي دقيق واكتشفوا أن كيس الجثة الذي استُخدم لنقل جثة فرانسين إلى المشرحة استُخدم من قبل لنقل جثة رجل أسود ولم يتم تنظيفها بشكل جيد بين الاستخدامين. لكن هذا يدل على أن دليل الطب الشرعي وحده قد يكون مضللًا، وإذا كان لا يتناسب مع الانطباع العام للمحقق عن القضية، فيجب أن يُنظَر فيه بعناية قبل قبوله كدليل.

كانت هذه القضية مرضية للغاية بالنسبة إلينا، وجعلتنا نشعر بمزيد من الرضا بحقيقة أننا جعلنا الأشخاص الذين نعمل معهم في نيويورك يؤمنون بما نفعل. وهم من أصعب العاملين في مجال إنفاذ القانون وأكثرهم حدة في هذا المجال. ومن أجل مقالة أبريل 1983 بشأن برنامج التنميط في مجلة *Psychology Today*، كتب الملازم داميكو: «*لقد كانوا على درجة من الصواب بشأنه لدرجة أني سألت إف بي آي لماذا لم يزودونا برقم هاتفه، أيضًا*».

بعد ظهور تلك المقالة، كتب كالابرو إلينا من مرفق كلينتون الإصلاحي في دينيمورا، نيويورك، حتى مع عدم ورود اسمه أو اسم إلفسون في المقالة. في رسالة مضطربة مختلة القواعد والإملاء، كانت لديه إطراءات عامة يقولها عن الـ إف بي آي وإدارة شرطة نيويورك، مكررًا تأكيده على براءته، وجمع نفسه في مستوى واحد مع ديفيد بيركويتز وجورج ميتسكي، الماد بومبر،

وكتب: «إنني لا أناقض ملفك التعريفي للقاتل في هذه القضية، كحقيقة، في نقطتين، أعتقد بصدق أنك محق».

ثم مضى ليسألنا إن كنا قد علمنا بوجود دليل الشعر على الجثة، ما يجعله يعتقد أنه (وفق تعبيري أنا، لا كلامه) قد يبرئه. ثم أخذ يسأل متى توصلنا إلى ملفه التعريفي وما إذا كنا قد استخدمنا كل الأدلة الموجودة. إذا كنا قد اطلعنا على جميع الأدلة، فسوف يشعر بالارتياح، أما إذا لم نكن قد فعلنا، فإنه سيكتب لنا مرة أخرى.

فكرت في أن هذه الرسالة قد تكون فتحًا للسماح لنا بتضمين كالابرو في دراستنا. لذلك في يوليو 1983، توجه بيل هاجماير وروزان روسو (إحدى أولى العملاء السيدات في وحدة العلوم السلوكية) إلى كلينتون لمقابلة كالابرو. وصفاه بأنه عصبي لكن مهذب ومتعاون، مثلما كان مع الشرطة. ركز كثيرًا على براءته وعلى الاستئناف القادم، زاعمًا أنه أُدين بشكل مجحف بناء على دليل آثار العض. كنتيجة، اقتلع كل أسنانه «كيلا يستطيعوا إدانتي مجددًا»، وعرض بفخر فمه الخالي من الأسنان.

بخلاف ذلك، كانت المقابلة بطرق عديدة إعادة تكرار لمحتوى رسالته، على الرغم من أن هاجماير وروسو قالا إنه بدا مهتمًا بما كانا يفعلانه ولم يرد منهما المغادرة، إذ إنه حتى في السجن، بقي وحيدًا.

ما من شك في رأيي أن كارمين كالابرو يعاني اضطرابًا نفسيًّا عميقًا. لا شيء في قضيته، أو خلفيته، أو تواصلنا معه يشير إلى أي شيء يدل على الحياة الطبيعية. في الآن ذاته، ما زلت أعتقد أنه مثل معظم الأفراد المضطربين، فإنه قد فهم الفرق بين الصح والخطأ. إن امتلاك هذه الخيالات الغريبة والمريبة ليست جريمة. لكن امتلاك الخيار الإرادي للتصرف وفقها للتسبب بالأذى للآخرين هو الجريمة بكل تأكيد.

9

تبادل الأدوار

في حلول ذلك الوقت في مطلع الثمانينيات كنت أتعامل مع ما يزيد على 150 قضية في السنة، وكنت أقضي على الطرقات عددًا مساويًا من الأيام. كنت قد بدأت أشعر أني مثل لوسيل بول وهي تحاول أن تسرع كي تواكب ذلك الشريط المتحرك في مشهد معمل الحلوى الشهير في *أحب لوسي I Love Lucy*، كلما وصلني المزيد من الأشياء، كان عليَّ أن أبذل قصارى جهدي لئلا تقع هذه الأشياء مني. في الحقيقة، كان التقدم في اللعبة بحيث يمكنني أن أسترد أنفاسي للحظة أمرًا غير وارد.

بينما أصبح عملنا ونتائجنا معروفين، وصلتنا طلبات المساعدة من جميع أنحاء الولايات المتحدة ومن العديد من الدول الأجنبية. ومثل ضابط الفرز في غرفة الطوارئ، كان عليَّ أن أصنف القضايا وفق الأولويات. كانت قضايا الاغتصاب والقتل التي تشير إلى إمكانية خسارة المزيد من الأرواح تنال اهتمامي المباشر.

في القضايا الباردة التي لم يبدُ فيها أن المشتبه به مجهول الهوية نشط، كنت أسأل الشرطة لماذا استدعونا. في بعض الأحيان كانت عائلة الضحية تضغط عليهم للوصول إلى حل. كان ذلك مفهومًا وقد كنت أتعاطف معهم قلبيًّا، لكن لم يكن بوسعي قضاء وقت ثمين على تحليل سيضعه رجال الشرطة المحليون على الرف دون اتخاذ أي إجراء. أما في القضايا النشطة، فقد كان رؤية مصدرها مثيرًا للاهتمام. في الأيام الأولى للبرنامج، كان أي شيء يأتي من الإدارات الكبرى -لنقُل إدارة شرطة نيويورك أو إدارة شرطة لوس أنجلوس- يثير شكي حول سبب توجههم لوحدتي في كوانتيكو أصلًا.

في بعض الأحيان كان ذلك نزاعًا قضائيًا مع الـ إف بي آي، مثل حول من سينال تسجيلات المراقبة، من سيجري الاستجوابات، ومن سيلاحق سلسلة جرائم سطو على البنوك. أو لربما كان للقضية مسألة سياسية ساخنة وأراد السكان المحليون أن يأتي شخص من الخارج ويتحمل هذا العبء. كانت كل هذه الاعتبارات تجول في خاطري خلال اتخاذ القرار حول كيفية الاستجابة أو الرد على طلب المساعدة، لأني عرفت أن هذه العوامل كلها كانت ستساعدني في تحديد ما إذا كانت القضية على وجه الخصوص ستُحَل. مبدئيًا، كنت أقدم تحليلات مكتوبة. لكن مع ازدياد عبء القضايا بشكل كبير، لم يعد عندي وقت لذلك. كنت أسجل ملاحظات خلال تفحصي لملف، ثم حين أتحدث إلى المحقق المحلي -سواء شخصيًا أو عبر الهاتف- كنت أراجع ملاحظاتي وأتذكر القضية. وبشكل طبيعي، فقد كان رجال الشرطة يأخذون نسخًا عن ملاحظاتي التي كنت أقولها لهم. في تلك الحالات النادرة التي يكون فيها الشرطي معي في الغرفة ذاتها، إذا كان سيصغي فقط دون أن يسجل ملاحظات، فإني سأفقد صبري سريعًا، وأخبره أنها قضيته، لا قضيتي، وأنه إذا ما أراد مساعدة مني، فمن الأفضل أن يحرك مؤخرته ويعمل بكدٍّ مثلما كنت أفعل.

لقد فعلت الكثير من ذلك الأسلوب حيث -مثل طبيب- عرفت كم يجب أن تستغرق كل «زيارة مكتب» من الوقت. بحلول ذلك الوقت سأكون قد راجعت القضية، وعرفت إن كنت أستطيع المساعدة أم لا، لذلك فقد أردت أن أركز على تحليل موقع الجريمة وعلم الضحايا على الفور. لماذا اختيرت هذه الضحية من بين الضحايا الآخرين المحتمَلين؟ كيف تم قتله أو قتلها؟ من هذين السؤالين، يمكنك أن تبدأ بتوجيه السؤال النهائي: مَن؟

مثل شيرلوك هولمز، كنت أدرك سريعًا أنه كلما كانت الجريمة عادية وروتينية، كان الدليل السلوكي الذي يمكن العمل عليه أقل. لم أكن لأستطيع المساعدة كثيرًا في جرائم الإيقاف في الشارع. فهي شائعة للغاية، والسلوك عادي جدًا، وبالتالي فإن مجال المشتبه بهم هائل. وبالمثل، فإن طلقة نارية أو جرح طعنة يقدم سيناريو أصعب من جروح متعددة، القضية الخارجية أكثر تحديًا من الداخلية، وضحية عالية الخطورة مثل مومس لا تعطينا معلومات كسلسلة من الضحايا.

كان أول ما أنظر إليه هو تقرير الطب الشرعي لمعرفة طبيعة الجروح وأنواعها، وسبب الوفاة، وما إذا كان هناك اعتداء جنسي، وإذا كان فمن أي نوع. تراوحت نوعية عمل الطبيب الشرعي بشكل كبير جدًّا عبر آلاف الوحدات الشرطية القضائية حول البلاد. كان بعضهم أطباء شرعيين حقيقيين وكان عملهم من الدرجة الأولى. على سبيل المثال، عندما كان الدكتور جيمس لوك طبيبًا شرعيًّا في العاصمة واشنطن، كان يمكننا دائمًا التعويل على بروتوكولات شاملة وتفصيلية ودقيقة. منذ تقاعده عن العمل، كان الدكتور لوك استشاريًّا مهمًّا لوحدتي في كوانتيكو. على الجانب الآخر، فقد شاهدت أوضاعًا في مدن صغيرة في الجنوب حيث كان الطبيب الشرعي هو مدير دار الجنازات المحلية. كانت فكرته عن فحص ما بعد الوفاة هو أن يأتي إلى الموقع، يركل الجثة، ويقول: «أجل، هذا الفتى ميت فعلًا».

بعد أن اطلعتُ على النتائج المتعلقة بالجسد، قرأتُ تقرير الشرطة الأوَّلي. حين جاء الضابط الأول، ماذا رأى؟ من تلك النقطة، من الممكن أنه تم تعديل موقع الجريمة، إما من قِبله أو من قِبل شخص آخر في فريق التحقيق. كان من المهم بالنسبة إليَّ أن أتصور الموقع بأقرب شكل ممكن له حين غادره الجاني. إذا لم يكن في تلك الحالة، فقد أردت معرفة ذلك. على سبيل المثال، إذا كان هناك وسادة على وجه الضحية، فمن وضعها هناك؟ هل كانت هناك حين جاء الضابط؟ هل وضعها أحد أفراد العائلة الذي وجد الجثة من أجل إكرامها؟ أم أن هناك تفسيرات أخرى؟ أخيرًا، كنت أنظر إلى صور موقع الجريمة وأكمل الصورة في عقلي.

لم تكن الصور الفوتوغرافية دائمًا بجودة عالية، وبخاصة حين كانت معظم إدارات الشرطة تصوِّر بالأسود والأبيض. لذلك كنت أطلب أيضًا رسمًا تخطيطيًّا لموقع الجريمة يوضِّح جميع الاتجاهات وآثار الأقدام التي تم ملاحظتها. إذا كان لدى المحققين شيء محدد يريدونني أن أطلع عليه، كنت أطلب منهم كتابته على ظهر الصورة، بحيث لا أتأثر بملاحظة أحدهم عند اطلاعي الأول عليها. وعلى نفس المنوال، إذا كان لديهم مشتبه به على رأس القائمة، لم أكن أريد أن أعرف، أو كنت أطلب أن يرسلوا لي الاسم في مغلف مغلق بحيث يمكنني أن أبقى موضوعيًّا في تحليلي.

كان من المهم أيضًا أن نحاول اكتشاف أي شيء أُخِذَ من الضحية أو أُزيل من موقع الجريمة. بشكل عام، كان واضحًا إن تم أخذ النقود أو الجواهر أو

الأشياء القيِّمة، وكل منها سيدل على دافع المجرم. أما بقية الأشياء فليست سهلة التعقب دائمًا.

حين يخبرني ضابط أو محقق أنه لم يؤخَذ شيء، كنت أسأل: «كيف عرفت؟ هل تقصد أن تخبرني أني إذا أخذت حمالة صدر أو سروالًا داخليًّا من درج زوجتك أو حبيبتك فلن تكون قادرًا على تمييز ذلك؟ لأنه إذا كان الأمر هكذا، فأنت جرو مريض». أي شيء بسيط يمكن أن يكون مفقودًا مثل مشبك أو خصلة شعر، وسيكون تعقب هذا صعبًا. أما مجرد حقيقة أنه لا شيء يبدو مفقودًا فلم تكن قط نتيجة قطعية في ذهني. لأنك حين تمسك المجرم في النهاية وتفتش مكانه، غالبًا ما سترى تذكارات مفاجئة.

كان واضحًا منذ البداية أن الكثير من الأشخاص، من داخل المكتب وخارجه، لم يفهموا تمامًا ما كنا بصدده. جرى هذا لي خلال رحلة تعليمية لأسبوعين عن جرائم القتل في نيويورك عام 1981. كان هناك نحو 100 محقق، معظمهم من إدارة شرطة نيويورك لكن أيضًا من هيئات قضائية من جميع أنحاء منطقة ميتروبوليتان نيويورك.

في صباح أحد الأيام، قبل بدء الدرس عن التنميط مجددًا، كنت في مقدمة غرفة أقوم بإعداد جهاز عرض سوني VCR كنا نستخدمه في تلك الأيام. جاءني أحد أولئك المحققين مرهقًا بعينيه الشاحبتين والمحمرتين وقال: «أنت في مسألة التنميط هذه، أليس كذلك؟»

«بلى، هذا صحيح» أجبته وأنا ألتفت لجهاز VCR ثلاثة أرباع البوصة. «في الحقيقة، هذه هي آلة التنميط».

نظر إليَّ بشك، بالطريقة التي ينظر بها المحققون المخضرمون إلى مشتبه به، لكنه بقي معي.

قلت: «أعطِني يدك. سأريك كيف تعمل». بتردد أعطاني يده. في جهاز VCR ثلاثة أرباع البوصة تكون فتحة شريط الكاسيت كبيرة. أخذت يده ووضعتها في فتحة الشريط، وشغلت بعض الأزرار. في ذلك الوقت، كان ريسلر في مكان ما في الغرفة، يجهِّز مواده. يسمعني ويقترب مفكرًا أني سأتعرض للضرب.

لكن الرجل يقول: «ما هو ملفي التعريفي إذن؟»

قلت: «لماذا لا تنتظر الصف. سترى كيف تعمل».

لحسن حظي، فقد اكتشف الرجل خلال الصف ماذا كان يجري بينما كنت أشرح عملية التحليل التنميطي واستخدمت جهاز الـ VCR من أجل وظيفته الحقيقية: أن يعرض الصور! ولم يكن ينتظرني في النهاية. لكن العبرة في هذه القصة أني كنت أتمنى دائمًا لو كان أمر التوصل إلى ملف تعريفي قابلًا للاستخدام بهذه السهولة. لا يمكنك فقط وضع يدك (أو أي عضو آخر من الجسم) في آلة والتوصل إلى ملف تعريفي، لقد عمل خبراء الحاسوب لسنوات مع مسؤولي إنفاذ القانون لتطوير برامج من شأنها أن تقلد العمليات المنطقية التي نمارسها. وإلى الآن، لم يحققوا نتائج كبيرة.

حقيقة الأمر أن التنميط وتحليل موقع الجريمة هو أكثر من مجرد إدخال البيانات. حتى تكون منمِّطًا جيدًا، يجب أن تكون قادرًا على تقييم مجموعة كبيرة من الأدلة والبيانات. كما أن عليك أن تستطيع وضع نفسك في مكان كل من القاتل والضحية.

يجب أن تتمكن من إعادة اختلاق موقع الجريمة في رأسك. يجب أن تعرف أكثر ما يمكنك معرفته عن الضحية كيما تتمكن من تخيل كيف تفاعلت مع الوضع. يجب أن تمتلك القدرة على وضع نفسك مكانها، حين يهددها المهاجم بمسدس أو سكين، أو بصخرة، أو بقبضتيه، أو أي شيء من هذا القبيل. يجب أن تحسَّ برعبها حين يقترب منها. يجب أن تتخيل ما الذي كانت تمر به بينما كان يعذبها بغية الوصول للإشباع الجنسي.

يجب أن تفهم كيف يبدو أن تصرخ برعب ومعاناة، مدركًا أن ذلك بلا جدوى، وأن ذلك لن يردعه أو يوقفه. يجب أن تعرف تلك الحالة. وهو عبء ثقيل أنت مضطر لحمله، وبخاصة حين تكون الضحية طفلًا أو شخصًا مسنًا.

عندما جاء مخرج فيلم صمت الحملان The Silence of the Lambs إلى كوانتيكو للتحضير لتصوير الفيلم، أحضرت سكون جلنّ، الذي لعب دور جاك كراوفورد -العميل الخاص الذي قيل إن شخصيته مقتبسة عني- إلى مكتبي. كان جلنّ شخصًا ليبراليًّا يكنُّ مشاعر قوية تجاه إعادة التأهيل، والإصلاح والخير المتأصل الموجود داخل الناس. أريته بعض أبشع صور مواقع الجرائم التي عملنا عليها يوميًّا. تركته يستمع لتسجيلات يروي فيها المجرمون كيف كانوا يعذبون ضحاياهم. استمع لواحدة من فتاتين مراهقتين في لوس أنجلوس تعرضتا للتعذيب حتى الموت في مؤخرة شاحنة من قِبَل قاتلين باحثين عن الإثارة (أُخلي سبيلهما مؤخرًا من السجن).

بكى جلنّ خلال استماعه للتسجيلات. قال لي: «لم تكن لدي فكرة أن هناك أشخاصًا يمكن أن يفعلوا أي شيء مثل هذا». ثم عبَّر جلنّ، الأب الذكي والحنون الذي لديه ابنتان، أنه بعد ما رآه وسمعه في مكتبي، فإنه لم يعد يستطيع معارضة حكم الإعدام: «لقد غيرت التجربة في كوانتيكو رأيي في ذلك تمامًا». لكن على نفس القدر من الصعوبة، فإن عليَّ أن أضع نفسي في موقع المهاجِم، كي أفكر كما يفكر، لأخطط معه، لأفهم وأشعر بالرضا الذي يشعر به في هذه اللحظة من حياته حيث تتحقق خيالاته وقد أصبح أخيرًا متحكمًا ومسيطرًا كليًّا على كائن بشري آخر. يجب أن أتبادل الأدوار مع ذلك القاتل أيضًا.

كان اسم الرجلين اللذَين كانا يعذبان ويقتلان المراهقتين في الشاحنة لورنس بيتاكر وروي نوريس. حتى إنهما وضعا لقبًا لشاحنتهما: «ميردر ماك» (ماك الجريمة) Murder Mac. التقيا حين كانا يقضيان فترة حبس في سجن مستعمرة كاليفورنيا للرجال CMC في مدينة أوبيسو في سان لويس. كان بيتاكر يقضي عقوبة على جريمة اعتداء بسلاح قاتل، فيما كان نوريس مغتصِبًا مدانًا. حين اكتشفا مصلحتهما المشتركة في إيذاء الشابات والسيطرة عليهن، عرفا أنهما رفيقان. في عام 1979، نالا الإفراج المشروط، فاستقرا في فندق صغير في لوس أنجلوس ووضعا الخطط لاختطاف واغتصاب وتعذيب وقتل فتاة من كل سن في المراهقة، من الثالثة عشرة إلى التاسعة عشرة. نفذا خططهما بنجاح على خمس فتيات فيما نجحت واحدة في الهروب بعد اغتصابها وذهبت إلى الشرطة. استسلم نوريس، الأقل هيمنة وقوة بين الاثنين أمام تحقيق الشرطة، واعترف، مقابل الحصول على حصانة من عقوبة الإعدام، ووافق على توجيه الاتهام لبيتاكر الأكثر وحشية وسادية. قاد الشرطة إلى مواقع الجثث المتعددة. واحدة منهن (وقد تحولت إلى هيكل عظمي تحت شمس كاليفورنيا) كان لا يزال هناك معول ثلج بارز من أذنها. الملحوظ في هذه القضية، بصرف النظر عن المأساة المروعة لإنهاء حياة تلك الشابات الواعدات ومرارة تعذيب الفتيات، أنها كانت (وفق تعبير نوريس) «من أجل اللهو»، وهي ديناميكية جرمية مختلفة حين ينخرط مجرمان في الجريمة ذاتها. بشكل عام، ما نراه هو واحدٌ أكثر سيطرة وآخر أقل سيطرة، واحدٌ أكثر تنظيمًا وآخر أقل تنظيمًا. القتلة المتسلسلون أشخاص يشعرون بانعدام الكفاءة، أما الذين يحتاجون إلى شريك معهم لتنفيذ عملهم فهم الأقل

كفاءة على الإطلاق. وبقدر ما كانت جرائمهما مريعة (كان لورنس بيتاكر أحد أكثر الأشخاص الذين قابلتهم بغضًا على الإطلاق)، فإنها لحسن الحظ ليست فريدة من نوعها. مثل بيتاكر ونوريس، التقى جيمس روسل أودوم وجيمس كلايتون لاوسون جونيور في السجن. كان ذلك في أواسط السبعينيات وكان كلاهما يقضي فترة حبس في مستشفى أتاسكاديرو للأمراض العقلية في كاليفورنيا، بسبب جريمة اغتصاب. بالنظر إلى سجلاتهما، كنت أرى روسل أودوم مختلًّا عقليًّا بينما كان كلاي لورنس مصابًا بالفصام. خلال وجودهما في أتاسكاديرو، شرح كلاي لروسل خططه التي ينوي تنفيذها بعد خروجه.

كان ذلك يشمل اختطاف النساء، وقطع أثدائهن، وإزالة المبايض وإدخال سكاكين في المهبل. قال إنه تأثر واستلهم عمل تشارلز مانسون وأتباعه. أوضح لاوسون بصراحة أن الجماع لم يكن جزءًا من خطته. لم يفكر في ذلك كجزء من «فعل عمله».

كان أودوم، في الجهة المقابلة، يعتبر الجماع أمرًا خاصًّا به، وحالما أُطلق سراحه، قاد سيارته الـ فولكسفاغن-بيتل الزرقاء متوجهًا إلى كولومبيا، ساوث كارولينا، حيث كان لاوسون يعمل في تركيب الأنابيب وعاش مع والديه بعد الإفراج المشروط. (كانت سيارة الـ فولكسفاغن-بيتل، كما لاحظت، هي السيارة المفضلة التي اختارها القتلة المتسلسلون، كما هو حال العملاء الفيدراليين الذين كانوا آنذاك بلا مدخرات). اعتقد أودوم أنه في وجود اهتماماتهما المرتبطة لكن المنفصلة، فإنهما سيشكلان فريقًا يقوم فيه كل منهما بما يريد.

في غضون أيام بعد وصول أودوم، خرج الاثنان يبحثان عن ضحية في سيارة فورد كوميت 1974 التي تعود لوالد لاوسون. توقفا عند متجر 7-Eleven على الطريق السريع رقم 1 وشاهدا شابة تعمل وراء منضدة المحاسبة، لكن كان هناك الكثير من الأشخاص لذلك غادرا وذهبا ليشاهدا فيلمًا إباحيًّا.

أظن أن من المهم تسجيل هنا ملاحظة أنه حين أدركا أنهما لن يستطيعا تنفيذ اختطاف ناجح دون التعرض للمقاومة أو أن يشاهدهما أحد على الأقل، فقد غادرا دون ارتكاب جريمتهما المبيَّتة. كان كلا الرجلين مختلًّا عقليًّا، وفي حالة لاوسون، فهناك الكثير مما يمكن أن يجادل فيه بشأن الجنون الإجرامي.

ومع ذلك فحين *لم تكن الظروف في صالح نجاح جريمتهما، فقد تراجعا عن ارتكابها*. لم يكونا تحت تلك الرغبة القهرية أنهما *مجبران* على التصرف. لذلك فإنني أكرر مجددًا: في رأيي وبناء على تجربتي، إن وجود اضطراب عقلي لا يعني أنه سيجعل الجاني يفلت. ما لم يكن متوهمًا كليًّا ولا يستوعب أفعاله في العالم الواقعي، إنه *يختار* ما إذا كان سيؤذي أحدًا آخر أم لا. كما أن المجانين الفعليين يسهل الإمساك بهم، أما القتلة المتسلسلون فليسوا كذلك.

في الليلة التالية بعد مطاردتهما الأولى، ذهب أودوم ولاوسون إلى صالة عرض سينمائية للسيارات. بعد انتهاء عرض الفيلم، غالبًا بعد منتصف الليل، كانا يعودان إلى متجر 7-Eleven. كانا يدخلان ويشتريان بعض الأشياء الصغيرة (حليب بالشوكولاتة، كيس من الفول السوداني، مخللات). في هذه المرة، كانا الوحيدين في المتجر، لذلك خطفا الموظفة الشابة مستخدمين مسدس أودوم عيار 22 كاليبر. بينما احتفظ لاوسون بمسدس 32 في جيبه. عندما وصلت الشرطة لاحقًا، بعد أن اتصل بهم زبون لاحظ أن المتجر خالٍ من الموظفين، وجدوا أن صندوق المال لم يُمس، كما أن محفظة الموظفة كانت وراء المنضدة، ولم يُؤخذ أي شيء ذو قيمة. توجه الرجلان إلى منطقة معزولة. أمرها أودوم أن تخلع ثيابها بالكامل، ثم اغتصبها في المقعد الخلفي للسيارة. في تلك الأثناء، كان لاوسون واقفًا عند باب السائق، طالبًا من أودوم أن يسرع وأن يعطيه دوره. بعد نحو خمس دقائق، قضى أودوم وطره، ربط سرواله وخرج من السيارة كي يأخذ لاوسون مكانه.

يبتعد أودوم عن السيارة، كما يقول، ثم يتقيأ. زعم لاوسون لاحقًا أن أودوم أخبره: «كنا مضطرين للتخلص منها»، حتى على الرغم من أن لاوسون نال وعدًا منها بألا تخبر أحدًا إذا تركاها تذهب. لكن على أي حال، بعد نحو خمس دقائق، سمع أودوم المرأة تصرخ من السيارة وتصيح: «أوه، رقبتي!» عندما عاد، وجد أن لاوسون قد قطع رقبتها وأخذ يشوه جسدها العاري بسكين اشتراها في الليلة الماضية من متجر 7-Eleven.

في اليوم التالي، بينما كان الاثنان في سيارة أودوم الـفولكسفاغن VW، يتخلصان من ملابس الضحية التي لفاها في حزمتين، أخبره لاوسون أنه حاول أن يأكل لحم أعضائها التناسلية بعد الاعتداء عليها، لكن هذا جعله يشعر بالغثيان.

عُثر على الجسد المشوه بفظاعة في وضح النهار، واعتُقل القاتلان بعد بضعة أيام من ارتكاب الجريمة. اعترف روسل أودوم (بدافع الخشية على حياته) بالاغتصاب لكنه أنكر أنه قد شارك في القتل. في أقواله للشرطة، أوضح لاوسون بوضوح أنه لم يجامع الضحية: «لم أغتصب الفتاة. لقد أردت أن أدمرها فقط». إنه شخص كان يمضغ الطباشير خلال محاكمته.

حوكِما بشكل منفصل. نال أودوم حكمًا بالسجن المؤبد بالإضافة لأربعين عامًا بسبب الاغتصاب، وحيازة السلاح غير المشروع، والمشاركة قبل جريمة القتل وبعدها. أُدين لاوسون بجريمة قتل من الدرجة الأولى، أُعدم بالكرسي الكهربائي في 18 مايو، 1976.

مثل بيتاكر ونوريس، تتميز هذه القضية بعرض مختلط للسلوك -وبالتالي دليل سلوكي مختلط- بسبب مشاركة شخصيتين مختلفتين. يُعد تشويه الجسد مؤشرًا على نمط شخصية غير منظمة، بينما يدل وجود السائل المنوي على مهبل الضحية بقوة إلى شخصية منظمة. قمنا بتدريس قضية أودوم ولاوسون في كوانتيكو، وقد كانت في ذهني حين تلقيت اتصالًا من القائد جون ريدر من إدارة شرطة لوجان تاونشيب، بنسلفانيا. كان ذلك في وقت مبكر من عملي محللًا تنميطيًا. وكان ريدر خريجًا في الأكاديمية الوطنية، وعبر العميل الخاص دايل فراي من الوكالة المقيمة لـ إف بي آي في جونستون، طلب هو وأوليفر إي. ماتاس جونيور، المدعي العام في مقاطعة بلير، المساعدة في قضية اغتصاب، قتل وتشويه شابة اسمها بيتي جين شايد.

كانت هذه هي الحقائق التي عُرضت علي:

قبل سنة تقريبًا، في 29 مايو، 1979، كانت هذه المرأة التي تبلغ اثنين وعشرين عامًا عائدة إلى المنزل من عملها (جليسةً للأطفال) قرابة الساعة 10:15 مساء. بعد أربعة أيام، ادعى رجل أنه كان في رحلة في الطبيعة حين عثر على جثتها المشوهة بشكل مروع لكنها محفوظة جيدًا في موقع مكب نفايات غير قانوني على قمة جبل ووبسونونوك، قرب ألتونا. كان شعرها الأشقر الجميل مقصوصًا ومعلقًا على شجرة مجاورة. قال الطبيب الشرعي في المقاطعة تشارلز آر. بوركي لصحيفة محلية إنها كانت حالة الوفاة «الأكثر بشاعة» التي يراها في حياته. توصل إلى أن بيتي جين شايد تعرضت لاعتداء جنسي، وكُسر فكها، واسودت عيناها، وكان على جسدها آثار طعنات كثيرة.

كان سبب الوفاة ضربة قوية على الرأس، وكان من مظاهر التشويه بعد الموت طعنات كثيرة، واستئصال الثديين، وشق ممتد من المهبل إلى المستقيم.

وعلى الرغم من أن محتويات معدتها المهضومة جزئيًّا تشير إلى أنها قُتلت بعد وقت قصير من اختفائها، فإن جسدها كان محفوظًا بشكل جيد لأنه لم يكن موجودًا في مكب القمامة منذ أربعة أيام. لم يكن هناك يرقات حشرات أو آثار حيوانات كما قد يتوقع المرء. كما أن الشرطة كانت تحقق بشكاوى إلقاء النفايات غير القانوني في الموقع الجبلي، لذلك كانوا سيعثرون على الجثة بنفسهم لو أنها كانت موجودة من قبل.

راجعتُ كل المواد التي أرسلها لي ريدر وتوصلت إلى ملف تعريفي، جمعته خلال مؤتمر هاتفي طويل. خلال هذا المؤتمر، حاولت إطلاع الشرطة على مبادئ التنميط وأنواع الأشياء التي كنا نبحث عنها. اعتقدت أنهم سيبحثون عن ذكر أبيض، يتراوح عمره بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين، على الرغم من أنني ظننت أنه إذا كان يعيش بعيدًا عن الأنظار، فقد يكون أكبر سنًّا لأن تطوره الاجتماعي سيكون أبطأ. سيكون نحيفًا، نحيل القوام، وحيدًا، لم يكن طالبًا ذكيًّا في الثانوية، انطوائيًّا، مغرمًا بالمواد الإباحية. قد تكون خلفيته في الطفولة كلاسيكية: أسرة مضطربة بأب غائب وأم مسيطرة وتحفظية بشكل مفرط. ربما أوحت له انطباع أن جميع النساء سيئات باستثنائها، وبالتالي فقد يكون المشتبه به مجهول الهوية يخشى النساء ولا يستطيع التعامل معهن، وربما كان عليه أن يفقدها الوعي أو يجردها من قوتها بهذه السرعة. لقد عرفها بشكل وثيق. كان هذا واضحًا من آثار صدمة الوجه الشديدة. كان لديه قدر هائل من الغضب وأراد تجريدها من سماتها الشخصية، من خلال وجهها وصدرها وتشويه أعضائها التناسلية. أخبرني قص شعرها شيئًا ما. بينما يمكن عدُّ هذه إحدى محاولات نزع الشخصية، فقد عرفت من علم الضحية أن شايد كانت شابة أنيقة ودقيقة وكانت تفتخر بشعرها الذي كانت توليه عناية جيدة، لذلك فإن قص شعرها كان نوعًا من الإساءة، لفتة مهينة. وهذا بدوره كان يشير إلى أحد كان يعرفها جيدًا. ومع ذلك فلم تكن هناك إشارة على سوء المعاملة السادية أو التعذيب قبل الموت كما كان في حالة بيتاكر ونوريس. ولهذا فلم يكن شخصًا يستمد إشباعه الجنسي من الألم.

طلبت من الشرطة ألا تبحث عن «نمط شخصية بائع السيارات المستعملة الواثق بنفسه». إذا كان هذا الشخص يعمل أساسًا فلا بد أنه عمل وضيع؛

عامل نظافة أو عامل عادي. كل من سيترك الجثة في مكب للنفايات سيكون ذا عمل وضيع على علاقة بالقمامة والأوساخ. كما أن وقت الاختطاف، والثديين المقطوعين، والتعديل الواضح في الجسد، والتموضع الأخير في مكب النفايات، كل هذا أخبرني أنه قد يكون شخصًا ليليًّا. توقعت منه أن يزور المقبرة، قد يذهب إلى الجنائز، لكي يكوِّن الصور في رأسه إلى أن اقتنع أنه على علاقة «طبيعية» مع بيتي جين. ولذلك السبب، فقد اعتقدت أن جهاز كشف الكذب سيكون بلا فائدة حتى بعد أن يصبح لديهم مشتبه به. كانت الفرص قوية أنه كان يعيش في منطقة ما تقع بين بيتها وبين المنزل الذي كانت تعمل فيه جليسة للأطفال.

ومع أنه لم يكن في حوزتهم أي شيء قوي بما يكفي لاعتقال أحد ما، فقد أخبرتني الشرطة أنه كان لديهم شخصان يمكن عدُّهما مشتبهًا بهما قويين. كان الأول حبيبها والذي يصف نفسه كخطيبها، تشارلز إف. سولت جونيور، المعروف ببوتش. كان لا بد من أن آخذه بقوة في الحسبان. لكن الشرطة كانت تميل جدًّا للشخص الآخر: الرجل الذي وجد الجثة ولم تكن قصته متينة. كان عاملًا ميكانيكيًّا في سكة الحديد، ويعاني من إعاقة. قال إنه كان في نزهة في الطبيعة وعثر على الجثة في مكب نفاياتٍ مكشوف. بينما قال رجل مسن كان يمشي مع كلبه أنه قد رأى ذلك الشخص يتبول في المكان. كان مرتديًا ملابسَ لا تناسب رحلة مشي طويلة، وعلى الرغم من انهمار المطر، فإنه كان جافًّا تمامًا. كان يعيش على بعد أربعة مربعات سكنية من منزل بيتي جين شايد، وقد حاول دون جدوى أن يصطحبها في عدة مناسبات. كان متوترًا في مقابلاته مع الشرطة وقال إنه كان يخشى الإبلاغ عن الجثة لئلا يُلام هو على الجريمة.

كان ذلك عذرًا نموذجيًّا من قِبل شخص يقحم نفسه في التحقيق ويحاول جعل اتجاه التحقيق ينحرف عنه. كان مدمنًا على شرب البيرة ومدخنًا شرهًا، قويًّا بما يكفي ليقتل ويتخلص من الجثة بنفسه. كان ذا تاريخ في السلوك غير الاجتماعي. في ليلة الجريمة، زعم أنه كان مع زوجته يشاهدان التلفاز في المنزل، ما لم يكن حجة غياب قوية. أخبرتُ الشرطة أن شخصًا مثل هذا سيتصل بمحام ولن يكون متعاونًا من الآن فصاعدًا. وقد كان هذا بالضبط ما حصل معه، كما نقلوا. لقد حصل على محامٍ ورفض جهاز كشف الكذب.

بدا ذلك كله واعدًا جدًّا، لكن أكثر ما أزعجني هو أنه كان متزوجًا ولديه ولدان وكان يعيش مع زوجته. لم يكن ذلك ليكون أسلوبه. لو أن شخصًا متزوجًا ارتكب جريمة القتل، فسيكون لديه الكثير من الغضب السادي تجاه النساء، كان سيطيل فترة القتل، سيسيء معاملتها أكثر قبل وفاتها، لا أن يشوهها بعد ذلك. كان أيضًا في الثلاثين من العمر، الأمر الذي صدمني بعدِّه مشتبهًا به بقوة.

بدا لي سولت خيارًا أقوى. لقد وافق عمليًّا جميع مواصفات الملف التعريفي. انفصل والداه حين كان صغيرًا. كانت والدته متسلطة، تدخلت بشكل مفرط في حياة ابنها. في السادسة والعشرين، كان فاشلًا في التعامل مع النساء. أخبر الشرطة أنه قد مر بتجربتين جنسيتين طوال حياته، وكانتا مع امرأة أكبر منه سنًّا كانت تسخر منه لأنه لم يستطع أن يجعل عضوه ينتصب. قال إنه كان وبيتي جين مغرمين للغاية ومخطوبين وسيتزوجان، على الرغم من أنها كانت تواعد رجالًا آخرين وكانت على علاقة جنسية بهم. شعرت أني واثق لو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة، فإنها ستقول قصة مختلفة تمامًا. في جنازتها، قال إنه أراد أن يفتح التابوت ويرمي نفسه جانبها. وحين استجوبته الشرطة، قال إنه بكى بحرقة على فراق بيتي جين.

قالت الشرطة إن بوتش سولت وشقيقه مايك، كانا يعملان في نقل القمامة.

أجبت: «يا إلهي، هذا جيد جدًّا».

كان لديهم وصول إلى مكب النفايات، وسبب لمعرفته والذهاب إلى هناك، ووسيلة لنقل الجثة.

لكن بقدر ما كنت معجبًا بكون بوتش مشتبهًا به، فقد أزعجني شيئان. أولًا، كما توقعت، فقد كان ذا بنية ضئيلة لا تتفوق في الحجم على بنية شايد. لم أكن أعتقد أنه كان قادرًا على نقل الجثة أو وضعها في وضعية الضفدع بساقين ممدودتين ومطويتين عند الركبة كما تم العثور عليها. ثانيًا، لقد عُثر على السائل المنوي في مهبل الضحية، ما يدل على اغتصاب تقليدي. لم يكن ليفاجئني أن أرى سائلًا منويًّا على الجثة، في ملابسها الداخلية أو ملابسها الأخرى، لكن ليس هكذا. مثل ديفيد بيركويتز، فإن هذا الرجل سيستمني، لكنه لن يغتصب. عليه أن يحقق إشباعه الجنسي بشكل غير مباشر. وهذا ما لم يكن منطبقًا.

كان ذلك عرضًا مختلطًا منظمًا-غير منظم، يشبه في جوانب كثيرة جريمة قتل فرانسين إلفسون في نيويورك، مع الهجوم الخاطف المبكر ذاته، تشويه الوجه، وتشويه الأعضاء التناسلية. وبينما كانت حلمتا إلفسون مقطوعتين، فإن صدر شايد قد أُزيل بالكامل. لكن في قضية نيويورك، كان كارمين كالابرو الأكبر حجمًا قد حمل ضحيته بضعة طوابق للأعلى وتركها، كما أن القذف كان كله عن طريق الاستمناء.

ومع الأخذ في الحسبان الدروس المستفادة من قضية أودوم ولاوسون، فقد فكرت في أن هناك احتمالية منطقية واحدة. اعتقدت أن بوتش سولت التقى بيتي جين في الطريق بعد انتهائها من العمل، دخلا في شجار، ضربها وربما يكون قد تسبب في فقدانها الوعي، ثم نقلها إلى مكان منعزل. كما كان يمكن أن أعتقد أنه تسبب بالضربة التي قتلتها، قص شعرها، شوه جسدها، واحتفظ بثدييها كتذكار. لكن في الفترة بين مهاجمتها أول مرة، وبين وفاتها، كانت قد تعرضت للاغتصاب، ولم أكن أظن أن شابًّا غير منظم، قاصرًا جنسيًّا، خاضعًا لسطوة والدته مثل سولت قادر على فعل ذلك. ولم أكن لأفكر أنه قد نقل الجثة لوحده. وبهذا، فإن شقيق بوتش (مايك) كان، منطقيًّا، المشتبه به الثاني.

لقد جاء من الخلفية ذاتها ويشغل العمل نفسه. قضى وقتًا في مصحة عقلية، وكان له سجل في العنف، والمشكلات السلوكية وقدرة ضعيفة على التحكم بالغضب. كان الفارق الوحيد أنه كان متزوجًا، مع أن والدتهما كانت متسلطة على حياته أيضًا. في الليلة التي اختُطفت فيها بتي جين، كانت زوجة مايك في المستشفى تضع طفلًا. كان حملها عامل ضغط رئيسيًّا، بالإضافة إلى أنه قد حرمه من التفريغ عبر الجنس. بدا منطقيًّا جدًّا أن بوتش المذعور قد اتصل بشقيقه، الذي اغتصب الشابة فيما كان بوتش يشاهد، ثم بعد جريمة القتل، تخلصا من الجثة.

أخبرتُ الشرطة أن الأسلوب غير المباشر والذي لا ينطوي على تهديد مباشر هو الحل الأفضل.

لسوء الحظ، فقد كانوا قد استجوبوا بوتش عدة مرات وأخضعوه لجهاز كشف الكذب. وكما عرفت أنه سيكون كذلك، لم يظهِر الاختبار أي خداع من طرفه، وإنما ردود أفعال عاطفية مضطربة. رأيت أن الطريقة الأفضل الآن هي التركيز على مايك، بأن كل ما فعله هو مجامعة شايد والمساعدة في التخلص

من جثتها، وأنه إذا لم يكن ليتعاون في هذه النقطة، فإنه سيكون مصدر خطر كبير على شقيقه.

نجح هذا التكتيك. واعتُقل الشقيقان، وشقيقتهما كاثي وايزنجر، التي زعمت أنها كانت أقرب صديقات بيتي جين. شاركت كاثي -حسب كلام مايك- في التخلص من الجثة.

ما الذي حدث إذن؟ أعتقد أن بوتش كان يحاول ممارسة الجنس مع تلك المرأة الجذابة جنسيًّا، والخبيرة جنسيًّا، لكنه لم يستطع. تراكم استياؤه وغضبه حتى وصل لنقطة الانفجار. بعد مهاجمته شايد، شعر بالرعب واتصل بأخيه، لكن غضبه كان يتصاعد لأن مايك تمكن من مجامعتها بينما كان يعجز عن ذلك. تواصل غضبه، وبعد أربعة أيام شوه جسدها، ما منحه بذلك «الكلمة الأخيرة». تمت استعادة أحد ثديي الضحية. أخبر مايك الشرطة أن بوتش احتفظ بالثاني، مما لم يفاجئني. وأينما كان يخفيه، فلم يعثر عليه قط.

أُدين تشارلز «بوتش» سولت بجريمة قتل من الدرجة الأولى، وأُرسل مايك بعد تسوية قضائية إلى مصحة عقلية. علق القائد ريدر بشكل علني أننا لعبنا دورًا مباشرًا في تطوير التحقيقات والحصول على أقوال من الجناة. كنا، بدورنا، محظوظين بوجود شريك مثله كان مدرَّبًا على وسائلنا وفهم العملية التكاملية بين الشرطة وكوانتيكو.

بسبب هذا التعاون، كنا قادرين على الإيقاع بقاتل وشريكه قبل أن ينالا فرصة القتل من جديد. عاد القائد ريدر مع رجاله ونسائه إلى عملهم المعتاد في حفظ الأمن في لوجان تاونشيب، بنسلفانيا. وعدتُ إلى القضايا النشطة الـ 150 التي كنت أتابعها، آملًا أن أكون قد تعلمت شيئًا سيساعدني، في قضية واحدة منها على الأقل، أن أضع نفسي مكان الجاني والضحية.

10

لكل شخص صخرة

قبل ذلك بسنوات، عندما كنت عائدًا للمنزل بعد تجربتي الجامعية المنحوسة في مونتانا، كنت أتناول العشاء مع والديَّ في مطعم للبيتزا والبيرة اسمه كولدستريم في يونيونديل، لونج آيلاند. وبينما كنت أقضم لقمة من قطعتي من البيتزا (التي مثل كل شيء بمزيد من الجبن) بادرتني والدتي دون سابق إنذار بالقول: «جون، ألم يكن لديك أي علاقات جنسية مع نساء من قبل؟»

ابتلعت اللقمة بصعوبة، محاولًا بلع ما قد قضمته للتو. لم يكن هذا من نوعية الأسئلة التي كانت تُطرح على شباب في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر في أواسط الستينيات. نظرت نحو والدي طلبًا لبعض الدعم، لكن وجهه كان جامدًا؛ لقد فوجئ بقدر ما فوجئت.

«حسنًا، هل مررت بذلك؟» قالت مُلحة. ليس من فراغ أنها من عائلة هولمز.

«آا... أجل أمي، لقد فعلت».

لمحت نظرة اشمئزاز في وجه أمي. «حسنًا، من كانت؟» سألت بحزم.

«آا...حسنًا...» بدا أنني فقدت شهيتي التي جئت بها إلى هذا المكان. «في الحقيقة، هناك كثيرات». لم أخبرها أن إحداهن كانت في منتصف مراهقتها في منزل للأمهات غير المتزوجات في بوزمان. لكنك ستعتقد أنني فكرت بإخبارها أين خبأت الجثث بعد تقطيعها، وقد كان ذلك في قبوهم تمامًا. «من التي ستقبل بك زوجًا الآن؟» تقول وهي تندب.

من جديد، ألتفت إلى والدي الصامت على غير العادة. *بربك، أبي، ساعدني!* «أوه، لا أعرف، دولوريس. هذا ليس أمرًا مهمًا في هذه الأيام». ردت قائلة: «بل لطالما كان «أمرًا مهمًّا»، جاك» ثم التفتت إلي.

«ما الذي سيحدث يا جون، إذا ما سألتك عروسك المستقبلية إن كانت لك علاقات مع نساء قبل أن تلتقيها؟».

صمتُّ قليلًا. «حسنًا أمي، سأقول لها الحقيقة».

قال أبي: «لا، لا تفعل ذلك».

«ماذا تعني يا جاك؟» سألته أمي. *حسنًا يا أبي، لنرَ كيف ستخرج من هذا.*

انتهت جلسة الاستجواب بمأزق يسبب الارتباك. لست متأكدًا من أني خرجت بأي شيء من هذه المواجهة. كان علي إما أن أخبر بام بماضيَّ أو أنها ستشتبه فيه. في جميع الأحوال، فقد وافقت على الزواج بي، على الرغم من مخاوف والدتي. لكن حين أفكر بتلك الحادثة من منظوري كمسؤول فيدرالي في إنفاذ القانون، محلل تنميطي، وخبير في علم النفس والسلوك الإجرامي، فإن إدراكًا مهمًّا يتملكني، إذ إني حتى مع كل التدريب والخبرة التحليلية التي لدي الآن، إلا أني ما زلت لا أعرف كيف يمكنني التخلص من استجواب أمي لي بطريقة أفضل!

لأنها قد توصلت إلى نقطة حقيقة ضعيفة فيَّ.

سأقدم لكم مثالًا آخر. منذ أن أصبحت المحلل الرئيسي في مكتب التحقيقات الفيدرالي، اخترتُ ودربتُ، بشكل شخصي، جميع المحللين الآخرين، ولهذا السبب تمتعت بعلاقة وثيقة ومتعاونة خصوصًا مع جميع الرجال والنساء الذين كانوا في فريقي. أصبح معظمهم نجومًا بجدارة. لكن إذا قيّض لي أن أقول إن أحدهم كان تلميذًا حقيقيًّا لي، فسيكون جريج كوبر. ترك جريج عمله كرئيس شرطة في مدينة يوتا بينما كان في مطلع ثلاثينياته وانضم للـ إف بي آي بعد سماعه لكين لاننج وبيل هاجماير يتحدثان في حلقة بحثية حول إنفاذ القانون. تميز في المكتب الميداني في سياتل، لكنه كان يحلم دائمًا بالقدوم إلى كوانتيكو للعمل في العلوم السلوكية. طلب ملفي التعريفي وتحليلي لقضية قاتل جرين ريفر ودرسها جيدًا، وحين ذهبت إلى سياتل للظهور في حلقة تلفزيونية خاصة من برنامج *Manhunt Live* بمشاركة المشاهدين، تطوع جريج ليكون سائقي ودليلي.

عندما أصبحت رئيس وحدة دعم التحقيقات المعاد تنظيمها، كان جريج يعمل في وكالة إف بي آي المقيمة في مقاطعة أورانج، كاليفورنيا، يعيش في لاجونا نيجويل. أعدته إلى كوانتيكو، حيث أصبح مؤديًا ممتازًا. عندما جاء إلى الوحدة للمرة الأولى، كُلِّف جريج بمشاركة مكتب تحت الأرض دون نوافذ مع جانا مونرو، ضابط شرطة سابقة ومحققة في جرائم القتل في كاليفورنيا قبل أن تصبح عميلة خاصة، تصادف أنها (من بين صفاتها الجيدة الأخرى) كانت شقراء وجميلة جدًّا. بمعنى آخر، كانت قد جمعت كل الصفات.

الآن كان الكثير من الرجال سيجدون أن تلك كانت مهمة عسيرة، لكن جريج كان مورمونيًّا متدينًا، رجل عائلة مستقيم ومخلص جدًّا لديه خمسة أطفال وزوجة رائعة اسمها روندا، كانت بالنسبة إليها تضحية كبيرة أن تنتقل من جنتهم المشمسة في كاليفورنيا إلى فيرجينيا الهادئة والحارة والرطبة. في كل مرة كانت تسأله عن زميلته في المكتب، كان جريج يتلعثم ويحاول تغيير الموضوع.

أخيرًا، بعد ستة أشهر من عمله معنا، أحضر جريج روندا إلى حفلة عيد الميلاد في الوحدة. لم أكن هناك لأنني كنت أعمل على قضية خارج المدينة، لكن جانا المرحة بطبيعتها كانت موجودة. وبشكل نموذجي في وضع الحفلات، فقد ارتدت ثوبًا أحمر فاتحًا قصيرًا وجذابًا يكشف عن عنقها. عندما عدت، أخبرني جيم رايت (الرجل الثاني في الوحدة الذي تسلم منصب مدير برنامج التحليل التنميطي مني) أنه كانت هناك ألعاب نارية حقيقية بين روندا وجريج بعد الحفلة. لم تكن مسرورة جدًّا بأن يقضي زوجها أيامه في مساحة محدودة مع عميلة جميلة وصعبة وساحرة تتقن عملها في حقل الرمي بنفس كفاءتها في ساحة الرقص.

لذلك جعلت سكرتيري يطلب جريج من اجتماع ويخبره أني أريد لقاءه على الفور. دخل مكتبي وعلى وجهه ملامح القلق. إنه هنا منذ ستة أشهر فقط، وقد كانت هذه الوحدة حلمه، وهو يريد فعلًا أن يحقق نجاحًا هنا.

رفعت نظري نحوه وقلت: «أغلق الباب يا جريج. اجلس» فعل ذلك وقد بدا أكثر قلقًا بسبب نبرة صوتي.

تابعت: «لقد أغلقت الخط للتو مع روندا. إنني أتفهم أنكما تمران ببعض المشكلات».

«أغلقت الخط للتو مع روندا؟» قال دون أن ينظر إلي حتى. كان يثبت نظره على هاتف اتصالات المدير على مكتبي.

«انظر يا جريج... (قلت بنبرة هادئة ومريحة) أريد أن أغطي عليك، لكن حين تتلاقى دروبكما أنت وجانا، فلن يمكنني تقديم أي معاملة خاصة لكما. هذه مسألة يجب أن تتعامل معها بنفسك. يبدو واضحًا أن روندا تعرف ما يجري بينك وبين جانا و...»

قال منفعلًا: «لا شيء يحدث بيني وبين جانا!»

«أعرف أن هناك الكثير من الضغوطات في هذا العمل. لكن لديك زوجة جميلة ورائعة، وأطفالًا لطيفين. لا ترمِ ذلك كله بعيدًا».

«ليس الأمر كما تظن يا جون. الأمر ليس كما تظنه هي أيضًا. يجب أن تصدقني».

وكان كل الوقت محدقًا إلى الهاتف، ظانًّا ربما أنه إذا ركز بالشكل الكافي، فإنه سيحرقه على المكتب. كان يتصبب عرقًا باردًا. أستطيع أن أرى الشريان السباتي ينبض في عنقه. إنه ينهار بسرعة.

توقفت عند ذلك الحد.

«انظر إليك، أيها التعيس البائس! (ابتسمت منتصرًا) هل تسمي نفسك محققًا؟»

كان في ذلك الوقت يحضِّر فصلًا عن الاستجواب في *دليل تصنيف الجرائم*.

«هل فعلت شيئًا تشعر إزاءه بالذنب؟»

«لا يا جون. أقسم لك!»

«وانظر! أنت لعبة في يدي! أنت بريء تمامًا. أنت ضابط شرطة سابق. أنت محقق متمرس، ومع ذلك فقد تمكنت من التلاعب بك مثل يو-يو. فما الذي يجب أن تقوله لنفسك إذن؟»

في وقت محدد، بينما يتنفس الصعداء وكان عرق الارتياح يتدحرج على رأسه الأصلع، لم يكن لديه ما يقوله لنفسه، لكنه فهم الفكرة. كنت أعرف أن بإمكاني أن أستثيره بهذا الشكل لأنه حصل معي من قبل بنفس النجاح ويمكن أن يتكرر ذلك إذا تكرر الموقف نفسه.

نحن جميعًا *ضعفاء*. لا يهم كم تعرف، ما الخبرة التي تمتلكها، كم استجواب مع مشتبه به أنجزته بنجاح. لا يهم ما إذا كنت تفهم التقنية. يمكن لأي منا أن يصل إليها؛ إذا استطعت فقط أن تكتشف أين وكيف كنا ضعفاء.

تعلمت هذا خلال واحدة من القضايا المبكرة التي عملت عليها كمحلل تنميطي، وقد استخدمتها في عدة قضايا بعد ذلك، وليس فقط في عرضها لفريقي. كانت المرة الأولى في الحقيقة التي «صممت» فيها استجوابًا.

في ديسمبر 1979، اتصل بي العميل الخاص روبرت ليري من الوكالة المقيمة في روما، جورجيا، ليطلعني على تفاصيل قضية مروعة وطلب مني أن أجعلها أولوية قصوى. في الأسبوع الفائت، اختفت ماري فرانسيس ستونر (فتاة جميلة في الثانية عشرة من العمر) بعد أن أنزلتها حافلة المدرسة في الطريق إلى منزلها، على بعد مائة ياردة تقريبًا من الطريق. لاحقًا، على بعد عشرة أميال في منطقة ممر العشاق كثيفة الأشجار عثر شابان على جسدها بعد أن لاحظا معطفها الأصفر الذي يغطي رأسها. أبلغا الشرطة ولم يغيرا شيئًا في الموقع، وهذه نقطة شديدة الأهمية. حُدد سبب الوفاة بضربة قوية على الرأس. كشف فحص تشريح الجثة عن كسر في الجمجمة بسبب حجر كبير (ثمة صخرة صغيرة ملطخة بالدم بجوار رأسها في صور موقع الجريمة). كما أشارت العلامات على العنق إلى خنق باليدين من الخلف.

قبل أن أنظر في مواد القضية، أردت أن أعرف أكثر ما يمكنني معرفته عن الضحية. لم يكن لدى أحدٍ شيء لقوله عن ماري فرانسيس سوى الأشياء الطيبة. وُصفت بأنها كانت صديقة الجميع، اجتماعية وفاتنة. كانت لطيفة وبريئة، عازفة رئيسية على الطبل في فرقة المدرسة، وكانت ترتدي اللباس الموحد للمدرسة. كانت فتاة جميلة في الثانية عشرة من العمر، وقد بدت في الثانية عشرة من عمرها، أكثر من أن تحاول أن تبدو في الثامنة عشرة.

لم تكن سيئة السلوك، كما لم تتورط قط في المخدرات أو الكحول. أشار التشريح بوضوح أنها كانت عذراء حين اغتصابها. وبحساب هذه العناصر كلها، يمكن القول إنها كانت ما يمكن تصنيفه كضحية منخفضة الخطر أُخذت من مكان منخفض الخطر. بعد الاستماع لملخص القضية، والاستماع لليري، ودراسة الملفات وصور موقع الجريمة، دوَّنت هذه الملاحظة على نصف صفحة:

ملف تعريفي

- الجنس: ذكر.
- العرق: أبيض.
- العمر: أواسط العشرينيات، أواخر العشرينيات.
- الحالة الاجتماعية: متزوج، مشكلات زواج أو مطلق.
- الخدمة العسكرية: مسرَّح بتقييم سيئ، أسباب طبية.
- المهنة: حرفيّ.. كهربائي، سباك.
- معدل الذكاء: متوسط، فوق المتوسط.
- التعليم: ثانوي، كأقصى حد، تارك للمدرسة.
- السجل الإجرامي: حرائق، اغتصاب.
- الشخصية: واثق، متعجرف، اجتاز اختبار جهاز كشف الكذب.
- لون السيارة: أسود أو أزرق.
- الاستجواب: مباشر، إبراز قرائن.

كانت تلك حالة اغتصاب بالفرصة، ولم يكن القاتل مدبرًا أو مقصودًا بنية مسبقة. مظهر الملابس غير المرتب يدل على أن ماري فرانسيس قد أُجبرت على خلع ملابسها، ثم سمح لها أن تعيد ارتداء ملابسها بعد الاغتصاب.

أرى من الصور أن إحدى فردتي الحذاء غير مربوطة، وقد أشار التقرير إلى نزيف في سروالها الداخلي. لم يكن هناك بقايا على ظهرها أو وراءها أو على قدميها، مما يدل على أنها اغتُصبت داخل سيارة، وليس على الأرضية المشجرة حيث عُثر على جثتها.

مع النظر المدقق في صور موقع الجريمة الروتينية، بدأت أفهم ما الذي حدث. أمكنني تخيل الأمر برمته. بسبب صغر سنها، ناهيك بلطفها وانطلاقها وطبيعتها الواثقة، فقد كانت ماري فرانسيس سهلة الوصول في بيئة غير مهددة مثل موقف حافلة المدرسة.

من الوارد أن يكون المشتبه به مجهول الهوية قد حثها على الصعود إلى سيارته، ثم أمسكها أو أجبرها مستخدمًا سكينًا أو مسدسًا. كان بُعد المنطقة التي عُثِر على جثتها فيها يدل على معرفته الوثيقة بالمنطقة وأنه عرف أنه لا أحد سيقاطعه هناك.

من موقع الخطف يمكنني أن أقول إنها لم تكن جريمة مدبَّرة، وإنما جريمة تبلورت خلال مروره بسيارته. وكما في قضية أودوم ولاوسون، لو تصادف وجود أحد ما في الوقت المناسب، لما كانت الجريمة لتحصل. بسبب لطف الفتاة ومزاجها المشرق، في عقله كان المجرم المتشبع بخيالاته قد قرر الانتقال من تصرفها البريء الودود إلى علاقة جنسية ودفعها للهو معه جنسيًّا.

طبعًا، في الواقع، لا يمكن لشيء أن يكون أبعد عن الحقيقة. بعد أن هاجمها، كانت تشعر بالرعب، وألم حاد، وتصرخ طلبًا للمساعدة، وكانت تتوسل من أجل حياتها. كانت الخيالات التي يطورها عبر السنين شيئًا، لكن الواقع لم يكن مرضيًا. فقدَ سيطرته على الوضع وعلى الفتاة الصغيرة وأدرك أنه تورط في فوضى هائلة.

في تلك المرحلة، أدرك أن مخرجه الوحيد هو أن يقتلها. لكن نظرًا لأنها كانت تخشى على حياتها، فقد كانت السيطرة عليها أصعب مما تخيل. لذلك ومن أجل جعل الأمور أسهل بالنسبة إليه، ولجعلها أكثر تعاونًا وامتثالًا، أخبرها بأن ترتدي ثيابها سريعًا وسيتركها تذهب. إما أنه سيتركها تركض بعيدًا أو أنه سيقيدها إلى شجرة ويغادر المكان. لكن ما إن أدارت ظهرها إليه، وأصبح خلفها حتى بدأ يخنقها. كان قادرًا على ضربها وإفقادها الوعي، لكن الخنق يحتاج إلى قوة كبيرة من أعلى الجسد. لم يكن قادرًا على السيطرة عليها من قبل، ولا يمكنه إنهاء عمله. جرها تحت شجرة، التقط أقرب حجر أمكنه الوصول إليه، وضربها على رأسها ثلاث أو أربع مرات، وقتلها.

لم أشعر أن القاتل كان على معرفة وثيقة بماري فرانسيس، كانا قد التقيا عدة مرات بما يكفي لتتعرف عليه، وبالنسبة إليه ليكوِّن خيالات عنها. لربما رآها تذهب إلى المدرسة بملابس فرقة المدرسة.

أدركت من طريقة وضع المعطف أن المشتبه به مجهول الهوية لم يكن يشعر بالرضا عن الجريمة. كما علمت أيضًا أن الوقت كان ضد الشرطة. في هذا النوع من الجرائم، ومع هذا النمط من المجرمين الأذكياء والمنظمين، فكلما توفر له مزيد من الوقت ليفكر في جريمته ويعقلنها ويبررها على أنها خطأ الضحية، كان انتزاع اعتراف منه أصعب. حتى إذا خضع لاختبار جهاز كشف الكذب، ففي أحسن الأحوال ستكون النتائج غير حاسمة. وبمجرد أن يشعر أن حرارة القضية قد خفت وأنه لن يثير الشكوك بمغادرته، فإنه

سينتقل لجزء آخر من البلاد حيث سيكون تتبعه صعبًا وحيث ستكون فتاة صغيرة أخرى في خطر.

بالنسبة إليَّ، كان المشتبه به مجهول الهوية من المنطقة ولا بد أن الشرطة قد استجوبته. سيكون متعاونًا لكن متكبرًا، وإذا وجهت الشرطة اتهامًا له، فلن ينكسر أو ينهار. قلت لهم إنه مع هذه الدرجة من التعقيد فلن تكون هذه جريمته الأولى، مع أن هناك فرصة جيدة لأن تكون جريمته الأولى فعلًا. ستكون سيارته الزرقاء أو السوداء قديمة لأنه لا يستطيع دفع تكاليف شراء سيارة جديدة، لكنها عملية وتفي بالغرض ما دامت تتم صيانتها جيدًا. كل شيء فيها سيكون في محله. من خلال خبرتي، فإن الأشخاص القهريين والأكبر سنًّا يفضلون عمومًا السيارات داكنة اللون.

بعد سماع هذا كله، قال أحد الضباط على الهاتف: «لقد وصفت شخصًا أطلقنا سراحه كمشتبه به في القضية». كان لا يزال مشتبهًا به في قضية أخرى وهو يطابق مواصفات الملف التعريفي. كان اسمه داريل جين ديفيير، ذكر أبيض، في الرابعة والعشرين تزوج وطلق مرتين وكان في تلك الفترة يعيش مع زوجته الأولى السابقة. كان يعمل في تقليم الأشجار في روما، جورجيا، حيث كان مشتبهًا به قويًّا في اغتصاب فتاة في الثالثة عشرة، لكنه لم يُتهم قط. انضم للجيش بعد طلاقه الأول لكنه تغيب دون إجازة رسمية وسُرِّح بعد سبعة أشهر.

كان يقود سيارة فورد-بينتو سوداء عمرها ثلاث سنوات وكانت تتم صيانتها بشكل جيد. اعترف باعتقاله كمراهق بسبب حيازته كوكتيل (زجاجة) مولوتوف. ترك المدرسة بعد الصف الثامن، لكن معدل ذكائه سجل نتيجة بين 100 و110.

تمت مقابلته لمعرفة ما إذا كان قد رأى أو سمع أي شيء، بعدِّه كان يقلِّم الأشجار في شارع ستونر لصالح شركة الكهرباء قبل أسبوعين من اختطاف ماري فرانسيس. أخبرتني الشرطة أنه كان مقررًا له الخضوع لجهاز كشف الكذب في ذلك اليوم بالتحديد.

قلت لهم إن هذه لم تكن فكرة جيدة؛ لن يحصلوا على شيء من الفحص، كما أنه سيعزز قدرة المشتبه به على التأقلم مع عملية التحقيق. في ذلك الوقت، لم يكن لدينا الكثير من الخبرة الميدانية في الاستجواب، لكن من مقابلات السجون والدراسة عن القتلة المتسلسلين، شعرت أني أعرف ما كنت

أتحدث عنه. وبهذا، حين اتصلوا بي في اليوم التالي أخبروني أن نتيجة مؤشر جهاز كشف الكذب كانت غير حاسمة.

«إنه يعرف الآن أن بمقدوره أن يهزم ذلك الصندوق، ثمة طريقة واحدة للإيقاع به» قلت. نصمم الاستجواب في مركز الشرطة ليلًا. سوف يشعر المشتبه به براحة في البداية، ثم يصبح أكثر عرضة للاستجواب، كما سيعطيه هذا رسالة عن مدى جديتك وإخلاصك. إنه يعلم أن ليس هناك استراحة عشوائية كالغداء أو العشاء، ويعرف أنه لن يُعَد كانتصار إعلامي. يجب أن تجري الشرطة المحلية ومكتب إف بي آي الميداني في أتالانتا الاستجواب معًا لإظهار الجبهة الموحدة والدفع بكامل ثقل حكومة الولايات المتحدة في مواجهته. يجب تجميع أكوام من الملفات على الطاولات أمامه ووضع اسمه عليها، حتى لو كانت محتوياتها ورقًا فارغًا لا غير.

الأهم: ودون قول أي شيء عن الأمر، يجب وضع الصخرة الصغيرة الملطخة بالدم على طاولة منخفضة بزاوية 45 درجة في مجال نظره بحيث سيتعين عليه أن يدير رأسه لينظر إليها. يجب مراقبة جميع أدلته غير اللفظية (سلوكه، تنفسه، تعرقه، شريانه السباتي). إذا كان هو القاتل، فلن يكون قادرًا على تجاهل الصخرة، حتى مع أنك لم تأتِ على ذكرها أو توضح أهميتها.

كان ما احتجنا إلى فعله هو ما أسميه «عامل إثارة الانزعاج». لقد استخدمت في الواقع قضية ستونر كمختبر لنظرياتي. إن معظم التقنيات التي طورناها لاحقًا تعود في أصلها إلى هنا.

«إنه لن يعترف» واصلت. إن جورجيا تسمح بعقوبة الإعدام، وحتى إذا تم الاكتفاء بإرساله إلى السجن، فإن سمعته كمتحرش بالأطفال ستدفعهم لاغتصابه في أول مرة يستحم فيها. كل السجناء سيترصدون هذا الشخص.

يجدر استخدام إضاءة منخفضة غامضة ويجب ألا يوجد أكثر من ضابطين أو عميلين في المقابلة في كل مرة، ويفضل أن يكون أحدهما من إف بي آي والآخر من إدارة شرطة أدايرسفيل. ما يجب عليكم فعله هو أن توحي بأنك تفهم الشخص، وتفهم الضغوطات التي كان يرزح تحتها. لا يهم كم يبدو هذا مقرفًا بالنسبة إليكم، يجب أن يقع اللوم على الضحية. بمعنى أنها هي التي أغوته. اسألوه إذا كانت هي التي قادته، إذا أثارته، إذا هددته بالابتزاز. يجب إعطاؤه سيناريو يحفظ ماء وجهه. امنحوه سبيلًا ليوضح أفعاله.

الأمر الآخر الذي تعلمته من قضايا الصدمة الشديدة أو القتل بالسكين، أنه من الصعب على المهاجم ألا يكون هناك على الأقل آثار دماء من الضحية عليه. قلت: «من الشائع كثيرًا أن تستخدم هذا حين تبدأ أن تتبرم، وإن قليلًا. انظروا في عينيه مباشرة وأخبروه أن الجزء الأكثر إرباكًا الذي عُرِف في القضية كلها هو حقيقة أن هناك آثارًا من دم ماري عليه».

«نعلم أن هناك آثار دم عليك يا جين؛ على يديك، على ملابسك. بالنسبة إلينا، ليس السؤال (هل فعلتها؟) لأننا على دراية أنك فعلتها. وإنما السؤال هو (لماذا؟) نحسب أننا نعرف لماذا ونتفهم ذلك. كل ما عليك فعله هو أن تخبرنا إذا كنا محقين».

وهكذا جرى الأمر بالضبط.

أحضروا ديفيير. نظر مباشرة إلى الحجر، وبدأ يتعرق ويتنفس بصعوبة. كانت لغة جسده مختلقة كليًا عما كانت عليه في المقابلات السابقة: مترددًا ودفاعيًا. ألقى المحققون موضوع اللوم مسؤولية الجريمة على الفتاة، وبدا أنه كان يماشيهم في ذلك، تطرقوا إلى الدم. جعله هذا منزعجًا للغاية. يمكنك أن تعرف أنك حصلت على الشخص المطلوب حين يسكت ويبدأ بالإنصات باهتمام بينما تتكلم، فالبريء سوف يصر ويصيح. وحتى إذا بدأ المذنب بالصراخ لجعلك تظن أنه بريء، ففي وسعك معرفة الفرق.

اعترف بالاغتصاب ووافق المحقق في كلامه على أنها قد هددته. أخبره بوب ليرى أنهم يعلمون بعدم نيته في قتلها، فلو كان يضمر ذلك، لاستخدم أداة أخرى غير الحجر. في النهاية، اعترف بجريمة القتل والاغتصاب في روما في السنة الفائتة. حوكم داريل جين ديفيير بتهمة اغتصاب وقتل ماري فرانسيس ستونر، أُدين وحُكم عليه بالإعدام. نُفِّذ فيه حكم الإعدام على الكرسي الكهربائي في 18 مايو 1995، بعد ست عشرة سنة من ارتكابه جريمة القتل واعتقاله، وهي فترة تزيد بأربع سنوات عن الفترة التي عاشتها ماري فرانسيس في هذا العالم.

كان العنصر الرئيسي في هذه القضية، كما رأيت، هو أن تكون خلاقًا، أن تستخدم خيالك. كان عليَّ أن أسأل نفسي: «ما الذي كنت سأختبره لو كنت أنا الفاعل؟» نحن جميعًا ضعفاء، وسيكون الأمر مختلفًا بالنسبة إلى كلٍّ منا. في حالتي، ومع طريقتي غير المتقنة في ضبط الحسابات، فقد كان يمكن

لمديري أن يستدعيني، ويدعني أرى أحد إيصالات النفقات من عندي على مكتبه، وسيجعلني أتصبب عرقًا. لكن هناك شيئًا ما دائمًا.

لكل شخص صخرة.

يمكن أن يكون للدروس المتعلمة من قضية ديفيير تطبيقات أبعد بكثير من عالم الجريمة الجنسية المريض. سواء كان الاختلاس، الفساد العام، تحقيق في التورط مع عصابة، بيع المسروقات أو نقابة فاسدة عليك اختراقها، فإن هذا لا يهم، فالمبادئ ستكون هي ذاتها. ما سأنصح به في أي من هذه القضايا هو استهداف ما تعتقد أنه «الحلقة الأضعف»، اكتشاف طريقة لإحضاره وجعله يرى ما سيواجهه، ثم كسب تعاونه في ملاحقة البقية.

في أي نوع من قضايا التآمر، فإن هذه مسألة شديدة الأهمية. ما تريد فعله حقًا هو أن تحوِّل هذا الشخص إلى شاهد، ثم مشاهدة بيت الورق ينهار بالكامل. يعدُّ اختيار الشخص الذي ستتعامل معه مهمًا جدًا، لأنك إذا اخترت الشخص الخطأ ولم تستطع كسبه وتحويله لما تريد، فسوف يحذر الجميع وستعود إلى المربع الأول.

لنقل إننا نحقق في قضية فساد عامة كبرى في مدينة كبيرة حيث لدينا ثمانية أو عشرة أشخاص متورطون من وكالة معينة. ولنقل إن الشخص رقم واحد أو اثنين في الوكالة هو «الصيد» الأفضل. لكن حين نحلل الشخص تنميطيًا، سنكتشف أنه يقوم بعمله على الرغم من الفساد. إنه ليس سكيرًا أو زير نساء، إنه رجل عائلة قوي، لا يعاني المرض، لا مشكلات مالية، لا نقاط ضعف واضحة. إذا تواصل معه عملاء إف بي آي فإنه على الأرجح سينكر كل شيء، يخبرنا أن نذهب للجحيم ثم ينذر البقية.

الطريقة التي تصل بها إلى شخص مثل هذا هي عبر المرور بالأسماك الصغيرة، كما هو الحال في الجريمة المنظمة. بينما نتصفح سجلاتنا، ربما يبرز أحد المرشحين من بين البقية. ليس ذا رتبة عالية، لكنه موظف ينظم كل العمل المكتبي. يشغل هذه الوظيفة من عشرين سنة، لذلك فقد استثمر كل ما لديه في هذا العمل. يعاني مشكلات صحية ومالية، وكلاهما يمثلان نقاط ضعف مهمة.

يأتي بعد ذلك اختيار من هو الـ «جدير» بقيادة الاستجواب. يميل تفضيلي لشخص أكبر سنًا وأكثر قوة من المشتبه به، شخص ذو مظهر حاد ومسيطر،

شخص يمكنه أن يكون ودودًا ولطيفًا ويجعل المشتبه به يشعر بالارتياح، ثم يتحول إلى شخص جاد ومباشر حين تستدعي الظروف ذلك.

إذا كانت هناك عطلة في الأسابيع القادمة، أو ربما عيد ميلاد المشتبه به أو ذكرى مناسبة تخصه، فإنني أنصح بتأجيل الاستجواب لنستفيد من ذلك.

إذا أدخلته إلى الغرفة وأدرك أنه (في حال عدم تعاونه) قد يكون آخر موسم أعياد أو مناسبات يقضيه مع عائلته، فإن ذلك قد يعطيك بعض الامتيازات الإضافية. يمكن أن يكون «ترتيب التحقيق» فعالًا في التعامل مع الجناة غير العنيفين كما كان في قضية ستونر. وبالنسبة إلى أي تحقيق كبير أو مستمر، أقترح تركيز جميع المواد في مكان واحد، سواء تم فعل ذلك أم لا من أجل القضية. على سبيل المثال: إذا رتبت غرفة اجتماعات لـ «فريق عملك»، جامعًا كل العملاء والأفراد وملفات القضايا معًا، فإنك تظهِر للمشتبه به مدى جديتك في التعامل مع الأمر. إذا «زينت» الجدران، لنقل، بملئها بصور المراقبة وإشارات أخرى تدل على سعة نطاق هذا التحقيق واستمراريته، فإن هذا الإجراء المدبَّر سيرتد بقوة أكبر. إن زوجين من الأجهزة التي تعرض مقاطع فيديو لأهدافك سيكونان مؤثرين للغاية في تتويج هذه العملية.

ومن ضمن اللمسات الشخصية المفضلة لدي وجود رسوم بيانية جدارية تظهِر العقوبة التي سينالها كل شخص في حال إدانته. لا يوجد في هذا شيء مخيف بشكل عميق، لكنه يبقي الضغط على المشتبه به ويذكِّره بالمخاطر. أردت أن أعمل «عامل إثارة الانزعاج» مكثفًا قدر الإمكان.

لطالما اعتقدت أن أفضل ساعات إجراء التحقيق هي إما الساعات المتأخرة في الليل أو أولى ساعات الصباح الباكر. في هذه الأوقات يميل الناس ليكونوا أكثر استرخاء لكن أكثر ضعفًا. مجددًا، إذا كنت تعمل مع أفراد فريقك في الليل، فإنك بذلك ترسل رسالة واضحة مفادها أن الأمر جلل وأنك ملتزم جدًّا بها. من الاعتبارات العملية الأخرى في أي قضية مؤامرة أنه يجب ألا يرى أحد موضوع قضيتك، المشتبه به. إذا فكر بأنه قد «أُبرز» فهذا يعني أنه لن يكون هناك أي صفقة.

يجب أن تكون الحقيقة أساس كل صفقة ناجحة وأن تروق لمنطق موضوع بحثك وحسه السليم. كل ما يفعله ترتيب التحقيق هو أن يوجه الانتباه نحو عناصر رئيسية.

إذا كنا نعمل على استجواب موضوعنا المفوض التمثيلي في قضية فساد عام، فقد أتصل به ليلًا في منزله وأقول له شيئًا مثل: «سيدي، من المهم جدًّا أن أتحدث إليك هذه الليلة. سوف يطرق العملاء الفيدراليون بابك بينما نتحدث الآن». سوف أشدد على أنه ليس تحت الاعتقال وأنه ليس مضطرًّا ليسير مع العملاء، لكنني سأقترح بشدة أن يصحبهم لأنه قد لا يكون لديه أي فرصة أخرى. لن تكون هناك حاجة إلى أن يتلوا عليه حقوقه في هذه المرحلة بعَدِّ أنه لم يتم توجيه أي تهمة إليه.

حال وصوله إلى المكتب، سأتركه يرتاح قليلًا. حين يفكر فريق كرة القدم الآخر في أن يسجل هدفًا من تسديدة طويلة في اللعبة الأخيرة ليفوز بالمباراة، فإن عليك أن تطلب وقتًا مستقطعًا لإعطاء المسدد عندهم فرصة للتفكير فيها. كل من جرب الانتظار ليرى الطبيب قبل الموعد يعرف كيف يمكن لهذا أن يكون فعالًا.

حين يصل إلى مكتبي، سأغلق الباب، محاولًا أن أظهر ودودًا ودافئًا ومتفهمًا جدًّا، وأني أحصر كل شيء بحديث رجل لرجل. سأخاطب الرجل باسمه. «أريد أن أتأكد من أنك تفهم أنك لست قيد الاعتقال»، سأردد. «لديك حرية أن تمشي وقتما تريد وسيوصلك رجالي إلى المنزل. لكن أظن أن عليك أن تسمع ما يجب أن أقوله لك، فلعل هذا هو أهم تاريخ في حياتك».

ربما أجعله يكرر التاريخ معي لأتأكد من أننا على نفس الموجة.

«أريدك أن تعرف أيضًا أننا على دراية بتاريخك الطبي ولدينا ممرضة على أهبة الاستعداد». وقد يكون هذا صحيحًا، لأن سبب استهدافنا لهذا الشخص هو ضعفه تحديدًا.

نبدأ الآن بالتحدث بصراحة. كنت سأشدد على أن إف بي آي تدرك أنه سمكة صغيرة، وأنه ينال أجرًا منخفضًا مقابل ما يفعله، وأنه ليس بالضبط الشخص الذي نريده أكثر من غيره. «في الوقت الحالي، كما يمكنك أن ترى، نستجوب الكثير من الأشخاص المتورطين في هذه القضية. السفينة تغرق؛ لا شك في هذا. يمكنك أن تغرق معها أو تصعد قبل أن تغرق تمامًا وتحصل لنفسك على سترة نجاة. نعرف أنه تم استغلالك، والتلاعب بك، واستفاد منك آخرون أقوى منك بكثير. لدينا محامٍ على استعداد لتقديم صفقة حقيقية إن كنت ترغب في الحصول عليها». وكملاحظة أخيرة، أشدد عليه: «تذكر، هذه هي المرة الوحيدة التي سنقدم لك فيها هذا العرض. هناك عشرون عميلًا

يعملون على هذه القضية. يمكننا الخروج واعتقال الجميع إذا اضطررنا لذلك. ألا ترى أن أحدًا آخر قد يستغل الفرصة إذا لم تفعل أنت؟ ثم إنك ستغرق مع السفينة. إذا أردت أن تغرق مع الأشخاص الكبار، فهذا خيارك، لكن الليلة ستكون المرة الأخيرة التي يمكننا التحدث فيها هكذا، هل ستتعاون؟»

إذا فعل -وسيكون هذا في صالحه حقًّا- نتلو عليه حقوقه ونتركه يتواصل مع المحامي. لكن وكبادرة حسن نية، من الوارد أن أطلب منه الاتصال وترتيب لقاء مع أحد اللاعبين الآخرين، إذا لم ترغب منه أن يتردد وينسحب، لذلك بمجرد أن تنال موافقة الشخص والتزامه، تبدأ بقية القطع في التجمع في أماكنها. سبب نجاح هذا بشكل فعال، حتى إذا كنت تفهم منهجنا الكامل مسبقًا، هو أنه يعمل للمصلحة المشتركة لكل من المحقق وموضوع الاستجواب المستهدَف. إنه قائم على الحقيقة ومصمَّم خصيصًا لحياة المشتبه به ووضعه واحتياجاته العاطفية، حتى مع العلم بكيفية ترتيبها من أجل الحصول على أكبر تأثير ممكن، فلو كنت في محل موضوع التحقيق فإنني سأقبل العرض، لأنها تمثل بالنسبة إليَّ أفضل فرصة متاحة. الإستراتيجية التي وراء هذا النوع من التحقيق هي ذاتها التي توصلت إليها خلال العمل على قضية ستونر. أواصل التفكير: «ما الذي سأصل إليه؟» لأنه *لكل شخص صخرة.*

كان جاري ترابنل (السارق المسلح وخاطف الطائرات الذي قابلته في السجن الفيدرالي في ماريسون، إلينوي) على نفس القدر من الفطنة والذكاء مثل جميع المجرمين الذين قابلتهم. كان واثقًا من قدراته إلى درجة أنه أكد لي أن باستطاعته خداع أي طبيب نفسي ليصدق أنه يعاني من أي حالة عقلية أحددها. كان واثقًا أنه إذا كان خارج السجن، فسوف يتمكن من التهرب من القانون.

«لن تستطيع الإمساك بي» قال مؤكدًا.

«حسنًا يا جاري» قلت تلقائيًّا «أنت في الخارج، وعلى درجة كافية من الذكاء لتعرف أنه عليك قطع كل اتصالاتك بأفراد عائلتك وأن تبقى بعيدًا عن العملاء الفيدراليين. أعرف أن والدك كان ضابطًا عسكريًّا رفيع المستوى. أحببتَه حقًّا واحترمتَه، أردت أن تكون مثله. وقد بدأت سلسلة جرائمك بعد وفاته».

أدركت من ملامح وجهه أني وصلت لشيء ما، وأني أصبت نقطة حساسة.

«والدك مدفون في مقبرة آرلينجتون الوطنية، لذلك فإني أفترض أن لدي عملاء يمكنهم مراقبة قبره في عيد الميلاد، أو في عيد ميلاده، أو في ذكرى وفاته».

على الرغم منه، رسم ترابنل ابتسامة ساخرة، وقال: «لقد أوقعت بي!».

مرة أخرى، سبب حصول هذا معي أنني حاولت أن أضع نفسي في مكانه؛ لقد حاولت أن أكتشف ما سيقودني إليه. وتخبرني تجربتي أن هناك طريقة للوصول إلى الجميع، فقط إذا كنت تستطيع اكتشاف ما هي. في حالتي أنا، فقد يكون شيئًا مشابهًا لما استخدمته في قضية ترابنل، وهي أن تاريخًا معينًا قد يمثل محفزًا عاطفيًّا.

كان لأختي آرلين ابنة شقراء جميلة اسمها كيم، وُلدت في نفس يوم ميلادي؛ 18 يونيو، لطالما شعرت برابطة خاصة تربطني بها. حين كانت في السادسة عشرة، توفيت كيم خلال نومها، ولم نتمكن قط من معرفة السبب المحدد للوفاة. ولمضاعفة الألم والبهجة في ذكراها، فقد صدف أن ابنتي الكبرى إريكا، وهي في سن الجامعة، تشبه كيم كثيرًا. أنا متأكد أن آرلين لا ترى إريكا إلا وترى كيم في عقلها، متخيلة كيف كان يمكن لكيم أن تبدو حين تكبر، وقد شعرت أمي بالطريقة ذاتها تجاه هذا الأمر.

إذا كنت سأستهدفني، على سبيل المثال، فسوف أخطط للاقتراب عند عيد ميلادي تمامًا. إني مشرق عاطفيًا، أتطلع للاحتفال مع عائلتي، لكنني أفكر أيضًا بابنة أختي كيم -عيد الميلاد الذي تشاركناه، كم أنها تشبه إريكا- وسأشعر بالضعف، وإذا ما شاهدت صورًا فوتوغرافية للفتاتين على الجدار، فسوف أصبح أقل تماسكًا.

لا يهم ما إذا كنت أعرف ما هي الإستراتيجية الكلية في استهدافي. لا يهم أنني الشخص الذي ابتكرها. إذا كان عامل الضغط المحفز والمقلق قانونيًّا وصالحًا، فإن فرصته في النجاح كبيرة. قد تكون هذه طريقتي، أما طريقتك فشيء آخر ويجب أن نجرب لنعرف مسبقًا ما ستكون. لكن لا بد من وجود شيء ما.

لأن لكل شخص صخرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

11

أتالانتا

في شتاء عام 1981، كانت أتالانتا مدينة تحت الحصار.

بدأ الأمر بهدوء قبل عام ونصف، بشكل غير ملاحَظ على الأرجح. وقبل أن ينتهي -وهو في الحقيقة لن ينتهي أبدًا- كان قد أصبح من أكبر عمليات المطاردة وأكثرها شهرة في التاريخ الأمريكي، بتسييس مدينة واستقطاب أمة بحالها، وكانت كل خطوة في التحقيق محاطة بالكثير من الجدل المرير.

في 28 يوليو، 1979، استجابت الشرطة لإبلاغ عن رائحة كريهة في غابات نيسكي ليك رود واكتشفوا جثة الفتى ألفرد إيفانز، 13 عامًا. كان مفقودًا من أربعة أيام، وخلال فحص المكان، اكتشفت الشرطة جثة أخرى على بعد نحو خمسة عشر قدمًا -كانت هذه متحللة جزئيًّا- تعود للفتى إدوارد سميث، 14 عامًا، الذي اختفى قبل أربعة أيام من اختفاء ألفرد. كان الصبيان أسودَين. حدد الطبيب الشرعي أن ألفرد إيفانز قد تعرض للخنق، بينما تعرض إدوارد سميث لطلقة نارية من مسدس كاليبر 22.

في 8 نوفمبر، اكتُشفت جثة الفتى يوسف بيل، 9 أعوام، في مدرسة مهجورة. كان مفقودًا منذ أكتوبر الماضي وقد مات مخنوقًا أيضًا. بعد أربعة عشر يومًا، عُثر على جثة ميلتون هارفي، 14 عامًا، بجوار ريدوين رود وديزرت درايف في منطقة إيست بوينت أتالانتا. أُبلغ عن فقدانه في مطلع سبتمبر، وكما في حالة ألفرد إيفانز فليس هناك سبب واضح للوفاة يمكن تحديده. كان هذان الصبيان أسودَين أيضًا، لكن لم يكن هناك أي دليل مشابه لربط أي شيء ذي أهمية.

لسوء الحظ، في مدينة بحجم أتالانتا، فإن الأطفال يختفون دائمًا، ويُعثَر على بعضهم متوفين.

في صباح 5 مارس، 1980، خرجت فتاة تبلغ من العمر اثني عشر عامًا (اسمها أنجل لانير) للذهاب إلى المدرسة لكنها لم تصل قط. عُثِرَ على جثتها بعد خمسة أيام، مكمَّمة ومقيدة اليدين بسلك كهربائي، إلى جانب الطريق. كانت بكامل ملابسها، بما في ذلك ثيابها الداخلية، لكن سروالًا داخليًّا آخر كان محشوًّا في فمها. حُدِّد سبب الوفاة بالخنق بالرباط. ولم يجد الطبيب الشرعي أي دليل على الاعتداء الجنسي.

اختفى جيفري ماتيس، 11 عامًا، في 12 مارس. في تلك المرحلة، لم تكن إدارة شرطة أتالانتا قد فعلت شيئًا إزاء ستة أطفال سود إما مفقودين أو تبين أنهم قُتِلوا. كان هناك اختلافات بقدر عوامل الشبه في هذه القضايا، ولم يأخذوا في حسبانهم جديًّا إمكانية أن بعض هذه الحالات أو جميعها قد تكون متصلة ببعضها.

لكن هناك أشخاصًا آخرين فكروا في ذلك. في 15 أبريل، نسقت والدة يوسف بيل، كاميل، جهودها مع آباء آخرين لأطفال سود مفقودين أو متوفين وأعلنت عن إنشاء لجنة إيقاف جرائم قتل الأطفال. طالبوا بالمساعدة الرسمية والاعتراف بما كانوا يرونه يحدث حولهم. لم يكن هذا مفترض الحدوث في أتالانتا، العاصمة الكوزموبوليتية للجنوب الجديد New South. كانت مدينة دائمة الحركة، وكان من المفترض أن تكون «مشغولة للغاية لدرجة ألا يمكنك أن تكرهها»، والتي تباهت بوجود عمدة أسود هو ماينارد جاكسون، ومفوض سلامة عامة أسود هو لي براون.

لم تتوقف الأهوال. في 19 مايو، عُثِرَ على إريك ميدلبروك، 14 عامًا، مقتولًا على بعد نحو ربع ميل عن منزله. كان سبب الوفاة صدمة ضربة على الرأس. في 9 يونيو، اختفى كريستوفر ريتشاردسون، 12 عامًا. في 22 يونيو، اختفت الفتاة الثانية، لاتونيا ويلسون، 8 أعوام. اختُطِفت من غرفة نومها في الساعات الأولى من فجر يوم الأحد. بعد يومين، عُثِرَ على جثة آرون ويتشي، 10 أعوام، تحت جسر مقاطعة ديكالب. مات خنقًا وعنقه مكسورة. عُثِر على أنتوني (توني) كارتر، 9 أعوام، خلف مخزن في شارع ويلز في 6 يوليو، وجهه لأسفل في العشب، ميتًا نتيجة طعنات متعددة. من غياب الدم عن المكان، نعرف أنه قد تم نقل الجثة من مكان آخر.

لم يعد ممكنًا تجاهل النمط. شكَّل مفوض السلامة العامة فرقة عمل المخطوفين والمقتولين، التي ضمت في النهاية أكثر من خمسين فردًا، ومع ذلك فقد تواصلت الحالات، فقد أبلغ عن اختفاء إيرل تيرل، 10 أعوام، في 31 يوليو في ريدوين رود، بجوار مكان العثور على جثة ميلتون هارفي. وعندما عُثِر على كليفورد جونز، 12 عامًا، ميتًا خنقًا في زقاق في هوليوود رود، تقبلت الشرطة أخيرًا فكرة وجود صلة وأعلنت أن التحقيق سيجري الآن تحت فكرة أن هذه الجرائم مرتبطة بقتل الأطفال السود.

حتى تلك اللحظة، لم يكن لـ إف بي آي سلطة قضائية للتدخل في جرائم ظلت، على الرغم من كل بشاعتها، سلسلة من الجرائم المحلية. لكن التغيير جاء مع اختفاء إيرل تيرل. تلقت العائلة الكثير من الاتصالات التي تطالبهم بفدية مقابل استلام طفلهم حيًّا. زعم المتصل أن إيرل قد نُقِل إلى ألاباما. أدى التقاطع المفترض بين خطوط الولايات إلى تدخل الـ إف بي آي في حوادث الخطف وإتاحة الفرصة للمشاركة في التحقيق. لكن تبين لاحقًا أن اتصالات الفدية لم تكن سوى خدعة. تلاشت الآمال في إنقاذ حياة إيرل وكان الـ إف بي آي مضطرًّا للتراجع.

في 16 سبتمبر، أُبلِغ عن اختفاء فتى آخر، دارون جلاس، 11 عامًا. طلب العمدة مينارد جاكسون مساعدة البيت الأبيض، بشكل خاص ومحدد في جعل مكتب التحقيقات الفيدرالي يجري تحقيقًا واسعًا في قضايا اختفاء وقتل الأطفال في أتالانتا. ومع استمرار الصلاحية القضائية كعائق، فقد طلب المدعي العام جريفن بيل من الـ إف بي آي أن يبدأ تحقيقًا بشأن إن كان الأطفال الذين لم يُعثَر عليهم بعد محتجزين ويتعرضون لانتهاكات في قانون الاختطاف الفيدرالي، بمعنى آخر، هل كان للجرائم طبيعة متقاطعة الولايات؟ وكمسؤولية إضافية، كُلِّف مكتب أتالانتا الميداني بمهمة اكتشاف ما إذا كانت الجرائم، في واقع الأمر، على صلة ببعضها. باختصار وبمعنى ضمني، فقد أصدر المكتب رسالة مفادها: يجب حل القضايا واكتشاف القاتل، في أسرع وقت ممكن.

استثمرت وسائل الإعلام بالطبع في هذا الهوس. أصبحت صور وجوه الفتيان السود التي تُعرَض يوميًا في الصحف علامة على الذنب الحكومي الجماعي. هل كانت تلك مؤامرة لارتكاب مذبحة بحق السكان السود،

واستهداف أضعف شريحة بينهم؟ هل كان ذلك من فعل «كلان»[1] أم الحزب النازي أم جماعة كراهية أخرى تعبر عن نفسها بعد عقد ونصف من إعلان الحقوق المدنية الرئيسية؟ هل كانت تلك قضية شخص مجنون عَدَّ أن على عاتقه مهمة قتل الأطفال؟ بدت الاحتمالية الأخيرة الأقل قابلية للتصديق. كان الأطفال يقعون ضحايا في معدل متسارع بازدياد. وحتى ذلك الوقت، كانت الغالبية العظمى من القتلة المتسلسلين من البيض، ولم يسبق لهم في الغالب أن «تصيدوا» خارج عرقهم. القتل المتسلسل جريمة شخصية، لا جريمة سياسية.

لكن هذا قد منح الـ إف بي آي شرعية أخرى في القضية، فإذا لم ينجح العمل على قانون الخطف الفيدرالي، فإن لدينا إمكانية العمل على البند 44: انتهاك الحقوق المدنية الفيدرالية.

في الوقت الذي توجهت فيه أنا وروي هازلوود إلى أتالانتا، كانت هناك ست عشرة قضية دون نهاية واضحة. كان قد أصبح آنذاك مع تدخل الـ إف بي آي اسم رسمي للقضية: ATKID، كما تم تعيين أيضًا اسم القضية الرئيسية 30 (Major Case 30)، مع أن تدخل الـ إف بي آي لم يكن مرحبًا به كثيرًا. لم تكن شرطة أتالانتا ترغب في أن يسرق أحد ما ذلك العرض منها، كما أن مكتب إف بي آي الميداني لم يرغب في تقديم وعود قد يعجز عن الإيفاء بها.

كان روي هازلوود الاختيار المنطقي ليصحبني في أتالانتا. من بين جميع مدربي وحدة العلوم السلوكية، كان روي يقوم بأغلب أعمال التنميط، يعلِّم منهاج الأكاديمية الوطنية حول العنف بين الأشخاص، وتولى مسؤولية الكثير من قضايا الاغتصاب التي وردت إلى الوحدة. كان الهدف الرئيسي الذي وضعناه لأنفسنا هو معرفة ما إذا كانت القضايا متصلة، وفي حال كانت كذلك، فهل كان هناك مؤامرة؟

راجعنا ملفات الجرائم الضخمة، وصور مواقع الجرائم، وتوصيفات لما كان كل طفل يلبس عند العثور عليه، وأقوال من الشهود في المنطقة، وبروتوكولات التشريح.

---

(1) أحد أشكال كو كلوكس كلان Ku Klux Kan الجديدة.

قمنا بمقابلة أفراد عائلات الأطفال لرؤية ما إذا كان هناك شيء مشترك في مجال علم الضحايا. جالت بنا الشرطة حول الأحياء التي اختفى فيها الأطفال وأخذونا إلى مكان وضع جثة كل واحد من الأطفال الذين عُثِر عليهم.

ودون أن نشارك بعضنا انطباعات كل منا، فقد أجرينا أنا وروي اختبارات القياس النفسي، التي أشرف عليها طبيب نفسي جنائي، وملأناها كما لو أنَّ كلًّا منا كان هو القاتل. تضمن الاختبار الدافع، والخلفية، والحياة الأسرية؛ أنواع الأشياء التي ضمناها في الملف التعريفي. دُهِش الطبيب الذي أجرى الاختبار من أن نتائجنا كانت متطابقة تقريبًا.

ولم يكن ما توجب علينا قوله يهدف للفوز بأي منافسات شعبية.

أولًا، لم نكن نعتقد أن هذه جرائم كراهية من نمط جرائم «كلان». ثانيًا، كنا واثقين تقريبًا من أن المجرم أسود. وثالثًا، في حين كانت بعض حالات القتل والاختفاء متصلة، فإنها لم تكن كلها كذلك. تلقى مكتب تحقيقات جورجيا الكثير من الإشارات التي تدل على تورط «كو كلوكس كلان»، لكننا استبعدناها. إذا درست جرائم الكراهية التي تعود إلى بدايات إنشاء الأمة، فإنك سترى أنها تميل في الغالب لأن تكون أفعالًا علنية ورمزية للغاية. إن المقصود من الإعدام خارج نطاق القانون هو الإدلاء ببيان عام واختلاق عرض علني. هذه الجريمة أو غيرها من جرائم القتل العرقية هي من الأفعال الإرهابية، ومن أجل أن يكون لها التأثير اللازم، يجب أن تكون مرئية على نطاق عريض. لا يرتدي رجال كو كلوكس كلان عباءات بيضاء للتخفي. فإذا كانت هناك مجموعة كراهية قد استهدفت أطفالًا سود البشرة في منطقة أتالانتا، فلن تكون راضية أن تمر أشهر قبل أن تكتشف الشرطة أن هناك أمرًا ما يحدث. كنا سنتوقع أجسادًا معلقة في ماين ستريت، يو إس إيه، ولن تكون الرسالة مخفية. لكننا لم نر أي نمط سلوكي مثل هذا في هذه القضايا. كانت مناطق تفريغ النفايات في معظمها أو بشكل حصري في مناطق السود في المدينة، وبذلك فلم يكن واردًا لرجل أبيض (أو جماعة من البيض، في احتمال أقل ورودًا) أن يجوب هذه الأحياء دون أن تتم ملاحظته.

نفذت الشرطة استطلاعات مكثفة ولم يبلَّغ عن وجود أشخاص بيض قرب الأطفال أو في مناطق التخلص من القمامة. في هذه المناطق تكون الشوارع مليئة بالحركة على مدار الساعة، لذلك فإنه حتى تحت غطاء الظلام، لن يتمكن رجل أبيض من الوجود هنا من غير أن يلاحظه أحد. كما أن هناك تلك

الفكرة التي استقيناها من تجربتنا، وهي أن القاتل الجنسي يميل لاستهداف أشخاص من عرقه. وحتى مع غياب أي دليل على التحرش الجنسي، فإن هذه الجرائم بالتأكيد تناسب نمط الجرائم الجنسية.

كانت هناك صلة قوية بين العديد من الضحايا. كانوا صغارًا ومنفتحين ويعرفون حياة الشارع، لكنهم عديمو الخبرة وساذجون حين يتعلق الأمر بما هو خلف أحيائهم. اعتقدنا أن هذا النوع من الأطفال سيكون عرضة للخدعة والحيلة من طرف شخص مناسب. وهذا الشخص لديه سيارة، نظرًا إلى نقل الأطفال بعيدًا عن مواقع الاختطاف. وشعرنا أنه يجب أن يمتلك هالة سلطة ما. لقد عاش الكثير من هؤلاء الأطفال في حالة فقر واضحة. في بعض المنازل لم نكن نلاحظ وجود كهرباء أو مياه جارية.

بسبب ذلك وافتقار الأطفال النسبي للفطنة لم أعتقد أن الأمر سيتطلب الكثير من الإغراء. لتجربة هذا، كان لدينا ضباط شرطة متخفون من أتالانتا، يذهبون إلى تلك المناطق، متنكرين كعمال، يوقفون طفلًا ويطلبون منه الذهاب معهم لإنجاز عمل ما مقابل خمسة دولارات. تمت تجربة ذلك مع ضباط سود وضباط بيض ولم يبدُ أن ذلك سيشكل فرقًا. كان أولئك الأطفال في أمس الحاجة إلى البقاء، وسيفعلون أي شيء مقابل خمسة دولارات. لم يكن الأمر ليتطلب الكثير من الصعوبة من رجل ما ليصل إليهم. كما أظهرت التجربة أيضًا أن الرجل الأبيض ملاحَظ تمامًا في هذه الأحياء.

لكن مثلما قلت، في حين أننا وجدنا صلة قوية، فإنها لم تبدُ قابلة للتطبيق على جميع الحالات، فبعد تقييم الظروف والضحايا بعناية، لم أعتقد أن الفتاتين قد قُتلتا على يد المجرم الرئيسي، أو حتى من قِبَل الشخص نفسه في الحالتين، إذ كان أسلوب اختطاف لاتونيا ويلسون من غرفة نومها شديد الخصوصية.

في شأن الضحايا من الذكور، كنت أفكر أن معظم حالات «القتل الناعم» -حالات الخنق- كانت متصلة، ليس بالضرورة جميع الأسباب المجهولة للوفاة. كما أن بقية الجوانب دفعتنا للاعتقاد أننا لم نكن نتعامل مع قاتل واحد. كان هناك دليل قوي في عدد من الحالات يشير إلى أن القاتل كان أحد أفراد عائلة الضحية، لكن حين أعلن مدير إف بي آي وليم ويبستر ذلك علنًا، تلقى هجومًا من الصحافة. وبعيدًا عن المشكلات السياسية الواضحة للقضية، فإن أي عائلة يتم استبعادها أو فصلها من قائمة المخطوفين والمقتولين

كانت ستُعدُّ غير مؤهلة لتلقي التمويلات التي بدأ يرسلها أفراد وجماعات من أرجاء البلاد.

ومع شعورنا أننا نتعامل مع أكثر من شخص واحد، فإننا اعتقدنا أننا نبحث عن شخص واحد بعينه، كان سيواصل القتل حتى يتم اكتشافه. حددت أنا وروي ذكرًا أسود، أعزب، بين الخامسة والعشرين والتاسعة والعشرين من العمر. كان من المهووسين بالشرطة، وكان يقود سيارة تشبه سيارات الشرطة، وفي مرحلة ما كان سينخرط في التحقيقات. سيكون لديه كلب يشبه كلاب الشرطة، إما جيرمان شيبرد أو دوبرمان. لن تكون لديه حبيبة، وسيكون منجذبًا جنسيًّا للأولاد، لكننا لم نرَ أي علامات تشير إلى الاغتصاب أو الاعتداء الجنسي. وهذا في رأيي يدل على عجزه الجنسي. كان يتعامل بشيء من الخداع أو الاحتيال مع أولئك الأولاد. كنت أراهن أن له علاقة بالموسيقى أو التمثيل. كانت لديه قدرات جيدة، لكنه لم يتمكن من استثمارها. في مرحلة مبكرة من العلاقة، كان الطفل يرفضه، أو أنه على الأقل سيشعر أنه بات مجبرًا على القتل.

تفحصت شرطة أتالانتا جميع البيدوفيليين (المتحرشين جنسيًّا بالأطفال) المعروفين والمجرمين «ممن يفضلون» الأطفال، وتوصلوا في النهاية إلى قائمة من ألف وخمسمائة مشتبه به محتمل. زار ضباط الشرطة وعملاء إف بي آي المدارس، قابلوا الأطفال ليسألوهم ما إذا كان أي منهم قد اقترب منه ذكر بالغ ولم يخبروا أهلهم أو الشرطة. ركبوا الحافلات، ووزعوا المنشورات التي تعرض صور الأطفال المفقودين، سألوا ما إذا كان أحد قد رآهم، وبخاصة بصحبة رجال. كان هناك ضباط متخفون ذهبوا إلى حانات المثليين ليسترقوا السمع ويجمعوا الأدلة.

لم يتفق معنا الجميع، ولم يكن الجميع مسرورين لوجودنا هناك. في أحد مواقع الجريمة في شقة بعيدة منعزلة، اقترب مني شرطي أسود وقال: «أنت دوجلاس، أليس كذلك؟»

«بلى، هذا صحيح»

«لقد رأيت ملفك التعريفي. هذا هراء» لم أكن متأكدًا مما إذا كان يتحدث عن عملي أم يشير إلى ما تكرسه الصحف من أنه لا وجود لقاتل متسلسل أسود. لم يكن هذا صحيحًا تمامًا، لقد كانت لدينا قضايا قتلة متسلسلين سود

لكل من البغايا وأفراد عائلاتهم، لكنهم لم يسلكوا طريقة القتلة الأكثر غرابة كما لم يتبع أحدهم طرق العمل التي نراها هنا.

قلت له: «انظر، لستُ مضطرًّا أن أكون هنا، لم أطلب أن آتي إلى هنا».

لكن في جميع الأحوال، كان معدل الإحباط عاليًا. لقد أراد الجميع أن تُحلَّ هذه القضية، لكن كل شخص من بين الجميع أراد أن يعزى ذلك الفضل إليه. وكما هو صحيح عادة، فقد كنت أنا وروي نعرف أننا موجودان هنا لتلقي الهجوم واللوم على أي شيء.

بعيدًا عن سيناريو مؤامرة «كلان»، فقد كانت هناك نظريات من جميع الأنواع، بعضها أغرب من بعض. بعض الأطفال فُقِدت منهم ملابس محددة، لكنها لم تكن متماثلة. هل كان هذا القاتل يحاول إلباس دمية عرض بالطريقة التي كان يجمع فيها إد جين أجزاء من جلد النساء؟ في جرائم القتل الأخيرة، هل كان مقصودًا من المشتبه به مجهول الهوية أن يتطور عبر ترك الجثة في العراء؟ أم أن المشتبه به مجهول الهوية قد انتحر وأخذ أشخاصٌ مقلدون يرتكبون الجرائم على النمط عينه؟

بالنسبة إليَّ، جاء أول تغيير حين كنت في كوانتيكو. جاءنا اتصال هاتفي من كونيرز (بلدة صغيرة تبعد عشرين ميلًا عن أتالانتا)، اعتقدوا أن لديهم أخيرًا دليلًا. استمعت للشريط في مكتب لاري مونرو، بصحبة الدكتور بارك ديتز.

قبل أن يصبح مديرًا لوحدة العلوم السلوكية، كان مونرو أحد المدربين البارزين في كوانتيكو. مثل آن بيرجس، فإن بارك ديتز جاء إلى الوحدة عبر روي هازلوود. كان آنذاك خريجًا في هارفارد وقد بدأ يحظى بسمعة في أواسط دوائر إنفاذ القانون. ومع استقراره في كاليفورنيا، كان ديتز أهم طبيب نفسي شرعي في البلاد ومستشارًا دائمًا لوحدتنا.

اعترف المتصل في الشريط المسجل أنه قاتل الأطفال في أتالانتا وذكر أسماء معظم الأطفال الضحايا. كان واضحًا أنه أبيض، «رِد نك redneck» نموذجي، وقد وعد بـ «قتل المزيد من أولئك الأطفال السود الزنوج» كما عيَّن مكانًا محددًا على سيجمون رود في مقاطعة روك دايل حيث يمكننا العثور على جثة أخرى.

أتذكر الإثارة التي ملأت الغرفة، التي كنت أخشى أن أحبطها. أعلنت: «هذا ليس القاتل. لكن عليكم أن تقبضوا عليه، إذ ما دام موجودًا فإنه سيواصل الاتصال وسيكون سببًا للإزعاج وقوة مشتِّتة».

وعلى الرغم من حماسة الشرطة، فإنني كنت واثقًا من أني كنت مصيبًا بشأن ذلك اللعين. مررت بموقف مشابه قليلًا قبل ذلك حين كنت أنا وبوب ريسلر في إنجلترا نعلِّم في دورة في برامشيل، أكاديمية الشرطة البريطانية (التي تعادل كوانتيكو) على بعد ساعة من لندن. كانت إنجلترا غارقة في قضايا سفاح يوركشاير. كان المجرم، الذي صور نفسه على ما يبدو على غرار سفاح وايتشابل في إنجلترا العصر الفيكتوري، كان يستهدف ويطعن النساء في الشمال، لا سيما المومسات. كانت هناك ثماني جرائم قتل حتى الآن، تمكنت ثلاث نساء من الهرب، لكن لم يتمكن من تقديم وصف للجاني. كان معدل السن يتراوح بين بداية المراهقة إلى أواخر الخمسينيات. وكما هو الحال في أتالانتا، فقد كانت إنجلترا غارقة في الرعب. كانت أكبر مطاردة في التاريخ البريطاني. أجرت الشرطة البريطانية قرابة ربع مليون مقابلة مع أفراد عبر البلاد.

تلقت الشرطة والصحف رسائل من «جاك ذا ريبر-السفاح»، معترفًا بالجرائم. ثم وصل شريط كاسيت بالبريد عليه تسجيل صوتي مدته دقيقتان إلى كبير المفتشين جورج أولدفيلد، ساخرًا من الشرطة وواعدًا بأن يضرب من جديد.

وكما في قضية أتالانتا، فقد بدت هذه القضية اختراقًا كبيرًا. نُسِخ التسجيل وأُذِيع في كل مكان، في المذياع، والتلفزيون، وعلى خطوط الهاتف، وفي مباريات كرة القدم، لمعرفة إذا كان أحد ما سيتمكن من التعرف على الصوت.

أخبرونا أن جون دومايل كان في برامشيل بينما كنا هناك. كان شرطيًّا بارزًا ومحققًا رئيسيًّا في قضية السفاح. أخبروه أن هذين الرجلين المحللين من إف بي آي موجودان هنا وأن علينا أن نعمل معًا. لذلك بعد انتهاء الدرس، كنت أنا وبوب جالسين وحيدين في حانة الأكاديمية عندما جاء ذلك الرجل، عرفه شخص في الحانة وذهب إليه ليتكلم معه. تمكنت من قراءة تعابيره غير اللفظية وعلمت أنه يسخر من ذينك الأمريكيين وقلت لريسلر: «أراهن أنه هو». أشاروا له إلينا، فجاء مع مجموعة من الرجال إلى طاولتنا، وعرَّفنا بنفسه. قلت: «أرى أنك لم تحضر معك أي ملفات». بدأ يبرر ويتحدث عن

مدى صعوبة القضية، وكم من الصعب أن يأتي بملفاتها خلال وقت قصير مثل ذلك.

أجبت: «حسنًا. لدينا الكثير من القضايا الخاصة بنا. سأجلس هنا قريبًا وأشرب».

كانت طريقة اقبل أو ارفض تثير اهتمام البريطانيين. سأل أحدهم ما الذي نحتاج إليه لتكوين ملف تعريفي لقضية. أخبرته أننا نبدأ بوصف المواقع. أخبرني أن المشتبه به مجهول الهوية كان يجعل النساء في موقف ضعف ثم يباغتهن بسكين أو مطرقة. كان يشوههن بعد الوفاة. كان الصوت على الشريط دقيقًا جدًّا ومتطورًا بالنسبة إلى قاتل مومسات. لذلك قلت: «بناء على مواقع الجرائم التي ذكرتها والشريط الصوتي الذي سمعته في الولايات المتحدة، فإنكم لا تلاحقون السفاح. أنتم تضيعون وقتكم في ذلك».

أوضحت له أن القاتل الذي كان يبحث عنه لم يكن متواصلًا مع الشرطة، وإنما كان شخصًا وحيدًا قليل الظهور، في أواخر العشرينيات أو بداية الثلاثينيات، وكان لديه كراهية مَرضية تجاه النساء، تاركٌ للمدرسة، وقد يكون سائق شاحنة لأنه يبدو أنه كان موجودًا في المكان كثيرًا، كما أن قتله للمومسات كان محاولة منه لمعاقبة النساء بشكل عام.

وعلى الرغم من الوقت والموارد التي أنفقوها للحصول على الشريط، قال دومايل: «أتعلم؟ كنت قلقًا بشأن ذلك» ثم تغير مجرى التحقيق. حين اعتُقل سائق الشاحنة بيتر سوتكليف، 35 عامًا، في 2 يناير، 1981، في خضم أهوال قضية أتالانتا -ثبت أنه القاتل، ولم يكن هو من سجل الشريط وأرسله، وإنما تبين أنه كان شرطيًّا متقاعدًا لديه ضغينة تجاه المفتش أولدفيلد.

بعد الاستماع لشريط تسجيل جورجيا، تحدثت إلى ضباط شرطة من كونيرز وأتالانتا، وقد توصلت في رأسي إلى سيناريو اعتقدت أنه سيوقِع بهذا المحتال. مثل قضية السفاح، كانت نبرة الرجل محذرة ومتكبرة.

قلت: «من نبرة صوت هذا الرجل وما يقوله، فإنه يعتقد أنكم جميعًا أغبياء. لنستخدم هذا».

نصحتهم أن يتصرفوا كأغبياء كما ظنهم. «اذهبوا إلى سيجمون رود لكن فتشوا في عكس اتجاه الطريق؛ يجب أن تضيعوه بالكامل. سيكون يراقب

وقد يحالفكم الحظ في الإيقاع به هناك. إذا لم يكن، فإنه على الأقل سيتصل ويخبركم كم أنتم أغبياء، لأنكم تبحثون في الاتجاه الخطأ».

أحب بارك ديتز هذا، حيث دمج هذه التفاصيل الميدانية غير المألوفة داخل معرفته الأكاديمية.

قام رجال الشرطة بعرض واسع النطاق بحثًا عن هذه الجثة، أخطؤوا الاتجاهات، وبالتأكيد اتصل بهم ليخبرهم كم هم أغبياء. كانوا مستعدين بالفخ ليتعقبوه ويوقعوا بذلك الرجل الأبيض في منزله. ليتأكدوا لاحقًا من أنه ليس المطلوب، فتشوا المنطقة اليمنى في سيجمون رود، لكن بالطبع لم يكن هناك أي جثة.

لم تكن حادثة كونيرز الحادثة المضللة الوحيدة في هذه القضية. غالبًا ما يكون في التحقيقات الكبيرة عدد لا بأس به من هذه الحوادث، ولم تكن أتالانتا استثناءً. بجانب الطريق، في الغابات بجوار المكان الذي عُثِرَ فيه على الآثار الأولى للقضية، اكتشف المحققون مجلة إباحية على صفحاتها آثار سائل منوي. تمكن مختبر إف بي آي من رفع البصمات عنها وتكوين هوية. رجل أبيض يقود شاحنة ويعمل في إبادة الحشرات. كانت الرمزية النفسية، طبعًا، مكتملة، فعند هذا النوع من المختلين اجتماعيًا، ليس هناك فارق كبير بين إبادة الحشرات وإبادة الأطفال السود. نعرف مسبقًا أن العديد من القتلة المتسلسلين يعودون إلى مواقع جرائمهم وأمكنة التخلص من الجثث. تكهنت الشرطة أنه كان يقود سيارته إلى جانب الطريق، يتذكر أفعاله، يشعر بالإثارة ويستمني بينما يتذكر فعل الصيد والقتل.

كان هذا التطور قد وصل إلى مدير إف بي آي وإلى المدعي العام وصولًا إلى البيت الأبيض. كانوا جميعًا ينتظرون بفارغ الصبر الإعلان عن التوصل إلى قاتل الأطفال في أتالانتا. كان هناك بيان صحفي جاهز، لكن كان ثمة أشياء تزعجني. أولًا، هو أبيض. ثانيًا، إنه سعيد في زواجه. لا بد أن هناك سببًا آخر لوجود الرجل هناك. أحضروه للاستجواب. أنكر كل شيء. أروه المجلة مع آثار السائل المنوي عليها. أخبروه أن لديهم بصماته عليها. حسنًا، يعترف: كنت أقود ورميتها من السيارة. لكن هذا لا معنى له أيضًا. كان يقود

السيارة، وقد رمى المجلة لتقع في الغابة؟ لا بد أن له ذراعًا بقوة ذراع جوني يونيتاس[1].

حين أدرك أنه في مأزق حقيقي، اعترف أن زوجته حامل، وقد تلد في أي يوم، وأنه لم يمارس الجنس منذ أشهر. وبدلًا من التفكير حتى في خيانة المرأة التي يحب، والتي ستضع طفله، فقد ذهب إلى متجر 7-Eleven، واشترى المجلة، ثم فكر أن بإمكانه الخروج في ساعة الغداء إلى منطقة منعزلة والحصول على بعض الراحة.

تعاطفت مع ذلك الرجل. لا شيء له قداسته! لقد فكر في أنه سيذهب لمكان بعيد، لن يزعج أحدًا، ينهي عمله ويعود، فإذا برئيس الولايات المتحدة يعرف الآن أنه كان يستمني في الغابة!

حين قبضوا على المحتال في كونيرز، فكرت أننا تمكنا على الأقل من إبعاد هذا العنصري من طريقنا كيما يتمكنوا من التركيز على التحقيقات، لكن هناك ما لم أكن قد حسبته بشكل صحيح، وهو أني أغفلت الدور النشط الذي تلعبه الصحافة، ومنذ ذلك الحين حرصت على ألا أقع في هذا الخطأ ثانية.

كان هناك ما أدركته، وهو أنه في نقطة ما، فإن التغطية الصحفية الهائلة التي نالتها قضية قاتل الأطفال قد أصبحت بحد ذاتها مُرضية للقاتل. ما لم أحسبه جيدًا، هو *أنه كان يتفاعل* بشكل محدد لتقارير الإعلام.

ما حصل هو أن الصحافة كانت توّاقة لأي نقطة تفوُّق ممكنة بعد ما جرى في التغطية الواسعة لسيجمون رود، التي لم تسفر عن شيء. لكن بعد ذلك بفترة قصيرة، عُثِرَ على جثة في العراء في سيجمون رود في مقاطعة روك دايل: تيري بو، الفتى ذو الخمسة عشر عامًا.

بالنسبة إليَّ، كان هذا تطورًا ملموسًا وبدايةً لإستراتيجية كيف يمكن أن يتم القبض على القاتل. معنى هذا أنه يتابع الصحافة بشكل وثيق ويتفاعل مع ما تنشره. كان يعلم أن الشرطة لن تجد جثة في سيجمون رود لأنه أصلًا لم يضع واحدة هناك. لكنه الآن يظهِر تفوقه، كيف يمكنه التلاعب بالشرطة والصحافة. إنه يظهِر تعجرفه وصلافته، أنه يستطيع أن يرمي جثة في

(1) جون يونيتاس؛ 1933/2002. لاعب كرة قدم أمريكية كان يُعرف بـ «صاحب الذراع الذهبية».

سيجمون رود إن أراد فعل ذلك! لقد كسر نمط عمله وقاد عشرين أو ثلاثين ميلًا ليلعب هذه اللعبة. نعرف أنه يراقب، فلنرَ إذا كان يمكننا استخدام ذلك في التلاعب بسلوكه.

لو كنت قد علمت هذا أو توصلت إليه من قبل، لكنا وضعنا مراقبة على منطقة سيجمون رود، لكن الأوان قد فات على ذلك الآن. يجب أن ننظر إلى الأمام ونرى ما يمكننا فعله.

كانت لدي عدة أفكار. كان فرانك سيناترا وسامي ديفيز جونيور قادمين لإحياء حفل في أومني لجمع الأموال لعائلات الضحايا. كان الحدث يحظى بتغطية هائلة، وكنت على ثقة بأن القاتل سيكون هناك. كان التحدي، كيف سنخرجه من بين عشرين ألف شخص؟

توصلت أنا وبوب هازلوود لملف تعريفي لشخص مهووس بالشرطة. قد يكون هذا هو المفتاح. اقترحت: «لنعطه تذكرة مجانية»، وكما هي العادة، نظر إليَّ ضباط الشرطة وعملاء مكتب إف بي آي الميداني وكأنني مجنون. فأوضحت فكرتي. سوف نعلن أنه بسبب وجود عدد كبير من المشتبه بهم، فإننا بحاجة إلى المزيد من حراس الأمن، وبالتالي فإننا سنعرض فرصة العمل بالحد الأدنى من الأجور، وسيتطلب الأمر أن يأتي المتقدم بسيارته (نظرًا لمعرفتنا أن الرجل لديه سيارة)، وستُعطى الأفضلية لأولئك الذين لديهم خلفية أو خبرة في شؤون إنفاذ القانون. أجرينا مقابلات الفرز في أومنين مستخدمين كاميرات دائرة تلفزيونية مخفية. سنستبعد المجموعات التي لا تعنينا -نساء، عجائز... إلخ- وسنركز بشكل رئيسي على الرجال سود البشرة. سيملأ كل منهم طلبًا، سنجعلهم يسجلون عليه خبراتهم في قيادة سيارات الإسعاف، وما إذا كانوا قد تقدموا بطلب للعمل في الشرطة أو الأمن من قبل، وهي الأمور التي ستساعدنا في تأهيل المشتبه به. يمكننا ربما الوصول إلى قائمة نهائية من اثني عشر شخصًا بحيث يمكننا التحقق من مطابقتهم للأدلة الأخرى.

وصلت الفكرة مباشرة إلى معاون المدعي العام. كانت المشكلة أنه في كل مرة كانت هناك مؤسسة كبرى تعمل على أي شيء ليس معتادًا، فإنك تواجه «شلل التحليل» analysis paralysis. وفي الوقت الذي نالت فيه إستراتيجيتي الموافقة أخيرًا، كان قد تبقى يوم واحد على الحفلة، وكانت فرصة تجنيد «حراس أمن» في تلك المرحلة احتمالًا ضئيلًا للغاية، بسبب فوات الأوان.

كانت لدي خطة أخرى، كنت أرغب في صنع صلبان خشبية، طولها قدم تقريبًا. بعضها تُعطى للعائلات، ويوضع بعضها في مواقع الجرائم كنوع من التذكار. بينما يمكن وضع الصليب الكبير في الكنيسة لتخليد ذكرى الأطفال.

بمجرد الإعلان عن هذا، علمت أن القاتل سيزور بعض المواقع، وبخاصة البعيدة منها، حتى إنه قد يحاول الحصول على أحد هذه الصلبان. إذا أبقينا المواقع الرئيسية تحت المراقبة، فأعتقد أن لدينا فرصة جيدة للإمساك به.

لكن استغرق الأمر أسابيع من المكتب للموافقة على الخطة، ثم احتدمت الحرب حول من سيصنع الصلبان، هل هو قسم المعارض في إف بي آي في واشنطن، معمل النجارة في كوانتيكو؟ أم أن على مكتب أتالانتا الميداني التعاقد عليه؟ صُنِعت الصلبان في نهاية الأمر، لكن في الوقت الذي أصبحت فيه قابلة للاستعمال، كانت الأحداث قد تجاوزتنا في القضية.

بحلول فبراير، كانت المدينة خارج السيطرة، أخذ الوسطاء الروحيون يتدفقون، مقدمين «ملفاتهم التعريفية» الخاصة بهم، وكان كثير منهم يناقضون بعضهم. كانت الصحافة تستغل أي فرصة، ناشرة أي اقتباس من أي شخص عن القضية مهما كان بعيدًا عنها. الضحية التالية التي ظهرت بعد تيري بو في سيجمون رود كانت عائدة لباتريك بالتازار، 12 عامًا، خارج طريق بوفورد السريع، في مقاطعة ديكالب. وكما في حالة تيري بو، تعرض بالتازار للخنق. في مرحلة ما، أعلن أحد في مكتب الطبيب الشرعي أنه كان على جسد بالتازار شعر وأنسجة تطابقت مع ما وُجِد على خمس من الضحايا السابقين. كانوا هؤلاء ممن ربطتهم ليكون لديهم القاتل نفسه. واستُقبل إعلان نتائج الطب الشرعي بتغطية واسعة النطاق.

هنا خطرت لي فكرة، *إنه سيبدأ بالتخلص من الجثث في النهر*. إنه يعلم أن لديهم الآن شعرًا وأنسجة. في جثة سابقة، تعود لباتريك روجرز، عُثر عليها في جانب مقاطعة كوب من نهر تشاتاهوتشي في ديسمبر، ضحية بصدمة ضربة على الرأس. لكن باتريك كان في الخامسة عشرة، طوله 5.9 أقدام، ووزنه 145 باوندًا، تارك للمدرسة، كان في مشكلات قانونية. لم تَعُد الشرطة أن جريمته مرتبطة. وسواء كانت كذلك أم لا، فقد شعرت مع ذلك أن القاتل سيأتي إلى النهر الآن، حيث المياه كفيلة بغسل أي أثر للأدلة.

كان علينا أن نبدأ مراقبة الأنهار، قلت: «وبشكل خاص نهر تشاتاهوتشي». وهو الممر المائي الرئيسي الذي يشكل الحدود الشمالية الغربية للمدينة مع مقاطعة كوب المجاورة.

لكن كانت هناك عدة سلطات قضائية للشرطة منخرطة، واحدة لكل مقاطعة، بالإضافة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي إف بي آي، ولم يكن يمكن لأحد أن يتولى المسؤولية الكاملة. وبحلول الوقت الذي تم فيه تنظيم واعتماد عملية مراقبة مشتركة مؤلفة من أفراد من إف بي آي وفرقة العمل المعنية بجرائم القتل، كنا قد أصبحنا في شهر أبريل.

لكن في غضون ذلك، لم أتفاجأ عندما تم العثور على الجثة التالية؛ كورتيس والكر، 13 عامًا، والتي ظهرت في ساوث ريفر. ظهر الاثنان التاليان؛ تيمي هيل، 13 عامًا، وإيدي دنكان، وكان أكبرهم في الحادية والعشرين، بفارق يوم واحد بعضهم من بعض في تشاتاهوتشي. وعلى عكس الضحايا السابقين، الذين تم العثور على معظمهم وهم يرتدون ملابس كاملة، تم تجريد هذه الجثث الثلاث من ملابسهم الداخلية، وهي طريقة أخرى لإزالة الشعر والأنسجة.

مرت أسابيع مع وجود فرق المراقبة في مكانها، مراقبة الجسور ومواقع رمي النفايات المحتملة على طول النهر. لكن لم يحدث شيء. كان من الواضح أن السلطات فقدت الثقة وشعرت وكأنها لا تصل إلى شيء. مع عدم إحراز تقدم واضح، كان من المقرر إغلاق العملية عند تبديل المناوبة في الساعة السادسة صباحًا من يوم 22 مايو.

في نحو الساعة 2:30 من صباح ذلك اليوم، كان مجند في أكاديمية الشرطة يُدعى بوب كامبل في نوبة المراقبة الأخيرة على ضفة تشاتاهوتشي أسفل جسر جاكسون باركواي، حين رأى سيارة تسير هناك وتوقفت على ما يبدو لفترة وجيزة في المنتصف.

«لقد سمعت للتو صوت ارتطام قوي بالماء!» أبلغ بتوتر في جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به. وجَّه مصباحه إلى الماء ورأى التموجات. استدارت السيارة وعادت عبر الجسر حيث تبعتها سيارة مراقبة ثم أوقفتها. كانت سيارة شيفروليه ستايشن واغن موديل 1970، وكان السائق رجلًا ذا شعر قصير مجعد، في الثالثة والعشرين من العمر، بشرته سوداء فاتحة، اسمه

واين بيرترام ويليامز، كان لطيفًا ومتعاونًا. زعم أنه موسيقي محترف وقال إنه يعيش مع والديه.

استجوبته الشرطة ثم فتشت سيارته قبل أن يتركوه يمضي، لكنهم لم يفقدوا أثره.

بعد يومين، طفت على الماء جثة ناثانيال كاتر، 27 عامًا، في اتجاه مجرى النهر، بالقرب من مكان العثور على جثة جيمي راي باين، 21 عامًا، قبل شهر واحد. لم يكن هناك ما يكفي من الأدلة لاعتقال ويليامز والحصول على أمر تفتيش، ولكن تم وضعه تحت المراقبة المشددة.

سرعان ما علم أن الشرطة تلاحقه وقادهم في مطاردات في جميع أنحاء المدينة، حتى إنه قاد سيارته إلى منزل مفوض السلامة العامة لي براون وبدأ في إطلاق بوق السيارة. كانت لديه غرفة مظلمة في منزله، وقبل الحصول على مذكرة، شوهد وهو يحرق الصور في الفناء الخلفي لمنزله، كما قام بغسل السيارة.

يلائم واين ويليامز ملفنا التعريفي من جميع النواحي الرئيسية، بما في ذلك ملكيته لكلب جيرمان شيبرد. لقد كان مولعًا بالشرطة وتم القبض عليه قبل بضع سنوات لانتحاله صفة ضابط قانوني. بعد ذلك قاد سيارة تابعة للشرطة واستخدم ماسحات الشرطة للوصول إلى موقع الجريمة لالتقاط الصور. وبالعودة إلى الوراء، فقد تذكر العديد من الشهود أنهم رأوه على امتداد سيجمون رود عندما كانت الشرطة تتفاعل مع الإنذار الذي وصلها عبر الهاتف وتبحث عن الجثة غير الموجودة. كان يلتقط صورًا هناك، وقدَّمها للشرطة. اكتشفنا أيضًا أنه، بالفعل، قد حضر الحفل الموسيقي الخيري في أومني.

دون إلقاء القبض عليه، طلب منه إف بي آي أن يأتي إلى المكتب، كان متعاونًا ولم يطلب محاميًا. من التقارير التي تلقيتها، لم أشعر أنه تم التخطيط للاستجواب أو تنظيمه بشكل صحيح. لقد كان صارمًا ومباشرًا، وظننت في تلك اللحظة أنه يمكن الوصول إليه. بعد المقابلة، قيل لي إنه يتسكع في المكتب ويتصرف كما لو أنه لا يزال يريد التحدث عن الشرطة وموظفي إف بي آي، لكن عندما غادر في ذلك اليوم، علمت أنهم لن يحصلوا على اعتراف منه. وافق على الخضوع لاختبار جهاز كشف الكذب، والذي ثبت أنه غير حاسم. في وقت لاحق، عندما حصلت الشرطة والعملاء الفيدراليون

على مذكرة وفتشوا المنزل الذي عاش فيه مع والديه المعلمَين المتقاعدَين، وجدوا كتبًا تفيد في كيفية اجتياز اختبار كشف الكذب.

تم الحصول على هذه المذكرة في 3 يونيو. وعلى الرغم من قيام ويليامز بغسل السيارة، فقد عثرت الشرطة على شعر وأنسجة تربطه بنحو اثنتي عشرة جريمة قتل، وهي بالضبط الجرائم التي وصفتُها على أنها قد ارتُكبت من القاتل نفسه.

كان الدليل مقنعًا. لم يقتصر الأمر على حصولهم على أنسجة تربط الجثث بغرفة ويليامز ومنزله وسيارته، بل قام لاري بيترسون (من مختبر ولاية جورجيا للجريمة) بمطابقة الأنسجة من الملابس التي كان يرتديها بعض الضحايا في مناسبات قبل اختفائهم. بمعنى آخر، كانت هناك علاقة مع ويليامز قبل وقوع بعض جرائم القتل.

في 21 يونيو، أُلقي القبض على واين بي ويليامز بتهمة قتل ناثانيال كاتر. واستمر التحقيق في القتلى الأُخَر. كنت أنا وبوب ريسلر في فندق هامبتون إن، بالقرب من نيوبورت نيوز، فيرجينيا، كنا نتحدث قبل اجتماع الجمعية الإصلاحية للولايات الجنوبية، عندما تم الإعلان عن الاعتقال. كنت عائدًا لتوي من إنجلترا وقضية سفاح يوركشاير، وكنت أتحدث عن عملي في جرائم القتل المتسلسل. في شهر مارس الماضي، نشرت مجلة *بيبول* - ***People*** قصة عني وعن ريسلر وكيف أننا كنا نتتبع قاتل أتالانتا. في المقال (الذي تلقينا أمرًا من المقر الرئيسي بالتعاون معه) عرضتُ بعض العناصر من الملف الشخصي، وبخاصة عن رأينا أن المشتبه به مجهول الهوية أسود. حظيت القصة باهتمام كبير على الصعيد الوطني. لذلك عندما تلقيت أسئلة من هذا الجمهور المكوَّن من أكثر من خمسمائة شخص، سألني أحدهم عن رأيي في اعتقال ويليامز.

عرضتُ بعض المعلومات الأساسية عن القضية ومشاركتنا فيها وكيف توصلنا إلى ملفنا التنميطي. قلت إنه قد طابق المواصفات الموجودة في الملف التعريفي وأضفت بعناية أنه إذا تبين أنه هو بالفعل، فأعتقد أنه «يبدو مسؤولًا عن نسبة عالية من جرائم القتل».

لم أكن أعرف أن السائل كان مراسلًا، على الرغم من أنني متأكد من أنني كنت سأجيب على نفس السؤال حتى لو كنت أعرف. في اليوم التالي نقلت عني صحيفة نيوبورت نيوز- *هامبتون دايلي برس* قولي: «إنه يبدو مسؤولًا

عن نسبة عالية من عمليات القتل»، مجتزئًا ومغفِلًا تصريحي التأهيلي الذي يسبق هذه الكلمات.

ضربت القصة وترًا حساسًا في الصحافة، وفي اليوم التالي نرى اقتباس تصريحي في جميع أنحاء البلاد، وفي جميع البرامج الإخبارية في الشبكات، وفي جميع الصحف الرئيسية، بما في ذلك قصة في *أتالانتا* كونستيتيوشن بعنوان «عميل الــ إف بي آي: ويليامز قتل الكثير من الناس».

كنت أتلقى مكالمات من كل مكان. كانت هناك كاميرات تلفزيون في بهو الفندق وفي الردهة خارج غرفتي. اضطررنا أنا وريسلر للتسلق من مخرج الحريق للخروج.

بالعودة إلى المقر، كان الأمر قد بدأ يزداد سوءًا. بدا الأمر وكأن أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي المتورط بشكل وثيق في القضية قد أعلن أن واين ويليامز مذنب دون محاكمة. بالعودة إلى كوانتيكو، حاولت أن أشرح لرئيس الوحدة لاري مونرو على الهاتف المحمول ما حدث بالفعل. حاول هو ومساعد المدير، جيم ماكنزي، مساعدتي وتفعيل تدخل مكتب *المسؤولية المهنية* (OPR) التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

أتذكر أنني كنت جالسًا في الطابق العلوي من المكتبة في كوانتيكو حيث كنت أذهب لكتابة ملفات التعريف الخاصة بي في سلام وهدوء. كانت فيها ميزة النوافذ التي يمكن النظر من خلالها، على عكس مكاتبنا تحت الأرضية. جاء مونرو وماكنزي للتحدث معي. كان كلاهما من كبار المؤيدين لي. كنت الوحيد المتفرغ للعمل بالتحليل التنميطي بدوام كامل، لقد كنت منهكًا للغاية من الركض في كل مكان، لقد كانت أتالانتا مكانًا مستنزفًا عاطفيًا بدرجة كبيرة، والشكر الذي تلقيته على كل ذلك كان يُعَد تهديدًا بتوجيه اللوم إلى هذا البيان الذي تم اجتزاؤه خارج سياقه من قبل وسائل الإعلام.

لقد حققنا انتصارًا كبيرًا في فن التنميط والتحليل الجنائي في هذه القضية. كان تقييمنا للمشتبه به مجهول الهوية وما سيفعله بعد ذلك صحيحًا ودقيقًا. كنا تحت أعين الجميع، من البيت الأبيض وما دونه. لقد أفلتُّ بعنقي، ولو كنت مخفقًا أو خاطئًا، فإن ذلك يعني أن البرنامج كان سينتهي.

قيل لنا دائمًا إن هذه الوظيفة تنطوي على مخاطر عالية ومكاسب عالية. بعينين دامعتين، أخبرت مونرو وماكنزي أنني رأيت ذلك ينطوي على «خطر كبير، لا مكسب لعين». قلت إن الأمر لا يستحق كل هذا العناء وألقيت بملفات

القضية على الطاولة. قال جيم ماكنزي إنني ربما كنت على حق، لكنهم أرادوا فقط مساعدتي.

عندما ذهبت إلى المقر للمثول أمام مكتب المسؤولية المهنية، كان أول شيء عليَّ فعله هو التوقيع على تنازل عن حقوقي. إن إقامة العدل في العالم الخارجي وممارستها في الداخل ليسا بالضرورة الشيء نفسه. أول شيء فعلوه هو إخراج مجلة *بيبول - People*. كانت جاكي أوناسيس على الغلاف.

«ألم يتم تحذيرك من إجراء مقابلات كهذه؟»

قلت: «لا. كانت هناك موافقة على المقابلة». في الاجتماع، كنت أتحدث عن بحثنا عن القاتل المتسلسل بشكل عام عندما طرح أحدهم قضية واين ويليامز. كنت حريصًا على طريقة صياغة ردي، لكن لم يكن بإمكاني التحكم في الطريقة التي تم الإبلاغ بها.

تلقيت اللوم لمدة أربع ساعات. كان عليَّ أن أكتب تصريحًا، مستعرضًا تقارير الصحيفة وما حدث بندًا تلو الآخر. وعندما انتهيت، لم يخبروني بأي شيء، ولم يقدموا لي أي ملاحظات عما سيحدث لي. شعرت كما لو أنني أعطيت المكتب الكثير من نفسي دون أي تعزيز، وأني ضحيت بالكثير من الأشياء الأخرى، وقضيت الكثير من الوقت بعيدًا عن عائلتي، وها أنا الآن أواجه احتمال تعرضي للوم، مواجهًا المصاعب ودون أجر لفترة من الوقت، أو مهدَّدًا بفقدان وظيفتي تمامًا. خلال الأسابيع العديدة التالية، لم أرغب حرفيًّا في النهوض من الفراش في الصباح.

كان ذلك عندما كتب لي والدي جاك رسالة. تحدث فيها عن الوقت الذي تم تسريحه من وظيفته في *بروكلين إيجل*. هو أيضًا كان مكتئبًا. لقد كان يعمل بجد ويقوم بعمل جيد، لكنه شعر أيضًا أنه ليس لديه سيطرة على حياته. شرح كيف تعلم أن يواجه ما ترميه الحياة عليه وأن يعيد تجميع موارده الداخلية ليقاتل في يوم آخر. حملت تلك الرسالة في حقيبتي لفترة طويلة، حتى بعد فترة طويلة من انتهاء هذا الحادث.

بعد خمسة أشهر، قرر مكتب المسؤولية المهنية توجيه خطاب اللوم لي، مؤكدًا على أنه قد تم تحذيري بعد مقال *بيبول People* بألا أتحدث إلى الصحافة بشأن التحقيقات المعلقة. جاء خطاب اللوم من المدير ويبستر نفسه.

ولكن على الرغم من استيائي الشديد، لم يكن لدي الكثير من الوقت للتفكير فيه إلا إذا كنت مستعدًّا للتخلي عن ذلك كله، ومهما كانت مشاعري تجاه المنظمة في ذلك الوقت، فإن العمل ذاته كان مهمًّا جدًّا بالنسبة إليَّ. لا يزال لدي قضايا جارية في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وكانت محاكمة واين ويليامز على وشك الحدوث. حان الوقت للقتال في يوم آخر.

بدأت محاكمة واين ويليامز في يناير 1982 بعد ستة أيام من اختيار هيئة المحلفين. كانت الهيئة التي تم التوصل إليها في غالبيتها من السود، تسع نساء وثلاثة رجال. على الرغم من أننا شعرنا أنه كان مسؤولًا عما لا يقل عن اثنتي عشرة من عمليات قتل الأطفال، فإن ويليامز كان يُحاكَم في تهمتي قتل فقط؛ ناثانيال كاتر وجيمي راي باين. وكانت المفارقة أن كلا هذين الشابين كانا في العشرينيات من العمر.

مثَّل ويليامز فريق دفاع قانوني رفيع المستوى من جاكسون، مسيسيبي -جيم كيتشنز وآل بيندر- وسيدة من أتالانتا، ماري ويلكم. كان بعض الأعضاء الرئيسيين في الادعاء هم مساعد المدعي العام لمقاطعة فولتون، جوردون ميللر وجاك مالارد. نظرًا لعملي في مرحلة التحقيق في القضية، طلب مني مكتب المدعي العام الحضور وتقديم المشورة لهم في أثناء تقدم المحاكمة. وخلال معظم الإجراءات، جلستُ خلف طاولة الادعاء مباشرة.

إذا عُقِدت المحاكمة اليوم، فسأكون قادرًا على الشهادة بشأن طريقة عمله، جوانب التوقيع والربط بين القضايا مثلما فعلت في العديد من القضايا الأخرى. وإذا كانت هناك إدانة، فيمكنني خلال مرحلة العقوبة أن أعطي رأيًا مهنيًّا حول خطورة المتهم في المستقبل. لكن آنذاك في عام 1982، لم يكن ما فعلناه معترَفًا به في المحاكم، لذلك كان بوسعي فقط تقديم المشورة حول الإستراتيجية.

استندتْ معظم قضية الادعاء على نحو سبعمائة قطعة من أدلة الشعر والأنسجة، تم تحليلها بدقة من قبل لاري بيترسون والعميل الخاص هال ديدمان، وهو خبير من مختبر إف بي آي في واشنطن. على الرغم من اتهام ويليامز بارتكاب جريمتي القتل فقط، فإن الإجراءات الجنائية في جورجيا سمحت للولاية برفع قضايا أخرى متصلة، وهو أمر لا يمكن القيام به في ولاية مسيسيبي ولم يكن الدفاع مستعدًّا له على ما يبدو. كانت مشكلة الادعاء هي أن ويليامز كان لطيفًا ومهذبًا، ولبقًا في حديثه وودودًا. بنظارته

السميكة وملامحه الناعمة ويده الرقيقة، بدا أشبه بتميمة بيلسبري دوج بوي Pillsbury Doughboy أكثر من كونه قاتل أطفال متسلسلًا. لقد اعتاد إصدار بيانات صحفية حول عدم إدانته وكيف كان اعتقاله ذا طبيعة عنصرية صرفة. قبل بدء المحاكمة مباشرة، قال في مقابلة: «سأقارن عملاء إف بي آي مع شخصيات Keystone Kops الهزلية، وشرطة أتالانتا بسيارة 54، *أين أنتم؟*»

لم يكن لدى أي شخص في جانب الادعاء أي أمل في أن يصعد ويليامز على المنصة، لكنني اعتقدت أنه قد يفعل ذلك، إذ من خلال سلوكه في أثناء الجرائم وهذا النوع من الدولة العامة، فكرت أنه كان متعجرفًا وواثقًا من نفسه بما يكفي للاعتقاد بأنه يستطيع التلاعب بالمحكمة بالطريقة التي استغل بها الجمهور والصحافة والشرطة.

في اجتماع مغلق بين الجانبين عُقد في غرفة القاضي كلارنس كوبر، قال آل بيندر إنهم أحضروا طبيبًا نفسيًا شرعيًا بارزًا من فينيكس يدعى مايكل براد بايليس ليشهد على أن ويليامز لم يكن مطابقًا للملف التعريفي وكان غير قادر على ارتكاب جرائم القتل. أجرى الدكتور بايليس ثلاثة اختبارات مقابلة منفصلة مع ويليامز.

«جيد» رد جوردون ميللر «يمكنك إحضاره وسنقوم بإحضار عميل إف بي آي كشاهد نقض، الذي توقع كل ما حدث حتى الآن في هذه القضية».

«اللعنة، نريد مقابلته» قال بيندر. أخبره ميللر أنني كنت جالسًا خلف طاولة الادعاء معظم وقت المحاكمة.

لكنني التقيت كلا الجانبين، واستخدمنا غرفة هيئة المحلفين.

شرحت خلفيتي للدفاع وأخبرتهم إذا كان لديهم أي مشكلات مع كوني عميلًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي أو لكوني طبيبًا، فيمكنني الاستعانة بطبيب نفسي عملنا معه، مثل بارك ديتز، لدراسة القضية، وشعرت بالثقة أنه سوف يشهد على نفس الأمور.

بدا بيندر ورفاقه مفتونين بما يجب أن أقوله. لقد كانوا ودودين ومحترمين، حتى إن بيندر أخبرني أن ابنه يرغب في أن يكون عميلًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

كما تبين فيما بعد، لم يشهد بايليس قط. بعد أسبوع من انتهاء المحاكمة، أخبر المراسلين في صحيفتي *أتالانتا جورنال* و*أتالانتا كونستيتيوشن* أنه يعتقد أن ويليامز كان قادرًا من الناحية العاطفية على القتل، وأن لديه «شخصية قاصرة»، وأن الدافع (في رأيه) في جرائم القتل كانت «قوة حاجة ماسة للسيطرة». قال إن ويليامز «أرادني أن أفعل شيئًا من اثنين، إما أن أغير تقريري وألا أقول أشياء معينة، أو عدم الشهادة»، وأكد أن إحدى المشكلات الرئيسية للدفاع كانت إصرار ويليامز على السيطرة على كل شيء بنفسه.

لقد وجدتُ كل هذا مثيرًا جدًّا للاهتمام، في جزء صغير منه لأنه يتوافق جيدًا مع الملف التعريفي الذي توصلت إليه أنا وروي هازلوود. لكن في أثناء المحاكمة وجدت حادثة أخرى مثيرة للاهتمام بالقدر نفسه.

مثل معظم المشاركين من خارج المدينة، كنت أقيم في فندق ماريوت وسط المدينة بالقرب من مبنى المحكمة. ذات ليلة كنت أتناول الطعام وحدي في غرفة الطعام عندما جاء هذا الرجل الأسود المميز المظهر في منتصف الأربعينيات من عمره إلى طاولتي وعرَّف عن نفسه على أنه الدكتور براد بايليس. أقول له إنني أعرف من هو وسبب وجوده هنا. يسألني إذا كان يمكنه الجلوس.

أبلغته أنني أعتقد أنها فكرة سيئة أن نُرى معًا لا سيما إذا كان سيدلي بشهادته للدفاع غدًا. لكن بايليس قال إنه غير مهتم بذلك، جلس وسألني ما أعرفه عنه وعن خلفيته، وقد تبين أنه كثير جدًّا. أعطيته واحدة من المحاضرات الصغيرة عن علم النفس الجنائي وعلَّقت أنه إذا شهد وفق الطريقة التي يريدها الدفاع، فإنه سوف يسبب الحرج لنفسه ولمهنته.

عندما غادر الطاولة، صافحني وقال إنه يرغب حقًّا في القدوم إلى كوانتيكو وتلقي دوراتنا. قلت وأنا أغمزه نوعًا ما إننا سنرى كيف سيعمل على المنصة غدًا.

في اليوم التالي في المحكمة، صدِّقوا أو لا، اكتشفت أن الدكتور بايليس قد عاد إلى أريزونا دون الإدلاء بشهادته. في المحكمة، يشتكي بيندر من «سلطة الادعاء» وكيف أنهم يخيفون شهوده ذوي الخبرة. لم أكن أخطط للقيام بذلك، إن كان هذا ما حدث، لكنني بالتأكيد لن أتراجع عندما أصبحت الفرصة بين يدي. ولكن ما حدث حقًّا، كما أحسب، هو أن الدكتور بايليس كان يتمتع بقدر

كبير من النزاهة حتى لئلا يسميها كما يراها هو أو أن يترك نفسه يُستخدم من قبل أي من الجانبين لأهدافهم الخاصة.

خلال قضية الادعاء، قام هال ديدمان ولاري بيترسون بعمل رائع باستخدام أدلة الشعر والأنسجة، لكنها كانت أشياء معقدة للغاية، وبطبيعة الحال لم تكن عرضًا مسرحيًّا للغاية؛ كل شيء عن كيفية التفاف أنسجة هذه السجادة في هذا الاتجاه وأنسجة تلك السجادة في الاتجاه الآخر. في النهاية قاموا بمطابقة الأنسجة من جميع الضحايا الاثنتي عشرة مع فراش ويليامز البنفسجي والأخضر، ورُبط معظمهم بالسجاد في غرفة نوم ويليامز، ونحو نصفهم بالسجاد في غرفة المعيشة، نفس الرقم لسيارته الشيفروليه موديل 1970، وفي جميع القضايا (ما عدا واحدة) كانوا قادرين على إيجاد رابطة مع وبر كلب المدعى عليه الجيرمان شيبرد، شيبا.

عندما جاء دور الدفاع كان لديه مظهر وسيم وساحر، على طراز كينيدي، من كانساس، ابتسم كثيرًا لهيئة المحلفين وقد جاء لدحض شهادة ديدمان. في نهاية الجلسة، عندما اجتمع فريق الادعاء لمناقشة ما حدث في ذلك اليوم، كان الجميع يضحكون على أن هذا الرجل حسن المظهر من كانساس لم يكن مقنِعًا على الإطلاق.

جاؤوا إلي. «ما رأيك يا جون؟».

كنت أراقب هيئة المحلفين. قلت: «دعوني أخبركم شيئًا: إنكم تخسرون هذه القضية». شعروا بالصدمة وكأن ذلك كان آخر شيء أرادوا أن يسمعوه.

شرحت لهم: «قد لا ترون أنه كان مقنعًا، لكن المحلفين يصدقونه». كنت أعرف ما يتحدث عنه هال ديدمان وكنت ما أزال أراه شيئًا صعب التنفيذ. ربما كان شهود الدفاع مفرطين في التبسيط، لكن كان من الأسهل فهمهم ومتابعتهم.

كانوا على قدرٍ كافٍ من الكرم واللباقة لعدم إخباري أنني كنت مليئًا بالهراء، ولكن، بالمحلل التنميطي البارع الذي كنته، أدركت أني شخص غير مرغوب فيه هنا. كان لدي عدد كبير من القضايا المتراكمة في انتظاري وكنت أستعد لمحاكمة ماري فرانسيس ستونر. كان كل هذا الوقت على الطريق قد بدأ يكلف خسائر بشرية أيضًا. كنت أعاني من مشكلات زوجية بسبب عدم تفرُّغي للعائلة، لم أكن أحصل على التمارين الرياضية التي أظن أنني بحاجة

إليها، وكنت متوترًا طوال الوقت. اتصلت بلاري مونرو من كوانتيكو وأخبرته أنني عائدٌ إلى المنزل.

ما إن وصلت المطار الوطني وبدأت مشوار عودتي إلى المنزل حتى تلقيت رسالة تفيد بأن النيابة العامة كانت لديها أفكار أخرى. لقد بدؤوا يفكرون في أن بعض الأشياء التي قلتها قد تحدث في الواقع. يريدون مني أن أعود إلى أتالانتا لمساعدتهم على استجواب شهود الدفاع.

لذا عدت مرة أخرى بعد يومين. إنهم الآن أكثر انفتاحًا ويطلبون النصيحة. والمفاجأة الكبرى لهم جميعًا هي أن واين ويليامز قرر أن يصعد إلى المنصة، وهو ما كنت أتوقعه. فحصه محاميه، آل بيندر، الذي يتمتع بصوت عميق ورخيم. بالطريقة التي ينحني بها وهو يسأل الأسئلة، يبدو وكأنه سمكة قرش، ولعل هذا هو سبب حصوله على لقب *الفك*- *Jaws*.

واصل التركيز على النقطة ذاتها لهيئة المحلفين. قال: «انظروا إليه! هل يبدو كقاتل متسلسل؟ انظروا إليه. انهض يا واين». وطلب منه أن يمد يديه. «انظروا إلى يديه الناعمتين. هل تعتقدون أنه سيكون لديه القوة لقتل شخص ما؟ لخنق شخص ما بهاتين اليدين؟»

وضع بيندر ويليامز على المنصة في منتصف يوم واحد وأبقاه طوال اليوم التالي. وقد قام ويليامز بعمل رائع بنفسه، تمامًا كما كان يعلم أنه سيفعل. لقد كان قابلًا للتصديق تمامًا بعدِّه الضحية البريئة لنظام محرج متحيز عنصريًّا يحتاج إلى مشتبه به سريعًا وها هو قد وجد واحدًا.

إذن كان السؤال التالي للادعاء: كيف سنستجوبه؟ كان مساعد المدعي العام للمقاطعة جاك مالارد الحل المناسب، إنه الشخص المناسب؛ لديه صوت منخفض وبطيء ولهجة جنوبية سلسة.

لم أتلقّ أي تدريب رسمي في إجراءات قاعة المحكمة أو استجواب الشهود، لكن كان لدي غريزة لما قد يتطلبه الأمر. كان الأمر كله قائمًا حقًّا على فكرة «تبادل الأدوار». سألت نفسي: ما الذي قد يضايقني؟ والإجابة التي توصلت إليها هي أن يتم استجوابي من قبل شخص يعرف مسبقًا أنني مذنب، بغض النظر عما حاولت إقناعه به.

قلت لمالارد: «هل تتذكر البرنامج التلفزيوني القديم *This Is Your Life*؟ عليك أن تفعل ذلك معه. عليك أن تبقيه على المنصة لأطول فترة ممكنة،

وعليك أن تحطمه، لأنه شخصية جامدة ومسيطَر عليها بشكل مبالغ فيه، لديه وسواس قهري. ولتحطيم هذا الجمود، عليك أن تواصل الضغط عليه، حافظ على هذا التوتر من خلال المرور بكل جانب من جوانب حياته، حتى الأشياء التي يبدو أنها لا تعني أي شيء، مثل أين كانت مدرسته التي درس فيها. عليك أن تواصل فحسب. ثم عندما يصبح لينًا، عليك أن تلمسه جسديًّا، تمامًا كما فعل آل بيندر. ما هو جيد للدفاع هو جيد للادعاء. اقترب منه وانتهك مساحته وأمسك به على حين غرة. قبل أن تتاح الفرصة للدفاع للاعتراض، اسأله بصوت خفيض: هل أُصِبت بالذعر يا واين عندما قتلت هؤلاء الأطفال؟»

وعندما جاء الوقت، كان هذا بالضبط ما فعله مالارد. خلال الساعات العديدة الأولى من الاستجواب، لم يستطع أن يزعج ويليامز، لقد واجهه بعدد من التناقضات الصارخة، لكنه حافظ على رباطة جأشه وهدوئه، «كيف يمكن أن يكون أنا؟» ويليامز. أخذ مالارد، ذو الشعر الرمادي والبذلة الرمادية يستعرض بشكل منهجي مراحل مختلفة من حياته، ثم في الوقت المناسب اقترب، وضع يده على ذراع ويليامز، ثم بصوت خفيض ولكنة أهل جنوب جورجيا يقول: «كيف كان ذلك يا واين؟ كيف كان شعورك عندما وضعت أصابعك حول عنق الضحية؟ هل أُصبت بالذعر؟ هل أُصبت بالذعر؟» وبصوت ضعيف قال ويليامز: «لا».

ثم تمالك نفسه، واستبدت به حالة من الحنق الشديد. أشار بإصبعه نحوي وصرخ: «إنك تعمل جاهدًا لتجعلني مطابقًا لملف تعريف الـ إف بي آي إياه، ولن أساعدك على القيام بذلك!»

أصبح الدفاع عدوانيًا. جنَّ جنون ويليامز، وبدأ يصرخ حول «حمقى الـ إف بي آي» ووصف فريق الادعاء بـ «الأغبياء». لكن تلك كانت نقطة التحول في المحاكمة، وفق ما قاله أعضاء هيئة المحلفين بأنفسهم فيما بعد، لقد فغروا أفواههم محدقين. للمرة الأولى، كانوا قد رأوا الجانب الآخر من واين ويليامز. يمكنهم رؤية التحول أمام أعينهم. لقد أمكنهم إدراك كمّ العنف الذي كان قادرًا عليه. غمزني مالارد، ثم عاد ليدمر ويليامز على المنصة.

بعد ثورانه في محاكمة علنية مثل هذه، كنت أدري أنه كان يعلم أن فرصته الوحيدة هي استعادة بعض التعاطف الذي اكتسبه خلال المحاكمة. نقرت على كتف مالارد وقلت: «انتبه يا جاك. بعد أسبوع من اليوم، سيمرض واين». لا أعرف لماذا اخترت الإطار الزمني لمدة أسبوع واحد، ولكن بعد

أسبوع بالضبط، توقفت المحاكمة ونُقل ويليامز إلى المستشفى بسبب آلام في المعدة. لم يجدوا لديه أي مشكلة وأطلقوا سراحه.

في بيانها أمام هيئة المحلفين، رفعت ماري ويلكوم محامية ويليامز كشتبانًا وسألتهم: «هل ستدعون كشتبانًا من الأدلة يدين هذا الرجل؟» رفعت قطعة من السجادة الخضراء عن مكتبها، قائلةً إنها رائجة جدًّا. كيف تدين رجلًا لأنه يملك سجادة خضراء؟

في ذلك اليوم، ذهبت أنا وبعض العملاء الآخرين إلى شركة المحاماة خاصتها.

دخلنا، وقصدنا مكتبها بينما لم تكن هناك، انتزعنا بعض ألياف السجادة، أعدناها ووضعناها تحت المجهر وقدمنا الأدلة للادعاء، مما يدل على أن ألياف سجادتها كانت مختلفة تمامًا عن الألياف الموجودة في السجادة في منزل ويليامز.

في 27 فبراير 1982، بعد 11 ساعة من المداولات، أصدرت هيئة المحلفين حكمًا بالإدانة في كلتا الجريمتين. حُكم على واين ويليامز بالسجن مدى الحياة، وهو يقضي هذا الحكم في مؤسسة فالدوستا الإصلاحية في جنوب جورجيا. لا يزال مصرًّا على براءته، كما أن الجدل الدائر حول ويليامز لم يتلاشَ ولم ينتهِ قط، لكن حتى لو تمكن من الفوز بمحاكمة جديدة، فأنا واثق من أن النتيجة ستكون هي نفسها.

على الرغم مما يؤكده أنصاره، فإني أؤمن أن الأدلة الطبية والسلوكية تشير بشكل قاطع إلى واين ويليامز كقاتل ارتكب جريمة قتل أحد عشر طفلًا وشابًّا في أتالانتا. لكن وعلى الرغم مما يصرح به منتقدوه ومتِّهموه، فأعتقد أنه لا يوجد دليل قوي يربطه بجميع أو حتى معظم وفيات وحالات اختفاء الأطفال في تلك المدينة بين عامي 1979 و1981. وعلى الرغم مما يود بعض الناس تصديقه، فقد تواصلت حالات وفيات الأطفال واليافعين من البيض في ظروف غامضة في أتالانتا ومدن أخرى. لدينا فكرة حول من ارتكب بعض هذه الجرائم، إنه ليس مجرمًا واحدًا والحقيقة ليست سارَّة. حتى الآن، على الرغم من ذلك، لا يوجد دليل ولا إرادة الجمهور لطلب لوائح الاتهام.

تلقيت عددًا من رسائل الإشادة والتنويهات نتيجة لعملي في قضية واين ويليامز، بما في ذلك رسائل من مكتب المدعي العام لمقاطعة فولتون تقول إنني توصلت إلى إستراتيجية استجواب فعالة، وواحدة من جون جلوفر،

مدير مكتب أتالانتا الميداني، يلخص تحقيق ATKID بأكمله. ومن بين أكثر الرسائل المؤثرة والمقدَّرة عندي كانت من آل بيندر، محامي الدفاع الرئيسي، الذي كتب ليوضح مدى إعجابه بالعمل الذي قمنا به في هذه القضية.

في هذه الأثناء وقعت مسألة خطاب اللوم. كان جيم ماكنزي منزعجًا جدًّا من هذا التحول في الأحداث، رشحني لجائزة تحفيزية، ليس فقط لقضية ويليامز، ولكن لخمس قضايا أخرى كنت قد ساهمت فيها.

حصل ذلك في شهر مايو، لذا فقد تلقيت الآن خطاب توصية من المدير لأخذ خطاب اللوم الخاص بي في نفس القضية. لقد جاء فيها، جزئيًّا، أنه «من خلال موهبتك وتفانيك في أداء واجبك ومهنيَّتك، فقد عززت بالفعل سمعة المكتب الجيدة في جميع أنحاء البلاد، وكن على ثقة من أن خدماتك القيمة موضع تقدير حقًّا». وكان مع الثناء جائزة نقدية «كبيرة» بلغت 250 دولارًا، وهي ما خمنت أنها تعادل 5 سنتات في الساعة. تبرعت بالمال على الفور لصندوق الإغاثة للقوات البحرية لصالح عائلات الرجال والنساء الذين لقوا حتفهم خلال خدمة بلدهم.

إذا واجهنا قضية مثل قتل الأطفال في أتالانتا اليوم، فإني أود الاعتقاد أننا يمكن أن نصل إلى القاتل في زمن أقل، قبل أن.يكون أثر الموت والمعاناة طويلًا على هذا النحو المرعب. سنكون جميعًا أكثر كفاءة في تنسيق جهودنا. أصبحت تقنياتنا الاستباقية أكثر تعقيدًا وتعتمد على خبرة أكثر واقعية بكثير. سنعرف كيف ننظم الاستجواب لتحقيق أقصى تأثير. سوف نخطط بشكل أفضل لمهمة البحث ونحصل عليها قبل أن يتم إتلاف الأدلة المهمة.

ولكن مهما كانت الأخطاء التي ارتكبناها، فإن قضية ATKID كانت نقطة تحول حاسمة لوحدتنا. لقد وضعنا أنفسنا على الخريطة، وأثبتنا قيمة ما يمكننا القيام به، وحققنا مصداقية فورية في جميع أنحاء مجتمع إنفاذ القانون في جميع أنحاء العالم وساعدنا في وضع قاتل آخر خلف القضبان.

مخاطر عالية؛ مكاسب كبيرة.

12

واحد منا

جودسون راي هو إحدى الأساطير الحية في كوانتيكو، لكنه كاد ألا يكون كذلك. في فبراير من عام 1982، بينما كان يعمل ATKID كعميل خاص في مكتب أتالانتا الميداني، حاولت زوجته قتله.

لقد عرفنا بعضنا بعضًا لأول مرة، على الرغم من أننا لم نلتقِ، خلال قضية «قوى الشر Forces of Evil» في أوائل عام 1978. قام قاتل متسلسل يُدعى «خناق الجوارب Stocking Strangler» بالاعتداء على ست نساء مسنات في كولومبوس، جورجيا، بعد اقتحام منازلهنّ، كان يخنق كل واحدة منهن بجواربها المصنوعة من النايلون. كان جميع الضحايا من البيض، وتشير الأدلة الجنائية التي عثر عليها الطبيب الشرعي على بعض الجثث إلى أن الخانق كان أسود اللون.

ثم تلقى قائد الشرطة رسالة مقلقة، مكتوبة على قرطاسية تابعة للجيش الأمريكي، تدعي أنها من مجموعة من سبعة أشخاص تطلق على نفسها اسم «قوى الشر». أشارت الرسالة إلى الاعتقاد بأن Stocking Strangler كان أسود وهددت بقتل امرأة سوداء بشكل انتقامي إذا لم يتم القبض عليه بحلول 1 يونيو، أو «الأول من يونيو»، كما ذكر الكاتب أو الكُتّاب. زعموا أنهم قد اختطفوا امرأة تدعى جيل جاكسون. إذا لم يتم القبض على «S-Strangler» بحلول «الأول من سبتمبر»، «فإن عدد الضحايا سوف يتضاعف». أشارت الرسالة إلى أن القرطاسية العسكرية قد سُرقت وأن المجموعة أُنشئت في شيكاغو.

كان هذا التطور يمثل أسوأ كوابيس الجميع. كان وجود قاتل وحشي يطارد كولومبوس أمرًا فظيعًا بدرجة كافية. ويمكن لرد فعل منظم واقتصاصيّ ضده أن يمزق المجتمع. تبع ذلك رسائل أخرى، مما زاد تصعيد الموقف من خلال المطالبة بفدية قدرها عشرة آلاف دولار. فتشت الشرطة بشكل محموم ولكن دون جدوى أو وصول لأي من هؤلاء الرجال البيض السبعة. كانت جيل جاكسون مومسًا، كانت معروفة جيدًا حول محيط الحانات في فورت بيننج. وكانت بالفعل مفقودة.

كان جود راي قائد نوبة في قسم شرطة كولومبوس. بصفته أحد قدامى المحاربين في فيتنام وضابطًا أسود شق طريقه عبر الرتب، كان يدرك تمامًا أن المجتمع لن يتعافى حتى يتم تحييد هذين التهديدين من Stocking Strangler وقوى الشر. ومع عدم وجود تقدم في التحقيق، على الرغم من كل الوقت والجهد الذي تم بذله، أخبرته غرائز الشرطي أنه لا بد أنهم كانوا يبحثون عن الأشخاص الخطأ بطريقة خاطئة. حاول مواكبة التطورات في مجال إنفاذ القانون في جميع أنحاء البلاد وسمع عن برنامج التنميط في كوانتيكو. اقترح أن يقوم القسم بالاتصال بوحدة العلوم السلوكية والاطلاع على ما توصلنا إليه بشأن هذه القضية.

في 31 مارس، طلب منا مكتب التحقيقات في جورجيا تحليل القضية. على الرغم مما جاء في الرسالة الأصلية، فقد كنا جميعًا على يقين من أن الصلة بالجيش وفورت بيننج لم تكن عرضية. تولى بوب ريسلر (الذي كان شرطيًّا عسكريًّا قبل انضمامه إلى المكتب) زمام المبادرة.

في غضون ثلاثة أيام، أعددنا تقريرنا. شعرنا أنه لا يوجد دليل على أن قوى الشر هذه، (التي جعلت لنفسها نمطًا خاصًّا) تتكون فعلًا من سبعة رجال بيض. بل في الواقع، لم نكن نعتقد أنها كانت مكونة من أي رجال بيض. سيكون رجلًا أسود وحيدًا، يحاول حرف الانتباه بعيدًا عن نفسه وحقيقة أنه قد قتل جيل جاكسون بالفعل. من خلال استخدامه العسكري للتواريخ (على سبيل المثال «الأول من يونيو») وإشارته إلى الأمتار بدلًا من الأقدام أو الياردات، كان واضحًا أنه كان يعمل في الجيش. كانت الرسائل شبه أمية، مما يستبعد وجود ضابط لديه تعليم جيد. من تجربته الخاصة، شعر بوب أنه من المحتمل أن يكون إما مدفعيًّا أو شرطيًّا عسكريًّا، يتراوح عمره بين خمسة

وعشرين عامًا وثلاثين عامًا. وكان على الأرجح سيقتل امرأتين أخريين، من المومسات أيضًا.

ولعل هذا ما كان يقصده بأن «عدد الضحايا سيتضاعف»، وقد اعتقدنا أنه قد يكون Stocking Strangler فعلًا.

عندما تم تعميم ملفنا التعريفي في جميع أنحاء فورت بيننج والحانات والنوادي الليلية التي كانت الضحية معروفة فيها بشكل متكرر، وافانا الجيش وشرطة كولومبوس سريعًا باسم وليم إتش هانس، وهو متخصص من الدرجة الرابعة، أسود يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، في وحدة مدفعية في قاعدة فورت بيننج. اعترف بقتل جيل جاكسون، إيرين ثيركيلد وامرأة أخرى، عريف في الجيش تدعى كارين هيك مان، في فورت بيننج في الخريف الماضي. واعترف بأنه شكَّل «قوى الشر» لإبعاد الشرطة عن مساره.

تم التعرف على Stocking Strangler الحقيقي من خلال صورة فوتوغرافية التقطها أحد الشهود في أحد المواقع، وتم التعرف على كارلتون جاري، رجل أسود يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، وُلد ونشأ في كولومبوس. قُبض عليه بعد سلسلة من عمليات السطو على المطاعم، لكنه هرب، ولم يُقبض عليه مرة أخرى حتى مايو 1984. تمت إدانة كل من هانس وجاري والحكم عليهما بالإعدام بسبب جرائمهما.

بعد استقرار المجتمع وعودته إلى طبيعته، أخذ جود راي إجازة لإدارة برنامج في جامعة جورجيا حيث قام بتجنيد الأقليات والنساء في وظائف إنفاذ القانون. بمجرد انتهاء هذا المشروع، خطط للعودة إلى عمل الشرطة. ولكن بخلفيته العسكرية والتحقيقية (ناهيك بحقيقة أنه كان أسود وفي هذا الوقت كان المكتب في أمس الحاجة إلى إثبات نفسه كصاحب عمل متكافئ الفرص)، فقد قبل عرضًا من مكتب التحقيقات الفيدرالي إف بي آي. التقيت به لأول مرة بشكل عرضي عندما كان في كوانتيكو لتدريب الوكلاء الجدد. ثم عُيِّن في مكتب أتالانتا الميداني حيث عُدَّت خبرته ومعرفته بالمنطقة المحلية والأشخاص من الموارد المهمة. التقينا بعد ذلك في أواخر عام 1981 عندما كنت في أتالانتا من أجل ATKID. مثل أي شخص آخر في المكتب الميداني، شارك جود بعمق في التحقيق. كان كل عميل جزءًا من فريق يعمل على خمس قضايا ATKID، وكان جود يعمل وفق جدول مكثف.

كما أنه كان عرضة لضغوط هائلة من مصدر آخر؛ كان زواجه، المهتز لبعض الوقت، ينهار. كانت زوجته تفرط في الشرب، وتسيء إليه لفظيًا، وتتصرف بعصبية. قال: «لم أعد أعرف هذه المرأة بعد الآن». أخيرًا، في إحدى أمسيات الأحد، وجه لها إنذارًا نهائيًا: إما عليها أن تغير سلوكها وتطلب المساعدة أو أنه سيأخذ ابنتيهما -اللتين تبلغان من العمر ثمانية عشر شهرًا وثماني سنوات- ويغادر بهما.

ولدهشته البالغة، فقد بدأ جود يلاحظ علامات إيجابية. لقد أصبحت تهتم برعايتها له وللفتيات. «لقد رأيت تغييرًا مفاجئًا في شخصيتها». يتذكر «لقد توقفت عن شرب الخمر». «لقد بدأت تعبر عن حبها لي. لأول مرة منذ ثلاثة عشر عامًا من الزواج، استيقظت في الصباح لتحضر لي الإفطار. فجأة، أصبحتْ كل ما أردتُ منها أن تكونه».

لكنه أضاف بعد ذلك: «كان يجب أن أعرف أن هذا أفضل بكثير من أن أصدقه. وهو شيء أود أن ألقي محاضرة عنه للشرطة بعد ذلك. إذا أظهرت لك زوجتك فجأة تغييرًا جذريًا في السلوك -سلبيًا أو إيجابيًا- فعليك أن ترتاب على الفور».

ما كان يحدث هو أن زوجة جود كانت قد قررت قتله بالفعل، وكانت تكسب الوقت حتى تتمكن من اتخاذ الترتيبات. تمكنت من تنفيذ خطتها بنجاح، فستكون قادرة على تجنب الصدمة والإذلال الناجم عن طلاق قبيح، والاحتفاظ بالطفلتين لنفسها، وتحصيل بوليصة تأمين على الحياة بقيمة ربع مليون دولار. فأن تكون الأرملة الحزينة والموسرة لضابط مقتول أفضل من أن تكون امرأة مطلَّقة وحيدة في هذا العالم.

دون علم جود، كان هناك رجلان يراقبان تحركاته وعاداته لعدة أيام. انتظراه خارج مبنى شقته في الصباح وتبعاه على طريق I-20 إلى أتالانتا كل يوم. كانا يبحثان عن فرصة لجعله أعزل، بحيث يمكن تحقيق الضربة بكفاءة وإيجاد مهرب دون شهود.

لكنهما سرعان ما أدركا أن لديهما مشكلة. كان جود ضابطًا لفترة طويلة بما يكفي لأن يعلم الشرطي القاعدة الأولى الغريزية بالنسبة إليه: أبقِ يدك التي تمسك بها المسدس حرة. بغض النظر عن المكان الذي تعقبه فيه الراميان المحتملان، فإنه كان يبقي يده اليمنى مستعدة دائمًا للإمساك بمسدسه.

عادا إلى السيدة راي وأخبراها بالمشكلة. لقد أرادا إخراجه في موقف السيارات خارج الشقة، لكن جود سيكون قادرًا على الوصول إلى واحد منهما على الأقل قبل أن يتمكّنا من القضاء عليه. كان عليها أن تفعل شيئًا ما بشأن تلك اليد اليمنى الحرة.

لم تدع مثل هذه التفاصيل تقف في طريقها، أحضرت له فنجان قهوة واقترحت على جود أن يأخذه للعمل معه كل صباح. «لثلاثة عشر عامًا، لم تعدّ لي أو للفتيات وجبة الإفطار، والآن كانت تحاول إقناعي بأخذ فنجان القهوة اللعين معي».

لكنه قاوم، إذ إنه بعد كل هذه السنوات، لم يستطع التعود على فكرة القيادة ويده اليسرى على عجلة القيادة ويده اليمنى مشغولة بفنجان قهوة. كان هذا في الأيام التي سبقت انتشار حامل الأكواب في السيارات. لو كانت موجودة آنذاك، لربما كانت لهذه القصة نتيجة مختلفة كليًا.

عاد المسلحان إلى السيدة راي. قال أحدهما: «لا يمكننا قتله في موقف السيارات؛ علينا أن نتبعه إلى الداخل».

لذلك كان من المقرر أن تكون الضربة في مطلع شهر فبراير. كانت السيدة راي قد اصطحبت الفتاتين للخارج في المساء وكان جود في المنزل بمفرده. جاء الراميان إلى المبنى، نحو الردهة، وحتى باب الشقة، حيث دقا الجرس. المشكلة الوحيدة هي أن رقم الشقة لديهما خطأ. عندما فتح رجل أبيض الباب، سأل الرجلان عن الرجل الأسود الذي يعيش هناك. أخبرهما ببراءة أنهما مخطئان في الشقة، لأن السيد راي يعيش هناك.

ولكن في هذا الوقت كان الجار قد شاهد الرجلين. إذا نفذا العملية هذه الليلة، فلن توجد طريقة، حين تستجوبه الشرطة، تجعله لا يتذكر رجلين سود البشرة سألاه أين كان يسكن جود راي، ثم غادرا المكان.

في وقت لاحق عادت السيدة راي إلى المنزل مفترضةً أن المهمة قد تمت. نظرت حولها بتردد، ثم زحفت إلى غرفة النوم، واستعدت ذهنيًا للاتصال الذي ستجريه مع رقم الطوارئ (911)، قائلة إن شيئًا فظيعًا قد حدث لزوجها.

تصل إلى غرفة النوم وترى جود مستلقيًا على السرير. كانت لا تزال تتسلل. يستدير ويقول: «ماذا تفعلين بحق الجحيم؟» عندها فُزِعت وجرت إلى الحمام.

ولكن في الأيام التالية استمر سلوكها الجيد واعتقد جود أنها تغيرت حقًا. وبالسذاجة التي يسترجع فيها الأحداث، كان بعد الكثير من السنوات الصعبة والمريرة في العلاقة الزوجية، يرجو أن تكون قد تحسنت بالفعل.

بعد أسبوعين، 21 فبراير 1981، كان جود يعمل على قضية قتل باتريك بالتازار. كان من الوارد أن هناك تقدمًا ما في تحقيق ATKID لأنه يبدو أن الشعر والأنسجة الموجودة على جسد الطفل البالغ من العمر اثني عشر عامًا تتطابق مع الأنواع الموجودة على الضحايا السابقين لقاتل الأطفال.

في تلك الليلة، أعدت زوجة جود عشاءً إيطاليًّا. ما لا يعرفه هو أنها غمست صلصة الإسباجيتي كثيرًا بالفينوباربيتال، كما هو مخطط لها، أخذت الفتاتين معها وذهبت لزيارة خالتها.

لاحقًا، كان جود وحيدًا في غرفة النوم. اعتقد أنه يسمع شيئًا قادمًا من مقدمة الشقة. تغير الضوء في الردهة، وأصبح خافتًا. قام شخص ما بفك المصباح الكهربائي في غرفة نوم ابنته الكبرى. ثم سمع أصواتًا مكتومة أسفل الردهة. ما حدث هو أن مطلق النار الأول فقد أعصابه. كلاهما يناقش ما يجب القيام به الآن. إنه لا يعرف كيف دخلا، لكن لا يهم في الوقت الحالي. إنهما هنا.

«من هنا؟» صرخ جود.

وفجأة انطلقت رصاصة لكنها لم تصبه. رمى جود نفسه على الأرض، لكن رصاصة أخرى أصابته في ذراعه اليسرى. لا يرى شيئًا في الظلام. ثم حاول الاختباء خلف السرير العريض.

«من هذا؟ ماذا تريد؟» صاح.

طلقة ثالثة أصابت السرير بالقرب منه. كان في عقله، هو من خلال تمرين البقاء الغريزي على قيد الحياة، يحاول معرفة نوع المسدس، إذا كان من سميث آند ويسن Smith & Wesson، فلديهم ثلاث طلقات متبقية، أما إذا كان كولت Colt، فلديهم اثنتان فقط.

«يا رجل!» صرخ. «ماذا دهاك؟ لماذا تحاول قتلي؟ خذ ما تريد واخرج. أنا لم أرك. فقط لا تقتلني» صرخ.

لا يوجد رد. لكن الآن يستطيع جود رؤيته مظللًا بضوء القمر.

لن تموت هذه الليلة، يقول جود لنفسه. ما من طريقة للخروج من هذا المأزق، لكنك تدري ما يبدو عليه الأمر. إنك لا تريد أن يأتي المحققون إلى هنا غدًا ليقولوا: «السافل المسكين، لم يقاوم. لقد سمح لهم أن يدخلوا ويقتلوه». يقرر جود أنه حين يرى المحققون المكان غدًا، يجب أن يدركوا أنه قد قاوم ذلك الرجل.

كان أول ما عليه القيام به هو الوصول إلى مسدسه، الذي هو على الأرض على الجانب الآخر من السرير. لكن السرير المزدوج العريض يمثل مخاطرة يجب اختبارها عندما يكون هناك شخص ما يحاول قتلك.

ثم سمع: «لا تتحرك أيها اللعين!»

في الظلام، يصعد مرة أخرى ويبدأ في التحرك ببطء نحو حافة السرير ومسدسه.

إنه يقترب ببطء شديد، لكنه يحتاج إلى مزيد من القدرة للقيام بالخطوة النهائية بفعالية.

عندما أمسكت أصابعه الأربع بالحافة، استدار على الأرض، لكنه هبط ويده اليمنى تحت صدره. وبما أنه أصيب برصاصة في ذراعه اليسرى، فليس لديه القوة الكافية في يده اليسرى للوصول إلى المسدس.

بعد ذلك يقفز مطلق النار على السرير، يصوب نحو جود من مسافة قريبة.

شعر وكأن ثورًا ركله للتو. يبدو أن شيئًا ما بداخله ينهار. لم يعرف التفاصيل التقنية في ذلك الوقت، لكن الرصاصة اخترقت ظهره وخرجت من رئته اليمنى، واخترقت الحيز الوربي الثالث بين ضلوعه، ومزقت مقدمة صدره فوق ذراعه اليمنى، التي ما زال يرقد عليها.

يقفز مطلق النار فوق السرير ويقف فوقه ويشعر بنبضه. «ها أنت ذا، أيها اللعين!» يقولها ويخرج.

جود في حالة صدمة. إنه راقدٌ على الأرض ويتنفس بصعوبة. إنه لا يعرف مكانه أو ما الذي يحدث له.

ثم يدرك أنه لا بد قد عاد للقتال في فيتنام. يمكنه أن يشم رائحة الدخان ويرى وهج الانفجارات. لكنه لا يستطيع التنفس. يفكر: «ربما أنا لست في فيتنام حقًا، لعلي أحلم أني هناك. ولكن إذا كنت أحلم، فلماذا يكون التنفس بهذه الصعوبة البالغة؟»

يكافح من أجل النهوض. ترنح أمام التلفاز وشغَّله. ربما سيخبره ذلك إذا كان يحلم. يظهر جوني كارسون وبرنامج *تونايت-Tonight*. يمد يده ويلمس الشاشة، محاولًا معرفة ما إذا كانت حقيقية، تاركًا خطًّا من الدم الرطب على الزجاج.

يحتاج إلى بعض الماء؛ يشق طريقه إلى الحمام، يفتح الصنبور ويحاول شرب الماء من يده، فيرى الرصاصة مغروسة في يده اليمنى والدم يتدفق من صدره. الآن يعرف ما حدث له. يخرج إلى غرفة النوم، ويستلقي عند أسفل السرير، وينتظر الموت.

لكنه كان شرطيًّا لفترة طويلة؛ لا يمكنه السماح لنفسه بالذهاب بهدوء. عندما يأتي المحققون في اليوم التالي، عليهم أن يروا أنه كافح. نهض مرة أخرى، وشق طريقه إلى الهاتف، وضغط زرَ O. عندما سمع صوت عاملة مقسم الهاتف، عبَّ كمية من الهواء، وأخبرها أنه عميل إف بي آي وأنه تعرض لإطلاق النار. على الفور أوصلته بقسم شرطة مقاطعة ديكالب.

على الخط ضابطة شابة، أخبرها جود أنه من إف بي آي وقد تعرض لإطلاق نار، لكنه بالكاد يستطيع إخراج الكلمات، كما لو تم تخديره، وفقد الكثير من الدم، وكلامه مشوش.

«ماذا تقصد، أنت من الــ إف بي آي؟» تقول متحدية. سمع جود صراخها لرقيبها أن هناك شخصًا مخمورًا على الخط يدعي أنه من الــ إف بي آي. فماذا يطلب الرقيب منها أن تفعل؟ أخبرها هذا الأخير أن بإمكانها إنهاء المكالمة.

ثم تدخلت عاملة المقسم، وأخبرتهما أنه حقيقي وأنه يجب عليهما إرسال المساعدة الطارئة على الفور. إنها لن تسمح لهما بإنهاء المكالمة حتى يوافقا.

قال لي جود لاحقًا: «لقد أنقذت عاملة المقسم حياتي».

أغمي عليه ولم يستعد وعيه حتى قام فريق الطوارئ الطبي بوضع قناع الأكسجين على وجهه. سمع قائد الفريق يقول: «لا تعدُّوه للصدمة؛ لن ينجح».

.لكنهم نقلوه إلى مستشفى ديكالب العام، حيث يوجد جرَّاح صدري مناوب. يعي أنه كان مستلقيًا هناك على نقالة في غرفة الطوارئ، بينما يحاول الأطباء بشكل محموم إنقاذ حياته.

بالوضوح الذي يأتي من مواجهة قريبة مع الموت، يقول لنفسه: «هذا ليس انتقامًا، لقد تسببت بدخول الكثير من الناس إلى السجن، لكنهم لم يتمكنوا

من الاقتراب إلى هذا الحد. الشخص الوحيد الذي يمكنه الاقتراب مني هو شخص أثق به ضمنيًّا».

عندما خرج من الجراحة وأُخذ إلى وحدة العناية المركزة، كان جون جلوفر (مدير مكتب أتالانتا الميداني) موجودًا هناك. تحمل جلوفر عبء ATKID منذ شهور، ثم يأتي هذا الأمر الآن. مثل الأطفال المقتولين، ومثل جود، كان جلوفر أسود البشرة، وهو أحد أعلى السود رتبة في المكتب. إنه متعاطف بقوة مع جود.

يهمس له جود: «ابحث عن زوجتي، اجعلها تخبرك بما حدث».

يعتقد جلوفر أن جود لا يزال يعاني الهذيان، لكن الطبيب يقول: «لا، إنه واعٍ ويقظ».

يقضي جود واحدًا وعشرين يومًا في المستشفى، كانت غرفته تحت حراسة مسلحة حيث لا أحد يعرف من هم هؤلاء الأشخاص أو ما إذا كانوا سيعودون للقضاء عليه. وفي الوقت نفسه، لم تصل قضيته إلى أي شيء. أعربت زوجته عن صدمتها وفزعها لما حدث وشكرت الرب أنه لم يُقتَل. لو كانت هناك في تلك الليلة فقط.مكتبة .. سُر مَن قرأ

في المكتب، يقوم فريق من الوكلاء بتعقب الأدلة. كان جود شرطيًّا لفترة طويلة؛ يمكن أن يكون لديه الكثير من الأعداء. بمجرد أن يتعافى بشكل ملموس، سيعاد تركيب السؤال بطريقة أخف، كما في المسلسل التلفزيوني الشهير *دالاس*: «من أطلق النار على جي آر؟»

مر شهران قبل أن يتمكن من استعادة روتينه الطبيعي. أخيرًا يتعامل مع الأعباء النقدية التي تراكمت منذ الهجوم. يشتكي وهو يواجه فاتورة هاتف ساوذرن بيل Southern Bill بأكثر من 300 دولار. ولكن عندما بدأ في استعراضها، بدأ في تجميع عناصر القضية في رأسه.

في اليوم التالي، جاء إلى المكتب وقال إنه يعتقد أن فاتورة الهاتف هذه هي المفتاح. بصفته الضحية، ليس من المفترض أن يتعامل مع قضيته، لكن زملاءه أنصتوا إليه.

في الفاتورة، كان هناك عدد من الاتصالات التي أُجريت إلى كولومبوس. من شركة الهاتف، يمكن الحصول على الاسم والعنوان اللذين يتطابقان مع الرقم. جود لا يعرف هذا الرجل حتى، لذلك ركب هو والعديد من العملاء

الآخرين السيارة وسافروا لمسافة مئات الأميال إلى كولومبوس. وجهتهم هي منزل الواعظ، الذي يقرر جود أنه في الواقع ثعبان أكثر منه بائع زيت.

ضغط عليه العملاء الفيدراليون، لكنه نفى أن يكون له أي علاقة بمحاولة القتل. لن يتركه العملاء بسهولة. قالوا له إن هذا واحد منا، وسوف نصل للشخص أو الأشخاص الذين فعلوا ذلك.

ثم تتكشف القصة. يُعرف هذا الواعظ حول كولومبوس بأنه رجل يمكنه «إنجاز الأمور». جاءته السيدة راي تطلب منه تنفيذ المهمة في أكتوبر الماضي، لكنه قال إنه أخبرها أنه لن يفعل ذلك.

أجابت بأنها ستجد شخصًا يفعل ذلك، وطلبت استخدام الهاتف، قائلة إنها ستدفع له مقابل المكالمات طويلة المسافة. قال الواعظ للعملاء إنها اتصلت بجار قديم في أتالانتا كان يعمل في الجيش في فيتنام في نفس الوقت الذي كان فيه جود هناك، وهو جيد في استخدام السلاح. قالت له: «علينا أن ننجز هذا الشيء!»

وفوق كل ذلك، حسب ما يزعم الواعظ، «فإن السيدة راي خدعتني ولم تعطني ثمن المكالمات».

ركب الوكلاء السيارة وعادوا إلى أتالانتا، عند مواجهتهم الجار السابق، وتحت الاستجواب، اعترف بأن السيدة راي طلبت منه تنفيذ عملية القتل مقابل عقد، لكنه أقسم أنه ليس لديه فكرة أن المستهدَف كان جود.

على أي حال، قال إنه أخبرها أنه لا يعرف أي شخص يمكنه تنفيذ هذا النوع من الأشياء وأوصلها بزوج أخته، الذي قد يفعل ذلك. أوصلها الرجل بدوره إلى رجل آخر وافق على تولي المهمة وقام بتوظيف رجلين آخرين لينفذا إطلاق النار.

تم توجيه لائحة اتهام ضد السيدة راي، صهر الجار السابق، والرجل الذي حصل على العقد، والشخصين مطلقَي النار. وُصف الجار السابق بأنه شريك غير مدان، وأُدين الخمسة بتهمة الشروع في القتل والتواطؤ والسطو. حُكم على كل منهم بالسجن لعشر سنوات، أقصى ما يمكن للقاضي أن يمنحه.

كنت أرى جود من وقت لآخر فيما يتعلق بـ ATKID. قبل فترة طويلة، بدأ في البحث عني. نظرًا لأني لم أكن أحد زملائه في المكتب، لكني كنت أعرف كيف كانت ضغوط العمل واستطعت فهم ما مر به واستمر في عمله. أخمن

أنه قد شعر بأنه يستطيع التحدث معي. بالإضافة إلى كل المشاعر الأخرى المصاحبة لمثل هذا الشيء، أخبرني أنه وجد الجو العام لوضعه المنزلي مؤلمًا ومحرجًا للغاية.

مع كل ما عاناه جود، أراد المكتب فعل أفضل إجراء له واعتقدوا أن نقله إلى مكتب ميداني آخر بعيد عن أتالانتا سيساعده على التعافي. لكن بعد التحدث مع جود ومشاركة مشاعره، لم أعتقد ذلك، اعتقدت أنه يجب أن يبقى حيث كان لفترة من الوقت. ذهبت وتحدثت مع جون جلوفر، مدير المكتب الميداني في أتالانتا.

قلت: «إذا نقلته فإنك تلغي نظام الدعم الذي يحظى به هنا في هذا المكتب؛ إنه بحاجة إلى البقاء هنا. دعه يقضي عامًا في تسوية أطفاله مرة أخرى وقريبًا من عمته التي ساعدت في تربيته». اقترحت أنه إذا كان ذاهبًا إلى أي مكان، فينبغي أن يذهب إلى وكالة كولومبوس المقيمة، لأنه كان شرطيًّا هناك ولا يزال على معرفة بمعظم أفراد فرقة العمل هناك.

أبقوا عليه في منطقة أتالانتا، كولومبوس، حيث بدأ في استعادة ترتيب حياته. انتقل بعد ذلك إلى مكتب نيويورك الميداني، حيث كانت وظيفته الرئيسية هي مكافحة التجسس. كما أصبح أيضًا أحد منسقي الملفات في المكتب؛ حلقة الوصل بين الشرطة المحلية ووحدتي في كوانتيكو.

عندما أصبح هناك شاغر في الوحدة، أحضرنا جود مع روزان روسو، من نيويورك أيضًا، وجيم رايت، من مكتب واشنطن الميداني، الذي قضى أكثر من عام في العمل في قضية جون هينكلي ومحاكمته. في نهاية المطاف غادرت روزان الوحدة نحو مكتب واشنطن الميداني ومكافحة التجسس. أصبح كل من جود وجيم أعضاء مميزين ومعروفين دوليًّا في الفريق وأصدقاء مقربين لي. عندما أصبحت رئيس الوحدة، تولى بعدي جيم رايت منصب مدير برنامج تحديد التحليل التنميطي.

قال جود إنه صُدم لأننا اخترناه، لكنه كان منسقًا بارزًا في نيويورك، وبسبب خلفيته القوية في إنفاذ القانون، فقد كان اختياره ناجحًا منذ البداية. لقد كان متعلمًا سريعًا وتحليليًّا للغاية. بصفته ضابط شرطة، كان قد اطلع على هذه القضايا بأسلوبه الخاص من قرب وقد جلب هذا المنظور إليهم.

عندما يكون في موقف تعليمي، لا يخشى جود ذكر محاولة اغتياله وتداعياتها، حتى إنه كان لديه شريط يسجل مكالماته الهاتفية الطارئة،

والذي كان يقوم أحيانًا بتشغيله في الدرس. لكنه حينئذ لا يستطيع البقاء في الغرفة. كان يخطو إلى الخارج إلى أن ينتهي.

قلت له: «جود، هذا شيء عظيم». شرحت أن الكثير من العناصر في المشهد -آثار الأقدام، والدماء على التلفزيون- كانت مضللة أو لا معنى لها. لقد بدأنا الآن نفهم كيف أن العناصر التي تبدو غير منطقية يمكن أن يكون لها تفسير منطقي. قلت له: «إذا عملت على حل هذه القضية، فقد تكون أداة تعليمية قيِّمة للغاية».

وقد فعل ذلك حقًا، وباتت هذه الحادثة من أكثر الحالات التعليمية التي قمنا بتدريسها إثارة للاهتمام.

وأصبحت أشبه بحالة تطهيرية بالنسبة إليه: «لقد وجدت فيها إعلانًا شخصيًّا تمامًا. في عملية التحضير للتدريس كنت أطرق جوانب وممرات لم أغامر بها من قبل. في كل مرة تتحدث فيها عن ذلك مع أشخاص تثق بهم، فإنك تستكشف ممرًا آخر. تحدث محاولات توظيف قتل الزوج أو الزوجة بشكل متكرر في هذا البلد بنسبة أكبر مما نود تصديقه. وغالبًا ما تشعر الأسرة بالحرج لدرجة أنه لا أحد سيتحدث عنها». كانت مشاهدة جود وهو يدرِّس هذه الحالة من بين أكثر تجاربي المؤثرة كمدرب بالأكاديمية. وأنا أعلم أنني لست وحيدًا. في النهاية، وصل إلى النقطة التي يجب أن يبقى فيها ويستمع عندما يتم تشغيل شريط الطوارئ.

بحلول الوقت الذي أصبح فيه جود جزءًا من وحدتي، كنت قد أجريت بالفعل قدرًا لا بأس به من الأبحاث حول *السلوك التالي للجرم*. لقد أصبح واضحًا بالنسبة إليَّ أنه بغض النظر عن مدى صعوبة محاولته، فإن الكثير مما يفعله الجاني بعد الجريمة خارج عن إرادته الواعية. وكنتيجة لقضيته، أصبح القاضي مهتمًا جدًّا بمسألة السلوك *السابق للجرم*. لفترة من الوقت، أدركنا أهمية التعجيل بعوامل الضغط كأحداث متمايزة تؤدي إلى ارتكاب جريمة. لكن جود وسَّع آفاق الوحدة إلى حد كبير وأظهر مدى أهمية التركيز على السلوك والأفعال الشخصية قبل وقوع الجريمة. إن التغيير الجذري أو الطفيف حتى، ولكن المهم، في سلوك الشريك قد يعني أنه قد بدأ فعلًا في التخطيط لتغيير الوضع الراهن. إذا أصبح الزوج أو الزوجة هادئين بشكل غير متوقع أو أصبحا أكثر ودية وقبولًا من ذي قبل، فقد يعني ذلك أنه أو أنها قد أصبحت بالفعل تعد هذا التغيير أمرًا وشيكًا أو لا مفر منه.

من الصعب التحقيق في جرائم قتل الزوج أو الزوجة وفق تعاقد. كما أن الناجي سيرسي الأسس العاطفية جيدًا. الأسلوب الوحيد لحل هذه الحالات هي جعل شخص ما يتحدث، وعليك أن تفهم ديناميكيات الموقف وما حدث بالفعل ليكون موثوقًا في هذا. بقدر ما يمكن أن يؤدي إعادة ترتيب موقع الجريمة إلى توجيه الشرطة في الاتجاه الخاطئ، فإن السلوك السابق للجرم بالنسبة إلى الزوج هو شكل من أشكال التمهيد والتحضير.

أكثر من أي شيء آخر، تعد قضية جود درسًا موضوعيًا لنا حول كيفية إساءة تفسير السلوك في موقع الجريمة. لو مات جود، لكنا قد توصلنا إلى بعض الاستنتاجات الخاطئة.

من أول الأشياء التي يتعلمها الشرطي الصاعد هو عدم تلويث موقع الجريمة. ولكن من خلال أفعاله غير الواعية، الشرطي المخضرم والعميل الخاص الذي كان عليه، قام جاد عرضيًا بتلويث موقع الجريمة الخاص به. كنا قد فسرنا جميع آثار الأقدام والأدلة على حركته على أنها عملية سطو انحرفت للأسوأ، وأن الدخلاء تعقبوه في أرجاء الغرفة، وأجبروه على إخبارهم بمكان إخفاء أشياء معينة. كان الدم على شاشة التلفزيون يوحي بأن جود كان مستلقيًا على سريره يشاهد التلفاز عندما تفاجأ وتعرض لإطلاق النار على الفور.

كان الاعتبار الأكثر أهمية، كما أخبرني جود، هو: «لو كنت قد مت، فأنا مقتنع تمامًا أنها كانت ستفلت من العقاب. لقد كان مخططًا جيدًا وقد خدعت أفعالها كل من في الحي. كانت يمكن تصديقها تمامًا بعدِّها الزوجة المصابة بالفاجعة».

كما أسلفت، فقد أصبحنا؛ جود وأنا، أصدقاء مقربين، ربما يكون أقرب شخص لمرتبة الأخ ممن قابلتهم في حياتي. اعتدت أن أمزح قائلًا إنه سيتأكد من تشغيل الشريط لي في وقت قريب من وقت تقييم الأداء، لضمان تحقيق المعيار الكامل لتعاطفي. لحسن الحظ لم يكن ذلك ضروريًا على الإطلاق. إن سجِل جود راي يتحدث عن نفسه. وهو الآن رئيس وحدة التدريب الدولية، حيث ستفيد مهاراته وخبرته جيلًا جديدًا من العملاء وأفراد الشرطة من الرجال والنساء. ولكن أينما ذهب، سيكون دائمًا واحدًا منا، وواحدًا من أفضل الموظفين، أحد ضباط القانون القلائل الذي يمكنه النجاة من محاولة اغتياله من خلال الشخصية وقوة الإرادة المطلقة، ثم يقدم الجناة إلى العدالة بنفسه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

13

اللعبة الأكثر خطورة

في عام 1924، كتب المؤلف ريتشارد كونيل قصة قصيرة بعنوان «اللعبة الأكثر خطورة». كانت تدور حول صياد طرائد كبيرة يُدعى الجنرال زاروف الذي سئم من مطاردة الحيوانات وبدأ في اصطياد فريسة أكثر ذكاءً وتحديًا: البشر. لا تزال قصة مشهورة. قرأتها ابنتي لورين مؤخرًا في المدرسة.

بقدر ما نعلم، حتى عام 1980 تقريبًا، ظلت حكاية كونيل في عالم الخيال، لكن وضعها تغيَّر مع خباز لطيف السلوك في أنكوراج، ألاسكا، يدعى روبرت هانسن.

لم نقم بتوصيف هانسن أو وضع إستراتيجية للتعرف عليه والقبض عليه بحسب إجراءاتنا المعتادة. في سبتمبر 1983، عندما تم استدعاء وحدتي، كان جنود ولاية ألاسكا قد حددوا بالفعل هانسن كمشتبه به في جريمة قتل. لكنهم لم يكونوا متأكدين من حجم جرائمه، أو ما إذا كان هذا الشخص؛ رجل العائلة المحترم والحريص على مجتمعه، قادرًا على فعل الأشياء الفظيعة التي يُتهم بها.

هذا ما حدث:

في 13 يونيو الماضي، هرعت بشكل محموم امرأة شابة نحو ضابط شرطة أنكوراج. كان هناك زوجان من الأصفاد المتدلية من معصميها وروت قصة غريبة. كانت مومسًا تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، اقترب منها في الشارع رجل قصير على وجهه آثار بثور الجدري، شعره أحمر، عرض عليها 200 دولار مقابل ممارسة الجنس في سيارته. قالت إنه في أثناء أدائها،

قام بتقييد يديها وسحب مسدسًا، ثم اقتادها إلى منزله في منطقة مولدون العصرية بالمدينة.

لم يكن هناك أحد آخر في المنزل. أخبرها أنها إذا تعاونت وفعلت ما طلب، فلن يؤذيها. لكنه بعد ذلك أجبرها على خلع ملابسها واغتصبها وألحق بها ألمًا شديدًا عبر عض ثديها وغرز مطرقة في مهبلها. وبينما كانت لا تزال مقيدة اليدين ومثبتة إلى عمود في قبو منزله، كان قد نام عدة ساعات. عندما استيقظ، أخبرها أنه يحبها كثيرًا لدرجة أنه سيأخذها في طائرته الخاصة إلى مقصورته في الغابة، حيث سيمارسان الجنس مرة أخرى ثم يعيدها إلى أنكوراج، وسيتركها تذهب.

لكنها كانت تعلم أن فرص ذلك كانت ضئيلة جدًّا. لقد اغتصبها واعتدى عليها ولم يفعل شيئًا لإخفاء هويته. إذا أخذها إلى تلك المقصورة، فستواجه مشكلة حقيقية. في المطار، بينما كان خاطفها يحمل المؤن في الطائرة، تمكنت من الفرار. ركضت بأسرع ما يمكن أن تبحث عن المساعدة. كان ذلك عندما وجدت الشرطي.

من الوصف الذي قدمته، بدا أن خاطفها هو روبرت هانسن. كان في منتصف الأربعينيات من عمره، ونشأ في ولاية أيوا، ومكث في منطقة أنكوراج لمدة سبعة عشر عامًا، حيث كان يدير مخبزًا ناجحًا وكان يُعد عضوًا بارزًا في المجتمع. كان متزوجًا وله ابنة وابن. اقتادتها الشرطة إلى منزل هانسن في مولدون، حيث تعرضت للتعذيب حسب زعمها. أخذوها إلى المطار وتعرفت على طائرة بايبر سوبر كَب Piper Super Cub التي تعود ملكيتها لروبرت هانسن.

ثم توجهت الشرطة إلى هانسن وواجهته بتهم الشابة. رد بغضب، قائلًا إنه لم يقابلها قط، وأكد أنه بسبب شهرته، فمن الواضح أنها كانت تحاول ابتزازه وخداعه من أجل المال. كانت الفكرة بحد ذاتها سخيفة. «إذ لا يمكنك اغتصاب عاهرة، أليس كذلك؟» قال للشرطة.

وكان لديه حجة غياب عن الليلة المعنية. كانت زوجته وطفلاه في أوروبا لقضاء الصيف، وكان في المنزل يتناول العشاء مع اثنين من شركائه في العمل. قدم اسمَيهما وأكدا روايته.

لم يكن لدى الشرطة أي دليل عليه -لا شيء سوى رواية الشابة- لذلك لم يتم القبض عليه أو توجيه تهم إليه.

ولكن على الرغم من افتقارهم إلى الدليل، فإن كلًّا من شرطة أنكوراج وقسم شرطة ولاية ألاسكا «شموا رائحة الدخان وعرفوا أن هناك حريقًا في مكان ما». في عام 1980، كان عمال البناء يقومون بالتنقيب في طريق إكلوتنا عندما عثروا على بقايا جثة امرأة، أكلت الدببة جسدها جزئيًّا وكانت تحمل علامات طعنها حتى الموت ودفنها في قبر ضحل. معروفةً فقط باسم «آني إكلوتنا»، لم يتم التعرف عليها مطلقًا كما لم يتم القبض على قاتلها.

في وقت لاحق من العام، عُثِرَ على جثة جوان ميسينا في وهدٍ من الحصى بالقرب من سيوارد. ثم في سبتمبر 982، عثر الصيادون بالقرب من نهر نك على جثة شيري مورو البالغة من العمر 23 عامًا في قبر ضحل. كانت راقصة تعرٍّ أُعلِن عن فقدها منذ نوفمبر الماضي. تعرضت لثلاث طلقات نارية. حددت الفوارغ التي تم العثور عليها في مكان الحادث أن الطلقات تعود لسلاح 223 Ruger Mini-14، وهي بندقية صيد عالية القوة. لسوء الحظ، كان سلاحًا شائعًا في ألاسكا، لذلك كان من الصعب تعقب كل صياد يمتلك واحدة وإجراء مقابلة معه. لكن من أغرب جوانب القضية عدم وجود ثقوب الرصاص في ملابسها، مما يشير إلى أنها كانت عارية عند إطلاق النار عليها.

بعد عام تقريبًا اكتُشِفت جثة أخرى في قبر ضحل على ضفة نهر نك. هذه المرة كانت بولا جولدنج (سكرتيرة عاطلة عن العمل) قد توصلت بيأس إلى وظيفة في حانة تعرٍّ للصدر لتغطية نفقاتها. تم إطلاق النار عليها أيضًا باستخدام Ruger Mini-14. اختفت في أبريل، وفي تلك الفترة حصلت حادثة اختطاف المومس ذات السبعة عشر عامًا وهربها. الآن، مع إضافة جولدنج إلى قائمة الجرائم التي لم يتم حلها، قرر مكتب التحقيقات الجنائية التابع لمكتب قوات ولاية ألاسكا أنه من الأفضل متابعة السيد هانسن.

على الرغم من وجود مشتبه به لدى الشرطة قبل أن أسمع عنه، أردت التأكد من أن حكمي لن يكون متأثرًا بالتحقيقات التي أُنجِزت بالفعل، لذا قبل أن أسمح لهم بإعطائي التفاصيل الخاصة برجلهم خلال أول مؤتمر عبر الهاتف، قلت: «أخبرني أولًا عن الجرائم ودعني أخبرك عن الرجل».

وصفوا جرائم القتل التي لم تُحل وتفاصيل قصة الشابة. كوَّنت سيناريو وصفيًّا وسمات شخص قالوا إنه يشبه إلى حد كبير المشتبه به، وصولًا إلى التأتأة. ثم أخبروني عن هانسن ووظيفته وعائلته ومكانته في المجتمع

وسمعته كصياد طرائد متميز. هل كان ذلك يشبه نوع الشخص الذي يمكن أن يكون بمقدوره ارتكاب هذه الجرائم؟

أخبرتهم أنه فعل ذلك بالتأكيد. لكن المشكلة أنه بينما كان لديهم الكثير من المعلومات غير المباشرة، فإنه لم يكن لديهم دليل مادي لتوجيه الاتهام إليه. كانت الطريقة الوحيدة للإمساك به، وهو الأمر الذي كانوا متلهفين للغاية للقيام به، هي الحصول على اعتراف. طلبوا مني الحضور إلى مكان الحادث ومساعدتهم في تطوير قضيتهم.

بمعنى ما، كان هذا عكس ما نفعله عادةً في أننا كنا نعمل من موضوع معروف، في محاولة لتحديد ما إذا كانت خلفيته وشخصيته وسلوكه يتناسبون مع مجموعة من الجرائم.

جئت مع جيم هورن، الذي انضم مؤخرًا إلى وحدتي من وكالة المقيم في بولدر، كولورادو. كنا معًا في تدريب الوكلاء الجدد في الأيام الخوالي، وعندما حصلت أخيرًا على إذن لأربعة عملاء للعمل معي، طلبت من جيم العودة إلى كوانتيكو. جنبًا إلى جنب مع جيم ريس، أصبح جيم هورن الآن واحدًا من اثنين من كبار خبراء إدارة الضغوط في المكتب، وهي وظيفة حاسمة في مجال عملنا. لكن في عام 1983، كانت هذه واحدة من أولى القضايا من الناحية السلوكية.

كان الوصول إلى أنكوراج إحدى أكثر رحلات العمل إثارة وأقلها متعة. وانتهى الأمر برحلة طيران بأعين حمراء وأجساد مرهقة تشعر بالبرد. عندما وصلنا، أقلتنا الشرطة إلى فندقنا. في الطريق، مررنا ببعض الحانات التي كانت الضحايا يعملن فيها. كان الجو باردًا جدًّا معظم الأوقات كي تعمل بائعات الهوى في الخارج، لذلك فقد كنّ يدرن أمور عملهن في الحانات، التي كانت مفتوحة أربعًا وعشرين ساعة في اليوم تقريبًا. لقد أغلقوا لنحو ساعة للتنظيف وإخراج المخمورين. في ذلك الوقت، ونتيجة إلى العدد الكبير للمقيمين المؤقتين الذين جاؤوا لبناء خط أنابيب النفط، فقد كانت ألاسكا تحقق واحدًا من بين أعلى معدلات الانتحار، وانتشار الكحول، والأمراض التناسلية في البلاد. لقد أصبحت إلى حد كبير النسخة الحديثة من حدود الغرب الجامح Wild West.

وجدتُ الجو كله غريبًا جدًّا. يبدو أن هناك صراعًا مستمرًّا بين السكان الأصليين وأولئك الذين أتوا من «الثماني وأربعين (ولاية) الأدنى». كان لديك

كل هؤلاء الرجال مفتولو العضلات يتجولون مع أوشام كبيرة كما لو أنهم خرجوا للتو من إعلان *مارلبورو*. مع المسافات الكبيرة التي اضطر الناس إلى قطعها، بدا الأمر كما لو كان كل شخص تقريبًا لديه طائرة، لذلك لم يكن هانسن غريبًا في هذا الصدد.

ما كان مهمًا بالنسبة إلينا بخصوص هذه القضية هو أنها كانت المرة الأولى التي يتم فيها استخدام التنميط لدعم أمر تفتيش. بدأنا في تحليل كل ما نعرفه عن الجرائم وعن روبرت هانسن.

وفيما يتعلق بعلم الضحايا، فإن الضحايا المعروفين كانوا مومسات أو راقصات تعرٍّ. لقد كانوا جزءًا من مجموعة كبيرة من الضحايا المتاحين الذين سافروا صعودًا وهبوطًا في الساحل الغربي. نظرًا لأنهم كانوا متنقلين جدًّا، ولأن المومسات غير معتادات إبلاغ الشرطة عن مكانهن، كان من الصعب معرفة ما إذا كان أي شيء قد حدث لأي واحدة منهن حتى ظهور الجثة. كانت هذه بالضبط نفس المشكلة التي واجهتها شرطة إف بي آي مع قاتل جرين ريفر في ولاية واشنطن، لذلك كان اختيار الضحايا مهمًّا للغاية. كان القاتل يستهدف فقط النساء اللواتي لا يمكن أن يفوِّتهنّ.

لم نكن نعرف كل شيء عن خلفية هانسن، ولكن ما نعرفه يتناسب مع نمط معيَّن. كان قصيرًا ونحيفًا، على وجهه آثار بثور قديمة، ويتحدث بتلعثم شديد. توقعت أنه كان يعاني في مراهقته من مشكلات جلدية حادة، وهو ما كان (مع إعاقته الكلامية) يسبب له الضيق والحرج أو يشعر أنه منبوذ بين أقرانه، وبخاصة الفتيات.

لذلك كان من الممكن أن يكون تقديره لذاته منخفضًا. ربما كان هذا أيضًا سبب انتقاله إلى ألاسكا؛ فكرة بداية جديدة في حدود جديدة. ومن الناحية النفسية، فإن الإساءة إلى البغايا هي طريقة معتادة وقياسية جدًّا لرد الهجوم على النساء بشكل عام.

كما أنني ركزت كثيرًا على حقيقة أن هانسن كان معروفًا كصياد ماهر. لقد صنع لنفسه سمعة محلية من خلال اصطياد خروف دال Dall بري بقوس ونشاب في أثناء الصيد في جبال كوسكوكويم. لا أقصد الإشارة إلى أن معظم الصيادين يعانون مشكلات انعدام الثقة أو النقص، ولكن من واقع خبرتي، إذا كان لديك شخص من نمط يعاني قصور الكفاءة لتبدأ به، فإن إحدى الطرق التي قد يحاول التعويض من خلالها هي الصيد أو اللعب

بالبنادق أو السكاكين. تذكِّرني التأتأة الشديدة بديفيد كاربنتر، قاتل ترايل سايد «Trailside Killer» في سان فرانسيسكو. كما في حالة كاربنتر، كنت أراهن على أن مشكلة هانسن في الكلام قد اختفت عندما شعر بالهيمنة والسيطرة.

بتجميع كل هذا، حتى على الرغم من أن هذا كان سيناريو لم نشهده من قبل، فقد بدأت في الحصول على صورة لما اعتقدت أنه يحدث. تم العثور على البغايا و «الراقصات الغريبات» ميتين في مناطق الغابات النائية من جروح طلقات نارية توحي أنها من بندقية صيد. في حالة واحدة على الأقل، أُطلق الرصاص على جثة عارية. زعمت الفتاة البالغة من العمر سبعة عشر عامًا، التي زعمت أنها هربت، أن روبرت هانسن أراد نقلها إلى مقصورته في الغابة. كان هانسن قد أرسل زوجته وأطفاله إلى أوروبا في الصيف وكان بمفرده في المنزل.

كنت أعتقد، مثل الجنرال زاروف في «اللعبة الأكثر خطورة»، أن روبرت هانسن قد سئم من الأيائل والدب وأغنام دال ووجَّه انتباهه إلى فريسة أكثر إثارة للاهتمام. أوضح زاروف أنه كان يستهدف البحارة الذين تحطمت سفنهم على الصخور ويجبرهم على المرور في قناة توصل إلى جزيرته: «أنا أصطاد حثالة الأرض (بحارة من سفن متشردة) حيث إن قيمة حصان أصيل أو كلب صيد تفوق قيمة الكثير منهم».

كان هانسن، حسب ما كنت أفكر، ينظر إلى البغايا بالطريقة ذاتها. لقد كنّ أشخاصًا يمكن أن يعدهن أدنى وأقل قيمة منه. ولم تكن إحداهن تحتاج إلى هدية لتأتي معه. كان يصطحبها، ويجعلها أسيرته، ويطير بها إلى البرية، ليجردها من ملابسها، ويطلقها، ثم يطاردها بمسدس أو سكين.

لم تكن طريقة عمله قد بدأت بهذا الأسلوب. كان سيبدأ ببساطة بقتل ضحاياه الأولى، ثم يستخدم الطائرة للتخلص من أجسادهن بعيدًا. كانت هذه جرائم غضب. كان سيجعل ضحاياه يتوسلن من أجل حياتهن. لكونه صيادًا، فقد حدث له في مرحلة معينة أنه يمكنه الجمع بين هذه الأنشطة المختلفة عن طريق إطلاقها في البرية على قيد الحياة، ثم مطاردتها من أجل الرياضة والمزيد من الإشباع الجنسي. كان من الممكن أن تكون هذه هي السيطرة النهائية. وكان يمكن أن يصبح إدمانًا. كان يريد أن يفعل ذلك مرة بعد أخرى.

قادني هذا إلى تفاصيل مذكرة التفتيش. أرادوا منا؛ جيم وأنا، تقديم إفادة خطية يمكن أن يقدموها للمحكمة لشرح ما كان يعنيه التنميط والملف التعريفي، وما نتوقع أن نجده خلال البحث، والمسوِّغ المنطقي لقولنا هذا.

على عكس المجرم العادي أو أي شخص يعد سلاحه أداة قابلة للتبديل، فإن بندقية الصيد التي يمتلكها هانسن ستكون مهمة بالنسبة إليه، لذلك توقعت أن تكون البندقية في مكان ما في منزله، وإن لم يكن في مكان تسهل رؤيته. ستكون في القبو، خلف الألواح أو الجدار المزيف، مخبأة في العلية؛ في مكان ما من هذا القبيل.

توقعت أيضًا أن يكون رجلنا «مدخرًا»، وإن لم يكن ذلك لأسباب طبيعية تمامًا. يأخذ الكثير من القتلة الجنسيين الهدايا التذكارية من ضحاياهم ويعطونها للنساء في حياتهم كدليل على الهيمنة ووسيلة للقدرة على استعادة التجربة. لكن هانسن لم يكن قادرًا على وضع رأس امرأة على الحائط بطريقة جيدة كما لو كان ليفعل مع حيوان ضخم نجح في اصطياده، لذلك اعتقدت أنه من المحتمل أنه سيحصل على نوع آخر من التذكارات. نظرًا لعدم وجود دليل على حدوث تشويه بشري على الجثث، كنت أتوقع أن يكون قد أخذ الجواهر، التي كان سيعطيها لزوجته أو ابنته، مختلقًا قصة حول مصدر القطعة. لا يبدو أنه احتفظ بالملابس الداخلية للضحايا أو أي شيء آخر يمكننا الاعتماد عليه، لكنه ربما احتفظ بصور صغيرة أو أي شيء آخر من المحفظة. ومن تجربتي مع هذا النوع من الشخصيات، اعتقدت أننا قد نجد صحيفة أو قائمة توثق أفعاله ومآثره.

كان الأمر التالي الذي يجب فعله هو دحض حجة غيابه. لم يكن من المهم بالنسبة إلى شريكيه في العمل القول إنهما كانا معه في الليلة المعنية إذا لم يكن هناك شيء على المحك بالنسبة إليهما. ومع ذلك، إذا تمكنا من خلق بعض المخاطر الكبيرة، فقد يؤدي ذلك إلى تغيير الأمور.

طلبت شرطة أنكوراج من المدعي العام للمنطقة أن يأذن لهيئة محلفين كبرى بالتحقيق في اختطاف واعتداء المومس الشابة التي تعرفت على هانسن. ثم توجهت الشرطة إلى رجلي الأعمال وطلبت منهما سرد القصة مرة أخرى. أخبروهما في هذه المرة أنه إذا تم اكتشاف أنهما قد كذبا على هيئة المحلفين الكبرى، فسيواجه كل منهما وقتًا عصيبًا.

كما توقعنا، كان ذلك كافيًا لدحض الرواية. اعترف كل من الرجلين أنهما لم يكونا مع هانسن في تلك الليلة، وأنه طلب منهما مساعدته في الخروج مما وصفه بأنه موقف محرج.

لذلك أُلقي القبض على هانسن بتهمة الاختطاف والاغتصاب. تم تنفيذ أمر تفتيش منزله على الفور. هناك عثرت الشرطة على بندقية Ruger Mini-14، وتطابقت فحوص المقذوفات مع أغلفة القذائف التي عُثر عليها بالقرب من الجثث. كما توقعنا، كان لدى هانسن غرفة تذكارية مجهزة جيدًا حيث كان يشاهد التلفاز، مليئة برؤوس الحيوانات وأنياب عاجية، وقرون، وطيور مثبتة على الجدران، وجلود على الأرض. عثروا تحت ألواح الأرضية في العلية على المزيد من الأسلحة، ومجموعة متنوعة من الجواهر الرخيصة العائدة للضحايا. واحدة من هؤلاء كانت ساعة تايمكس – Timex. لقد أعطى عددًا من الأشياء الأخرى لزوجته وابنته، كما عثروا على رخصة قيادة وبطاقات هوية أخرى لبعض القتلى من النساء. لم يصادفوا مجلة، لكنهم عثروا على ما يعادلها: خريطة طيران عليها علامات بالأمكنة التي ترك فيها جثثًا مختلفة.

كل هذه الأدلة بالطبع كانت كافية لإثبات تورطه في القضية. لكن دون مذكرة التوقيف، لم نكن لنحصل على شيء. والطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها الحصول على أمر قضائي في هذا الموقف كانت أن نرضي رغبة القاضي بأن هناك أدلة سلوكية كافية لتبرير البحث. لقد نجحنا في المساعدة في إصدار إقرارات مذكرات التفتيش والتي أدت إلى عدة اعتقالات منذ ذلك الحين، وربما كان أبرزها في قضية ديلاوير حول ستيفن بينيل، «قاتل I-40»، الذي أُعدم في عام 1992 بتهمة تعذيب وقتل النساء اللائي اعتقلهن بشاحنته المجهزة خصيصًا لذلك.

بحلول الوقت الذي استجوبت فيه شرطة أنكوراج وقوات ولاية ألاسكا روبرت هانسن في فبراير 1984، كنت في المنزل أتعافى من الانهيار الذي أصابني في سياتل. قام روي هازلوود (الذي كان بشكل بطولي يغطي غيابي بينما كان لا يزال يتولى مسؤولية جميع أعماله) بتدريب الشرطة على تقنيات المقابلة.

كما فعل عندما واجهته الشرطة لأول مرة بتهمة الاختطاف، نفى هانسن كل شيء، وأشار إلى حياته المنزلية السعيدة ونجاحه في العمل. في البداية ادعى أن سبب العثور على قذائف من بندقيته في مواقع مختلفة هو أنه

كان هناك وأطلق النار. على ما يبدو، كان وجود الجثث في كل موقع مجرد مصادفة. ولكن في نهاية المطاف في مواجهة جبل من الأدلة واحتمال أن يسعى المدعي العام الغاضب إلى عقوبة الإعدام إذا لم يبرئ نفسه، اعترف أخيرًا بارتكاب جرائم القتل.

في محاولته تبرير أفعاله، ادعى أنه كان يريد من المومسات اللواتي اختارهن ممارسة الجنس فقط، وهو شيء لم يشعر أنه يجب أن يطلبه من زوجته العزيزة والمحترمة. قال إنه إذا كانت العاهرة ترضيه، فليكن. أما أولئك اللائي لم يمتثلن -اللائي حاولن السيطرة على الوضع- فقد عاقبهن.

بهذه الطريقة عكَس سلوك هانسن ما تعلمناه في مقابلة السجن مع مونتي ريسيل. كان كل من هانسن وريسل من نوع الشخصية القاصرة وذات الخلفية السيئة. كانت النساء اللواتي يلقين أسوأ مصير من غضب ريسل هن اللواتي حاولن التظاهر بالصداقة أو الشعور بالمتعة معه ليهدئنه. لكن ما لم يدركنه أنه بالنسبة إلى هذا النوع من الأفراد، فإن السطوة والسيطرة على الوضع هو كل ما يعنيه.

أكد هانسن أيضًا أن ثلاثين إلى أربعين مومسًا ذهبن معه طواعية في طائرته وأنه أعادهن أحياء. وجدتُ هذا الادعاء صعب التصديق. كانت فئة البغايا التي اختارها هانسن تعمل بسرعة ثم تنتقل إلى الزبون التالي. إذا كنّ يعملن في هذا المجال لبعض الوقت، فلا بدَّ أنهن عمومًا يستطعن تقييم الأشخاص بشكل جيد، وبالتالي فإنهن لن يقمن عن طيب خاطر برحلة بطائرة شخص التقينه للتو. لكنهن إذا أخطأن في شيء، فسيكون ذلك في السماح له بإقناعهن بالذهاب معه إلى منزله. بمجرد أن أدخلهن، فقد فات الأوان.

مثل نظيره الروائي، الجنرال زاروف، صرح هانسن أنه طارد وقتل فئة معينة فقط من الناس. لم يكن يفكر قط في إيذاء امرأة «محترمة»، لكنه شعر أن البغايا وراقصات التعري أو العاريات كنَّ مناسبات لما يريد فعله. «أنا لا أقول إنني أكره كل النساء، أنا لا أفعل. لكنني أعتقد أن المومسات هن نساء أقل درجة ومستوى مني. كان الأمر كما لو كانت لعبة، وكان عليهن أن يسددن الكرة قبل أن أتمكن من صدها».

بمجرد أن بدأ الصيد، أصبح القتل تطهيريًا. قال هانسن للمحققين: «الإثارة كانت في المطاردة».

كما أنه أكد شكوكنا بشأن خلفيته. نشأ في بوكاهونتاس، أيوا، حيث كان والده خبازًا. في طفولته، كان روبرت لصَّ متاجر، وحتى بعد فترة طويلة من بلوغه سن الرشد وقدرته على شراء ما يريد، فقد كان لا يزال يسرق من أجل الإثارة. قال إن مشكلته مع الفتيات بدأت في المدرسة الثانوية. لقد استاء من حقيقة أن تلعثمه وبثور حب الشباب دفعا الناس للابتعاد عنه. «لأنني بدوت وتحدثت كشخص غريب الأطوار، ففي كل مرة نظرت فيها إلى فتاة كانت تشيح وجهها عني». قضى فترة هادئة في الجيش، ثم تزوج عندما كان في الثانية والعشرين. تبع ذلك سلسلة من الإدانات بافتعال الحرائق والسطو والانفصال ثم الطلاق من زوجته والزواج مرة أخرى.

انتقل إلى ألاسكا بعد تخرج زوجته الثانية في الكلية. هناك أمكنه أن يبدأ بداية جديدة. لكن مشكلاته مع القانون استمرت لعدة سنوات أخرى، بما في ذلك اتهامات متكررة بالاعتداء على النساء اللواتي رفضن على ما يبدو تقربه منهن. ومن المثير للاهتمام، مثل العديد من الآخرين، أنه كان يقود سيارة فولكسفاجن-بيتل في ذلك الوقت.

في 27 فبراير 1984، أقر هانسن بالذنب في أربع جرائم قتل، وجريمة اغتصاب، وجريمة اختطاف، وتهم متنوعة بالسرقة والأسلحة. حُكِم عليه بالسجن 499 سنة.

كان أحد الأسئلة التي كان علينا الإجابة عنها في قضية هانسن قبل أن تعرف الشرطة كيفية المضي قدمًا هو ما إذا كانت جميع حالات وفاة المومسات وراقصات التعري في أنكوراج قد ارتُكِبت أو يمكن أن تكون قد ارتُكِبت من قِبل الشخص نفسه. غالبًا ما تكون هذه مسألة حاسمة في تحليل التحقيقات الجنائية. في الوقت الذي تم فيه اكتشاف جثة الضحية الأولى لروبرت هانسن في ألاسكا، تم استدعائي من قبل إدارة الشرطة في بوفالو، نيويورك، لتقييم سلسلة من جرائم القتل الشرسة القائمة على أساس الكراهية العنصرية.

في 22 سبتمبر 1980، قُتل صبي يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا يُدعى جلين دن في موقف للسيارات في سوبر ماركت. ووصف شهود العيان المسلح بأنه شاب أبيض. في اليوم التالي، تم إطلاق النار على هارولد جرين، 32 عامًا، في مطعم للوجبات السريعة في ضاحية تشيكتواغا. في تلك الليلة نفسها، قُتل إيمانويل توماس البالغ من العمر ثلاثين عامًا أمام منزله، في

نفس الحي الذي جرت فيه جريمة القتل في اليوم السابق. وفي اليوم التالي قُتِل رجل آخر؛ جوزيف مكوي، في شلالات نياجارا.

كل ما يمكن لأحد أن يقوله هو أن هناك عاملَين فقط يربطان جرائم القتل العبثية هذه. كان جميع الضحايا رجالًا سود البشرة، قُتلوا جميعًا برصاص كاليبر- 22، مما دفع الصحافة لنشر عنوان فوري: «قاتل كاليبر 22».

كان التوتر العنصري محتدًّا في بوفالو. شعر الكثير من السود بالعجز واتهموا الشرطة بعدم القيام بأي شيء لحمايتهم. في بعض النواحي بدا وكأنه انعكاس للرعب الذي حدث في أتالانتا. وكما يحدث غالبًا في هذه المواقف، فلم تتحسن الأمور على الفور، وإنما ساءت.

في 8 أكتوبر، عُثر على سائق تاكسي أسود يبلغ من العمر 71 عامًا يُدعى بارلر إدواردز في صندوق سيارته في إحدى ضواحي أمهيرست وقد أُخرِج قلبه خارج صدره. في اليوم التالي، تم العثور على سائق سيارة أجرة أسود آخر؛ إرنست جونز، البالغ من العمر أربعين عامًا، على ضفة نهر نياجرا وقد أُخرج قلبه خارج صدره أيضًا. تم العثور على سيارته، المغطاة بالدماء، على بعد ميلين داخل حدود مدينة بوفالو. في اليوم التالي لذلك، في أحد أيام الجمعة، دخل رجل أبيض يطابق وصف قاتل العيار 22 تقريبًا غرفة كولين كول البالغ من العمر 37 عامًا، في المستشفى، وأعلن: «أنا أكره الزنوج»، وشرع في خنق المريض، إلا أن وصول الممرضة تسبب في هروب المتسلل وأنقذ كول من الموت.

كان المجتمع في حالة قلقلة واضطراب. كان المسؤولون العموميون قلقين من أن رد فعل واسع النطاق من مجموعات النشطاء السود قد يكون وشيكًا. بناء على طلب ريتشارد بريتزنج، مدير مكتب بوفالو الميداني، توجهت إلى هناك في نهاية الأسبوع. بريتزنج رجل لائق وقوي للغاية، ورجل عائلة حقيقي وعضو رئيسي فيما يسمى **Mormon Mafia** التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي. لن أنسى أبدًا، فقد كانت لديه لافتة في مكتبه تقول شيئًا مؤثرًا: «إذا فشل رجل في موطنه، فإنه يفشل في حياته».

كما أحاول دائمًا القيام بذلك، نظرت أولًا إلى علم الضحية. كما اقترحت الشرطة، لم يكن هناك في الواقع أي قواسم مشتركة ذات دلالة بين الضحايا الست باستثناء عرقهم، وشعرت بأنني كنت أشعر بالأسف لأن أكون في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. من الواضح تمامًا أن عمليات إطلاق النار من

كاليبر-22 قد نفذها الشخص نفسه. كانت عمليات اغتيال تُنجَز على مبدأ تنفيذ مهمة. وكان الملمح الوحيد الواضح من علم النفس المرضي في هذه الجرائم هو الكراهية المرضية للسود. وكل شيء آخر فُصل منها وأزيل عنها.

يمكنني رؤية هذا الفرد ينضم إلى مجموعات الكراهية، أو حتى مجموعات ذات أهداف أو قيم إيجابية مثل الكنيسة ويقنع نفسه أنه يساهم فيها.

لهذا السبب، استطعت أن أراه يلتحق بالجيش، لكن كان من الممكن أن يتم تسريحه مبكرًا في حياته المهنية لأسباب نفسية أو لعدم التكيف مع الحياة العسكرية. سيكون هذا فردًا عقلانيًّا ومنظمًا، وسيكون نظامه الوهمي المتحيز منظمًا و «منطقيًّا» داخل نفسه.

الجريمتان الأخريان، والهجمات المروعة على سائقي سيارات الأجرة، كانت كذلك على أساس عنصري، لكن في هذه الحالات، لم أشعر أننا نتعامل مع الجاني نفسه. كانت هذه الجرائم من عمل شخص غير منظم، مرتبك مرضيًّا، ربما يعاني الهلوسة، وفي جميع الاحتمالات تم تشخيصه بالفصام. بالنسبة إليَّ، عكست طبيعة موقع الجريمة الغضب والسيطرة المهيمنة والرغبة المفرطة في القتل. ولأن عمليات إطلاق النار الأربع وعمليات نزع الأحشاء التي نفذها نفس الشخص كان من الممكن أن تعني تفككًا حادًّا في الشخصية بين مقتل جوزيف ماك كوي وجريمة قتل بارلر إدواردز بعد أقل من أسبوعين. لم يتطابق هذا مع الحادث الذي وقع في المستشفى -إذا كان هذا الشخص، في الواقع، هو القاتل كاليبر22 - كما أخبرتني غريزتي وخبرتي أن التخيلات المريضة لانتزاع القلب كانت تتراكم لفترة طويلة، يمكن أن تصل لعدة سنوات. لم تكن السرقة دافعًا في أي من مجموعتي القتل، ولكن بينما تتَّبع الجرائم الأربع الأولى أسلوب الضربة السريعة والهروب السريع، فقد أظهر موقعا الجريمة الأخيران بوضوح أن الجاني استغرق الكثير من الوقت في المكان. إذا كانت هذه الجرائم الست مرتبطة بعضها ببعض، فمن المرجح بالنسبة إليَّ أن الشخص المختل نفسيًّا الذي انتزع القلبين قد فعل ذلك بتحريض من الشخص العنصري الذي ارتكب جرائم اغتيال الأشخاص السود في المجتمع.

ثم في 22 ديسمبر، في وسط مانهاتن، تعرض أربعة أشخاص سود وشخص من أصل إسباني للطعن حتى الموت على مدى ثلاث عشرة ساعة من قبل «ميدتاون سلاشر». نجا اثنان آخران من الضحايا السود بصعوبة من

القتل. في 29 و30 ديسمبر، على ما يبدو، ضرب القاتل مرة أخرى في شمال الولاية، وطعن روجر آدامز البالغ من العمر 31 عامًا وقتله في بوفالو، وويندل بارنز البالغ من العمر 26 عامًا في روشستر.

في الأيام الثلاثة التالية، نجا ثلاثة رجال سود آخرين في بوفالو من هجمات مماثلة.

لا أستطيع في هذا الوقت أن أؤكد للشرطة أن قاتل كاليبر-22 كان أيضًا «ميدتاون سلاشر» أو الرجل الذي ارتكب هذه المجموعة الأخيرة من الجرائم. لكن ما يمكنني قوله عن اقتناع هو أنه كان من نفس النوع من الأفراد. كان لديهم جميعًا العامل العنصري، وكلهم اتبعوا طريقة الاغتيال الخاطفة.

تفاقمت قضية قاتل كاليبر-22 خلال الأشهر العديدة التالية. في يناير، أُلقي القبض على الجندي في الجيش جوزيف كريستوفر، البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، في فورت بيننج، جورجيا (حيث حاول ويليام هانس قبل ثلاث سنوات اللعب على وتر العنصرية في جرائم القتل «قوى الشر»)، بتهمة قتل جندي زميل أسود. تم العثور على مخزن كبير من الذخيرة من عيار كاليبر-22 وبندقية عند تفتيش منزله القديم بالقرب من بوفالو. كان كريستوفر قد جُنِّد للتو في نوفمبر الماضي وكان في إجازة من فورت بيننج خلال أوقات جرائم القتل في بوفالو ومانهاتن.

في أثناء وجوده في مركز الاحتجاز في فورت بيننج، أخبر النقيب ألدريتش جونسون، الضابط المسؤول، أنه ارتكب «هذا الشيء» في بوفالو. ووُجِّهت إليه تهمة إطلاق النار في بوفالو وبعض عمليات الطعن. تمت إدانته، وبعد بعض الجدل حول كفاءته العقلية، حُكم عليه بالسجن لمدة ستين عامًا. قال الكابتن مات ثيو ليفين (الطبيب النفسي الذي فحص كريستوفر في مستشفى مارتن العسكري) إنه اندهش من مدى توافق كريستوفر مع ملف تعريف قاتل كاليبر-22. كما توقع الملف الشخصي، فإن المشتبه به لم يتكيف بشكل جيد مع الحياة العسكرية.

لم يعترف كريستوفر بقتل سائقي سيارات الأجرة، كما أنه لم ينفِ ذلك. لم يُتَّهم بالجريمتين وهما لا توافقان نمط الجرائم الأخرى، سواء من منظور طريقة العمل أو منظور التوقيع. كلا المفهومين مهمان للغاية في تحليل التحقيقات الجنائية، وقد أمضيتُ ساعات طويلة في ساحات الشهود في

قاعات المحاكم في جميع أنحاء البلاد في محاولة لجعل القضاة والمحلفين يفهمون الفارق بينهما.

طريقة العمل (modus operandi) – MO - هي سلوك مكتسب، إنه ما يفعله الجاني لارتكاب الجريمة. إنها ديناميكية؛ أي يمكن أن تتغير. التوقيع، وهو مصطلح ابتكرته لتمييزه عن MO، هو *ما* يجب *على الجاني فعله لتحقيق* نفسه. إنه ثابت لا يتغير.

على سبيل المثال، لن تتوقع أن يستمر الفتى الحديث في ارتكاب الجرائم بنفس الطريقة التي يكبر بها ما لم يتقن الأمور في المرة الأولى، ولكن إذا أفلت من العقاب، فسوف يتعلم منه وسيصبح أفضل وأفضل فيه. لهذا السبب نقول إن طريقة العمل ديناميكية. من ناحية أخرى، إذا كان هذا الرجل يرتكب جرائم حتى يتمكن، على سبيل المثال، من السيطرة على الضحية أو إلحاق الأذى بها أو دفعها للتوسل، فهذا توقيع. إنه شيء يعبر عن شخصية القاتل. إنه شيء يحتاج إلى القيام به.

في العديد من الحالات، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن للمدعين العامين من خلالها ربط الجرائم هي من خلال طريقة العمل، وأعتقد أننا أظهرنا أنها طريقة قديمة. في قضية كريستوفر، يمكن لمحامي الدفاع بسهولة أن يطرح الحجة القائلة بأن إطلاق النار من عيار كاليبر-22 في بوفالو وعملية الذبح في وسط مانهاتن أظهرت اختلافًا ملحوظًا في طريقة العمل. وسيكون محقًا. لكن التوقيع مشابه؛ نزعة للاغتيال العشوائي للرجال السود تغذيها الكراهية العرقية.

من ناحية أخرى، تظهر لي عمليات إطلاق النار ونزع الأحشاء توقيعًا مختلفًا بشكل ملحوظ، فبالنسبة إلى الفرد الذي انتزع القلوب، بينما لا يزال يمتلك دافعًا كامنًا مرتبطًا به، فإن لديه إشارة طقسية، وسواسية قهرية. كل نوع أو نمط يحتاج إلى شيء ما من الجريمة، لكن كل نوع أو نمط يحتاج إلى شيء مختلف.

يمكن أن تكون الاختلافات بين طريقة العمل والتوقيع طفيفة. لنفكر في قضية سارق بنك في تكساس قام بخلع ملابس جميع أسراه، ووضعهم في أوضاع جنسية، والتقط صورًا لهم. هذا توقيعه. لم يكن ذلك ضروريًا أو مفيدًا لارتكاب سرقة بنك. في الواقع، لقد أبقاه ذلك هناك لفترة أطول وبالتالي

عرَّضه لخطر أكبر للقبض عليه. ومع ذلك، كان من الواضح أنه شيء شعر بالحاجة إلى القيام به.

ثم كان هناك لص بنك في غراند رابيدز، ميشيغان. سافرتُ لتقديم استشارة في الموقع في القضية. هذا الرجل أيضًا جعل كل من في البنك يخلعون ملابسهم، لكنه لم يلتقط الصور. لقد فعل ذلك حتى يشعر الشهود بالحرج والانهماك لدرجة أنهم لن ينظروا إليه وبالتالي لا يمكنهم تقديم بطاقة هوية إيجابية في وقت لاحق. كانت هذه وسيلته لسرقة البنك بنجاح. كانت تلك هي طريقة عمله. لعبَ تحليل التوقيع دورًا مهمًّا في محاكمة عام 1989 لستيفن بنيل في ولاية ديلاوير، والذي أعددنا في قضيته الإفادة الخطية المؤدية إلى أمر التفتيش. عمل ستيف ماردیجیان من وحدتي من كثب مع فرقة العمل المشتركة لمقاطعة نيو كاسل وشرطة ولاية ديلاوير، وأنتج ملفًا شخصيًّا سمح للشرطة بتضييق نطاق تركيزها وتوصلوا إلى إستراتيجية استباقية للإمساك بالقاتل.

تم العثور على بائعات هوى مختنقات وجماجمهن مكسورة على طول الطريقين 40 و13. ومن الواضح أن الجثث تعرضت للإيذاء الجنسي والتعذيب. كان ملف ستيف دقيقًا للغاية، وقال إن الجاني سيكون رجلًا أبيض في أواخر العشرينيات من عمره إلى أوائل الثلاثينيات، ويعمل في مجال إحدى الحرف المتعلقة بالبناء. كان يقود شاحنة لمسافات طويلة، ويبحث بشكل مفرط عن الضحايا، ويكوِّن الملف صورة لشخص مفتول العضلات، ويقيم علاقة مستمرة مع زوجة أو صديقة، ولكنه يستمتع بالسيطرة على النساء. كان يجلب معه أسلحته المفضلة ويدمر الأدلة بعد ذلك. سيكون على دراية بالمنطقة ويختار مواقعه وفقًا لذلك. سيكون ذا استجابة عاطفية ضعيفة في أثناء الجرائم وسيقتل مرارًا وتكرارًا حتى يتم القبض عليه.

كان ستيفن بي بينيل رجلًا أبيض يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا، كان يعمل كهربائيًّا، وكان يقود شاحنته لمسافات طويلة، وكان يبحث بشكل مفرط عن الضحايا، وكان رجلًا مفتول العضلات، وكان متزوجًا لكنه استمتع بالسيطرة على النساء، وكانت لديه في شاحنته «عدة أدوات اغتصاب» معدة بعناية، وحاول تدمير الأدلة عندما علم أن الشرطة كانت تلاحقه. كان على دراية بالمنطقة، واختار مواقع التخلص من الجثث وفقًا لذلك. كان ذا

استجابة عاطفية ضعيفة في أثناء الجرائم وواصل القتل مرارًا وتكرارًا إلى أن تم القبض عليه.

تم تحديد موقعه عندما اقترح مارديجيان استخدام شرطية متنكرة بشخصية مومس. لمدة شهرين، جالت الضابط رينيه سي. لانو على الطرق السريعة، وكانت تبحث دائمًا عن رجل في شاحنة لتوقفه وتقارن تطابق مواصفاته مع السمات في الملف التعريفي. كانوا مهتمين بشكل خاص بسجاد الشاحنة، إذ تم العثور على ألياف زرقاء متسقة مع سجاد السيارات على إحدى الضحايا. في حال توقفت سيارة ثان، كانت لانو تخضع لأوامر صارمة بعدم الدخول -على الرغم من أنها كانت متصلة بالاتصالات السلكية، فقد يُعَد ذلك حكمًا بالإعدام- ولكن كان عليها معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات. عندما توقف الرجل الذي يتطابق مع السمات أخيرًا، دخلت معه في محادثة وساومت على نطاق واسع حول سعر خدماتها من خلال باب الركاب المفتوح. بمجرد أن لاحظت السجادة الزرقاء، بدأت في الإعجاب بالشاحنة، وعندما تحدثا، بدأت في كشط ألياف السجاد بأظفارها. وسيؤكد مختبر مكتب التحقيقات الفيدرالي إف بي آي أنها مطابقة للعينات السابقة.

في محاكمة بينيل، تم استدعائي للإدلاء بشهادتي حول جوانب التوقيع على القضية. كان الدفاع يحاول إظهار أنه من غير المحتمل أن تكون هذه الجرائم قد ارتُكبت من قبل نفس الشخص بسبب تباين تفاصيل كثيرة جدًّا في طريقة العمل. لقد أوضحت أنه بغض النظر عن طريقة العمل، فإن القاسم المشترك في كل جريمة قتل كان التعذيب الجسدي والجنسي والعاطفي. في بعض الحالات، استخدم القاتل كماشة للضغط على أثداء ضحاياه وقطع حلماتهن. كان قد قيَّد معصمي وكاحلي ضحايا آخرين، وصنع جروحًا في سيقانهن، قام بجلدهن أو ضربهن على مؤخراتهن، أو ضربهن بمطرقة. لذلك، وعلى الرغم من أساليب التعذيب المتنوعة -طريقة العمل، إذا صح التعبير- كان التوقيع هو السعادة التي تلقاها من إلحاق الألم وسماع صرخات ضحاياه المنكوبة. لم يكن هذا ضروريًّا لإنجاز القتل، لكن كان من الضروري أن يحصل على ما يريد من الجريمة.

حتى لو كان ستيفن بينيل لا يزال على قيد الحياة ويقرأ هذا، فلن يكون قادرًا على تغيير سلوكه في الجرائم المستقبلية، لكن قد يكون قادرًا على

ابتكار أشياء مختلفة أو أكثر إبداعًا وشرًا في تعذيب النساء، لكنه لن يكون قادرًا على التراجع عن التعذيب ذاته.

لحسن الحظ بالنسبة إلينا جميعًا، كما أسلفت، فقد تمتعت ولاية ديلاوير بالحكم الجيد واللياقة اللازمة لإعدام بينيل بالحقنة القاتلة في 14 مارس 1992.

من القضايا البارزة في استخدام تحليل التوقيع كانت محاكمة جورج راسل جونيور عام 1991، بتهمة القتل عبر ضرب وخنق ثلاث نساء بيض في سياتل -ماري آن بولريتش، وأندريا ليفين، وكارول ماري بيتي- في العام الفائت. أجرى ستيف إيتر من وحدتي عملية التنميط، ثم خرجتُ للإدلاء بشهادتي. في هذه الحالات، علم الادعاء أنه لا يمكنه الحصول على إدانة على أساس جريمة قتل واحدة. كان لدى الشرطة الدليل الأكثر إقناعًا في مقتل بولريتش وشعرت أنها ستدعم القضيتين الأخريين. لذلك كان المفتاح هو ربط الثلاثة معًا. لم يكن راسل من النوع الذي تفكر فيه في هذه الجرائم الشنيعة. على الرغم من أن له سجلًا طويلًا بعدِّه لصًّا صغيرًا، فإنه كان رجلًا أسود وسيمًا في الثلاثينيات من عمره، لبق الحديث وساحرًا، ولديه دائرة واسعة من الأصدقاء والمعارف. حتى شرطة جزيرة ميرسر المحلية الذين أوقفوه في العديد من التهم في الماضي، فإنهم لم يصدقوا أنه سيرتكب جريمة قتل.

بحلول عام 1990، كان لا يزال من غير المعتاد رؤية القتل على أساس الجنس بين الأعراق، ولكن مع انحسار المجتمع وأصبح أكثر تسامحًا، بدأنا ننظر إلى العرق بعدِّه مشكلة أقل تأثيرًا. سيكون هذا صحيحًا بشكل خاص بالنسبة إلى نوع أكثر هدوءًا وتعقيدًا مثل راسل. واعد بانتظام كلًّا من النساء السود والبيض وكان لديه أصدقاء من كلا العرقين.

جاءت النقطة المحورية الإستراتيجية عندما قدمت محامية الدفاع العامة ميريام شوارتز طلبًا قبل المحاكمة أمام قاضية محكمة مقاطعة كينج العليا باتريشيا أيتكين لفصل القضايا بعضها عن بعض وإجراء محاكمة منفصلة، بناءً على فرضية أن جرائم القتل الثلاث لم يرتكبها نفس الجاني. طلب مني المدعيان؛ ريبيكا رو وجيف بيرد، أن أوضح كيف تم ربط جميع الجرائم.

أشرت إلى طريقة عمل الهجوم الخاطف في كل جريمة، حيث وقعت عمليات القتل الثلاث على مدار سبعة أسابيع، ولا أتوقع أن يغير الجاني طريقة

عمله إلا إذا حدث خطأ ما في إحدى الحالات وشعر بالحاجة إلى تحسينه. لكن الأكثر إقناعًا بالفعل كان جانب التوقيع.

تُرِكَت النساء الثلاث عاريات وتم وضعهن في وضعية مستفزة ومهينة. كما أن المحتوى الجنسي للمشهد المعروض أخذ يتصاعد من حالة إلى أخرى. تم وضع الأولى مشدودة اليدين والساقين متقاطعتين عند الكاحلين وتُركت بالقرب من شبكة الصرف الصحي ومخلفات القمامة. فيما وُضعت الثانية على سرير مع وسادة فوق رأسها، وتم ثني ساقيها من كل جانب، وأُدخلت بندقية في مهبلها، وفي قدميها حذاء أحمر بكعبين عاليين. أما الأخيرة فقد وُضعت على سريرها مفتوحة الساقين مع قضيب اصطناعي في فمها، وكتاب *متعة الجنس Joy of Sex* الثاني تحت ذراعها اليسرى.

كان الهجوم الخاطف ضروريًا لقتل هؤلاء النساء.

أما الوضع المهين فلم يكن لازمًا.

شرحت الفارق بين العرض والترتيب. وقلت إن **الترتيب** يظهر في الجرائم حيث يحاول الجاني التخلص من التحقيق بجعل الشرطة تعتقد أن شيئًا ما حدث بخلاف ما حدث بالفعل، مثل حين يحاول المغتصب أن يجعل اقتحامه للمكان يبدو وكأنه عملية سطو روتينية. سيكون هذا جانبًا من جوانب طريقة العمل. من ناحية أخرى، سيكون **العرض** بمنزلة توقيع.

«نحن لا نحصل على العديد من حالات العرض» قلت ذلك في شهادتي في جلسة الاستماع، «معاملة الضحية كدعامة لترك رسالة محددة. إنها جرائم الغضب. إنها جرائم السطوة. إنها إثارة المطاردة، إثارة القتل، وهي الإثارة اللاحقة التي يشعر بها عندما يترك تلك الضحية وشعوره كيف أنه، بشكل أساسي، يتغلب على النظام». شعرت بالثقة في القول، «الاحتمال مرتفع للغاية أن يكون مشتبهًا به واحدًا». أدلى بوب كيبل، كبير المحققين الجنائيين في مكتب المدعي العام بالولاية والمحارب المخضرم في فرقة جرين ريفر، بشهادته معي، قائلًا إنه من بين أكثر من ألف قضية قتل قام بالعمل عليها، كانت هناك عشر حالات فقط ظهر فيها **العرض**، كما أنه لا قضية منها شملت تلك العناصر الثلاثة.

في هذه المرحلة، لم نكن نقول جازمين إن راسل هو الجاني؛ كل ما قلناه هو أن شخصًا واحدًا ارتكب الجرائم الثلاث.

خطط الدفاع لجلب خبير لدحض ما قلته، ليشهد بأنني كنت مخطئًا بشأن التوقيع وأن هذه الجرائم الثلاث لم يرتكبها نفس الشخص. ومن المفارقات، أن هذا الشخص كان زميلي في مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ فترة طويلة وشريكي في دراسة القاتل المتسلسل، روبرت ريسلر، المتقاعد من المكتب ولكنه لا يزال يعمل مستشارًا في هذا المجال.

اعتقدت أن هذه كانت قضية صعبة وجذابة لأي شخص لديه خبرة في التنميط وتحليل موقع الجريمة مثلي أنا وبوب، ولذا كنت مدهوشًا للغاية من أنه سيكون على استعداد للخروج على الجانب الآخر والإدلاء بشهادته من أجل الفصل بين الجرائم. بصراحة، شعرت أنه لم يكن قرارًا صائبًا منه. ولكن كما اعترفنا جميعًا مرات عديدة، فإن ما نقوم به بعيد كل البعد عن العلم الدقيق، لذلك كان من حقه بالتأكيد إبداء رأيه. منذ ذلك الحين، خرجت أنا وبوب على طرفي نقيض في عدد من القضايا، ربما كان أبرزها ما إذا كان جيفري دامر مجنونًا أم لا. وقف بوب مع الدفاع أنه كان مجنونًا. بينما وافقني بارك ديتز، الذي شهد أمام النيابة على أنه لم يكن كذلك.

لذلك فوجئت أكثر عندما قال بوب إن لديه التزامات أخرى ولم يحضر قط لجلسة راسل السابقة للمحاكمة، وبدلًا من ذلك أرسل عميلًا متقاعدًا آخر، روس فورباجيل. روس رجل ذكي، كان بطل شطرنج يمكنه اللعب ضد عشرة منافسين في وقت واحد، لكن التنميط لم يكن تخصصه الرئيسي، واعتقدت أن الحقائق ضده. لقد تحمل وقتًا عصيبًا من ريبيكا رو عندما استجوبته بعد أن اعترض على رأيي. في نهاية الجلسة، حكم القاضي أيتكين أنه بناءً على دليل التوقيع الذي قدمته أنا وكيبيل فيما يتعلق باحتمال وجود مجرم واحد في جميع القضايا الثلاث، فإنه يمكن إجراء المحاكمة للجرائم كلها معًا.

أدليت بشهادتي بشأن التوقيع مرة أخرى في أثناء المحاكمة نفسها، دحضًا لنظرية تعدد مرتكبي الجرائم التي طرحها الدفاع. في جريمة قتل كارول بيتي، اقترحت محامي الدفاع شوارتز، أنه كان لصديق الضحية الفرصة والدافع. نحن دائمًا ندرس الأزواج أو العشاق في جرائم القتل الجنسي، وكان رأيي الراسخ أن هذا كان جريمة قتل بدوافع جنسية ارتكبها شخص «غريب».

في النهاية، تداولت هيئة محلفين مؤلَّفة من ستة رجال وست نساء القضية لمدة أربعة أيام وأعلنت جورج ووترفيلد راسل جونيور مذنبًا بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى وتهمتين بارتكاب جريمة قتل مشددة من الدرجة

الأولى. حُكم عليه بالسجن المؤبد دون إمكانية الإفراج المشروط وأُرسل إلى سجن الدولة شديد الحراسة في والا والا.

كانت هذه المرة الأولى التي أعود فيها إلى سياتل منذ الانهيار والغيبوبة هناك. كان من الجيد أن أعود وأن تكون لديك يد في حل القضية بعد الإحباط الشديد في جرين ريفر. عدت إلى المستشفى السويدي وكان من دواعي سروري أن أرى أنهم ما زالوا يحملون اللوحة التي قدمتها لهم عربون شكر. عدت إلى فندق هيلتون لأرى ما إذا كان بإمكاني تذكر أي شيء، لكنني لم أستطع. أظن أن ذلك كان مجرد صدمة كبيرة لدرجة أن عقلي لا يستطيع معالجتها بوعي. وعلى أي حال، بعد كل الوقت الذي قضيته على الطريق لسنوات عديدة، فإن جميع غرف الفنادق تمتزج معًا.

لقد طورنا الآن تحليل التوقيع لدرجة أننا نشهد بشكل روتيني في محاكمات القتل المتسلسل، ليس أنا فقط ولكن المحللون الآخرون الذين شاركوني اهتمامي أيضًا، وعلى الأخص لاري أنكروم وغريغ كوبر.

في عام 1993، لعب جريج كوبر دورًا رئيسيًّا في الحصول على إدانات مزدوجة من الدرجة الأولى بالقتل ضد جريجوري موسلي، الذي اغتصب امرأتين وضربهما وطعنهما في ولايتين قضائيتين منفصلتين في ولاية كارولينا الشمالية. مثل الجرائم ذات الصلة في محاكمة راسل، كان من الصعب على أي سلطة قضائية أن تدين نفسها بنجاح. كان على كليهما الحصول على شهادة تربط بين القضيتين، وبعد دراسة صور مسرح الجريمة وملفات القضية، شعر جريج أنه يستطيع الإدلاء بها. قرر جريج أن مفتاح تحليل التوقيع في قضايا موسلي كان الرغبة المفرطة في القتل. كانت كلتا الضحيتين من النساء الوحيدات، العازبات، المعوقات بشكل طفيف في أوائل العشرينيات من العمر اللائي ترددن على نفس الملهى الليلي الغربي، حيث تم اختطافهما قبل بضعة أشهر.

تعرضت كلتاهما للضرب المبرح. يمكن القول إنهما تعرضتا للضرب حتى الموت، باستثناء حقيقة أنهما تعرضتا للخنق أيضًا باليدين وبالرباط؛ تم طعن إحداهما اثنتي عشرة مرة، وكان هناك دليل على إيلاج في المهبل والمستقيم. كانت هناك أدلة جنائية في إحدى القضيتين، من بينها حمض نووي من السائل المنوي يربط الجريمة بموسلي. ارتُكبت جرائم الاغتصاب والتعذيب في مناطق منعزلة وأُلقيت الجثث في مواقع مهجورة ونائية. شهد جريج

في المحاكمة الأولى أن الدليل السلوكي للتوقيع يشير إلى شخصية لا تتمتع بالكفاءة، وسادية جنسيًّا. كان عدم كفايته واضحًا من اختياره للضحايا. كانت ساديته أكثر وضوحًا مما فعله بهن. على عكس العديد من الأنواع القاصرة وغير المنظمة، فإن هذا النوع لم يقتلهن قبل تشويه أجسادهن. أراد أن يكون في سيطرة جسدية وعاطفية كاملة. أراد أن يكون مؤلفًا لألمهن وأن يستمتع بالرد الذي أثارته وحشيته.

من خلال شهادته في القضية الأولى، ساعد جريج في تمكين الادعاء من تقديم جريمة القتل الثانية. أُدين موسلي وحُكم عليه بالإعدام. في المحاكمة الثانية بعد تسعة أشهر، تمكن جريج من فعل الشيء نفسه، وحقق إدانة أخرى وحكمًا بالإعدام.

في المرة الأولى التي أدلى فيها بشهادته، حدَّق جريج إلى عيني موسلي بينما كان يصف شخصيته في قاعة المحكمة المكتظة. استطاع جريج أن يخبرنا بالتعبير الكئيب على وجه موسلي أنه كان يفكر: «كيف بحق الجحيم يمكن أن تعرف ذلك؟» كان الضغط شديدًا. لو كان جريج غير ناجح، لكان من الممكن استبعاد القضية ويمكن أن تكون القضية الثانية قد أُضعِفت بما لا يمكن إنقاذه.

عندما رأى موسلي جريج لأول مرة في محاكمته الثانية، تمتم إلى مرافقيه من الشرطة: «إنه ابن العاهرة الذي سيحاول الإيقاع بي مرة أخرى!»

تقليديًّا، للحصول على محاكمة ناجحة وإدانة في قضية قتل، فإنك بحاجة إلى أدلة جنائية قاطعة، أو شهادات شهود عيان أو اعتراف، أو أدلة ظرفية جيدة وقوية. الآن من عملنا في السلوك التنميطي من موقع الجريمة وتحليل التوقيع، فإن هناك سهمًا آخر في جعبة الشرطة والنيابة. إلا أنه في حد ذاته لا يكفي عادة للإدانة، ولكن إذا تم جمعه مع عنصر أو أكثر من العناصر الأخرى، فإنه غالبًا ما يربط الجرائم المختلفة معًا ويكون ما هو مطلوب فقط لاستكمال تحضير القضية.

يلعب القتلة المتسلسلون اللعبة الأخطر. كلما فهمنا الطريقة التي يلعبون بها، استطعنا مراكمة الاحتمالات ضدهم.

14

من قتل الفتاة الأمريكية النموذجية؟

من قتل الفتاة الأمريكية النموذجية؟

كان هذا هو السؤال المؤلم الذي حام فوق بلدة وود ريفر الصغيرة في إلينوي لمدة أربع سنوات. من بين أشياء أخرى استحوذت على المفتش ألفا بوش من شرطة الولاية، وعلى دون ويبر، محامي الولاية في مقاطعة ماديسون.

في مساء الثلاثاء 20 يونيو 1978، أقامت كارلا براون وخطيبها مارك فير حفلة مع الكثير من البيرة والموسيقى للأصدقاء الذين ساعدوهما في الانتقال إلى منزلهما الجديد في 979 أكتون أفينيو في وود ريفر. كان منزلًا من طابق واحد، أبيض، ذا جوانب خشبية في شارع تصطف على جانبيه الأشجار، مع أعمدة مستديرة رفيعة تحيط بالباب الأمامي، وقد أمضوا الأسبوعين الماضيين في تحويل هذا المنزل النموذجي إلى شكله الحالي الجميل. مثلت تلك بداية جديدة مثيرة لكارلا البالغة من العمر 23 عامًا ومارك البالغ من العمر 27 عامًا. إنهما مرتبطان منذ خمس سنوات، وها قد أوضح مارك أخيرًا أنه يود إنهاء تردده الذكوري وأنه كان مستعدًا لتقديم الالتزام الحقيقي. مع حصول كارلا على شهادتها الجامعية في كلية محلية وعمل مارك كفني كهربائي مبتدئ، كان مستقبلهما واعدًا.

على الرغم من سنوات تأجيل ذلك الحدث الكبير، عرف مارك فير كم كان محظوظًا لأن تكون كارلا زوجته المنشودة. كانت كارلا لو براون تجسيدًا للفتاة الأمريكية النموذجية. طولها أقل من خمسة أقدام، شعرها أشقر متموج، شخصية ساحرة وابتسامة ملكة جمال.

كانت الفتاة المثالية للأولاد ومصدر حسد الفتيات الأخريات في مدرسة روكسانا الثانوية، حيث يتذكرها الجميع على أنها مشجعة مفعمة بالحيوية والحماس. عرف أصدقاؤها المقربون أن بعدًا حساسًا واستبطانيًا كان يتماشى مع الجانب العام الساحر والرائع. كانوا يعرفون أنها كانت مخلصة لمارك، الذي كان قويًا، وذات بنية رياضية، وأطول منها بقدم. معًا، كان كل من كارلا ومارك يقدمان صورة زوجين رائعين.

بعد الحفلة ليلة الثلاثاء، عادا إلى شقتهما في إيست ألتون لتعبئة الصناديق المتبقية. كانا يأملان أن يكونا مستعدين بالفعل للانتقال والنوم في المكان الجديد في الليلة التالية.

صباح الأربعاء، بعد أن غادر مارك إلى وظيفته مع شركة كامب للكهرباء والتدفئة، ذهبت كارلا إلى أكتون أفينيو، حيث كانت تعمل على تنظيم الأمور وترتيبها حتى يغادر مارك عمله في نحو الساعة الرابعة والنصف. كانا متحمسين لقضاء الليل هناك.

عندما أنهى مارك عمله، ذهب إلى منزل صديقه توم فيجنباوم، الذي كان يعيش في نفس المبنى مع والدي مارك ووافق على مساعدته في نقل منزل كلاب كبير للكلاب على شكل حرف A من الفناء الخلفي للوالدين. وصلا إلى أكتون أفينيو حوالي الساعة الخامسة والنصف، وعندما ركن توم شاحنته في الممر، ذهب مارك ليرى كارلا. لم يجدها، مما يعني أنها خرجت ربما لشراء شيء من مستلزمات للمنزل، لكنه لاحظ أن الباب الخلفي مفتوح. أزعجه هذا. كان عليها أن تكون حذرة بشأن هذا النوع من الأشياء. أحضر مارك توم ليريه المنزل. بعد أن أراه الطابق الرئيسي، قاده إلى المطبخ ونزل الدرج إلى الطابق السفلي. عندما وصل إلى السلم السفلي، لم يعجبه ما رآه. طاولات صغيرة مقلوبة. بدا الأمر وكأن هناك حالة فوضى مريبة، على الرغم من حقيقة أنه وكارلا نظما كل شيء خلال الليلة السابقة. كان هناك شيء مسكوب على الأريكة والأرض. «ماذا يحصل هنا» سأل مارك مستغربًا. بينما استدار ليذهب إلى الطابق العلوي في محاولة للعثور على كارلا، نظر من خلال باب غرفة الغسيل.

هناك كانت كارلا، على ركبتيها ومنحنية إلى الأمام، مرتدية سترة لكنها عارية من الخصر إلى الأسفل، يداها مقيدتان خلف ظهرها بسلك كهربائي، ورأسها موضوع في برميل 10 جالونات، يشبه الطبل، مملوء بالماء. كان

البرميل من الأشياء التي استخدمها هو وكارلا في نقل الملابس. كما أن السترة، التي كانت مخزنة في أحد البراميل، كانت ترتديها فقط في الشتاء.

«يا إلهي! كارلا!» صرخ مارك وهو يجري مع توم. سحب مارك رأسها من البرميل ومددها على الأرض. كان وجهها منتفخًا ومزرقًا، مع جرح عميق في جبهتها وآخر على خط فكها. كانت عيناها مفتوحتين، وكان من الواضح أنها قد توفيت.

انهار مارك في أسى. طلب من توم أن يجد شيئًا يغطيها به، وبعد أن عاد توم بغطاء أحمر، اتصلا بالشرطة.

عندما وصل الضابط ديفيد جورج من قسم شرطة وود ريفر بعد بضع دقائق، كان مارك وتوم خارج الباب الأمامي في انتظاره. اقتادا الضابط إلى الطابق السفلي وأطلعاه على مكان الحادث. طوال اللقاء، كان مارك بالكاد قادرًا على التماسك. وظل يردد: «أوه، يا إلهي، كارلا».

لم يكن من المفترض أن يحدث هذا النوع من الرعب في وود ريفر، وهو مجتمع هادئ على بعد نحو 15 دقيقة من سانت لويس. لم يمض وقت طويل، كان جميع كبار رجال الشرطة هناك ليروا ما يحدث، بما في ذلك رئيس الشرطة رالف سكينر، البالغ من العمر 39 عامًا.

ظهرت على كارلا علامات ضربة شديدة في الرأس، ربما من حامل علبة التلفزيون في الغرفة. تم ربط جوربين حول رقبتها، وخلص تشريح الجثة إلى أنها ماتت خنقًا وكانت قد ماتت بالفعل في الوقت الذي كان رأسها مغمورًا في برميل الماء.

بقدر ما كان مسرح القتل هذا محط تركيز، فإن المشكلات كانت تطارد الشرطة منذ البداية. لم يتمكن مفتش شرطة ولاية إلينوي ألفا بوش (وهو فني متمرس في موقع الجريمة) من جعل الفلاش الخاص بكاميرته يعمل.

لحسن الحظ، كان بيل ريدفيرن، الذي تلقى المكالمة في مركز الشرطة من توم فيجنباوم، قد أحضر معه كاميرا والتقط صورًا لموقع الجريمة، لكن في ذلك الوقت تصادف أنه لم يكن في كاميرته سوى فيلم أبيض وأسود. كانت هناك مشكلة أخرى تتمثل في جميع الأشخاص الذين كانوا في المنزل يساعدون الزوجين على الانتقال. كان هناك الكثير من البصمات الكامنة

الجديدة المحتملة بشكل شرعي في مكان الحادث. سيكون اختيار الآخرين صعبًا إن لم يكن مستحيلًا.

بدت بعض العناصر كقرائن محتملة، لكنها لم تكن منطقية. كان أبرزها دورق قهوة زجاجي عالق في العوارض الخشبية في الطابق السفلي. قبل اكتشافه بقليل، لاحظت الشرطة أن الدورق مفقود من الماكينة في المطبخ. لم يكن لدى أي شخص، بما في ذلك مارك، أي تفسير منطقي لسبب وجوده في مكانه، ولم يكن دوره في القتل، إن وُجِد، واضحًا. تمكن ألفا بوش من رفع بعض البصمات الكامنة من السطح الزجاجي، لكنها لم تكتمل بالقدر الكافي للاستخدام.

في الأيام التي أعقبت القتل، قامت الشرطة بتمشيط الحي، وتحدثت إلى أي شخص من الوارد أن يكون قد رأى أيًّا كان. قال بول ماين، الجار المجاور، إنه كان في يوم القتل على شرفة منزله الأمامية معظم فترة بعد الظهر مع صديقه جون برانت. وتذكر برانت أنه كان في منزل ماين لفترة وجيزة في ذلك الصباح، مباشرة بعد التقدم لوظيفة في مصفاة نفط محلية، لكنه قال إنه غادر مبكرًا للتقدم لوظائف أخرى. في الليلة التي سبقت الجريمة، شاهد ماين وبرانت وصديق ثالث كارلا ومارك ورفاقهما وهم يساعدونهما على الانتقال. قال الثلاثة إنهم كانوا يأملون في أن تتم دعوتهم إلى حفلة الانتقال لأن ماين كان جارًا والصديق الآخر كان يعرف كارلا بشكل عرضي في المدرسة الثانوية. لكن لم يُطلب منهم الانضمام قط. أقرب ما وصلوا إليه كان عندما نادى الصديق كارلا عبر الممر.

تذكرت الجارة عبر الشارع، وهي امرأة مسنة تدعى إدنا فانشيل، رؤية سيارة حمراء بسقف أبيض متوقفة أمام 979 يوم القتل. قال بوب لويس (أحد الأشخاص في الحفلة) إنه رأى كارلا في المدخل تتحدث مع رجل «خشن المظهر» طويل الشعر بالجوار أشار إلى كارلا وناداها باسمها. وكان من الممكن أن يكون ذلك صديق بول ماين.

«لديك ذاكرة جيدة. لقد مر وقت طويل» سمع لويس رد كارلا. قال إنه أخبر مارك فير بعد ذلك عن اللقاء، مشيرًا إلى أنه إذا كان هؤلاء هم الأشخاص الذين يعيشون بجوارهم، فمن الأفضل أن يكون حذرًا إلى أن يتعرف عليهم بشكل أفضل. لم يبد مارك قلقًا وقال إن كارلا تعرف الرجل طويل الشعر من المدرسة الثانوية وأنه كان يزور بول ماين للتو.

كانت امرأة أخرى تقود سيارتها في الشارع، وأخذت حفيدها إلى طبيب الأسنان. رأت هي والطفل رجلًا وامرأة يتحدثان في ممر السيارات، ولكن حتى عندما تم استجوابها تحت تأثير التنويم المغناطيسي، لم يضف وصفها الكثير.

تحدثت الشرطة مع العديد من صديقات كارلا، في محاولة لمعرفة ما إذا كان لدى أي شخص ضغينة ضدها، صديق قد رفضته ربما. لكنهم جميعًا قالوا إن كارلا كانت محبوبة جدًّا وليس لديها أعداء يعرفونهم.

مع ذلك، خطرت لإحدى النساء، رفيقة كارلا السابقة في السكن، فكرة. توفي والد كارلا عندما كانت صغيرة، وتزوجت والدتها، جو إلين، من جو شيبارد الأب، الذي كانت مطلقة منه الآن. أفادت رفيقة السكن أن كارلا لم تتفق مع شيبارد، الذي ضربها وكان دائمًا يتواصل مع أصدقائها. كان لا بد من عدِّه مشتبهًا به. لقد جاء ليلة جريمة القتل وأزعج الشرطة بالأسئلة. كما أشرت، ليس غريبًا أن يقترب قاتل من الشرطة أو يدخل نفسه بطريقة أخرى في التحقيق. لكن لم يكن هناك دليل يربط شيبارد بالجريمة.

الشخص الآخر الذي كان يجب فحصه من كثب هو مارك فير. إلى جانب توم فيجنباوم، فهو الذي عثر على الجثة، وكان بإمكانه الوصول إلى المنزل، وكان أقرب شخص للضحية. كما أشرت فيما يتعلق بقضية جورج راسل، يجب دائمًا مراعاة الزوج أو الحبيب، لكن مارك كان يعمل لدى مقاول الكهرباء عندما كانت الجريمة ستقع؛ لقد رآه عدد من الناس وتحدثوا إليه، ولم يكن هناك شك لدى أي كان -الشرطة، صديقات كارلا، عائلتها- أن حزنه كان حقيقيًّا وعميقًا.

مع بدء التحقيق، أجرت الشرطة اختبار جهاز كشف الكذب على العديد من الأشخاص الذين قابلتهم، والذين كان من الممكن أن يكونوا على اتصال بكارلا قبل وفاتها بوقت قصير. تجاوز مارك وتوم وجو شيبارد الاختبار دون أي لبس. لم يفشل أحد حقًّا. كان أقربهم بول ماين، وهو رجل يتمتع بذكاء هامشي كان في المنزل المجاور في ذلك اليوم بعد الظهر. على الرغم من أنه ادعى أن جون برانت كان معه في الشرفة ويمكنه أن يضمن له أنه لم يغادر، أقر برانت نفسه -الذي اجتاز اختبار جهاز كشف الكذب- بأنه غادر في الصباح للبحث عن عمل، وبالتالي لم يستطع أن يقول أين كان ماين خلال ذلك الوقت. ولكن على الرغم من أن اختبار جهاز كشف الكذب الخاص بـ

ماين كان موضع تساؤل وبقي مشتبهًا به، كما هو الحال مع أي شخص آخر، فإن لا شيء يربطه مباشرة بالجريمة.

أثَّرت صدمة مقتل كارلا براون في وود ريفر بعمق. بقيت الحادثة جرحًا لا يندمل. أجرى كل من الشرطة المحلية وشرطة الولاية مقابلات مع كل شخص وجدوه، وتابعت كل خيوط ممكنة، ومع ذلك، فمن المحبط أنه لم يبدُ أنهم يقتربون من الحل. مرت الأشهر، ثم أصبحت سنة، ثم اثنتين. كان الأمر صعبًا بشكل خاص على أخت كارلا دونا جودسون. مع زوجها تيري، بدا أنهما منخرطان بالسؤال بشكل يومي تقريبًا. لم تكن والدة كارلا وشقيقتها الأخرى، كوني ديكسترا، قادرتين على مواجهة هذا النوع من المشاركة المكثفة، وكان الاتصال أقل بالسلطات العاملة في القضية.

كان الأمر صعبًا أيضًا على دون ويبر، محامي الولاية المسؤول عن مقاطعة ماديسون، التي ضمت وود ريفر. كان مساعد المدعي العام وقت جريمة القتل. أراد ويبر (وهو مزيج من المدعي العام الصارم والرجل شديد الحساسية) أن يُظهر للجمهور أن هذا النوع من السخط الذي ارتُكب على كارلا لن يتم التسامح معه في منطقته. كان مهووسًا عمليًّا بتقديم قاتلها إلى العدالة. بعد انتخابه في نوفمبر 1980 لأعلى منصب لمحامي الدولة، أعاد تنشيط القضية على الفور.

الشخص الآخر الذي لم يستطع ترك القضية، مهما طال استمرارها دون إحراز تقدم، كان محقق موقع الجريمة التابع للولاية، ألفا بوش. هناك دائمًا بعض القضايا في مسيرة الشرطي المهنية لا يمكنه أن يتخلى عنها. واتضح أنه من خلال بوش خصوصًا فقد حصلت القضية على دفعة حاسمة إلى الأمام.

في يونيو 1980، بعد عامين كاملين من مقتل كارلا، كان بوش في البوكيركي، نيو مكسيكو، للإدلاء بشهادته في محاكمة جريمة قتل في قضية عمل فيها على سيارة مسروقة في إلينوي. في أثناء انتظار استكمال الاقتراحات السابقة للمحاكمة، حضر عرضًا تقديميًّا في قسم العمدة قدمه الدكتور هومر كامبل، وهو خبير من جامعة أريزونا في تحسين الصور بالحاسوب.

قال له بوش في نهاية العرض: «مرحبًا، دكتور، لديَّ قضية لك». وافق الدكتور كامبل على فحص صور موقع الجريمة وتشريح الجثة لمعرفة ما إذا كان بإمكانه المساعدة في تحديد نوع الأداة أو السلاح الذي تم استخدامه

على كارلا بالضبط. قام بوش بنسخ وإرسال جميع الصور ذات الصلة إلى كامبل.

كانت الصور بالأبيض والأسود فقط، وهو ما لم يجعل المهمة أسهل، لكن كامبل كان قادرًا على إجراء تحليل دقيق باستخدام أجهزته المتطورة. من خلال التحسين الحاسوبي، تمكن بشكل أساسي من قلب الصور من الداخل إلى الخارج وتمكن من الإبلاغ عن عدة أشياء. كانت الجروح العميقة ناتجة عن مطرقة مخلبية، وكانت الجروح على الذقن والجبهة ناتجة عن عجلات طاولة صينية التلفاز المقلوبة. لكن ما قاله لبوش بعد ذلك قلب القضية تمامًا وأرسلها في اتجاه جديد.

«ماذا عن علامات العض؟ هل لديكم أي أعراض في علامات العض على رقبتها؟»

«أيّ علامات عض؟» كان كل ما يمكن أن يفكر بوش في قوله في الهاتف.

أخبره كامبل أنه في حين أن الصور التي تمكن من رفعها لم تكن الأفضل، فإنها أظهرت علامات عض على رقبة كارلا، أي من الواضح أنه إذا ما تم التعرف على المشتبه به، فيمكنهم الحصول على مقارنة جيدة. وهو، على وجه الخصوص، ما لم ينطبق على أي من الجروح أو العلامات الأخرى على الجلد. على عكس أي شيء آخر لديهم حتى الآن، كانت علامات العض دليلًا جيدًا وقويًّا، تقريبًا مثل بصمات الأصابع. ساعدت المقارنة بين أسنان تيد بوندي مع علامات العض الموجودة على أرداف ضحية جريمة قتل في دار نادي تشي أوميغا في جامعة ولاية فلوريدا في إدانة القاتل المتسلسل المشؤوم. كان كامبل شاهد إثبات في محاكمة بوندي. (في صباح يوم 24 يناير 1989، بعد مقابلات ومحادثات مكثفة مع بيل هاجماير من وحدتنا، تم إعدام بوندي على كرسي كهربائي في فلوريدا. لن يعرف أحد على وجه اليقين عدد الحيوات التي تسبب في إنهائها).

بمجرد أن حصلت شرطة إلينوي على صور علامات العض من الدكتور كامبل، بدؤوا في إعادة التركيز على بعض الاحتماليات الأصلية، وعلى الأخص الجار بول ماين. ولكن بعد أن حصلت الشرطة على عينة عضة من ماين، لم يستطع كامبل مطابقتها مع صور موقع الجريمة وتشريح الجثة. لقد حاولوا تحديد مكان صديق ماين جون برانت لمعرفة ما إذا كان سيشير إلى ماين بهذه المعلومات المضافة، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه.

كانت هناك محاولات أخرى للتوصل إلى حل، بما في ذلك إحضار طبيب نفسي شهير من إلينوي، الذي قال دون معرفة أي من تفاصيل القضية: «أسمع صوت قطرات ماء». بالنسبة إلى الشرطة، كانت هذه إشارة واضحة على اكتشاف جثة كارلا. ولكن بخلاف حقيقة أن القاتل كان يعيش بالقرب من خطوط السكك الحديدية (معظم الناس يعيشون في مقاطعة ماديسون)، لم يقدم الطبيب النفسي الكثير من المساعدة.

حتى مع معرفة علامات العض، لم يتم إحراز تقدم يُذكَر في القضية. في يوليو من عام 1981، حضر دون ويبر وأربعة من موظفيه ندوة في نيويورك حول علم الطب الشرعي في التحقيقات الجنائية كجزء من تشكيل إدارته الجديدة كمحامي دولة. مع العلم أن ويبر سيكون هناك، اقترح الدكتور كامبل عليه إحضار صور حالة براون وعرضها على الدكتور لويل ليفين، طبيب أسنان شرعي من جامعة نيويورك، كان يتحدث في الندوة.

درس ليفين الصور، ولكن بعد اتفاقه مع كامبل على أن بعض الجروح كانت بالتأكيد علامات عض، قال إنه لا يستطيع إجراء تطابق نهائي. واقترح أن ينبشوا جثة كارلا، معلقًا أن «النعش هو مخزن بارد للحصول على أدلة». لم أكن أعرف ليفين بشكل شخصي، لكنني عرفته بالتأكيد عن طريق السمعة. لقد أجرى التحليل في قضية فرانسين إلفسون في نيويورك. (لا بد أنه قام بعمل جيد للغاية، منذ أن ذهب بيل هاجماير وروزان روسو لمقابلة كارمين كالابرو في إصلاحية كلينتون، كان قد أزال كل أسنانه لتجنب تجريم نفسه في الاستئناف. تولى ليفين رئاسة وحدة علوم الطب الشرعي لولاية نيويورك).

في مارس من عام 1982، حضر ويبر واثنان من محققي شرطة الولاية الدورة التدريبية السنوية لفريق سانت لويس متروبوليتان للقضايا الرئيسية. كنت في الاجتماع، أعطي الحشد الكبير لمحة عامة عن السمات الشخصية وتحليل موقع الجريمة. على الرغم من أنني لا أتذكر اللقاء بشكل شخصي، فإن ويبر يصف في دراسته الرائعة للقضية، *الشاهد الصامت* (مع تشارلز بوسورث جونيور)، أنه جاء هو وزملاؤه إليَّ بعد عرضي التقديمي وسألوني عما إذا كان ما وصفته للتو يمكن استخدامه في قضيتهم. يبدو أنني أخبرتهم أن يتصلوا بي في مكتبي حين أعود إلى كوانتيكو وأنني سأكون سعيدًا بمساعدتهم بأي طريقة ممكنة.

عند عودته، علم ويبر أن ريك وايت من شرطة وود ريفر كان حاضرًا في الجلسة أيضًا وخلص بشكل مستقل إلى أن هذا سيكون أسلوبًا جيدًا في تحقيق براون. اتصل بي وايت ورتبنا له أن يأتي إلى كوانتيكو بصور موقع الجريمة وأن يسمح لي بتحليلها على الفور وإعطاء ردود أفعالي. كان ويبر منشغلًا للغاية في القضايا التي يتم إعدادها للمحاكمة لكي يأتي بنفسه، لكنه عين مساعد محامي الدولة كيث جنسن مكانه، جنبًا إلى جنب مع وايت وألفا بوش وراندي راشنغ، أحد مسؤولي شرطة الولاية الذي كان معه في سانت لويس.

قاد أربعتهم أكثر من ثمانمائة ميل إلى كوانتيكو. كان رئيس شرطة وود ريفر آنذاك، دون جرير، في إجازة في فلوريدا، لكنه طار إلى واشنطن لحضور الاجتماع أيضًا.

التقينا في غرفة الاجتماعات. قضى المحققون الأربعة معظم الوقت في تنظيم أفكارهم ونظرياتهم لتقديمها إلي؛ لم يكن من الممكن أن يعرفوا أنني أحب أن أتوصل إلى استنتاجاتي الخاصة قبل أن أتأثر بأفكار أي شخص آخر. لكننا انسجمنا جيدًا، على الرغم من ذلك. على عكس العديد من المواقف التي تم جلبنا فيها لأسباب سياسية أو لحماية أحد ما، كان هؤلاء الرجال هنا لأنهم ببساطة رفضوا الاستسلام. لقد أرادوا حقًّا أن يكونوا هنا وكانوا قلقين بالفعل بشأن أي شيء يمكنني القيام به لتوجيههم في الاتجاه الصحيح.

انسجمت بشكل خاص مع ألفا بوش، الذي شاركني العلاقة الصعبة مع السلطة. ومثلما كنت، كان هو أيضًا معروفًا بإثارته غضب الكثير من الناس بصراحته. في الواقع، كان على دون ويبر أن يهدد باستدعاء جميع علاقاته السياسية للسماح لبوش بالقيام بالرحلة إلى كوانتيكو.

طلبت صور موقع الجريمة وقضيت عدة دقائق أفكر فيها. طرحت بعض الأسئلة لتوجيه نفسي، ثم قلت: «هل أنت مستعد؟ قد ترغب في تسجيل هذا».

أول ما قلته لهم هو خبرتي التي أوصلتني إلى استنتاج أنه عندما ينتهي الأمر بالجثث في الماء داخل منزل -حوض استحمام أو دش أو وعاء- فإن الغرض الأساسي لم يكن غسل الأدلة أو القرائن، كما رأينا في أتالانتا، ولكن من أجل «تنظيم» الجريمة لتبدو وكأنها شيء آخر غير ما كانت عليه في الواقع. ثم قلت إنهم، بلا شك، قد أجروا مقابلة مع القاتل. كان في الحي أو بالقرب من المدينة. هذا النوع من الجرائم يكاد يكون دائمًا جريمة جار

أو جريمة منزلية. لا يسافر الناس مسافات طويلة لارتكابها. إذا كان ملطخًا بالدماء، وهو ما حصل معه في الغالب، فقد كان عليه أن يذهب إلى مكان قريب لتنظيفه والتخلص من ملابسه الملطخة بالدماء. كان رجلنا يشعر بالارتياح في الموقف وكان يعلم أن ليس هناك ما سيزعجه، إما لأنه يعرف كارلا جيدًا أو لأنه كان يراقبها بما يكفي ليعرفها ويعرف عادات مارك. وما دمتم قد تحدثتم إليه، فقد كان بذلك متعاونًا مع تحقيقكم، وهو بهذه الطريقة يشعر أنه يستطيع التحكم في الموقف.

لم يذهب إلى منزل كارلا بعد ظهر ذلك اليوم بخطة قتلها، كان القتل فكرة متأخرة. إذا كان قد خطط لذلك، لكان قد أحضر أسلحته وأدواته (عدة أدوات الاغتصاب) معه. بدلًا من ذلك، لدينا الخنق اليدوي وصدمة الضربة الحادة، مما يدل على فعل عفوي ينطلق من الغضب أو اليأس كرد فعل على رفضها له. كلمات المغتصب هي التلاعب والسطوة والسيطرة. من المحتمل أنه ذهب إلى المنزل يعرض مساعدته لها في الانتقال. عُرفت كارلا بأنها من النوع الودود، وبما أنها كانت تعرف هذا الرجل بطريقة ما، فمن المحتمل أنها سمحت له بالدخول. كان ما أراده منها هو الجنس، نوعًا من علاقة ما. عندما قاومت أو أدرك أنه قد فقد السيطرة، قرر -مثل قاتل ماري فرانسيس ستونر في ساوث كارولينا- أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسه هي قتلها. وحتى في تلك المرحلة، ربما أُصيب بالذعر وكانت لديه أفكار أخرى. كان هناك ماء على الأرض وعلى الأريكة. بعد أن خنقها، ربما يكون قد رش الماء على وجهها لمحاولة إنعاشها، عندما لم يفلح ذلك، كان عليه أن يتعامل مع وجهها المبلل، لذلك جرها على الأرض ودفع رأسها في الحوض ليجعل الأمر يبدو وكأنه طقوس غريبة أو شاذة؛ بمعنى آخر، لجذب الانتباه بعيدًا عما حدث بالفعل. كان للرأس في حوض الماء أهمية ثانوية أيضًا. لقد رفضته. الآن يمكنه أن يحط من قدرها. كما هو الحال في العديد من القضايا الأخرى، كلما زاد ما يفعله الجاني في مكان الحادث، حتى لو كانت محاولة لخداع الشرطة، زادت الأدلة والأدلة السلوكية التي يقدمها لك للعمل معها.

هذا الرجل في منتصف العشرينيات من عمره، قلت، وهذا ليس من عمل شخص لديه خبرة في القتل. كان موقع الجريمة سيئًا، ويظهر أنه لم يحاول القيام بذلك من قبل.

ومع ذلك، فهو يتمتع بشخصية متفجرة وعدوانية، لذا كان من الممكن أن يرتكب جرائم أقل. إذا كان قد تزوج في أي وقت مضى، فقد انفصل أو طلق مؤخرًا أو يعاني من مشكلات زوجية. مثل الكثير من هؤلاء الرجال، هذا الشخص فاشل حقيقي مع صورة ذاتية سيئة. قد يبدو واثقًا من نفسه، لكنه في أعماقه يشعر بالقصور الشديد.

يتمتع بذكاء متوسط ومعدل ذكاء عادي، ولم يذهب إلى أبعد من المدرسة الثانوية، واستخدامه للأسلاك لربطها يوحي بالتدريب في المتجر أو إحدى الحرف المهنية. بمجرد بدء التحقيق، ستجده يغير مسكنه و/أو وظيفته، وبمجرد أن تهدأ الضجة حول الأمر ولن يثير تحركه أي شك، حينها قد يغادر المدينة، كما أنه قد يتحول بشدة إلى المخدرات أو الكحول أو السجائر لتخفيف توتره. في الواقع، قد يكون للكحول دور ما في الجريمة نفسها. كانت هذه خطوة جريئة لهذا الرجل بالذات. ربما كان يشرب من قبل، وهو ما كان سيقلل من تثبيطه، على الرغم من أنه لن يكون في حالة سُكر، لأنه حينها لم يكن ليقوم بالكثير في موقع الجريمة بعد ارتكاب جريمته.

سيواجه صعوبة في النوم، كما ستواجهه مشكلات في حياته الجنسية، وسيصبح شخصًا ليليًّا أكثر. إذا كان لديه وظيفة منتظمة، لكان قد فاته الكثير من العمل مع بدء التحقيق. سيغير مظهره أيضًا. لو كانت له لحية وشعر طويل وقت ارتكابه جريمة القتل فسوف يحلقهما. أما إذا كان حليق الذقن، فإنه سيطيل لحيته. أنت لا تبحث عن شخص من النمط المواكب للموضة، على الرغم من ذلك. إنه خسيس ونذل بطبيعته، وأي محاولة منه لإبقاء نفسه منظمًا ستكون مظهرًا واضحًا للسيطرة المفرطة، وسيجد هذا الجهد مرهقًا جسديًّا وعقليًّا.

بالنسبة إلى السيارات، في هذه الحالة أستعيد مقولتي القديمة ذاتها عن تفضيل القتلة سيارة فولكسفاجن-بيتل. ستكون قديمة ولا تتم صيانتها بشكل جيد؛ لونها أحمر أو برتقالي.

إنه شخص سيتابع تحقيقات الشرطة من كثب في وسائل الإعلام، وسيأخذ أدلته منهم، فإذا أعلن رئيس الشرطة بشكل علني عن أنه لم يكن هناك أدلة جديدة، فسيمنحه ذلك آلية للتأقلم مع الأمر. كان من الممكن أن يجتاز اختبار جهاز كشف الكذب بسهولة؛ والكثير من القتلة يفعلون. يجب أن يكون هدف المرحلة التالية من التحقيق هو البدء في زعزعته.

يمكن أن يكون هناك الكثير من الضغوطات. كل عام في يونيو يمكن أن يصبح أكثر توترًا. يمكن أن يحدث نفس الشيء في عيد ميلاد كارلا. ربما توجه لزيارة قبر كارلا في مقبرة كالفاري هيل. ربما أرسل الزهور أو طلب منها المغفرة مباشرة.

لذا فإن الشيء التالي الذي عليكم فعله، كما قلت، هو الإعلان عن دليل جديد وواعد، وهو أمر يبدو أنه سيعيد القضية إلى الواجهة. الإعلان عن هذا بشكل مستمر والدعاية له. اجعلوا «عامل إثارة الانزعاج» مكثفًا قدر الإمكان. اذكروا أنكم قدمتم ملف تعريف من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى القضية وأن ما يحويه يتناسب تمامًا مع الأدلة الجديدة التي توصلتم إليها.

في تلك المرحلة أخبروني عن توصية الدكتور ليفين بإخراج الجثة وأرادوا معرفة رأيي فيها. أخبرتهم أنها كانت فكرة رائعة، وكلما زاد الهرج الشعبي حولها، كان ذلك أفضل. يجب أن يظهر ويبر على شاشة التلفزيون مسبقًا ويعلن أنه إذا كان الجسد لا يزال في حالة جيدة وأظهر الفحص الجديد الأدلة التي يتوقعونها، فسيكونون على وشك حل قضية القتل. بمعنى، ما سينقلونه إلى القاتل هو أنهم كانوا «يعيدون بعث» كارلا، ويعيدونها من القبر، لتشهد على قاتلها.

سيضع إخراج الجثة ضغوطًا هائلةً عليه. أريد أن يعلن ويبر علنًا أنه إذا استغرق الأمر عشرين عامًا أخرى، فإنه سيحل هذه القضية. سوف يكون الجاني الخاص بك مهتمًا وفضوليًا. سوف يطرح الكثير من الأسئلة، حتى إنه قد يتصل بالشرطة مباشرة! تأكدوا من قيامكم بتسجيل شريط فيديو أو تصوير كل من يظهر في المقبرة، فقد يكون هناك. سيكون في حالة من التشويق لمعرفة ما أصبح عليه شكل الجسم. وعندما تعلن أخيرًا مدى سعادتك بحالته، فإن ذلك سيدفعه إلى الحافة.

في الوقت نفسه، سيصبح أكثر عزلة، وسيعزل نفسه عن أي أصدقاء لديه. سيكون هذا هو الوقت المناسب لبدء الاستماع إلى الأشخاص في الحانات والأماكن من هذا القبيل لمعرفة ما إذا كان أي من الأشخاص المنتظمين قد بدأت تظهر عليه أعراض تغيرات ملحوظة في السلوك. ربما انضم مؤخرًا إلى كنيسة أو اعتنق الدين كوسيلة للتكيف. وبينما تضعون كل هذا الضغط عليه، يجب أن يكون هناك تعليق في الصحيفة من أحد رجال الشرطة -قد يكون مني أيضًا- يبدو تعاطفيًا إلى حد ما. يجب أن نقول إننا نعرف ما يمر به، وأنه

لم يكن ينوي قتلها وأنه كان يرزح تحت هذا الثقل الهائل على كتفيه طوال هذه السنوات.

ذهبت إلى الخطوط العريضة لإستراتيجية استجواب مماثلة لما نجح في قضية ستونر. الشيء المهم هو أنه بمجرد التعرف على المشتبه به، لا ينبغي القبض عليه على الفور، بل تركه في حالة من القلق والاهتياج لمدة أسبوع أو نحو ذلك، ثم تريدون حمله على الاعتراف قبل إلقاء القبض عليه. كلما زاد عدد الحقائق التي لديكم، زادت الأشياء التي يمكنكم قولها، مثل: «نعلم أنك حملتها من هنا إلى هناك» أو «نحن نعلم بشأن المياه»، ستكون هذه هي اللقطة الأفضل لكم. سيكون من الجيد وجود شيء كان له دور مادي في القتل (مثل الصخرة في قضية ستونر) في الغرفة. بعد سماع انطباعاتي، بدا أن زواري الخمسة يأخذون ما قلته على محمل الجد. سألوا كيف يمكنني سرد كل ذلك فقط من خلال الاستماع إلى التفاصيل الروتينية للقضية والنظر إلى الصور. لست متأكدًا من قدرتي على الإجابة عن ذلك، على الرغم من أن آن بيرجس أشارت إلى أنني شخص أركز على «الرؤية» وأحب العمل أولًا من خلال ما يمكنني رؤيته. وهي تقول، وقد تكون محقة، أن لدي نزعة في المشاورات لقول «أرى» بدلًا من «أعتقد». ربما يتعلق جزء منه بعدم القدرة على الوجود في المشهد معظم الوقت، لذلك يتعين عليَّ إعادة إنشاء البيئة داخل رأسي. في كثير من الأحيان، عندما تتصل بي الشرطة مرة أخرى بعد عدة سنوات من تحليل قضية لهم، يمكنني تذكرها وما قلته عن المشتبه به مجهول الهوية من وصفهم لموقع الجريمة فقط.

قال المحققون من إلينوي إنه من خلال ما قلته لهم، فإن هناك اثنين ممن أجريت معهم المقابلات يبدوان كمشتبهين محتملين بقوة؛ بول ماين وصديقه جون برانت.

كان كلاهما في المنزل المجاور في ذلك اليوم، وكان أحدهما على الأقل، برانت، يشرب البيرة. لم تكن قصصهما متطابقة تمامًا بعضها مع بعض، وهو ما يمكن أن يكون نتيجة لذكائهما المنخفض وشربهما، أو يمكن أن يعني أن أحدهما أو كليهما كان يكذب. كان أداء برانت أفضل من أداء ماين في اختبار جهاز كشف الكذب، لكن كليهما يتناسب مع الملف التعريفي جيدًا. في الواقع، كان برانت مناسبًا بشكل أفضل من بعض النواحي. لقد كان أكثر

تعاونًا مع الشرطة، وبعد أن خفت حرارة الوضع، غادر المدينة كما توقعت من القاتل أن يفعل، ليعود لاحقًا.

قلت إن الحملة التي لخصت أفكارها الرئيسية يمكن أن تُستخدم ضد كليهما. في الواقع، نظرًا لأنني اعتقدت أن أيًا من فعل ذلك لا بد أنه يشعر بالذنب والندم المؤقتين، فقد يتضمن القليل من الذوق الإضافي جعل امرأة تؤدي دور كارلا وتنادي كل واحد منهم في منتصف الليل، وهي تسأل باكيةً: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟» يجب أن يتزامن هذا مع المقالات في الصحيفة حول ما كانت عليه *الفتاة الأمريكية بالكامل*، ومدى مأسوية أنها تعرضت للقتل في أوج حياتها. لطالما كنت أفضل استخدام اللمسة المسرحية.

بمجرد استمرار الحملة لمدة أسبوع أو عشرة أيام، ستتمكن الشرطة من معرفة ما إذا كان رد فعل ماين أو برانت هو ما الذي قلت إن القاتل سيفعله. إذا كان أحدهما كذلك، فإن الخطوة التالية ستكون استخدام المخبرين -الأصدقاء والمعارف وزملاء العمل- لمحاولة استخلاص تعليقات أو اعتراف منه.

تمت معالجة عملية استخراج الجثة في 1 يونيو 1982 بالطريقة التي كنت آمل أن تكون عليها، مع وجود لويل ليفين في مكان الحادث، والكثير من التغطية التلفزيونية والصحفية، وتصريحات ويبر الرسمية والمتفائلة. اكتشفت أنه في المدن الصغيرة، يكون الحصول على نوع التعاون الذي تحتاج إليه من الصحفيين أسهل كثيرًا مما هو عليه الحال في المدن الكبرى، حيث يكونون أكثر استعدادًا للشعور بأنك تحاول التلاعب بهم أو إخبارهم بما يجب عليهم أن ينشروه. أرى الأمر أكثر على أنه جهد تعاوني بين الصحافة وإنفاذ القانون ولا ينبغي أن يضر بنزاهة أي طرف منهما.

لم يسبق لي قط أن طلبت من مراسل صحيفة أو تلفزيون الكذب أو تقديم قصة زائفة أو غير مكتملة، لكن في مناسبات عديدة، قدمت المعلومات التي كنت في حاجة لأن يقرأها مشتبه به مجهول الهوية ويتفاعل معها. عندما يتعاون المراسلون معي، فإني أتعاون معهم. وفي حالات معينة، عندما يكونون متعاونين بشكل خاص، فإنني أمنحهم أخبارًا حصرية عندما يمكن أخيرًا سرد تفاصيل القصة.

لحسن الحظ، كان جسد كارلا في حالة جيدة بشكل مذهل. أجرت تشريح الجثة الجديد الدكتورة ماري كيس، مساعدة الطبيب الشرعي لمدينة سانت لويس. على عكس ما حدث في تشريح الجثة الأولى، قررت الدكتورة كيس أن

سبب الوفاة هو الغرق. كما عثرت على كسر في الجمجمة. الأهم من ذلك، أنهم حصلوا على دليل علامات العض الذي يحتاجون إليه.

استمرت الحملة الدعائية المنظمة بشكل جدي. أجرى توم أوكونور من شرطة الولاية ووابن واتسون من وحدة الاحتيال والتزوير المالي مقابلة مع ماين في منزله، ظاهريًا حول مدفوعات المساعدات العامة التي كان يتلقاها والتي كان ربما غير مؤهل لها. قاداه إلى مناقشة مقتل كارلا براون. في حين أنه لم يعترف، ونفى أي تورط في الجريمة، إلا أنه كان بالتأكيد يتابع الدعاية من كثب ولديه بعض المعلومات الداخلية. على سبيل المثال، ذكر واتسون أن ماين قد ترك أكتون آفينيو في قائمة عناوينه السابقة. قال إنه كان يحاول النسيان بسبب الذكريات السيئة لرجال الشرطة الذين يضايقونه بشأن الفتاة المجاورة التي قُتِلت هناك.

قال واتسون: «هذه التي أُصيبت بالرصاص وخُنقت وغرقت في برميل سعة خمسين جالونًا».

«لا، لا! لم يتم إطلاق النار عليها، لم تتعرض لإطلاق النار!» رد ماين بشكل قاطع. في وقت قريب من استخراج الجثة، ذهب رجل يُدعى مارتن هيجدون إلى شرطة وود ريفر وقال إنه ارتاد المدرسة الثانوية مع كارلا براون وأن كل الدعاية الحالية أدت إلى مناقشات في العمل. كان يعتقد أن على الشرطة أن تعلم أن امرأة كان يعمل معها ادعت أنه خلال وجودها في حفلة بعد وقت قصير من جريمة القتل، زعم رجل أنه كان في منزل كارلا في اليوم الذي قُتِلت فيه.

أجرى أوكونور وريك وايت مقابلة مع المرأة التي كان اسمها فيكي وايت (لا صلة قرابة). وقد أكدت القصة، قائلة إنها وزوجها، مارك، كانا في حفلة في منزل سبنسر وروكسان بوند، حيث تحدثت إلى رجل كانت تعرفه في كلية لويس وكلارك المجتمعية. قال الرجل إنه كان في منزل كارلا يوم الجريمة، وذكر مكان العثور عليها وأنها تعرضت للعض على كتفها. كان سيضطر لمغادرة المدينة لأنه يعتقد أنه سيُعَد المشتبه به الرئيسي. في ذلك الوقت، كانت تستبعد هذا على أنه كلام فارغ.

كان اسمه جون برانت.

كيف يمكن أن يعرف عن آثار العضة بعد وقت قصير من القتل فيما لم تعرف الشرطة عنها إلا بعد عامين؟ سأل أوكونور ووايت بعضهما بعضًا.

ثم أجريا مقابلة مع مضيف الحفلة، سبنسر بوند، الذي تذكر نفس ما قالته فيكي ومارك وايت. ذكر بوند أيضًا أن ماين قد قدم له تفاصيل حول كيفية العثور على كارلا. كان السؤال هو ما إذا كان ماين قد حصل على المعلومات من برانت، أو العكس. على الرغم من أن برانت كان يعمل بشكل أفضل في اختبار جهاز كشف الكذب، فإن ويبر والقائد لم يعتقدا أن ماين كان جريئًا بما يكفي لارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنه كان ذكيًا بما يكفي ليحرك برانت.

كان بوند قد رأى برانت مؤخرًا، كان يقود سيارته الصغيرة القديمة الحمراء من طراز فولكس فاجن-ميني باص. على الرغم من أنني أصبت في اللون، فإنني أخطأت في الموديل. لكن هذا في حد ذاته كان مهمًا. في هذا الوقت تقريبًا، بدأنا نشهد تحولًا في تفضيل المركبات إلى الشاحنات الصغيرة. استخدم بيتاكر ونوريس واحدة. كما استخدم ستيفن بينيل واحدة أيضًا. على عكس السيارة، يمكنك في الجزء الخلفي من الشاحنة أن تفعل ما تريد ولا يمكن رؤيتك. لديك في الواقع موقع قتل متنقل.

لم أتفاجأ عندما سمعت أن جون برانت قد أطلق لحيته منذ جريمة القتل. وافق بوند على ارتداء سلك في أثناء حديثه إلى برانت حول القضية، بينما لم يعترف برانت بالقتل، إلا أنه كشف عن مدى توافقه مع الملف التعريفي. درس اللّحام في لويس وكلارك. غادر المدينة بعد القتل. كان مطلقًا وكانت لديه مشكلة مع النساء، وكان فضوليًا للغاية بشأن التحقيق.

الخميس 3 يونيو، حصل مكتب ويبر على أمر محكمة يجبر برانت على تقديم عينة من نموذج الأسنان في اليوم التالي. أخبره الرئيس دون جرير أنهم كانوا يحاولون ربط الأطراف، وإذا لم يكن متطابقًا، فسوف يستبعدونه كمشتبه به.

بعد مغادرة عيادة طبيب الأسنان، اتصل برانت بويبر، تمامًا كما توقعت. أراد أن يعرف ما يجري في التحقيق. كان لدى ويبر عقل حصيف لجعل مساعده كيث جنسن على الخط في نفس الوقت، فقط للتأكد من أن ويبر لن يتم إقصاؤه لاحقًا من القضية كشاهد محتمل. في حديثه مع ويبر، ناقض برانت قصته السابقة حول الوقت الذي كان فيه في منزل بول ماين. كما توقعت، بدا متعاونًا. حصلت الشرطة على مزيد من المعلومات من تبادل سلكي ثانٍ بين بوند وبرانت، ثم المزيد من محادثة مسجلة بين بوند وماين. أخبر برانت بوند أنه كان يستهلك عدة علب سجائر في اليوم. ذهب ماين أبعد

من ذلك ليقترح أن كارلا ربما تكون قد أزعجت برانت عبر رفض محاولاته الجنسية. أدى ذلك إلى مقابلة أخرى مع ماين، ذكر فيها أنه يعتقد أن برانت كان مسؤولًا عن جريمة القتل، على الرغم من أنه تراجع عن ذلك بعد محادثة خاصة مع برانت.

في يوم الثلاثاء التالي، سافر ويبر وراشنغ وجرير إلى لونج آيلاند لرؤية دكتور ليفين. أعطوه صور تشريح الجثة الجديدة وثلاث مجموعات من طبعات الأسنان؛ ماين، وتلك الخاصة بمشتبه آخر منذ فترة طويلة، ثم تلك الخاصة ببرانت. قام ليفين باستبعاد الأولين على الفور. لم يستطع أن يجزم بيقين علمي أن أسنان برانت فقط من العالم كله هي التي يمكن أن تتطابق، لكنها كانت كذلك، وبشكل كامل.

ألقي القبض على بول ماين ووُجهت إليه تهمة عرقلة سير العدالة. اتُّهم برانت بالقتل والسطو بنية ارتكاب اغتصاب. ذهب للمحاكمة في يونيو من عام 1983. وفي يوليو، أُدين وحُكم عليه بالسجن خمسة وسبعين عامًا.

استغرق الأمر أربع سنوات، ولكن من خلال الجهود المشتركة للعديد من الأشخاص المخلصين والمتفانين، تم أخيرًا تقديم القاتل إلى العدالة. شعرت بالسرور والامتنان بشكل خاص لتلقي نسخة من رسالة أرسلها مساعد المدعي العام لوزارة الخارجية كيث جنسن إلى مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي ويليام ويبستر. كتب فيها: «يشعر المجتمع أخيرًا بالأمان، وتشعر الأسرة أن العدالة قد تحققت، ولا يمكن أن يحدث أي شيء دون جون دوجلاس. ومع أنه رجل مشغول للغاية، أشعر أن جهوده لا ينبغي أن تمر مرور الكرام. أتقدم بخالص شكري وأتمنى أن يكون هناك أكثر من جون دوجلاس واحد متاحًا بالكفاءة والإمكانية والقدرة على المساعدة كما فعل».

كانت هذه كلمات لطيفة بالفعل. لحسن الحظ، على الرغم من ذلك، في يناير الماضي، تمكنت من تقديم قضيتي إلى جيم ماكنزي، مساعد مدير الأكاديمية، بأننا كنا بحاجة إلى «أكثر من جون دوجلاس واحد». بدوره، تمكن من إقناع المقر الرئيسي، على الرغم من أن ذلك يعني سرقة أشخاص من برامج أخرى. هكذا حصلت على بيل هاجماير، وجيم هورن، وبلين ماكلوين، ورون والكر في الجولة الأولى، ثم جيم رايت وجود راي في الجولة الثانية. وكما أسلفت قبل قليل، فقد قدموا جميعًا مساهمات قيمة.

على الرغم من الجهود التي يبذلها الجميع، فإن بعض القضايا، مثل قضية كارلا براون، تستغرق سنوات حتى يتم إغلاقها. يمكن حل مشكلات أخرى معقدة في غضون أيام أو أسابيع إذا ما سار كل شيء بشكل صحيح.

عندما تم اغتصاب وقتل كاتبة اختزال تُدعى دونا لين فيتر في أحد المكاتب الميدانية الجنوبية الغربية لـ إف بي آي في شقتها في الطابق الأرضي، تلقى روي هازلوود وجيم رايت أمرًا واضحًا من مكتب المدير: اذهبوا إلى هناك فورًا وتولوا حل هذه القضية. بحلول ذلك الوقت، كنا قد قسمنا البلاد إلى مناطق. وقد سقط هذا في أراضي جيم.

كان يجب أن تكون الرسالة مسموعة وواضحة: لن يفلت أحد بجريمة قتل أفراد من إف بي آي، وسنفعل كل ما يتعين علينا فعله. في الثانية بعد ظهر اليوم التالي، حملت مروحية فريق إنقاذ الرهائن التابعين لـ إف بي آي العميلين وحقائبهما التي حُزمت على عجل من كوانتيكو إلى قاعدة أندروز الجوية في ماريلاند، حيث استقلوا طائرة تابعة للمكتب. عند الهبوط، توجها على الفور إلى موقع الجريمة، والذي أبقته الشرطة المحلية على حاله من أجلهما.

كانت فيتر امرأة بيضاء تبلغ من العمر 22 عامًا نشأت في مزرعة، وعلى الرغم من أنها عملت في المكتب لأكثر من عامين، فقد انتقلت إلى المدينة قبل ثمانية أشهر فقط. نظرًا لسذاجتها في التعامل مع مخاطر الحياة الحضرية، استأجرت شقة في منطقة صناعية يغلب عليها السود وذوو الأصول الإسبانية. كانت المديرة المقيمة حريصة على الاعتبارات الأمنية. كانت قد ركَّبت مصباحًا أبيض -بدلًا من المصباح الأصفر العادي- فوق باب كل شقة حيث تعيش مستأجرة واحدة، بحيث يولي موظفوها وحراس الأمن اهتمامًا خاصًا. لم يعلَن هذا النظام على نطاق شعبي. ولكن على الرغم من كل النيات الحسنة، فإن الشفرة كانت ستصبح شفافة بسرعة حتى لأكثر المتلصصين بشكل عابر.

استُدعيت الشرطة بعد الساعة الحادية عشرة ليلًا بقليل. عندما لاحظ أحد السكان الآخرين أن حاجز نافذة الشقة قد تم اقتلاعه واستدعى حارس أمن المجمع. وكان جسد الضحية العاري، الذي تعرض للضرب على الوجه وعدة طعنات، مغطى بالدماء. وأظهر تشريح الجثة أنها تعرضت للاغتصاب.

دخل المهاجم مقتحمًا من النافذة الأمامية، وطرق أصيص نبات كبير في طريقه إلى الداخل. وكان سلك الهاتف غير موصول بالحائط. كانت بقع الدم

الكبيرة المريعة على سجادة غرفة الطعام وأرضية المطبخ، حيث يبدو أن الهجوم الرئيسي قد وقع. كانت إحدى اللطخات حيث كان الجسد ممددًا بدت بشكل مخيف مثل ملاك بالحجم الطبيعي، فاردًا جناحيه كما لو كان في حالة طيران. وتشير آثار الدم إلى أنه تم سحب الضحية بعد ذلك إلى غرفة المعيشة. من الجروح الدفاعية على الجسد، يبدو أنها حاولت الوصول لسكين المطبخ، لكنه أمسك بها قبل أن تصل إليها.

عثر فريق الطوارئ الطبي على ملابس فيتر الملطخة بالدماء على حافة أرضية المطبخ بالقرب من الخزائن.

تم لف سروالها القصير وسراويلها الداخلية، مما يشير إلى أن المهاجم قد نزعها بينما كانت مستلقية على الأرض. عندما وصلت الشرطة إلى مكان الحادث، كانت الأنوار في الشقة مطفأة، وتكهنوا بأن الجاني ربما أوقفهم لتأخير اكتشافهم بعد مغادرته.

حسب ما عرفوه من زملاء العمل والأسرة والجيران، كانت الشابة خجولة وصادقة وتقية. لقد نشأت في بيئة دينية صارمة وراسخة، وأخذت دينها على محمل الجد. لم تكن ساحرة بأي شكل من الأشكال ويبدو أنها كانت تتمتع بحياة اجتماعية محدودة، إن وُجدت، سواء مع الرجال أو زملائها في العمل، الذين وصفوها بأنها واعية وتعمل بجد ولكنها «مختلفة». ربما كان لهذا علاقة كبيرة بافتقارها إلى الحنكة والتربية المحمية. لم يقترح أحد أي نوع من السلوك غير المشروع أو التسكع من «النوع الخطأ». لم يكن هناك مخدرات أو كحول أو سجائر أو حبوب منع الحمل في شقتها. كان والداها مقتنعين تمامًا بعفتها وقالا إنهما يعتقدان أنها ستفعل أي شيء لحماية عفتها والدفاع عنها.

بعد دراسة المشهد، هذا ما خلص روي وجيم إليه بشأن ما حدث؛ بينما كان الدم منتشرًا في كل مكان، أثارت بقعة دم واحدة اهتمامهما الخاص. كانت خارج باب الحمام مباشرة. داخل الحمام، لاحظوا وجود بول ولكن لا توجد أنسجة في المرحاض الذي لم يُغسل بالماء.

أعطاهم ذلك إحساسًا فوريًا بما حدث بين المتسلل والضحية. لا بد أنها كانت في الحمام عندما سمعت صوت اقتحام. نهضت دون أن تأخذ الوقت الكافي لتدفق الماء وخرجت لترى ما يحدث. بمجرد أن مرت عبر باب الحمام، ضربها بقوة في وجهها، محاولًا تحييدها. وجد جيم وروي سلاح الجريمة، سكين مطبخ، مخبأ تحت وسادة مقعد في غرفة المعيشة.

سلاح الجريمة نفسه أخبرهم بشيء؛ أن المشتبه به مجهول الهوية لم يقتحم الشقة بنية القتل المسبقة.

وحقيقة أنه لم يتم أخذ أي شيء ذي قيمة تشير إلى أنه جاء بنيات أخرى غير السطو. تشير الأدلة إلى أنه كان هناك للاغتصاب. لو كان هناك لقتلها، بدلًا من قضاء الوقت معها، لما كان هناك سبب لفصل سلك الهاتف. أما سهولة الوصول إلى الشقة، سهولة الضحية، ومهاجمته لها قبل أن يقول لها كلمة واحدة، فتشير كلها إلى نمط شخص غاضب مفتول العضلات مع ذكاء منخفض وليس لديه مهارات اجتماعية أو ثقة في قدرته على التحكم في شخص آخر من خلال الكلمات. ما لم يسيطر تمامًا على ضحيته، التي لا تشكل تهديدًا منذ البداية، فقد كان يعلم أنه لن ينجح في تحقيق هدفه. ما لم يخشَ أمره هو مدى شراسة هذه المرأة الهادئة الخجولة كي تقاوم. كل شيء في خلفيتها أخبر المحللين أن هذا هو بالضبط ما ستفعله للدفاع عن شرفها. لكن المهاجم لم يكن ليعرف. كلما قاومتْه، زاد خطر فقدانه السيطرة عليها، وبالتالي زاد غضبه. مع قضية كارلا براون، اغتصاب آخر تحول إلى جريمة قتل، شعرت أن غضب المهاجم كان ثانويًا لحاجته إلى «معالجة» الفوضى التي أحدثها. في حادثة القتل هذه، بدا الأمر كما لو أن الغضب والحاجة إلى التعامل مع الضحية لهما نفس الأهمية. كان الغضب في هذه الحالة مستدامًا وليس مؤقتًا. أظهرت علامات الجرِّ أنه بعد أن هاجمها في المطبخ، جرها إلى غرفة أخرى حيث اغتصبها، بينما كانت تنزف وتموت.

بدأ روي وجيم في إعداد ملفهما التعريفي في الليلة نفسها التي وصلا فيها. كانا يبحثان عن رجل يتراوح عمره بين العشرين والسابعة والعشرين. عادةً، في جريمة قتل بدافع الجنس أو الشهوة، إذا كانت الضحية بيضاء، فستتوقع أن يكون الجاني أبيض أيضًا، لكن العملاء اعتقدوا اعتقادًا راسخًا أن هذا بدأ على أساس الاغتصاب، ولذلك تم تطبيق «قواعد» جريمة الاغتصاب. كان هذا مجمعًا سكنيًا يسكنه في الغالب السود وذوو الأصول الإسبانية، مع ارتفاع نسبة حدوث اغتصاب النساء البيض من قبل رجال سود، لذلك كانت هناك فرصة قوية جدًا لأن يكون القاتل على الأرجح أسود البشرة.

لم يعتقدوا أن المشتبه به مجهول الهوية سيكون متزوجًا، لكن كان من الممكن أن يعيش في علاقة تبعية مالية أو علاقة استغلالية مع شخص ما، فأي امرأة ستكون على علاقة به ستكون أصغر سنًا، وأقل خبرة، ويسهل

التأثير عليها بطريقة ما. لن يتورط مع أي شخص يجده يمثل تحديًا، أو مخيفًا بأي شكل من الأشكال. في حين أنه سيكون ذا ذكاء منخفض إلى حد ما ولديه سجل غير لافت في المدرسة (حيث من المحتمل أن يكون قد عانى من مشكلات سلوكية)، إلا أنه سيكون حكيمًا وقادرًا على الاعتناء بنفسه في قتال. كان يريد أن يبدو رجوليًّا وقويًّا لمن حوله، وسيرتدي أفضل الملابس التي يمكنه شراءها، كما أنه سيكون رياضيًّا ويحاول البقاء في حالة بدنية جيدة.

كان يعيش على مسافة قريبة من مكان الحادث، في وحدة إيجارية منخفضة الدخل. كان يشغل وظيفة وضيعة وسيكون في صراع متكرر مع زملاء العمل أو رؤسائه. بسبب مزاجه المتعكر، لم يكن ليكون في الجيش، أو لو كان كذلك، فإنه سيتعرض للتسريح. لم يعتقد العملاء أنه ارتكب جريمة قتل من قبل، لكن سبق له ارتكاب جرائم سرقة واعتداء. يعتقد روي هازلوود (أحد الخبراء البارزين في قضايا الاغتصاب والجرائم ضد المرأة) أن لديه تاريخًا سابقًا في جرائم الاغتصاب أو الاعتداء الجنسي.

لقد توقعوا سلوكه بعد الجريمة، والذي يعكس من نواحٍ كثيرة سلوك قاتل كارلا براون، بما في ذلك التغيب عن العمل، والإفراط في الشرب، وفقدان الوزن، والتغيير في المظهر. والأهم من ذلك أنهم شعروا أن هذا النوع من الأفراد سيذكر جريمته أو يثق بأحد أفراد الأسرة أو المقربين. وقد يكون هذا هو المفتاح لإستراتيجية استباقية للقبض عليه.

مع علمهما أن المشتبه به مجهول الهوية سوف يتابع الأخبار، فقد قرر روي وجيم نشر ملفهما التعريفي، والتقدم لإجراء مقابلات مع الصحافة المحلية. كانت التفاصيل المهمة الوحيدة التي حجباها هي العامل العنصري. ففي حال كانا مخطئين، فإنهما لا يريدان أن يضللا التحقيق ويوجها الأدلة المحتملة بشكل خاطئ.

ولكن ما قاما بنشره على الملأ، قدر الإمكان، هو اعتقادهما أنه أيًّا يكن الشخص الذي تحدث إليه المشتبه به مجهول الهوية بشأن حادثة القتل فإنه سيكون الآن في خطر جسيم هو نفسه -أو هي نفسها- الآن بعد أن بات -أو باتت- على علم بهذه المعلومات التي تدين صاحبها. إذا كنت تعرف نفسك في هذا الموقف، مثلما ألحَّا في دعوتهما، يرجى الاتصال بالسلطات قبل فوات الأوان. في غضون أسبوعين ونصف، اتصل شريك الجاني في السرقة

المسلحة بالشرطة. تم القبض على المشتبه به، وبناءً على تطابق بين بصمات الأصابع التي عُثِرَ عليها في مسرح القتل، تم توجيه الاتهام له.

عندما راجعنا الملف التعريفي بعد ذلك، وجدنا أن جيم وروي كانا على صواب ودقيقين تمامًا. كان الجاني رجلًا أسود يبلغ من العمر 22 عامًا يعيش على بعد أربعة مبانٍ من مسرح الجريمة. كان أعزب ويعيش مع أخته ويعتمد عليها ماليًّا. في وقت القتل كان تحت المراقبة بتهمة الاغتصاب. حوكم وأُدين وحُكِم عليه بالإعدام. وقد نُفذ الإعدام قبل فترة قصيرة.

كنت غالبًا ما أقول لزملائي إننا يجب أن نكون مثل الحارس الوحيد (lone ranger)، ندخل المدينة، نساعد في تحقيق العدالة، ثم نخرج بهدوء مرة أخرى.

من هم هؤلاء الرجال المقنعون؟ تركوا هذه الرصاصة الفضية وراءهم.

هم؟ أوه، لقد كانوا من كوانتيكو.

في هذه القضية بالذات، انطلق جيم وروي خارجَين من المدينة بهدوء. تم نقلهما بسرعة في طائرة خاصة تابعة للمكتب. عندما انتهى عملهما، سافر كلاهما عائدًا إلى منزله في الدرجة السياحية، محشوران مع المسافرين السعداء إلى إجازاتهم والأطفال الصارخين في الجزء الخلفي في الدرجة التجارية. لكننا عرفنا ما فعلاه، وكذلك فعل متلقو «الرصاصة الفضية» التي تركاها خلفهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

15

إيذاء من نحب

بعد مراجعة ملفات القضية في مكتبه الذي بلا نوافذ في كوانتيكو ذات يوم، تلقى جريج مكراري مكالمة هاتفية من أحد أقسام الشرطة في منطقته. لقد كانت واحدة من تلك القضايا المؤلمة التي يبدو أنك تسمع عنها كثيرًا.

كانت أم شابة عزباء تغادر مجمع شقتها في الحديقة للذهاب للتسوق مع ابنها البالغ من العمر عامين. قبل أن تركب سيارتها، أُصيبت فجأة بتشنجات في المعدة، لذا استدارت، وعادت بسرعة من موقف السيارات، وذهبت إلى غرفة الاستراحة داخل الباب الخلفي للمبنى السكني. لقد كان حيًّا آمنًا وودودًا حيث يعرف الجميع بعضهم، وأعطت طفلها الصغير تعليمات صارمة بالبقاء داخل المبنى واللعب بهدوء حتى خرجت.

أنا متأكد من أنكم قد توقعتم ما حدث بعد ذلك. مرت نحو خمس وأربعين دقيقة قبل انتهائها من الحمام. خرجت ولم يكن الطفل في الصالة. لم تشعر بعد بالانزعاج، خرجت وتلفتت حولها، واكتشفت أنه قد ابتعد قليلًا، مع أن الطقس بارد.

لكنها بعد ذلك رأت شيئًا: إحدى القفازات الصوفية لصبيها الصغير، ملقاة على رصيف ساحة انتظار السيارات ولا وجود لأي أثر له. الآن بدأت تشعر بالذعر.

عادت مسرعة إلى شقتها واتصلت على الفور برقم 911. بشكل محموم، أخبرت عامل الطوارئ أن طفلها قد اختُطف. تصل الشرطة بسرعة وتمشط المنطقة بحثًا عن أدلة. بحلول هذا الوقت كانت الشابة في حالة هستيرية.

التقطت وسائل الإعلام الإخبارية القصة. وقفت أمام الميكروفونات تناشد من أخذ ابنها أن يعيده.

بكل التعاطف الذي لديهم، كما لدى الشرطة، أرادوا دراسة كل الاحتمالات، فجربوا بهدوء اختبار جهاز كشف الكذب، الذي اجتازته بنجاح. إنهم يعلمون الآن أنه في أي عملية اختطاف للأطفال، فإن الوقت جوهري، ولهذا استدعوا جريج.

استمع للسيناريو وإلى تسجيل مكالمة 911. هناك شيء لا يعجبه. ثم طرأ تطور جديد؛ تتلقى المرأة المعذَّبة طردًا صغيرًا بالبريد. لا يحتوي على عنوان إرجاع أو ملاحظة تواصل مرفقة، فقط القفاز المطابق لذلك الذي وجدته في ساحة الانتظار. تشعر المرأة أنها ممزقة.

لكن بات جريج الآن يعرف الوضع. أخبر الشرطة أن الصبي قد مات وأن والدته قتلته.

كيف علمت بذلك؟ تضغط عليه الشرطة. يخطف المنحرفون الأطفال دائمًا. فكيف تقدِّر أن هذه ليست واحدة من تلك الحالات؟

يبدأ جريج بالتوضيح. أولًا، كان هناك السيناريو نفسه. لا أحد يخاف أكثر من الأم من خطف طفل على يد منحرف. هل من المنطقي أن تترك ابنها دون رعاية لفترة طويلة؟ إذا كان عليها البقاء في الحمام لفترة طويلة، ألا يجدر بها أن تأخذه معها أو تقوم ببعض الترتيبات المؤقتة الأخرى؟ من المحتمل أن يكون الأمر كما زعمت، ولكن بعد ذلك تبدأ في تجميع العوامل.

على شريط 911، قالت بوضوح إن أحدهم «خطف» طفلها. كانت تجربة جريج تخبره أن الآباء سيفعلون أي شيء تقريبًا لإنكار مثل هذا الموقف المروع نفسيًّا. في خضم المشاعر الهستيرية، قد تتوقع أن تسمعها تقول إنه مفقود، أو أنه هرب، ولا تعرف أين هو، أو شيئًا من هذا القبيل. إن استخدام كلمة خطف في هذه المرحلة يشير إلى أنها تفكر بالفعل في السيناريو الذي سيتم اعتماده.

من المؤكد أن المناشدة المليئة بالدموع أمام وسائل الإعلام ليست تجريمًا في حد ذاتها، على الرغم من أن صورة سوزان سميث في ساوث كارولينا تطاردنا جميعًا من أجل العودة الآمنة لابنيها الصغيرين.

بشكل عام، هذا ما نفعله كآباء وأمهات في مواقف من نفس المستوى، لكن المشكلة هي أن هذا النوع من الاستعراض العام يميل إلى إضفاء الشرعية على القلة التي ليست كذلك.

لكن ما توَّج نظرية جريج كان عودة القفاز. في الأساس، يتم اختطاف الأطفال بدافع واحد من ثلاثة أسباب: يأخذهم الخاطفون من أجل كسب المال؛ يأخذهم المتحرشون بالأطفال من أجل الإشباع الجنسي؛ ويأخذهم أشخاص مثيرون للشفقة، وحيدون، وغير مستقرين يريدون بشدة طفلًا خاصًّا بهم. سيتعين على الخاطف التواصل مع العائلة، إما عن طريق الهاتف أو رسالة مكتوبة، لتحديد مطالبه. النوعان الآخران لا يبتغيان أي تواصل على الإطلاق مع العائلة. لمَ يرسل أي من الثلاثة مجرد تذكار لإعلام الأسرة بأن الطفل قد اختُطف؟ الأسرة تعرف ذلك بالفعل. إذا كان هناك دليل على شرعية الجريمة، فلا بد أن يكون مصحوبًا بمطلب؛ أما ما هو بخلاف ذلك، فلا معنى له.

كان ما توصل إليه جريج أن ما فعلته الأم كان تنظيم عملية اختطاف وفقًا لتصورها لما سيكون عليه الأمر الحقيقي. لسوء حظها، لم يكن لديها أي فكرة عن الديناميكيات الفعلية لهذا النوع من الجرائم، ولذلك فقد أفسدت الأمر.

من الواضح تمامًا أن لديها أسبابًا لما فعلته، وبالتالي يمكنها إقناع نفسها بأنها لم ترتكب أي خطأ. هذا هو السبب في أنها اجتازت اختبار جهاز كشف الكذب. لكن جريج لم يكن راضيًا عن ذلك. لقد أحضر خبيرًا متمرسًا في جهاز كشف الكذب في إف بي آي وأعاد اختبارها، واضعين في الحسبان هذه المرة أنها مشتبه بها. كانت النتائج هذه المرة مختلفة تمامًا. وبعد شيء من الاستجواب الموجَّه، اعترفت بقتل طفلها وقادت الشرطة إلى الجثة.

كان دافعها هو الدافع المشترك، الذي كان جريج يشك به طوال الوقت. كانت أمًّا شابة عزباء، تفتقد كل متعة أواخر سن المراهقة وأوائل العشرينيات لأنها كانت مثقلة بعبء هذا الطفل. قابلت رجلًا أراد توطيد علاقتهما وبدء عائلة جديدة خاصة بهما. لكنه صارحها بوضوح أنه لا يوجد مكان في حياتهما معًا لهذا الطفل.

المهم في هذا النوع من القضايا أنه لو عثرت الشرطة على الجثة دون الإبلاغ عن اختفاء الطفل، لكان جريج قد توصل إلى نفس النتيجة. عُثر على الطفل مدفونًا في الغابة مرتديًا بذلة الثلوج وملفوفًا في بطانية ثم مغطى بالكامل بكيس بلاستيكي سميك. لم يكن الخاطف أو المتحرش بالأطفال

ليهتم كثيرًا بجعله دافئًا و «مرتاحًا»، أو أن يحاول حماية الجسد من العوامل الجوية. في حين أن العديد من مشاهد القتل تظهر غضبًا واضحًا وطويل الأمد، وغالبًا ما تُظهر مواقع التخلص من الجثث الازدراء والعداء، فإن السمات المميزة لهذا الدفن كانت الحب والشعور بالذنب.

للجنس البشري تاريخ طويل في إيذاء من نحبهم أو من يفترض بنا أن نحبهم. في الواقع، خلال أول مقابلة تلفزيونية مع آلان بورجيس بعد أن أصبح رئيسًا لوحدة العلوم السلوكية، قال: «لقد تعرضنا للعنف لأجيال وأجيال، ويعود إلى أيام الكتاب المقدس حين *أطلق قابيل النار على هابيل*». ولحسن الحظ، يبدو أن المراسلين لم يلتقطوا إعادة تفسيره لأول سلاح جريمة قتل في العالم.

تضمنت إحدى القضايا المهمة في إنجلترا في القرن التاسع عشر ادعاءات عن العنف داخل الأسرة. في عام 1860، ذهب مفتش سكوتلاند يارد جوناثان ويتشر إلى بلدة فروم في سومرست بشأن قتل طفل يدعى فرانسيس كينت، من عائلة بارزة في المنطقة. كانت الشرطة المحلية مقتنعة بأن الطفل قد قُتل على يد الغجر، ولكن بعد التحقيق، كان ويتشر مقتنعًا بأن الجاني الفعلي هو كونستانس شقيقة فرانسيس البالغة من العمر ستة عشر عامًا. بسبب مكانة الأسرة وفكرة أن بإمكان فتاة مراهقة أن تقتل شقيقها الرضيع، تم نقض الدليل الذي تقدمت به المحكمة وتم تبرئة كونستانس من التهم التي وجهها إليها.

تعرض ويتشر لرد فعل شعبي ضخم ضده أجبره على الاستقالة من سكوتلاند يارد. لسنوات، عمل بمفرده ليثبت أنه كان على حق وأن هذه الشابة كانت قاتلة. في النهاية، جعله الإفلاس وضعف الصحة يتخلى عن سعيه وراء الحقيقة، قبل عام من اعتراف كونستانس كينت بالجريمة. حوكمت مرة أخرى وحُكم عليها بالسجن المؤبد.

بعد ثلاث سنوات، بنى ويلكي كولينز روايته البوليسية الرائدة *حجر القمر*- *The Moonstone* على قضية كينت.

إن مفتاح ارتكاب العديد من جرائم قتل الأحباء أو أفراد العائلة أو التعرض للقتل على أيديهم هو ترتيب الجريمة. يجب على أي شخص قريب من الضحية أن يفعل شيئًا لصرف الشك بعيدًا عنه أو عنها. من أوائل الأمثلة التي عملتُ

عليها مقتل ليندا هاني دوفر في كارترسفيل، جورجيا، في اليوم التالي لعيد الميلاد عام 1980.

على الرغم من انفصالهما هي وزوجها لاري، فإنهما بقيا يتعاملان بشكل ودي إلى الحد المعقول. كانت ليندا، 27 عامًا، طولها 5.2 أقدام ووزنها 120 باوندًا، تأتي بانتظام إلى المنزل الذي اعتادا مشاركته لتنظفه له. في الواقع، هذا ما كانت تفعله يوم الجمعة، 26 ديسمبر. في تلك الأثناء، أخذ لاري ابنهما الصغير ليوم واحد في الحديقة.

عندما عاد الاثنان من نزهة بعد الظهر، لم تعد ليندا موجودة. ولكن بدلًا من العثور على منزل نظيف ومرتب، اكتشف لاري أن غرفة النوم في حالة من الفوضى. تم سحب الملاءات والوسائد من السرير، وأدراج الخزانة نصف مفتوحة، الملابس متناثرة حولها، والبقع الحمراء التي تبدو وكأنها دماء على السجادة. يتصل لاري على الفور بالشرطة التي تصل سريعًا وتفتش المنزل من الداخل والخارج. وجدوا جثة ليندا ملفوفة في اللحاف من غرفة النوم، كان رأسها فقط مكشوفًا، في قبو تحت المنزل. في أثناء فك البطانية، لاحظوا أن قميصها وحمالة صدرها قد رُفعا فوق ثدييها، وبنطال الجينز حول ركبتيها، وأُنزل سروالها الداخلي إلى أسفل منطقة العانة. كانت هناك صدمة قوية في الرأس والوجه وطعنات متعددة، يعتقد الضباط أنها وقعت بعد رفع حمالة الصدر. ترى الشرطة أن سلاح الجريمة هو سكين أُخِذَ من درج مطبخ مفتوح، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه (ولن يفعلوا أبدًا). يشير موقع الجريمة إلى أنها تعرضت للاعتداء في البداية في غرفة نوم، ثم نُقل جسدها إلى الخارج وإلى القبو. تظهِر نقط الدم على فخذيها، أن القاتل قد نقلها ووضعها في مكانها.

لم يكن هناك شيء خاص في خلفية ليندا دوفر يجعلها ضحية عالية الخطورة. على الرغم من انفصالها عن لاري، فإنها لم تنخرط في أي علاقات أخرى. كانت عوامل الضغط غير الاعتيادية الوحيدة هي عطلة العام أو أي شيء أدى إلى تفكك زواجها.

بناءً على صور موقع الجريمة والمعلومات التي أرسلتها لي شرطة كارترسفيل، أخبرتهم أن المشتبه به مجهول الهوية سيكون أحد نوعين. من الوارد جدًّا أنه سيكون شابًّا عديم الخبرة، وحيدًا، قليل الكفاءة، كان يقطن في مكان قريب وقد تعثر، بشكل رئيسي، في جريمة الفرصة هذه. ذكرت

الشرطة، بعد أن قلت هذا، أنهم كانوا يواجهون مشكلات مع «بلطجي» في الحي، كان مصدر خوف العديد من السكان.

لكن للجريمة الكثير من عناصر ترتيب الموقع، مما جعلني أميل إلى النوع الثاني: شخص يعرف الضحية جيدًا، وبالتالي يريد صرف الانتباه عن نفسه. السبب الوحيد لشعور القاتل بالحاجة إلى إخفاء الجثة في المبنى هو ما نصنفه على أنه «سبب شخصي للقتل». كما بدت الصدمة في الوجه والرقبة شخصية للغاية.

أخبرتهم أنني شعرت أن المشتبه به مجهول الهوية كان ذكيًّا، لكنه لم يتجاوز التعليم الثانوي وكان يشغل وظيفة تتطلب قوة بدنية. سيكون لديه تاريخ من السلوك العدواني ومستوى إحباط منخفض. سيكون متقلب المزاج، غير قادر على تقبل الهزيمة، وربما كان مكتئبًا لسبب أو لآخر وقت القتل، على الأرجح بسبب مشكلات مالية.

كان لترتيب الجريمة منطقه الداخلي وعقلانيته. من قام بمعاملة ليندا بتلك الوحشية لم يرغب في ترك جسدها في العراء حيث قد يجده فرد آخر من العائلة، وبخاصة ابنها. لهذا السبب فقد استغرق وقتًا في لفها بالبطانية ونقلها إلى القبو. أراد أن يجعل هذا يبدو كجريمة جنسية -ومن ثم رفع حمالة الصدر وكشف المنطقة التناسلية- على الرغم من عدم وجود دليل على الاغتصاب أو الاعتداء الجنسي. كان يعتقد أنه يجب أن يفعل هذا، لكنه لا يزال يشعر بعدم الارتياح مع رؤية الشرطة لأعضائها التناسلية وثدييها العاريين، لذلك قام بتغطيتهما بالبطانية.

قلت إن الجاني سيكون متعاونًا للغاية وقلقًا في البداية، لكنه سيتحول إلى متعجرف وعدواني عند الطعن في حجة غيبته. قد يتضمن سلوكه بعد الجرميّ زيادة في شرب الكحوليات أو تعاطي المخدرات، أو ربما تحول إلى الدين. كان سيغير مظهره، وقد يغير عمله ويخرج من المنطقة. طلبت من الشرطة البحث عن انعكاس كامل في السلوك والشخصية.

قلت: «ما هو عليه اليوم لا يشبه ما كان عليه قبل القتل».

ما لم أكن أعرفه هو أنه في الوقت الذي طلبت فيه مني شرطة كارترزفيل الملف التعريفي، كانوا قد اتهموا بالفعل لاري بروس دوفر بقتل زوجته وأرادوا التأكد من أنهم على المسار الصحيح. لقد أثار هذا انتباهي لعدة أسباب. أولًا، كان لدي حالات أكثر نشاطًا مما يمكنني التعامل معها. لكن الأهم

من ذلك، وضع هذا المكتب في موقف يمكن أن يكون غير مريح. لحسن حظ جميع المعنيين، تبين أن الملف التعريفي مطابق تمامًا. كما أوضحت للمدير ومسؤول مكتب أتالانتا، إذا لم يكن ذلك دقيقًا، فقد يكون المحامي الماهر قادرًا على استدعائي كشاهد دفاع وإجباري على القول إن ملفي الشخصي «الخبير» يشير بعيدًا عن المدعى عليه في مناطق معينة. منذ تلك اللحظة، تعلمت دائمًا أن أسأل الشرطة عما إذا كان لديهم مشتبه به، على الرغم من أنني لا أريد أن أعرف هويته مقدمًا.

ولكن على الأقل تم تحقيق العدالة في هذه القضية. في 3 سبتمبر 1981، أُدين لاري بروس دوفر بقتل ليندا هاني دوفر وحُكِم عليه بالسجن المؤبد.

جاء الاختلاف في موضوع ترتيب موقع الجريمة المحلي مع مقتل إليزابيث جين وولسيفر، المعروفة باسم بيتي، في عام 1986.

بعد الساعة السابعة من صباح يوم السبت، 30 أغسطس، تم استدعاء الشرطة في ويلكس-بار بولاية بنسلفانيا إلى عنوان 75 شارع بيرش، حيث يقع منزل طبيب أسنان شهير وعائلته. عند الوصول بعد نحو خمس دقائق، التقى الضابطان ديل مينيك وأنتوني جورج بالدكتور إدوارد جلين وولسيفر البالغ من العمر 33 عامًا، والذي كان مستلقيًا على الأرض، وكان ضحية محاولة خنق وضربة في رأسه. كان شقيقه نيل معه. أوضح نيل أنه يقطن عبر الشارع، وقد استدعاه شقيقه فهرع إليه. أُصيب جلين بالذهول والارتباك وقال إن رقم نيل هو رقم الهاتف الوحيد الذي يمكن أن يتذكره. بمجرد وصول نيل إلى هنا، كان هو من اتصل بالشرطة.

قال الرجال إن زوجة جلين البالغة من العمر 32 عامًا، بيتي، وابنتهما البالغة من العمر خمس سنوات، دانييل، كانا في الطابق العلوي. كلما كان نيل يصعد ليطمئن عليهما، كان جلين يشعر بالإغماء أو يبدأ يئن مرة أخرى، لذلك لم يكن أي منهما في الطابق العلوي بعد. أخبر جلين نيل أنه كان يخشى وجود متسلل في المنزل.

فتش الضابطان مينيك وجورج المنزل. لم يعثرا على متسلل، لكنهما شاهدا بيتي ميتة في غرفة النوم الرئيسية. إنها على جانبها، مستلقية على الأرض بجانب السرير ورأسها نحو قدم السرير. من الكدمات على رقبتها، والرغوة الجافة حول فمها، وازرقاق وجهها المصاب بالكدمات، يتبين أنها

خُنقت باليدين. ملاءات السرير ملطخة بالدماء، لكن يبدو أن وجهها قد تم تنظيفه. إنها ترتدي ثوب النوم فقط، الذي تم رفعه حتى خصرها.

دانييل نائمة وسليمة في غرفة النوم المجاورة. عندما استيقظتْ، أخبرتْ الشرطة أنها لم تسمع أي شيء؛ لا أصوات اقتحام أو شجار أو أي حركة.

دون وصف المشهد في الطابق العلوي، عاد مينيك وجورج إلى أسفل وسألا الدكتور وولسيفر عما حدث. قال إنه استيقظ على ضجيج بدا وكأنه شخص يقتحم المنزل. أخذ مسدسه من الخزانة وذهب ليتفحص الوضع دون أن يوقظ بيتي.

عندما اقترب من باب غرفة النوم، رأى رجلًا ضخمًا أعلى الدرج. لم يبد أن الرجل قد اكتشفه، خلال نزوله للطابق السفلي، لكنه فقده بعد ذلك وبدأ يبحث في الطابق الأول عنه.

فجأة، تعرض للهجوم من الخلف بشيء مثل حبل أو رباط، لكنه تمكن من إسقاط بندقيته وإدخال يده قبل أن يضيق الخناق حول رقبته. تراجع جلين إلى الوراء، وضرب الرجل في الفخذ وجعله يفك قبضته. قبل أن يستدير جلين، تعرض للضرب في رأسه من الخلف وفقد الوعي. عندما استيقظ في وقت لاحق، اتصل بأخيه.

لا تبدو الإصابات الظاهرة للدكتور وولسيفر خطيرة للشرطة أو المسعفين الذين استدعوهم إلى مكان الحادث؛ كدمة في مؤخرة الرأس، وعلامات قرمزية على مؤخرة العنق، وخدوش صغيرة على الجانب الأيسر من الضلوع والصدر. لكنهم لا يريدون المجازفة، لذلك نقلوه إلى غرفة الطوارئ. لم يبد أنه في وضع سيئ للغاية بالنسبة إلى الطبيب هناك، لكنه أثبت بناءً على تقرير طبيب الأسنان أنه كان فاقدًا للوعي.

منذ البداية، شكَّت الشرطة في قصة وولسيفر. لم يكن من المنطقي أن يقتحم متسلل المنزل من نافذة الطابق الثاني في وضح النهار. في الخارج، وجدوا سلمًا قديمًا يؤدي إلى النافذة المفتوحة لغرفة النوم الخلفية التي يُزعَم أن المتسلل استخدمها كمدخل له. لكن السلم كان متهالكًا للغاية، ولا يبدو أنه يمكنه حمل وزن حتى شخص متوسط البنية. كان يتكئ على جانب المنزل مع درجاته في الاتجاه الخاطئ. لم يقم السلم بعمل أي فجوات في الأرضية الناعمة للإشارة إلى أنه قد تم وضع أي وزن عليه، ولم تكن هناك أي علامات على مزاريب الألمنيوم التي كان يستقر عليها، ولم يكن هناك ندى أو عشب

على الدرجات أو السطح بالقرب من النافذة حيث كان من المفترض أن يكون هناك شخص يستخدمه في ذلك الصباح.

كما ظهرت مؤشرات متناقضة داخل المنزل. يبدو أنه لم يتم أخذ أي شيء ذي قيمة، ولا حتى أي جواهر كانت ستظهر في غرفة النوم.

لو كان المتسلل يعتزم القتل، فلماذا يترك رجلًا فاقدًا الوعي يحمل مسدسًا بالجوار في الطابق السفلي ويعود إلى الطابق العلوي لقتل زوجته، لا الاعتداء عليها جنسيًّا؟

كانت هناك نقطتان مربكتان بشكل خاص. إذا كان جلين قد اختنق لدرجة الإغماء، فلماذا لا توجد علامات على مقدمة رقبته؟ والجزء الأكثر صعوبة على الإطلاق: لم يصعد أيٌّ من جلين وشقيقه نيل إلى الطابق العلوي للتحقق من بيتي ودانييل.

لمزيد من التشويش على الأمور، تطورت قصة الدكتور وولسيفر مع مرور الوقت. أصبح وصفه للمتسلل أكثر وضوحًا وهو يتذكر المزيد من التفاصيل. قال وولسيفر إن الرجل كان يرتدي قميصًا داكن اللون وجوربًا كقناع وكان له شارب. ناقض نفسه في عدة نقاط. أخبر أفراد أسرته أنه خرج في وقت متأخر من ليلة الجمعة لكنه تحدث إلى زوجته قبل النوم. قال للشرطة إنه لم يوقظها قط. في البداية، كان قد أبلغ عن اختفاء 1300 دولار من درج المكتب، لكن تراجع لاحقًا عندما عثرت الشرطة على قسيمة إيداع للمال. عندما حاولت الشرطة استجوابه بعد وصولهم إلى مكالمة الطوارئ، بدا أنه بالكاد واعٍ ولا يستطيع التماسك، ومع ذلك عندما أُبلغ في المستشفى بوفاة زوجته، أشار إلى أنه سمع نداء الشرطة للطبيب الشرعي.

مع استمرار التحقيق، توصل جليم وولسيفر إلى سيناريوهات أحدث وأكثر تفصيلًا لشرح الهجوم. في النهاية، زاد عدد المتسللين إلى اثنين. كان قد اعترف بعلاقة مع مساعدة طبيب أسنان سابقة لكنه أخبر الشرطة أن تلك العلاقة انتهت قبل عام. ومع ذلك، اعترف في وقت لاحق أنه شاهد للتو -ومارس الجنس مع- المرأة قبل أيام قليلة من القتل. وقد أهمل إخبار الشرطة بعلاقة أخرى كان يقيمها في نفس الوقت مع امرأة متزوجة.

أخبر أصدقاء بيتي وولسيفر الشرطة أنه بقدر ما أحبت زوجها وحاولت جعل الأمور تنجح، فإنها قد سئمت سلوكه، لا سيما في سهرات أيام الجمعة،

وهو ما أصبح متكررًا. قبل أيام من مقتلها، أخبرت صديقةً لها أنها سوف «تتخذ موقفًا» إذا بقي جلين في الخارج لوقت متأخر مساء الجمعة القادم.

بعد المقابلات الأولية في منزله وفي المستشفى، رفض جلين التحدث إلى الشرطة بناءً على نصيحة محاميه. لذلك ركزوا على أخيه نيل. بدت قصته في ذلك الصباح غريبة مثل قصة جلين. لقد رفض جهاز كشف الكذب، قائلًا إنه سمع أنه غالبًا ما يكون غير دقيق ويخشى حدوث نتيجة مؤذية. بعد الطلبات المتكررة من الشرطة، وعائلة بيتي، والضغط من وسائل الإعلام للتعاون في التحقيق، حدد نيل مقابلة مع الشرطة في المحكمة في أكتوبر.

في نحو الساعة 10:15 صباحًا، بعد خمس عشرة دقيقة من الموعد المحدد للمقابلة، توفي نيل في اصطدام وجه لوجه بين سيارته الصغيرة من نوع هوندا وشاحنة ماك. كان في الواقع مسافرًا بعيدًا عن قاعة المحكمة عندما أُصيب. حكم تحقيق قاضي التحقيق في وفاته بأنه انتحار، على الرغم من أنه بدا لاحقًا أنه ربما تجاوز المنعطف وكان يحاول العودة بعصبية. وهو ما قد لا نعرفه أبدًا على وجه اليقين.

بعد مرور أكثر من عام على جريمة القتل، جمعت شرطة ويلكس-بار قدرًا كبيرًا من الأدلة الظرفية التي تشير إلى جلين وولسيفر بعدِّه قاتل زوجته، لكن لم يكن لديهم دليل قوي وبالتالي لا يوجد دليل لتوجيه الاتهام إليه. تم العثور على بصمات أصابعه وشعره في موقع الجريمة، لكنها كانت غرفة نومه الخاصة، لذلك لم يكن ذلك مؤثرًا. افترضت الشرطة أنه من السهل التخلص من أي رباط أو ملابس ملطخة بالدماء كان ربما يرتديها في نهر قريب قبل اتصال جلين بأخيه. كان أملهم الوحيد في الاعتقال والإدانة يكمن في تعزيز قضيتهم برأي خبير مفاده أن الجريمة ارتكبها شخص يعرف الضحية شخصيًّا وقام بترتيب مسرح الجريمة.

في يناير من عام 1988، طلبت مني شرطة ويلكس-بار تقديم تحليل للجريمة. بعد مراجعة المواد الكثيرة آنذاك، خلصتُ سريعًا إلى أن من ارتكب جريمة القتل هو شخص يعرف الضحية بشكل وثيق بالفعل، ورتب موقع الجريمة للتستر على جريمته.

ما دام لدى الشرطة مشتبه به بالفعل، فلم أرغب في إنشاء ملفنا التعريفي العادي، أو توجيه أصابع الاتهام مباشرة إلى الزوج، لكنني حاولت إعطاء الشرطة بعض الذخيرة لمساعدتهم في دعم عملية الاعتقال.

كان اقتحام ذلك الحي في وضح النهار وعطلة نهاية الأسبوع، إلى منزل به سيارتان متوقفتان في الممر، جريمة شديدة الخطورة ضد الضحايا ذوي الخطورة المنخفضة. كان سيناريو السطو بعيد الاحتمال.

كان غير متسق تمامًا مع كل ما رأيناه خلال سنوات البحث والاستشارة حول الحالات التي أجريناها في جميع أنحاء العالم، حيث كان المتسلل يدخل نافذة من الطابق الثاني ويتجه فورًا إلى الطابق السفلي دون فحص الغرف في الطابق الثاني.

لم يكن هناك دليل على أن متسللًا أحضر معه أي أسلحة، مما جعل عملية القتل المقصودة غير محتملة أبدًا. لم تتعرض السيدة وولسيفر للاعتداء الجنسي، ما جعل السيناريو السيئ للاغتصاب المتعمَّد بعيد الاحتمال. لم يكن هناك أي دليل حتى على محاولة الاستيلاء على أي شيء، وهذا سبب آخر لكون سيناريو السطو المقصود غير محتمل. أدى هذا إلى تضييق نطاق الدوافع المحتمَلة إلى حد كبير.

طريقة الموت -الخنق اليدوي- هي جريمة من النوع الشخصي، إنها ليست طريقة سيختارها شخص غريب، لا سيما الشخص الذي خطط بشكل كافٍ وبذل جهدًا للاقتحام.

واصلت الشرطة بناء القضية بشكل منهجي ودقيق. على الرغم من اقتناعهم بهوية القاتل، فإن شهادتهم كانت لا تزال ظرفية وكان عليهم أن يعلقوا في المحكمة. في تلك الأثناء، انتقل جلين وولسيفر إلى فولز تشيرش، فيرجينيا، خارج واشنطن العاصمة، وأسَّس عيادة أسنان هناك. في أواخر عام 1989، تم إعداد مذكرة توقيف وإفادة خطية للسبب المحتمل، بالإشارة المرجعية إلى تقريري. في 3 نوفمبر 1989، بعد ثمانية وثلاثين شهرًا من جريمة القتل، نزل فريق من شرطة الولاية والمقاطعة والشرطة المحلية إلى فرجينيا واعتقلوا وولسيفر في عيادة طب الأسنان.

قال لأحد ضباط الاعتقال: «حدث الأمر بسرعة كبيرة. ما وصلنا إليه، كل شيء كان ضبابيًّا». وفي وقت لاحق، ادعى أنه كان يتحدث عن الهجوم عليه من قبل المتسلل(ـين)، وليس عن مقتل زوجته.

على الرغم من أنني كنت مؤهلًا بالفعل في ذلك الوقت كخبير في تحليل موقع الجريمة في عدة ولايات، فقد أشار إليَّ الدفاع على أنني «رجل الشعوذة» للطريقة التي توصلت بها إلى تفسيراتي، وحكم القاضي في النهاية بأنني لا

أستطيع أن أقدم شهادتي. ومع ذلك، كان الادعاء قادرًا على تضمين ما قلته لهم. بالاقتران مع عمل الشرطة الشامل، تمكنوا من الحصول على إدانة بالقتل من الدرجة الثالثة.

كانت هناك العديد من الأمور المثيرة للشكوك في قضية وولسيفر: السلم المثير للشك والموجود في المكان الخطأ، وبدء جريمة جنسية دون أي دليل على الاعتداء الجنسي، تضارب الجروح الخانقة، والافتقار الواضح للقلق الذي يتضح من عدم الاطمئنان على الزوجة والطفلة، وحقيقة أن الطفلة لم تستيقظ بفعل أي ضوضاء. لكن أبرز وأكثر نقطة إثارةً للشك على الإطلاق كانت السلوك والأفعال اللامنطقية للمتسلل المفترَض، لأن أي شخص يقتحم منزلًا لارتكاب جريمة، أي جريمة، سيهتم أولًا بأكبر خطر -في هذه الحالة رجل المنزل المسلح البالغ طوله ستة أقدام ووزنه مائتا باوند- وثانيًا مع تهديد أقل، المرأة غير المسلحة.

يجب على المحقق دائمًا أن يكون له هوائياته لمواجهة هذه التناقضات. ربما بسبب مشاهدتنا الكثير من هذه القضايا، فإننا على دراية تامة دائمًا بتجاوز ما يقوله الناس لمحاولة اكتشاف ما يظهِره السلوك حقًّا.

في بعض النواحي، نحن مثل الممثلين الذين يستعدون لأداء دور ما. يرى الممثل الكلمات مكتوبة على صفحة النص، ولكن ما يريد أن يمثله هو «النص الضمني»؛ ما يدور حوله المشهد حقًّا.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك مقتل كارول ستيوارت عام 1989 وإصابة زوجها، تشارلز، بجروح خطيرة، في بوسطن. قبل أن يتم ذلك، أصبحت القضية قضية عامة وهددت بخلق فوضى في المجتمع.

ذات ليلة عندما كان الزوجان يقودان سيارتهما إلى المنزل عبر روكس-بيري عائدين من فصل الولادة الطبيعية الاعتيادي، تعرضا، على ما يبدو، لهجوم من قِبل رجل أسود كبير بينما كانت سيارتهما متوقفة عند الإشارة الضوئية. أطلق النار على كارول، 30 عامًا، ثم طارد تشارلز البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، والذي تلقى إصابات خطيرة في البطن تطلبت عملًا جراحيًّا استمر ست عشرة ساعة. على الرغم من أن الأطباء في مستشفى بريجهام والمشفى النسائي عملوا بجهد لإنقاذ كارول، لكنها ماتت في غضون ساعات. وُلد طفلهما كريستوفر في نفس الوقت بعملية قيصرية لكنه توفي بعد أسابيع قليلة. كان تشارلز لا يزال يتعافى في المستشفى في وقت جنازة

كارول الكبيرة والشعبية. انطلقت شرطة بوسطن إلى العمل، حيث جمعت كل رجل أسود يمكن أن تجده يتطابق مع وصف تشارلز للمهاجم. أخيرًا، اختار واحدًا من الأفراد المعروضين عليه.

لكن بعد ذلك بوقت قصير، بدأت قصته في التفكك. شك شقيقه ماثيو في حدوث عملية سطو في الأساس عندما استُدعي لمساعدة تشارلز في التخلص من حقيبة تحتوي على أغراض مسروقة. في اليوم التالي لإعلان المدعي العام أنه كان يتهم تشارلز ستيوارت بالقتل، انتحر تشارلز بالقفز من فوق الجسر.

كان المجتمع الأسود غاضبًا بشكل مفهوم من الاتهام الذي وُجِّه إليه، تمامًا كما حدث بعد ست سنوات عندما زعمت سوزان سميث زورًا أن رجلًا أسود قد خطف طفليها. ولكن في حالة سميث، بذل العمدة المحلي في ساوث كارولينا قصارى جهده لنزع فتيل المشكلة. بالتعاون مع وسائل الإعلام والسلطات الفيدرالية (مثل عميلنا، جيم رايت)، وصل إلى الحقيقة في غضون أيام.

لم ينجح الأمر بكفاءة في قضية ستيوارت، على الرغم من أنني أشعر أنه كان بإمكان الشرطة تحليل ما قاله ستيوارت لهم بوضوح ووزنه مقابل ما بدا أنه حدث في مكان الحادث. لن يبذل الجميع مثل هذه الجهود لارتكاب جريمة؛ أي إطلاق النار على نفسك بتلك الجدية.

ولكن كما هو الحال في قضية وولسيفر، إذا هاجم الجاني المفترض التهديد الأقل أولًا -في معظم الحالات النساء- فلا بد من وجود سبب. في أي حالة سرقة، سيحاول السارق *دائمًا* تحييد العدو الأكثر قابلية أولًا. إذا لم يتم التخلص من التهديد الأكبر أولًا، يجب أن يكون هناك سبب آخر. أطلق «ابن سام» ديفيد بيركويتز، النار على النساء أولًا، وفي معظم الحالات بجدية أكبر، لأنهن كن هدفه. كان الرجل في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

إن المشكلة التي تطرحها الجرائم المنظمة لأي منا في مجال إنفاذ القانون هي أنه يمكنك بسهولة أن تتورط عاطفيًّا مع الضحايا والناجين. إذا كان شخص ما في محنة واضحة، فمن الواضح أننا نريد تصديقه. إذا كان ممثلًا بارعًا إلى حد ما، وإذا بدت الجريمة مشروعة على السطح، فهناك ميل إلى عدم البحث أكثر. مثل الأطباء، يمكننا أن نتعاطف مع الضحايا، لكننا لا نقدم أي خدمة لأحد إذا فقدنا موضوعيتنا.

أي نوع من الأشخاص يمكن أن يقدم على فعل مثل هذا الشيء؟

بقدر ما قد تكون الإجابة عن هذا السؤال مؤلمة في بعض الأحيان، فإن هذا ما نحن موجودون هنا لنكتشفه.

16

«يريدك الرب أن تنضمي إلى شاري فاي»

جرى اختطاف شاري فاي سميث، طالبة جميلة ومرحة في المدرسة الثانوية، عندما توقفت عند صندوق البريد أمام منزل عائلتها بالقرب من كولومبيا، ساوث كارولينا. كانت عائدة إلى المنزل من مركز تسوق قريب حيث قابلت صديقها المقرب ريتشارد. كانت الساعة 3:38 من مساء يوم 31 مايو 1985 الدافئ والمشمس، قبل يومين من الموعد المقرر لشاري لغناء النشيد الوطني في حفل تخرج مدرسة ليكسينجتون الثانوية.

بعد دقائق فقط، وجد والدها روبرت سيارتها على رأس الممر الطويل المؤدي إلى المنزل. كان الباب مفتوحًا، والمحرك كان يعمل، ومحفظة شاري ملقاة على المقعد. أُصيب بالذعر، اتصل على الفور بقسم شرطة مقاطعة ليكسينجتون.

لم تكن مثل هذه الأشياء تحدث في كولومبيا، مجتمع فخور ومسالم بدا أنه يجسد فكرة «القيم العائلية». كيف يمكن لهذه الشقراء الجميلة المنطلقة أن تختفي من أمام منزلها؟ وأي نوع من الأشخاص يمكن أن يكون متورطًا في مثل هذا الشيء؟ لم يكن المأمور جيم ميتس يعرف الإجابات، لكنه شعر بوجود أزمة بين يديه. كان أول شيء فعله هو تنظيم ما أصبح أكبر عملية مطاردة في تاريخ ساوث كارولينا. جاء ضباط إنفاذ القانون من وكالات الدولة والمقاطعات المجاورة للمساعدة، بمساعدة أكثر من ألف متطوع مدني. الشيء الثاني الذي فعله ميتس هو استبعاده روبرت سميث بهدوء كمشتبَه به، الذي كان قد توسل علانية لإعادة ابنته.

في أي حادثة اختفاء أو جريمة محتمَلة ضد ضحية منخفضة الخطر، يجب مراعاة الزوج (ة)، الوالدين وأفراد العائلة المقربين. انتظرت عائلة سميث المنكوبة خبرًا، أي خبر، حتى لو كان طلب فدية، ثم تلقوا مكالمة هاتفية. ادعى رجل بصوت معدَّل بشكل غريب أنه خاطف شاري.

«حتى تتأكدوا أن هذه ليست خدعة، فقد كانت شاري ترتدي بذلة سباحة باللونين الأسود والأصفر تحت قميصها وسروالها القصير»؟

ناشدته هيلدا والدة شاري أن يعرف أن شاري مصابة بالسكري وتحتاج إلى تغذية منتظمة وماء وأدوية. لم يطلب المتصل فدية، واكتفى بالقول: «ستصلكم رسالة في وقت لاحق اليوم». فازداد قلق الأسرة وضباط الشرطة.

عكست حركة ميتس التالية خلفيته وتدريبه. كان هو ونائب الشرطة لويس مكارتي من خريجي الأكاديمية الوطنية لمكتب التحقيقات الفيدرالي وكانت لهما علاقة ممتازة بالمكتب. دون تردد، اتصل ميتس بكل من روبرت آيفي، العميل المسؤول في المكتب الميداني في كولومبيا، ساوث كارولينا، ووحدتي في كوانتيكو. لم أكن موجودًا، لكنه تلقى استجابة سريعة ومتعاطفة من الوكلاء جيم رايت ورون والكر. وبتحليل ظروف الاختطاف وصور الموقع وتقارير المكالمة الهاتفية، اتفق العميلان على أنهما كانا يتعاملان مع رجل ذكي وخطير للغاية، وأن حياة شاري كانت في خطر كبير. كانا يخشيان أن تكون الشابة قد ماتت بالفعل وأن هذا الجاني سيشعر قريبًا بالحاجة إلى ارتكاب جريمة أخرى من هذا القبيل. وتكهنا أن ما حدث على الأرجح هو أن الخاطف رأى شاري وصديقها ريتشارد يتبادلان القبلات في مركز التسوق المحلي وتبعها إلى منزلها بعد ذلك. كان حظها السيئ هو التوقف عند صندوق البريد. لو لم تتوقف أو كانت هناك سيارات تمر في الشارع، لما حدثت الجريمة أبدًا. أنشأت إدارة المأمور معدات تسجيل في منزل سميث على أمل المزيد من التواصل.

ثم جاء بعد ذلك أحد الأدلة الحاسمة والمؤلمة للغاية. طوال سنوات عملي في إنفاذ القانون، مع كل الأشياء الفظيعة التي لا تُصدَّق تقريبًا التي رأيتها، أجدني مضطرًا لقول إن هذا كان يكسر القلب. كانت رسالة من صفحتين، مكتوبة بخط اليد إلى عائلة شاري. كتبت على الجانب الأيسر بأحرف كبيرة عبارة «الرب محبة».

بقدر ما تؤلمني إعادة قراءة هذه الرسالة، فإنها توثيق استثنائي لشخصية وشجاعة هذه الشابة، ولذا فإني أريد إعادة نشرها بالكامل:

85/1/6 3:10 ص أحبكم جميعًا..

الشهادة والوصية الأخيرة..

أحبكم يا أمي، أبي وروبرت ودون وريتشارد وكلّ أحد آخر وجميع الأصدقاء والأقارب الآخرين. سأكون مع والدي الآن، لذا أرجوكم، أرجوكم ألا تقلقوا! تذكروا فقط شخصيتي الذكية والأوقات الخاصة الرائعة التي تشاركناها جميعًا معًا. من فضلكم لا تدعوا هذا يفسد حياتكم، واصلوا العيش كل يوم بيومه ليسوع. سيكون هناك بعض الخير من هذا، وستكون أفكاري دائمًا معكم وفيكم! (التابوت مغلق) أحبكم كثيرًا، جميعكم. آسفة يا أبي، كان عليَّ أن أشتم مرة واحدة! ليغفر لي يسوع. حبيبي ريتشارد؛ لقد أحببتك حقًّا وسأحبك دائمًا وأقدِّر لحظاتنا الخاصة. ومع ذلك فإني أطلب شيئًا واحدًا؛ اقبل يسوع كمخلصك الشخصي. كانت عائلتي أكبر تأثير في حياتي. آسفة على المال للرحلات البحرية. من فضلك اذهب بدلًا مني يومًا ما.

إنني آسفة إذا تسببت لكم بخيبة أمل بأي شكل من الأشكال، لقد أردت فقط أن تفخروا بي لأنني كنت فخورة بأسرتي على الدوام. أمي، أبي، روبرت وداون، هناك الكثير مما أريد قوله وكان حريًّا بي أن أقوله من قبل. أنا أحبكم!

أعلم أنكم جميعًا تحبونني وستفتقدونني كثيرًا، ولكن إذا ظللتم متماسكين كما كنا نفعل دائمًا؛ يمكنكم فعل ذلك!

من فضلكم لا تقسوا أو تستاؤوا. كل شيء يعمل لصالح أولئك الذين يحبون الرب.

مع كامل حبي على الدوام...

أحبكم جميعًا.

مع / كل قلبي! شارون (شاري) سميث

ملاحظة. نانا؛ أحبك كثيرًا. لطالما شعرت بأنني المفضلة لديك.

لقد كنت ملكي!

أحبك كثيرًا.

أرسل شريف ميتس الصفحات إلى معمل الجريمة في SLED -قسم إنفاذ القانون في ساوث كارولينا- لتحليل الأوراق وبصمات الأصابع. بقراءة نسخة من الرسالة في كوانتيكو، كنا على يقين من أن الاختطاف قد تحول إلى جريمة قتل. ومع ذلك، فإن عائلة سميث المتماسكة والتي انعكس إيمانها الديني بشكل مؤثر في كتابات شاري، تشبثت بالأمل. وبعد ظهر يوم 3 يونيو، تلقت هيلدا سميث مكالمة قصيرة تسأل عما إذا كانت الرسالة قد وصلت.

«هل تصدقونني الآن؟»

«حسنًا، لست متأكدةً حقًا من أنني أصدقك لأنني لم أحصل على أي كلمة من شاري وأريد أن أعرف أن شاري على ما يرام».

قال المتصل بصوت منذر بالسوء: «ستعرفين في غضون يومين أو ثلاثة أيام».

ولكن بعد ذلك اتصل مرة أخرى في ذلك المساء، قائلًا إن شاري على قيد الحياة، وأشار إلى أنه سيطلق سراحها قريبًا. ومع ذلك، فإن العديد من أقوال المتصل أخبرتنا بخلاف ذلك:

«أريد أن أخبرك بشيء آخر. شاري الآن جزء مني. جسديًا وعقليًا وعاطفيًا وروحيًا. أرواحنا الآن واحدة».

عندما طلبت السيدة سميث الاطمئنان على أن ابنتها بخير، قال: «شاري محمية... هي جزء مني الآن والرب يعتني بنا جميعًا».

في النهاية، تم تتبع جميع المكالمات إلى الهواتف العامة في المنطقة، ولكن في تلك الأيام، تطلب «التتبع والتعقب» إبقاء المتصل على الهاتف لمدة خمس عشرة دقيقة تقريبًا، ولم يكن ذلك ممكنًا قط. ولكن تم إعداد نظام التسجيل، وتم إرسال نسخ من الأشرطة إلينا من قبل المكتب الميداني لـ إف بي آي. عندما استمعت أنا ورايت ووالكر إلى كل تسجيل، أدهشنا قوة السيدة سميث وتحكمها في التحدث مع هذا الوحش. كان من الواضح من أين حصلت عليه شاري.

على أمل أن يكون هناك المزيد من المكالمات، سألنا ميتس كيف ينبغي أن ينصح الأسرة للتعامل معهم. أخبره جيم رايت أنه يجب عليهم محاولة الرد مثل مفاوض الشرطة الذي يتعامل مع حالة الرهائن. أي؛ أنصت جيدًا، وكرر قول أي شيء ذي أهمية محتملة قاله المتصل للتأكد من فهمه لرسالته،

وحاول أن تجعله يتفاعل ويكشف المزيد عن نفسه وجدول أعماله. هذا يمكن أن يكون له العديد من الفوائد. أولًا، قد يطيل زمن المكالمة الهاتفية بما يكفي لتتبع وتعقب ناجحين. وثانيًا، قد «يطمئن» المتصل أنه كان يسمع تعاطفًا ويشجعه على المزيد من الاتصال.

غني عن القول إن هذه الدرجة من الأداء الخاضع للسيطرة هي مهمة شاقة لعائلة مذعورة ومنكوبة بالحزن. لكن آل سميث كانوا مذهلين في قدرتهم على القيام بذلك، مما أتاح لنا معلومات مهمة.

اتصل الخاطف في الليلة التالية، وتحدث هذه المرة مع داون، أخت شاري البالغة من العمر 21 عامًا. مر أربعة أيام على اختفاء شاري. أعطى داون تفاصيل عن الاختطاف، قائلًا إنه أوقف سيارته عندما رآها في صندوق البريد، بدا ودودًا، والتقط صورتين لها، ثم أجبرها على ركوب سيارته تحت تهديد السلاح. من خلال هذه المحادثات وغيرها، انحرف جيئة وذهابًا بين أن يكون ودودًا ظاهريًّا، وقاسيًا في الواقع، وأنه شعر بالأسف الشديد «لأن الأمر برمته قد خرج عن السيطرة».

تابع روايته: «حسنًا، في الرابعة وثمانٍ وخمسين دقيقة صباحًا... لا، أنا آسف. انتظري دقيقة. الثالثة وعشر دقائق صباحًا، يوم السبت 1 يونيو، آه، لقد كتبت بخط يدها ما تلقيت. الرابعة وثمانٍ وخمسين دقيقة صباحًا، يوم السبت، 1 يونيو، أصبحنا روحًا واحدة».

كررت داون: «صرتما روحًا واحدة».

«ماذا يعني ذلك؟» سألت هيلدا في الخلفية. قال المتصل: «لا أسئلة الآن».

لكننا عرفنا ما كان يقصده، على الرغم من تأكيده أن «بركات الرب قريبة»، وأن شاري سترجع في المساء التالي. حتى إنه طلب من داون أن تكون هناك سيارة إسعاف مستعدة.

«ستتلقون تعليمات أين تجدوننا».

بالنسبة إلينا في كوانتيكو، كان الجزء الأكثر أهمية في المحادثة المسجلة هو تعليقه على الوقت: 4:58، ثم العودة إلى الساعة 3:10 صباحًا. تم تأكيد ذلك من خلال المكالمة الكئيبة التي أجابت هيلدا عليها ظهر اليوم التالي:

«استمعي جيدًا. اسلكوا الطريق السريع 378 غربًا إلى الدوار المروري. اسلكوا مخرج بروسبيرتي، واصلوا مسافة ميل ونصف، وانعطفوا يمينًا عند

لافتة مون لودج رقم 103، وانطلقوا لمسافة ربع ميل، انعطفوا يسارًا عند مبنى مؤطر باللون الأبيض، واذهبوا إلى الفناء الخلفي، على بعد ستة أقدام سنكون في الانتظار. لقد اختارنا الرب». ثم أنهى المكالمة. قام المأمور ميتس بتشغيل التسجيل، مما أدى به مباشرة إلى جثة شاري سميث، على بعد ثمانية عشر ميلًا في مقاطعة سالودا المجاورة. كانت ترتدي القميص الأصفر والسراويل البيضاء التي شوهدت بها آخر مرة، لكن تحلل الجثة أخبر المأمور والطبيب الشرعي أنها توفيت منذ عدة أيام، منذ الساعة 4:58 صباح 1 يونيو، كنا على يقين تام. في الواقع، جعلت حالة الجثة من المستحيل تحديد طريقة القتل أو معرفة ما إذا كانت شاري قد تعرضت لاعتداء جنسي.

لكن جيم رايت ورون والكر وأنا كنا مقتنعين بأن قاتلها قد ضلل العائلة بشأن الآمال لفترة كافية لتتدهور أدلة الطب الشرعي المهمة. كانت البقايا اللاصقة للشريط اللاصق على وجه شاري وشعرها، لكن الشريط نفسه كان قد أُزيل، وهو مؤشر إضافي إلى التخطيط والتنظيم. إنهم لا يبدؤون عادةً بهذا التنظيم الجيد، مما دلنا على شخص ذكي، أكبر سنًّا إلى حد ما وكان يتردد على موقع التخلص من الجثة بغية تحقيق نوع من الإشباع الجنسي. فقط عندما يتحلل الجسد إلى النقطة التي لم تعد فيها «العلاقة» ممكنة، سيتوقف عن العودة إلى هناك.

تطلبت عملية الاختطاف نفسها، في منتصف فترة ما بعد الظهر، في منطقة ريفية سكنية، درجة معينة من الدقة والبراعة. لقد ربطنا عمره بأواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، وبالتأكيد كنت أميل نحو النهاية الأعلى. من سهولة القسوة التي ميزت الألعاب الذهنية التي كان يلعبها مع العائلة، اتفقنا فيما بيننا على أنه ربما كان متزوجًا مبكرًا، لفترة وجيزة وانتهى زواجه بالفشل. في الوقت الحاضر، كان يعيش إما بمفرده أو مع والديه. توقعنا نوعًا من السجل الإجرامي؛ الاعتداء على النساء، أو على الأقل المكالمات الهاتفية الفاحشة. إذا كان قد ارتكب أي جريمة قتل، فسيكونون أطفالًا أو فتيات صغيرات. على عكس الكثير من القتلة المتسلسلين، فإن هذا الرجل لن يلاحق البغايا، بل إنه سيشعر تجاههن بالخشية الشديدة.

أعطتنا الاتجاهات الدقيقة والتصحيح الذاتي للوقت رؤى مهمة أخرى. تم التفكير في التوجيهات بعناية وكتابتها. لقد عاد إلى مكان الحادث عدة مرات وقام بإجراءات صارمة. عندما اتصل بالعائلة، كان يقرأ من نص! لقد فهم أنه

يجب عليه إيصال رسالته والابتعاد عن الهاتف في أسرع وقت ممكن. وبتكرار ذلك عدة مرات على الهاتف، كان يفقد مكانه ويضطر إلى البدء من جديد. مهما يكن، فقد كان صارمًا ومنظمًا وذكيًا ومهتمًا بالأناقة. كان يدون الملاحظات بشكل شامل ويحتفظ بقوائم بكل شيء، وإذا فقد مكانه في ملاحظاته، فسوف يفقد سلسلة أفكاره أيضًا. كنا نعلم أنه كان عليه أن يقود سيارته من وإلى موقع الاختطاف أمام منزل شاري. توقعت من سمات الشخصية أن سيارته ستكون نظيفة ويجري أعمال صيانتها جيدًا، من طراز عمره ثلاث سنوات أو أحدث.

إجمالًا، هذا عرض مختلط لشخص تتعارض غطرسته الخارجية وازدراؤه للعالم الغبي كله باستمرار مع انعدام الأمن عميق الجذور ومشاعر القصور.

في هذا النوع من الحالات، يصبح موقع الجريمة من الناحية النفسية جزءًا من عملية القتل. أشارت جغرافية الجريمة أيضًا إلى وجود رجل محلي، ربما كان شخصًا قد عاش في المنطقة معظم أو طوال حياته. بالنسبة إلى الأشياء التي يريد أن يفعلها مع شاري، ثم بجسدها، سيحتاج إلى وقت بمفرده في منطقة منعزلة حيث يعلم أنه لن يكون هناك ما يزعجه أو يقاطعه. وحده شخص محلي سيعرف أين ستكون هذه المناطق.

أخبرتنا وحدة تحليل الإشارة التابعة لقسم الهندسة في إف بي آي أن تعديل صوت المتصل قد تم من خلال شيء أطلقوا عليه اسم جهاز التحكم في السرعة المتغيرة. تم إرسال طلبات نصوص تفريغ Teletype للمساعدة في تعقب المصنعين ومنافذ البيع بالتجزئة إلى المكاتب الميدانية في جميع أنحاء البلاد. قررنا من هذا التقرير أن لدى المشتبه به مجهول الهوية نوعًا من المعرفة في الإلكترونيات، وفرص عمل محتملة في مجال بناء المنازل أو إعادة تصميمها.

في اليوم التالي، بينما كان بوب سميث يقوم بالترتيبات النهائية مع دار الجنائز لدفن ابنته الصغرى، اتصل القاتل مرة أخرى، طلب في هذه المرة التحدث إلى داون. قال إنه سوف يسلم نفسه في صباح اليوم التالي، وأن الصور التي التقطها لشاري في صندوق البريد كانت في البريد المرسل إلى عائلة سميث. طلب من داون مغفرة الأسرة ودعواتها، كما ألمح إلى أنه بدلًا من تسليم نفسه، كان يفكر في الانتحار، ثم تابع نادبًا من جديد كيف «خرج هذا الشيء عن السيطرة، بينما كان كل ما أردت فعله هو ممارسة الحب مع داون. لقد كنت أراقبها منذ عدة...».

«مع من؟» قاطعته داون.

استدرك قائلًا: «مع... أنا آسف، مع شاري. راقبتها لأسبوعين، آه، لقد خرج الأمر عن السيطرة».

كانت هذه هي المرة الأولى من بين عدة مرات يخلط فيها بين الأختين، وليس بالأمر الصعب القيام به لأن كلتا الفتاتين كانتا شقراوات جميلات، شقراوات بحيث بدتا متشابهتين بشكل لافت للنظر. كانت صورة داون في الصحف وعلى شاشات التلفزيون، وكل ما جذبه في شاري يُرجح أنه ينطبق على داون أيضًا. عند الاستماع إلى التسجيلات، كان من المستحيل ألا تشعر بالغثيان من هذا الأداء السادي والهادئ إلى حد كبير. لكنني كنت أعرف في تلك المرحلة -بقدر ما يبدو ذلك باردًا ودقيقًا- أن داون يمكن أن تكون طُعمًا للقبض على القاتل.

في مكالمة في نفس اليوم مع المذيع التلفزيوني المحلي، تشارلز كييز، كرر نيته في تسليم نفسه، قائلًا إنه يريد من كييز الشهير أن يعمل كـ «وسيط» ووعده بإجراء مقابلة حصرية. استمع كييز، لكنه حافظ بحكمة على مسافة ولم يعط المتصل وعدًا بشيء.

بادئ ذي بدء، أخبرت لويس مكارتي عبر الهاتف، أنه لا ينوي الاستسلام. كما أنه لن يقتل نفسه. أخبر داون أنه كان «صديقًا للعائلة»، وهو مجرد مضطرب نفسيًا بما يكفي ليريد أن تتفهمه عائلة سميث ويتعاطفوا معه. لم نصدق أنه يعرف العائلة؛ كان هذا مجرد جزء من خياله المتمثل في قربه من شاري ومحبتها له. إنه نرجسي كليًا، وكلما طال الأمر، نصحت مكارتي، وكلما نال ردود أفعال من العائلة، أصبح أكثر راحة وأحب التجربة بأكملها. سوف يقتل من جديد، شخصًا يشبه شاري إلى حد كبير إذا استطاع العثور على شخص كهذا، وإذا لم يستطع، فستكون ضحية فرصة أخرى. الفكرة الرئيسية فيما يفعله هي السطوة، التلاعب والسيطرة.

في مساء يوم جنازة شاري، اتصل مرة أخرى وتحدث إلى داون. وفي تصرف شديد الاستفزاز، جعل عامل المقسم يخبر داون أنها مكالمة مدفوعة من شاري. مرة أخرى، ادعى أنه سوف يسلم نفسه، ثم دخل في وصف فظيع وغير رسمي لموتها:

«إذن، من نحو الثانية صباحًا، الوقت الذي علمت فيه، حتى الرابعة وثمانٍ وخمسين دقيقة، وقت موتها، تحدثنا كثيرًا وكل شيء ثم اختارت الوقتَ بنفسها. قالت إنها مستعدة للمغادرة، وكان الرب مستعدًا لقبولها كملاك».

وصف ممارسة الجنس معها وقال إنه منحها خيار الموت؛ بطلقة نارية، أو جرعة زائدة من المخدرات، أو الاختناق. قال إنها اختارت الخيار الثالث وأنه قد ألصق شريطًا لاصقًا على أنفها وفمها.

«لماذا كان عليك قتلها؟» سألت داون باكية.

«خرجت عن السيطرة. لقد أُصِبت بالخوف لأن... آه، وحده الرب يعلم، داون. لا أعرف لماذا. ليغفر لي الرب على هذا. آمل أن أنال هذه المغفرة وإلا فإنه سيرسلني إلى الجحيم وسأظل هناك بقية حياتي، لكنني لن أكون في السجن أو على الكرسي الكهربائي».

ناشدت داون ووالدتها المتصل لتسليم نفسه إلى الرب، بدلًا من قتل نفسه. في وحدتي، كنا متأكدين تمامًا من أنه لا ينوي فعل أي منهما.

بعد أسبوعين من اختطاف شاري سميث، اختُطفت ديبرا ماي هيلميك من الفناء أمام منزل مقطورة والديها في مقاطعة ريتشلاند، على بعد أربعة وعشرين ميلًا من منزل سميث. كان والدها داخل المنزل في ذلك الوقت، على بعد عشرين قدمًا فقط. رأى أحد الجيران شخصًا يوقف سيارته، ويخرج منها ويتحدث مع ديبرا، ثم فجأة يمسكها، ويأخذها في السيارة، ويسرع هاربًا. طارد الجار والسيد هيلميك من فورهما السيارة، لكنهما فقداها. مثل شاري، كانت ديبرا شقراء جميلة ذات عينين زرقاوين. لكن على عكس شاري، كانت تبلغ من العمر تسع سنوات فقط.

أطلق المأمور ميتس جهودًا مكثفة للعثور عليها. في غضون ذلك، بدأت الأمور تصل إلي. عندما تقوم بنوع العمل الذي أقوم به وحدتي من أجل لقمة العيش، يجب عليك الحفاظ على درجة معينة من المسافة والموضوعية من مواد الحالة وموضوعها، وإلا ستُجن. وبقدر ما كان ذلك صعبًا في حالة سميث حتى الآن، فإن هذا التطور الرهيب الأخير جعل كل ذلك مستحيلًا. كانت ديبرا هيلميك الصغيرة في التاسعة من عمرها فقط، في نفس سن ابنتي إريكا، وهي أيضًا شقراء ولها عينان زرقاوان. كانت ابنتي الثانية لورين، بالكاد تبلغ الخامسة من العمر. بصرف النظر عن الإحساس الرهيب المتمثل بـ «كان من الممكن أن تكون طفلتي»، فإن هناك هذا الشعور المفهوم بالرغبة في تقييد

أطفالك بمعصمك وعدم تركهم بعيدًا عن عينيك. عندما ترى ما رأيته، فإن عدم القيام بذلك في الواقع -إعطاء أطفالك المساحة والحرية التي يحتاجون إليها للعيش- هو صراع عاطفي مستمر.

على الرغم من الاختلاف في أعمار فتيات سميث وهيلميك، فإن التوقيت والظروف وطريقة العمل تشير إلى أننا نتعامل على الأرجح مع الجاني نفسه. أعلم أن كلًّا من قسم المأمور ووحدتي اتفقا على ذلك، لذلك مع القبول الكئيب لاحتمال أن يكون لديهما الآن رسميًّا قاتل متسلسل، طار لويس مكارتي إلى كوانتيكو وأحضر معه جميع مواد القضية.

راجع والكر ورايت جميع القرارات التي أدت إلى الملف التعريفي وجميع النصائح التي قدموها. مع المعلومات المضافة من الجريمة الجديدة، لم يروا أي سبب لتغيير تقييمهم.

على الرغم من تمويه الصوت، كان من المؤكد تقريبًا أن المشتبه به المجهول كان أبيض. كانت هاتان الجريمتان على أساس الجنس ارتكبها رجل بالغ يشعر بالقصور وانعدام الأمان. كلتا الضحيتين كانتا من البيض، ووجدنا أنه من غير المعتاد رؤية هذا النوع من الجرائم يتخطى الخطوط العرقية. سيكون خجولًا ومهذبًا ظاهريًّا، ولديه صورة ذاتية سيئة، وقد يكون ثقيل الوزن أو زائد الوزن، غير جذاب للنساء. أخبرنا مكارتي أننا نتوقع من رجلنا أن يظهِر سلوكًا أكثر إلحاحًا الآن. قد يلاحظ بعض المقربين منه فقدان بعض الوزن، وربما يشرب بكثرة، ولا يحلق بانتظام، وسيكون حريصًا على التحدث عن جريمة القتل. شخص ما بهذه الدقة يتابع التقارير التلفزيونية بشغف ويجمع قصاصات الصحف، كما أنه سيجمع المواد الإباحية، مع تركيز خاص على العبودية والسادو-مازوخية. سيكون الآن مستمتعًا تمامًا بشهرته، وشعوره بالقوة تجاه ضحاياه والمجتمع، وقدرته على التلاعب بعائلة سميث الحزينة.

مثلما كنت أخشى، عندما لم يستطع الحصول على ضحية تتناسب مع تخيلاته ورغباته، ذهب إلى ضحية الفرصة الأكثر ضعفًا. بسبب سن شاري، كانت على الأقل ودودًا بشكل معقول. ولكن إذا فكر في الأمر حقًّا، فإننا لا نعتقد أن رجلنا سيشعر بالرضا بشكل خاص تجاه ديبرا هيلميك، لذلك لم نتوقع أي مكالمات هاتفية مع عائلتها.

عاد مكارتي إلى المنزل بقائمة من 22 نقطة من الاستنتاجات والخصائص حول موضوع القضية. عندما عاد، قال إنه أخبر ميتس: «أنا أعرف الرجل. وكل ما علينا معرفته الآن هو اسمه».

بقدر ما كان إيمانه بنا مُرضيًا، فإنه نادرًا ما كانت الأمور بهذه البساطة. قامت وكالات إنفاذ القانون بالولاية والمكتب الميداني في كولومبيا بتمشيط المنطقة بحثًا عن أي أثر لديبرا. لكن لم يكن هناك اتصال ولا مطالب ولا دليل جديد. في كوانتيكو، انتظرنا كلمة، محاولين تحضير أنفسنا لما سيحدث. يصعب وصف شعور التعاطف الذي تحسه تجاه أسرة الطفل المفقود. بناء على طلب كل من العميل المسؤول آيفي والمأمور ميتس، حزمت حقائبي وسافرت إلى كولومبيا لتقديم المساعدة في مكان الحادث فيما وعد بأنه قضية اقتحام. أحضرت معي رون والكر. كانت أول رحلة نقوم بها معًا منذ أن أنقذ هو وبلين ماكلواين حياتي في سياتل.

قابلنا لو مكارتي في المطار، لم نضيّع الوقت، تعرفنا على المشاهد المختلفة. قادنا مكارتي إلى كل موقع من مواقع الاختطاف. كان الجو حارًّا ورطبًا، حتى بمعايير فرجينيا. لم تكن هناك علامات صريحة على الصراع أمام أي من المنزلين. كان موقع رمي جثة سميث على هذا النحو؛ من الواضح أن القتل قد وقع في مكان آخر. لكن عند رؤية المواقع، كنت مقتنعًا أكثر من أي وقت مضى أن لا بد للمشتبه به مجهول الهوية معرفة المنطقة من كثب، وعلى الرغم من أن العديد من المكالمات إلى عائلة سميث كانت مكالمات بعيدة المسافة، لكن لا بد أنه كان شخصًا من السكان المحليين.

كان هناك اجتماع في إدارة المأمور للأشخاص الرئيسيين في القضية. كان لدى المأمور ميتس مكتب كبير ومثير للإعجاب، يبلغ طوله نحو ثلاثين قدمًا مع أسقف بارتفاع اثني عشر قدمًا، وجدرانه مغطاة بالكامل بلوحات وشهادات وتذكارات؛ كل ما فعله في حياته كان على تلك الجدران، من شهادات الثناء على حل جرائم القتل إلى التقدير من فتيات الكشافة. جلس خلف مكتبه الضخم مع بقيتنا –رون، وأنا، وبوب آيفي، ولو مكارتي– في نصف دائرة حوله.

«لقد توقف عن الاتصال بعائلة سميث» قال ميتس آسفًا. قلت له: «سأجعله يتصل مرة أخرى».

أخبرتهم أن الملف التعريفي يجب أن يوفر مساعدة قيمة في تحقيق الشرطة، لكنني اعتقدت أننا بحاجة أيضًا إلى محاولة إجباره على الانفتاح بسرعة وشرح بعض الأساليب الاستباقية التي كنت أفكر فيها. سألت إذا كان هناك مراسل صحفي محلي يتعاون معنا. لم تكن مسألة رقابة أو إعطاء أوامر مباشرة له أو لها بما يجب نشره، ولكن كان يجب أن يكون شخصًا متعاطفًا مع ما كنا نحاول تحقيقه وألا يكون عبئًا علينا، كما يبدو الكثير من الصحفيين.

اقترح ميتس عليَّ اسم مارجريت أوشي من صحيفة كولومبيا الحكومية. وافقت على القدوم إلى المكتب، حيث حاولت أنا ورون تثقيفها حول الشخصية الإجرامية وكيف اعتقدنا أن هذا الشخص سيتفاعل.

أخبرناها أنه كان يتابع الصحافة من كثب، وبخاصة أي قصة تتعلق بداون. علمنا من بحثنا أن هذه الأنواع غالبًا ما تعود إلى موقع الجريمة أو مواقع قبور ضحاياها. أخبرتها أنه مع النوع الصحيح من القصة، اعتقدت أنه يمكننا إغراؤه في العلن ونحاصره. على أقل تقدير، كنا نأمل أن نتمكن من جعله يبدأ الاتصال مرة أخرى. أخبرتها أنه كان لدينا تعاون وثيق من أعضاء الصحافة في حالات تسمم تايلينول، وكان ذلك يعَد نموذجًا للطريقة التي أردنا أن تكون عليها الأمور.

وافقت أوشي على إعطائنا نوع التغطية التي أردناها. ثم أخذني مكارتي لمقابلة عائلة سميث وشرح ما أريدهم أن يفعلوه. كان ما يدور في خلدي بشكل أساسي، هو استخدام داون كطعم لفخنا. كان روبرت سميث متوترًا للغاية بشأن هذا الأمر، ولم يرغب في تعريض ابنته المتبقية للخطر. بقدر ما كنت قلقًا بشأن هذه الحيلة، فإني شعرت أنها تمثل أفضل خطوة لدينا وحاولت طمأنة السيد سميث بأن قاتل شاري كان جبانًا ولن يأتي لأجل داون وسط مثل هذه الدعاية والتدقيق المكثف. وبعد أن درست تسجيلات الهاتف، كنت مقتنعًا أن داون كانت ذكية وشجاعة بما يكفي لتفعل ما أريد منها فعله. أخذتني داون إلى غرفة شاري، التي تركوها على حالها منذ آخر مرة كانت فيها هناك. كما يمكن أن تتوقع، فهذا أمر شائع بين العائلات التي فقدت طفلها فجأة وبشكل مأسوي. أول ما أدهشني هو مجموعة شاري لدب الكوالا المحشوة؛ جميع الأشكال والأحجام والألوان. قالت داون إن المجموعة كانت مهمة لشاري، وجميع أصدقائها يعرفون ذلك.

قضيت وقتًا طويلًا في الغرفة، محاولًا التعود على شاري كما كانت عليه. كان قاتلها بالتأكيد سهل الوصول إليه. كان علينا فقط اتخاذ الخيارات الصحيحة. بعد مرور بعض الوقت، التقطتُ كوالا صغيرًا، من النوع الذي تُفتح ذراعاه وتنغلقان عند الضغط على كتفيه. شرحت للعائلة أنه في غضون أيام قليلة -فقط ما يكفي من الوقت للحصول على تغطية صحفية كاملة- سنقيم حفل تأبين في قبر شاري في مقبرة ليكسينجتون التذكارية، وخلالها ستعلق داون الحيوان المحشو بباقة من الزهور. اعتقدت أن لدينا فرصة جيدة لجذب القاتل إلى التأبين، وفرصة أفضل لإعادته إلى مكان الحادث بعد انتهاء الحفل لأخذ الكوالا كتذكار ملموس لشاري.

استوعبت مارجريت أوشي تمامًا نوع الصحافة التي نحتاج إليها وجعلت الصحيفة ترسل مصورًا إلى التأبين. نظرًا لعدم وجود شاهد قبر حتى الآن، فقد تم تشييد منبر خشبي أبيض مع صورة شاري من الأمام. في المقابل، وقف أفراد الأسرة عند القبر وصلّوا لراحة نفس شاري وديبرا. ثم رفعت داون كوالا شاري الصغير وربطته من ذراعيه إلى ساق وردة من إحدى الباقات التي تم إرسالها إلى المقبرة.

إجمالًا، كانت تجربة عاطفية ومؤثرة للغاية. بينما تحدثت عائلة سميث، التقط عدد من المصورين صورًا للصحافة المحلية، قام رجال ميتس بهدوء بتسجيل أرقام جميع السيارات المارة. الشيء الوحيد الذي أزعجني هو أن موقع القبر كان قريبًا جدًّا من الطريق. اعتقدت أن مثل هذه البقعة غير المعزولة قد تخيف الجاني من الاقتراب ويسمح له أيضًا برؤية ما يريده من الطريق. لكن لا يمكننا فعل أي شيء حيال ذلك.

ظهرت الصور في الصحيفة في اليوم التالي. لم يأتِ قاتل شاري لدب الكوالا في تلك الليلة كما كنا نأمل. أعتقد أن القرب من الطريق أخافه. لكنه اتصل مرة أخرى بعد منتصف الليل بقليل، ردت داون على الهاتف لاستقبال مكالمة أخرى «من شاري فاي سميث». بعد التأكد من أنها كانت في الواقع داون على الخط، والتأكد من «إنك تعرفين أن هذه ليست خدعة، أليس كذلك؟» فقد أدلى بتصريح مخيف للغاية حتى الآن:

«حسنًا، كما تعلمين، يريدك الرب أن تنضمي إلى شاري فاي. إنها فقط مسألة وقت. هذا الشهر، الشهر المقبل، هذا العام، العام المقبل. لا يمكنك

أن تكوني محمية طوال الوقت». ثم سألها إذا كانت قد سمعت عن ديبرا ماي هيلميك.

«نعم، لا».

«البالغة من العمر عشر سنوات؟ هــ ـيــ ـلــ ـمــ ـيــ ـك؟» «آه، مقاطعة ريتشلاند؟».

«أجل».

«نعم».

«حسنًا، استمعي جيدًا. اذهبوا لطريق رقم واحد شمالًا... حسنًا، رقم واحد غربًا، انعطفوا يسارًا عند شارع بيتش فيستيفال رود أو بيلز غريل، ثم اقطعوا مسافة ثلاثة أميال ونصف عبر جيلبرت، انعطفوا يمينًا، عند آخر طريق ترابي قبل التوقف عند لافتة تو نوتش رود، ادخلوا عبر السلسلة وعلامة «عدم التعدي على ممتلكات الغير»، واصلوا خمسين ياردة وإلى اليسار عشر ياردات. ديبرا ماي تنتظر. ليغفر الرب لنا جميعًا».

لقد أصبح أكثر جرأة وأكثر ضغطًا، ولم يعد يستخدم جهاز تغيير الصوت. على الرغم من التهديد الصريح لحياتها، بذلت داون قصارى جهدها لإبقائه على الخط لأطول فترة ممكنة، وحافظت ببراعة على فطنتها وطالبت بصور أختها التي كان قد وعد بها لكنها لم تصل قط. رد بشكل دفاعي: «يبدو أنهم في إف بي آي يحتفظون بها»، معترفًا بفهمه لدورنا في القضية.

ردت داون: «لا يا سيدي، لأنه عندما يكون لديهم شيء، فإننا نحصل عليه أيضًا كما تعلم. هل سترسلهم؟».

أجاب بغير التزام: «أوه، نعم».

«أعتقد أنك تعبث معي لأنك قلت إنك سترسلها ولم يصلنا شيء».

كنا نقترب، لكن مسؤولية تعريض داون لخطر أكبر كانت تثقل كاهلي. بينما ساعدت أنا ورون السلطات المحلية، كان الفنيون في مختبرات SLED في كولومبيا يُخضِعون الدليل القاطع الوحيد -وصية شاري الأخيرة- لكل اختبار يمكن تخيله. لقد تمت كتابته على ورقة مسطرة من دفتر قانوني، مما أعطى أحد المحللين فكرة.

وباستخدام جهاز يُدعى آلة Esta، أمكنه الكشف عن الانطباعات الطفيفة التي تم إجراؤها على الورق تقريبًا من الناحية الميكروسكوبية من الأوراق

التي كانت في الجزء العلوي من الورقة، اكتشف قائمة مشتريات جزئية وما بدا أنه سلسلة من الأرقام. في النهاية، تمكن من تكوين تسعة أرقام من تسلسل من عشرة أرقام: 205-837-13-8.

رمز منطقة ألاباما هو 205، و837 هو رقم مقسم هانتسفيل. من خلال العمل مع قسم الأمن في ساوذرن بل، اطلع SLED على جميع أرقام الهاتف العشارية المحتملة في هانتسفيل، ثم فحصها لمعرفة ما إذا كان أي منها مرتبطًا بمنطقة مقاطعة كولومبيا-ليكسينجتون. تلقى أحدهم مكالمات متعددة من منزل يبعد خمسة عشر ميلًا فقط عن منزل سميث، قبل عدة أسابيع من اختطاف شاري، كان هذا أكبر تقدم حتى الآن. وفقًا لسجلات البلدية، كان المنزل مملوكًا لزوجين في منتصف العمر، إليس وشارون شيبارد.

مسلحًا بهذه المعلومات، اصطحب مكارتي عدة أفراد إلى منزل شيبارد. كان سكان المنزل لطفاء ودمثين، ولكن بخلاف أن إليس، البالغ من العمر خمسين عامًا، كان كهربائيًّا، فلا شيء آخر عنه يناسب ملفنا التعريفي. كان آل شيبارد متزوجين بسعادة لسنوات عديدة ولم يكن لديهما أي من الخلفية التي توقعناها في القاتل. أقرا بإجراء مكالمات إلى هانتسفيل، حيث كان موقع ابنهما في الجيش، لكنهما قالا إنهما كانا خارج المدينة عندما تم ارتكاب جريمتي القتل الرهيبتين. بعد مثل هذه القيادة الجنائية الواعدة، كانت نتيجة مخيبة للآمال.

لكن مكارتي أمضى وقتًا طويلًا في العمل معنا وكان يؤمن بأن الملف التعريفي دقيق. وصفه لآل شيبارد، ثم سألهما عما إذا كانا يعرفان أي شخص قد يطابق هذه المواصفات.

تبادلا النظر لبعضهما في لحظة إدراك فوري. ووافقا على أن لاري جين بيل يطابق هذه المواصفات.

تحت استجواب مكارتي الدقيق، شرعا في إخبار المأمور كل شيء عن بيل. كان في أوائل الثلاثينيات من عمره، مطلق ولديه ابن يعيش مع زوجته السابقة، خجول وثقيل الوزن، وعمل لدى إليس في الأسلاك الكهربائية في منازل مختلفة ووظائف غريبة أخرى. كان دقيقًا ومنظمًا، وقد جلس في منزلهم لمدة ستة أسابيع كانوا بعيدين عنه. وعاد بعد ذلك للعيش مع والديه، اللذين كان يقيم معهما. يتذكر شارون شيبارد كتابة رقم هاتف ابنهما على

لوح كتابة لجين، كما اتصلا به، في حالة ظهور أي شيء بالمنزل في أثناء وجود جين هناك. والآن بعد أن فكرا في الأمر، عندما أقلهما في المطار، كل ما أراد التحدث عنه هو اختطاف وقتل فتاة سميث. لقد فوجئا بمظهره عندما رأياه: فقد وزنه، ولم يكن حليقًا، وبدا مضطربًا للغاية.

سأل مكارتي السيد شيبارد إذا كان لديه سلاح. أجاب إليس أنه احتفظ بمسدس عيار 38 في المنزل لحمايته. طلب مكارتي رؤيته، فأخذه إليس ملزمًا إلى حيث احتفظ بالسلاح. لكنه لم يكن هناك. فتش الرجلان كل أرجاء المنزل ووجدوه أخيرًا؛ تحت المرتبة التي كان ينام عليها جين. يبدو أنه استُخدِم وكان الآن مسدودًا.

وتحت المرتبة أيضًا، كانت هناك نسخة من مجلة Hustler، تظهِر شقراء جميلة مستعبدة في وضع المصلوب. وعندما شغل مكارتي جزءًا من إحدى المكالمات الهاتفية الموجهة لداون، كان إليس متأكدًا من أنه صوت لاري جين بيل الذي كان يستمع إليه: «لا شك في ذلك».

نحو الساعة الثانية صباحًا، طرق رون والكر بابي وأخرجني من السرير. لقد تلقى للتو مكالمة من مكارتي، الذي أخبرنا عن لاري جين بيل وطلب منا الحضور إلى المكتب على الفور. قمنا جميعًا بمطابقة الأدلة والملف التعريفي. كان من الغريب مدى دقة تطابقه. بدا هذا مثل طلقة أصابت الهدف. وأظهرت صور المأمور سيارة مسجلة لبيل على الطريق بالقرب من موقع القبر، لكن السائق لم يخرج منها.

خطط ميتس لإلقاء القبض على بيل في أثناء مغادرته للعمل في الصباح وطلب مشورة مني حول كيفية إجراء الاستجواب. خلف المكتب كان هناك مقطورة حصل عليها القسم في مداهمة مخدرات استخدموها كمكتب مساعد. بناءً على اقتراحي، قاموا بتحويله بسرعة إلى مقر «فريق عمل» للقضية. وضعوا صورًا للحالات وخرائط لموقع الجريمة على الجدران وكدسوا المكاتب عالية بالملفات ومواد القضية. أخبرتهم أن يديروا المقطورة برجال شرطة مشغولي المظهر لإعطاء الانطباع بوجود كمية هائلة من الأدلة التي تم جمعها ضد القاتل.

لقد حذرناهم من أن الحصول على اعتراف سيكون صعبًا. كانت ساوث كارولينا ولاية عقوبة الإعدام، وعلى أقل تقدير، كان الرجل يتوقع عقوبة سجن طويلة في أثناء قيامه بوقت عصيب كمتحرش بالأطفال وقاتل، وهذه بالتأكيد

ليست الظروف المثالية لشخص يقدِّر حياته وسلامته الجسدية. شعرت أن أفضل أمل هو سيناريو حفظ ماء الوجه؛ إما محاولة إلقاء بعض اللوم على الضحايا أنفسهم، بأكبر قدر من الهجومية التي يمكن أن يظهرها المحققون، أو جعله يوضح نفسه استنادًا إلى دفاع قائم على فكرة الجنون.

غالبًا ما يتجه الأشخاص المتهمون الذين ليس لديهم مخرج آخر إلى هذا، على الرغم من أنه (من الناحية الإحصائية) نادرًا ما يلجأ المحلفون إلى ذلك.

اعتقل عناصر المأمور لاري جين بيل في وقت مبكر من الصباح عندما غادر منزل والديه للعمل. راقب جيم ميتس وجهه بعناية في أثناء إحضاره إلى مقطورة «فرقة العمل». قال المأمور: «كان الأمر أشبه بطلاء أبيض على وجهه». «وضعته في المنظور النفسي المناسب». أطلعته على حقوقه، ووافق على التحدث إلى المحققين.

ذهب الضباط إليه معظم اليوم بينما انتظرت أنا ورون في مكتب ميتس، تلقينا نشرات حول التقدم وقمنا بتدريبهم على ما يجب القيام به بعد ذلك. في غضون ذلك، كان نواب مسلحون بأمر تفتيش يفحصون منزل بيل. كما كان من الممكن أن نتوقع، كان حذاؤه موضوعًا تمامًا أسفل سريره، وكان مكتبه مُرتبًا بدقة، حتى الأدوات الموجودة في صندوق سيارته التي يبلغ عمرها ثلاث سنوات والتي تمت صيانتها جيدًا ثم ترتيبها على هذا النحو. عثروا على مكتبه على توجيهات إلى منزل والديه مكتوبة على وجه التحديد بنفس الطريقة التي أعطاها لمواقع رمي جثتي سميث وهيلميك. وجدوا المزيد من المواد الإباحية المتعلقة بالاستعباد والسادية-المازوخية كما توقعنا. وجد الفنيون شعيرات على سريره تتطابق مع شعيرات شاري، والطابع التذكاري المستخدم لإرسال شهادتها ووصيتها الأخيرة يطابق مجموعة موجودة في درج مكتبه. وعندما عُرضت صورته لاحقًا في نشرة الأخبار التلفزيونية، تعرف عليه الشاهد على اختطاف ديبرا هيلميك على الفور.

ظهرت خلفيته بسرعة. كما توقعنا؛ كان متورطًا في العديد من الحوادث الجنسية منذ الطفولة، والتي خرجت أخيرًا عن السيطرة عندما كان في السادسة والعشرين من عمره وحاول إجبار امرأة متزوجة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا على ركوب سيارته تحت تهديد السكين. لتجنب الذهاب إلى السجن، وافق على استشارة نفسية، لكنه تركها بعد جلستين. بعد خمسة أشهر حاول إجبار فتاة جامعية على الصعود إلى سيارته تحت تهديد السلاح.

حُكم عليه بالسجن خمس سنوات وأُطلق سراحه المشروط بعد واحد وعشرين شهرًا. في أثناء فترة المراقبة، أجرى أكثر من ثمانين مكالمة هاتفية بذيئة لفتاة تبلغ من العمر عشر سنوات. اعترف بالذنب وحصل فقط على مزيد من المراقبة.

لكن بالعودة إلى المقطورة، لم يكن بيل يتحدث. ونفى ضلوعه في الجرائم، معترفًا أنه كان مهتمًا بها وحسب. حتى بعد تشغيل الأشرطة له، لم يستجب. بعد نحو ست ساعات، قال إنه يريد التحدث إلى المأمور ميتس شخصيًّا. جاء ميتس وتلا عليه حقوقه مرة أخرى، لكنه لم يعترف بأي شيء.

لذا، في وقت متأخر من بعد الظهر، كنت لا أزال أنا ورون في مكتب المأمور حين جاء ميتس ونائب المقاطعة دون مايرز (يُدعى محامي المقاطعة في ساوث كارولينا) مع بيل. إنه سمين وناعم ويذكرني بـ Pillsbury Doughboy. فوجئت أنا ورون، وقال مايرز لبيل بلهجته الكارولينية، «هل تعرف من هم هؤلاء الشباب؟ إنهم من الـ إف – بي - آي. كما تعلم، قاموا بعمل ملف تعريف وهو يناسبك تمامًا بأدق ما يمكن! الآن هؤلاء الشباب يريدون التحدث معك قليلًا». أجلسوه على هذه الأريكة البيضاء المواجهة للحائط، ثم خرج كلاهما وتركانا وحدنا مع بيل.

كنت جالسًا على حافة طاولة القهوة أمام بيل مباشرة. رون يقف ورائي. ما زلت أرتدي ما كنت قد غادرت الفندق به قبل بزوغ الفجر بوقت طويل؛ قميص أبيض وبنطلون أبيض مطابق عمليًا. أسميها ملابس هاري بيلافونتي الخاصة بي، لكن في هذا السياق، في الغرفة البيضاء ذات الأريكة البيضاء، كنت أشعر أني في عيادة؛ من عالم آخر تقريبًا.

بدأت بإعطاء بيل بعض المعلومات الأساسية عن دراستنا عن القاتل المتسلسل وأوضحت له أنه من خلال بحثنا، فإني أتفهم تمامًا دافع الفرد المسؤول عن جرائم القتل هذه. أقول له إنه ربما كان ينكر الجرائم طوال اليوم لأنه يحاول قمع الأفكار التي لا يشعر بالرضا عنها.

قلت: «عند الدخول إلى السجون وإجراء مقابلات مع كل هؤلاء الأشخاص، فإن أحد الأشياء التي وجدناها هو أن الحقيقة لا تظهر أبدًا حول خلفية الشخص. وعمومًا عندما تحدث جريمة مثل هذه، فهي تكون أشبه بالكابوس بالنسبة إلى الشخص الذي ارتكبها. إنهم يمرون بالعديد من الضغوطات المسببة للتوتر في حياتهم؛ مشكلات مالية أو مشكلات زوجية أو مشكلات

مع حبيبة». وبينما كنت أقول هذا، كان يهز رأسه كما لو كانت لديه كل هذه المشكلات.

ثم تابعت: «المشكلة بالنسبة إلينا يا لاري، هي أنه عندما تذهب إلى المحكمة، من المحتمل ألا يرغب محاميك في اتخاذ موقف، ولن تتاح لك الفرصة أبدًا لشرح موقفك. كل ما سيعرفونه عنك هو الجانب السيئ منك، لا شيء جيد عنك، لا شيء سوى أنك قاتل بدم بارد. وكما قلت، وجدنا أنه في كثير من الأحيان عندما يفعل الناس هذا النوع من الأشياء، يكون الأمر مثل كابوس، وعندما يستيقظون في صباح اليوم التالي، لا يمكنهم تصديق أنهم ارتكبوا هذه الجريمة بالفعل».

طوال الوقت الذي أتحدث فيه، كان بيل لا يزال يهز رأسه موافقًا.

لم أسأله صراحةً في تلك المرحلة عما إذا كان قد ارتكب جرائم القتل، لأنني أعلم أنه إذا كنت أصفها بهذه الطريقة، فسوف أحصل على الإنكار. لذا اقتربت منه قائلًا: «متى بدأت تشعر بالسوء حيال الجريمة يا لاري؟»

فقال: «عندما رأيت صورة وقرأت مقالًا في الجريدة عن العائلة وهم يصلون في المقبرة». قلت: «لاري، بما أنك جالس هنا الآن، هل فعلت هذا الشيء؟ هل يمكن أن تفعل ذلك؟» في هذا النوع من الأوضاع، فإننا نحاول الابتعاد عن الكلمات الاتهامية أو التحريضية مثل *قتل*، وجريمة، وذبح.

نظر إليَّ والدموع في عينيه وقال: «كل ما أعرفه هو أن لاري جين بيل الجالس هنا لم يكن ليفعل ذلك، لكن لاري جين بيل السيئ كان من الممكن أن يفعل ذلك».

علمت أن هذا كان أقرب ما يمكن أن نصل إليه في اعتراف. لكن دون مايرز أراد منا أن نجرب شيئًا آخر، وقد وافقته في ذلك. كان يعتقد أنه إذا تمت مواجهة بيل وجهًا لوجه مع والدة شاري وأختها، فقد نتلقى رد فعل فوريًا منه.

وافقت هيلدا وداون على هذا، وبدأت أحضرهما لما أريدهما أن تقولاه وكيف أريدهما أن تتصرفا. نحن إذن في مكتب ميتس. إنه جالس خلف مكتبه الضخم، وأنا ورون والكر على جانبي الغرفة، ونشكل مثلثًا. أحضروا بيل وأجلسوه في المنتصف في مواجهة الباب. ثم أحضروا هيلدا وداون وأخبروا

بيل أن يقول شيئًا. يبقي رأسه منخفضًا، كما لو أنه لا يستطيع أن يجبر نفسه على النظر إليهما.

ولكن كما أوعزت إليها، نظرت داون في عينيه مباشرة وقالت: «أنت! أعرف أنك أنت. تعرفت على صوتك».

لا ينكر ذلك، لكنه لا يعترف بذلك أيضًا. بدأ يعيد لهما كل الأشياء التي أعطيته إياها لحمله على التحدث. يقول إن لاري جين بيل الجالس هنا لم يكن ليفعل ذلك وكل الهراء الآخر. ما زلت آمل أن يستغل إمكانية الدفاع عن الجنون وأن يبث شجاعته عليهما.

استمر هذا لفترة. تستمر السيدة سميث في طرح الأسئلة عليه في محاولة لإخراجه. في الداخل، أنا متأكد من أن الجميع يشعرون بالغثيان لسماع هذا.

ثم فجأة، لمعت في ذهني فكرة. تساءلت عما إذا كانت داون أو هيلدا مسلحة. هل تم تفتيشهما لمعرفة ما إذا كان لدى أي منهما سلاح، لأنني لا أتذكر أن أحدًا فعل ذلك. لذلك طوال الوقت الآن كنت جالسًا على حافة مقعدي، متحفزًا للوثب، وعلى استعداد لأخذ مسدسي ونزع سلاح أي منهما إذا حاولت إحداهما الوصول إلى محفظتها. أعرف ما كنت أرغب في فعله في موقف كهذا لو كانت طفلتي، ويشعر الكثير من الآباء الآخرين بنفس الشعور. هذه فرصة مثالية لقتل هذا الرجل ولن تدينه أي هيئة محلفين في العالم.

لحسن الحظ لم تحاول هيلدا أو داون تهريب سلاح. كان لديهما قدر أكبر من ضبط النفس والإيمان بالنظام أكثر مما كنت أنا لأمتلكه، لكن رون تحقق بعد ذلك، وبالفعل لم يتم تفتيشهما.

قُدِّم لاري جين بيل للمحاكمة بتهمة قتل شاري فاي سميث في أواخر يناير التالي. بسبب الكم الهائل من الدعاية الإعلامية، تم تغيير المكان إلى مقاطعة بيركلي، بالقرب من تشارلستون. طلب مني دون مايرز أن أدلي بشهادتي كشاهد خبير حول الملف التعريفي وكيف تم تطويره، وحول استجوابي للمدعى عليه.

لم يصعد بيل إلى المنصة ولم يعترف قط بأي تهمة. ما قاله لي في مكتب المأمور ميتس كان أقرب ما تطرق إليه على الإطلاق. لقد أمضى معظم المحاكمة في تدوين ملاحظات قهرية وفيرة على نفس النوع من الدفاتر القانونية التي كُتبت عليها وصية شاري سميث الأخيرة. ومع ذلك، كانت

القضية مقنعة للغاية. بعد ما يقرب من شهر من الشهادة، احتاجت هيئة المحلفين إلى سبع وأربعين دقيقة فقط لإصدار حكم بتهمة الاختطاف والقتل من الدرجة الأولى. بعد أربعة أيام، بناء على مزيد من التفصيل والتوصية من هيئة المحلفين، حُكم عليه بالإعدام على الكرسي الكهربائي. وقد حوكم بشكل منفصل بتهمة اختطاف وقتل ديبرا ماي هيلميك. لم تحتج هيئة المحلفين تلك إلى وقت أطول للتوصل إلى نفس الحكم والعقاب.

من وجهة نظري، كانت قضية لاري جين بيل مثالًا على تطبيق القانون في أفضل حالاته. كان هناك تعاون كبير بين العديد من المقاطعات والولايات والوكالات الفيدرالية؛ قيادة محلية حساسة وحيوية؛ عائلتان بطوليتان والتعايش التام بين التنميط وتحليل الجريمة وتقنيات الشرطة والطب الشرعي التقليدية. من خلال العمل معًا، أوقفت كل هذه العوامل قاتلًا متسلسلًا خطيرًا بشكل متزايد في بداية حياته المهنية المحتملة. أرغب في أن يكون نموذجًا للتحقيقات المستقبلية.

واصلت داون سميث القيام بأشياء مثيرة للإعجاب في حياتها. في العام التالي للمحاكمة، فازت بلقب ملكة جمال ساوث كارولينا وكانت وصيفة في مسابقة ملكة جمال أمريكا. تزوجت وواصلت طموحاتها الموسيقية وأصبحت مغنية كاونتري ومنشدة كنيسة. أراها على شاشة التلفاز بين حين وآخر.

حتى كتابة هذه السطور، لا يزال لاري جين بيل ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه[1] في مرفق الإصلاح المركزي بجنوب كارولينا حيث يحافظ على زنزانته نظيفة ومنظمة بشكل ملحوظ. تعتقد الشرطة أنه مسؤول عن عدد من جرائم القتل الأخرى للفتيات والشابات في كل من ولاية كارولينا الشمالية والجنوبية. بقدر ما أشعر بالقلق، بناءً على بحثي وخبرتي، لا توجد إمكانية لإعادة تأهيل هذا النوع من الأفراد. إذا سُمِح له بالخروج، فسوف يقتل مرة أخرى. وبالنسبة إلى أولئك الذين يجادلون بأن مثل هذه الإقامة الطويلة في طابور الإعدام تشكل عقوبة قاسية وغير عادية، فقد أتفق معهم إلى حد ما. يعد تأخير فرض العقوبة النهائية أمرًا قاسيًا وغير معتاد؛ بالنسبة إلى عائلات سميث وهيلميك، والكثير ممن عرفوا وأحبوا هاتين الفتاتين، وجميعنا ممن يريدون تحقيق العدالة.

(1) جرى تنفيذ حكم الإعدام بلاري جين بيل في 4 أكتوبر، 1996.

17

يمكن لأي شخص أن يكون ضحية

في 1 يونيو، 1989، اكتشف صياد في قاربه ثلاث «جثث طافية» في خليج تامبا بولاية فلوريدا. اتصل بخفر السواحل وشرطة سانت بطرسبرغ، الذين أزالوا الجثث المتحللة بشكل سيئ من الماء. كانوا جميعًا من الإناث، مقيَّدات بربطة مزدوجة من حبل بلاستيكي أصفر وحبل أبيض عادي. تم تثقيل الثلاثة جميعًا بكتل من الطوب يبلغ وزنها خمسين باوندًا مربوطة حول الرقبة. كانت هذه الكتل ذات فتحتين بدلًا من النوع الأكثر شيوعًا ثلاثي الثقوب. غطى الشريط اللاصق الفضي الأفواه، وبدا أنه غطى العينين من البقايا عندما أُسقِطت في الماء، وكان الثلاثة يرتدين قمصان وصدريات ملابس السباحة. كان الجزء السفلي من البذلة مفقودًا، مما يوحي بشيء من الطبيعة الجنسية للجريمة، على الرغم من أن حالة الجثث في الماء لم تسمح بأي قرار شرعي للاعتداء الجنسي.

من السيارة التي تم العثور عليها بالقرب من الشاطئ، تم التعرف على الجثث الثلاث لجوان روجرز، ثمانية وثلاثين عامًا، وابنتيها، ميشيل البالغة من العمر سبعة عشر عامًا وكريستي البالغة من العمر خمسة عشر عامًا. كن يعِشْن في مزرعة في ولاية أوهايو، وكانت هذه أول إجازة حقيقية لهن. لقد ذهبن بالفعل إلى ديزني وورلد وأقَمْن في فندق دايز إن في سانت بطرسبرغ قبل العودة إلى ديارهن. لم يشعر السيد روجرز أنه يستطيع قضاء الوقت بعيدًا عن المزرعة ولم يرافق زوجته وبناته.

حدد فحص محتويات معدة المرأة المتوفاة، مع نتائج مقابلات مع عمال المطعم في دايز إن، وقت الوفاة قبل نحو ثمانٍ وأربعين ساعة. الدليل

الوحيد الملموس من فحص الطب الشرعي كان ملاحظة مكتوبة عُثِر عليها في السيارة تقدم توجيهات من دايز إن إلى المكان الذي تم العثور فيه على السيارة. على الجانب الآخر توجد الاتجاهات وخريطة مرسومة من شارع ديل مابري التجاري المزدحم في سانت بطرسبرغ إلى الفندق.

أصبحت القضية على الفور حدثًا إخباريًّا رئيسيًّا، شهدت تدخل إدارتَي الشرطة في سانت بطرسبرغ وتامبا وإدارة شرطة مقاطعة هيلزبره. كان الهلع بين العامة كبيرًا. فإذا كان من الممكن قتل هؤلاء السياح الأبرياء الثلاثة من ولاية أوهايو بهذه الطريقة، فقد اعتقد الجميع أنه يمكن لأي شخص أن يكون ضحية.

حاولت الشرطة متابعة المذكرة، ومطابقة خط اليد مع خط موظفي الفندق والأشخاص في المتاجر والمكاتب حول المنطقة في ديل مابري حيث بدأت التوجيهات. لكنهم لم يأتوا بشيء. ومع ذلك، كانت الطبيعة الجنسية الوحشية لعمليات القتل مقلقة وذات معنى. اتصل مكتب مأمور هيلزبره بمكتب تامبا الميداني التابع لـ إف بي آي، قائلًا: «قد يكون لدينا قضية متسلسلة»، ومع ذلك فلم يسفر العمل المشترك لسلطات الشرطة الثلاث ومكتب التحقيقات الفيدرالي عن تقدم كبير.

كانت جانا مونرو وكيلة في مكتب تامبا الميداني. قبل مجيئها إلى المكتب، كانت ضابطة شرطة ثم محققة جرائم قتل في كاليفورنيا. في سبتمبر 1990، بعد أن قابلتنا أنا وجيم رايت من أجل افتتاح في الوحدة، طلبنا إعادة تعيينها إلى كوانتيكو. كانت جانا منسقة ملفات التعريف في المكتب الميداني، وبمجرد انضمامها إلى الوحدة، أصبحت روجرز واحدة من أولى القضايا التي تعاملت معها من أجلنا.

توجه ممثلو شرطة سانت بيت بالطائرة إلى كوانتيكو وقدموا القضية إلى جانا ولاري أنكروم وستيف إيتر وبيل هاجماير وستيف مارديجيان. ثم قاموا بتطوير ملف تعريف يصف الرجل الأبيض في منتصف الثلاثينيات إلى منتصف الأربعينيات من عمره. يشغل في الغالب وظيفة مهنية أو حرفية؛ من نمط أعمال ومهن صيانة المنازل لم يصل مرحلة متقدمة من التعليم؛ له تاريخ من حوادث الاعتداء الجنسي والجسدي وعانى من حدوث عوامل ضغط قبل جريمة القتل مباشرة. حالما خفت حرارة التحقيق، كان سيغادر المنطقة، لكن كما في حالة جون برانت في قضية كارلا براون، فقد يعود لاحقًا.

كان العملاء واثقين من الملف التعريفي، لكنه لم يؤد إلى اعتقال. تم إحراز تقدم ضئيل. لقد احتاجوا إلى نهج أكثر استباقية، لذلك ظهرت جانا في برنامج *ألغاز لم تحلّ Un-Solved Mysteries*، وهو أحد البرامج التلفزيونية المشهورة على المستوى الوطني والتي غالبًا ما يكون لها نتائج جيدة في تحديد موقع المشتبه بهم مجهولي الهوية والتعرف عليهم. تم إنشاء آلاف الأدلة والخيوط بعد ظهور جانا ووصف الجريمة، ولكن مع ذلك لم يتم استبعاد أي منهم.

إذا لم ينجح شيء ما، أقول لزملائي دائمًا عليكم تجربة شيء آخر، حتى لو لم يتم تجربته من قبل. وهذا ما فعلته جانا. يبدو أن ملاحظة الاتجاهات المكتوبة هي العنصر الوحيد الذي يربط الضحايا بالقاتل، لكنها حتى الآن لم تكن مفيدة للغاية. نظرًا لأن القضية كانت معروفة جيدًا في مجتمع تامبا-سان بطرسبرغ، خطرت لها فكرة نشرها على اللوحات الإعلانية لمعرفة ما إذا كان أي شخص قد تعرف على خط اليد. من المقبول في دوائر تطبيق القانون أن معظم الناس لن يتعرفوا على خط اليد خارج أسرهم المقربين والأصدقاء المقربين، لكن جانا اعتقدت أن شخصًا ما قد يتقدم، وبخاصة إذا كان الجاني المجهول مسيئًا وكانت الزوجة أو الشريكة تبحث عن سبب لتوريطه.

تبرع العديد من رجال الأعمال المحليين بمساحة للوحة الإعلانات، وتم نسخ المذكرة ليراها الجميع. في غضون يومين، اتصل ثلاثة أفراد منفصلين لم يلتقوا بعضهم ببعض بالشرطة وحددوا خط اليد على أنه ينتمي إلى أوبا تشاندلر، وهو رجل أبيض في منتصف الأربعينيات من عمره. قام كل من هؤلاء الأشخاص الثلاثة برفع دعوى قضائية، وهو يعمل، بشكل غير مرخّص، في تركيب جوانب الألمونيوم، إذ انفصلت حواجزهم المثبتة حديثًا بعد أول هطول للأمطار الغزيرة. كانوا متأكدين جدًّا من بطاقة الهوية لأن كلًّا منهم لديه نسخة مكتوبة بخط اليد من رده القانوني على التهم الموجهة إليه.

بالإضافة إلى العمر والمهنة، فهو يلائم الملف التعريفي في مجالات رئيسية أخرى. كان لديه سجل سابق بجرائم الممتلكات والاعتداء والضرب والاعتداء الجنسي. لقد انتقل من المنطقة بعد أن خف الضجيج عن قضاياه، على الرغم من أنه لم يشعر بالحاجة إلى مغادرة المنطقة أساسًا. كان عامل الضغط الشديد هو أن زوجته الحالية أنجبت للتو طفلًا لم يكن يريده. وكما يحدث غالبًا بمجرد أن تفعل شيئًا لفتح القضية، تتقدم ضحية أخرى بعد سماع تفاصيل القتل. التقت امرأة وصديقتها برجل يطابق وصف تشاندلر

وأرادهما أن تخرجا معه على قاربه في خليج تامبا. كان لدى الصديقة شعور سيئ تجاه الأمر برمته، ورفضت، فذهبت هذه المرأة وحدها.

عندما خرجا في منتصف الخليج، حاول اغتصابها. عندما حاولت المقاومة، حذرها: «لا تصرخي وإلا سأضع شريطًا لاصقًا على فمك، وأربطك بحجر من الطوب، وأغرقك!»

تم القبض على أوبا تشاندلر، وحوكم، وأدين بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى لجوان وميشيل وكريستي روجرز. حُكم عليه بالإعدام.

كان ضحاياه عاديين، واثقين من الناس الذين كانت نظرتهم شبه عشوائية. أحيانًا يكون الاختيار عشوائيًا تمامًا، مما يثبت التأكيد المخيف على أن أي شخص يمكن أن يكون ضحية. وفي مثل هذه المواقف، كما في حالة روجرز، تصبح التقنيات الاستباقية ذات أهمية قصوى.

في أواخر عام 1982، توفي عدد من الأشخاص في ظروف غامضة في منطقة شيكاغو. لم يمض وقت طويل حتى توصلت شرطة شيكاغو إلى علاقة بين الوفيات وقامت بعزل السبب: أخذ الضحايا جميعًا كبسولات تايلينول التي تحتوي على السيانيد. بمجرد تحلل الكبسولة في المعدة، كان يأتي الموت سريعًا.

طلب مني إد هاجرتي، العميل المسؤول عن مكتب شيكاغو، أن أحضر التحقيق. لم أعمل مطلقًا في قضايا العبث بالمنتج، ولكني فكرت في الأمر على نحو أنني أدركت أن الكثير مما تعلمته من المقابلات في السجن والخبرة مع مجموعة متنوعة من أنواع المخالفين الأخرى يجب أن ينطبق هنا أيضًا. في ملفات الـ إف بي آي، أصبحت القضية تُعرف باسم «تيمورز- Tymurs».

كانت المشكلة الأساسية التي واجهت المحققين هي الطبيعة العشوائية لحالات التسمم. نظرًا لأن الجاني لم يستهدف ضحية معينة ولم يكن حاضرًا في موقع الجريمة، فإن نوع التحليل الذي نجريه في العادة لن يكشف عن أي شيء بشكل مباشر.

كانت جرائم القتل بلا دافع على ما يبدو، أي أنها لم تكن مدفوعة بأي من الدوافع التقليدية المعروفة مثل الحب أو الغيرة أو الجشع أو الانتقام. يمكن أن يستهدف المسمم الشركة المصنعة، شركة جونسون آند جونسون Johnson & Johnson، أو أيًا من المتاجر التي تبيع المنتج، أو واحدًا أو أكثر من الضحايا، أو المجتمع بشكل عام.

رأيت هذه التسممات على أنها نفس النوع من أعمال القصف العشوائي أو إلقاء الحجارة من ممر علوي على السيارات في الأسفل. في كل هذه الجرائم، لا يرى الجاني وجه ضحيته أبدًا. لقد صورت هذا الجاني -مثل ديفيد بيركويتز وهو يطلق النار على سيارات معتمة- على أنه أكثر اهتمامًا بالتعبير عن غضبه أكثر من اهتمامه باستهداف نوع معين من الضحايا. إذا تم صنع هذا النوع من الموضوعات لرؤية وجوه ضحاياه، فقد تكون لديه أفكار أخرى أو يظهر بعض الندم.

بالنظر إلى المقارنة الجاهزة مع الجرائم العشوائية الجبانة الأخرى، فقد شعرت أن لدي فهمًا لما سيكون عليه المشتبه به مجهول الهوية. على الرغم من أننا نتعامل مع نوع مختلف من الجريمة، فإن الملف التعريفي كان مألوفًا من نواحٍ كثيرة. أظهر بحثنا أن الأشخاص الذين يقتلون دون تمييز دون السعي وراء الدعاية يميلون إلى أن يكونوا مدفوعين بالغضب في المقام الأول. اعتقدت أن هذا الرجل سيعاني من فترات اكتئاب حاد وسيكون من النوع اليائس والذي يشعر بقصوره، وكان سيختبر الفشل طوال حياته في المدرسة والوظائف والعلاقات.

إحصائيًّا، من المحتمل أن يكون الجاني مناسبًا لقالب قاتل الاغتيال؛ ذكر أبيض في أواخر العشرينيات من عمره إلى أوائل الثلاثينيات، وحيد، ليلي. كان سيذهب إلى منازل الضحايا أو يزور مواقع المقابر، وربما يترك شيئًا مهمًّا هناك. كنت أتوقع أن يتم توظيفه في منصب قريب من مصدر نفوذ وسلطة بأقرب ما يمكن، مثل سائق سيارة أو حارس أمن أوحارس متاجر أو شرطي احتياطي.

ربما تكون لديه بعض الخبرة العسكرية، سواء في الجيش أو المارينز.

اعتقدت أنه كان قد تلقى علاجًا نفسيًّا في الماضي وكان يتعاطى وصفة طبية للسيطرة على مشكلته. سيكون عمر طراز سيارته على الأقل خمس سنوات، ولن يتم صيانتها جيدًا ولكنها تمثل القوة والسلطة، مثل طراز فورد الذي تفضله إدارات الشرطة. قرب موعد التسمم الأول -نحو 28 أو 29 سبتمبر- كان سيواجه ضغوطًا متسارعة دفعته ربما لأن يلقي باللوم على المجتمع بشكل عام، مما أدى إلى تأجيج غضبه. وبمجرد أن تصبح القضية علنية، كان يناقشها مع من يستمع إليه في الحانات والصيدليات ومع الشرطة. كانت القوة التي مثلتها هذه الجرائم تُعَد دفعة كبيرة للأنا، مما يشير إلى أنه قد يحتفظ بمذكرات أو سجل قصاصات للتغطية الإعلامية.

أخبرتُ الشرطة أنه من المحتمل أيضًا أنه كتب إلى أشخاص في مناصب في السلطة -الرئيس، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، المحافظ، رئيس البلدية- للشكوى من الأخطاء المتصورة المرتكبة ضده. في الرسائل الأولى، كان سيوقع باسمه. مع مرور الوقت دون نيله ما يعده استجابة مناسبة من أي شخص، أصبح ساخطًا من التجاهل. قد تكون عمليات القتل العشوائية هذه هي طريقته في الرد على أولئك الذين لم يأخذوه على محمل الجد.

أخيرًا، حذرت من قراءة الكثير عن اختيار الـ *تايلينول Tylenol* كوسيلة للتسمم. كانت هذه عملية فجة قذرة. كان تايلينول عقارًا شائعًا وكانت الكبسولات سهلة الفتح. كان من المحتمل على الأقل أنه أحب العبوة بقدر ما كان لديه أي ضغينة خاصة ضد جونسون آند جونسون.

كما هو الحال مع مرتكبي جرائم التفجير المتسلسلة، ومفتعلي الحرائق، وحالات أخرى من هذا القبيل، في مدينة كبيرة مثل شيكاغو، فإن كثيرًا من الناس يلائمون الملف التعريفي العام. لذلك، كما في قضية روجرز، كان الجانب الأكثر أهمية هو التركيز على التقنيات الاستباقية. كان على الشرطة الاستمرار في الضغط على المشتبه به مجهول الهوية وعدم السماح له بالتأقلم. كانت إحدى الطرق التي تمكنوا من القيام بذلك من خلال إصدار بيانات إيجابية فقط. في الوقت نفسه، حذرتُهم من استفزازه عبر تسميته بالمجنون، الأمر الذي كان، لسوء الحظ، يحصل فعلًا.

أما ما هو أهم من ذلك، فهو تشجيع الصحافة على طباعة مقالات لإضفاء الطابع الإنساني على الضحايا، حيث إن طبيعة الجريمة ذاتها تميل إلى تجريدهم من إنسانيتهم في ذهن المشتبه به مجهول الهوية. اعتقدتُ بشكل خاص أنه قد يبدأ في الشعور ببعض الذنب إذا أُجبر على مواجهة الوجه الإنساني لفتاة متوفاة تبلغ من العمر اثني عشر عامًا، وقد نتمكن من الوصول إليه من خلال ذلك.

كنوع من الاختلاف عما جربناه في أتالانتا وفي قضية شاري سميث، اقترحت عقد وقفة احتجاجية ليلية في مواقع قبور بعض الضحايا، ورجَّحتُ أن المشتبه به مجهول الهوية قد يحضرها. وإدراكًا مني أن الجاني لم يكن يشعر بالرضا عن نفسه على الأرجح، فقد نصحت أيضًا بعمل تغطية صحفية مكثفة لإحياء الذكرى السنوية للجرائم.

اعتقدت أنه يمكننا تشجيعه على زيارة متاجر معينة بالطريقة التي تمكنا فيها من «توجيه» لصوص البنوك في ميلووكي وديترويت لإيقاف فروع

مصرفية معينة حيث كنا ننتظرهم. على سبيل المثال، يمكن للشرطة تسريب معلومات حول الخطوات التي يتم اتخاذها لحماية العملاء في متجر معين. اعتقدت أن الرجل قد يشعر بأنه مضطر لزيارة هذا المتجر ليرى آثار أفعاله من كثب. قد يكون الاختلاف في ذلك هو نشر مقال عن مدير متجر متعجرف يصرح علنًا بمدى ثقته في أمن مؤسسته وأنه سيكون من المستحيل على سموم تايلينول التلاعب بأي منتج على أرففه. هناك نسخة أخرى من هذه الحيلة تتمثل في جعل الشرطة وعملاء الـ إف بي آي يستجيبون لـ «نصيحة سريعة» في متجر معين، مع الدعاية المصاحبة. هذا من شأنه أن يكون إنذارًا خاطئًا. لكن الشرطة الرسمية ستعلن بعد ذلك للكاميرات أن قدرة استخبارات الإدارة فعالة للغاية لدرجة أن الشخص المجهول قرر عدم زرع مادة تايلينول المسمومة. هذا من شأنه أن يوفر له تحديًا غير مباشر قد يجد صعوبة في تفويته.

يمكننا أن نضع طبيبًا نفسيًّا حنون القلب يجري مقابلة يعرض فيها دعمه الكبير للجاني، مصنفًا إياه كضحية للمجتمع وتزويده بالتالي بسيناريو يحفظ ماء الوجه. من المتوقع أن يكون الجاني مستعدًّا للاتصال بمكتب الطبيب أو زيارته، حيث سنكون مستعدين للإيقاع به وتعقبه.

فكرت كذلك أنه إذا أنشأ المسؤولون فريق عمل مدنيًّا متطوعًا لمساعدة الشرطة بكل النصائح التي تم تقديمها عبر الهاتف، فمن المحتمل أن يتطوع الجاني للمساعدة في إدارتها. لو كنا قادرين على إنشاء شيء من هذا القبيل في أتالانتا، أعتقد أننا كنا سنرى واين ويليامز. كان تيد بوندي، في وقته، متطوعًا في مركز أزمات الاغتصاب في سياتل.

هناك دائمًا بعض الحسرة من جانب أجهزة إنفاذ القانون بشأن التعاون الوثيق جدًّا مع -أو استخدام- وسائل الإعلام. لقد ظهر هذا عدة مرات في حياتي المهنية. بالعودة إلى أوائل الثمانينيات، عندما كان برنامج التنميط جديدًا نسبيًّا، تم استدعائي إلى المقر الرئيسي للقاء قسم التحقيقات الجنائية والمستشار القانوني للمكتب لشرح بعض تقنياتي الاستباقية.

«جون، أنت لا تكذب على الصحافة، أليس كذلك؟»

أعطيتهم مثالًا حديثًا عن كيفية نجاح نهج استباقي ناجح في التعامل مع وسائل الإعلام. في سان دييجو، تم العثور على جثة شابة في التلال، مخنوقة ومغتصَبة، مع طوق كلب حول رقبتها. عُثر على سيارتها على أحد الطرق

السريعة. على ما يبدو نفد الجاز لديها وأخذها قاتلها -إما كسامري طيب أو عنوة- ثم وضعها إلى حيث تم العثور عليها.

اقترحت على الشرطة أن تنشر المعلومات للصحافة بترتيب معين. أولًا، يجب أن يصفوا الجريمة وتحليلنا للجريمة. ثانيًا، يجب أن يؤكدوا الاتجاه الكامل لالتزام مكتب التحقيقات الفيدرالي مع سلطات الولاية والسلطات المحلية وأنه «إذا استغرق الأمر عشرين عامًا، فسوف نصل إلى هذا الرجل!» وثالثًا، على طريق مزدحم مثل ذلك الذي انتُهكت فيه امرأة شابة، كان على شخص ما أن يرى شيئًا ما. أردت أن تَذكُر القصة الثالثة أنه كانت هناك تقارير عن شخص ما أو شيء مريب حول وقت اختطافها وأن الشرطة كانت تطلب من العامة الإدلاء بالمعلومات.

كان تفكيري هنا أنه إذا اعتقد القاتل أن شخصًا ما قد رآه في وقت ما (وهو ما فعله أحد ما على الأرجح)، فسوف يعتقد آنئذ أنه يتعين عليه تحييد ذلك مع الشرطة، لشرح وجوده في مكان الحادث وإضفاء الشرعية عليه. كان يتقدم ويقول شيئًا من نوع: «مررت بسيارتي ورأيتها عالقة هناك. توقفت وسألت عما إذا كان بإمكاني المساعدة، لكنها قالت إنها بخير، لذا تابعت طريقي بالسيارة».

الآن، تطلب الشرطة المساعدة من الجمهور طوال الوقت من خلال وسائل الإعلام. لكن في كثير من الأحيان لا يعدونه أسلوبًا استباقيًّا. أتساءل كم مرة تقدم الجناة الذين تسللوا من بين أصابعهم لأنهم لم يعرفوا ما الذي يبحثون عنه. بالمناسبة، هذا لا يعني أن الشهود الحقيقيين بحاجة ليخافوا شيئًا من أجل تقديم قصصهم. لن تصبح مشتبهًا به، لكنك قد تساعد كثيرًا في القبض على أحد المشتبه بهم.

في حالة سان دييجو، نجحت التقنية تمامًا كما أوضحتها. أدخل المشتبه به مجهول الهوية نفسه في التحقيق وتم القبض عليه.

«حسنًا دوجلاس، نحن نتفهم وجهة نظرك»، أجاب موظفو إف بي آي على مضض. «أبقنا فقط على اطلاع كلما كنت تعتقد أنك ستستخدم هذا النهج». إن أي شيء جديد أو مبتكر يمكن أن يكون مخيفًا للبيروقراطية.

كنت آمل أنه بطريقة أو بأخرى، يمكن للصحافة أن تساعد في الإيقاع بمسمم مادة تايلينول. التقى بوب جرين، كاتب العمود الشهير في شيكاغو تريبيون، بالشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي. ثم كتب مقالًا مؤثرًا عن

ماري كيليرمان البالغة من العمر اثني عشر عامًا، أصغر ضحية للسموم والطفلة الوحيدة لزوجين غير قادرين على إنجاب المزيد من الأطفال. مع ظهور القصة، كانت الشرطة وعملاء إف بي آي على استعداد لمراقبة منزلها وقبرها. أعتقد أن معظم الأشخاص المنخرطين في هذا قد اعتقدوا أنه هراء، وأن القتلة المليئين بالذنب و/أو الذين يسترجعون أفعالهم بسعادة لا يعودون إلى مواقع المقابر. لكنني حثثتهم على منح القضية أسبوعًا واحدًا.

كنت لا أزال في شيكاغو عندما كانت الشرطة تراقب المقبرة، وكنت أعلم أنني سأواجه غضبهم إذا لم يأتوا بأي شيء. الرهانات هي عمل ممل وغير مريح في ظل أفضل الظروف. وتصبح أسوأ في مقبرة في الليل.

الليلة الأولى، لم يحدث شيء. الجو ساكن وهادئ. لكن في وقت ما خلال الليلة الثانية، يعتقد فريق المراقبة أنهم سمعوا شيئًا ما. يقتربون من القبر، ويحرصون على البقاء بعيدًا عن الأنظار. يسمعون صوت رجل في العمر الذي تنبأ به الملف التعريفي.

يبكي الرجل، أو يبدو أنه على وشك البكاء. يتوسل قائلًا: «أنا آسف. لم أقصد ذلك. لقد كانت حادثة!» يتوسل الفتاة الميتة أن تغفر له.

يا للهول، يفكرون الآن، لا بد أن دوجلاس على حق. وانقضوا عليه.

لكن مهلًا! لم يكن الاسم الذي لفظه «ماري».

هذا الرجل خائف من ذكائه. وعندما ألقت الشرطة نظرة فاحصة أخيرًا، رأوا أنه يقف أمام القبر بجوار ماري!

اتضح أن المدفون بجانب ماري كيليرمان هو ضحية أنثى لحادث اصطدام سيارة لم يتم حله، وقد عاد قاتلها غير الراغب ليعترف بجريمته.

بعد أربع أو خمس سنوات، استخدم قسم شرطة شيكاغو نفس الحيلة في جريمة قتل لم تُحل. وبقيادة منسق التدريب في مكتب التحقيقات الفيدرالي بوب ساجوسكي، بدؤوا في تقديم المعلومات للصحف في وقت قريب من الذكرى السنوية للقتل. عندما ألقت الشرطة القبض على القاتل عند القبر، علَّق ببساطة: «تساءلت ما الذي استغرق منكم وقتًا طويلًا».

لم نمسك بمسمم تايلينول بهذه الطريقة. لم نقبض على قاتل على الإطلاق. تم القبض على مشتبه به وحُكِم عليه بتهم ابتزاز مرتبطة بجرائم القتل، على الرغم من عدم وجود أدلة كافية لمحاكمته على جرائم القتل نفسها. لقد كان

مناسبًا للملف التعريفي، لكنه كان خارج منطقة شيكاغو عندما قامت الشرطة بمراقبة المقبرة. لكن بعد سجنه، لم يتم الإبلاغ عن المزيد من حالات التسمم.

طبعًا بما أنه لم تكن هناك محاكمة، لا يمكننا القول بأي يقين قانوني إن هذا كان رجلنا. لكن من الواضح أنه تم بالفعل القبض على نسبة معينة من مرتكبي جرائم القتل المتسلسلة التي لم يتم حلها، دون علم الضباط والمحققين الذين يحققون في القضايا. عندما يتوقف قاتل نشط فجأة، فإن هناك ثلاثة تفسيرات قوية بخلاف قراره البسيط بالتقاعد. الأول هو أنه قد انتحر، وهو ما يمكن أن يكون صحيحًا بالنسبة إلى أنواع معينة من الشخصيات. والثاني هو أنه غادر المنطقة وهو في الواقع يمارس «مهنته» في مكان آخر. من خلال القاعدة الحاسوبية VICAP (برنامج الاعتقال الجنائي العنيف) التابع للـ إف بي آي، نعمل على منع حدوث ذلك من خلال منح الآلاف من سلطات الشرطة في جميع أنحاء البلاد القدرة على مشاركة المعلومات بسهولة بعضهم مع بعض. التفسير الثالث هو أن القاتل قد تم القبض عليه لارتكاب جريمة أخرى -بشكل عام السطو أو السرقة أو الاعتداء- ويقضي عقوبة بتهمة أقل دون أن تربطه السلطات بجرائمه الأكثر خطورة.

منذ قضية تايلينول، كان هناك العديد من حوادث العبث بالمنتجات، على الرغم من أن معظمها كان مدفوعًا بمحركات أكثر تقليدية. في القضايا المحلية، على سبيل المثال، قد يتم التخطيط لقتل الزوجة لتبدو وكأنها تلاعب بالمنتج. عند تقييم هذا النوع من الحالات، يجب على الشرطة النظر في عدد الحوادث المبلَّغ عنها، سواء كانت مجمعة في منطقة محلية أو مبعثرة، وما إذا كان المنتج قد تم استهلاكه على مقربة من المكان الذي تم العبث به على ما يبدو، وما هي العلاقة بين الضحية والفرد الذي يبلغ عن الجريمة. كما هو الحال في أي جريمة قتل أخرى مشتبه بها لأسباب شخصية يجب أن يبحثوا عن تاريخ من الصراع وأن يجمعوا كل المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها عن سلوك ما قبل الجريمة وبعدها.

إن الجريمة التي قد تبدو ظاهريًّا دون ضحية معينة مقصودة قد يكون لها هدف محدد بالفعل. وما يبدو أنه جريمة من جرائم الغضب والإحباط العامين قد ينطوي في الواقع على دافع تقليدي مثل الرغبة في التخلص من زواج بطريقة لا تثير الشك أو الرغبة في الحصول على مبلغ تأمين أو ميراث. بعد دعاية تايلينول، تخلصت زوجة من زوجها باستخدام تايلينول مسموم، واعتقدت أنه سيُنسب إلى القاتل الأصلي. كان العرض واضحًا وكانت

التفاصيل مختلفة كفاية لئلا ينخدع أحد. في هذه القضايا، عادة ما ترتبط أدلة الطب الشرعي بالجاني. على سبيل المثال، يمكن للمختبرات تحليل مصدر السيانيد أو السموم الأخرى.

هذا النوع نفسه من التحليل يجعل من السهل نسبيًّا على المحققين التعرف على الوقت الذي قام فيه شخص ما بتغيير منتج بقصد رفع دعوى تعويضات مالية، مثل وضع فأر ميت في جرة من صلصة الاسباجيتي، فأر في علبة صودا معدنية، أو إبرة في كيس من الوجبات الخفيفة. غالبًا ما ترغب الشركات في التسوية بسرعة لتجنب الدعاية السيئة والبقاء خارج المحكمة. لكن علم الطب الشرعي قد تطور الآن لدرجة أنه إذا كان هناك ما يدفع الشركة للاشتباه بقوة في العبث بالمنتج، ورفضت التسوية، ورفعت القضية إلى الـ إف بي آي، فإن الاحتمالات كبيرة بأن يتم اكتشاف التلاعب وتوجيه الاتهام إلى مرتكبه. وبنفس الطريقة، سيتعرف المحقق الجيد على أفعال البطولة المرتبة والمختلقة؛ السيناريوهات المرتبة التي أنشأها الفرد للحصول على اعتراف من أقرانه أو الجمهور.

كانت قضية تايلينول، على الرغم من كل رعبها، شيئًا شاذًّا. لا يبدو أنه ابتزاز في الأساس. إذ لكي ينجح المبتز، يجب عليه أولًا إثبات أن لديه القدرة على تنفيذ تهديده، وبالتالي فإن المبتزين الذين يهددون بالتلاعب بالمنتج، عادةً ما يغيرون زجاجة أو عبوة واحدة من المنتج، ويضعون علامة عليها بطريقة ما، ويقدمون تحذيرًا في مكالمة هاتفية أو ملاحظة. من ناحية أخرى، فإن مسمِّم تايلينول لم يبدأ بالتهديدات، بل انتقل مباشرة إلى القتل.

بمعايير الابتزاز، لم يكن متطورًا. بناء على الطبيعة الفظة للتلاعب (بعد جرائم القتل هذه، أنفقت شركة جونسون آند جونسون ثروة في تطوير عبوات فعالة مقاومة للعبث)، كنت أعرف أن هذا الرجل لم يكن منظمًا بدرجة عالية. ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين يوجهون التهديدات، يمكن استخدام بعض المبادئ التوجيهية نفسها التي تنطبق على تحليل التهديد السياسي لتحديد ما إذا كان التهديد خطيرًا بالفعل وقادرًا على تنفيذ نيته المعلنة وينطبق الشيء نفسه على التفجيرات. إذا تم توجيه تهديد بوجود قنبلة، فيؤخذ الأمر على محمل الجد دائمًا. لكن بسرعة، حتى لا يتوقف المجتمع عن العمل، يجب على السلطات تحديد ما إذا كان التهديد حقيقيًّا. عادةً ما يستخدم المفجرون والمبتزون كلمة نحن في اتصالاتهم للإيحاء بمجموعة كبيرة تراقب من الظل.

ومع ذلك فإن الحقيقة أن معظم هؤلاء الأشخاص منعزلون مريبون ولا يثقون بالآخرين.

يميل المفجرون إلى الوقوع في واحدة من ثلاث فئات. هناك مفجرون ذوو دوافع قوية تنجذب إلى الدمار. وهناك مفجرون مدفوعون بمهمة ينجذبون إلى الإثارة النابعة من تصميم الأجهزة وصنعها ووضعها. ثم هناك أنواع من الفنيين يحصلون على الإشباع من تألق وذكاء التصميم والبناء الفعليين. من حيث الدوافع، فهي تتراوح من الابتزاز إلى الخلافات المهنية، والانتقام، وحتى الانتحار.

يُظهر بحثنا حول المفجرين ملفًا تعريفيًا عامًّا متكررًا. عادة ما يكونون من الذكور البيض، ويتم تحديد العمر من قِبل الضحية أو الهدف. إنهم يتمتعون بذكاء متوسط على الأقل، وغالبًا ما يكونون أعلى من ذلك، على الرغم من قلة تحصيلهم العلمي. إنهم منظمون، مرتبون، دقيقون، مخططون حذرون، شخصيات غير تواصلية، غير رياضية، جبانة، تشعر بالقصور. يأتي الملف التعريفي من تقييم الهدف أو الضحية ونوع الجهاز (هل هو أكثر تفجيرًا أم حارقًا، على سبيل المثال)، تمامًا مثل وصفنا لقاتل متسلسل من موقع الجريمة. سننظر في عوامل الخطر المرتبطة بكل من الضحية والجاني، سواء كان الضحية عشوائيًّا أو مقصودًا، ومدى إمكانية الوصول إليه، وفي أي وقت من اليوم وقع الهجوم، وطريقة النقل (مثل البريد)، بالإضافة إلى أي صفات أو خصوصيات فريدة في مكونات القنبلة أو صناعتها.

في بداية مسيرتي المهنية في مجال التنميط، قمت بتطوير الملف الشخصي الأول لـ يونابومبر Unabomber الشهير الآن (من الاسم الرمزي لمكتب التحقيقات الفيدرالي Unabom)، والذي حصل على لقبه من خلال استهداف الجامعات والأساتذة.

يأتي أكثر ما نعرفه عن المفجرين من اتصالاتهم. بحلول الوقت الذي قرر فيه يونابومبر التواصل بشكل مطول مع العامة من خلال رسائله إلى الصحف وبيانه الطويل المكون من آلاف الكلمات، كان قد ترك وراءه ثلاث حالات وفاة وثلاثًا وعشرين إصابة في حياته المهنية التي استمرت سبعة عشر عامًا. من بين مآثر أخرى، تمكن مؤقتًا من إبطاء صناعة الطيران التجارية بأكملها من خلال وعده بقنبلة على متن طائرة مغادرة مطار لوس أنجلوس الدولي. مثل معظم المفجرين، أشار إلى مجموعة («FC» أو «نادي الحرية -Freedom

Club») بصفته مسؤولًا عن إرهابه. ومع ذلك، ليس هناك شك في أنه من نوع الشخص الوحيد الذي وصفته.

تم نشر الملف التعريفي على نطاق واسع حتى الآن ولم أر أي سبب لتغيير رأيي. لسوء الحظ، على الرغم من العمل الرائد للدكتور بروسل في قضية ميتسكي «ماد بومبر»، فإنه عندما ضرب يونابومبر للمرة الأولى، لم يكن إنفاذ القانون معدًّا بعد لاستخدام هذا النوع من التحليل الذي جئنا به، على عكس ما هو الحال الآن. كان معظم هؤلاء الرجال قابلين للوصول إليهم في وقت مبكر من حياتهم المهنية. الجرائم الأولى والثانية هي الأكثر أهمية من حيث السلوك والموقع والهدف، قبل أن تبدأ في إتقان ما تفعله وتتنقل في جميع أنحاء البلاد. مع مرور السنوات، قاموا أيضًا بتوسيع أيديولوجياتهم إلى ما وراء الضغائن البسيطة والعناصر ضد المجتمع التي تدفعهم إلى المضي قدمًا في المقام الأول. أعتقد أنه لو كنا في المكان الذي نحن فيه الآن مع التحليل التنميطي في عام 1979، لألقينا القبض على يونابومبر قبل سنوات.

في كثير من الأحيان، تعدُّ التهديدات بالقنابل وسيلة ابتزاز موجهة ضد فرد أو مجموعة معينة. في منتصف السبعينيات، تم إرسال تهديد بوجود قنبلة هاتفية إلى مدير أحد البنوك في تكساس.

في نص طويل ومعقد، يقول المتصل إنه قبل أيام قليلة عندما أرسلت شركة ساوذرن بل فنيين إلى البنك، كانوا في الواقع رجاله. زرعوا قنبلة يمكن أن يفجرها بمفتاح يعمل بالموجات عن بعد. لكنه لن يفعل ذلك إذا امتثل المدير لمطالبه.

الآن يأتي الجزء الأكثر إثارة. يقول إن لديه زوجة المدير، لويز. إنها تقود سيارة كاديلاك، تذهب إلى المكان الفلاني في الصباح، ثم إلى مكان كذا، وبعده مكان كذا، إلخ، إلخ.

مذعورًا، طلب المدير من سكرتيرته أن تتصل بمنزله على خط آخر لأنه يعلم أن زوجته يجب أن تكون هناك. لكن لا أحد يجيب. أصبح الآن يصدق ما قيل له.

ثم يقوم المتصل بعرض طلباته من المال: أوراق مالية مستعملة؛ من عشرات إلى مئات. لا تتصل بالشرطة، يمكننا بسهولة التعرف على سياراتهم غير المميزة. أخبر سكرتيرتك أنك ستغادر البنك لمدة 45 دقيقة تقريبًا. لا تتعامل مع أي شخص. قبل أن تغادر مباشرة، قم بتشغيل وإطفاء الأضواء في

مكتبك ثلاث مرات. ستراقب مجموعتي هذه الإشارة. اترك النقود في سيارتك، المتوقفة على جانب الطريق في منطقة مكتظة بالمرور، اترك المحرك يعمل وأضواء وقوف السيارات مضاءة.

الآن، في هذه الحالة بالذات، لم تكن هناك قنبلة ولا اختطاف، إنه مجرد محتال ذكي يستهدف الضحية المحتملة. كل شيء في هذا السيناريو له غرض. استند توقيته إلى الوقت الذي كانت فيه شركة الهاتف تعمل بالفعل في البنك، حتى يتمكن من تصويرها على أنهم كانوا من زرعوا قنبلته. يعلم الجميع أن شركة الهاتف تقوم بعمل تقني لا يفهمه أحد، ولا أحد يولي اهتمامًا كبيرًا له، لذلك فمن الوارد تصديق أنهم كانوا محتالين.

لعلمه أن مدير البنك سيتصل بالمنزل من أجل أن يتفقد زوجته، لذلك اتصل بها المبتز في ذلك الصباح، مدعيًا أنه من شركة ساوث ويست بل، زاعمًا إنهم تلقوا عددًا من الشكاوى حول المكالمات الهاتفية الفاحشة في حيهم وأنهم كانوا يحاولون تتبع المتصل، لذلك بين منتصف النهار والساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، يجب ألا ترفع الهاتف إذا كان يرن، لأنهم سيشغلون تقنيات التتبع.

ولعل التعليمات الخاصة بترك المال في السيارة مع تشغيل الأضواء والمحرك قيد التشغيل هي الجزء الأكثر أهمية في الخطة. يعتقد المدير أن الأضواء هي جزء من الإشارة، لكنها في الحقيقة جزء من النظام الإلكتروني للمتصل. على الرغم من التحذير بعدم الاتصال بالشرطة، فإن المبتز يعلم أن الضحية سيحاول إدخال أحد ما، والمرحلة الأكثر خطورة على الجاني دائمًا هي تحويل الأموال، حين يفترض أن الشرطة تراقب.

في ظل هذا السيناريو، إذا كان حظ الجاني سيئًا لدرجة أن تعتقله الشرطة في السيارة، فيمكنه القول إنه كان يسير في هذا الشارع المزدحم، ورأى سيارة بها أضواء مشغلة ومحركها يعمل، وقرر أن يكون سامريًّا طيبًا ويطفئها. إذا قبضت عليه الشرطة في تلك المرحلة، فلن يكون لديهم شيء تجاهه. حتى لو أمسكوا به مع المال، نظرًا لأنه أثبت بالفعل سببًا شرعيًّا لوجوده في السيارة، يمكنه القول إنه وجد الحقيبة هناك على المقعد وكان على وشك تسليمها إلى الشرطة.

بالنسبة إلى المبتز، فإنها لعبة النسبة المئوية. لقد كتب نصه وكل ما عليه فعله هو ملء التفاصيل. إذا لم يلجأ الضحية المستهدفة اليوم إلى ذلك، فسيحاول ذلك مرة أخرى في اليوم التالي. في النهاية، سوف ينجح مع

أحدهم، وسينتهي به الأمر بشيء من التغيير اللطيف لجهوده دون الاضطرار فعليًا إلى اختطاف أو تفجير أي شخص. في هذه القضايا، يعد النص بشكل عام دليلًا جيدًا لأن الجاني سيحتفظ به، مع العلم أنه سيكون مفيدًا للوظائف المستقبلية، لأن الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أنه مع بعض الترتيبات البسيطة المسبقة، يمكن لأي شخص أن يكون ضحيته.

بمجرد أن أدركت السلطات حيله، تم القبض عليه ومحاكمته وإدانته. اتضح أنه كان دي جيه سابق قرر أن يخاطر بموهبته من أجل المزيد من المزايا على المدى القصير.

ما الفرق بين هذا النوع من الأفراد والشخص الذي يختطف بالفعل؟ كلاهما من أجل الربح، لذلك لا أحد يريد أن يعرِّض نفسه للضحية أكثر من اللازم لأن القتل ليس جزءًا من الهدف. الفارق الكبير هو أن الخاطف الحقيقي سيحتاج بشكل عام إلى شخص ما للمساعدة في تنفيذ مخططه، وبينما يكون المبتز البسيط في الأساس محتالًا ذكيًا، فإن الخاطف مختل اجتماعيًا. ليس في نيته قتل الضحية، ولكن من الواضح أنه مستعد للقيام بذلك لتحقيق أهدافه.

شارك ستيف مارديجيان في قضية نائب رئيس شركة إكسون الذي اختُطف من أمام منزله في نيو جيرسي واحتُجز للحصول على فدية. في المواجهة، أُصيب في ذراعه عن طريق الصدفة.

قام الخاطفون -حارس أمن سابق للشركة وزوجته- بمتابعة عملية الاختطاف واحتجزوا الرجل الجريح (الذي كان يعاني مرضًا في القلب) في صندوق، حيث توفي. والسبب في وجود الصندوق -أو ما يعادله- هو أن الخاطفين يرغبون في تقليل الاتصال بالضحية قدر الإمكان ولا يضطرون إلى إضفاء الطابع الشخصي عليه. في هذه الحالة، أعرب الخاطفون عن أسفهم لما أفضت إليه جريمتهم، وعبروا أن إحساسهم باليأس هو الذي دفعهم إلى ارتكاب الجريمة في المقام الأول. لكنهم فعلوا ذلك، ونفذوه خطوة بخطوة دون تردد. كانوا على استعداد لموت شخص آخر من أجل مصالحهم الأنانية، وهذا أحد تعريفات السلوك الاجتماعي المختل.

بقدر ما هو مرعب، على عكس بعض الجرائم الخطيرة الأخرى، يعد الاختطاف عملًا صعب التعامل معه بحيث يتعين، فعلًا، على المحقق تقييمه بعناية وبأعين متشككة، والنظر من كثب في علم الضحايا وسلوك ما قبل

الجرم. وبينما نقرُّ بأن أي شخص يمكن أن يكون ضحية، لكن يجب أن يكون المحقق قادرًا على الإجابة عن السؤال: لماذا هذه الضحية بالذات؟

قبل عامين، تلقيت مكالمة عاجلة ذات ليلة في المنزل. شرع محقق في ولاية أوريغون في إخباري قصة شابة ذهبت إلى المدرسة في منطقته. كانت تتعرض للمطاردة، لكن لم تستطع هي ولا أي شخص آخر اكتشاف هوية المطارد. كانت ترى المطارد في الغابة، ولكن بحلول الوقت الذي خرج فيه والدها أو صديقها للبحث، كان قد رحل. كان يتصل بالمنزل، ولكن ليس عندما يكون أي شخص آخر موجودًا. كانت الفتاة تتحول لشخصية انفعالية مضطربة بشكل مستعصٍ. بعد عدة أسابيع مخيفة من هذا، كانت في مطعم مع صديقها. غادرت الطاولة لتذهب إلى غرفة السيدات. في أثناء مغادرتها غرفة الحمام، تم الإمساك بها وسحبها بسرعة إلى ساحة انتظار السيارات، حيث قام مهاجمها بوحشية بإدخال سبطانة مسدس في مهبلها، وهدد بقتلها إذا ذهبت إلى الشرطة، ثم تركها تذهب. لقد تعرضت لصدمة نفسية ولم تستطع تقديم وصف جيد.

الآن على ما يبدو تم اختطافها عند مغادرتها المكتبة. وُجِدت سيارتها في موقف انتظار السيارات. لم يكن هناك تواصل وبدأت الأمور تبدو قاتمة للغاية.

طلبت من المحقق أن يخبرني عن الضحية، كانت فتاة جميلة لطالما كان أداؤها جيدًا في المدرسة، لكنها رُزِقَت العام الماضي بطفل وواجهت بعض المشكلات مع أسرتها، وبخاصة والدها، بشأن الدعم. كانت درجاتها في طريقها إلى الجحيم مؤخرًا، وبخاصة بعد بدء المطاردة.

قلت ألا أقول أي شيء للأب حتى الآن تحسبًا في حال كنت مخطئًا وانتهى الأمر بالشابة ميتة، لكن هذا بدا لي وكأنه خدعة. من سيطاردها؟ كان لديها صديق مقرب وثابت ولم تنفصل مؤخرًا. بشكل عام، عندما يتم مطاردة شخص غير مشهور، يكون ذلك من قِبَل شخص يعرف هذا الشخص بطريقة أو بأخرى. الملاحقون ليسوا بهذه البراعة أو الحذر فيما يفعلونه. إذا رأت المطارد، فلا ينبغي أن يضيعه والدها وصديقها في كل مرة. لم يتلق أي شخص آخر المكالمات الهاتفية. وعندما وضعت الشرطة وسيلة لتتبعه على الخط، توقفت المكالمات فجأة. كما حدث أن الاختطاف وقع قبل الامتحانات النهائية مباشرة، وليس نتيجة مصادفة على الإطلاق.

اقترحت أن تكون الإستراتيجية الاستباقية هي إجراء مقابلة مع الأب من قبل وسائل الإعلام، والتأكيد على إيجابية علاقتهما، والتعبير عن مدى حبه لها ورغبته في عودتها، ومناشدة الخاطف للسماح لها بالرحيل. إذا كنت على حق، فينبغي أن تحضر بعد يوم أو يومين، مصدومة ومتسخة وهي تردد قصة حول كيفية اختطافها وإساءة معاملتها ثم رميها من سيارة على جانب الطريق.

هذا ما حدث. كانت مصدومة ومتخبطة وقذرة وتتكلم عن قصة اختطاف مزعومة. قلت إن الاستجواب -في هذه الحالة في شكل استخلاص معلومات- يجب أن يركز على ما اعتقدنا أنه حدث حقًّا. لا ينبغي أن يكون الأمر حسابيًّا، ولكن عليك الاعتراف بأنها كانت تواجه الكثير من المتاعب مع والديها؛ تمر بالكثير من التوتر والصدمات والألم؛ وأُصيبت بالذعر من الامتحانات. وتحتاج إلى طريقة لحفظ ماء الوجه. يجب إخبارها بأنها لن تعاقَب، ما كانت تحتاج إليه فعلًا هو المشورة والتفاهم، وأنها ستحصل عليهما. بمجرد توضيح ذلك، اعترفت بالخدعة.

ومع ذلك، فإن هذه واحدة من تلك القضايا التي تتصبب فيها عرقًا، لأنك إذا كنت مخطئًا، فإن العواقب وخيمة، لأنه عندما تكون المطاردة حقيقية، يمكن أن تحصل جريمة مرعبة، وفي كثير من الأحيان، مميتة.

في أغلب الأحيان، سواء كنا نتحدث عن مطاردة أحد المشاهير أو شخص عادي، فإن المطاردة تبدأ بالحب أو الإعجاب. لقد «أحب» جون هينكلي جودي فوستر وأراد منها أن تبادله الحب. ومع ذلك، كانت نجمة سينمائية جميلة ذاهبة إلى جامعة ييل وكان شخصًا غير لائق. كان يعتقد أنه كان عليه أن يفعل شيئًا لمعادلة الموقف وإثارة إعجابها. وماذا يمكن أن يكون أكثر «إثارة للإعجاب» من الفعل التاريخي لاغتيال رئيس الولايات المتحدة؟ في لحظاته الأكثر وضوحًا، لا بد أنه أدرك أن حلمه بأن يعيش الاثنان في سعادة دائمة معًا لن يتحقق. لكن بفعلته حقق أحد أهدافه. أصبح مشهورًا، وبطريقة منحرفة، سيكون على اتصال دائم بفوستر في ذهن الجمهور.

كما هو الحال مع معظم هذه الحالات، كان هناك عوامل ضاغطة فورية لدى هينكلي. في الوقت الذي أطلق فيه النار على الرئيس ريغان، كان والده قد وجه إليه إنذارًا بشأن الحصول على وظيفة وإعالة نفسه بمفرده.

أجرى عميل الخدمة السرية كين بيكر مقابلة في السجن مع مارك ديفيد تشابمان، قاتل جون لينون. شعر تشابمان بعلاقة قوية مع فريق البيتلز

السابق، وعلى مستوى سطحي، حاول تقليده. لقد جمع كل أغاني لينون، بل وذهب عبر سلسلة من الصديقات الآسيويات لتقليد زواج لينون من يوكو أونو. ولكن كما يحدث مع العديد من هذه الأنواع، وصل في النهاية إلى نقطة كان فيها عدم كفايته ساحقًا، ولم يعد قادرًا على التعامل مع التفاوت بينه وبين بطله ولذا اضطر إلى قتله. الأمر الذي يدعو للخوف، أن أحد الأشياء التي دفعت هينكلي لارتكاب جريمته هو أنه يريد أن يصير مشهورًا (سيئ السمعة هي في الواقع كلمة أفضل بكثير) على غرار تشابمان.

أُجريت مقابلة مع آرثر بريمر، الذي طارد ثم حاول اغتيال حاكم ولاية ألاباما جورج والاس في ماريلاند في أثناء ترشحه للرئاسة، تاركًا والاس مشلولًا ويعاني آلامًا مزمنة مدى الحياة. لم يكره بريمر والاس. قبل إطلاق النار، كان يطارد الرئيس نيكسون لعدة أسابيع لكنه لم يستطع الاقتراب منه بدرجة كافية. أصبح يائسًا من القيام بشيء ما ليُظهر للعالم قيمته، وكان والاس ودودًا، وهو في الأساس ضحية أخرى في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

حالات المطاردة التي تحولت إلى اغتيال مقلقة في عددها. في حالة الشخصيات السياسية، هناك بناء لـ «سبب» القتل، على الرغم من أن هذا دائمًا ما يكون غطاء لشخص هامشي يشعر بالقصور الشديد ويريد أن يكون شخصًا ما. في حالة نجوم السينما والمشاهير مثل جون لينون، فحتى هذا العذر لا معنى له. من بين أكثر القضايا مأسوية مقتل ريبيكا شيفر البالغة من العمر 21 عامًا أمام شقتها في لوس أنجلوس في عام 1989. الممثلة الشابة الجميلة والموهوبة، التي اشتهرت على نطاق واسع باسم أخت بام دوبر الصغرى في المسلسل التلفزيوني *شقيقتي سام My Sister Sam*، تعرضت لطلقة نارية، بينما كانت تفتح بوابة المنزل، من روبرت جون باردو، وهو عاطل عن العمل يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا من توكسون كان آخر عمل له هو بواب في مطعم الوجبات السريعة جاك إن ذا بوكس. مثل تشابمان، بدأ باردو كمتابع عاشق. تحول عشقه إلى هوس، وما دام أنه لم يكن قادرًا على إقامة علاقة «طبيعية» معها، فسيتعين عليه «امتلاكها» بطريقة أخرى.

كما نعلم جميعًا الآن، لا تقتصر أهداف المطاردة على المشاهير. بالطبع هناك حالات متكررة لأشخاص يتعرضون للمطاردة من قبل أزواج أو عشاق سابقين. يتم الوصول إلى المرحلة القاتلة عندما يفكر المطارد أخيرًا: «إذا لم أتمكن من الحصول عليها (أو عليه)، فلا أحد يستطيع ذلك أيضًا». لكن جيم رايت، المتخصص الأكثر خبرة في وحدتنا في المطاردة ومن بين الخبراء

الرواد في هذا الموضوع في مجال إنفاذ القانون، يشير إلى أن أي شخص يتعامل مع الجمهور، وبخاصة النساء، قد يكون عرضة للمطاردين. بمعنى آخر، قد لا يتطلب الأمر أن يكون هدف رغبة المطارد على شاشة التلفزيون أو شاشة السينما، بل قد تكون نادلة في المطعم أسفل المبنى أو صرافة في أحد البنوك المحلية. أو أنها حتى قد تعمل معه في نفس المتجر أو الشركة.

كان هذا ما حدث لكريس ويلز، وهي شابة عملت في شركة كونلانز للأثاث في ميسولا، مونتانا. كانت كريس مجتهدة ومحترمة وشقت طريقها في الشركة ابتداء بإدارة المبيعات في عام 1985 وصولًا إلى منصب المدير العام.

في الوقت نفسه الذي عملت فيه كريس في المكتب، كان رجل يدعى واين نانس يعمل في المستودع، كان يميل للتحفظ والعزلة، لكنه بدا وكأنه يحب كريس، وكانت دائمًا ودية ولطيفة معه، ومع ذلك انفجرت شخصية واين المتقلبة، وكان المزاج الذي شعرت به تحت السطح يخيفها. لم يكن لدى أحد أي شكوى تجاه واين، بل إنه يومًا بعد يوم، كان يواظب على العمل بأقصى جهد أكثر من أي شخص آخر في المستودع.

ما لم تعرفه كريس ولا زوجها، دوج (تاجر أسلحة محلي) هو أن واين نانس كان مهووسًا بها، كان يراقبها طوال الوقت ويحتفظ بصندوق من الورق المقوى مليء بالهدايا التذكارية لها؛ لقطات، ملاحظات كانت قد كتبتها في المكتب، أي شيء يخصها.

الشيء الآخر الذي لم تعرفه شرطة ويلز أو شرطة ميسولا هو أن واين نانس كان قاتلًا. في عام 1974، تحرش جنسيًا بفتاة تبلغ من العمر خمس سنوات وطعنها. اكتُشف لاحقًا أنه قام أيضًا بتقييد العديد من النساء البالغات وتكميمهن وإطلاق النار عليهن، بما في ذلك والدة صديقه المقرب. من المثير للقلق أن كل هذا حدث في المقاطعات المجاورة لمكان إقامته الحالية. ومع ذلك، حتى في ولاية مونتانا ذات الكثافة السكانية المنخفضة، لم يكن لدى إحدى دوائر الشرطة أي فكرة عن النشاط الإجرامي المسجل في ولاية قضائية أخرى.

لم تكن كريس ويلز تعرف أيًا من هذا حتى الليلة التي اقتحم نانس فيها منزل كريس ودوج خارج المدينة. كان لديهم كلبة جولدن، لكنها لم تقاومه.

مسلحًا بمسدس، أطلق النار على دوج، ربطه في الطابق السفلي، ثم أجبر كريس على الصعود إلى غرفة النوم في الطابق العلوي حيث قيدها في

السرير حتى يتمكن من اغتصابها. كانت تعرفه جيدًا بشكل واضح ولم يقم بأي محاولة لإخفاء هويته.

في هذه الأثناء، في الطابق السفلي، تمكن دوج من التحرر من قيوده. كان ضعيفًا وعلى وشك فقدان الوعي من الألم وفقدان الدم، ترنح إلى طاولة حيث تم تركيب محمل بندقية من متجره. لقد تمكن من إدخال طلقة واحدة في البندقية، ثم جمع كل ما تبقى من قوته، وسحب نفسه ببطء وألم شديد إلى أعلى درج الطابق السفلي. بهدوء قدر استطاعته، شق طريقه صاعدًا الدرج إلى الطابق الثاني، وفي الردهة، برؤية مشوشة، صوب سلاحه نحو نانس.

كان يجب أن يصيبه قبل أن يراه نانس ويستخدم مسدسه. إذا لم يصب نانس بأذى وكان لديه المزيد من الطلقات المتاحة، لن يكون دوج قادرًا على مجاراته.

ضغط على الزناد. أصاب نانس، أطاح به إلى الوراء، ولكن بعد ذلك نهض نانس مرة أخرى وبدأ يتجه نحوه. لم تكن الطلقة قاتلة بما فيه الكفاية. واصل نانس محاولة الوصول إليه على السلم. لم يكن هناك مكان يذهبان إليه ولم يستطع دوج ترك كريس بمفردها، لذلك فعل الشيء الوحيد الذي يستطيعه. اندفع إلى الأمام نحو نانس، مستخدمًا بندقيته الفارغة كهراوة، استمر في ضرب نانس القوي حتى تمكنت كريس من تحرير نفسها ومساعدته.

حتى يومنا هذا، لا تزال قضية ويلز واحدة من القضايا القليلة المسجلة التي كان الضحايا المقصودون لقاتل متسلسل قادرين فعليًّا على الرد وقتل مهاجمهم دفاعًا عن النفس. قصتهما معجزة، وقد أحضرناهما عدة مرات للتحدث في الصفوف في كوانتيكو. تمكن هذان الزوجان المتواضعان من إعطائنا نظرة ثاقبة نادرة من منظور الضحايا الذين أصبحوا أبطالًا، بعد أن ذهبا إلى الجحيم وعادا في تلك الليلة، فهم أشخاص دافئون وحساسون و«معًا» بشكل مثير للدهشة.

في نهاية أحد عروضهما التقديمية في كوانتيكو، سألهما ضابط شرطة في الصف: «إذا كان واين نانس قد عاش ولم تكن هناك عقوبة إعدام -أي إذا كان لا يزال يشارككما الحياة على هذه الأرض- فهل سيكون كلاكما سليمًا عقليًّا كما أنتما الآن؟».

استدارا ونظرا بعضهما إلى بعض ثم اتفقا بصمت على ردهما. قال دوج ويلز بنبرة قاطعة: «بالتأكيد لا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

18

معركة الأطباء النفسيين

أي نوع من الأشخاص يمكن أن يفعل مثل هذا الشيء؟

في أثناء دراستنا عن القاتل المتسلسل، كنت أنا وبوب ريسلر في جوليت، إلينوي، حيث قابلنا هناك للتو ريتشارد سبيك. عدت إلى غرفتي بالفندق ذلك المساء وكنت أشاهد أخبار شبكة سي بي إس عندما رأيت دان راذر يجري مقابلة مع قاتل آخر، يُدعى توماس فاندا، والذي تصادف أن يكون مسجونًا في سجن جوليت. كان فاندا متهمًا بقتل امرأة بعدة طعنات. قضى معظم حياته يتردد إلى المصحات العقلية ومنها، وفي كل مرة كان «يُعالَج» ويخرج، ليرتكب جريمة أخرى. قبل جريمة القتل التي كان يقضي فترة سجنه بسببها، كان قد ارتكب جريمة قتل سابقة.

اتصلت بريسلر وأخبرته أن علينا التحدث معه في أثناء وجودنا هنا. من خلال المقابلة المتلفزة، استطعت أن أقول إنه كان من النوع القاصر المثالي. كان من السهل بالنسبة إليه أن يكون مفتعل حرائق بقدر كفاءته كقاتل، ولو توفرت لديه الأدوات والمهارات، لكان من الممكن أن يكون مفجرًا.

عدنا إلى السجن في اليوم التالي ووافق فاندا على مقابلتنا. كان فضوليًّا لمعرفة ما كنا نفعله هناك، ولم يستقبل الكثير من الزوار. قبل المقابلة، راجعنا ملفه.

كان فاندا أبيض، يبلغ طوله 5.9 أقدام، وفي منتصف العشرينيات من عمره. كان لديه تأثير ناعم غير مريح وابتسم كثيرًا. حتى وهو يبتسم، كان لا يزال لديه تلك النظرة؛ عيناه تتحركان طوال الوقت، تشنجات عصبية، فرك اليدين. لن تدير ظهرك بشكل مريح لهذا الرجل. أول شيء أراد أن يعرفه هو

رأيي في شكله على شاشة التلفزيون. عندما أخبرته أنه يبدو جيدًا، ضحك كثيرًا.

من بين الأشياء التي أخبرنا بها أنه انضم إلى مجموعة دراسة الكتاب المقدس في السجن واعتقد أنها ساعدته كثيرًا. لربما ساعده ذلك كثيرًا، لكنني لاحظت الكثير من السجناء الذين، مع اقتراب ظهور أسمائهم في لوحة الإفراج المشروط، ينضمون إلى الجماعات الدينية لإظهار أنهم على الطريق الصحيح لإطلاق سراحهم.

يمكنك أن تجادل حول ما إذا كان هذا الرجل ينتمي إلى سجن شديد الحراسة أو مستشفى عقلي مؤمَّن، لكن بعد المقابلة، ذهبت لرؤية الطبيب النفسي الذي عالجه. سألته عن حال فاندا.

أعطاني الطبيب النفسي، الذي كان في الخمسين تقريبًا، استجابة إيجابية، قائلًا إن فاندا «كان يستجيب بشكل جيد جدًّا للأدوية والعلاج». ذكر الطبيب النفسي مجموعة دراسة الكتاب المقدس كأحد الأمثلة وقال إن فاندا يمكن أن يكون جاهزًا للإفراج المشروط إذا استمر هذا التقدم.

سألته عما إذا كان يعرف تفاصيل ما فعله فاندا. أجاب: «لا، لا أريد أن أعرف». «ليس لدي الوقت، مع كل النزلاء الذين عليَّ التعامل معهم هنا». وأضاف أنه لا يريد التأثير بشكل غير عادل على علاقته بالمريض.

قلت مصرًّا: «حسنًا يا دكتور، دعني أخبرك ما فعله توماس فاندا». قبل أن يتمكن من الاحتجاج، واصلت الحديث عن كيفية انضمام هذه الشخصية المنعزلة للمجتمع إلى مجموعة كنسية، وكيف، بعد انفضاض اجتماع أفراد المجموعة، وحين يغادر الجميع، فإنه يتقرب من الشابة التي استضافت الاجتماع. رفضته لكن فاندا لا يكترث لرفضها ولا ينظر إليها بجدية. مثل هؤلاء الرجال بشكل عام لا يفعلون ذلك. أوقعها على الأرض وذهب إلى مطبخها، ليعود بسكين ويطعنها عدة مرات، ثم بينما كانت تحتضر على الأرض، أدخل قضيبه في جرح مفتوح في بطنها وقذف.

يجب أن أقول إني أجد هذا مذهلًا. إنها مثل دمية قماشية في هذه المرحلة. جسدها دافئ، وهي تنزف، ولا بد أنه قد لطخ نفسه بالدماء، لا يستطيع حتى نزع شخصيتها، ومع ذلك فهو قادر على الانتصاب والقذف، لذلك فإنك ستتفهم سبب إصراري على أن هذه جريمة غضب وليست جريمة جنسية. ما يدور في ذهنه ليس الجنس؛ إنه الغضب والحنق.

هذا بالمناسبة هو سبب في أنه من غير المفيد إخصاء المغتصبين المكررين لجرائمهم، مع أنها قد تكون فكرة مُرضية ومقبولة للبعض منا. المشكلة هي أنها لا تمنعهم سواء جسديًا أو عاطفيًا. الاغتصاب هو بالتأكيد جريمة غضب. إذا قطعت خصيتي شخص ما، فسوف يتبقى لديك رجل غاضب.

انتهيت من قصتي عن فاندا. «أنت مقرف يا دوجلاس!» قال الطبيب النفسي. «اخرج من مكتبي!» «أنا مقرف؟» رددت. «ستكون في وضع تقدم فيه توصية بأن توماس فاندا يستجيب للعلاج ويمكن الإفراج عنه، وأنت لا تعرف من الذي تتحدث معه عندما تتعامل مع هؤلاء السجناء. كيف يفترض بك أن تفهم إذا لم تأخذ الوقت الكافي لإلقاء نظرة على صور أو تقارير موقع الجريمة، أو لتصفح بروتوكولات التشريح؟ هل نظرت إلى طريقة ارتكاب الجريمة؟ هل تعرف ما إذا كان قد تم التخطيط لها؟ هل تفهم السلوك الذي أدى إلى ذلك؟ هل تعلم كيف غادر موقع الجريمة؟ هل تعلم ما إذا كان يحاول الإفلات من العقاب؟ هل حاول إقامة حجة غياب؟ كيف بحق *الجحيم* تعرف *ما إذا كان خطيرًا أم لا* ؟»

لم يكن لديه إجابة ولا أعتقد أنني غيرته في ذلك اليوم، ولكن هذا شيء أشعر به بشدة. إنه أساس ما نقوم به في وحدتي. المعضلة، كما ذكرت عدة مرات من قبل، هي أن الكثير من العلاج النفسي يعتمد على الإبلاغ الذاتي. المريض الذي يأتي إلى المعالج في ظل الظروف العادية له مصلحة خاصة في الكشف عن أفكاره ومشاعره الحقيقية. كما أن المحكوم عليه الذي يرغب في الإفراج المبكر، من ناحية أخرى، لديه مصلحة في إخبار المعالج بما يريد سماعه. وما لم يأخذ المعالج هذا التقرير في ظاهره دون ربطه بمعلومات أخرى حول الموضوع، فقد يُعَد ذلك فشلًا حقيقيًا للنظام. كان إد كيمبر ومونتي ريسل، على سبيل المثال لا الحصر، في العلاج في أثناء ارتكابهما لجرائمهما، وتمكن كلاهما من عدم الكشف عنهما. في الواقع، أظهر كلاهما «تقدمًا» لمعالجيهما.

المشكلة كما أراها هي أنك تحصل على أطباء نفسيين وعلماء نفس واختصاصيين اجتماعيين مثاليين، بعد أن تعلموا في جامعاتهم أنهم قادرون حقًا على إحداث فارق. ثم يواجهون هؤلاء الرجال في السجن، ويريدون أن يشعروا أنهم غيَّروهم. في كثير من الأحيان، لا يفهمون أنه في محاولة لتقييم هؤلاء المدانين، فإنهم في الواقع يقومون بتقييم الأفراد الذين هم أنفسهم خبراء في تقييم الناس! في وقت قصير، سيعرف المحكوم عليه ما إذا كان

الطبيب قد أنجز (أو أنجزت) واجباته، وإذا لم يفعل ذلك، فسيكون قادرًا على التقليل من شأن الجريمة وتأثيرها على الضحايا. قلة من المجرمين سوف يقدمون عن طيب خاطر التفاصيل الدقيقة إلى شخص لا يمتلكها بالفعل، لهذا السبب كان التحضير الكامل أمرًا بالغ الأهمية في مقابلات السجن التي أجريناها.

بالنسبة إلى الطبيب توماس فاندا، فإنه في معظم الأحيان، لا يرغب الأشخاص العاملين في المهن المساعِدة أن يكونوا متحيزين بمعرفة التفاصيل الدموية لما فعله المجرم. لكن كما أقول في صفوفي دائمًا، إذا كنت تريد أن تفهم بيكاسو، فعليك دراسة فنه. إذا كنت تريد أن تفهم الشخصية الإجرامية، فعليك دراسة جريمتها.

الفرق هو أن اختصاصيي الصحة العقلية يبدؤون بالشخصية ويستنتجون السلوك من هذا المنظور، فيما نبدأ أنا وزملائي بالسلوك ونستنتج الشخصية من *ذلك* المنظور.

هناك بالطبع وجهات نظر متباينة بشأن قضية المسؤولية الجنائية. الدكتور ستانتون سامينو عالم نفسي تعاون مع الطبيب النفسي الراحل الدكتور صمويل يوكيلسون في دراسة رائدة في مستشفى سانت إليزابيث بواشنطن العاصمة حول السلوك الإجرامي. بعد سنوات من البحث المباشر الذي جَرَّد تدريجيًا معظم مفاهيمه المسبقة، خلص سامينو في كتابه الثاقب والبديع، *داخل العقل الإجرامي*، إلى أن «المجرمين يفكرون بشكل مختلف عن الأشخاص المسؤولين». يعتقد سامينو أن السلوك الإجرامي ليس مسألة مرض عقلي بقدر ما هو عيب في الشخصية.

صرَّح الدكتور بارك ديتز، الذي يعمل معنا بشكل متكرر: «لم يكن أي من القتلة المتسلسلين الذين أُتيحت لي الفرصة لدراستهم أو فحصهم مجنونًا من الناحية القانونية، لكن لم يكن أي منهم طبيعيًا أيضًا. لقد كانوا جميعًا أشخاصًا يعانون اضطرابات عقلية، ولكن على الرغم من اضطراباتهم العقلية تلك، والتي تتعلق باهتماماتهم الجنسية وشخصياتهم، فقد كانوا أشخاصًا يعرفون ما يفعلونه، ويدركون أن ما يفعلونه كان خطأ، لكنهم اختاروا القيام به على أي حال».

من المهم أن تضع في حسبانك هنا أننا نتحدث عن الجنون بكونه مفهومًا قانونيًا وليس مصطلحًا طبيًا أو نفسيًا. هذا لا يعني أن شخصًا ما «مريض» أو ليس كذلك. يتعلق الأمر بما إذا كان هذا الشخص مسؤولًا عن أفعاله أم لا.

وبهذا، إذا كنت تعتقد أن شخصًا مثل توماس فاندا مجنون، فلا بأس. أعتقد أنه يمكن إنشاء قضية لذلك، ولكن بمجرد أن نفحص البيانات بعناية، أعتقد أنه يتعين علينا مواجهة أنه مهما يكن في العالم من توماس فاندا، فقد لا يكون قابلًا للشفاء. إذا قبلنا ذلك، فلن يتم السماح لهم بالخروج بهذه السرعة لمواصلة ما يفعلونه مرة بعد أخرى. علمًا بأن جريمة القتل هذه لم تكن الأولى.

كثر الحديث مؤخرًا عن مفهوم الجنون الإجرامي، وهو ليس حديثًا جديدًا بطبيعة الحال. يعود الأمر إلى مئات السنين على الأقل في الفقه الأنجلو-أمريكي، إلى كتاب *Eirenarcha* أو «مكتب قاضي الصلح» لوليم لامبارد في القرن السادس عشر.

كان أول بيان منظم للجنون كدفاع ضد التهم الجنائية هو قاعدة ماناتن-M'Naghten لعام 1843، التي سُميت على اسم دانيال ماناتن (الذي تتم تهجئته في بعض الأحيان ماك ناتن أو مكناتن)، الذي حاول قتل رئيس الوزراء البريطاني السير روبرت بيل وتمكن من إطلاق النار على سكرتير بيل الخاص. بالمناسبة، كان بيل مسؤولًا عن تنظيم قوة شرطة لندن. حتى يومنا هذا، لا يزال يُشار إلى رجال شرطة لندن باسم بوبيز bobbies تكريمًا له.

بعد أن تمت تبرئة ماناتن، كان الغضب العام واسعًا لدرجة أنه تم استدعاء رئيس المحكمة العليا أمام مجلس اللوردات لشرح منطق الحكم. تنص العناصر الأساسية على أن المدعى عليه غير مذنب إذا كانت حالته العقلية تحرمه من القدرة على معرفة عدم مشروعية أفعاله أو فهم طبيعتها وخاصيتها؛ بعبارة أخرى، هل كان يدرك الفارق بين الصواب والخطأ؟

تطورت عقيدة الجنون على مر السنين إلى ما يُشار إليه غالبًا باسم «اختبار الاندفاع الذي لا يقاوم»، والذي نص على أن المدعى عليه غير مذنب إذا كان، بسبب مرض عقلي، غير قادر على التحكم في أفعاله أو مطابقة سلوكه للقانون.

تلقى هذا القانون مراجعة شاملة في عام 1954 مع حكم محكمة الاستئناف للقاضي ديفيد بازيلون في قضية *دورهام ضد الولايات المتحدة*، والذي قضى بأن المتهم غير مسؤول جنائيًا إذا كانت جريمته «نتاج مرض أو عيب عقلي»، وإذا لم يكن ليرتكب الجريمة لولا ذلك المرض أو العيب.

لم تحظ *دورهام* (التي أعطت مجالًا واسعًا من هذا القبيل ولم تكن معنية في المقام الأول بتقدير الفارق بين الصواب والخطأ) بشعبية كبيرة لدى موظفي إنفاذ القانون والعديد من القضاة والمدعين العامين. في عام 1972، في قضية أخرى لمحكمة الاستئناف، *الولايات المتحدة ضد براونر*، تم التخلي عنها لصالح اختبار قانون العقوبات النموذجي لمعهد القانون الأمريكي (ALI)، والذي ردَّ على دافع ماناتن وزعم الدافع غير المسؤول الذي يقول إن بمقدور العيب العقلي أن يجعل المدعى عليه يفتقر إلى القدرة اللازمة لتقدير عدم مشروعية سلوكه أو مطابقة سلوكه وفقًا لمتطلبات القانون. بشكل أو بآخر، تمتع اختبار ALI بشعبية متزايدة بين المحاكم مع مرور الوقت.

لكن إلى جانب هذه المناقشة، والتي غالبًا ما تتحول إلى تكهنات عبثية حول *عدد الملائكة الذين يمكنهم الرقص على رأس دبوس*، أعتقد أنه يتعين علينا التعامل مع مفهوم أكثر أساسية، وهو *الخطورة*.

كانت إحدى المواجهات الكلاسيكية في معركة الأطباء النفسيين المستمرة هي محاكمة القاتل المتسلسل آرثر جاي شاوكروس في روشستر، نيويورك، 1990. اتهم شاوكروس بسلسلة من جرائم قتل مومسات محليات ومتشردين ظهرت جثثهم في مناطق الغابات حول أخدود نهر جينيسي.

استمرت جرائم القتل لنحو عام تقريبًا، كما تم تشويه الجثث اللاحقة بعد الموت.

بعد إجراء ملف تعريفي مفصل و -كما تبين فيما بعد- دقيق للغاية، درس جريج مكراري السلوك المتطور للمشتبه به مجهول الهوية. عندما اكتشفت الشرطة جثة مشوهة، أدرك جريج أن القاتل كان قد عاد إلى مكبات النفايات لقضاء بعض الوقت مع فريسته. ثم حث الشرطة على تمشيط الغابة لتحديد مكان جثة إحدى النساء اللائي ما زلن في عداد المفقودين. إذا تمكنوا من فعل ذلك، فإن عليهم مراقبة الموقع جيدًا وبشكل سري، كان جريج متأكدًا من أنهم سيجدون القاتل هناك في النهاية.

الذي حدث، أنه بعد عدة أيام من المراقبة الجوية، عثرت شرطة ولاية نيويورك على جثة في سالمون كريك على طول طريق الولاية 31. في الوقت نفسه، لاحظ المفتش جون ماكافري رجلًا في سيارة متوقفة على جسر منخفض يمتد على الماء. تم استدعاء شرطة الولاية والمدينة لمتابعته. كان الرجل الذي أوقفوه آرثر شاوكروس.

في أثناء استجواب فريق بقيادة دينيس بليث من شرطة الولاية وليونارد بورييلو من قسم شرطة روشستر، اعترف شاوكروس بارتكاب العديد من الجرائم. لكن القضية الرئيسية في محاكمة جرائم القتل العشر التي تمت تغطيتها بشكل مكثف هي ما إذا كان مجنونًا في وقت ارتكابه جرائم القتل أم لا.

جلب الدفاع الدكتورة دوروثي لويس، وهي طبيبة نفسية معروفة في مستشفى بيلفيو في نيويورك، والتي قامت بعمل مهم بشأن آثار العنف على الأطفال. كانت لويس مقتنعةً بأن معظم السلوك الإجرامي العنيف، إن لم يكن كله، ناتج عن مزيج من سوء المعاملة أو الصدمة في مرحلة الطفولة ونوع من الحالة الجسدية أو العضوية، مثل الصرع أو إصابة ما، أو نوع من الآفات أو الكيسات أو الأورام. هناك بالطبع حالة تشارلز ويتمان، طالب الهندسة البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا والذي صعد إلى قمة برج الساعة في جامعة تكساس في أوستن في عام 1966 وفتح النار على المارة بالأسفل، قبل أن تتمكن الشرطة من محاصرة البرج وقتله بعد تسعين دقيقة، كان قد تسبب في مقتل ستة عشر رجلًا وامرأة وجرح ما يزيد على ثلاثين شخصًا.

قبل الحادث، كان ويتمان قد اشتكى من حالات غضب دورية بأفكار ورغبة في القتل. عندما أجرى الأطباء تشريحًا للجثة، وجدوا ورمًا في الفص الصدغي لدماغه.

هل تسبب الورم في سلوك ويتمان القاتل؟ ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة ذلك. لكن لويس أرادت أن يظهر لهيئة المحلفين أنه نتيجة لكيس صغير في الفص الصدغي ظهر في التصوير بالرنين المغناطيسي لشاوكروس، وهو شكل من أشكال الصرع وصفته بأنه: «حالة نوبة معقدة جزئية»، وضغوط ما بعد الصدمة من فيتنام، وزعمه أنه تعرض للاعتداء الجسدي والجنسي الشديد في مرحلة الطفولة على يد والدته، فإن آرثر شاوكروس لم يكن مسؤولًا عن نوبات العنف الشديد التي تعرض لها. وشهدت، في الواقع، أنه كان في حالة شرود ما عندما قتل كل امرأة؛ قد تكون ذاكرته حول كل حادثة ضعيفة أو غير موجودة.

إحدى المشكلات مع هذا المنطق هي أنه بعد أسابيع وشهور من جرائم القتل، تمكن شاوكروس من ربط التفاصيل ببورييلو وبليث بتفاصيل دقيقة. في بعض الحالات، أحضرهم في الواقع إلى مكب نفايات لم تتمكن الشرطة

من العثور عليه. ربما كان قادرًا على القيام بذلك لأنه كان يتخيل كل واحدة عدة مرات لدرجة أنها كانت جديدة في ذهنه.

اتخذ خطوات لتدمير بعض الأدلة حتى لا تجده الشرطة. بعد اعتقاله، كتب أيضًا رسالة تحليلية إلى صديقته (كان لديه زوجة أيضًا)، قائلًا إنه يأمل في الدفاع عن الجنون لأن قضاء الوقت في مستشفى للأمراض العقلية سيكون أسهل كثيرًا من قضاء الوقت في السجن.

في هذا الصدد، كان شاوكروس على دراية واضحة بما يقوله. بدأت مشكلاته مع القانون في عام 1969 عندما أُدين بالسطو والحريق المتعمَّد في ووترتاون، شمال سيراكيوز. بعد أقل من عام، تم القبض عليه مرة أخرى واعترف بخنق صبي وفتاة. كما تعرضت الفتاة للتحرش الجنسي. بالنسبة إلى هاتين الجريمتين، حُكِم على شاوكروس بالسجن لمدة خمسة وعشرين عامًا.

حصل على إطلاق السراح المشروط بعد خمسة عشر عامًا. هذا، إذا كنت تتذكر من فصل سابق، كان السبب في أن العمر كان الجانب الوحيد في الملف التعريفي الذي لم يكن جريج مكراري مصيبًا فيه. كانت الأعوام الخمسة عشر التي قضاها شاوكروس في السجن مجرد نمط تثبيطي.

الآن دعونا نتعامل مع الأمر خطوة بخطوة. بادئ ذي بدء، إذا سألتني أو سألت أيًّا من آلاف رجال الشرطة والمدعين العامين والوكلاء الفيدراليين الذين عملت معهم على مدار مسيرتي المهنية، فسوف تحصل على إجماع حاسم أن الحكم بالسجن لخمسة وعشرين عامًا لإنهاء حياة طفلين هو فضيحة في حد ذاتها. لكن ثانيًا، أن تتيح لهذا الرجل الخروج مبكرًا، حينها يبدو لي أنه يجب عليك افتراض واحدة من فرضيتين متناقضتين.

الأولى: على الرغم من الخلفية السيئة لهذا الرجل، وعلى الرغم من عائلته المفككة، والإساءة المزعومة، ونقص التعليم الجيد، وماضيه العنيف، وكل شيء آخر؛ فإن حياته في السجن كانت تجربة رائعة، ومبهجة روحيًّا، ومفتوحة، وتأهيلية رأى شاوكروس من خلالها النور، وأدرك خطأ أساليبه، وبسبب كل النفوذ الجيد في السجن قرر أن يفتح صفحة جديدة وأن يصبح مواطنًا مستقيمًا وملتزمًا بالقانون منذ تلك اللحظة.

حسنًا، إذا كنت لا تقبل تلك المقدمة، فماذا عن الفرضية الثانية: كانت الحياة في السجن مروعة تمامًا، ومريرة ومؤلمة كل يوم، ومعاقبة تمامًا بكل

الطرق، لكن على الرغم من خلفيته السيئة ورغبته المستمرة في اغتصاب وقتل الأطفال، فإنه لم يكن يرغب قط في العودة إلى السجن وقرر أن يفعل كل ما في وسعه لتجنب العودة إلى هناك.

أتفق، هذا غيرٍ مرجَّح تمامًا. لكن إذا لم تقبل أيًّا من هاتين الفرضيتين، فكيف يمكنك حقًا السماح لشخص مثل هذا بالخروج دون التفكير في احتمالية قوية بأنه سيقتل مرة أخرى؟

من الواضح تمامًا أن بعض أنواع القتلة هم أكثر عرضة لتكرار جرائمهم من غيرهم. لكن بالنسبة إلى القتلة المتسلسلين العنيفين والمدفوعين بالجنس، أجد نفسي أتفق مع الدكتور بارك ديتز على أنه «من الصعب تخيل أن يتم إخراجه تحت أي ظرف من الظروف ليندمج بالعامة من جديد».

حتى إد كيمبر، الذي هو أكثر ذكاء وفطنة ولديه من البصيرة الشخصية أكثر من معظم القتلة الآخرين الذين تحدثت إليهم، يعترف بصراحة أنه لا ينبغي السماح له بالخروج.

هناك الكثير من قصص الرعب. ريتشارد ماركيت، الذي قابلته وكان لديه سلسلة أفعال من السلوكيات غير المنضبطة، حاول الاغتصاب، وتوجد ضده اتهامات بالضرب والاعتداء في أوريغون في أوائل العشرينيات من عمره، تطور للاغتصاب والقتل والتشويه بعد تجربة جنسية فاشلة مع امرأة التقاها في حانة في بورتلاند. فر من المنطقة، ووُضِع على قائمة المطلوبين لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ثم اعتُقِل في كاليفورنيا. أُدين بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. بعد إطلاق سراحه المشروط بعد اثني عشر عامًا، قتل وشوه جثة امرأتين أخريين قبل القبض عليه مرة أخرى. ماذا بحق الرب دفع مجلس الإفراج المشروط إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل لم يعد خطيرًا؟!

لا يمكنني التحدث باسم مكتب التحقيقات الفيدرالي أو وزارة العدل أو أي شخص آخر. لكن يمكنني أن أقول عن نفسي إنني أفضل أن أتحمل وخز ضميري لإبقاء قاتل في السجن، قد يقتل أو لا يقتل مرة أخرى إذا خرج، على أن يموت رجل أو امرأة أو طفل بريء نتيجة إطلاق سراح ذلك القاتل. إنها سمة أمريكية الاعتقاد بأن الأمور تتحسن دائمًا، وأنها لا تتوقف عن أن تصير أفضل، وأنه يمكننا تحقيق أي شيء نخطط للقيام به. لكن كلما رأيت أكثر، أصبحت أكثر تشاؤمًا بشأن مفهوم إعادة التأهيل لأنواع معينة من المجرمين. ما مروا به وهم أطفال غالبًا ما يكون فظيعًا. هذا لا يعني بالضرورة أن الضرر

لن يقع في المستقبل. وخلافًا لما قد يرغب القضاة ومحامو الدفاع وأفراد كوادر الصحة العقلية في تصديقه، فإن السلوك الجيد في السجن لا ينبئ بالضرورة بالسلوك المقبول في المحيط الخارجي.

من جميع النواحي تقريبًا، كان شاوكروس سجينًا نموذجيًا، كان صامتًا، منعزلًا، وينفذ ما يُطلَب منه، ولم يزعج أحدًا. لكن ما وجدته أنا وزملائي وحاولنا جاهدين إيصاله للآخرين في مجال الإصلاح وطب النفس الشرعي هو أن *الخطورة ظرفية*.

إذا كان بإمكانك الاحتفاظ بشخص ما في بيئة جيدة التنظيم حيث ليس لديه خيارات ليتخذها، فقد يكون على ما يرام. لكن إعادته إلى البيئة التي أساء فيها التصرف من قبل، يمكن أن يغيِّر سلوكه بسرعة.

خذ حالة جاك هنري أبوت، القاتل المدان الذي كتب *في بطن الوحش* ***In the Belly of the Beast***، مذكرات مؤثرة وثاقبة عن الحياة في السجن. إدراكًا لموهبته الاستثنائية ككاتب واعتقادًا منه أنه يجب إعادة تأهيل أي شخص حساس وبصير، وفق نورمان ميلر الذي قاد حملة لإدراج أبوت في الإفراج المشروط. أصبح حديث نيويورك، لكن في غضون بضعة أشهر من إطلاق سراحه، دخل في جدال مع نادل في قرية جرين ويتش وقتله.

حسب تعبير آل برانتلي (وهو مدرس سابق في العلوم السلوكية وعضو حالي في وحدة الدعم الاستقصائي) في إحدى محاضراته بالأكاديمية الوطنية، «أفضل متنبئ للسلوك المستقبلي، أو التمثيل العنيف في المستقبل، هو تاريخ سابق من العنف».

لن يتهم أحد آرثر شاوكروس بأنه قريب من توهج وموهبة شخص مثل جاك هنري أبوت، لكنه تمكن أيضًا من إقناع لجنة الإفراج المشروط بإمكانية الإفراج عنه. بعد الإفراج المشروط عنه، استقر شاوكروس أولًا في بينج هامتون، حيث قامت ضده حملة مجتمعية غاضبة أجبرته على المغادرة بعد شهرين. نُقل إلى روشستر الأكبر والأكثر تنوعًا، حيث تولى وظيفة محضِّر سلطة في شركة توزيع أغذية. بعد عام من وصوله، عاد إلى القتل مرة أخرى؛ ضحية مستهدفة مختلفة هذه المرة، لكنها ليست أقل عرضة للخطر.

خلال فحوصاتها لشاوكروس، وضعته دوروثي لويس تحت التنويم المغناطيسي عدة مرات و «أرجعته» إلى مراحل سابقة من حياته حيث تصرف بمثل هذه النوبات من سوء المعاملة مثل إدخال والدته مقبض مكنسة

عميقًا في مؤخرته. خلال هذه الجلسات المسجلة، بدا أنه يواجه شخصيات أخرى، من ضمنها شخصية والدته، في مشهد مخيف يذكرنا بفيلم *سايكو* *Psycho*. (ومع ذلك، فقد أنكرت والدة شاوكروس إساءة معاملة ابنها واستنكرته ككاذب).

في عملها في بيلفيو، وثَّقت لويس بعض الحالات المقنعة لتعدد الشخصيات لدى الأطفال الذين تعرضوا لسوء المعاملة. إنهم صغار جدًّا لدرجة أنه سيكون من الصعب تصور أنهم قادرون على تزييف هذا. ولكن كما أوضحت لويس، فإن الحالات النادرة لاضطراب تعدد الشخصية تبدأ في وقت مبكر في مرحلة الطفولة، وغالبًا خلال مرحلة ما قبل النطق. عند البالغين، يبدو أن المرة الوحيدة التي تسمع فيها حقًّا عن اضطراب الشخصية المتعددة هي بعد محاكمة شخص ما بتهمة القتل العمد. بطريقة أو بأخرى، فإنه لا تظهر حتى ذلك الحين. كينيث بيانكي، أحد اثنين من أبناء العمومة اللذين ارتكبا معًا جرائم القتل في هيلسايد سترانجلر في لوس أنجلوس في السبعينيات، ادعى بعد اعتقاله أنه متعدد. وحاول جون واين جاسي السير على نفس النهج.

(لقد كنت أمزح كثيرًا أنه إذا كان لديك مجرم له شخصيات متعددة، فسأسمح للشخصيات البريئة بالرحيل ما دام يمكنني حبس المذنب).

بالنسبة إلى محاكمة شاوكروس، دعا المدعي العام الرئيسي تشارلز سيراغوزا (الذي قام بعمل بارع) بارك ديتز لتقديم الجانب الآخر. قام ديتز بفحص شاوكروس بنفس الدقة التي فحصته بها لويس، فأفصح شاوكروس عن الكثير من التفاصيل المحددة حول جرائم القتل. فيما لم يصدر عن ديتز أي حكم مطلق حول صحة قصص الإساءة، فقد اعتقد أنها بدت معقولة على الأقل. على الرغم من ذلك، لم يكن يعتقد أن شاوكروس كان موهومًا، ولم يجد أي دليل على أنه عانى الإغماء أو فقدان الذاكرة، ولم يجد أي ارتباط بين سلوكه وأي نتائج عصبية عضوية، وخلص إلى أنه مهما كانت المشكلات العقلية أو العاطفية التي قد يعانيها، فإن آرثر شاوكروس كان يفهم الفارق بين الصواب والخطأ وكان قادرًا على الاختيار فيما إذا كان سيقتل أم لا. وفي عشر مناسبات هنا على الأقل، وربما أكثر، اختار أن يفعل ذلك.

عندما سأله لين بوريبلو عن سبب قتله لهؤلاء النساء، أجاب ببساطة: «الاهتمام بأعمالي».

الذهانيون الحقيقيون -أولئك الذين فقدوا الاتصال بالواقع- لا يرتكبون جرائم خطيرة في كثير من الأحيان. وعندما يفعلون ذلك، فإنهم عادة ما يكونون غير منظمين ولا يبذلون جهدًا كبيرًا لتجنب اكتشافهم بحيث يتم، بشكل عام، القبض عليهم سريعًا إلى حد ما. كان ريتشارد ترينتون تشيس، الذي قتل النساء لأنه اعتقد أنه بحاجة إلى دمائهن للبقاء على قيد الحياة، مصابًا بالذهان. إذا لم يستطع الحصول على دم بشري، فسيكتفي بما هو في متناول اليد. عندما تم وضع تشيس في مصحة عقلية، استمر في اصطياد الأرانب، يسحب دمها ويحقنه في ذراعه. كان يصطاد طيورًا صغيرة، يقضم رؤوسها، ويشرب دماءها. كان هذا حقيقيًا، ولكن حتى يتجنب القاتل اكتشاف أمره وينجو بعد ارتكابه عشر جرائم قتل، يجب أن يكون جيدًا في ذلك. لا ترتكب خطأ الخلط بين مختل عقليٍّ ومختل نفسيٍّ.

في أثناء المحاكمة، تبنى شاوكروس سلوكًا صبورًا، جامدًا يصل لموقف الذاهل تجاه هيئة المحلفين. كان الأمر كما لو كان في حالة اضطراب حاد، غير قادر على مواكبة ما كان يدور حوله. ومع ذلك، أفاد ضباط الشرطة والمرشدون الذين كانوا يحرسونه ويرافقونه أنه بمجرد أن يكون خارج نطاق نظر هيئة المحلفين وسمعها، كان يسترخي، ويثرثر، بل ويمزح أحيانًا. كان يعلم أن هناك الكثير على المحك في مسألة إقناعهم بجنونه.

كان غاري ترابنيل واحدًا من أكثر المجرمين ذكاء ودهاء، وسحرًا إن جاز لي القول، من بين الذين درست قضاياهم واستعرضتها. كان يدخل السجن ويخرج منه معظم حياته، وفي وقت من الأوقات أقنع امرأة شابة بتأمين طائرة هليكوبتر للهبوط في منتصف ساحة السجن وإنقاذه. خلال إحدى جرائمه البارزة -اختطاف طائرة في أوائل السبعينيات- كان ترابنيل على متن الطائرة على الأرض في محاولة للتفاوض على شروط هروبه. في خضم ذلك، رفع قبضته في الهواء للكاميرات ليلفت انتباهها وصاح: «حرروا أنجيلا ديفيس!»

«حرروا أنجيلا ديفيس»؟ ما هذه الـ «حرروا أنجيلا ديفيس»؟ جاء ذلك أشبه بالصدمة لكل العاملين في إنفاذ القانون ممن كانوا يعملون في القضية. لا يوجد شيء في خلفية ترابنيل يشير إلى أنه ملتزم عاطفيًا بأي شكل من الأشكال بالقضايا الجذرية التي نادت بها البروفيسور السوداء من كاليفورنيا. لا يوجد ما يشير إلى أنه سياسي بأي شكل من الأشكال، لكنه هنا، كأحد

مطالبه، يريد إطلاق سراح أنجيلا ديفيس من السجن. لا بد أن هذا الرجل مجنون. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

لاحقًا، بعد استسلامه وإدانته، عندما قابلته في السجن الفيدرالي في ماريون، إلينوي، سألته عن ذلك الطلب.

قال شيئًا مؤثرًا: «عندما رأيت أنني لن أشق طريقي للخروج من هنا، كنت أعلم أنني سأقضي بعض الوقت الصعب. واكتشفت أنه إذا كان الأخوة السود الكبار يعتقدون أنني سجين سياسي، فسوف يكون من غير المرجح أن تُغتَصب مؤخرتي في الحمام».

لم يكن ترابنيل عقلانيًا تمامًا في ذلك الوقت فحسب، بل كان يخطط للمستقبل، على نقيض كونه مجنونًا تمامًا. في الواقع، كتب مذكراته الخاصة بعنوان *الثعلب مجنون، أيضًا* *The Fox Is Crazy, Too*. زودتنا هذه المجموعة الصغيرة من المعلومات بنظرة ثاقبة للمفاوضات. إذا ما ظهر فجأة مطلب غير متوقع على الإطلاق، فقد يعني ذلك أن الجاني، في ذهنه، قد انتقل بالفعل إلى المرحلة التالية، ويمكن للمفاوض أن يتصرف وفقًا لذلك.

أخبرني ترابنيل شيئًا آخر وجدته مثيرًا للاهتمام للغاية. قال إنه إذا أعطيته نسخة من الإصدار الحالي من *DSM*: *الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية*، وأشرت إلى أي حالة موصوفة فيه، فإنه بحلول اليوم التالي يمكنه إقناع أي طبيب نفسي بأنه يعاني ذلك الاختلال بالفعل. مرة أخرى، حصل أن كان ترابنيل أكثر حنكة من شاوكروس بكثير. ولكن مثلما لا يتطلب الأمر كل هذا القدر من الخيال لتعرف أنك حصلت على فرصة أفضل للإفراج المشروط إذا أخبرت الطبيب النفسي أنك تشعر بتحسن كبير ولم يعد لديك أي اهتمام بالتحرش بالأطفال الصغار، فمن المنطقي أن يكون تفسير حالة الشرود في صالحك إذا كان بإمكان هيئة المحلفين رؤيتك في حالة من الذهول.

لفترة طويلة، حاول مجتمع إنفاذ القانون الاعتماد على الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية للإرشاد والتعريف والتمييز بين ما يشكِّل اضطرابًا عقليًّا خطيرًا وما لا يعدُّ كذلك.

لكن معظمنا وجد أن قيمة الكتاب المرجعي أقل مقارنة بما كنا نفعله. كان هذا أحد الدوافع لتطوير دليل تصنيف الجرائم، والذي تم نشره في عام 1992. نشأ الهيكل الأساسي للكتاب من رسالة الدكتوراه الخاصة بي.

تعاونت معي ريسلر وآن بيرجس وزوجها آلن، أستاذ الإدارة في بوسطن، كمؤلفين مشاركين. عمل معنا أعضاء آخرون في وحدات الدعم الاستقصائي والعلوم السلوكية، بما في ذلك جريج كوبر وروي هازلوود وكين لانينج وجريج مكراري وجود راي وبيت سمريك وجيم رايت.

مع CCM *دليل تصنيف الجرائم*، شرعنا في تنظيم وتصنيف الجرائم الخطيرة من خلال خصائصها السلوكية وشرحها بطريقة لم يكن باستطاعة نهج نفسي صارم مثل DSM *الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية* القيام به. على سبيل المثال، في *DSM*، لن تجد نوع سيناريو القتل الذي اتُّهم به أو جيه سيمبسون، لكنك ستجده في *CCM*. ما كنا نحاول القيام به هو فصل القمح عن القشر فيما يتعلق بالأدلة السلوكية ومساعدة المحققين والمجتمع القانوني على التركيز على تحديد أي الاعتبارات التي قد تكون ذات صلة وأيها ليست كذلك.

ليس من المستغرب أن يقوم المدعى عليهم ومحاموهم بإحضار أي شيء ممكن لتجنب تحمل مسؤولية أفعالهم. من بين قائمة العوامل التي اقترح فريق شاوكروس أنها قد ساهمت في إصابته بالجنون، اضطراب ما بعد الصدمة من فيتنام. لكن أشارت الأبحاث إلى أن شاوكروس لم يرَ أي معركة. لكن هذا لم يكن جديدًا. لقد استُخدم عدة مرات من قبل. ادعى دوان سامبلز (الذي نزع أحشاء امرأتين في سيلفرتون، أوريغون، ليلة 9 ديسمبر 1975) أنه مصاب باضطراب ما بعد الصدمة كدفاع عنه. ماتت واحدة فقط من النساء، لكني رأيت صور موقع الجريمة. كلاهما يشبه التشريح. اكتشف روبرت ريسلر أن سامبلز لم يشهد أي أوضاع عنف، على الرغم من ادعاءاته. لكن في اليوم السابق للهجوم، كتب سامبلز رسالة يصف فيها تخيله الممتد وقتًا طويلًا لنوع أحشاء امرأة عارية جميلة. في عام 1981، ذهب ريسلر إلى ولاية أوريغون لمساعدة المدعين العامين في شرح سبب عدم وجوب مواصلة الحاكم نيته في الإفراج المشروط عن سامبلز. نجحت هذه الحجة، على الرغم من إطلاق سراحه أخيرًا بعد عشر سنوات.

هل سامبلز مجنون؟ هل كان مجنونًا عند قتل المرأتين؟ لا بد أن النزوع الطبيعي هو القول إن أي شخص يمكنه فعل مثل هذا الشيء الفظيع والمنحرف يجب أن يكون «مريضًا». وأنا لا أختلف مع ذلك، لكن هل كان يعلم أن ما كان يفعله خطأ؟ وهل اختار أن يفعل ذلك؟ هذه هي الأسئلة المهمة بالنسبة إليَّ.

استمرت محاكمة آرثر شاوكروس في محكمة مدينة روشستر لأكثر من خمسة أسابيع، أظهر خلالها المدعي العام سيراغوزا فهمًا أعمق وأشمل للطب النفسي الشرعي أكثر مما رأيت من أي طبيب تقريبًا. خلال المحاكمة، التي تم بثها بالدقيقة على التلفاز، أصبح بطلًا محليًّا. عندما سلمت هيئة المحلفين القضية أخيرًا بعد المرافعات الختامية، استغرقوا أقل من يوم للوصول إلى حكم بتهمة القتل العمد من الدرجة الثانية في جميع التهم. أكد هذا الحكم حقيقة أنه لن تتاح لشاوكروس الفرصة لتكرار أفعاله. حُكم عليه بالسجن مائتين وخمسين سنة في سجن الولاية.

وهذا يظهر جانبًا آخر من الدفاع عن الجنون، جانب لا يدركه الكثير من الناس: لا تحبه هيئة المحلفين ولا تميل إليه كثيرًا.

إنهم لا يفعلون ذلك لسببين، على ما أعتقد. أولهما أن فكرة أن يضطر قتلة متعددون لارتكاب جرائمهم بحيث لا خيار أمامهم هو أمر يضعف المصداقية. ضع في حسبانك أنه ما من أي قاتل متسلسل، حسب خبرتي، يصرح بأنه اضطر للقتل لدرجة أنه فعل ذلك في وجود ضابط شرطة يرتدي الزي الرسمي.

السبب الثاني الذي يجعل هيئات المحلفين لا تلجأ إلى دفاع الجنون هو سبب أساسي أكثر. بعد تجريد كل الحجج القانونية والنفسية والأكاديمية، عندما ننتقل أخيرًا إلى مناقشة مصير المدعى عليه، يدرك المحلفون غريزيًّا أن هؤلاء الأشخاص خطرون.

بغض النظر عما قد يشعر به الرجال والنساء المحترمون في ميلووكي من الناحية الفكرية بشأن أهلية جيفري دامر العقلية من عدمها، لا أعتقد أنهم كانوا على استعداد لإسناد مستقبله (ومستقبل مجتمعهم) إلى مؤسسة عقلية لا يمكنهم التأكد من أن أمنها أو قضاءها سيبقيه في الداخل. بينما إذا وضعوه في السجن، فمن المرجح أن يتم كبح خطورته.

لا أقصد الإيحاء بأن معظم الأطباء النفسيين أو اختصاصيي الصحة العقلية متحمسون لإخراج الجناة الخطرين من السجن وإعادتهم إلى المواقف التي يمكن أن يتسببوا فيها بمزيد من الأذى. ما أقترحه هو أنه في معظم الحالات، من واقع خبرتي، لا يرى هؤلاء الأشخاص ما يكفي مما نقوم به حتى نتمكن من إصدار أحكام مستنيرة. حتى لو كانت لديهم خبرة في الطب الشرعي، فغالبًا ما يقتصر الأمر على منطقة معينة، وهو ما سيعتمدون عليه بعد ذلك.

من أولى القضايا التي تلقيتها بصفتي محللًا تنميطيًا، قضية تتعلق بقتل امرأة مسنة؛ آنا بيرلينر، في منزلها في ولاية أوريغون. كانت الشرطة المحلية قد استشارت طبيبًا نفسيًّا إكلينيكيًّا حول نوع المشتبه به مجهول الهوية الذي كانوا يبحثون عنه. وكان من بين إصاباتها أربع طعنات بقلم الرصاص في الصدر. أجرى الطبيب النفسي مقابلات مع نحو خمسين رجلًا متهمين أو مدانين بارتكاب جرائم قتل. تم إجراء معظم هذه الفحوصات في السجن. بناءً على تجربته، توقع أن يكون الجاني شخصًا قضى فترة لا بأس بها في السجن، ربما كان تاجر مخدرات، لأنه فقط في السجن يعدُّ قلم الرصاص الحاد سلاحًا مميتًا على نطاق واسع. قال إن الناس في الخارج لن يفكروا في استخدام قلم رصاص عادي لمهاجمة شخص ما.

عندما اتصلت بي الشرطة، أعطيتهم رأيًا مخالفًا. اعتقدت أن عمر الضحية وضعفها، والإفراط في القتل، وحقيقة أنها كانت جريمة نهارية وأنه لا يوجد شيء ذو قيمة كبيرة مفقود، تشير إلى وجود مذنب حَدَث غير متمرس. لم أصدق أنه حلل بعناية استعمال قلم الرصاص كسلاح. كان موجودًا واستعمله.

اتضح أن القاتل كان شابًا عديم الخبرة يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، وقد ذهب إلى منزلها في محاولة للحصول على مساهمة في ماراثون مشي لم يكن يشارك فيه أصلًا.

كانت السمة الرئيسية لموقع الجريمة هذا هي أن جميع الأدلة السلوكية توحي لي بمجرم لم يكن متأكدًا من نفسه. إن المحتال السابق الذي يهاجم امرأة مسنة في منزلها سيكون واثقًا جدًّا من نفسه. مجرد التقاط دليل واحد (مثل شعرة الرجل الأمريكي من أصل إفريقي في قضية فرانسين إلفسون) لا يعطي الصورة كاملة. في الواقع، في جريمة قتل آنا بيرلينر، كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى الاتجاه المعاكس تمامًا للحقيقة.

إن أصعب سؤال يُطرح على أي منا في هذا العمل يتعلق بما إذا كان فرد معين خطيرًا أو سيكون كذلك. بالنسبة إلى الأطباء النفسيين، غالبًا ما يتم طرحه من منظور «تهديد لنفسه أو للآخرين».

في عام 1986، تم الاتصال بمكتب التحقيقات الفيدرالي بشأن لفافة فيلم تم إرسالها من كولورادو إلى معمل صور لتحميضها. أظهرت الصور رجلًا في أواخر العشرينيات من عمره أو أوائل الثلاثينيات من عمره، مرتديًا ملابس مموَّهة، على الباب الخلفي لسيارته رباعية الدفع مع بندقيته ودمية باربي التي تعرضت للعديد من أوضاع التعذيب والتشويه. لم يتم خرق أي قانون

في أثناء القيام بذلك، وقلت إن الرجل لن يكون لديه سجل جنائي. لكنني حذرت أيضًا من أنه في سنه، فإن هذا الخيال الذي كان يتصرف به مع الدمية لن يؤمِّن له الشعور بالرضا طويلًا؛ سوف يتطور. من الصور فقط، لم أدرِ ما مدى أهمية ذلك في حياته، ولكن بالنسبة إليه، وبما وصل إليه والمشكلات التي عملها، فلا بد أنه كان لذلك بعض الأهمية الدالة. قلت إنه يجب مراقبة هذا الرجل وإجراء مقابلات معه، لأن هناك حالة من الخطورة تنتظر الحدوث. لست متأكدًا مما إذا كان معظم علماء النفس لديهم نفس المنظور.

بقدر ما قد يبدو هذا الحادث غريبًا، يمكنني التفكير في العديد من «حقائب دمى باربي» التي تم إحضارها لي على مر السنين، وكلها تضم رجالًا بالغين. قام أحدهم في الغرب الأوسط بغرز دبابيس في كل بوصة في الدمية، وتركها على أرض مستشفى الطب النفسي المحلي.

في بعض الأحيان، تتعرض لهذا النوع من الطقوس الشيطانية أو الفودو أو الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يمارسون السحر، لكن لم يكن هناك شيء من هذا هنا، كما أنه لم يعلق اسمًا على الدمية، مما يشير إلى توجه لشخص معين. كان هذا نزعة سادية عامة، مميزة لشخص لديه مشكلة حقيقية مع النساء.

ماذا يمكننا أن نقول عن هذا الفرد؟ يمكننا أن نقول إنه ربما جرب تعذيب الحيوانات الصغيرة ولعله يواصل فعل ذلك بانتظام. سيجد صعوبة في التعامل مع أشخاص في نفس عمره، رجالًا ونساء. عندما كان يكبر، كان من الممكن أن يكون متنمرًا أو ساديًّا مع أطفال أصغر سنًّا. وقد وصل أو سيصل قريبًا إلى المرحلة التي لن يكون فيها تمثيل تخيلاته على دمية أمرًا كافيًا. يمكنك المجادلة حول ما إذا كان «مريضًا» أم لا، ولكن سواء كان مريضًا أم لا، فكل ما يمكنني قوله إنه سيكون لدي قلق حقيقي بشأن خطورته.

إذن متى يحتمل حدوث هذا السلوك الخطير؟ هذا الرجل هو فاشل يشعر بالقصور. في ذهنه، الجميع في الخارج لاقتناصه ولا أحد يعرف مواهبه. إذا أصبحت عوامل الضغط في حياته لا تطاق، حينها سوف يخطو خطوة أخرى إلى الأمام مع خياله. ومع مشوه الدمية، فإن خطوة أخرى إلى الأمام لا تعني ملاحقة شخص ما في فئته العمرية، بل إنه يعني ملاحقة شخص أصغر أو أضعف أو بإعاقة ما. إنه جبان؛ لن يلاحق أحد أقرانه.

هذا لا يعني بالضرورة أنه سيطارد الأطفال. تصوَّر باربي على أنها امرأة ناضجة ومتطورة وليست فتاة يافعة. بغض النظر عن مدى تشوه هذا الرجل،

فإن ما يرغب فيه هو الاتصال بامرأة ناضجة. إذا كان يشوه دمية طفل أو يسيء استخدامها، فلدينا مجموعة أخرى من المشكلات.

ومع ذلك، فإن الرجل الذي يضع دبابيس في الدمية ويتركها في المستشفى سيكون مختلًا إلى حد ما، ولن يكون لديه رخصة قيادة، وسوف يبرز وسط حشد من الناس على أنه غريب. الرجل الذي يرتدي ملابس مموهة سيكون أكثر خطورة. لقد حصل على وظيفة لأن لديه المال من أجل بندقيته، شاحنته، كاميرته.

يمكنه التنقل والتصرف «بشكل طبيعي» في المجتمع. في اللحظة التي يتأزم فيها، فهذا يعني أن شخصًا ما في ورطة حقيقية. هل أثق في معظم الأطباء النفسيين أو اختصاصيي الرعاية الصحية للقيام بهذا التمييز؟ لا. إنهم لا يمتلكون الخلفية أو التوجيه اللازمين لذلك. لم يتحققوا من النتائج التي توصلوا إليها.

كانت إحدى السمات الرئيسية لدراستنا عن القتل المتسلسل هي فكرة التحقق مما أخبرنا به الناس من خلال دراسة الأدلة الملموسة، وإلا فإنك تعتمد على الإبلاغ الذاتي، وهو أمر غير مكتمل في أحسن الأحوال ولا معنى له علميًا في أسوأ الأحوال.

لتقييم الخطورة استخدامات وتطبيقات عديدة. يوم الجمعة 16 أبريل، 1982، التقى بي عملاء الخدمة السرية الأمريكية حول سلسلة من الرسائل كتبها نفس الشخص بداية من فبراير 1979، وتهدد حياة الرئيس (استهدفت الأولى جيمي كارتر، أما الرسائل الأخرى فاستهدفت رونالد ريجان) وشخصيات سياسية أخرى.

تم إرسال الرسالة الأولى إلى الخدمة السرية في نيويورك، من «وحيد ومكتئب». كانت بطول صفحتين، ومكتوبة بخط اليد على ورق دفتر ملاحظات، وهددت بـ «إطلاق النار وقتل الرئيس كارتر أو أي شخص آخر يتمتع بالسلطة».

بين يوليو 1981 وفبراير 1982، ظهرت ثماني رسائل أخرى. تم إرسال ثلاث منها إلى الخدمة السرية في نيويورك، وواحدة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك، وواحدة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي في واشنطن، وواحدة إلى *فيلادلفيا ديلي* نيوز، واثنتين إلى البيت الأبيض مباشرة. كانت مكتوبة بخط اليد نفسه مثل «وحيد ومكتئب»، ولكن تم توقيعها جميعًا باسم

«C.A.T» تم إرسالها بالبريد من نيويورك، وفيلادلفيا، وواشنطن. عبَّرت الرسائل عن نية C.A.T في قتل الرئيس ريجان، الذي كان يشار إليه كـ «شر من الرب» أو «الشيطان». تعرض السياسيون الآخرون الذين دعموا الرئيس ريجان للتهديد. كما أشار الكاتب أيضًا إلى جون هينكلي، ووعد بتنفيذ مهمته الفاشلة.

كان هناك المزيد من الرسائل، مع توسيع القائمة البريدية لتشمل عضو الكونجرس جاك كيمب والسيناتور ألفونس داماتو. كان من دواعي قلق الخدمة السرية بشكل خاص تضمين صور السيناتور داماتو وعضو مجلس الشيوخ ريموند ماكغراث من مدينة نيويورك، حيث إنها التُقِطت من مسافة قريبة جدًّا، وأظهرت قدرة C.A.T على الاقتراب بما يكفي لتنفيذ تهديداته.

أخيرًا، في 14 يونيو 1982، تم إرسال الرسالة الرابعة عشرة إلى محرر *نيويورك بوست*. وأعلن أن الجميع سيعرفون من يكون بعد أن يتخلص من الرئيس، الذي أشار إليه بـ «الشيطان». ادعى أن أحدًا لم يستمع إليه وأن الجميع يضحكون عليه، ولم يفاجئني هذا الكلام.

لكن في نص هذه الرسالة، أعطى أيضًا «الإذن» للصحيفة بالتحدث معه بعد أن أكمل مهمته التاريخية. كان هذا هو الافتتاح الذي كنا نبحث عنه. كان C.A.T على استعداد، وربما كان حريصًا على الدخول في حوار مع محرر صحيفة. سنقوم بتقديم واحد. من اللغة واستخدام الرسائل، وإلى أين ومَن تم إرسالها، كنت متأكدًا تمامًا من أن هذا الرجل من مدينة نيويورك. لقد حددت لمحة عن رجل أبيض أعزب بين منتصف العشرينيات من عمره إلى أوائل الثلاثينيات، من سكان نيويورك الأصليين، يعيش (ربما بمفرده) في ضواحي المدينة. سيكون ذا ذكاء متوسط مع دبلوم مدرسة ثانوية وربما بعض الدورات الإضافية في العلوم السياسية والأدب وربما كان الابن الأصغر (أو الابن الوحيد) في عائلته. أظن أنه في الماضي كان منخرطًا بقوة في تعاطي المخدرات و/ أو الكحول، أما الآن فسيكون متعاطيًا عاديًّا. سيرى نفسه على أنه فاشل، لأنه لم يحقق قط الأحلام التي وضعها والداه أو الآخرون له، ولديه قائمة كبيرة من المهام والأهداف غير المكتملة. من مطلع إلى منتصف العشرينيات، توقعت أن يكون قد دفع الضريبة النفسية لضغوط لا يمكن السيطرة عليها، ربما كانت تتعلق بالخدمة العسكرية، أو الطلاق، أو المرض، أو فقدان أحد أفراد الأسرة.

كان هناك الكثير من التكهنات حول ما كان "C.A.T" يعنيه أو يرمز إليه. طلبت من الخدمة السرية ألا تقضي الكثير من الوقت في القلق بشأن ذلك، لأنه قد لا يعني ذلك أي شيء على الإطلاق.

سيكون في الغالب هناك ميل لقراءة الكثير في كل التفاصيل التي قد تعجب المشتبه به مجهول الهوية في وقعها أو الطريقة التي كُتِبت بها.

كانت مشكلة الخدمة السرية، كما هي دائمًا، هي ما إذا كان هذا الرجل خطيرًا أم لا، نظرًا لأن الكثير من الأشخاص الذين يوجهون التهديدات ويثرثرون في الرسائل لن ينفذوا شيئًا من ذلك أبدًا. لكنني أخبرتهم أن شخصيات مثل هذه تبحث دائمًا عن شيء ما. يلجؤون إلى الجماعات والطوائف السياسية، لكنهم لا يجدون ما يطلبون. يعتقد الآخرون أنهم غريبون ولا يأخذونهم على محمل الجد، لذا تزداد المشكلة سوءًا مع مرور الوقت. يركزون على مهمة لإعطاء حياتهم بعض المعنى. هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بأي سيطرة، وهو يحب الشعور الذي سيقوده إلى خوض العديد من الفرص الأكبر والمتكررة. الأشخاص الذين ينتهزون هذه الفرص خطرون.

اعتقدت أنه سيكون على دراية بالأسلحة ويتوقع هجومًا قريب المدى، على الرغم من أن هذا يعني أنه لن يتمكن من الهرب. نظرًا لأن مهمته قد تكون انتحارية، فقد يحتفظ بمذكرات للأجيال القادمة، حتى يعرف العالم قصته، إذ على عكس شخصية مثل مسمم تايلينول، فإن C.A.T لا يريد البقاء مجهول الهوية. عندما يصبح الخوف من الحياة أعظم من الخوف من الموت، سوف يكرر فعل العنف الذي يمارسه. سيبدو هادئًا جدًّا قبل ارتكاب فعله مباشرة. سوف يتستر على نفسه ويختلط مع محيطه. سيتحدث مع الشرطة أو عملاء الخدمة السرية في مكان قريب، وسيبدو عاديًّا ولا يشكل تهديدًا.

من نواحٍ معينة، كان من نفس نوع جون هينكلي، الذي احتلت قضيته ومحاكمته الكثير من الأخبار، وبدا أيضًا أنه يركز على هينكلي، الذي نعرف عنه قدرًا لا بأس به من المعلومات. اعتقدت أنه قد يرغب في سماع حكم المحاكمة أو الحكم، واقترحت على الخدمة السرية أن يتوجهوا في ذلك الوقت إلى مسرح فورد في واشنطن، حيث تم إطلاق النار على أبراهام لنكولن وحيث كان هينكلي في زيارة سبقت حادثة إطلاق النار على الرئيس ريجان. أخبرتهم أيضًا أن يراقبوا الفندق القريب الذي أقام فيه هينكلي. إذا طلب أي شخص غرفة هينكلي، فمن المحتمل جدًّا أن يكون هو.

أبلغ الفندق بالفعل عن طلب لتلك الغرفة المحددة. اقتحم عملاء الخدمة السرية الغرفة فوجدوا زوجين مسنين قضيا ليلة زفافهما في تلك الغرفة وعادا عدة مرات منذ ذلك الحين.

في أغسطس، حصلت الخدمة السرية على رسالتين إضافيتين وُقِّعتا بـ «C.A.T» موجهة إلى «مكتب الرئيس، واشنطن العاصمة» تم ختم كليهما بختم بريد من بيكرز فيلد، كاليفورنيا. نظرًا لأن الكثير من القتلة يسافرون في جميع أنحاء البلاد لمطاردة فرائسهم، فقد كان هناك قلق حقيقي من أن الرجل قد يكون في حالة تنقل. قال في هذه الرسائل: «كوني سليم العقل والجسد [فأنا] أحمل على عاتقي تنظيم أكبر عدد ممكن من مواطني الولايات المتحدة، لحمل السلاح، وإبادة الأعداء من الداخل».

في نوبة جنون العظمة الطويلة، تحدث عن «التعذيب والجحيم» الذي مر به واعترف بإمكانية تعرضه للقتل «في محاولتي لتقديم الحثالة في القمة للعدالة».

راجعت هذه الرسائل بعناية وخلصت إلى أننا نتعامل مع قاتل مقلد. لسبب واحد، كانت هذه مكتوبة بالنص بدلًا من الأحرف الكبيرة في الرسائل السابقة. أشاروا إلى الرئيس ريجان باسم «رون» بدلًا من «الشيطان» أو «الرجل العجوز». اعتقدت أنه من المحتمل أن تكون الكاتبة امرأة، وبغض النظر عن المشاعر والتهديدات التي تم التعبير عنها، لم أكن أعتقد أن هذا الشخص سيكون خطيرًا.

أما «C.A.T» الحقيقية فكانت قصة مختلفة. اعتقدتُ أن «المماطلة التكتيكية» ستكون الطريقة الأفضل، وذلك بإشراكه في حوار حتى نتمكن من تحديد مكانه. قمنا باختيار عميل الخدمة السرية كمحرر للصحيفة وأطلعناه على كيف يبدو وماذا يقول. شدَّدتُ على أنه يجب أن يحاول جعل «C.A.T» يشعر بالانفتاح نحوه كيما يتسنى له سرد «قصته الكاملة». بمجرد بناء مستوى الثقة، يجب على «المحرر» أن يقترح لقاء بينهما، ولكن في وقت متأخر من الليل، في مكان ما بعيد عن الطريق، لأن المحرر كان لا يقل قلقًا وحرصًا من C.A.T حول إبقاء الأمر سريًّا

وضعنا إعلانًا مبوبًا مكتوبًا بعناية في *نيويورك بوست*، أجاب عليه C.A.T. بدأ في إجراء محادثات منتظمة مع رجلنا. اعتقدت أنه سيتصل من بعض المرافق العامة الكبيرة مثل جراند سنترال أو محطة بنسلفانيا، أو ربما من إحدى المكتبات أو المتاحف.

في ذلك الوقت، حصل مكتب التحقيقات الفيدرالي على تقييم آخر من الدكتور موراي ميرون، خبير علم اللغة النفسي الشهير في جامعة سيراكيوز. تعاونت أنا وموراي في البحث والمقالات حول تقييم التهديدات، واعتقدت أنه كان أحد أفضل العاملين في هذا المجال. بعد بدء الحوار الهاتفي، كتب موراي تحليلًا للـ إف بي آي يوضح أنه توقَّف عن عدِّ C.A.T مصدر خطر، ولكن بدلًا من ذلك، أصبح محتالًا يسعى إلى الشهرة عبر التلاعب بجميع هؤلاء الأشخاص المهمين. اعتقد موراي بضرورة وجوب القبض عليه، لكنه لم يرَ فيه مصدر التهديد الذي رأيته. تدريجيًّا، تمكنا من إبقائه على الهاتف لفترة كافية لتتبعه. في 21 أكتوبر 1982، قام فريق مشترك من الخدمة السرية ومكتب التحقيقات الفيدرالي بالإمساك به في كشك هاتف في محطة بنسلفانيا بينما كان يتحدث إلى «المحرر». كان اسمه ألفونس أموديو جونيور، يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، أبيض، من سكان نيويورك الأصليين وحاصل على التعليم الثانوي.

ذهب عملاء إف بي آي والخدمة السرية إلى شقته الضيقة المليئة بالصراصير في فلورال بارك. بدت الأسرة مختلة تمامًا، وعندما تمت مشاهدة السيدة أموديو، كان وصفها لابنها مطابقًا للملف التعريفي. قالت للعملاء: «إنه يكره [العالم] ويشعر أنه يكرهه». وصفت تقلباته المزاجية العنيفة. لقد كان يقص المقالات الصحفية لسنوات ويملأ خزانتين بملفات عليها أسماء العديد من السياسيين. عندما كان طفلًا، عانى تلعثمًا سيئًا لدرجة أنه منعه من بدء الدراسة. كان قد التحق بالجيش لكنه تهرب بعد التدريب الأساسي. بخلاف العديد من الإشارات إلى نفسه في اليوميات على أنه «قط زقاق»، لم يجد الوكلاء أي منطق أو تفسير للقب C.A.T.

تم وضع أموديو في سجن للأمراض النفسية في بيلفيو. قبل محاكمته، طلب قاضي المحكمة الجزائية الأمريكية ديفيد إدلشتاين تقييمًا من اختصاصي اجتماعي في الطب النفسي، وجد أن المدعى عليه يعاني مرضًا نفسيًّا حادًّا، وبالتالي فإنه يشكل خطرًا جديًّا على الرئيس والمسؤولين الحكوميين الآخرين.

اعترف أموديو بأنه C.A.T. لم يجد العملاء الذين استجوبوه أي عنصر سياسي في تفكيره؛ لقد فعل ذلك فقط من أجل السطوة والاهتمام.

لم يعد محتجزًا في مؤسسة رعاية صحية. فهل لا يزال هذا النوع من الأشخاص خطيرًا؟ لا أعتقد أنه سيكون تهديدًا فوريًّا، ولكن إذا تراكمت

الضغوطات مرة أخرى ولم يكن هناك طريقة للتعامل معها، فسوف أبدأ بالشعور بالتوتر مرة أخرى.

ما الذي أبحث عنه؟ واحدة من الأشياء الأساسية هي النبرة. إذا رأيت سلسلة من الرسائل إلى سياسي، أو نجم سينمائي، أو رياضي، أو أي شخص مشهور يصبح الخطاب فيها بنبرة جامدة وإلحاحية بشكل متزايد («أنت لا ترد على رسائلي!»)، حينها سآخذها على محمل الجد. يصبح من المتعب عقليًا وجسديًا احتمال صلابة الوسواس القهري. بمرور الوقت، يبدأ الفرد في الانهيار. مرة أخرى، يمكنك أن تطلق على السلوك شكلًا من أشكال المرض العقلي، لكن ما يجب أن أهتم به هو مدى خطورة ذلك.

على الرغم من أننا أجرينا مقابلات مع لينيت «سكويكي» فروم وسارة جين مور (امرأتان حاولتا تنفيذ جرائم قتل وتعاطفتا مع عائلة مانسون) فإن دراستنا المنشورة عن السجن شملت الرجال فقط. بينما تعثر على نمط من سيدة قاتلة من حين لآخر، ستلاحظ أن كل قضية قتل متسلسل أو قتل بدافع شهوة أشرت إليها تشمل مجرمًا ذكرًا. أظهر بحثنا أن جميع القتلة المتسلسلين تقريبًا يأتون من خلفيات مختلفة من الاعتداء الجنسي أو الجسدي أو المخدرات أو إدمان الكحول أو أي من المشكلات ذات الصلة. تأتي النساء من نفس الخلفيات، ومهما يكن، فإن الفتيات أكثر عرضة للإساءة والتحرش من الفتيان. فلماذا قلة منهن يكبرن لارتكاب نفس أنواع الجرائم التي يرتكبها الرجال؟ إن قاتلة متسلسلة مثل آيلين وورنز، متهمة بقتل رجال في فلوريدا، هو أمرٌ نادرًا ما تلاحظه.

بالنسبة إلى هذا الموضوع، فإننا على أرضية أكثر اهتزازًا، لأنه ببساطة لم تكن هناك دراسات للإجابة عن هذا السؤال بشكل نهائي. كما توقع البعض، قد يكون مرتبطًا بشكل مباشر بمستويات هرمون التستوستيرون وغير ذلك من المواد الهرمونية والكيميائية. الشيء الوحيد الذي يمكننا قوله بسلطة اختبارية هو أن النساء يبدون أنهن يستوعبن ضغوطهن، فبدلًا من مهاجمة الآخرين، فإنهن يملن إلى معاقبة أنفسهن من خلال أشياء مثل إدمان الكحول والمخدرات والدعارة والانتحار. قد يكرر البعض الإساءة النفسية أو الجسدية داخل أُسرهن، كما يبدو أن والدة إد كيمبر فعلت. من وجهة نظر الصحة العقلية، هذا مدمر للغاية. لكن تظل الحقيقة أن النساء لا يقتلن بنفس الطريقة أو بنسب يمكن أن تقترب من نسب الجرائم التي يرتكبها الرجال.

إذن ما الذي يمكن عمله بشأن الخطورة؟ كيف يمكننا التدخل في حالات عدم الاستقرار العقلي أو عيب الشخصية قبل فوات الأوان؟ للأسف، لا توجد إجابة سريعة أو بسيطة. في كثير من الحالات، أصبح إنفاذ القانون هو الخط الأمامي للنظام والانضباط، وليس الأسرة. هذا وضع خطير بالنسبة إلى المجتمع، لأنه بحلول الوقت الذي نتدخل فيه، يكون الوقت قد فات لفعل الصواب. أفضل ما يمكننا فعله هو منع حدوث المزيد من السوء.

إذا كنت تطلب من المدارس أن تكون الإجابة، فإنك تطلب الكثير. إذا كنت تأخذ طفلًا من خلفية سيئة وتوقعت من المعلمين المثقلين بالأعباء تغييره في سبع ساعات في اليوم، فقد يحدث هذا أو لا يحدث. ماذا عن السبع عشرة ساعة الأخرى في اليوم؟

كثيرًا ما يسألنا الناس عما إذا كان بإمكاننا، من خلال أبحاثنا وتجاربنا، التنبؤ بالأطفال الذين من المحتمل أن يصبحوا خطرين في مرحلة لاحقة من حياتهم. إجابة روي هازلوود هي: «بالتأكيد، ولكن أي مدرس ابتدائي كفء قادر على فعل ذلك أيضًا». وإذا تمكنا من توفير العلاج لهم مبكرًا وبصورة مكثفة بشكل كافٍ، فقد يحدِث هذا فارقًا. يمكن لشخص بالغ قدوة يُحتذى به خلال سنوات التكوين أن يصنع عالمًا من الاختلاف.

دافع بيل تافويا (العميل الخاص الذي خدم كـ «عالم المستقبليات» في كوانتيكو) عن التزام لمدة عشر سنوات على الأقل من الأموال والموارد على حجم ما أرسلناه إلى الخليج الفارسي. وهو يدعو إلى إعادة تثبيت برنامج Project Head Start على نطاق واسع، وهو أحد أكثر برامج مكافحة الجريمة فاعلية على المدى الطويل في التاريخ. لا يعتقد أن المزيد من رجال الشرطة هو الحل، لكنه سيحضر «جيشًا من الاختصاصيين الاجتماعيين» لتقديم المساعدة للنساء المعنَّفات، والعائلات المشرَّدة التي لديها أطفال، للعثور على دور رعاية جيدة. وكان سيدعم كل ذلك ببرامج الحوافز الضريبية.

لست متأكدًا من أن هذه هي الإجابة الكاملة، لكنها بالتأكيد ستكون بداية مهمة، لأن الحقيقة المحزنة هي أن الأطباء النفسيين يمكنهم محاربة كل ما يريدون، ويمكنني أنا وزملائي استخدام علم النفس والعلوم السلوكية للمساعدة في القبض على المجرمين، ولكن بحلول الوقت الذي نتمكن فيه من استخدام ما لدينا، سيكون الضرر الجسيم قد حدث بالفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

19

في بعض الأحيان يفوز التنين

عندما عُثِرَ على جثة فتاة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، في جرين ريفر خارج سياتل، في يوليو من عام 1982، لم يشغل ذلك تفكير الكثير من الناس. كان النهر (الذي يربط ماونت رينييه مع بوجيه ساوند) مكبًّا شهيرًا، لكن غير قانوني للنفايات، وكانت الضحية مومسًا شابة. لم تتضح أهمية الاكتشاف للشرطة حتى وقت لاحق من ذلك الصيف؛ حين عُثِر على امرأة أخرى ميتة في النهر في 12 أغسطس، وبعدها تم اكتشاف ثلاث جثث أخرى بعد ثلاثة أيام. اختلفت أعمار وأعراق الضحايا، لكنهن اختنقن جميعًا. تم تثقيل جثث البعض في محاولة واضحة لإبقائهن مختفيات. خُلعت ملابسهن جميعًا، وفي حالتين، تم العثور على صخور صغيرة داخل مهبل الضحية.

في هذا الوقت، لم يكن هناك شك في الطبيعة المتسلسلة للجرائم، وقد أعادت الذكرى الأليمة عن جرائم القتل المتسلسلة الأخيرة في سياتل، واختطاف وقتل ثماني نساء على الأقل في المنطقة في عام 1974 على يد شخص يُعرف فقط باسم «تيد». ظلت هذه القضايا دون حل لمدة أربع سنوات حتى تم القبض على شاب مفعم بالحيوية يُدعى ثيودور روبرت بوندي بسبب سلسلة وحشية من جرائم القتل داخل نادي نسائي في فلوريدا. بحلول ذلك الوقت، كان قد شق طريقه في جميع أنحاء البلاد، وقتل ما لا يقل عن 23 شابة وكسب لنفسه مكانًا دائمًا في غرفة أهوال نفسنا الجمعية.

كان الرائد ريتشارد كراسك من قسم التحقيقات الجنائية في مقاطعة كينج مسؤولًا عن هذا التحقيق، وأراد تطبيق ما تعلمه، بلجوئه إلى مكتب

التحقيقات الفيدرالي للمساعدة في تطوير ملف نفسي تعريفي عن «قاتل جرين ريفر – Green River Killer».

وعلى الرغم من انقسام المحققين في فرقة العمل متعددة الاختصاصات القضائية المشكَّلة حديثًا بشأن ما إذا كانت جميع الحالات مرتبطة بالفعل أم لا، فقد كان هناك عامل مشترك واحد واضح: جميع النســاء القتـلى كن مومســات يعملــن في قطاع سي-تاك، على طريق ساحل المحيط الهادئ السريع بالقرب من مطار سياتل-تاكوما الدولي. والآن، هناك المزيد من الشابات المفقودات.

في سبتمبر، كان ألين ويتاكر (العميل المسؤول في مكتب سياتل) في كوانتيكو في أثناء الخدمة وقدم لنا حزمة مفصلة عن الحالات الخمس الأصلية. كما فعلت في كثير من الأحيان عندما كنت أريد أن أكون قادرًا على التركيز بعيدًا عن الموظفين الدائمين ومقاطعة الهاتف، عزلت نفسي في الطابق العلوي من المكتبة، حيث يمكنني أن أكون بمفردي، وأحدق من النافذة (دائمًا ما يكون أمرًا متجددًا ممتعًا لأولئك الذين، مثلنا؛ يعملون تحت الأرض)، وأدخل نفسي في عقل الجاني والضحايا. أمضيت يومًا كاملًا تقريبًا في البحث في المواد: تقارير وصور موقع الجريمة، وبروتوكولات تشريح الجثة، وأوصاف الضحايا. على الرغم من الاختلافات في العمر والعرق وطريقة العمل، فقد كانت أوجه التشابه قوية بما يكفي لتوضيح جميع جرائم القتل التي ارتكبها الجاني نفسه. توصلت إلى ملف تعريفي مفصل لرجل أبيض قوي جسديًا، يشعر بالقصور، يعاني البطالة الجزئية، يرتاح لوجوده عند النهر، ولا يشعر بأي ندم على ما كان يرتكبه. بل على العكس تمامًا، لقد كان رجلًا ينفذ مهمة، خاض تجارب مذلة مع النساء وهو الآن يبحث عن معاقبة أكبر عدد ممكن منهن وبخاصة ممن عددنه أدنى منهن. لكن في الوقت نفسه، حذرت الشرطة من أنه بسبب طبيعة الجرائم والضحايا، فإن العديد من الأشخاص سيلائمون هذا الملف التعريفي. على عكس إد كيمبر (على سبيل المثال)، لم يكن هذا عملاقًا عقليًا. كانت جرائم غير معقدة وعالية الخطورة، وكان لا بد أن ينصب التركيز على الأساليب الاستباقية التي من شأنها أن تغري المشتبه به مجهول الهوية بتنفيذ نوع من الاتصال بالشرطة. أخذ ويتاكر الملف التعريفي معه عندما غادر كوانتيكو. في وقت لاحق من ذلك الشهر، عُثر على جثة شابة

أخرى متحللة بشكل سيئ في منطقة سكنية مهجورة بالقرب من المطار. كانت عارية، مع زوج من الجوارب الرجالية السوداء مربوطًا حول عنقها.

قدَّر الطبيب الشرعي أنها قُتِلت في الفترة ذاتها تقريبًا التي جرت فيها حوادث القتل في النهر. من الجائز أن يكون القاتل قد غيَّر طريقة عمله حين سمع عن مراقبة النهر.

وكما هو مذكور بالتفصيل في كتاب «*البحث عن قاتل* جرين ريفر ***The Search for the Green River Killer***» وهو بحث مكتوب بعناية كتبه كارلتون سميث وتوماس جيلن، فإن المشتبه به الأقوى كان سائق سيارة أجرة، في الرابعة والأربعين من العمر، انطبقت عليه المواصفات في الملف التعريفي من جميع النواحي تقريبًا.

لقد أدخل نفسه في التحقيق مبكرًا، إذ اتصل بالشرطة لإعطائها نصائح حول كيفية العثور على القاتل ونصحهم بالبحث عن سائقي سيارات الأجرة الآخرين. أمضى الكثير من الوقت مع البغايا والمشردين على طول **القطاع**. كان شخصًا ليليًّا، دائم التجوال بسيارته، يشرب ويدخن كما توقع الملف التعريفي من المشتبه به مجهول الهوية أن يفعل، كما أنه أعرب عن قلقه بشأن سلامة البغايا. كان لديه خمس زيجات فاشلة، ونشأ بالقرب من النهر، وعاش مع والده الأرمل، وقاد سيارة قديمة ومحافظة لم تتم صيانتها جيدًا، وتابع أخبار القضية في الصحافة من كثب.

حددت الشرطة موعده لإجراء مقابلة في سبتمبر ودعتني لوضع إستراتيجية. كنت آنذاك أسافر بوتيرة محمومة، وأتنقل في جميع أنحاء البلاد بشكل أسبوعي تقريبًا في محاولة لمواكبة القضايا التي لدي. عندما اتصلت الشرطة، كنت خارج المدينة. تحدثوا إلى روجر ديبيو، رئيس الوحدة، الذي قال إنني سأعود في غضون أيام قليلة واقترح مشددًا التمهل في إجراء المقابلة حتى تسنح لهم الفرصة للتحدث معي. إلى ذلك الحين، كان المشتبه به متعاونًا ولم يكن يخطط لمغادرة المنطقة.

لكن الشرطة مضت قدمًا في المقابلة التي استمرت ليوم كامل وتحولت إلى مواجهة. ومن منظور أشمل وأوسع، ربما كان ممكنًا إجراء المقابلة بطريقة مختلفة. كانت نتائج اختبار جهاز كشف الكذب غامضة، وعلى الرغم من أن الشرطة وضعته تحت المراقبة واستمرت في جمع الأدلة الظرفية، فإنهم لم يتمكنوا من رفع دعوى ضده.

لم أشارك شخصيًا في هذا الجزء من التحقيق، وبالتالي لا أستطيع أن أقول ما إذا كان هذا الشخص مشتبهًا به بدرجة واعدة، لكن هذا النقص في التنسيق والتركيز أعاق التحقيق إلى حد كبير في المراحل المبكرة، وبخاصة حين يكون الوصول إلى المشتبه به في العادة أكثر سهولة. إنه قلق، ولا يعرف ما يمكن توقعه، «عامل إثارة الانزعاج» في ذروته. مع مرور الوقت وإدراك المشتبه به أنه يبتعد عن ذلك، يصبح أكثر راحة، فيستقر ويحسِّن طريقة عمله.

في بداية هذه القضية، لم يكن لدى الشرطة المحلية جهاز حاسوب حتى، ومع تطور التحقيق، وبالمعدل الذي كانوا يعالجون به الأدلة والقضايا، كان من الممكن أن يستغرق الأمر خمسين عامًا لتقييم ما لديهم بشكل صحيح. لو تم إطلاق نوع من التحقيقات في جرين ريفر اليوم، فأنا آمل وأثق في أن التنظيم المبكر سيكون أكثر كفاءة وأن الإستراتيجية أكثر تحديدًا. ومع ذلك، ستكون المهمة عسيرة. عاشت هذه البغايا حياة متنقلة. في كثير من الأحيان، عندما يبلِغ صديق أو قواد عن فقدان إحداهن، تكون قد اختفت عمدًا أو انتقلت ببساطة إلى منطقة أخرى أعلى أو أسفل الساحل. استخدمَتْ العديد منهن أسماء مستعارة، مما جعل التعرف على الجثث وتتبع الحالات كابوسًا رهيبًا. لذلك كان من الصعب تحديد السجلات الطبية وسجلات الأسنان وتوثيقها. كما أن العلاقات والتعاون بين الشرطة ومجتمع البغايا دائمًا ما تكون ضعيفة في أحسن الأحوال.

في مايو 1983، عُثر على مومس شابة مرتدية ملابسها بالكامل في مشهد منظم بعناية: تم وضع سمكة في حلقها، وأخرى على صدرها الأيسر، وزجاجة نبيذ بين ساقيها. كانت قد خُنقت بحبل رفيع أو سلك. عزت الشرطة موتها إلى قاتل جرين ريفر. لكن بينما كنت أعتقد أن الضحية الأخيرة التي تم العثور عليها على الأرض كانت على صلة ببقية الجرائم السابقة، فقد أدهشتني هذه الجريمة بعدِّها جريمة قتل بدافع شخصي. لم يكن هذا عشوائيًّا؛ كان هناك الكثير من الغضب هنا. ما من شك في أن القاتل يعرف هذه الضحية جيدًا.

قرب نهاية عام 1983، ارتفع عدد الجثث إلى 12، مع الإبلاغ عن سبعة آخرين في عداد المفقودين. كانت إحدى النساء القتلى حاملًا في شهرها الثامن. طلب مني فريق العمل الخروج وإعطائهم النصائح في مكان الحادث. كما ذكرت، كنت آنذاك أحاول التعامل مع مراحل مختلفة من قضية واين

ويليامز في أتالانتا، وقاتل كاليبر-22 في بوفالو، وقاتل ترايل سايد في سان فرانسيسكو، وقضية روبرت هانسن في أنكوراج، وسلسلة حرائق متسلسلة لأسباب معاداة السامية في هارتفورد، وأكثر من مائة قضية نشطة أخرى.

كانت الطريقة الوحيدة لمواكبة كل من هذه القضايا هي أن أجبر نفسي على أن أحلم بها في الليل. كنت أعلم أنني كنت أنهك نفسي. لم أكن أعرف لأي درجة من الإنهاك والاستنزاف، وبأي سرعة. وعندما قالت فرقة عمل جرين ريفر إنهم بحاجة إلي، علمت أنه يجب عليَّ أن أضغط على نفسي أكثر.مكتبة

كنت واثقًا من أن ملفي التعريفي سيتطابق مع القاتل، لكنني علمت أيضًا أنه ينطبق على الكثير من الأشخاص، ويمكن أن يكون أكثر من واحد منهم متورطًا الآن. وكلما طال هذا الأمر، زادت فرصة تورط المزيد من القتلة، إما كمقلدين أو ببساطة بسبب المنطقة والضحايا. كان قطاع سي-تاك اختيارًا سهلًا للقاتل. إذا كانت لديك إرادة للقتل، فهذا هو نوع المكان الذي ترغب في الذهاب إليه. كانت بائعات الهوى متاحات بسهولة، وبما أن العديد منهن سافرن عبر ممر الساحل الغربي بأكمله من فانكوفر وصولًا إلى سان دييجو، فعندما تختفي فتاة، غالبًا ما تُنسى ولا يُلحظ غيابها.

اعتقدت أن التقنيات الاستباقية أصبحت أكثر أهمية من أي وقت مضى. يمكن أن يشمل ذلك عقد اجتماعات في المدينة بشأن جرائم القتل في المدارس الريفية، ثم تمرير أوراق التسجيل وتدوين لوحات تسجيل الحاضرين، واستخدام وسائل الإعلام لتقديم محقق واحد على أنه «شرطي خارق» لإغراء القاتل بالاتصال به، قصص تضفي الطابع الشخصي على المرأة الحامل في محاولة لإثارة بعض الندم وزيارات أخرى للقاتل، ومراقبة مكبات النفايات غير المعلنة، واستخدام ضباط الشرطة المتنكرين، وأي عدد من الاحتمالات الأخرى. لقد أحضرت بلين ماكلوين، ورون والكر (وهما اثنان من أحدث المحللين التنميطيين) في رحلة ديسمبر إلى سياتل، واعتقدت أن هذه ستكون قضية جيدة لإكسابهما بعض الخبرة في الموقع. كان ذلك فعلًا صائبًا مني، كما لو كان الرب أو نظام كوني قد خطط لذلك، فقد أنقذا حياتي.

عندما اخترقا الباب المغلق والمقفل بالسلسلة ودخلا غرفتي في الفندق ووجداني فاقدًا للوعي ومنهارًا على الأرض، كنت قريبًا من الموت بسبب الحمى التي كانت تنتشر في دماغي.

بحلول الوقت الذي تعافيت فيه أخيرًا وعدت إلى العمل في مايو 1984، كان قاتل جرين ريفر لا يزال طليقًا، كما هو الحال حتى كتابة هذه السطور بعد أكثر من عقد من الزمان[1]. واصلت المشاورات مع فرقة العمل، التي ازداد أفرادها لتصبح واحدة من أكبر عمليات المطاردة المنظمة في التاريخ الأمريكي. كلما طالت مدة التحقيق، مع استمرار تزايد عدد الجثث، أصبحتُ مقتنعًا بشكل متزايد بأن العديد من القتلة كانوا يواصلون عملهم، وكلهم يشتركون في بعض السمات المتشابهة، لكن كلًّا منهم يتصرف بمفرده. جلبت لي الشرطة في سبوكان وبورتلاند مجموعات من البغايا المقتولات والمفقودات، لكنني لم أجد أي صلة واضحة بجرائم القتل في سياتل. اعتقدَتْ شرطة سان دييجو أن مجموعة أخرى في مدينتهم قد تكون ذات صلة.

إجمالًا، كانت فرقة عمل جرين ريفر تحقق في أكثر من خمسين حالة وفاة. تم تخفيض أكثر من ألف ومائتي مشتبه به إلى نحو ثمانين شخصًا، تراوحوا بين أصدقاء وقوَّادين للنساء القتيلات إلى شخص ما في بورتلاند هربت منه مومس بعد تهديدات بالتعذيب، إلى صياد في سياتل. في بعض الأحيان، حتى أفراد قوات الشرطة عُدُّوا مشتبهًا بهم محتملين. لكن أيًّا من هذا لم يكن كافيًا للإغلاق. في هذه المرحلة، كنت مقتنعًا بوجود ثلاثة قتلة على الأقل، وربما أكثر.

جاء التوجه الاستباقي الرئيسي الأخير في ديسمبر 1988. مع برنامج تلفزيوني مباشر لمدة ساعتين يُذاع على المستوى الوطني بعنوان *Manhunt Live* ويستضيفه نجم مسلسل *دالاس* باتريك دافي. قدم البرنامج خلفية عن البحث عن القاتل أو القتلة وقدم عددًا كبيرًا من الأرقام المجانية للمشاهدين لتقديم المعلومات والأدلة. سافرتُ إلى سياتل للظهور في البرنامج ولتدريب ضباط الشرطة على كيفية فحص المكالمات وطرح الأسئلة ذات الصلة بسرعة.

في الأسبوع الذي تلا بث البرنامج، قدَّرت شركة الهاتف أن أكثر من مائة ألف شخص حاولوا الاتصال، لكن أقل من عشرة آلاف تمكنوا من الاتصال فعلًا. وبعد ثلاثة أسابيع، لم تكن هناك الموارد المالية الكافية أو المتطوعون لمواصلة الخطوط الساخنة للإبلاغ عن الجرائم. في نهاية الأمر، كان هذا جانبًا

(1) اعتُقل جاري ريدجواي، قاتل جرين ريفر في 30 نوفمبر 2001.

رمزيًّا للعديد من الجوانب الأخرى لجرين ريفر، يبذل العديد من الأشخاص المتفانين جهدًا هائلًا، ولكن في النهاية، الناتج قليل جدًّا، وبعد فوات الأوان.

لسنوات، كان لدى جريج مكراري رسم كاريكاتوري معلق على لوحة الإعلانات في مكتبه. يُظهر تنينًا ينفث النار يقف بشراسة فوق فارس ممدد على الأرض. تقول التسمية التوضيحية ببساطة: «في بعض الأحيان يفوز التنين».

هذه حقيقة لا يستطيع أحد منا الهروب منها. نحن لا نمسك بهم جميعًا، وبما أن الأشخاص الذين نقبض عليهم قد قتلوا بالفعل أو اغتصبوا أو عذبوا أو قصفوا أو أحرقوا أو شوهوا، لم يتم القبض على أي منهم في فترة قصيرة. هذا ينطبق اليوم، كما كان تمامًا منذ ما يزيد على مائة عام عندما أصبح جاك ذا ريبر-السفاح أول قاتل متسلسل يطارد مخيلة الجمهور.

وللمفارقة، على الرغم من أن بث *Manhunt* لم يحل جرائم القتل في جرين ريفر، فقد ظهرت في نفس العام في برنامج تلفزيوني وطني آخر حددت فيه من خلال الملف التعريفي الهوية المحتملة لذلك القاتل المتسلسل الأكثر شهرة على الإطلاق. تم توقيت بثه ليتزامن مع الذكرى المئوية لجرائم القتل التي ارتكبها جاك السفاح في وايت تشابل، مما يعني أن ملفي الشخصي كان متأخرًا بقرن واحد فقط ليتمكن من تقديم أي فائدة. وقعت جرائم القتل الوحشية في شوارع وأزقة إيست إند المزدحمة في لندن الفيكتورية بين 31 أغسطس و9 نوفمبر 1888. خلال ذلك الوقت، تصاعدت وحشية عمليات القتل والتشويه بعد الوفاة. في الصباح الباكر من يوم 30 سبتمبر، قتل امرأتين في غضون ساعة أو ساعتين، وهو حدث لم يكن يُسمَع به في ذلك الوقت. تلقت الشرطة عدة رسائل استفزازية نُشِرت في الصحف، وأصبحت الفظائع حدثًا إعلاميًّا ضخمًا. لم يتم القبض على «السفاح» قط، على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها سكوتلاند يارد، وظلت هويته موضع تكهنات شديدة منذ ذلك الحين. مثل الهوية «الحقيقية» لوليم شكسبير، غالبًا ما يكشف اختيار المشتبه بهم المزيد عن الناس الذين يقدمون التكهنات أكثر مما يفعل بشأن حل اللغز ذاته.

من الاحتمالات المفضلة والأكثر روعة على مر السنين هو الأمير ألبرت فيكتور، دوق كلارنس، الحفيد الأكبر للملكة فيكتوريا، الذي يحمل اسم أبيه إدوارد أمير ويلز (الذي أصبح إدوارد السابع بعد وفاة فيكتوريا عام 1901)،

الذي يليه في ترتيب ولاية العرش. من المفترض أن يكون دوق كلارنس قد مات بسبب وباء الإنفلونزا الذي استشرى عام 1892، لكن العديد من أصحاب النظريات عن «السفاح» يقولون إنه قد مات بسبب مرض الزهري أو ربما تسمم على يد طبيب ملكي لإزالة وصمة الفضيحة من النظام الملكي. إنه بالتأكيد احتمال مثير للاهتمام.

ومن بين المرشحين الأقوياء الآخرين مونتاجيو جون درويت، وهو مدرس في مدرسة للأولاد يطابق أوصاف شهود العيان؛ الدكتور وليام جل، كبير الأطباء الملكيين؛ آرون كوزمينسكي، مهاجر بولندي فقير كان يدخل ويخرج باستمرار من المصحات العقلية في المنطقة؛ والدكتور روزلين دونستان، صحفي معروف بممارسة السحر الأسود.

قيل الكثير عن حقيقة أن جرائم قتل السفاح قد توقفت فجأة، مما أدى إلى تكهنات بأنه ربما يكون قد انتحر، أن دوق كلارنس قد أُرسل في رحلة ملكية، أو لعل أحد المشتبه بهم الآخرين قد مات. إذا نظرنا إلى الوراء، بناء على معرفتنا الحالية، يبدو لي أنه من الوارد أنه قد تم القبض عليه لبعض الجرائم الأخرى الأقل خطورة مثلما يحصل مع مجرمين كثر، وهذا ما أوقف القتل. قضية أخرى كانت «تمزق» نفسها. كان أحد أسباب التركيز على شخص حاصل على تدريب طبي هو طريقة ودرجة نزع أحشاء الضحايا المتأخرين.

كان الهدف من برنامج *الهوية السرية لجاك ذا ريبر* *The Secret Identity of Jack the Ripper*، الذي تم عرضه على المستوى الوطني في أكتوبر 1988، هو تقديم جميع الأدلة المتاحة في القضية ثم جعل الخبراء من مختلف التخصصات يقدمون تحليلاتهم حول من كان جاك حقًّا، وحل هذا اللغز الذي يعود إلى قرن من الزمان «مرة واحدة وإلى الأبد». دُعيت أنا وروي هازلوود للمشاركة في البرنامج، واعتقد مكتب التحقيقات الفيدرالي أن هذه ستكون فرصة جيدة لعرض نوع العمل الذي نقوم به دون المساومة على أي تحقيقات أو محاكمات جارية. كان العرض الحي لمدة ساعتين استضافه الممثل والكاتب والمخرج البريطاني بيتر أوستينوف الذي تفاعل حقًّا مع اللغز بينما كانت الدراما تتكشف.

إن أي تمرين من هذا النوع له نفس القواعد والقيود مثل التحقيق الحالي، أي أن منتجنا يمكن أن يكون جيدًا فقط بقدر الأدلة والبيانات التي يتعين علينا التعامل معها. قبل مائة عام، كان تحقيق الطب الشرعي بدائيًّا بالمعايير

الحديثة. لكنني اعتقدت، بناءً على ما كنت أعرفه عن جرائم «السفاح»، أنه إذا تم تقديم مثل هذه الحالة إلينا اليوم، فستكون قابلة للحل بسهولة، لذلك اعتقدت أنه يجب علينا أخذ نشرة إعلانية بشأنها. عندما تقوم بهذا النوع من العمل الذي نقوم به، فهناك في الواقع بعض التسلية والاسترخاء عندما يكون الشيء الوحيد على المحك إذا أخطأت هو أن تخدع نفسك على شاشة التلفزيون الوطني بدلًا من التسبب في قتل ضحية بريئة أخرى.

قبل بث البرنامج، قمت بتطوير ملف تعريف كما أفعل في حالة حديثة، بنفس العنوان:

المشتبه به مجهول الهوية؛ المعروف باسم جاك ذا ريبر-السفاح سلسلة جرائم قتل لندن، إنجلترا.

1888

NCAVC – جرائم القتل (تحليل التحقيقات الجنائية)

يشير السطر الأخير، NCAVC، إلى *المركز الوطني لتحليل الجرائم العنيفة*، وهو البرنامج الشامل الذي تم إنشاؤه في كوانتيكو في عام 1985 ليشمل وحدات دعم العلوم السلوكية والاستقصائية، VICAP -قاعدة بيانات الحاسوب الخاصة ببرنامج التوقيف الجنائي العنيف- وغيرها من فرق ووحدات الاستجابة السريعة.

كما هو الحال في استشارة حقيقية، بمجرد أن توصلت إلى الملف الشخصي، تم إعطاؤنا المشتبه بهم المحتملين. بقدر ما كان دوق كلارنس جذابًا من وجهة نظر درامية، لكن بعد تحليل جميع الأدلة المتاحة، توصلت أنا وروي بشكل مستقل إلى آرون كوزمينسكي بعدِّه المرشح الأكثر ترجيحًا لدينا.

كما في قضية سفاح يوركشاير بعد تسعين عامًا، كنا مقتنعين بأن الرسائل الساخرة إلى الشرطة كانت مكتوبة من قبل محتال، شخص آخر غير جاك «الحقيقي». إن نوع الفرد الذي ارتكب هذه الجرائم لن يكون لديه الشخصية اللازمة لتحدي الشرطة علنًا. يشير التشويه إلى وجود شخص مضطرب عقليًّا وغير لائق جنسيًّا مع قدر كبير من الغضب العام ضد النساء. كما أخبرنا أسلوب الهجوم الخاطف في كل حالة أنه غير لائق شخصيًّا واجتماعيًّا. لم يكن هذا الشخص الذي يمكن أن يتماسك لفظيًّا. أخبرتنا الظروف المادية للجرائم

أن هذا الشخص يمكن أن يندمج مع محيطه دون أن يسبب الشك أو الخوف لدى البغايا. سيكون وحيدًا هادئًا، وليس جزارًا مفتول العضلات، يجوب الشوارع ليلًا ويعود إلى زيارة مواقع جرائمه. مما لا شك فيه أن الشرطة كانت ستجري مقابلة معه في تحقيقها. من بين جميع الاحتمالات التي قدمناها، فإن كوزمينسكي يلائم الملف التعريفي بشكل أفضل بكثير من أي ملف تعريفي آخر. بالنسبة إلى المعرفة الطبية المفترضة اللازمة لتشويه الجثة والتشريح، لم يكن هذا في الحقيقة سوى مجزرة أولية. وقد تعلمنا منذ فترة طويلة أن القتلة المتسلسلين لا يحتاجون سوى إلى الإرادة لارتكاب كل الفظائع التي يريدونها على الجسد. إد جين، وإد كيمبر، وجيفري دامر، وريتشارد ماركيت -على سبيل المثال لا الحصر- لم يكن افتقارهم إلى التدريب الطبي ليعيقهم بأي حال من الأحوال.

بعد أن قدمت هذا التحليل، كان عليَّ الآن أن أتراجع عن تصريحي الأصلي موضحًا أنه من وجهة النظر هذه بعد مائة عام، لا يمكنني الجزم أن آرون كوزمينسكي كان هو «السفاح»، بل إنه كان ببساطة واحدًا من أولئك الذين أُعطوا لنا. لكن ما يمكنني قوله بدرجة عالية من الثقة هو أن جاك السفاح كان شخصًا مثل كوزمينسكي. في حالة إجراء هذا التحليل الاستقصائي الجنائي اليوم، فإن مدخلاتنا ستساعد الشرطة وشرطة سكوتلاند يارد على تضييق نطاق تركيزهما والتوصل إلى هوية المشتبه به مجهول الهوية. لهذا السبب أقول إنه وفقًا للمعايير الحديثة، ستكون هذه الحالة قابلة للحل تمامًا.

في بعض القضايا، تشير أساليبنا إلى نمط من المشتبه فيهم، لكن لا يمكننا الحصول على أدلة كافية لاعتقال وإدانة. مثل هذه الحالة كانت *«خنَّاق بي تي كيه BTK Strangler»* في ويتشيتا، كانساس، في منتصف السبعينيات.

بدأت القصة في 15 يناير 1974، بجريمة قتل في عائلة أوتيرو. تم تقييد جوزيف أوتيرو البالغ من العمر 38 عامًا وزوجته جولي وخنقهما بحبال ستارة. عُثر على ابنهما جوزيف الثاني، البالغ من العمر تسعة أعوام، مقيدًا في غرفة نومه، وكان هناك كيس بلاستيكي فوق رأسه. أما جوزفين، البالغة من العمر أحد عشر عامًا، فكانت معلقة من عنقها من أنبوب في سقف الطابق السفلي، مرتدية سترة وجوارب فقط. كل الأدلة تشير إلى أن هذا لم يكن عملًا انفعاليًّا مندفعًا. انقطعت خطوط الهاتف وتم نقل السلك إلى مكان الحادث.

بعد عشرة أشهر، تلقى محرر في إحدى الصحف المحلية مكالمة مجهولة توجِّهه إلى كتاب في المكتبة العامة. في الداخل كانت هناك ملاحظة من المشتبه به مجهول الهوية، تدعي المسؤولية عن جرائم قتل عائلة أوتيرو، ووعدت بالمزيد وموضحة أن «الكلمات الرمزية بالنسبة إليَّ ستكون: قيِّد bind، عذِّب torture، اقتل kill.» (بي تي كيه – BTK).

تلا ذلك العديد من عمليات قتل شابات في السنوات الثلاث اللاحقة، وبعد ذلك كشفت رسالة إلى محطة تلفزيونية محلية الكثير عن نفسية المشتبه به مجهول الهوية، الذي أعطى لنفسه لقبه الخاص بعناية: «كم عدد الذين يجب أن أقتلهم قبل أن يُنشر اسمي في الصحيفة أو أحظى ببعض الاهتمام الوطني؟»

في أحد اتصالاته المنشورة، قارن عمله بعمل جاك السفاح، ابن سام، وهيل سايد سترانجلر، جميعهم فاشلون غامضون أصبحوا مشاهير في وسائل الإعلام من خلال جرائمهم. أرجع أفعاله إلى «شيطان» و «العامل X»، مما أدى إلى تكهنات نفسية واسعة النطاق في الصحف حول شخصيته.

لكنه قام أيضًا بتضمين رسومات بيانية لنساء عاريات في أوضاع مختلفة من الربط والاغتصاب والتعذيب. لم يتم نشر هذه الرسومات البشعة، لكنها أعطتني صورة جيدة عن نوع الشخص الذي نبحث عنه. كان الأمر يتعلق فقط بتضييق نطاق المشتبه بهم.

مثل جرائم بطله جاك السفاح، توقفت جرائم بي تي كيه فجأة. في هذه الحالة، على الرغم من أنني أعتقد أن الشرطة أجرت بالفعل مقابلة معه، كان يعلم أنهم يقتربون منه، كان ذكيًا ومُحَنَّكًا بما يكفي للتوقف قبل جمع أدلة كافية. آمل أن نكون قد حيدناه على الأقل، لكن في بعض الأحيان يفوز التنين.

في بعض الأحيان يفوز التنين في حياتنا أيضًا. عندما يقتل قاتل شخصًا واحدًا، فإنه يسبب الكثير من الضحايا مع هذا الشخص. أنا لست الوحيد في وحدتي الذي يفقد إيقاع العمل بسبب المشكلات المتعلقة بالتوتر؛ بل على العكس من ذلك، أما حالات المشكلات الأسرية والنزاعات الزوجية فهي أكثر من أن تدفعك للقلق.

في عام 1993، انتهى زواجي من بام بعد 22 عامًا. من الوارد أن نقدم وجهات نظر متباينة حول ما حدث بيننا، لكن هناك أشياء معينة لا يمكن إنكارها. كنت بعيدًا لفترات طويلة حين كانت ابنتانا، إيريكا ولورين، تكبران.

عندما كنت في المدينة، كنت لا أزال مستهلَكًا بما كنت أفعله لدرجة أن بام شعرت غالبًا وكأنها أم وحيدة. كان عليها إدارة المنزل، ودفع الفواتير، وإحضار الأطفال إلى المدرسة، ومقابلة المعلمين، والتأكد من إنجاز الواجبات المنزلية، مع مواكبة مهنتها التعليمية الخاصة. بحلول الوقت الذي وُلد فيه ابننا، جيد، في يناير 1978، كان لدينا مختصون آخرون يعملون معي ولم أكن أقضي الكثير من الوقت على الطريق. لكن يجب أن أعترف: لدي ثلاثة أطفال رائعين ومحبين وفاتنين، ولا أعتقد أنني تعرفت عليهم جيدًا إلا قبل فترة وجيزة من تقاعدي من المكتب. لقد أمضيت الكثير من الوقت على مر السنين في التعرف على الضحايا من الأطفال المقتولين بحيث إنني قصرت في معرفة ما يكفي عن أطفالي الأحياء الرائعين.

في كثير من الأحيان كانت بام تأتي إليَّ مع بعض المشكلات الطبيعية البسيطة التي تتعلق بأحد الأطفال، مثل جرح أو خدش من السقوط عن دراجة، لكنني مع كل الضغط والإجهاد الذي شعرت به، نتذكر كلانا كم مرة كنت أصف لها الجثث المشوهة لأطفال في نفس العمر، ألم تدرك أن السقوط عن دراجة كان أمرًا طبيعيًّا ولا يكلف شيئًا؟

لا تحاول أبدًا تعطيل حساسيتك كليًّا تجاه الأشياء المروعة، لأنك ستجد نفسك تبني مناعة ضد أي شيء أقل من فظيع. ذات مرة كنت أتناول العشاء مع الأطفال بينما كانت بام تفتح علبة طعام في المطبخ. انزلقت السكين وجرحت نفسها بشدة، صرخت وهرعنا جميعًا مسرعين، ولكن بمجرد أن رأيت أن الإصابة لم تكن تهدد الحياة أو الأطراف، أتذكر كيف وجدت نمط تناثر الدم مثيرًا للاهتمام وبدأت في ربطه ذهنيًّا بأنماط تناثر الدماء في مشاهد القتل. كنت أمزح وأحاول نزع فتيل التوتر. بدأت في الإشارة إليها وإلى الأطفال كيف أننا نرى نمطًا مختلفًا في كل مرة تحرك فيها يدها، وكانت هذه إحدى الطرق التي يمكننا من خلالها معرفة ما حدث بين المهاجم والضحية. لكنني لا أعتقد أن البقية أخذوا الأمر بشكل عرضي كما فعلت.

أنت تحاول تطوير آليات دفاع للتعامل مع ما تراه في الوظيفة، ولكن يمكن أن ينتهي بك الأمر بسهولة إلى الظهور على أنك ابن ساقطة منعزل. إذا كانت عائلتك سليمة وكان زواجك متينًا، فيمكنك تحمل الكثير مما تواجهه في العمل. ولكن إذا كان هناك أي نقاط ضعف في المنزل، فإن عوامل الضغط

المختلفة يمكن أن تضخم كل شيء، كما نفعل بالضبط مع الأشخاص الذين نصطادهم.

انتهى بنا المطاف مع أصدقاء مختلفين. لم أستطع التحدث عما فعلته في دائرتها، لذلك كنت بحاجة إلى نمط ممن يشبهونني من حولي. وعندما كنا نتواصل اجتماعيًّا خارج دائرة المكتب أو دوائر إنفاذ القانون، غالبًا ما كنت أجد نفسي أشعر بالملل من المخاوف القديمة التي نوقشت. بقدر ما يبدو هذا باردًا، لكنك حين تقضي أيامك في الدخول إلى عقول القتلة، حينها يصبح التفكير في أين يضع الجار سلة المهملات أو اللون الذي يرسم سياجه، أمرًا غير مثير على الإطلاق.

يسعدني أن أقول (بعد وقت مرَّ فيه كلانا بفترة عصيبة عاطفيًّا) إنني وبام الآن صديقان حميميان. يعيش الأطفال معي (إيريكا سافرت للدراسة في الكلية)، لكننا، بام وأنا، نقضي معظم الأوقات معًا، وكلانا الآن يلعب دورًا متساويًا كأبوين. أنا ممتن لكون لورين وجيد ما يزالان صغيرين بما يكفي لأستمتع ببعض سنوات نشأتهما.

من موقع شخص وحيد في أوائل الثمانينيات كنت أشكل فيه طاقم العمل كله مكتب التحقيقات الفيدرالي بدوام كامل -بمساعدة وفق ما يسمح به وقت كل من روي هازلوود، وبيل هاجماير وعدد قليل من الآخرين- نمت الوحدة إلى أكثر من عشرة أشخاص. لا يزال هذا غير كافٍ للتعامل مع حجم القضايا التي نقدمها، ولكن من المحتمل أن تكون كبيرة بقدر ما نستطيع وما زلنا نحافظ على الاتصال الشخصي بعضنا مع بعض والإدارات المحلية التي أصبحت السمة المميزة لطريقة عملنا. التقى بنا العديد من رؤساء الشرطة والمحققين الذين استدعوا الوحدة لأول مرة في فصول الأكاديمية الوطنية. اتصل بي المأمور جيم ميتس للمساعدة في العثور على قاتل شاري سميث وديبرا هيلميك، كما دعت النقيب ليندي جونستون جريج ماكراري للمساعدة في تحديد من كان يذبح البغايا في روشستر لأنهما كانا من خريجي الأكاديمية الوطنية.

بحلول منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، تم تقسيم العلوم السلوكية إلى وحدة تعليم وبحوث العلوم السلوكية، والمجموعة التي عملت فيها كمدير برنامج التنميط الشخصي الإجرامي، ووحدة دعم العلوم السلوكية. القسمان الرئيسان الآخران إلى جانب قسمي في الدعم الاستقصائي هما VICAP، الذي

تولى مسؤوليته جيم رايت من بوب ريسلر، والخدمات الهندسية. كان روجر ديبيو رئيس قسم التعليم والبحوث، وكان آلان «سموكي» بيرجس رئيس قسم الدعم الاستثماري. (لا علاقة له بآن بيرجس، لكن زوجها آلن بيرجس، كان مؤلفًا مشاركًا لنا في دليل تصنيف الجرائم. هل هذا مفهوم؟)

نظرًا لأن وظيفتي كانت مرهقة وصعبة من نواحٍ كثيرة، فقد تمكنت من إنشاء مهنة بارزة ومُرضية لنفسي. لحسن الحظ، تمكنت من تجنب الخطوة التي لا بد، نظريًا، لأي شخص آخر يريد المضي قدمًا في المؤسسة أن يمر بها؛ الإدارة.

تغير ذلك في ربيع 1990. كنا نعقد اجتماعًا للوحدة عندما أعلن سموكي بيرجس أنه سيتقاعد من عمله رئيسًا للوحدة. لاحقًا اتصل بي نائب المدير المساعد الجديد، ديف كول، الذي كان مشرفًا على فريقي في ميلووكي وزميلًا من أعضاء فريق التدخل السريع، في مكتبه وسألني عن نياتي.

أخبرته أنني مرهق للغاية وسئمت من كل شيء، وأني كنت أفكر بالتقدم لوظيفة مكتبية في مجال الجريمة العنيفة وإنهاء مسيرتي المهنية بهذه الطريقة.

قال لي كول: «أنت لا تريد أن تفعل ذلك. ستفقد نفسك هناك. يمكنك تقديم مساهمة أكبر بكثير كرئيس للوحدة».

قلت له: «لا أعرف إن كنت أريد حقًا أن أصبح رئيس وحدة». كنت أقوم بالفعل بالعديد من وظائف رئيس الوحدة وأعمل كذاكرة مؤسسية لأنني كنت هناك لفترة طويلة. لكن في هذه المرحلة من مسيرتي المهنية، لم أرغب في الانغماس في الإدارة. كان بيرجس إداريًا ممتازًا، وبارعًا في إدارة التدخل حتى يتمكن من عملوا معنا من أداء وظائفنا بفعالية.

«أريدك أن تكون رئيس وحدة»، أعلن كول. إنه من النوع الديناميكي، المفعم بالطاقة والشرس.

قلت إنني أرغب في مواصلة النظر في القضايا، وإستراتيجيات المحاكمات، وشهادات المحكمة، والمحاضرات. هذا ما اعتقدت أنني أجيده. أكد لي كول أنني سأكون قادرًا على ذلك ورشحني لهذا المنصب.

كان أول عمل لي كرئيس للوحدة، كما قلت مرات عديدة، هو «التخلص من هراء الــ BS» من خلال التخلص من «العلوم السلوكية» في اسمنا وتسميتها،

ببساطة، وحدة دعم *التحقيقات*. أردت أن أعطي لعملائنا من الشرطة المحلية وبقية مكاتب إف بي آي رسالة واضحة حول من أين كنا، ومن أين لم نكن، آتين.

بفضل المساعدة والدعم اللامتناهي من روبرتا بيدل، التي كانت مسؤولة عن شؤون الموظفين، رفعت عدد موظفي VICAP من أربعة إلى ستة عشر. كبرت بقية الوحدة أيضًا، وسرعان ما وصلنا إلى نحو أربعين شخصًا.

لتخفيف بعض العبء الإداري الناجم عن حجمنا الجديد، قمت بتأسيس برنامج إدارة إقليمي يكون فيه العملاء الأفراد مسؤولين عن منطقة معينة من البلاد.

اعتقدت أن هؤلاء الأشخاص يستحقون جميعًا أن يكونوا من فئة GS-14، لكن المقر كان على استعداد فقط لمنحنا أربعة أو خمسة مواقع من فئة 14، لذا فقد جعلتهم يوافقون على أنه نظرًا لأن كل واحد منهم قد اجتاز برنامجًا تدريبيًّا متخصصًا لمدة عامين، فسيتم «تعيينهم» كخبراء ويتم الاعتراف بهم كموظفين خاصين إشرافيين مؤهلين للحصول على هذا التصنيف والأجر. تضمن البرنامج تدقيق جميع الدورات التعليمية في وحدة العلوم السلوكية بالأكاديمية الوطنية، وأخذ دورتين دراسيتين في معهد القوات المسلحة لعلم الأمراض، والعمل في الطب النفسي والقانون في جامعة فيرجينيا (كان بارك ديتز هناك في ذلك الوقت)، وحضور مدرسة جون ريد للتحقيقات، ودراسة التحقيق في الوفاة مع مكتب الطبيب الشرعي في بالتيمور، ومشاركة وحدات جرائم القتل في شرطة نيويورك، وكتابة الملفات التعريفية تحت إشراف أحد المديرين الإقليميين.

قمنا أيضًا بعمل دولي أكثر بكثير من أي وقت مضى. في العام الماضي، قبل تقاعده، على سبيل المثال، عمل جريج مكراري في جرائم قتل متسلسلة كبرى في كل من كندا والنمسا.

من الناحية الوظيفية، عملت الوحدة بشكل جيد. إداريًّا، أدرت العمل بانضباطية فضفاضة نسبيًّا، بما يتناسب مع شخصيتي. عندما أرى شخصًا ما يشعر بالإرهاق أو الاستنزاف، كنت ألتف حول القواعد واللوائح، أو أخرجه، أو أخبره بأخذ بعض الوقت في الإجازة. في النهاية سيكونون أكثر كفاءة مما لو جعلتهم يعملون وفقًا لكتاب القواعد. عندما يكون لديك أشخاص بارزون ولا يمكنك مكافأتهم بشكل نقدي، عليك مساعدتهم بطرق أخرى.

كما أنني كنت دائمًا على وفاق جيد مع فريق الدعم، وعندما تقاعدت، بدا لي أنهم يشعرون بالأسف الشديد لرؤيتي أرحل. ربما يعود هذا إلى خدمتي في سلاح الجو. كان العديد من القادة في المكتب ضباطًا عسكريين (وكثير منهم، مثل آخر عميل مسؤول، روبن مونتغمري، كانوا أبطال حرب حاملي أوسمة) لدرجة أنهم كانوا يقاربون الأمور من منظور الضباط.

لا حرج في ذلك، وستعمل المؤسسات الكبيرة بشكل أقل سلاسة إذا كان معظم المسؤولين مثلي. لكنني كنت مجندًا وكنت أتعاطف على الدوام مع الأشخاص الداعمين، لذلك كان من الأرجح أن أحصل على المساعدة التي أحتاج إليها أكثر من بعض الرؤساء الآخرين.

يفكر الكثير من الناس في إف بي آي بالطريقة نفسها التي اعتادوا التفكير بها في شركة آي بي إم IBM: منظمة بيروقراطية ضخمة من رجال ونساء لامعين وبارعين، على الرغم من قابليتهم للتبديل، جديون مفتقدون للفكاهة يرتدون قمصانًا بيضاء وبذلات داكنة. لكنني كنت محظوظًا بما يكفي لأن أكون جزءًا من مجموعة صغيرة من الأفراد الفريدين حقًا، كل منهم له مكانة بارزة في حد ذاته. مع مرور الوقت وتزايد دور العلوم السلوكية في إنفاذ القانون، طورنا جميعًا بشكل طبيعي اهتماماتنا الخاصة ومجالات خبرتنا.

منذ الأيام الأولى لدراستنا، تابع بوب ريسلر البحث بينما كرست نفسي للجانب العملياتي. روي هازلوود هو الخبير في الاغتصاب والقتل بدافع الشهوة. كين لانينج هو المرجع الرئيسي في الجرائم المرتكبة ضد الأطفال. بدأ جيم ريس في التنميط لكنه وجد مساهمته الكبيرة في مجال إدارة الإجهاد والتوتر لضباط الشرطة والعملاء الفيدراليين. حاصل على شهادة دكتوراه، موجود في الميدان، وقد كتب على نطاق واسع، وسعى بعد ذلك لقدرته على تقديم المشورة في جميع أنحاء مجتمع إنفاذ القانون. بمجرد انضمامه إلى الوحدة، لم يقم جيم رايت بتدريب المحللين التنميطيين الجدد فحسب، بل أصبح أيضًا السلطة الرائدة في الملاحقة، وهي واحدة من أسرع الجرائم الشخصية نموًا. طور كل واحد منا العديد من العلاقات الشخصية مع المكاتب الميدانية، وإدارات الشرطة، ومكاتب المأمور، والوكالات الحكومية في جميع أنحاء البلاد بحيث عندما يطلب شخص ما المساعدة، فهو يعرف ويثق بمن يتحدثون.

إنه أمر شاق في بعض الأحيان بالنسبة إلى الأشخاص الجدد الذين يدخلون الوحدة، ويحاولون الاندماج مع كل هؤلاء «النجوم»، وبخاصة بعد ظهور فيلم صمت الحملان *The Silence of the Lambs* وذلك الاهتمام الوطني الكبير الذي تركز على ما نفعله. لكننا نحاول أن نؤكد لهم أن سبب اختيارهم هو شعورنا أن لديهم ما يلزم ليكونوا أعضاء كاملين ومتساوين في الفريق. جميعهم يأتون من خلفيات تحقيقية قوية، وبمجرد أن يصبحوا معنا، نضعهم خلال عامين كاملين من التدريب في أثناء العمل. أضف إلى ذلك ذكاءهم وحدسهم واجتهادهم ونزاهتهم وثقتهم بأنفسهم، جنبًا إلى جنب مع قدرة متساوية على الاستماع إلى وجهات نظر الآخرين وتقييمها. من وجهة نظري، أحد الأشياء التي جعلت أكاديمية إف بي آي المؤسسة الأولى من نوعها في العالم هو أنها تتكون من أفراد، كل منهم يسعى لتحقيق اهتماماته ومواهبه لتحقيق هدف مشترك، وكل من هؤلاء الأفراد، بدوره، يشجع نفس الصفات والخصائص في الآخرين. آمل وأثق في أن النظام الجماعي والداعم المتبادل الذي أنشأناه في الوحدة سوف يستمر بعد تقاعدنا كجيل أول.

في عشاء تقاعدي في كوانتيكو في يونيو 1995، كان لدى الكثير من الناس أشياء لطيفة ليقولوها عني، وهو ما وجدته مثيرًا للتواضع والتأثر كثيرًا. بصراحة كنت مستعدًّا لـ «حفل شواء» حقيقي، إذ اعتقدت أن كل أفراد فريقي سيستغلون هذه الفرصة الرسمية الأخيرة لأن يصرحوا أخيرًا بكل شيء سلبي كانوا يحملونه تجاهي. صادفت جود راي في غرفة الرجال بعد ذلك، وكان يعرب بالفعل عن أسفه لفراقي. وبمجرد أن فوتوا فرصتهم وحان دوري للتحدث، لم أشعر بأي التزام لكبح جماح نفسي والتخلي عن كل الضوابط التي سلحت نفسي بها استعدادًا لما سيقولونه. لم يكن لدي أي حكمة خاصة أو نصيحة جادة لنقلها في تلك الليلة؛ آمل فقط أن أكون قد تمكنت من تقديم نموذج مؤثر من خلال ما كنته.

منذ تقاعدي، عدت إلى كوانتيكو للتدريس والعمل الاستشاري، يعلم زملائي أنني متاح دائمًا لهم. أستمر في إلقاء المحاضرات والتحدث كما كنت دائمًا، مع إعطاء منظور خبرتي التي امتدت لخمسة وعشرين عامًا في الخوض في عقل القاتل. لقد تقاعدت من الـ إف بي آي، لكن لا أعتقد أنني سأتمكن من إيقاف ما تدربت على فعله. لسوء الحظ، فإن صناعتنا هي صناعة نامية إلى حد كبير، ولن ينفد العملاء أبدًا.

يسألني الناس كثيرًا حول ما الذي ينبغي فعله حيال إحصائياتنا الرهيبة عن جرائم العنف. في حين أن هناك بالتأكيد أشياء عملية يمكن وينبغي القيام بها، أعتقد أن الفرصة الوحيدة لحل مشكلة الجريمة لدينا هي إذا كان هناك عدد كافٍ من الناس يريدون ذلك. إن وجود المزيد من الشرطة والمزيد من المحاكم والمزيد من السجون وتقنيات التحقيق الأفضل هو أمر جيد، لكن الطريقة الوحيدة التي ستنخفض بها الجريمة هي إذا توقفنا جميعًا عن قبولها والتسامح معها في عائلاتنا وأصدقائنا وشركائنا. هذا هو الدرس المستفاد من بلدان أخرى ذات أعداد أقل بكثير من بلدنا. هذا النوع فقط من الحلول الشعبية، في رأيي، سيكون فعالًا. الجريمة مشكلة أخلاقية، لا يمكن حلها إلا على المستوى الأخلاقي.

في كل سنواتي من البحث والتعامل مع المجرمين العنيفين، لم أصادف قط أي شخص جاء مما يمكن أن أعدَّه خلفية جيدة ووحدة أسرية وظيفية وداعمة. أعتقد أن الغالبية العظمى من المجرمين العنيفين مسؤولون عن سلوكهم، وقد اتخذوا خياراتهم، ويجب أن يواجهوا عواقب ما يفعلونه. من السخف أن نقول إن شخصًا ما لا يقدِّر جدية ما فعله لأنه يبلغ من العمر أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا فقط. في الثامنة، كان ابني جيد يعرف منذ سنوات التمييز بين ما هو صائب وما هو خاطئ.

لكن خمسة وعشرين عامًا من المراقبة أخبرتني أيضًا أن المجرمين «يُصنَعون» أكثر مما «يولدون». ما يعني أنه في مكان ما على طول الخط، كان من الممكن أن يقدم الشخص الذي له تأثير سلبي عميق تأثيرًا إيجابيًّا عميقًا بدلًا من ذلك. لذلك فإن ما أؤمن به بحق هو أنه إلى جانب المزيد من الأموال والشرطة والسجون، فإن أكثر ما نحتاج إليه هو المحبة. هذا لا يعني التبسيط، بل إنه في صميم القضية.

منذ وقت ليس ببعيد، دُعيت للتحدث أمام فرع نيويورك لكُتاب الغموض في أمريكا. كان الحضور جيدًا وكان الاستقبال دافئًا ووديًّا. كان هؤلاء الرجال والنساء الذين كسبوا لقمة عيشهم من كتابة قصص عن القتل والتشويه مهتمين بشدة أن يسمعوا من شخص عمل على آلاف القضايا الحقيقية.

في الواقع، منذ توماس هاريس و*صمت الحملان*، كان الكتاب والصحفيون والمخرجون يأتون إلينا من أجل «القصة الحقيقية».

لكن ما أدركته سريعًا عندما ربطت تفاصيل بعض القضايا الأكثر إثارة للاهتمام هو أن العديد من الأشخاص بين الجمهور كانوا يفقدون تركيزهم وينشغلون. لقد باتوا يشعرون بالاشمئزاز لسماع الأشياء التي رأيتها أنا ورفاقي يوميًّا. لاحظت أنه ليس لديهم أي اهتمام بسماع التفاصيل، في الوقت ذاته الذي بدت عليهم فيه علامات من لا يريد الكتابة عن الأحداث كما لو أنها حصلت بالفعل. هذا عادل بما فيه الكفاية. إذ لكل منا عملاؤه.

لا يفوز التنين دائمًا، ونحن نفعل كل ما في وسعنا لنرى أنه يفوز بنسبة أقل وأقل. لكن الشر الذي يمثله، الشيء الذي واجهته طوال مسيرتي المهنية، لن يختفي، ويجب على شخص ما أن يروي القصة الحقيقية. هذا ما حاولت القيام به هنا، كما عشته تمامًا.

شكر وتقدير

هذا الكتاب نتاج جهد جماعي صرف. ولم يكن من الممكن إنجازه لولا الموهبة والتفاني الكبيران من كل واحدٍ من أفراد الفريق، ومن بينهم، بشكل رئيسي، محررتنا ليزا درو، ومنسقة مشروعنا و «المنتجة التنفيذية» (وزوجة مارك)، كارولين أولشاكر. اللتان شاركتانا، منذ البداية، رؤيتنا وقدمتا القوة، والثقة، والمحبة، والمشورة الحسنة التي كانت خير عون لنا خلال جهدنا لتحقيق ذلك.

نقدم امتناننا وإعجابنا الكبيرين بالتساوي، لآن هينجان، باحثتنا الموهوبة؛ ماريسو روتشي، مساعدة ليزا المتمكنة والدؤوب وصاحبة الروح المبهجة دائمًا. ولوَكيلنا جاي آكتن، الذي كان أول من استبصر إمكانية ما كنا نبتغي فعله ثم ساهم في جعل ذلك يتحقق.

شكرنا الخاص لوالد جون؛ جاك دوجلاس، على ذكرياته، ولتوثيقه الدقيق لمسيرة ابنه المهنية، جاعلًا الأمر يسيرًا. ولوالد مارك؛ الدكتور بينيت أولشاكر، على كل توجيهاته الناصحة بشأن مسائل تتعلق بالطب الشرعي والطب النفسي. إننا محظوظان للغاية بامتلاكنا العائلات التي لدينا، بكل محبتهم لنا، وسخائهم معنا دائمًا. أخيرًا، نود أن نعبِّر عن تقديرنا، وإعجابنا وشكرنا العميق لزملاء جون كافة في أكاديمية إف بي آي في كوانتيكو، فشخصياتهم ومساهماتهم هي ما جعلت السيرة المهنية الموثّقة في هذا الكتاب ممكنة.

لهذا، فإن الكتاب مُهدى لهم جميعًا.

جون دوجلاس ومارك أولشاكر...

يونيو 1995

مكتبة
t.me/soramnqraa

"يتعــاون دوجــلاس، الــذي طــور تقنيات التنميــط الجنــائي لمكتب التحقيــقات الفيــدرالي (FBI)، مــع الروائـي أولشـاكر لينقـل لنـا حصيلـة مسيرته المهنية التي استمرت ٢٥ عامًا في تعقب القتلة المتسلسلين".

- بابليشرز ويكلي

telegram @ soramnqraa

جون دوجلاس

عميـل خـاص سـابــق بمكتــب التحقيقـات الفيدراليـة (FBI) ، ويعدّ رائـد التنميـط الجنائـي وأحـد مبتكـري الدليل المرجعي في تصنيف الجرائم. يعمــل حاليًّا مســتشارًا في تحليل التحقيقـات الجنائيــة. وهـو، رفقـة مـارك أولشــاكر، مــؤلف الكتــب التاليـة: «رحلـة في الظلام»، «تحليل الدافــع»، «القضــايا التــي تسكننا» و«القانون والفوضى» من بين كتب أخرى عديدة.

مارك أولشاكر

روائـي وكاتـب وصــانع أفـلام حائـز علــى جائـزة «إيمــي». كتـب وأنتـج العديـد مـن الأفـلام الوثائقيـة، مـن ضمنهـا برنـامـج «عـقـل القـاتـل المتسلسل» من السلسلة الوثائقية PBS Nove، الـذي رُشـح لجائـزة الـ «إيمي» المرموقة.

telegram @soramnqraa

صائد الأفكار

خلال مسيرته المهنية التي استمرت خمسة وعشرين عامًا مع وحدة الدعم الاستقصائية، أصبح العميل الخاص جون دوجلاس رمزًا أسطوريًّا بما يتعلق بتطبيق القانون، عبر ملاحقته بعضًا من أكثر القتلة المتسلسلين شهرةً وساديّة في عصرنا: الرجل الذي طارد البغايا بغية اللهو في غابات ألاسكا، قاتل الأطفال في أتلانتا، وسفاح "جرين ريفر" في سياتل؛ القضية التي كادت أن تكلف دوجلاس حياته.

وعلى نهج جاك كراوفورد في الفيلم الشهير «صمت الحملان» The Silence of the Lambs، فإن دوجلاس واجه، وقابل، ودرس العشرات من القتلة المتسلسلين والسفاحين، -ومن ضمنهم تشارلز مانسون، وتيد بندي وإيد غاين- الذي ألبس نفسه جلد ضحيته المسلوخ؛ مستخدمًا قدرته الغريبة والمثيرة للتعجب في أن يصبح المفترس والفريسة في الآن ذاته. يفحص دوجلاس كل موقع جريمة، ويستعيد في ذهنه حركات كلّ من القاتل والضحية، صانعًا ملفاتهم الشخصية، واصفًا عاداتهم، ومتوقعًا تحركاتهم التالية.

الآن، وبتفاصيل تقشعر لها الأبدان، يأخذنا «صائد الأفكار» Mindhunter الأسطوري وراء كواليس بعض أكثر حالاته بشاعة وإدهاشًا وتحديًا – ويدخلنا الأعماق الحالكة لأكثر كوابيسنا سوءًا.

تصميم الغلاف: محمود هشام

9 789776 902831

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb